تراجم

سيدات بيت النبوة

رضي الله عنهن

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

أستاذ الدراسات القرآنية العليا
بجامعة القرويين - المغرب

تراجم
سيدات بيت النبوة

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
القاهرة

يطلب من

دار الريان للتراث

القاهرة : ١٧٧ شارع الهرم - ت : ٥٣٦٥٩٩
مصر الجديدة : ٢٢ شارع الأندلس - خلف المريلاند - ت ٢٥٨٢٠١٤
الاسكندرية : سيدى بشر - طريق الكورنيش - برج رمادا - الدور الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

* إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا *

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

مع يقظة الفكر العربي الإسلامي ، وحرص أبناء الأمة على عناصر شخصيتهم الأصيل بعد ليلٍ طويل تعرضتْ فيه لذرائع المسخ والتشويه ، والفتنة والاستهواء...

رأت (دار الكتاب العربي) من واجبها أن تسهم في هذه اليقظة قدر ما وسعها الجهد ، وأسعفت الظروف. فحاولت أن تلتزم شعارها : «النشر رسالة» فيما نشرت من ذخائر التراث الإسلامي وبحوث المفكرين العرب ، يرجى أن تكون قد سدت فراغا في المكتبة العربية الإسلامية.

*

وتعتز الدار بأن تقدم اليوم ، سفرا نفيسا جامعا لتراجم سيدات بيت النبوة رضي الله عنهن ، تصنيف الكاتبة العربية الأولى والباحثة الإسلامية الحجة «الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، بنت الشاطئ» وذلك بعد أن قدمت هذه التراجم في خمسة كتب مستقلة :

الأول : كتاب «أم النبي» عليه الصلاة والسلام. وهو كتاب غير مسبوق بآخر في موضوعه ، في المكتبة العربية والإسلامية. وقد صحبتْها الدراسة المحققة ، في : بيئتها وميراثها ، وبلدها أم القرى والبيت العتيق ، وزواجها من «عبد الله بن عبد المطلب» زين الشباب الهاشمي ، وحملها ، وترملها ، ووفاتها ، وأمومتها الخالدة لسيد البشر الذي نراه في هذه الدراسة لأمه : ابناً باراً ، يضع الجنة تحت أقدام الأمهات.

الثاني : كتاب «نساء النبي» ﷺ ، ترجمت فيه لأمهات المؤمنين رضي الله

عنهن، بما يجلو ملامح شخصياتهن، وحياتهن في البيت الكريم، سكن المصطفى ﷺ، وملاذه ومأواه.

بقدر ما اجتلت فيه شخصيته عليه الصلاة والسلام، زوجا قدوة وبشرا رسولا.

الكتاب الثالث: «بنات النبي» ﷺ: في بيتهن الأول، ثم في الحياة الزوجية لكل منهن، ومن خلال هذا العرض الدقيق لسيرتهن وشخصياتهن، تجلت شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام، مثلا أعلى في أبوته لبنات أربع، وُلِدْنَ جميعا قبل المبعث، في بيئة وأَدَت البنات، وفُتِنتْ بالبنين.

وبهذه الكتب الثلاثة. أوفت الباحثة الكبيرة تقديم هذا الجانب من سيرته ﷺ: ابناً بارا وزوجا قدوة وأباً رسولا.

ثم تابعت ميراثه الطيب في:

الكتاب الرابع: «السيدة زينب عقيلة بني هاشم» بنت الإمام علي كرم الله وجهه، من أمٍّ أبيها الزهراء رضي الله عنها. فصحبتْها في حياتها الحافلة، من مهدها في البيت النبوي، وزواجها من «عبد الله بن جعفر الطيار» رضي الله عنهما، ومع أبيها الإمام علي في مشاهده وبلائه بالفتنة الكبرى. ثم مع أخيها الإمام الحسين في رحلة الموت إلى كربلاء، ومشهدها مصرعه ومصارع آلها، آل النبي ﷺ، على الساحة المشئومة، ثم في موكب الأسرى والسبايا من بنات النبي، وموقفها المشهود الذي أرّق ضمير أمته إلى اليوم.

والكتاب الخامس: «السيدة سكينة بنت الإمام الحسين»، رضي الله عنها. صحبتها فيه، من طفولتها المرحة في بيت أبيها الإمام، وفي دوامة الأحداث الشرسة التي بلغت ذروتها الفاجعة يوم الطف. ثم في حياتها الزوجية والاجتماعية، أديبة ناقدة. وهي الحياة التي راجت فيها مقولات ظالمة ضالة، لم تصح في منطق ولا في تاريخ.

* * *

وقد استوعبت الباحثة العالمة، ما في أصول المصادر والمراجع من مرويات شتى، وقابلت بينها على أدق الموازين النقدية للتوثيق والترجيح. حتى تم لها استصفاء ما صح منها لمادة هذه الكتب الخمسة، وهي تقدر حق التقدير ما لموضوعها من مهابة وجلال، وتدرك أتم الإدراك، ما ينبغي لمثلها من حرمة الكلمة وأمانة العلم.

كما عرضت على ما صح لها من المادة التاريخية الموثقة، مفتريات متعصبي المستشرقين وتلاميذهم المفتونين، فكشفتْ عما شابَها من عثرات التعصب وزيغ الهوى وخلل المنطق.

* * *

وما بنا حاجة الى أن نشيد بما هو مشهود للأستاذة الحجة، من أمانة وتقوى وأصالة، وصحة المنهج والصبرُ على تكاليفه الصعبة، وعلم بالإسلام والعربية، رواية ودراية، مع أسلوبها الفريد المميز، وبيانها العالي الملهم.

كما لا نحتاج إلى تزكية هذه التراجم الفذة لسيدات بيت النبوة رضي الله عنهن، فقد لقيت كتبها الخمسة من تقدير القراء الصفوة، ما جعل طبعاتها تتوالى تباعاً، في نصها العربي المُشرِق، وفي ترجماتها إلى اللغات: الفارسية والأُردية والإيندونيسية واليابانية...

فلندعُ الله أن يبارك لأمتنا في عالمتها الحجة القدوة، وأن يثيبها على جهادها الشاق النبيل في خدمة العلم وطلابه، وتنقية المناخ الفكري المعاصر من شوائب البدع وباطل المفتريات ومدسوس الإسرائيليات التي تعقبتْها بالنظر الثاقب والبصيرة النيرة، ونقضتْها بالدليل الساطع والحجة الدامغة، تبتغي بذلك كله مرضاة الله، وخدمة الإسلام وأمته، والقيام على أمانة العلم الذي بذلت له نفسها راضية مرضية.

الناشر

في هذا المجلد الجامع

الكتاب الأول

أمّ النبيّ

(عليه الصلاة والسلام)

أمّ النبيّ

بهان

(عليهِ الصَّلاة والسَّلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

«إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

مناجاة

أماه «آمنة»...

ما تلوتُ من وحي السماء إلى وحيدك الحبيب، حديثه الجهير عن بشريَّته:

«إنما أنا بشرٌ مثلكم...»،

«سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولا»،

إلا ذكرتُ أن نبينا، المصطفى، ﷺ، هو الانسان الذي حملتِه جنيناً في أحشائك، ووضعتِهِ كما تضع كل أنثى من البشر...

ولا تدبرتُ معنى قوله تعالى لابنك الخالد:

«وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً»،

إلا تنبهت إلى أن هؤلاء القادة الرسل أمهاتٍ، وأن المرأة التي أنجبت البطل في كل صورة، وفي كل حين، هي التي قامت عن «عيسى بن مريم» كلمة الله التي ألقاها إلى العذراء المصطفاة، وهي التي ولدت خاتم النبيين عليهم السلام.

وهذا صوت وحيدك يملأ الزمان على مر الآباد:

«إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» فيحقر كبرياء الأباطرة والملوك، ويسمو بأمومتك إلى أفق لا يتطاول إليه ترف الغنى ولا شموخ الجاه، إذ يجعل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة، والأم الطيبة الرءوم، مبعث أنسه، وروح إنسانيته، وآية محبته، وموضع إجلاله واعتزازه.

أماه «آمنة»...

هو أبداً مجد الأمومة الذي خلّد واهباتِ الحياة على الدهر، وصانعات التاريخ منذ الأزل وإلى الأبد، وقد توَّجكِ وحيدُك العزيز بتاج سماوي من هذا المجد الأزلي الأبدي، حين قال:

«الجنَّة تحت أقدام الأمهات».

وهو أبداً فخر الأنوثة التي حَمَت سرَّ الوجود في هذا الكون، وحفظت حياة الانسانية في هذه الدنيا، وحملت أجنَّة البشرية وهْناً على وهن، فأي شعور غامر كان يملأ قلب ولدك، حين قال لمن سأله عن أحق الناس بإكرامه: أمك... ثم أمك... ثم أمك، ثم... أباك؟! وحين جاءه أحد أصحابه يبتغي أن يخرج مجاهداً معه ابتغاء وجه الله واليوم الآخر، فلما عرف الرسول أن أمه حية، قال له: ويحك! الزم رِجْلَها فَثَمَّ الجنة!..

أماه «آمنة»...

عن مجد الأمومة فيك وعزة الأنوثة، جئت أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التي جادت على الإنسانية بوليد وحيد، حملت الملايين رايته في أرجاء الأرض على مرٍّ الزمن...

يتيم، اعتز به الآباء الصِيد والأصولُ الأمجاد...

فقير، حَيِيتْ باسمة الدُّنَى وفاضت الخيرات.

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه، لو أنكِ كنت ملكة متوجة، أو فارسة بطلة، أو عالمة مبتكرة، أو زعيمة قائدة، ثم لم تلدي «محمداً: رسول الله» ﷺ.

وأي عمل لك يا أماه أجل وأمجد، من أنكِ كنت المنجبة لهذا القائد المصطفى؟

وهأنذي أقف خاشعة أمام سيرتك، وقد حفَّت بها من أمومتك أضواء باهرة

السنا ، فيكاد جلالك يثنيني عن إطالة النظر إليك ، والحديث عنك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد » الذي أَعَزَّ البشرية بتقرير أنه بشر رسول ، فوجّهنا بهذا إلى آيةِ عظمتك وسر خلودك...

المبحث الأول

سيّدة الأمّهات

- هذه السيرة ومصادرها
- أنوثة وأمومة
- أمهات الأنبياء

عليهم السلام

هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة في درس سيرة السيدة «آمنة» وأنا أعي أتم الوعي ، نقصَ المصادر والمرويات عن تلك الأم المنجبة ، لكني قدَّرتُ أني إنما أُحدث عن والدة الرسول العظيم ، وأم المصطفى الذي هو في حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثَم مضيت ألتمس ملامحها ، في صورة ابنها العظيم الذي آوته أحشاؤها ، وغذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان «محمد» هو الأثر الجليل الذي خلفته «آمنة» ، فليس بعجيب أن أراها في ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمي لها يجلوه تدبري سيرةَ ولدها العظيم .

فهذا الحديث عن «آمنة بنت وهب» يتخذ من شخصية ابنها مصدراً هاماً نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركتْ فيه من أثر واضح ، وما نقلت إليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل في أصلابهم جيلاً بعد جيل ، وما حملتْه إليه من خصائص الأُرومات الأولى التي اعتز بالانتساب إليها في مثل قوله عليه الصلاة والسلام ، إن الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشاً من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار.

أو قوله :

«أنا ابن العواتك من سُلَيم» .

* * *

ثم كان إلى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء «آمنة» وأجدادها

نساء ورجالاً ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التي نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، وما اطمأن إليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الأصول و مجرى الوراثة ، وفي هذا كله ما يجلو شخصية «آمنة» كما عرفتها دنياها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها...

ذلك أن «آمنة» عطاء بيئة ووراثة ، قد جرت في عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتْها العوامل التي تركت طابعها الخاص في كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان.

من ثمَّ ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الأصيلة الممتدة في أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها وسجاياها في الهواء الذي تنفسته والجو الذي عاشت فيه ، فإذا لديه تفسير مقبول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أُم الرسول الكريم الذي تقررت بشرية الرسل أصلاً من أصول الرسالة المبعوث بها. وما كان ﷺ ، بالذي يرضيه أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، ولا أن يضاف إليها ما يشذّ بها عن سنة الله التي فطر الناس عليها ، أو تُلوَّن شخصيتها بما يجعل ولدها كائناً عجيباً لم ينْمِه عرق ، ولا أمدَّه أصل ، ولا غذّته وراثة ، ولا نهضت به بيئة...

* * *

على أني حين مضيت في تتبع الأصول البعيدة لآمنة ، ولمحِ المشخصات الواضحة لدنياها ، ألفيتُ إلى جانب ما يطمئن إليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشداً من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هي من واديه... آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، إذ يرون فيها طابع الخيال وظلَّ الوضع. وفاتهم أن ينتبهوا إلى دلالتها الاجتماعية التي لا تكذب ، والتي تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادي من عالم نفسي ، وتُكمل ما تتركه الأخبار من ثغرات في فهم طبيعة المجتمع.

تلك الآثار، هي ما خلفه لنا قوم رأوا في السيدة «آمنة» صورة الكمال المطلق لأم رسول، فتحدثوا عنها بوحي من قلوبهم الصافية، ودافع من وجدانهم المؤمن، ما كذبوا في ذلك ولا مانوا، ولا خدعوا ولا خانوا...

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجي، وراء دنيا الوجدان، وبعيداً عن عالم القلوب، ودون أفق الحب والإيمان. ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك، مما يقال هنا بإملاء العقل والواقع، أو يقال هناك بلسان العاطفة والإيمان...

وكذلك يلتقي العلم والفن، لا يَعْدُوَانِ على حقيقة ولا يجوران على صواب ولا يُتَّهمان بكذب، فإذا قال الدارس عن «آمنة» ما قال، مستنبئاً الوراثة، مستلهماً البيئة، متتبعاً المؤثرات والآثار في الأصول والفروع، فهو محق صادق غير مُتَّهَم...

وإذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الواثق ما قال، بلسان الوجدان، مفسراً بذلك ما يشعر به من عظمتها، معبراً عن صورتها عنده، وحقيقتها في وزنه، وجوهرها في قلبه، فهو صادق محق كذلك، لا يسيء إلى الواقع التاريخي في شيء، لأنه ليس من أهل هذا الواقع، بل هو يُحَدِّث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة، وما عشق من بطولة، وما أحس من الانفعال بجمالٍ تراه بصيرته، وجلال يهز مشاعره، وتلك دنياه لا يشركه فيها غيرُهُ ممن ليسوا من معدنه، ولا هم بمُيَسَّرين للعروج إلى آفاق عالمه الوجداني المشرق، مهما تتسع وتمتد، أو تبعد وتترامَ...

* * *

وأحسبني بهذا القول، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا، من عنايتي البالغة بكل ما قيل عن السيدة «آمنة»: لم أقتصر في ذلك على الخبر التاريخي الثابت، بل لم يكن اهتمامي به أكثر من اهتمامي بمرويات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فَيَجِم، أو يسمعها المؤرخ بأذُن التحقيق فيبرم، وينسيه عالمه الواقعي ما وراءه من

عوالم أخرى لأناس آخرين، قد تمثلوا شخصية «أم الرسول» كما شاءت قلوبهم المحبة، وكما صورتها لهم رؤاهم الملهَمَة في تأملاتهم الروحية. فقدموا لنا بذلك كله، صورة «آمنة» في نفوسهم، وأعطونا تفسيرا وجدانيا صادقا للحياة كما فهموها، وعانوها...

وما أحسب المؤرخ الذي وهب حياته كلها للدرس المحقق، يستطيع أن يجرد شخصية «آمنة» من كل هذا، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم، من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها إليها، وكيف تَمثَّلها أبناء جيلها، ثم كيف تنقلت صورتها عبر القرون والعصور والأجيال...

فأنباء «آمنة» في زوجيتها، وحملها، ووضعها، وأمومتها - تلك الأنباء التي يحسبها بعض المحدثين من أساطير الأولين - تصور للمؤرخ حياة هذه الأم في نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها، وبهذا التصوير، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها، وتحليلهم النفسي لشخصيتها... وأنّى لمؤرخ أن يستغني عن ذلك فيما يعاني من تاريخ محقق؟

* * *

وأراني الآن قادرة على أن أبسط منهجي في فهم سيرة «آمنة بنت وهب» بعد أن هيأتُ القارئ لفهم هذا المنهج: لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها، وتتبع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية، وحياة المرأة حينذاك، لأجد من ذلك ما يطمئن إليه الحق التاريخي في حياة «آمنة بنت وهب».

وثاني الأمرين مما عمدت إليه في هذه السيرة، هو ما يحلو لكثير من الدارسين - وبخاصة الأجانب - أن يسموه أساطير وأقاصيص، ذلك أني وجدت في تلك الأساطير، صورة أحداث التاريخ في نفوس الذين عاشوا في بيئة أم الرسول، أو اتصلوا بها وتمثلوها. وكان هذا الفهم النفسي للأحداث، معيناً لي على تبين شخصية «آمنة» وتقديرها تقديراً يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها... كما كان الذي رووه من أحلام «آمنة» ورؤاها، أو تصوروه من أمانيها وآمالها، صوراً نفسية بشرية،

تمثلها المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتاريخ الحق ، وإن أخذت أحيانا طابع الخيال المجنح ، والسرد القصصي الذي لا أراه يجور على الحقيقة بحال.

بل هي في نظر العلم ، محكومة بالمنهج الإشراقي الذي لا يستغني عنه التفسير التاريخي ، إلا أن نجرد الحياة الإنسانية من وجدانها ، ونمسخها مادة جامدة ، عمياء البصيرة صماء القلب ، معطلة العواطف والضمير...

* * *

أنوثة وأمومة

«أنا ابن العواتك من سُليم»
(حديث شريف)

لا نرى أن نمضي في الحديث عن كُبرى صانعات التاريخ قبل أن نلم بمكانة الأم في الجزيرة إلى عهد «آمنة».

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة في الجاهلية قد كانت – في خير حالاتها – متاعاً للرجل، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الإسلام. وعلى الرغم مما نُقل إلينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية في الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين والقرون، إلا أن تلك الأخبار لم تدع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التي تتحدث عن وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء إلى الأبناء، وما إلى ذلك من مظاهر الضعة والهوان.

* * *

ولا نقول إننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية في تلك العصور القديمة، فالحق أن المؤرخين الأئمة والرواة القدامى لم يضنوا عليها بتدوين ما تناقلته الأخبار من مآثرها... وكل عملنا هنا، أن نختار من ذاك الذي دوَّنوه، بعض ما يصحِّح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة العربية قبل الاسلام، وأن نضع إلى جانب المرويات المشهورة عما لحق بها من ظلم وعسف وهوان، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة،

وعزتها التي صِينت بالدماء وافتُدِيت بالمهج والأرواح...

وبعنينا هنا بوجه خاص، ما اختص بالأمومة أوكان منها بسبب، لنلتمس منه ضوءاً يكشف عما لـ«آمنة» من فضل في إنجاب خاتم الرسل النبيين عليهم السلام، وما كان لها من أثر في تكوين ولدها الخالد الذي قال معتزاً بأمهاته في الجاهلية:

«أنا ابن العواتك من سليم».

* * *

يَلفت الذي يتصل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة، حرص العرب في جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول. قال حكيمهم «أكثم بن صيفي»:

«لا يفتننكم جمالُ النساء عن صراحة النسب، فإن المناكح الكريمة مَدرَجة الشرف».

وقال شاعرهم[1]:

وأولُ خُبثِ الماء خبثُ ترابه ... وأولُ خبثِ القوم خبثُ المناكح

ونقل «أبو عمرو بن العلاء» – الراوية الصدوق الحجة، وأحد السبعة القراء الأئمة – عن أحدهم، قال:

«لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها». قيل له: «كيف ذاك؟» قال: «أنظر إلى أبيها وأمها فإنها تجرُّ بأحدهما».

وقال قائلهم لبنيه:

«قد أحسنت اليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا». قالوا: «وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟». فأجاب: «اخترت لكم من الأمهات من لا تُسَبُّون بها»[2]

(١) ابن قتيبة: عيون الأحبار: ٣/٤ ط دار الكتب.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ٣/٤.

ومثله ما أنشده الرياشي لبنيه :

وأول إحساني اليكم تخيُّري لماجدةِ الأعراق بادٍ عفافها

ولعل هذا الحرصَ منهم على كرم النسب ، يفسر لنا كراهتهم للسباء :

حدثوا أن «فاطمة بنت الخرشب» رمت بنفسها من الهودج حين أُسِرت ، فماتت لساعتها وهي تردد المثل :

«المنيةُ ولا الدنية» .

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها الأسر ومعرَّته . من ذلك ما رووه من أن رجلاً من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوماً : «أزِرْني أهلي ليذهب عني ذل السباء» .

ففعل ... فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه .

وكذلك فعلت «سَلمى الغِفارية» زوج «عروة بن الورد العبسي» من شعراء الجاهلية الفرسان . أصاب «سلمى» في إحدى وقائعه ، وكانت ذات جمال ، فأعتقها «عروة» وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولاداً ، وحلّت من نفسه وقلبه أعز مكان ، إذ كان شديد الحب لها والحرص على إكرامها ، لكن ذلك لم يُنسها مذلة السباء ، فقالت له يوماً :

«ألا ترى ولدك يُعيَّرون بأمهم ويُسمون بني الأخيذة؟» قال : «فماذا ترين؟» قالت :

«أرى أن تردني إلى قومي حتى يكونوا هم الذين يسلمونني اليك؟»

فاستجاب لها ، وهو لا يشك في أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة في العيش معه .

وخرج بها فحجَّ - وكان قد أسلم ، لكنْ دون صحبة - ثم عرّج على أهلها

زائراً ، فتحايلوا عليه بالخمر حتى رضي أن يخيروها بين الإقامة فيهم والعودة معه ، فاختارت «سلمى» أهلها وهي تقول :

«يا عروة ، أما اني لأقول فيك – وإن فارقتُك – الحقّ : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سِتْرَها على بعلٍ خيرٍ منك وأغضّ طرفاً وأقلّ فحشاً وأجودَ يداً وأحمى لحقيقة. لكن ، ما مرّ عليّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك ، لأني لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمةُ عروة كذا وكذا. والله لا أنظر إلى غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن اليهم».

فانصرف عنها حزيناً حسيراً ، وهو يقول قصيدته التي مطلعها البيت المشهور:

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداةُ الله من كذب وزور (١)

* * *

ولا أكاد أعرف – فيما قرأت – أُمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغته عند العرب ، وقد روى «المبرِّد» في «الكامل» (٢) أبياتاً للسليك بن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود إماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن جميعاً ، كرامة لأمّه – وكانت جارية حبشية – فذلك قوله :

أشاب الرأسَ أني كلَّ يوم أرى لي خالة بين الرحال
يشق عليَّ أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالي

* * *

ولأبناء العقائل الكريمات حديث – أشبه بالقصص – عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ، ولعله يكفينا هنا ان ننقل مثلاً واحداً ، ما رواه

---

(١) الأغاني ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب ، والقصة مبسوطة في «الروض الأنف : ٢/١٨٠» وفيها «كان يقال : من قال إن حاتماً أسمح العرب ، فقد ظلم عروة بن الورد».

(٢) بغية الآمل من كتاب الكامل : ١/٢٥١.

صاحب (الأغاني) من أن «عمرو بن هند: ملك الحيرة» قال يوماً لجلسائه

«هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أُمُّهُ من خدمة أُمّي؟»

فقالوا: «نعم... أُم عمرو بن كلثوم» قال: «ولم؟». قالوا: «لأن أباها مهلهل ابن ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم، سيد قومه وليث كتيبتهم».

فأرسل «عمرو بن هند» إلى «عمرو بن كلثوم» يستزيره، ويسأله أن تزور أُمُّه أمَّه، فأقبل «ابن كلثوم» من الجزيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت «ليلى» في ظعن منهم.

وأمر «عمرو بن هند» برواقه فضرِب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا، ودخل «ابن كلثوم» رواق الملك، وأُدخلت «ليلى» إلى «هند» في قبة إلى جانب الرواق، وكان بين الاثنتين صلة نسب.

قالوا: وقد كان عمرو بن هند أوصى أُمَّه أن تُنحي الخدَم إذا دعا بالطُرَف، وتستخدم «ليلى»، فلما فعل قالت «هند» لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس:

– ناوليني يا ليلى ذلك الطبق.

فقالت «ليلى» في نفور وأنفة:

– لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها...

فأعادت «هند» عليها وألحت، وإذ ذاك صاحت ليلى:

– واذلاه... يا لَتغلب!

فسمعها ابنها، فثار الدم في عروقه، وانتفض قائلاً: «لا ذلَّ لتغلب بعد اليوم!»

ثم نظر حوله فإذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فوثب إليه وأطاح به رأس «ابن هند».

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلاً، وفيها يصيح بالملك:

أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا ... وأنظرْنا، نخبرْك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ... ونُصدِرُهن حُمراً قد رَوِينا
ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا؟
تهددنا، وأوعدنا، رويدا! ... متى كنا لأمِّك مقتوينا؟
على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسَّم أو تهونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشيء بعدهن ولا حيينا

ثم لم تكتف «تغلب» برأس الملك ثمناً لكرامة السيدة الأم، بل قام «مرة بن كلثوم» – أخو عمرو – بعد ذلك وقتل ولد النعمان، وأخاه، ليطفئْ جذوة من الغضب هاجها تعمُّد المهانة لأمِّه.

وظلت «تغلب» تعظم قصيدة «عمرو» ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال، كما ظل مقتل «عمرو بن هند» مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا...

قال الفرزدق:

* قومي هم قتلوا ابنَ هند عنوة *

وقال صريم التغلبي:

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم «ليلى» أمَّه بموفق
فقام «ابن كلثوم» إلى السيف مصلتا ... فأمسك من ندمانه بالمخنَّق
وجلَّله «عمرو» على الرأس ضربةً ... بذي شُطَب صافي الحديدة رونق

وقال «الأخطل التغلبي» لجرير يفخر بـ«عمرو ومرة: ابني كلثوم»:

أبَنِي كليبٍ ان عَمَّيَ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

إلى مثل ذلك ، بلغت غيرتهم على الأمومة . وما نمنع أن تكون حادثة «ليلى أم عمرو» من أقاصيص السمار وإضافات الرواة ، لكنها لا تفقد – في أي وضع رضيناه لها – دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة في الجاهلية .

* * *

وقد شهد الرواة – إلى جانب هذا – للأم العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب في عظمة بنيها (١) .

ويروون في ذلك ديوان أشعارهن في ترقيص أطفالهن – ممن دخلوا التاريخ بعد أن شبُّوا وبلغوا أشدهم – معبراتٍ في هذه الأشعار ، عن طموحهن البعيد ، إلى ما يرجون لأبنائهن من مجد وعز ، وشرف ونباهة .

ويعترفون بأن «حاتماً الطائي» إنما ورث الجود عن أمّه ، ويروي صاحب «الأغاني» (٢) أنها كانت لا تُبقي على شيء ، فلما رأى اخوتها إتلافها أمسكوا عنها مالها . حتى إذا ظنوا أنها وجدتْ ألَم ذلك ، أعطوها طائفة من إبلها ، فجاءتها امرأة من «هوازن» تسألها ، على ما تعودت أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الإبل فخذيها ، فوالله لقد عضّني الجوعُ فلن أضيع سائلاً . وأنشدت :

لعمرك قِدْماً عضَّني الجوعُ عضة ... فآليتُ ألا أمنع الدهر جائعا
فقولاً لهذا اللائمي : اليومَ أعْفِنِي ... وإن أنت لم تفعل ، فعُضَّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلِكم أو عذلِ من كان مانعا؟
وماذا ترون اليومَ إلا طبيعةً ... فكيف بتركي يا ابنَ أمٍّ الطبائعا ! ؟

* * *

(١) أمالي القالي : ١١٨/٢ ط بولاق .

(٢) ١٦ – ٩٣ ط الساسي – وانظر كذلك «عيون الأخبار» لابن قتيبة : ١ – ٣٣٦ ط دار الكتب .

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب في الجزيرة ، فنوّهوا بذكر «المنجبات» من عقائل العرب ، منهن :

* «فاطمة بنت الخرشب الأنمارية» [1] : أنجبت لزياد العبسي ، أبناءه الذين اشتهروا بلقب «الكَمَلة» وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس.

قيل إنها سئلت يوماً : «أي بنيك أفضل؟..»

فبان عليها التردد ، وهي تقول في حيرة : الربيع ، لا ... بل قيس ... ثم قالت : ثَكِلْتُهم إن كنت أدري أَيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرَغة لا يُدرَى أين طرفاها.

* «أم البنين بنت عامر بن عمرو» : أنجبت لزوجها مالك بن جعفر بن كلاب : مُلاعبَ الأسنة أبا براء بن مالك ؛ وطفيلَ الخيل ، والد عامر بن الطفيل ؛ ومُعَوِّدَ الحكماء معاوية بن مالك ؛ ونَزّالَ المَضِيق سلمى بن مالك ؛ وربيعَ المُقترين ربيعة بن مالك ، والد لبيد [2] .

* «عاتكة بنت مرة بن هلال السلمية» : أنجبت لزوجها عبد مناف بن قصي ابن كلاب : هاشما ، جد عبد الله ، والد المصطفى ﷺ ، وعبدَ شمس ، ومن ولده بنو أمية ؛ والمطلبَ بن عبد مناف ، ومن ولدِهِ الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف [3] .

وعاتكة ، هذه ، هي إحدى العواتك السُّلَميات ، أمهات رسول الله ﷺ [3] .

---

(١) ابن حزم : جمهرة الأنساب – ٢٣٩ ط أولى ذخائر والأغاني : ٢٠/١٦.

(٢) ابن حزم : جمهرة الأنساب ٢٦٨/أولى.

(٣) الجمهرة : ١٢ – وانظر معها : عاتكة بنت هلال السلمية ، وهي عمة عاتكة بنت مرة بن هلال ، وأم بني هاشم بن عبد مناف. وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال ، أم وهب بن عبد مناف بن زهرة ، جد المصطفى لأمه (المحبر لابن حبيب ، والروض الأنف جـ١).

* «أم الفضل ، لبابة الكبرى بنت الحارث بن حَزن الهلالية» : أنجبت للعباس ابن عبد المطلب بن هاشم : الفضلَ بن العباس ، وبه كان يكنى – ردف رسول الله ﷺ ؛ وعبدَ الله بن عباس ، وفي ولده أسرة بني العباس ؛ وعبيدَ الله ، وقُثَمَ ، ومعبدا ، وعبدَ الرحمن ، وأم حبيب بنت العباس ، تزوجت في بني مخزوم [(١)] . قال الشاعر :

ما ولدتْ نجيبة من فحلٍ كسبعةٍ من بطن أم الفضل

* وأم لبابة الكبرى هي «هند بنت عوف بن زهير» : أم الأخوات المؤمنات ، رضي الله عنهن :

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن ، شقيقة أم الفضل . ولبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن ، أم خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي . وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين . وأسماء بنت عُمَيس الخثعمية : تزوجت جعفر الطيار ابن أبي طالب فولدت له عبدالله وعونا ومحمدا . ثم خلف عليها بعده أبو بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الإمام علي بن أبي طالب فهي أم ولده يحيى بن علي . [(٢)]

« ريطة بنت سُعَد بن سهم ، الفهرية السهمية » [(٣)] : أنجبت للمغيرة بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم ، بنيه الأكابر : هاشم بن المغيرة ، جد الفاروق عمر لأمه . وهشام ابن المغيرة ، أرخت قريش بوفاته قبل الإسلام . وأبا ربيعة ذا الرمحين ، جد الشاعر عمر ، بن عبد الله ، بن ربيعة . وأبا أمية بن المغيرة ، زاد الركب ، والد أم المؤمنين أم

(١) جمهرة الأنساب : ١٥ – ٣٢ مقابلة على : نسب قريش لأبي عبدالله المصعب الزبيري : ٢٥ – ٣٤ ط أولى ذخائر .

(٢) نسب قريش : ٨٠ – ٨٣ . وانظر الأخوات المؤمنات في نساء الاستيعاب ، والإصابة .

(٣) نسب قريش : ٣٠٠ . وانظر معه في أبيات ابن الزبعري : نوادر القالي ٣٠٠ ، والصاهل والشاحج لأبي العلاء : ٧٠٤ – ٧٠٥ ط أولى ذخائر .

سلمة. وخداشا وزهيرا وتميما، والفاكه - زوج هند بنت عتبة، قبل أبي سفيان صخر ابن حرب.

وفي بني المغيرة، وأمهم ريطة، قال «عبدالله بن الزبعري» ميميته المشهورة التي أولها:

ألاَ للهِ قَومٌ وَلـــدتْ أختُ بني سهم

* * *

وليس ببَعيد من مجد الأمومة عند العرب، أن عددا غير قليل من مشهور قبائلهم وبطونهم؛ نزعوا إلى أمهاتهم وانتسبوا إليها. منهم، على سبيل المثال لا الحصر:

بنو خِندف، ليلى بنت حلوان بن عمران القضاعية.

انتسب إليها بنو زوجها إلياس بن مضر بن معد بن عدنان: مدركة، وطابخة، وقمعة.(١)

وأمُّ خندف: «ضرية بنت ربيعة بن نزار» التي ينسب إليها: حِمَد ضرية.

بنو مزينة، بنت كلب بن وبرة، إليها ينتسب ولد عثمان وأوس، ابني عمرو بن أد(٢).

بنو جُدَيلة، بنت مر بن أد - وقيل بنت مدركة بن إلياس، أم بني فهم وعدوان، ولدي عمرو بن قيس عيلان بن مضر(٣).

بنو الطفاوة، بنت جَرم بن زبان. إليها ينتسب بنو باهلة وغني، ولدي أعصر بن سعد بن قيس عيلان(٤)

بنو باهلة، بنت صَعْب بن سعد العشيرة المذحجية.

---

(١) جمهرة الأنساب: ٩ - ٢٣١ ونسب قريش: ٧ - ٤٤٨ والسيرة النبوية لابن هشام ٧٨/١.

(٢ - ٤) جمهرة الأنساب: ١٩٠، ٢٣٢، ٢٣٣، على التوالي.

أحضنت كل أولاد زوجها مالك بن أعصر، منها ومن غيرها، فكلهم إليها ينتسب [1].

بنو قَيْلة، بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة الغساني.

أم الأوس والخزرج، ولَدي حارثة بن ثعلبة بن عمرو الأزْدي. فإليها تنتسب كل بطون الأنصار. [2]

بنو بجيلة، بنت صعب بن سعد العشيرة.

إليها ينتسب كل ولد زوجها عمرو بن الغوث، أخي الأزْد. ومنهم قبائل: أنمار، وخثعم، ووداعة، وعبقر، والغوث، وأشهل، وطريف... [3]

بنو عاملة، القضاعية، ولد الحارث بن عدي بن مرة بن أدد [4].

ومن الطريف أن «مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، ولد أحد عشر رجلا تفرعت منهم قَبائل تميم وبطونها. وانتسب منهم إلى أمهاتهم:

بنو الصحارية: دارم وربيعة وكعب، أبناء مالك بن حنظلة.

بنو العدوية: أم زيد والصُدَى ويربوع، ابناء مالك بن حنظلة.

بنو طهية، بنت عبشمس بن سعد بن زيد مناة.

أم الطهويين، ولد أبي سود وعون ابني مالك بن حنظلة.

بنو حُطًى، أم جُشَيش بن مالك بن حنظلة.

وبنو بَشَّة، أم بني سدوس بن دارم.

(١، ٢) جمهرة الأنساب: ٢٣٣، ٣١٢ – ٣٤٧ على التوالي.

(٣، ٤) جمهرة الأنساب: ٣٦٤ – ٣٦٩، ٣٩٤.

وبنو مُنْية ، أم يعلى بن منية ، أبوه أمية بن أبي عبيدة بن همام ، من ولد زيد بن مالك بن حنظلة [1] .

ومن الملوك العرب ، من انتسبوا إلى أمهاتهم : كعمرو بن هند ، أبوه المنذر بن ماء السماء ، ملك الحيرة . وماء السماء أم الملوك المناذرة ، هي ماوية بنت عوف بن جشم .

وكثيراً ما كان الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم : قال «حذيفة بن غانم» أخو بني عدي بن كعب بن لؤي ، يبكي «عبد المطلب بن هاشم» ويذكر فضل «قصي» على قريش : [2]

ولا تنس ما أسدى ابن «لُبنى» فإنه
قد أسدى يداً محقوقة منك بالشكر
وأمُّك سر من خزاعة جوهر
إذا حصَّل الأنسابَ يوماً ذوو الخبر
إلى سبأ الأبطال تنمى وتنتمي
فأكرِمْ بها منسوبةً في ذُرا الزُّهر

وقال «بشر بن أبي خازم» يمدح «أوس بن حارثة بن لام الطائي» :

إلى أوس بن حارثة بن لام
ليقضي حاجتي ، ولقد قضاها
فما وطئَ الحصا مثلُ ابن «سعدى»
ولا لبس النعال ولا احتذاها

ولأبيات بشر في أوس ، قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر في صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قوماً أغروا بشر ابن أبي خازم» بهجاء «أوس» ،

---

(1) جمهرة الأنساب : ٢١٦ - ٢١٧ .

(2) السيرة ١/١٣٩ .

فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاه بالغاً ما بلغ ثمنه ، فلما جيء به خيَّره بين قطع لسانه وحبسه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخلية سبيله .

ثم دخل «أوس» على أمِّه «سعدى» فكرهت رأيه ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل ، فملأ «بشر» عراض الآفاق بمدائحه في ابن «سعدى» وأقسم لا يمدح أحداً غير «ابن سعدى» ما عاش (١) .

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها في جليل الأحداث ، من ذلك ما رواه «ابن إسحاق» في «السيرة» (٢) عن دور المرأة في حلف المطيّبين الذي كان بين بني عبد مناف.ومن انضموا إليهم في خلافهم مع بني عبد الدار بعد وفاة «قصي بن كلاب» ، فلقد أخرجت نساء بني عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم في المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا الكعبة توكيداً على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً .

ونقل «السهيلي» أن الزبير – هو ابن بكار – ذكر في موضعين من كتابه ، أنساب قريش ، أن التي أخرجت لهم الجفنة ، هي «أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب» عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه ، عبدالله بن عبد المطلب .

* * *

وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، فكان النسب عندهم علماً يعنى به الحُفاظ وتؤلف فيه الكتب ، ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدي وقد قيل : إنه «من أنسب

---

(١) انظر القصة بالتفصيل في كتاب الكامل للمبرد «بغية الآمل : ٥٤/٣» – وتاريخ ابن الأثير: ٢٢٩/١ – وديوان بشر ، ط دمشق ١٩٦٠ .

(٢) السيرة النبوية ، رواية ابن هشام : ١٣٩/١ ، والروض الأنف للسهيلي : ١٥٣/١ ط القاهرة ١٣٩١ هـ – ١٩٧١م .

قريش لقريش وللعرب قاطبة» ومثل «أبي بكر الصديق» ، رضي الله عنه : «كان أنسب العرب».

نعرف هذا. لكنا حين يُذكر النسب ، يتجه تفكيرنا غالباً ، إلى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابي العرب لم يغفلوا ذكرهن ، وتكفي إلمامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكي ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات.

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب ، والاعتزاز بالأصالة ، والمباهاة بالخئولة.

ظل ذلك فيهم إلى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع «جرير بن عطية» يمدح «هشام بن عبد الملك بن مروان» قائلاً :

فما الأم التي ولـــــدت قريشاً بمقرفـــــة النجـــــار ولا عقيم
ومـــا قرم بـــأنجب من أبيكم ومـــا خـــال بـــأكرم من تميم

قال ابن هشام : «يعني بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم النضر – والنضر هو قريش في قول ، ويقال بل فهر بن مالك هو قريش» (١).

وما من قارئ يتتبع مساق (النسب الزكي) في السيرة النبوية ، إلا عَجِب لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبعد.

وانظر كتاب «نسب قريش للمصعب الزبيري» وكتاب «جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي» (٢) لترى إلى أي حد عُني النسابون بالأمهات.

---

(١) السيرة ٩٦/١ ط الحلبي. ونسب قريش : ٨.

(٢) نشرتها دار المعارف في سلسلة ذخائر العرب.

وفي مقدمة ابن حزم لكتابه الجمهرة ، تنويه بعلم النسب والمأثور في فضله وقيمته.

وانظر كتب الأنساب ، في (فهرسة ابن النديم ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، وفهرسة ابن خير).

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا أن يئدوا بناتهم على نطاق واسع ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شيء.

* * *

على أنا لا نريد أن ننفي كل هذا الذي قيل عما لحق بالمرأة العربية – في بعض الحالات – من ظلم أو استبداد ، لأننا إن فعلنا نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن إليه من مكانة.

ثم في « القرآن الكريم » قَسَمٌ بالموءودة إذا سئلت « بأي ذنب قتلت »[1] . وكتب التاريخ العربي حافلة بما كان من ذاك ، لكنا نعرف أن ذلك لم يكن عاماً بين العرب ، ونكره أن ننظر إلى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا إذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن ، إلى ما روي عن مظاهر هوانهن ، لرجحت الأولى رجحاناً ظاهراً ، وبخاصة إذا قدّرنا ظروف البيئة العربية في تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن نهضة المرأة وحقوق النساء بقرون وعصور...

---

(١) عالجنا هذا الموضوع بمزيد بيان وتفصيل ، في كتابنا « بنات النبي » عليه الصلاة والسلام.

أمهات الأنبياء

عليهم السلام

بقي هناك أروع ما يُذكر عن الأنوثة والأمومة ، في كتاب «آمنة» أم النبي العربي ﷺ .

بقي أن نرجع إلى الأديان السماوية الكبرى لنرى الأمهات في حيوات الأنبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعاً أزكى الصلاة والسلام .

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم – عليهم السلام – قد عُهد بهم في طفولتهم إلى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعي فقط ، بل عوضت إلى جانبه فقد الأب أو غيابه ...

غير أنا نرى الأمر طبيعياً ، لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق ... إذ الأمومة في عاطفتها السخية وإيثارها الباذل ، أقرب إلى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية المصطَفَون لهداية البشرية .

وما كانت الأديان التي حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتي تؤخر مكان الأم أو تضعها في غير موضعها الأصيل :

«فطرةَ الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله» .

أم اسماعيل

«ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»

(سورة إبراهيم)

(التوراة) تروي لنا قصة «هاجر أم اسماعيل» في تفصيل مسهب، و(القرآن الكريم) يشير إليها في مواضع شتى، على المعهود من بيانه المعجز، في التركيز على جوهر الموقف ومناط العظة والاعتبار، دون تعلق بالتفصيلات الجزئية. لقد آثر الله تعالى هذه الأم برعاية «اسماعيل» الوليد وإنقاذه من الهلاك، إذ تركها أبوه «ابرهيم» بوادٍ قفر غير ذي زرع، فكانت لهفتها على الصغير، والألم الذي ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ، ومسعاها المثير في سبيل نجاته، حديث التاريخ وعبرة الدهر، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس آلامها إلى حيث تغدو عبادة وديناً!

ومَنْ «هاجر»؟

أَمَة ضعيفة لا حول لها ولا طول، جاءت بها «السيدة سارة: زوجة ابراهيم» من مصر إلى أرض كنعان.

وكانت السيدة «سارة» عجوزا عقيما، يئست من أن تعطي زوجها ولداً، فبدا لها أن تَهَبَه تلك الجارية المصرية، لعله يسكن إلى إحدى الراحتين!

وحملت «هاجر» فهاج ذلك في سيدتها ما في فطرة حواء من غيرة، وخيِّل إليها أن أَمتها صارت تنظر إليها في مباهاة، فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول:

– أنا دفعت إليك جاريتي، فلما حملتْ ترفعت عليّ!

فرد عليها ملاطفاً:

– هي جاريتك، تصنعين بها ما تشائين! (١)

لكن «سارة» لم تشأ أن تصنع شيئاً، بل تجلدت للموقف. حتى إذا وضعت «هاجر» مولودها، نفد صبر السيدة وغُلِب احتمالُها، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتَها سقف.

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمماً شطر الجنوب، تتبعه «هاجر» وبين ذراعيها وليدها «اسماعيل». وقد خطر لإبراهيم أن يلتمس لولده ملاذا في حمى بقايا البيت العتيق، أول بيت عُبِدَ فيه الله، في الأرض.

وانتهى بهم المسير عند «مكة» وهي حينذاك مقفرة خلاء، لا يكاد يلم بها سوى نفر من البدو الرُّحّل، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين إلى حين، التماساً لماء أو انتجاعاً لمرعى.

وعند ربوة هناك حيث أطلال البيت العتيق، ترك ابراهيم «هاجر» وولدها، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء، وأمرها أن تتخذ لها عريشاً، ثم همَّ بالرجوع من حيث جاء... فارتاعت «هاجر» من وحشة البرية، وتضرعت إلى سيدها «ابراهيم» ألا يدعها وولدهما في ذاك القفر المرهوب، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرى، رحمة بابنه الوحيد، المنبوذ مع أمّه بالعراء.

وأعادت «هاجر» سؤالها:

«أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا شيء؟» وهو منصرف

---

(١) بنصه، من التوراة.

عنها ماضٍ في سبيله لا يلوي على شيء، حتى إذا بلغ منعَرَجَ الوادي، سمع صوتها الضارع يسأل في لهفة:

– آلله أمرك أن تدعني وهذا الصبيَّ في هذا البلد الموحش؟

أجاب دون أن يلتفت: نعم.

فقالت «هاجر» في استسلام خاشع:

– إذن فالله لا يضيعنا... (١)

وأطرقَت صامتة، فلم تر «ابراهيم» وقد رفع وجهه إلى السماء حين غيّبته ثَنِيّة الوادي، وابتهل إلى الله في توسل وضراعة:

«ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غيرِ ذي زرع عند بيتك المحرّم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربَّنا إنك تعلم ما نُخفي وما نُعلن، وما يَخفى على اللهِ من شيءٍ في الأرضِ ولا في السماء» (٢).

ثم استأنف مسيره عائداً إلى زوجه «السيدة سارة» في أرض كنعان.

* * *

أقبلت «هاجر» على ولَدها تستمد منه الأنس والعزاء، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر، وقد شغلت بالنظر إلى وجهه اللطيف الحبيب، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة في البرية القفر، ولم تدرك حق الإدراك قسوة موقفها بالوادي الأجرد، بين الصخور الكالحة، والجبال الغبراء...

حتى نفدت مئونتها الضئيلة، وبدأ الظمأ يناوش الصغير العزيز، فهبت مذعورة

(١) الروض الأنف: ١٣٥/١.

(٢) سورة ابراهيم، آيتا ٣٧، ٣٨.

تبحث له عن ماء. فلما لم تجد ماء، بدا لها أن تصعد إلى علٍ، فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض، فإذا «الصفا» قريب منها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر: هل ترى أحداً؟ وتسمَّعتْ: هل تؤنس صوتاً؟ فلما لم تجد إلا الوحشة والصمت أتت «المروة» مهرولة تسعى سعيَ المجهد، وصعَّدت علّها ترى أثراً من حياة، ولا أثر!

وأجهدها السعي بين «الصفا» و«المروة» شوطا بعد شوط، حتى نال منها التعب والإعياء فتهاوت على الأرض الصخرية، مستسلمة لقضاء الله فيها وفي ولدها.

لكنها لم تلبث في مكانها طويلاً، فلقد كان لُهاث ولدها الظامئ يمزق قلبها ويفري كبدها، وكان مرآه والحياة تتسرب منه وتنطفئ رويداً رويداً، أقسى من أن تحتمله أمومتها، فجمعت كل ما بقي لها من قوة، وزحفت بعيداً عن ولدها المحتضر، ثم غطت وجهها بلفاعها وهي تقول:

- لا أنظر موت الولد...

* * *

وأمسك الكون أنفاسه، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أُمِّه، يتردد صداهما في البلقع القفر، مختلطاً بعواء وحوش الفلاة، وسُعار السباع الجائعة المحومة على المكان... كأنها ترقب الخفقة الأخيرة في فريستها المنتظرة...

ثم كانت النجاة...

حوم طائر على المكان ثم حط على بقعة هناك، فظل ينقر فيها بمنقاره حتى انبثق ماء «زمزم» فهرعت «هاجر» نحوها وهي تحس موجة دافقة من القوة والحيوية قد سرت في كيانها، وأقبلت ترتوي، وتسقي ولدها...

ودبت الحياة في الوادي الأجرد...

قالوا: «ومرت رفقة من جُرهُم مقبلةً من طريق كداء، تريد الشام، فنزلوا في

أسفل مكة فرأوا طيراً فقالوا : إن هذا الطير لحائمٌ على ماء ! لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. وأرسلوا دليلهم ، فعاد ومضى بهم إلى حيث كانت هاجر وولدها عند النبع المبارك. فقالوا لها : إن شئتِ كنا معك فآنسناكِ والماء ماؤك. فأذنت لهم ، فنزلوا معها ».

* * *

في جوار البيت العتيق شبَّ إسماعيل ، فلما بلغ مبلغ السعي جاءه أبوه فقص عليه رؤياه :

« قال يا بُنَيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ما ترى ، قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمَر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ».

ثم كانت آية الفداء ، بعد ذلك البلاء المبين : همَّ أبوه بذبحه ، لولا أن لاح له كبش عظيم ، وألهمه الله تعالى أن يذبحه فدية لولده الصابر (الصافات ١٠٢ – ١٠٧). وتلقى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام أمر الله تعالى ، فرفعا القواعد من البيت العتيق وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وكانت دعوتهما :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مُسلمَيْنِ لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرِنا مناسكنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » البقرة ١٢٥ – ١٢٩ .

وبأمره تعالى ، أذَّن ابرهيم في الناس بالحج . واستجاب الله تعالى للدعاء ، فبعث في ذريتهما رسوله المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، صفوةَ الصفوة من صريح ولد « اسماعيل بن ابراهيم » من « السيدة هاجر أم العرب العدنانية » التي دخلت التاريخ الديني بهموم أمومتها ، وصار مسعاها بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الحج في ديننا الحنيف ، وعيداً للأمومة ، بموسم الحج من كل عام.

* * *

أم موسى

«وأوحينا إلى أمّ موسى أنْ أَرْضِعيه فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين»

(سورة القصص)

لا يذكر لنا «القرآن الكريم» شيئا عن والد «موسى»، وإنما يخص بالذكر أمّه، وَيكِلُ إليها أمر حمايته وليداً ورضيعاً، حين ضاق فرعون ببني اسرائيل وأنكر خبث أفاعيلهم وضراوة شرهم، فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب...

وتقول الرواية إنه رأى في منامه رؤيا أفزعته «فدعا الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا: يولد في بني اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك على أرضك، ويبدل دينك. وقد أظلّك زمانه الذي يولد فيه»(١).

فجُنّ غضبه وقلقه... وأمر بقتل كل غلام يولد لبني اسرائيل، وجند لذلك القوابل من النساء في أنحاء المملكة...

وولد «موسى» حينذاك خفية، بعد أن ذبح فرعون في طلبه سبعين ألف ولد – على ما يقولون(٢) – فارتجفت أمه رعباً وجزعاً، وأشفقت عليها القابلة

---

(١) راجع قصص الأنبياء للثعلبي «العرائس»، ص ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية.

(٢) المرجع السابق: ١٧٥.

فوعدتها أن تكتم الأمر. ويضيف بعض الرواة أن القابلة لم تكد تنظر الى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقاً به، وأبى عليها أن تسلمه إلى الذبح...

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم موسى حتى أبصرتها عيون فرعون التي بثها في كل مكان، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته «مريم» فهمست جازعة:

- أماه، هذا الحرس بالباب!

وفي ذهول المفاجأة، ألهم الله أم موسى فلفّت ولدها في خرقة وألقته في جوف التنور، دون أن تشعر بما تفعل، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان، وإلى جانبها ابنتُها تعنى بشؤون الدار في جد وهدوء...

وسألها الحراس في فظاظة:

- ما أدخل عليك هذه القابلة؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها:

- هي مصافية لي، دخلت عليّ زائرة...

فانصرفوا، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها، فإذا صوته ينبعث من التنور، فهرعت إليه وأخرجته لم يمسسه أذى بفضل الله تعالى.

* * *

وبدا جلياً أن إخفاء الوليد غير مستطاع إلا إلى حين، وأطرقت الأم مهمومة تفكر، فأوحى الله إليها: «أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمِّ فلْيُلْقِهِ اليمُّ بالساحل يأخذْه عدوٌّ لي وعدو له»[1].

---

(١) من آية ٣٩ سورة طه.

واستجابت الأم لوحي السماء، فاتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً، ثم أرضعت وليدها وأرقدته في التابوت وأحكمت عليه الغطاء، وألقت به في النيل...

كيف كان شعورها إذ ذاك وهي تسلم فلذة كبدها بيدها إلى النهر؟

أغفل أكثر الذين تعرضوا للقصة، تصوير موقفها ذاك على ضفة اليمّ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذي يضم الصغير الحبيب، تتقاذفه الأمواج وتمضي به بعيداً...

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر، حين غاب التابوت عن بصرها، وروعها الفراغ من حولها... فتنبهت فجأة إلى أنها ألقت ولدها بيديها في اليم، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب فرعون، قد صرفها عن التفكير في أي شيء عدا النجاة، حتى أدركت بعد فوات الأوان، أنها خلّصت وليدها من سكين فرعون، لتلقي به إلى أفواه الحيتان!

قال «الثعلبي»:

«فلما ألقته في النيل وتوارى عنها، أتاها الشيطان فوسوس إليها، فقالت في نفسها: ماذا صنعتُ بابني؟ لو ذُبِحَ لواريته وكفّنته، وكان أحب إلي من أن ألقيه بيدي في البحر وأدخله إلى دواب البحر»[1].

وتلك إضافة أحسبها من «الإسرائيليات» التي روجها في المسلمين من أسلموا من اليهود. والقرآن الكريم لا يشير إلى هذه الوسوسة الشيطانية من قريب أو بعيد، بل لعله أقرب إلى أن يرفضها وينفيها، بالنص الصريح على أن قذف الأم لولدها في اليم، كان بوحيٍ من الله.

ولنا مع ذلك أن نتمثلها وقد لبثت في مكانها على الشاطئ لا تكاد تقوى على مغادرته، وقلبها يعدو في أثر ذاك الذي مضى... حتى افتقدتها ابنتها «مريم» فجاءت

---

(١) من قصص الأنبياء: ١٧٤.

تلتمسها هناك ، وقادتها في رفق عائدة بها إلى الدار...

وأنزل الله سكينته عليها : « وأصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغا إنْ كادتْ لَتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ».

(القصص : ١٠)

* * *

مضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به – فيما يروي الأخباريون ،– إلى روضة عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به إلى سيدتهن «آسية : امرأة فرعون» وفي حسابهن أن به كنزاً من مال وجواهر...

ثم فتح الصندوق ، فإذا الصغير الجميل يرفع إلى «آسية» وجهاً مشرقاً بابتسامة حلوة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد تفتح له قلبها ، كأنما هو قطعة منها.

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هديةً تقدمها السماء إلى أمومتها المحرومة !

في هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها ، يطلبون الصبي

قالت آمرة :

– انصرفوا ، فإن هذا لا يزيد في بني اسرائيل...

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

– دعوا أمره لي ، فأنا آتي فرعون وأستوهبه إياه ، فإن فعل كنتم قد أحسنتم ، وإن أمركم بذبحه فلن ألومكم...

وجاءت «فرعون» فتوسلت إليه قائلة :

«قُرةُ عينٍ لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعَنا أَوْ نَتَّخِذَه ولدا »[١].

---

(١) من آية ٩ سورة القصص.

فكان جوابه :

– قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لي فيه...

ثم استدرك بعد لحظة :

– لا بل فليذبح ، فإني أخاف أن يكون هذا من بني اسرائيل ، وأن يكون هو الذي هلاكُنا وزوال ملكنا على يده...

فلم تزل امرأتُه تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ، وعادت به إلى جناحها . والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها...

* * *

وهنالك في حي اليهود ، كانت «أم موسى» تضع يدها على قلبها الذي ما فتئ يخفق مُلحّاً في طلب النائي الغالي...

قالت لأخته :

– «قصّيه» وتتبعي أثره ، هل تسمعين له ذكراً؟

فخرجت «مريم» تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها إلى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاماً رضيعاً ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر في حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جواري امرأة فرعون يخرجن في التماس المراضع ، لعله يقبل ثدي إحداهن...

هنالك لاذت «مريم» بكل ما في طاقتها من شجاعة كي تداري عواطفها وتكتم لهفتها ، وتقدمت إلى القصر في حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، في صوت حاولت ألا ينم عن شيء مما كان يخالجها :

– «هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون»[1].

فراب القوم ما سمعوا، وأحاطوا بها يسألونها:

– ما نراك إلا تخفين أمراً!

فأجابت في ثبات:

– بل أردت أن أنصح لكم...

قالوا:

– لعلك تعرفين أهله، وإلا فما يدريك أنهم له ناصحون؟...

فهزت رأسها قائلة:

– الأمر أبسط مما تظنون! كل ما هنالك اني أعرف فيهم الرحمة وطيب القلب، وما أشك في أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه، وتقرباً إلى الملك، والتماساً لبره!

وتبعوها إلى حيث كانت «أم موسى» تجتر همومها في وحدتها، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم!

ولمحته، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة، فضمته إلى صدرها في رفق، وألقمته ثديها...

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا إباء «موسى» للمراضع جميعاً، إذ رأوه يلقف الثدي في لهفة الظامئ يجد رياً!

ورضع حتى ارتوى، وعاد رسل «آسية»، امرأة فرعون، إليها يصحبون «موسى» وأمه، ويقصون عليها ما رأوا من أمرها..

(١) من آية ١٢ سورة القصص.

قالت في غبطة:

– هلا مكثتِ عندي يا ظئرُ لترضعي ابني هذا الحبيب؟

فأجابت الأم:

– بل ان شئت يا سيدتي صحبتُه معي إلى بيتي أرضعه وأرعاه، فإني أخشى ان أنا هجرت بيتي وولدي، ضاعوا... ولست بتاركتهم أبداً...

وقد يبدو عجيباً من «أم موسى» أن تقف هذا الموقف، فتأبى أن تقيم في القصر ظئراً لولدها... لكن لا عجب، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف ما دام الوليد قد أبى أن يرضع إلا من ثديها، وأنها لتعرف تعلق «امرأة فرعون» بالصغير، فلماذا لا تصر على أن تعود به إلى دارها كي تروي به أشواق أمومتها في اطمئنان، بعيداً عن جو القصر وعيونه وأرصاده؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير؟

لو أنها أقامت بالقصر، فهي بين أمرين أحلاهما مر:

إما أن تكبت عاطفتها الظمأى وأشواق أمومتها، كي لا يستريب القوم في أمرها، وذلك ما لا طاقة لأمومتها به بعد الذي كان من وجدها عليه...

وإما أن تترك نفسها على سجيتها، فتدفع ولدها بيدها إلى المذبحة!

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها، ما يغريها بأن تختار له ولنفسها المكان المطمئن في دارها، وفي ذلك يقول «الثعلبي»:

«وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده».

ولم تجد «امرأة فرعون» مفراً من إجابة الظئر إلى طلبها، حرصاً على حياة الوليد، فأذنت لها فرجعت به إلى بيتها...

فذلك قوله تعالى في سورة القصص :

«وأوحينا إلى أمِّ موسى أنْ أرضعيه فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدوّاً وحَزَنا ، إن فرعونَ وهامان وجنودَهما كانوا خاطئين * وقالت امرأةُ فرعون قرةُ عينٍ لي ولكَ لا تقتلوه عسى أن ينفعَنا أو نتخذَه ولداً وهم لا يشعرون * وأصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغاً إنْ كادت لتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأختِه قصِّيه ، فبَصُرتْ به عن جنب وهم لا يشعرون * وحرَّمنا عليه المراضعَ من قبل فقالت هل أدلُّكم على أهلِ بيتٍ يكفُلونه لكُم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمِّه كي تقرَّ عينها ولا تحزَنَ ولتعلَمَ أن وعد الله حق ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون * ولما بلغ أشُدَّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين» [١] .

(٧ – ١٤)

وقوله تعالى في سورة طه :

«قال قد أُوتيتَ سؤْلك يا موسى * ولقد مننَّا عليك مرةً أخرى * إذ أوحينا إلى أمِّك ما يوحَى * أنِ اقذفيه في التّابوتِ فاقذفيه في اليمِّ فليُلقِهِ اليمُّ بالساحل يأخذْه عدوٌّ لي وعدو له ، وألقيتُ عليك محبةً مني ولتُصنعَ على عيني * إذ تمشي أختُك فتقول هل أدُلُّكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمِّك كي تقرَّ عينها ولا تحزن...»

صدق الله العظيم. (٣٧ – ٤٠)

هكذا نزل الوحي على «أم موسى» وعهدت إليها السماء بالمهمة الجليلة : مهمة إنقاذ الوليد الموعود بإحدى الرسالات الكبرى ، من المذبحة التي لم ينج منها غلام لبني اسرائيل في ذلك العهد البعيد...

* * *

أمّ المسيح

«إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ ان اللهَ يبشركُ بكلمةٍ منه اسمُه المسيحُ عيسى بنُ مريمَ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين»

(سورة آل عمران)

وعيسى عليه السلام؟...

إنه «عيسى بن مريم» كما دعاه كتاب الإسلام...

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبي المسيحية إلى أمِّه، هذه الأم التي طهَّرها الله واصطفاها على نساء العالمين...

وقصة أمومة «مريم» كما روتها كتب الدين بالغة الاثارة، فلقد تعرضت – عليها السلام – لأقسى ما تتعرض له أنثى: نشأت في بيت دين وتقى، لأبٍ عالم شيخ من كبار بني اسرائيل، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما في بطنها لخدمة الهيكل:

«إذ قالت امرأةُ عمرانَ ربِّ إنِّي نذرتُ لك ما في بطني محرَّراً فتقبَّلْ مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتْها قالت ربِّ إني وضعتُها أنثى واللهُ أعلمُ بما وضعتْ وليس الذكرُ كالأنثى، واني سمَّيتها مريمَ واني أُعيذها بك وذرِّيتها من الشيطان الرجيم * فتقبَّلها ربها بقبولٍ حَسَنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا

المحراب وجد عندها رِزْقاً قال يا مريم أنّى لكِ هذا قالت هو من عندِ الله إن الله يرزق مَن يشاءُ بغيرِ حساب »[١].

ذلك أن أباها «عمران» مات وهي صغيرة، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلها، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها «زكريا» زوج خالتها...

« ذلك من أنباء الغيبِ نوحيه إليكَ، وما كنتَ لديهم إذ يُلقون اقلامَهم أيُّهم يَكفُلُ مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصمون »[٢].

وأمضت مريم صباها في المحراب عابدة خادمة، وفاء بنذر أمها، حتى إذا اصطفاها الله من دون النساء جميعاً ليودعها سره الأكبر، بعث إليها في خلوتها من بشَّرها «بكلمةٍ منه اسمُه المسيحُ عيسى بن مريم، وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين »[٣].

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها كلَّ مأخذ، ثم رفعت وجهها إلى السماء ضارعة:

«قالتْ أنّى يكونُ لي غلامٌ ولم يَمسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغيا * قال كذلِك قال ربُّك هو عليَّ هيِّنٌ، ولِنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضيا »[٤].

واستسلمت لأمرِ اللهِ المقضي وقدره المحتوم، حتى أحست الجنين يتقلب في أحشائها، ويا له من إحساس تعانيه عذراء طاهرة نقية السمعة! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار، فانتبذت بحملها مكاناً قصياً، وأقامت في وادٍ للرعاة هجره رعاته بمواشيهم التماساً للكلأ، فلما جاءها المخاض اتكأت إلى جذع نخلة هناك، ووضعت وليدها في مِذودٍ للماشية، وقالت:

---

(١) سورة آل عمران – آيات ٣٥ : ٣٧.

(٢) سورة آل عمران آية ٤٤.

(٣) سورة آل عمران آية ٤٥.

(٤) سورة مريم: ٢٠، ٢١ وانظر معها آية ٤٧ من آل عمران.

«يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْياً منسياً» (١).

ثم كان ما لا بد أن يكون...

«فأتتْ به قومَها تحمله، قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فريًّا * يا أختَ هارونَ ما كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ وما كانتْ أمُّك بَغِيًّا» (٢).

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهرها، ولا أنقذها من لعنتهم ما بدا من وليدها من آياتٍ بيِّنات، بل رمَوها بالإثم وقالوا عليها «بهتاناً عظيماً»، فتلقت اللعنة صابرة، وكابدت المحنة متجلدة لقضاء الله فيها وقدره، راضية بما هو أقسى من الموت في سبيل ولدها الموعود بالمجد العظيم...

وفي الخبر أنها فرتْ بابنها إلى مصر لكي تنجو به من الكيد والأذى، «فأقامت مريم بمصر اثنتي عشرة سنة، تغزل الكتان، وتلتقط السنبل في أثر الحصادين، وكانت تفعل ذلك والمهدُ في منكبِها، والوعاء الذي فيه السنبل في منكبها الآخر» (٣).

«وجاءت به إلى الكتّاب وأقعدته بين يدي المؤدب حتى أذن الرب لها، فعادت به إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى» (٤).

وسكنا في قرية «الناصرة» حيث عاشت له إلى أن بلغ مبلغ الرجال، وكانت هي التي لاذ بها عندما تجلّت له الرؤيا، وكاشفها بهمومه الكبار، وتزود منها بالتأييد والتشجيع...

وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد، فذكر أنه لما بلغ «يسوع» ثلاثين سنة من العمر، صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً، وهنالك تجلت له

---

(١) سورة مريم: آية ٢٣.

(٢) سورة مريم: آيتا ٢٧، ٢٨.

(٣، ٤) العرائس للثعلبي: ٢، ٤.

الرؤيا وعلم أنه نبي مرسل إلى بني اسرائيل فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلاً لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه - أي عيسى - لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدي ما عليه من دين لها بخدمتها...

«فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بني ، إني نُبِّئتُ بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجدْ اسمُ الله القدوس. ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته الدينية» [1].

بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاماً ، هيأته خلالها للدور العظيم الذي ينتظره...

انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معاً على الأيام ، آية من آيات الله...

«وجعلنا ابنَ مريم وأمَّه آيةً»

«وجعلناها وابنَها آية للعالمين»

* * *

وتأتي «آمنة بنت وهب» في ختام هذا الموكب التاريخي المهيب لأمهات الأنبياء ، لتكون أم اليتيم المصطفى ، خاتم الرسل عليهم السلام ، المبعوثِ بآخر رسالات السماء !

---

(١) انجيل برنابا : الفصل العاشر.

المبحث الثاني

بيئة... ووراثة

- البَيتُ العَتِيق

- بَنو زَهْرَة

البيت العتيق

«وإذْ بوّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ أن لا تشركَ بي شيئاً وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والركّعِ السجود ۞ وأذّنْ في الناسِ بالحجِّ يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتين من كلِّ فجٍّ عميق ۞ ليشهدوا منافعَ لهم ويذكروا اسمَ اللهِ في أيام معلومات...»

(سورة الحج)

لبيك اللهم لبيك!...

هو الهتاف الخالد، رددت صداه الآفاقُ منذ ما لا يُحصى من السنين، فإذا الملايين تنثال إلى «البيت العتيق» من كل فج، ملبية أذان «الخليل» في الناس بالحج، ومستجيبة من بعده لدعاء النبي العربي اليتيم، الذي وضعته «آمنة بنت وهب» في دار «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم»، من قبل أربعة عشر قرنا ونحو نصف قرن...

يا أُذُنَ الزمان الواعية...

ويا عينَ الدهر الباصرة...

أي ألْسِنَةٍ للعابدين سمعتِ؟

وأي وجوهٍ هنالك رأيتِ؟

وأي ألوان من البشر شهدتِ؟

وأي ألوية خفقت بين يديك؟

وأي هامات انثنت لديك في هذه البقعة من الأرض وسط الوادي الأجرد تحف به الصخور السودُ والجبال الشُم، منذ جُعِل «البيتُ» هنالك مثابةً للناس وأمناً، وحَرَماً وملاذاً، يطمئِن فيه الخائف، ويأمن لديه المروَّع، ويُحقن عنده الدمُ المهدَر، وتُحمَى في حماه حياةٌ كانت إذ ذاك مستباحة في شِرعة الصحراء وبضراوة البيداء؟!

«إن أول بيت وُضِعَ للناسِ لَلّذي بِبَكَّةَ مباركاً وهُدىً للعالمين»(١).

* * *

يا ذاكرة الزمان الحافظة!

عرفتِ الدنيا بيوتاً وبيوتاً...

ورأيت رسوماً وطقوساً، في شرق الأرض ومغربها، وقديمها والحديث...

وشهدت حجاجاً وزواراً، وطائفين وعبّادا...

وهذا البيت العتيق بينها كان، ولا يزال، عَلَماً شامخاً ومناراً عالياً، ترامت أضواؤه وأصداؤه إلى أبعد مما ترامى إليه تأثير بيتٍ من تلك البيوتات، ومزار من هاتيك المزارات!

ومن يدري يا دهر، كم من آلاف السنين قد أسقطت أصابعُك الباطشة أوراقَها من تقويم الزمن، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز، مأوى يسيرَ الشأن، ومحطّاً يريح فيه البدوُ الرحّلُ قوافلهم، في طريقهم بين الشمال والجنوب ذهاباً وجيئةً، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق في قلب الفلاة؟!

....

من يدري يا ذاكرة التاريخ، كم من أجيالِ البشر مرتْ بك، قبل أن يجد

---

(١) سورة آل عمران: ٩٦.

أولئك الضاربون في الصحراء عبر الوادي القفر المرهوب والفيافي المهجورة الموحشة، موئلاً في جوار «مكة» يتريثون عنده التماساً للحماية والعون، وتزوداً بشيء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضني ومسراهم المخوف، عبر الفيافي والقفار؟

منذ كم من الدهور والأحقاب، كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف، مثابة عبادة، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة، فهم ينثالون إليها حجاجاً ضارعين، ويلوذون بها داعين مبتهلين، قد هانت لديهم الأرض إلا موضعاً، وعزّ الأمان إلا في مكان؟!

كيف نَمَتْ «مكةُ» معكَ يا زمن، من محطة صغيرة للرُّحَّلِ، إلى موسم جامع للقبائل، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب، وتتواصل الروافد من أطراف العالم القديم، حين كانت الإبل وحدها عدَّةَ السير ووسيلة الاتصال؟

وكيف شاركت هذه البقعة في ذلك التواصل، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة، فجاءت من الشرق بما في فارس، والهند، والصين، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش، ومن المغرب بما عند مصر ووادي النيل، ودفعت ذلك كله إلى هناك، عن طريق البحرين: الأحمر والأبيض؟!

* * *

ليس غيرك يا زمن، من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل، ولا علم لنا بالظروف التي جعلت المعنى الديني لهذه البقعة من قلب الفلاة، يتضخم ويتركز ويتجسم، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم إلى الاستقرار الاجتماعي والعدالة المرجوة في حياة آمن وأسعد وأهنأ من تلك التي فرضتها عليهم البادية الضارية...

إن تاريخ العرب المكتوب، يقدم لنا من ذلك كله حديثاً عجباً يملأ مجلدات وأسفاراً، أنزلها القوم منذ كانت، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان إليها، ومهما يكن رأي التحقيق العلمي فيها، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والأسفار،

مراجعنا ومصادرنا في معرفة ماضي الجزيرة قبل الاسلام، إذ لا نملك – إلى اليوم – مصادر تاريخية عن ذاك العهد الموغل في القدم إلا ما تركته لنا الرواية النقلية.

وفي المرويات ما نجد له شواهد موثّقة من القرآن الكريم، ومما صح من الحديث والآثار على أدق ضوابط الرواية والنقل.

وعلى هذه الشواهد والآثار، معتَمدُنا في معرفة الملامح العامة للتطورات التي شهدتْها البيئة في المجتمع المكي، وأعطت ميراثها ومؤثراتها في شخصية الأم التي ولدتْ خير البشر.

* * *

منذ متى بدأ التاريخ الديني لمكة؟..

يمضي به بعض كتاب السيرة ومؤرخي «مكة» إلى عهد «شيث بن آدم»، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا، فلا نكاد نعرف إلا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل، وسوقاً متوسطة للتبادل التجاري بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة، كما نقرأ أنها كانت في ذلك العهد السحيق موئلاً للعبادة، من قبل أن يفد عليها «إبراهيم» ويترك هناك ولده، بزمن بعيد تطورت فيه العبادة إلى وثنية مشوبة برواسب من وثنية قوم نوح عليه السلام قبل الطوفان، فدنّست طهر البيت العتيق.

قدر من هذه المرويات، توثقه شواهد من القرآن الكريم، ومن صحيح الآثار عن الجاهلية المعروفة لنا.

في القرآن الكريم:

«إن أول بيتٍ وُضع للناسِ للّذي ببَكّةَ مباركا وهدى للعالمين».

وفيه الخبر عن قوم نوح وأصنامهم:

«وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعا * ولا يغوث ويعوق ونسراً...»

(سورة نوح)

وهذه الأصنام التي عبدوها قبل الطوفان، قد بقيت رواسبها في أسماء أصنام خمسة، للعرب في جاهليتهم [1].

* * *

ثم جاء ابرهيم بولده، فبدأ تاريخ جديد لمكة وبيتها العتيق، والعرب...

وفي القرآن الكريم بيان لموقف «ابراهيم» في تلك البرية المقفرة، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته التي أسكنها بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم، وفيه كذلك بيان لآية الفداء «الصافات ١٠٢ – ١٠٧» وما عهد الله به إلى ابراهيم واسماعيل، عليهما السلام، من رفع القواعد من البيت وتطهيره للعابدين (البقرة ١٢٤ – ١٢٩) ثم أذان ابراهيم في الناس بالحج (الحج ٢٦ – ٣٢).

* * *

من ذلك العهد الموغل في القدم، يرتفع الدعاء الخالد:

«لبيك اللهم لبيك!»

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها، وتخشع له الجبال الصخرية المحيطة بها، وتعنو له هامات البدو الصلاب، أبناء البادية وأمراء الصحراء...

ومن ثم يمضي مؤرخونا القدامى ورواتنا الأُوَل، فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك «البيت العتيق» كيف عظُمت وجلَّت، وعن «مكة» في عهدها الجديد كيف تسامت إلى المنزلة الرفيعة التي بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال...

حدثوا أن «جرهما» – وهم خئولة ولد اسماعيل – تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من «بني اسماعيل» فتركوها دون أن ينازعوا

---

(١) ابن الكلبي: الأصنام ٦، ١٣ ط الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ – ١٩١٤م.

«جرهما» في ولايتهم، رعاية لقرابتهم، وإعظاماً لحرمة «مكة» أن يكون بها بغي أو قتال، فلما خلا الجو لجرهم، بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدَى لها. ويقول ابن اسحاق: «وكانت مكة لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يبغي فيها أحد على أحد إلا أخرجته، ولا يريدها مِلكٌ يستحل حرمتها إلا هلك مكانَه، فيقال إنها ما سُميت ببَكةَ إلا لأنها كانت تبك – أي تكسر – أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً»[1].

وهكذا أُخرِجُ جبابرةُ «جرهم» من مكة أذلَّةً صاغرين، يرثيهم شاعرهم ببكائيته:[2]

وقـــائلـــةٍ والـــدمـــع سكبٌ مبـــادرُ
وقـــد شرِقتْ بـــالـــدمـع منهـــا المحاجرُ

كأنْ لم يكن بين «الحَجونِ» إلى «الصفا»
أنيسٌ، ولم يسمر بمكـــــــــة سامر

فقلت لها والقلب مني كـــــــأنما
يلجلجـــــه بين الجنـــــاحين طـــائرُ

بلى نحن كنـــا أهلَهـــا فـــأزالنـــا
صرفُ الليـــــــــالي والجدودُ العواثر

وكنا ولاةَ «البيت» من بعد «نابتٍ»
نطوف بـــذاك «البيت» والخير ظـــاهر

فـــأخرجنـــا منهـــا المليكُ بقـــدرةٍ
كـــذلك – يـــا للنـــاس! – تجري المقـــادر

فسَحَّتْ دموعُ العينِ تبكي لبلــــدةٍ
بها حرمٌ أمْنٌ، وفيهـــــــا المشاعر

---

(١) السيرة لابن هشام ج أول، وانظر نهاية الأرب للنويري: ١٦/٢٣ ط دار الكتب.

(٢) السيرة ١/١٢٠. ونهاية الأرب: ١٦/٢٤.

ورووا أن «تُبَعاً الحيري» مر بقرب «مكة» في طريقه إلى اليمن، فأتاه نفرٌ من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، فقالوا له: - أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ، والزبرجد، والياقوت، والذهب، والفضة؟...

قال: بلى...

قالوا: بيت بمكة يعبده أهله، ويُصلون عنده...

وكان الهذليون إنما أرادوا هلاك «تُبَع» بذلك، لِمَا عرفوا من هلاك مَن أراد «البيتَ» من الملوك بسوء. ويقول «السهيلي» (١): «وروى نقلة الأخبار أن «تُبعاً» لما عمد إلى البيت يريد إخرابه، رُميَ بداء تمخض منه رأسه قيحاً وصديداً... وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه قيدَ الرمح. وقيل: بل أُرسِلَتْ عليه ريحٌ كنعت منه - أي أيبست - يديه ورجليه، وأصابتهم ظلمة شديدة... فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجاً».

حتى جاءه حبران من اليهود، فقالا: لعلك هممت بشيء في أمر هذا البيت؟

فقال: «نعم... أردتُ هدمَه» وذكر لهما ما قال الهذليون...

فصاح الحبران:

«ما أراد القومُ إلا هلاكَكَ وهلاكَ جُندِك. ما نعلم بيتاً لله اتخذه في الأرض لنفسه غيرَه. ولئن فعلتَ ما دعوك إليه لتَهلكن وليَهلكن من معك جميعاً».

ثم نصحا له إذا هو أقدم على «البيت» أن يصنع عنده ما يصنع أهله: يطوف به. ويعظمه ويكرمه. ويحلق رأسه عنده، ويذل له حتى يخرج...

قالوا: فعرف نصحها وصدّق حديثهما، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم

---

(١) الروض الأنف. ٢٧/١ ط الجمالية.

وأرجلهم... ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه، وأقام بمكة – فيما يذكرون – ستة أيام، ينحر بها للناس، ويسقيهم العسل، ثم كسا البيت أحسن الكساء...

فيقال إنه برئ من دائه وصحّ من وجعه.

ويعلق «السهيلي» على ذلك قائلاً:

وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحاً، فإن الله سبحانه وتعالى يقول:

«ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم»(١).

ثم يروي لـ«تبع» شعراً، يقول فيه:

وكسونا البيت الذي حرّم الله ـه مُلاءً منضداً وبروداً
ونحرنا بالشعب ستةَ ألفٍ فترى الناسَ نحوَهن ورودا
ثم سِرْنا عنه نؤمُّ سُهَيْلا فرفعنا لواءنا معقودا(٢)

ويأتي – فيما يلي – خبرُ صاحبِ الفيل الذي رده الله عن بيته في العام الذي وضعت فيه «آمنة» وحيدها، محمد بن عبد الله(٣)...

* * *

وتبلغ حرمة مكة عند القوم، مبلغاً يصوره لنا ما رووه عن السيدة «عائشة رضي

---

(١) من آية ٢٥ سورة الحج.

(٢) القصة مروية بمزيد من تفصيل في الجزء الأول من السيرة النبوية لابن هشام، والجزء الثاني من تاريخ ابن الأثير.

واقرأ في (السيرة: ١/٢٦) قصيدة «سبيعة بنت الأجَبِّ النصرية» لولدها «خالد بن عبد مناف بن كعب التيمي المري» تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغي فيها، وتذكر قصة تبع الحميري. ومنها أبيات في (نسب قريش: ٢٩٣) وفي (الصاهل والشاحج: ٥٣٠) ط أولى ذخائر.

(٣) السيرة.

الله عنها » أنها قالت : ما زلنا نسمع أن « إسافاً ونائلة » – وهما من أصنام العرب في الجاهلية – كانا رجلاً وامرأة من جرهم ، أحدثا في الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجَرين !

وقد ذكر ابنُ اسحق في « السيرة » وابن الكلبي في « الأصنام » وياقوت في « معجمه » ما تناقله الرواة من نسب هذين المخلوقين اللذين مُسِخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة (١) ...

كما يصور تلك الحرمَةَ ، ما نقل ابن هشام من سيرة ابن إسحاق : « أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعنٌ منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد ، إلا حمَل معه حجارة من حجارة البيت تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ... »

وكانت خدمة الكعبة نذراً غالياً تنذر له الأمهات والآباء فلذاتِ أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله إن هي ولدت رجلاً أن تتصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، قالت :

إني جعلتُ ربِّ من بنيَّهْ
ربيطةً بمكة العليّه
فباركَنْ لي بها أَلِيّه
واجعلْه من صالح البَرِيّه

بهذا ومثله حدّث النقلة وأكّد الرواة ، وإنه لشاهد على مدى ما وصلت إليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التي تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

---

(١) السيرة : ٨٤/١ وانظر « الأصنام » لابن الكلبي.

حاربت «خزاعة» جرهماً حتى أخرجتهم من مكة، وظلت ولاية البيت في «خزاعة» يتوارثها بنوها كابراً عن كابر، حتى انتزعها منهم «قصي بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر» الذي هو قريش على أرجح الروايات.

وكان «قصي» قد مات أبوه «كلاب» وتركه فطيماً، فخرجت به أمه «فاطمة بنت سعد» الأزدية حين تزوجها «ربيعة بن حرام بن ضِنَّةَ العُذري» واحتملها إلى بلاده، وبقي «زهرة بن كلاب» أخو «قصي» في مكة، إذ كان قد بلغ مبلغ الرجال...

وشب «قصي» غريباً وهو لا يعرف إلا أنه ابن «ربيعة» زوج أمه، حتى تسابَّ هو ورجل من قضاعة، فعيّره قائلاً:

- لست منا، وإنما أنت فينا مُلْصَق...

فدخل على أمه وقد وجم لذلك، فقالت له:

- يا بُني، صَدَقَ... إنك لست منهم، ولكن رهطَك خير من رهطه، وآباءك اشرف من آبائه، وأنت قرشي، وأخوك زُهرة، وبنو عمك بمكة، وهم جيران بيت الله الحرام...

وعاد إلى مكة رجلاً، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه، وإذ ذاك رأى أنه «أوْلَى بالكعبة وبأمر الكعبة، من خزاعة وبني بكر، لأنه قرشي، وقريش سليلُ اسماعيلَ وصريحُ ولدِه».

وشبّت الحربُ شعواء بين قريش ومن حالفها، وخزاعة وبني بكر، ثم تداعوا إلى الصلح والتحكيم، وحكّموا «يعمر بن عوف» البكري فقضى بأن «قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة، من خزاعة».

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب، ان مكة قد بدأت بقصيٍّ عهداً تضاءلت إلى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم، وجدّت فيها وظائفُ دينية أُضيفت إلى ما كان لها

من قبل، فكانت إلى قصي «الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء. وبها حاز شرف مكة كله، وأبقاه في ولده من بعده، ما يُعرَفُ أن أحداً نازعهم فيه قط...»

وكان أمر «قصي» في قومه، مدى حياته وبعد موته، كالدِّينِ المتبع لا يُعمل بغيره، واتخذ لنفسه دار الندوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها.

فلما أدركه الكِبَرُ ورقّ عظمُه، عزَّ عليه ألا يدرك ولدُه البِكرُ «عبدُ الدار» ما بلغه أخوه «عبد مناف» في زمان أبيه من شرف، فقال الشيخ لعبد الدار:

«أما والله يا بني لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك» ثم جعل إليه كل ما كان بيده من أمر قومه...

قالوا: وهلك قصي، ولبثت قريش على ما أراد لها زمناً، حتى قام بنو عبد مناف ابن قصي: عبد شمس، وهاشم، والمطلب، ونوفل، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عمهم «عبد الدار» مما كان جدهم «قصي» قد جعله إليه من: الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة، إذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم، فتفرقتْ عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل: لبني عبد الدار، الحجابةُ واللواء والندوة، ولبني عبد مناف: السقايةُ والرفادة...

وظائف دينية ضخمة، استحدث بعضَها «قصي»، وبعضُها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه، وسجله الشعراء مباهين.

قال «أوس بن تميم السعدي» مفاخراً بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة:

لا يبرح الناس ما حجُّوا مُعَرَّفَهم حتى يقال: أجيزوا آلَ صفوانا

مجدٌ بنـــاه لنـــا قِـــدْمـــاً أوائلُنـــا وأورثوه طوالَ الـــدهر أُخْرانـــا

وقال «عمير بن قيس» أحد بني مالك بن كنانة، يفخر بالنَسأة على العرب:

لقـــدْ علمتْ مَعَـــدٌّ أن قـــومي كرام النـــاس أن لهم كرامـــا
فـــأي النـــاس فـــاتونـــا بوتر؟ وأَي النـــاس لم نَعلِك لجامـــا؟
ألسنـــا النـــاسئين على معـــدٌّ شهورَ الحِـــل نجعلهـــا حرامـــا؟

وذلك أنه كانت للعرب في مكة أشهر حُرُم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو طلب ثأر، إلا أن ينسأها لهم أحد النسأة...

ثم كانت للعرب في مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع «ابراهيم» القواعد من البيت و«اسماعيل»، وعهد إليهما الله تعالى أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود:

«ربنا واجعلنا مسلِمينَ لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم».

«والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير، فاذكروا اسم الله عليها...».

وقد ذكرنا آنفاً، ما كان من تقديس بعض بني اسماعيل لحجارة الحرم التي حملوها معهم تبركاً، ثم خلف من بعدهم خلفٌ نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهَدْي البُدن، والإهلال بالحج، والتلبية.

* * *

وطال المدى و«مكة» مهوى الأفئدة وقبلة العرب، لا تكاد بقعة أخرى تطمح إلى منافستها أو تطمع في انتزاع مجدها، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى...

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة في خارج الجزيرة وداخلها، ما يتناقله الأخباريون من حديث البيت الذي أقامه «الغساسنة» بالحيرة، والكنيسة التي بناها «أبرهة الأشرم» في صنعاء، ليصرف إليها حج العرب...

وقد جلب إليها «الرخام المجزع، والحجارة المنقوشة بالذهب، من بقايا قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ، وفيه بقايا من آثار ملكها، فاستعان بذلك على ما أراده في هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والآبنس» (١).

ثم كتب إلى مولاه نجاشي الحبشة: «اني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْن مثلُها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب».

لكن «أبرهة» هلك دون غايته، وبقي البيت العتيق بمكة كما كان، مثابة الخائفين، وقبلة الحجاج العابدين، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه في الناس:

«وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍّ عميق» (٢).

وما تزال الدنيا تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذي استأثرت به «مكة» دون سواها من مدائن كبيرة، وحواضر أجمل منظراً وأرغد عيشاً وأخصب أرضاً...

وإنها لَبلدة أقرب إلى البداوة، في بقعة جرداء بوادٍ غير ذي زرع ولا ظل، وصفها أحد المستشرقين في القرن العشرين فقال:

«في قلب الصحراء، في واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية تحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها...

---

(١) الروض الأنف: ١/٣٠.

(٢) سورة الحج. آية ٢٧.

«تقع بين تلال صخرية سود، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء، ولا تلك الصحراء المترامية التي يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة. فحصاها، وصخورها الصم، تبعث إلى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق، ويصعد إلى السماء دخانه...

«وإذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة، بدت معالم الحياة كأنما جمدت في تلك الفلاة، فالوحشة تامة، والسكون مسيطر، ولا يصك أذنيك إلا صفير الريح الصرصر العاتية...

«وحتى السراب الذي يخدع المسافر فيجعله يأمل في النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة، لا وجود له، فلا نخيل هناك، ولا حدائق توحي بالتفكير فيها وتمنيها، فما من شيء ينبت في بلدة الرسول المقدسة، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية» (١).

* * *

حديثنا عن «مكة» و«البيت العتيق» قد طال.

ولا بأس علينا من ذلك، ففي هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التي عرفها التاريخ أمًّا خالدة.

فيها كان منبت «آمنة بنت وهب» والدة النبي العربي اليتيم الذي بعث في مكة، فأيَّد مبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلاً بعد جيل، واتخذ الإسلام من الكعبة التي تعبَّدَ فيها «الخليل»، قِبلتَه التي يُولي المسلمون وجوهَهم قِبَلها حيثما كانوا وأنّى أقاموا، ما عُبِد الله في الأرض!

أجل هي مكة، بلد «آمنة» ومهد ولدها الوحيد، ومثابة آبائه وأجداده، ودار مبعثه، وقبلة الذين آمنوا به أمسِ واليوم وغداً وإلى الأبد...

* * *

---

(١) بودلي: «الرسول» – الترجمة العربية للسحار.

بنو زهرة

«... لم يزل الله ينقلني من الاصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما»

(من حديث شريف)

في يوم لم يحدده التاريخ، في نحو منتصف القرن السادس الميلادي، رأت النورَ سليلةُ أسرةٍ نابهة، من القبيلة التي كانت ذات الشأن الأول في تلك المنطقة المقدسة، والتي استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة وما يتبعها من أمجاد وامتيازات...

وتحمل الأسرة اسم «زهرة» (١) ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي – وبه

(١) كذا في كل مصادرنا من كتب السيره وتاريخ الإسلام. وليس في جمهرة «أنساب العرب» ولا في «نسب قريش» إشارة إلى خلاف في أن زهرة رجل. فحيثما ورد ذكره في الأنساب فهو «زهرة بن كلاب». لكن جاء في «المعارف لابن قتيبة» ان زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة. قال «السهيلي» في «الروض الأنف ٧٩/١»: «وهذا منكر غير معروف، وإنما هو جدهم كما قال ابن اسحاق».

يشير إلى قول ابن اسحق: «فولد كلاب بن مرة رجلين: قصي بن كلاب، وزهرة بن كلاب»

وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم في الهامش: «وزهرة امرأة نسب إليها ولدها دون الأب، وهم أخوال الرسول ﷺ – ١٠٩/١ –» ثم لم يزيدوا، ولم يشيروا إلى مرجعهم في هذا. ويلاحظ عليهم انهم في رقم ١ من هامش الصفحة نفسها، نقلوا عن الطبري نصاً صريحاً في أن زهرة رجل كما نقلوا في هامش ص ١١٥ من الجزء نفسه، عبارة ابن قتيبة في المعارف، وتعليق السهيلي عليها: وهذا منكر غير معروف، وإنما هو – أي زهرة – اسم جدهم كما قال ابن اسحاق. ثم لم يعلقوا على هذا التناقض في الروايات عندهم.

كان يكنى فيقال : أبو زهرة [1] والأخ الشقيق لـ «قُصي» الذي ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثاً مجيداً لم تنافسها في شيء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها «محمد» حفيد قُصي وزهرة ابني كلاب ، بمجد الدهر وعزٍّ الأبد !

وأم زهرة وقصي : «فاطمة بنت سعد بن سَيَل» أحد بني الجدرة . لُقِّبوا بذلك نسبة إلى جدهم «عامر بن عمرو الأزدي» وكان قد بنَى للكعبة جداراً حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت إن جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها. فلما بنى «عامر» ، الجدار ، سمي الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببني الجدرة [2] ...

وفي سعد بن سَيَل ، جد زهرة وقصي لأمها ، قال الشاعر :

ما نرى في الناس شخصاً واحداً من علِمناه ، كسعدِ بنِ سَيَلْ
فارساً أضبط منه عسرةً وإذا ما واقَفَ القِرنَ نزلْ
فارساً يستدرج الخيلَ كما استدرج الحرُّ القطاميُّ الحجلْ [3]

* * *

عُرِف «بنو زهرة» منذ كانوا بالود الخالص لبني عبد مناف بن قصي دون إخوتهم من بني عبد الدار. وسبقت الإشارة ، في حديثنا عن «البيت العتيق» إلى ما كان من أمر «قصي» حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر «عبد الدار» ما بلغه ابنه «عبد مناف» من شرف ورفعة ، فقال قصي لبكره :

«أما والله يا بني لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليه : لا يدخل رجلٌ منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يَعقد لقريش لواءً لحربها إلا أنت بيدك ، ولا

(١) «نهاية الأرب» : ١٦ – ١٩.

(٢) المصعب الزبيري : نسب قريش ١٤ ذخائر – ابن هشام : السيرة ١٠٩/١ حلبي.

(٣) السيرة لابن هشام ، ١١٠/١. وانظر أخبار مكة للازرقي : ٦١ والقرن : النظير. والحر القطامي : الصقر.

يشرب أحدٌ بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا يُقطع أمر من أمورها إلا في دارك».

ثم كان ما كان من إذعان قريش لوصية شيخها حيناً ، ثم إجماع بني عبد مناف بن قصي : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش : فكانت طائفة مع بني عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم من قومهم ، أحق بالأمر من بني عبد الدار ، وكانت طائفة مع بني عبد الدار ، يرون ألا يُنزع منهم ما كان «قصي» جعله إليهم.

وعقد كل فريق على أمرهم حلْفاً مؤكداً ، على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فأخرجت نساء بني عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسموا بالمطيبين. كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا بالأحلاف.

وقد كان «بنو زهرة» مع بني عبد مناف في ذاك الحلف ، ولما عُبِّيَتْ كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحلاف ، عُبِّيَت «زهرة» لبني جمح ، وأقسمت لتفنينَّها[1].

كما كان «بنو زهرة» مع بني عبد مناف إخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم متجاورة كذلك ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شِق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم ومن انضم إليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَحَ وسهم ، وكان شِق الحجر لبني عبد الدار بن قصي...

* * *

وكذلك كان «بنو زهرة» ممن سبقوا إلى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش

---

(١) السيرة : ١/١٣٩.

إلى «حلف الفضول» قبل المبعث بنحو عشرين سنة، وكان أكرم حلف وأشرفه.
وذلك أن رجلاً من زبيد قدم إلى «مكة» ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عن الزبيدي حقه، فاستعدى عليه الأحلاف: عبد الدار، ومخزوماً، وجمح، وسهماً، وعدياً بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاصي وانتهروه. فلما رأى «الزبيدي» الشر، أوفى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعته ... ببطنِ مكة، نائي الدارِ والنَفرِ
ومُحرمٍ أشعثٍ لم يَقض عُمرتَه ... يا للرجال، وبين الحِجْر والحَجرِ
إن الحرامَ لمن تمَّت كرامتُه ... ولا حرامَ لثوبِ الفاجر الغَدُرِ

فقام على أثر ذلك «الزبير بن عبد المطلب» وصاح: ما لهذا مَتْرك!

قالوا: فاجتمعت هاشم وزهرة، وتيم بن مرة، في دار عبد الله بن جدعان: أحد بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي - وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة رضي الله عنها - فصنع لهم طعاماً، وتعاقدوا على «ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد له مظلمته».

وأنصفوا «الزبيدي» من العاصي.

فيروي «ابن اسحاق» بسنده إلى «طلحة بن عبد الله الزهري»: عن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعَى إليه في الإسلام لأجبتُ».

* * *

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التي عُرفت من قديم بصلة الود لبني عبد مناف ابن قصي، والتي ذكر لها التاريخ مشاركتها في الأمجاد الكبرى لقريش، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التي شهدتها «مكة» قبيل الإسلام، وتحالفها مع «هاشم»

وبنيه في الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول ... من هذه الأسرة كانت «آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة» التي توّجت ذاك المجد العريق بالشرف الذي لا يُدرك ولا ينال ...

جدُّها لأبيها : عبد مناف بن زهرة الذي يُقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصي ، فيقال : «المنافان» تعظيماً وتكريماً (١) .

وأبوها «وهب بن عبد مناف» : سيد بني زهرة شرفا وحسبا . وفيه يقول الشاعر :

يا وهبَ يا بنَ الماجد بن زُهره سُدْتَ كلابـا كلهـا ، ابنَ مُرّه
بحَسَبٍ زاكٍ وأمٍّ بَرّه (٢)

ولم يكن نسب «آمنة» من جهة أمها ، دون ذلك عراقةً وأصالة ، فهي ابنة «برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب» .

وجدتها لأمها : «أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي» .

ووالدة أم حبيب : «برة بنت عوف بن عُبَيْد بن عُوَيْج بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر» .

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت «آمنة» لتضطلع بعبئها الجليل في أمومتها التاريخية ...

ووراثات مجيدة ، أهدتها إلى ولدها فجمعتْ له عِزَّ المنافين : «عبد مناف بن زهرة ابن كلاب ، وعبد مناف بن قصي بن كلاب» وجعلته - ﷺ - يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه «ابن عباس رضي الله عنه» :

---

(١) جمهرة الأنساب : ١٢ .

(٢) في الروض الأنف (١٣٩/١) أن أم وهب : عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية ، إحدى العواتك من سليم . والذي في (نسب قريش ٢٦١) أن أم وهب ، جدة السيدة آمنة ، وأم أخيه أهيب ، أبي هالة أم حمزة بن عبد المطلب : قيلة بنت أبي قيلة وجز بن غالب ، سيد بني خزاعة .

«... لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما».

وعن «أنس رضي الله عنه» أنه قال:

قرأ رسول الله ﷺ: «لقد جاءكم رسول من أنفَسِكم[1] - بفتح الفاء - وقال: «أنا أنفَسُكم نسباً وصهراً وحسباً».

نسبٌ تَحسبُ العلا بحُلاه قلـــدتـــه نجومَهـــا الجوزاء
حبـــذا عقـــدُ سؤددٍ وفخـــار أنتَ فيـــه اليتيمـــة العصماء

* * *

(١) من آية ١٢٨ سورة التوبة. وانظر عيون الأثر: ١/٢٣، ٢٤.

المبحث الثالث

زهرة قريش

- فتاة زهرة
- فتى هاشم
- العرس
- البشرى

فتاة زهرة

«... وكانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسباً وموضعاً».

(ابن اسحاق)

تفتَّح صباها في أعز بيئة وأطيب منبت، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب، ما تزهو به في ذاك المجتمع المكي المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق...

كانت زهرة قريش اليانعة، وبنت سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، وقد ظلت في خدرها محجبة عن العيون مصونة عن الابتذال، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يتمثلونها في صباها الغض. والذي يعرفه المؤرخون عنها أنها – عندما خطبت لعبد الله ابن عبد المطلب – «كانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسباً وموضعاً»[(١)]...

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بني زهرة، فينتشر في أرجاء مكة ويثير أكرم الآمال في نفوس شبانها الذين زهدوا في كثيرات سواها، ابتذلتهن العيون والألسن، «وعُرف لبعضهن أثر فعال في المضاربات والمقامرات التي كانت ذائعة بين المكيين إذ ذاك، على حين اكتفت أخريات –كما ينقل بودلي– بمعاونة التجار والمقامرين في تبديد ما ربحوا، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن وحبهن، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق».

* * *

---

(١) ابن هشام: السيرة ١/١٥٦.

وقد عَرفت «آمنة» في طفولتها وحداثتها، ابن العم «عبد الله بن عبد المطلب» بين من عرفت من لداتها أبناء الأسر القرشية، إذ كان البيت الهاشمي أقرب هذه الأسر جميعاً إلى آل زهرة: جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه منذ عهد الشقيقين «قصي وزهرة: ولدي كلاب بن مرة».

عرفته قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها، وتلاقت وإياه في الطفولة البريئة على روابي مكة وبين ربوعها، وفي ساحة الحرم الأمين، كما جمعتهما مجامع القبيلة حيث كان عبد المطلب سيد بني هاشم ووهب سيد بني زهرة يتزاوران على ود، ويجتمعان للتشاور كلما أهمّ «قريشاً» أمر...

* * *

ثم حُجِبتْ «آمنة» حين لاحت بواكير نضجها، في الوقت الذي كانت فيه خطوات «عبد الله» تسرع به إلى الشباب.

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة إلى زَهرة قريش، وتسابقوا إلى باب بيتها يلتمسون يدها، ويزفون إليها ما لهم من مآثر وأمجاد.

فتى هاشم

«إن الله اصطفى كنانة من ولدِ اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريشٍ بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم».

حديث شريف : رواه «مسلم»

لم يكن «عبد الله» بين الذين تقدموا لخطبة «زَهرة قريش» مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعاً ، فما كان فيهم من يدانيه شرفاً ورفعة وفتوة...

فهو ابن «عبد المطّلب بن هاشم» و«فيه العمود والشرف. ولم يبق لهاشم عقب إلا منه. وقد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم».

وأمه «فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية» من صميم البيت القرشي ، وقد أنجبت لعبد المطلب : أبا طالب ، والزبير ، وعبد الله ، وأم حكيم البيضاء ، توأمة عبدالله ، وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، وأروى [1] .

وجدة «عبد الله» لأبيه ، «سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية» التي «كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهتْ رجلاً

---

(١) جمهرة الأنساب : ١٢ ، نسب قريش : ١٧ وتحرف فيها اسم «برة» بمرة. ثم جاء على صواب في صفحة ١٨.

فارقته »[1].

وجدته لأمه : « تَخْمُر بنت عبد بن قصي القرشية » وأمها « سلمى بنت عامرة بن وديعة الفهرية »[2].

* * *

ولم يكن غريبا ألا يبادر « عبد الله » إلى خطبة « آمنة » ، مع المعروف من نذر أبيه : لينحرنّ أحد بنيه لله عند الكعبة.

وأي القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم الذي يقرر مصير أبناء شيخ بني هاشم ، وفيهم عبد الله؟

ذلك أن « عبد المطلب » حين انتهت إليه إمارة « مكة » وولي السقاية فيما ولي من وظائف الحرم ، أخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب شُحِّ الماء.

وذكر بئر « زمزم » التي أنقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت إلى « مكة » القوافل على آثار الرعاة... وذكر ما تناقله الآباء عن الأجداد ، وردّدته الرواة في مسامر « مكة » ومجامعها ، من حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أُرغمتْ على الخروج من مكة. فودّ لو وفقه الله إلى العثور على موضع البئر المباركة المطمورة.

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى في منامه تبشره بتحقيق أمله وتلهمه أن يحفر عنها في موضع بعينه ، من الحرم.

روى « ابن اسحاق » عمن سمع « علي بن أبي طالب » يحدّث حديث جده وزمزم :

« قال عبد المطّلب : إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال :

---

(1) السيرة الهشامية : ١/١٤٥

(2) وفي قومها ، بنى النجار ، خئولة المصطفى ﷺ ، إذ هم أخوال أبيه عبد الله.

«احفر زمزم، إنك إن حفرتَها لم تندم، وهي تراث من أبيك الأعظم، لا تنزِف أبداً ولا تُذَم، تسقي الحجيج الأعظم، مثل نعام جحافلٍ لم يقسم...»[1].

فغدا «عبد المطلب» بمعوله ومعه ابنه الحارث، ليس له يومئذ ولد غيره، حتى إذا همّ بالحفر بين وثني «أساف ونائلة» قامت إليه قريش تصده قائلة: والله لا نتركك تحفر بين وثني هذين اللذين ننحر عندهما.

فالتفت «عبد المطلب» إلى ابنه «الحارث» وقال:

- ذُدْ عني حتى أحفر، فوالله لأمضِين ما أُمِرْتُ به.

وقاومت قريش، وأطمعها فيه أن كان قليل الولد، لكنه أصرّ على أن يمضي في الحفر، فلما بدت له الحجارة التي طويت تحتها البئر، رفع صوته مكبراً، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا:

- يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا اسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشركنا معك فيها...

قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خُصِصتُ به دونكم، وأُعطِيتُه من بينكم...

فقالوا: فانصفْنا، فإنا غيرُ تاركيك حتى نخاصمك فيها...

قال: لا، ولكن هلموا إلى أمر نصَفٍ بيني وبينكم: نضرب عليها بالقداح، أجعل للكعبة قدحين، ولي مثلها، ولكم كذلك، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له...

قالوا: أنصفت.

---

(١) السيرة: ١/١٥٤.

وضُربت القداح، فخرج قدحا الكعبة على الذهب، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع، وتخلف قِدحا قريش!

من ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحُجاج، لا ينازعه فيها أحد من قومه قريش (١).

* * *

يومئذ كان النذر:

ذلك أن عبد المطلب حين اشتغل بحفر البئر، وليس له من الولد سوى ابنه الحارث، وقد لقي من قريش ما لقي، نذر يومئذ، لئن وُلد له عشرةُ نفر ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه، لينحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة.

وتوافى بنوه عشرة، وكان «عبدالله» أصغرهم جميعاً (٢)، فتلبث عبد المطلب حتى إذا عرف أنهم بحيث يمنعونه، دعاهم إلى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين...

* * *

أصبحت «قريش» ذات يوم من شهر جمادى الأولى قبل المبعث بنحو إحدى وأربعين سنة، ولا حديث لها إلا «عبد المطلب» الذي خرج ببنيه العشرة إلى الكعبة، وقد حمل كلٌّ منهم قِدْحاً عليه اسمُه، مستسلمين للمصير المحتوم.

---

(١) السيرة الهشامية: ١٥٠/١ - ١٥٥ وشرحها في الروض الأنف: ١٦٦/١ - ١٧٤.

(٢) السيرة: ١١٤/١ - شرح المواهب للزرقاني ٩٤/١ - نهاية الأرب: ٥٠/١٦، ٥١. وعلق ناشرو السيرة، على قول ابن اسحاق: «وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بني أبيه» بما نصه: «الظاهر أنه يريد أن عبد الله كان أصغر ولد أبيه حين أراد نحره. أو لعل الرواية: أصغر بني أمه. وإلا فالمعروف أن حمزة كان أصغر من عبد الله... » الخ، ولا نرى وجهاً لهذا التعليق، إذ لا خلاف في أن حمزة ولد بعد حادث الفداء، وكان ترباً لمحمد ابن أخيه عبد الله. وفي الخبر أن عبد المطلب خطب لنفسه هالة الزهرية يوم خطب لابنه عبد الله آمنة بنت وهب. وهالة هي أم حمزة بن عبد المطلب. راجع (جمهرة أنساب العرب: ١٣)، و(نسب قريش: ١٧)، و(الاستيعاب: ٣٧١/١ ط. نهضة مصر).

وخفقت قلوب نساء قريش عطفاً وحناناً في انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عدداً منهن قد ذهب فيمن ذهب إلى الكعبة ، ليسمع كلمة السماء في الذبيح المختار ، على حين بقيت «آمنة» مع من بقين ، لا تستطيع إن تبرح دار أبيها ، وان أقامت تترقب الأنباء في لهفة ، وهي لا تدري أي بني العم عبد المطلب ، يختاره ربُّ الكعبة وفاءً بنذر شيخ الهاشميين...

ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك في الحرم...

* * *

ثم انتشر الخبر فجأة في أرجاء مكة ، متنقلاً بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع «بنت وهب» :

لقد اختارت الكعبة «عبدالله» ذبيحاً.

ووجمت «آمنة» للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن يُنحر زين شباب مكة وأعز أبناء «عبد المطلب» على أبيه وعلى قريش جميعاً !

وبكت بنات عبد المطلب ، وكنّ قياماً هناك ينتظرن أمر الله (١) ...

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعاً ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على «هبل» في جوف الكعبة ، وأخبر صاحبَ القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة ، بكل ما يملك من شجاعة وإيمان ، ليقول لصاحب القداح :

«اضرب على بَنِيَّ هؤلاء بقداحهم هذه» !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذي فيه اسمه ، وأبوهم يُنَقِّل عينيه بينهم جميعاً ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم «عبد الله» ففاض قلبه رقة وحباً وإشفاقاً ، ورأى «أن السهم إذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى» (٢)

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥٣/١ ط. أوروبا.

(٢) السيرة الشامية : ١٦٢.

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و«عبد المطلب» قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه ، وأخذ فتاه الغالي بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على «أساف ونائلة» ليذبحه (١) !

بهذا كله ، طارت الأنباء في أرجاء «مكة» حتى بلغت حيَّ بني زهرة ، ثم أمسك الراوي ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة !..

وأقفرت دار سيد بني زهرة من رجالها ، كما أقفرت أندية قريش جميعاً ودورها... فهل ذهبوا ليشهدوا مذبح عبد الله ، ويكونوا إلى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة والبلاء المبين؟

هكذا ظنت «آمنة» وتمنت في تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق في إثر قومها وهم يسعون إلى الحرم مهرولين. ولكن ماذا كان بوسعها – لو أنها استطاعت الذهاب إلى الحرم – أن تصنع من أجل إنقاذ ابن العم؟ لقد قضي الأمر وفات أوان الضراعة والدعاء.

وولى النهار...

وأقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يثوبوا بعد إلى دورهم.

ما الذي أمسكهم هناك وعاقهم؟ لم تكن «آمنة» تدري ، حتى عاد من يخبر أن الرجال قد ارتحلوا عن «مكة» فما فيها منهم الليلة سامر!

وانبثق شعاع هزيل من الأمل وسط الظلمات المتراكمة ، حين مضى الراوي في حديثه يقول :

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٢/١ ، الطبري ١٧٣/٢ ، نهاية الأرب : ٥٤/١٦.

«لم يكد الأب يهم بذبح فتاه، حتى قامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟

قال: أفي بنذري...

فقالت له قريش وبنوه:

– والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه. لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا[1]؟

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومي – وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية: أُم عبد الله والزبير وأبي طالب – فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح:

– والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وأضاف شيوخ قريش:

– فلتنطلق بولدك إلى عرافةٍ بخيبر، لها تابع، فلتسألنها: إن أمرتْك بذبحه ذبحتَه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج، قبلتَه[2]...

فنزل «عبد المطلب» على رأي القوم، وانطلقوا في طريق «خيبر» يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز.

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوباً واجفة وعيوناً مسهدة، وجنوباً قد نَبَتْ بها المضاجع، وألسنة ضارعة في جوف الليل، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر: عبدالله، زين الشباب من بني هاشم...

وأعقبت رحيلهم أيام قاربت العشرين عداً، وانياتِ الخطو بطيئات المسرى، كأنما كانت تجر أثقالاً من الصم الصلاب...

---

(١) السيرة لابن هشام: ١٦٢/١ – والكامل لابن الأثير: ٦/٢.

(٢) اختلفوا في اسم العرافة، فقيل: قطبة، وقيل: سجاح. انظر السهيلي (١٧٧/١)، والزرقاني (٩٦/١)، والنويري (٥٥/١٦).

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة، مقفرة خلاءً.

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار...

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتي من الشمال، ترقب عودة الركب الراحل...

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأً عن مصير الفتى العزيز...

وتوقفت الحياة أوكادت في تلك الأيام العشرين، فقد غاب عن «مكة» شيخها وفتاها، ومعها سادة قريش ونجومها الزُّهْر...

وراح العبيد والإماء يسعون بين الدور وممر القوافل، يلتمسون هنالك وافداً من «خيبر» يعرف شيئاً من أنباء الركب الغائب...

وشهدت الليالي نفراً من العقائل الكريمات، يتسللن من أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة، فإذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات، ثم انطلقن على أثر ذلك إلى «المسعى» بين الصفا والمروة، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة «هاجر» في هذا المكان، وأن ينقذ «عبد الله» كما أنقذ جده «اسماعيل» !

* * *

ثم كان لهذا كله آخر: لاحت على الأفق الشمالي سحب من غبار مستثار، تكشف عن قافلة تغذ السير إلى «مكة» فعرج الغلمان على قمم الروابي ورؤوس الجبال، يستكشفون أمر القافلة، فإذا الركب يدخل «مكة» على عجل ساعياً نحو ساحة الحرم، وهناك ترجلوا جميعاً ولبثوا قائمين يدعون، على حين مضت رسلهم إلى أحياء قريش تجمع الإبل وتسوقها نحو «البيت العتيق».

وسعى غلام من موالي «بني زهرة»، يحدث سيدات البيت القرشي عما شاع في البلد الحرام وذاع، من خبر العرافة والنذر:

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر، وقص عليها «عبد المطلب» خبره وخبر ابنه «عبد الله» وما أراد به وفاء بنذره فيه. فقالت لهم:

- ارجعوا عني اليومَ حتى يأتيني تابعي فأسأله...

فلما مضوا عنها قام «عبد المطلب» ليلَته يدعو ربه، ثم غدوا عليها فقالت لهم:

- قد جاءني الخبر: كم الدية فيكم؟

أجابوا: عشرة من الإبل...

قالت: فارجعوا إلى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشراً فعشراً حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم...

بعد فترة لم تطل، سُمِعَت ضجةٌ عالية تقترب، وإذا جماعة من وجوه «هاشم وقريش» يتقدمهم «عبد المطلب» وإلى يمينه «عبد الله» وهم يقتربون من بيت سيد «زهرة».

إذن فقد نجا فتى هاشم!

ما أوسع رحمتك يا رب!

وهمت «آمنة» بأن تسعى إلى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحباً بالوافدين الكرام.

* * *

العُرس

«ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبدالله – إثر افتدائه من الذبح – فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة... وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوجه ابنته آمنة...»

(ابن اسحاق)

فيم كان مقدمهم؟...

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد، فلقد أقبلت عليها أمها «برة» بعد قليل، متهللة الوجه مشرقة الأسارير، لتحدثها عن «عبد الله» كيف افتدي من النحر:

«قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قرَّبوا عبد الله وعشراً من الإبل، وضربوا فخرج القِدْحُ على عبدالله.

«فزادوا عشراً أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله...

«ثم ما زالوا يزيدون عشراً بعد عشر، والقِدح يخرج على عبدالله...

«حتى بلغت الإبل مائة، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح، لأول مرة، على الإبل، فهتفت قريش ومن حضر:

– قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه في ارتياب ثم قال :

– لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

«فضربوا على عبد الله وعلى الإبل المائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القِدح على الإبل ، ثم عادوا الثانية ، فالثالثة ، والقِدْحُ يخرج عليها !

«وإذ ذاك اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونُحرت الإبل ، ثم تُركت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع !» [1].

وسكتت الأم «برة» وقد بان عليها أنها لا تزال تطوي الذي جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها «آمنة» في لهفة ، لكن الفتاة أفلحت في أن تخفي رغبتها في معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء إلا تمهيداً لشأن آخر.

وإذ هما في مجلسها ذاك ، ترنو إحداهما إلى الأخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفي ، دخل عليهما «وهب» ليقول لابنته في رقة وحنو:

«إن شيخ بني هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله» [2].

وعاد من فوره إلى ضيفه الكريم ، وترك «آمنة» في شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عالياً حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة إلى جوارها : أحقاً آثرتها السماء بفتى هاشم زوجاً؟

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٣/١ .

(٢) في السيرة لابن هشام «١٦٤/١» أن وهباً هو الذي زوج ابنته آمنة . ومثله في عيون الأثر (٢٤/١) والذي في طبقات ابن سعد «٥٨/١» أنها كانت في حجر عمها وهيب ، ويضيف الخبر أن عبد المطلب خطب في المجلس نفسه «هالة بنت وهيب» وهي أم ولده حمزة .

ووضعت «آمنة» يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن انفعالها بالذي سمعت، ولم تفت هذه الحركة أمها. فاحتضنتها في حنو غامر، خدَّر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها إلى صدر الأم...

* * *

وطاب لها أن تبقى هكذا في حضن أمها، صامتة هادئة، لولا أن سيدات آل زهرة توافدن واحدة في أثر أخرى، مهنئات مباركات.

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى إليهن من تعرض نساءٍ من قريش لـ«عبد الله» ووقوفهن في طريقه بين الحرم ودار «وهب» يعرضن أنفسهن عليه عرضاً صريحاً بادي اللهفة...

وسمعت «آمنة» من حديثهن ذاك عجبا!

سمعت أن بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي [1] القرشية، استوقفت «عبد الله» قريباً من الكعبة فقالت له:

– أين تذهب يا عبد الله!

فأجاب في إيجاز: مع أبي...

---

(١) هكذا اكتفى ابن اسحاق بذكر نسبها دون اسمها (السيرة: ١٦٥/١) ومثله ابن سعد في طبقاته (٨٥/١ أول) وكذلك لم يسمها ابن سيد الناس، واكتفى بأنها أخت ورقة بن نوفل (عيون الأثر ٢٣/١) لكن بهامش السيرة أن اسمها «رقية بنت نوفل» ونقل النويري في نهاية الأرب (٥٨/١٦) أن اسمها «قتيلة بنت نوفل» ونقل السهيلي في الروض الأنف «١٠٢/١» أن اسمها «رقيقة» ومثله في نسب قريش ١٧. ولم يذكرها ابن حزم في جمهرة أنساب العرب: (١١١) مع ولد أبي ورقة «نوفل بن أسد بن عبد العزى» وإنما الذي فيه «رقيقة بنت خويلد» أخت السيدة خديجة، وأخت نوفل بن خويلد – لا نوفل بن أسد – الملقب أسد قريش، وأسد المطيبين...

واقرأ حديث من عرضن أنفسهن على عبد الله، في الجزء الأول من السيرة، وفي تاريخ الطبري ١٧٤/٢، والكامل لابن الأثير: ٤/٢ وعيون الأثر ٢٣/١...

قالت : لك مثلُ الإبل التي نُحِرت عنك اليومَ ، إن قبلتَ أن أهب لك نفسي الساعة !

فرد عليها معتذراً في تلطف :

- أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه...

وقيل ان «فاطمة بنت مر» - وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر الطبري وابن الأثير ، كاهنة من خثعم [١] - دعته إلى نكاحها فنظر إليها وقال :

أمـــا الحرامُ فـــالماتُ دونـــه
والحل ، لا حـــل فـــأستبينـــه
فكيـف بـــالأمر الـــذي تبغينـــه

وقيل كذلك إن «ليلى العدوية» عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها...

بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن إلى «زَهرة قريش» حين توافدن عليها للتهنئة...

ولعلهن التمسن لهؤلاء النسوة عذرا : أن كان عبد الله الذبيح المفتدى ، وأن لم يُفْدَ أحد قبله بمائة من الإبل «وما رئي رجل في قريش قط ، أحسن منه» [٢] .

هنيئاً لك يا آمنة ، لقد ظفرت بمن «تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله !»

* * *

ترى هل حدث ذلك كله ؟ قدامى المورخين وكتاب السيرة ، يروونه في غير شك ولا ارتياب ، وأما المحدثون فنرى منهم «الدكتور محمد حسين هيكل» يقرر أن الوقوف لتقصي أمثال هذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن إليه ، هو «أن عبد الله كان شاباً وسيماً قوياً ، فلم

(١) تاريخ الطبري : ١٧٤/٢ والكامل لابن الأثير : ٤/٢ .

(٢) عيون الأثر : ٢٣/١ عن الزبير - هو ابن بكار - .

يكن عجباً أن تطمع غير آمنة في الزواج منه ، فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين».

وكذلك قال «بودلي» في كتابه (الرسول) :

«وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة . فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرًا وذيوع صيت في مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب . تحطمت قلوب كثيرات من سيدات مكة».

ولو كنا هنا نعرض حياة «آمنة» عرضاً تاريخياً بحتاً لكان فرضاً علينا الوقوف لتوثيق هذه المرويات ومقابلة أسانيدها والتماس موضع رجالها عند أئمة النقاد... أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضاً أدبياً فنياً ، فحسبنا أن نطمئن إليها ، ونرى فيها حقيقة الصورة التي تمثلها القوم للأم التي ولدت بطلنا الأعظم...

ولا نكاد نشك في أن «آمنة» سمعت كثيرا ، وهي على وشك الزفاف ، عن تطلع غيرها من القرشيات إلى فتاها الموموق ، وأنها تلقت التهنئة الحارة بزواجها من الشاب الهاشمي الذي ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر فتوته ونضارة حيويته... وأطالت التفكير في فتاها الذي لم يكد يُفتدى من الذبح حتى هرع إليها خاطباً ، زاهداً في كل أنثى سواها ، غير مُلقٍ أذنيه إلى ما سمع من دواعي الإغراء !

واستمرأت طعم تأملاتها في زحمة المهنئات ، وطاب لها أن تغيب عنهن وهي بينهن حاضرة ، تتمثل «عبدالله» وهو يداري عواطفه طويلاً فلا يتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مصيره ، ثم لما نجا ، كانت دار «آمنة» قبلته بعد الحرم ، ومقصده إثر النجاة ومبتغاه ، فهو يسعى إليها لم يكد يطيق الصبر عنها بعد الفداء...

كم فكر فيها عبدالله؟ !

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذي احتمله وعاناه؟ !

في منطق الفطرة السوية ، أن هذه الأسئلة مما خطر على بال «آمنة» وهي في حلمها المستغرق ، حتى أفاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب...

* * *

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقاً بالشاب الذي مسَّت الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الموت إلا قيد شعرة ، أنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشاعل في شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه «ابراهيم» إلى الجبل لكي يذبحه طاعة وتعبداً ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى...

إنها القصة التي تناقلها آباؤهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه في البيت العتيق الذي رفع القواعدَ منه ابراهيمُ وولده اسماعيل ، الذبيح المفتدى...

والمفتدى هذه المرة ، هو حفيد أصيل من ذرية «اسماعيل» التي انتشرت في الأرض وتوارثت مجد الجدود...

وغير مستبعد أن يخطر لبعض السمار في ليلة العرس ، أن يصلوا ما بين الذبيحين «اسماعيل وعبد الله».. وربما أبعد بعضهم ، فحاول أن يتلمس وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر «عبد الله» من أمر ذي شأن ، كذلك الذي كان لإسماعيل بعد الفداء...

* * *

واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان «عبد الله» أثناءها يقيم مع عروسه في

دار أبيها على عادة القوم [1] ، حتى إذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها إلى داره كي يهيئها لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هي في ذاك اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التي استقبلتها وليدة ورعتها صبيةً ، وزفَّتها عروساً...

ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغض. وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت في رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهي تتلفت بين خطوة وأخرى إلى الربوع التي خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجي مرارة وعذوبة معاً !

وانطوت على ذاتها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسري حالما !

حتى تلقاها «عبد الله» على باب داره متلهفاً مشوقاً ، فرفعت إليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ، وتألقت في عينيها دمعتان صافيتان...

وأدرك «عبد الله» ما بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذي فارقته وشيكاً ، بل قادها في رفق إلى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعِدت هنالك مجالس للضيوف الكرام الذين صحبوا العروس إلى بيتها...

وراح يريها بيتها الجديد...

ولم يكن البيت كبيراً ضخم البناء ، لكنه إذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عُدَّ رحباً مريحاً لعروسين يبدآن حياتهما المشتركة...

كان ، كما وصفوه [2] : ذا درج حجري يوصل إلى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه إلى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً في عرض ستة أمتار ، وفي جداره

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ، وعيون الأثر ٢٥/١ .

(٢) محمد لبيب البتانوني : الرحلة الحجازية .

الأيمن باب يدخل منه إلى قبة ، في وسطها – بميل إلى الحائط الغربي – مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس...

* * *

وترك «عبد الله» عروسه في مخدعها مع رفيقاتها من سيدات «آل زهرة» ، ثم خرج إلى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الكرام الذين صحبوا العروس إلى بيتها...

ومضى وهَن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التي انتقلت إليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسباً وأعرقهم نسباً...

* * *

البشرى

وسمعت هاتفاً يهتف بها في رؤياها :
«إنك قد حملت بسيد هذه الأمة»
(ابن اسحاق)

ثم آب الضيوف إلى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و«عبد الله» جالس إلى «آمنة» يؤنسها بحديث مثير عما رأى في رحلته إلى كاهنة الحجاز...

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

– هلا حدَّثتني يا عبد الله عن أولئك النسوة اللاتي شغلنك في أيامك هذه ؟

فانبسطت أساريره لإقبالها عليه ، وقال يجيبها :

– ما شغلنني عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذي سمعتِ من تعرضهن لي ، وانصرافي عنهن إليك وحدك !

على أن للقصة بقية لمَّا تسمعي بها ، حدثت في يومنا هذا ، إذ كنت عائداً من بيت أبيك لكي أهيِّئ داري لاستقبالك وشغلتُ بهذا يومي كله ، فلم أكد أحدث أحداً بما كان !

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

– أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكةَ الأوحد ؟

فتبسم ضاحكاً من دعابتها الحلوة ، وأجاب :

-كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذي تعلقن به منذ أيام ، وأنستْهن رغبتُهن فيه ما عُرف عن مثلهن من صدٍّ وتمنع !

وأمسك فترة يرنو إلى صاحبته ، كأنه يريد أن يلمس وقع الحديث عليها . فما زادت على أن أومأت إليه يمضي في قصته.

فاستجاب لإيماءتها واستطرد يقول :

- أجل يا ابنة وهب ! زاهدات في فتاك كأنه أُبدِل خلقاً جديداً . مررتُ بهن اليوم في طريقي بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشَحْن عني بوجوههن معرضَات ، إلى حد أثار عجبي وفضولي إلى معرفة سر هذا الانقلاب ، فسألت إحداهن «بنت نوفل» :

«مالك لا تعرضين عليّ اليوم ، ما كنت عرضتِ عليَّ بالأمس ؟»

فكان جوابها العجيب أن قالت :

«فارقكَ النورُ الذي كان معك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة !» [١] .

وكذلك أعرضت عني «فاطمة بنت مر» قائلة :

«قد كان ذلك مرةً ، فاليومَ لا» [٢] .

ثم أضافت : «إني والله ما أنا بصاحبة ريبة [٣] ، ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون لي ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعتَ بعدي» !

قلت : «زوجني أبي آمنة بنت وهب».

---

(١) الحوار بنصه عن «ابن اسحاق» - السيرة : ١٦٥/١ .

(٢) ذهبت كلمتها هذه مثلاً ، انظره في مجمع الأمثال للميداني : ٣٤/٢ .

(٣) هذه عبارة الطبري : ١٧٤/٢ ، وابن الأثير ٤/٢ ، وفي نهاية الأرب : إني والله لست بصاحبة زنية ٦١/١٦ .

فانشدت [1] :

لله مـــــا زُهريـــــــةُ سلبتْ منكَ الـذي استلبت ومـا تدري !

ثم قالت في تحسر:

ولما قضت منه «أمينةُ» ما قضت نبـــا بصري عنـــه وكـلّ لساني

وسألتُ الثالثة : «ليلى العدوية» ماذا صدها عني؟.. فأجابت :

«مررتَ بي وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتُك فأبيتَ عليّ ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها».

وصمت «عبد الله» وسكتت العروس ، وقد راحا يفكران في ذلك الموقف الغريب الذي وقفته نسوة قريش من «عبد الله».

ثم كانت «آمنة» هي التي قطعت الصمت فجأة ، بأن طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين «بنت نوفل».

فتساءل «عبد الله» وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

- ولماذا تسألين عن بنت نوفل دون سواها؟

أجابت «آمنة» في جد :

- ستعرف بعدَ ، فهلا أعدتَ لي ما قالت؟

فلم يسع عبد الله إلا أن يقول :

- سألتها : مالَكِ لا تعرضين عليّ اليوم ما كنتِ عرضتِ عليَّ بالأمس؟

فأجابت : فارقك النور الذي كان معك ، فليس لي بك اليوم حاجة.

---

(١) انظر بقية الأبيات في تاريخ الطبري (٢/١٧٤) والروض الأنف: ١/١٨٠ ، ونهاية الأرب : ٧٧/١٦.

فعلّقت «آمنة» بعد فترة تفكير:

- والله يا ابن العم، إني لأرى لهذا الأمر ما بعده، فهذه المرأة أخت «ورقة بن نوفل» وهو - كما تعلم وأعلم - قد تنصر واتبع الكتب، وبشر بأن سيكون في هذه الأمة نبي!

ثم استطردت تقول بعد صمت قصير:

- تراني نسيت أن فاطمة بنت مر، قرأت الكتب كذلك وهي بعد كاهنة خثعم [1].

فحدق «عبد الله» في زوجته ملياً ثم هتف:

- ترين يا آمنة أننا...

فلم تدعه «آمنة» يكمل عبارته، واستغرقت في رؤيا ملهمة، استعادت فيها كلّ الذي كانت الجزيرة تمتلئ به من شائعات وارهاصات عن نبي منتظر!

ونامت ليلتها، وما تكف هذه الرؤيا عن الإلمام بها، و«عبد الله» إلى جانبها ساهر يقظان، يرقب في نور الفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التي يتألق بها وجهها الحلو، وهي نائمة تحلم.

حتى إذا دنا الصبح، استيقظت العروس «آمنة» من نومها الهنيء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها:

رأت كأن شعاعاً من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضيء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض الشام. وسمعت هاتفاً يهتف بها: «إنك قد حملت بسيد هذه الأمة...» [2].

* * *

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/١٧٤ والنهاية لابن الأثير: ٢/٤.

(٢) السيرة لابن هشام: ١/١٦٦.

وبقي «عبد الله» مع عروسه أياماً لم يحدد لنا التاريخ عددها، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام، إذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة إلى غزة والشام في عِير قريش.

وأغلب الظن أن كلام «بنت نوفل» عن النور الذي فارق عبد الله الى «آمنة» قد شغل أويقات السمر في تلك الأمسيات المعدودات التي قضاها العروسان معاً قبل أن يفترقا، وأن الأحلام قد حلقت بهما في آفاق عليا، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية، قلّ من شارفها أو طمح إليها.

وربما تذكرا خبر «سوداء بنت زهرة الكلابية» إذ وُلِدَتْ ورآها أبوها زرقاء شيماء فأراد وأدَها، فأتى الحجونَ ليدفنها هناك، فلما حفر لها الحافرُ سمع هاتفاً يقول:

«لا تئد الصبية وخلِّها في البرية»...

وتكرر ذلك، فعاد إلى أبيها فقال: إن لها لشأنا، وتركها. فكانت كاهنةَ قريش، فقالت يوماً لبني زهرة: ان فيكم نذيرة أو تلد نذيراً، فاعرضوا عليّ بناتكم. ففعلوا، فقالت لكل واحدةٍ قولاً ظهر بعد حين، حتى عُرِضتْ عليها آمنةُ فقالت: هذه النذيرة، أو تلد نذيراً[1].

* * *

(١) الروض الأنف: ٤١/١.

المبحث الرابع

العروس الأرملة

- فِراق

- رسول إلى يثرب

- غائب لا يئوب؟

فـــراق

ثم حانت ساعة الفراق !

ودّع «عبد الله» زوجه الحبيبة حين أذّن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت به «آمنة» وقد ساورها هاجسٌ من قلق وتوجس ، ارتعدت منه . فربت «عبدالله» على يدها اللطيفة في حنو، وهو يظن أن الذي بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك...

ثم انتزع نفسه منها ، ووقف في فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

– ان هي إلا بضعة أسابيع ، ثم أعود إليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة...

فهمست في صوت شبه مختنق :

– وماذا أصنع بنفسي وأنت بعيد؟

أجاب ملاطفا :

– تسامرين طيفي الذي لن يبرح مطيفاً بك محوماً عليك ، وترعَين قلبي الذي أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع أبداً إلى أعز موضع ، ويحن إلى أحب وأجمل مَن خلق الله !

فتراخت يداها وأنّت في ضعف :

– ويلي يا عبد الله من لياليّ الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه إليها:

- لا ويل لك يا آمنة! ستشاغلك طوالَ لياليك رُؤى مؤنسة. أفنسيت حديثَ بنتِ نوفل، وفاطمة بنت مر، ورؤيا الأمس القريب؟

وإذ بلغ الباب، انفلت مسرعاً قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه، على حين بقيت «آمنة» حيث كانت، واقفة بباب مخدعها الموحش، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتمزق...

وأدركتها بعد ساعة، جاريتها «بركةُ أم أيمن» فقادتها برفق إلى فراشها، ثم جلست إلى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقي...

* * *

ومرت أيام وليال، و«آمنة» في فراشها لا تبرحه، تجتر أشجانها وترسل قلبها في أثر الحبيب الراحل. وقد حاول أهلها، كما حاول «عبد المطلب» أن يصرفوها عن وحدتها حرصاً على صحتها، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة لما كانت تجده في مسامرة طيفِ الغائب، من شجَن وشجو.

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن «آمنة» شعرت بالبادرة الأولى للحمل، وكان شعورها به رقيقاً لطيفاً. روى الحافظ ابن سيد الناس من طريق الواقدي بسنده إلى وهب بن زمعة عن عمته، قالت: كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به أمه كانت تقول:

«ما شعرت بأني حامل به ولا وجدت له ثقلةً كما تجد النساء، إلا أني أنكرت رفعَ حيضتي، على أنها كانت ربما ترفعني وتعود، فأتاني آت وأنا بين النوم واليقظة فقال: هل شعرتِ أنك حملت؟ فكأني أقول: ما أدري. فقال: إنك حملتِ بسيد هذه

الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين. فكان ذلك مما يقن عندي الحمل»[1].

وعن الزهري، قال: قالت آمنة: لقد عِلِقتُ به فما وجدت مشقة حتى وضعته»[2].

وودت لو طارت بالبشرى إلى «عبد الله».

واستعادت شيئاً من إشراقها، وقد هوّن عليها مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمتْ، وأن كل يوم يدنيها من اللقاء المنتظر، ويزيدها يقيناً من الحادث السعيد الذي ترجو أن تلقى به زوجها في اللحظة التي يؤوب فيها!

وأهلّ الشهر الثاني أو مضت قطعة منه، وآن للقافلة أن تعود، فتهيأت «آمنة» للقاءٍ وشيك، وراحت تعد ما بقي من أيام وليال، وتتمثل زوجها وقد عاد إليها متلهفاً يحدثها عما لقي في بعدها من حرّ الشوق ولهفة الحنين. ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام، ريثما تستمتع بحديثه الشجي؟

بهذا شغلت «آمنة» في الفترة التي سبقت عودة القافلة، ثم لما لاحت طلائعها، خفق قلبها ووقفت في ساحة الدار مما يلي الباب الخارجي، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى، وتشرق منه طلعة الحبيب...

وطال بها الانتظار حتى ساورتْها شكوك مبهمة وخوف طارئ، فتنبهت فجأة إلى غيبة جاريتها «بركة» وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين، كي تعجل بالبشرى إلى سيدتها.

(١، ٢) عيون الأثر: ٢٥/١، وانظر معه شرح المواهب للزرقاني: ١٠٦/١.

وقد اختلفت الروايات في المكان الذي حملت فيه آمنة بسيد البشر، ففي قول انها حملت به في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى، قاله الزبير بن بكار (عيون الأثر ٢٦/١)، وفي قول إنها حملت به في بيت آلها بني زهرة «الاستيعاب لابن عبد البر: ١٦/١» وهو الأرجح.

وتناهى إلى أذنيها ضجيج اللقاء في الدور المتاخمة لدارها ، فأين عبد الله؟ ما الذي أمسكه عنها فلم يَعجَل إليها؟

لعله لقي – في طوافه بالكعبة إثر عودته – من احتجزه حيناً...

أو لعل أباه الشيخ آتٍ في صحبته ، فما يستطيع عبد الله إلا أن يمشي على مهل ، رعاية لشيخوخة أبيه...

أو لعل... ولعل... .

رسولٌ إلى يثرب

ثم... سمعت خطوات وانية تدنو من الدار، فتعلقت عيناها بالباب وهي لا تكاد تتماسك من انفعال، حتى إذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر، خذلتْها قدماها، فوقفت حيث هي، واجمة خائفة!

لم يكن «عبد الله» هو القادم، وإنما جاء «عبد المطلب» الشيخ في صحبة أبيها ونفر من أهليها الأقربين، وقد غشيتْ وجوههم غاشيةٌ من القلق.

وكانت «بركة أم أيمن» تمشي في أثرهم متخاذلة مطرقة، تحاول أن تخفي دمعة أفلتت من مقلتيها...

وقال «وهب» وهو يتحاشى النظر إلى وجه ابنته:

- بعضَ الشجاعة يا آمنة، فما في الأمر ما يدعو إلى مثل ذلك الجزع. عادت القافلة وكنا في انتظارها بالحَرَم، فلما افتقدنا «عبد الله» أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو في طريقه إلينا، وعما قريب يبرأ ويعود سالماً إليك وإلى مكة وقريش...

وانحلت عقدةٌ ربطت لسان «عبد المطلب» فعقَّب قائلاً:

- هو ذاك يا آمنة... وعكة بسيطة ولا شيء أكثر، وقد قال الرفاق: خلَّفناه بيثرب عند أخواله، فبعثتُ إليه أخاه الحارث [1]، كي يكون معه، ويصحبه في

---

(١) هذه رواية ابن اسحاق في السيرة، والواقدي (عيون الأثر ١/٢٦) والذي في النهاية لابن الأثير (٢/٣) ان الأخ الذي توجه إلى يثرب كان الزبير لا الحارث.

طريقه إلينا ، فثوبي إلى صبرك وادعي له...

قالت في ضعف : أفعل يا عم !

وانصرفت من فورها إلى الابتهال والدعاء ، فلم تكد تشعر بالقوم حولها ، حتى غادروها إلى الكعبة خاشعين ضارعين...

* * *

وأتم الشهر الثاني دورته ، و«آمنة» على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، وتلوذ بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذي افتُدي بالأمس أغلى فداء...

وكانت تعاودها ، في لحظات نومها القصيرة ، رؤيا مُلِحَّة ، عن جنين عظيم تحمله ، وتسمع الهاتف يبشرها بأمجد بنوة ، فإذا آبت إلى يقظتها ، شق عليها ألا تجد «عبد الله» بجانبها ، تفضي إليه بالذي ترى وتسمع ...

غائب لا يئوب

وبعد حين...

عاد «الحارث بن عبد المطلب» وحده...

عاد لينعى أخاه الشاب، إلى أبيه الشيخ، وزوجه العروس، وبني هاشم والقرشيين جميعاً...

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بني النجار، اثر رحيل القافلة التي تخلف عنها...

ودفن هناك – على أرجح الأقوال – ولم يُقبل فيه هذه المرة أيّ فداء!

* * *

ووجمت «آمنة» للخبر، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء...

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع، فلبثت أياماً لا تكاد تصدق النعي، حتى إذا تيقنت من الكارثة، فاضت عبراتها، ويُروَى لها في رثائه: [1].

عفا جانبُ البطحاء من زينِ هاشم
وجاور لحدًا خارجًا في الغماغم

(١) السهيلي: ١/١٠٧ – والزرقاني: ١/٢١٠ – والنويري: ١٦/٦٦.

دعتْــه المنــايــا دعوة فــأجــابها
وما تركتْ في الناس مثلَ ابن هاشم

عيشَةَ راحوا يحملون سريره
تعــــاوَرَه أصحـــابُــهُ في التزاحم

فــإن تكُ غــالتْــه المنونُ وريبُهــا
فقـــد كـــان مِعطـــاءً كثيرَ التراحم

ثم أمسكت لا تزيد...

ووجد عليه «عبد المطلب» وإخوته وأخواته وجداً شديداً (١) .

ولبست «مكة» كلها ثوب الحداد على فتاها الذي غالته المنون غريباً ولما ينزع عنه ثوب العرس، وضحلت من النواح عليه حلوق بُحَّتْ من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام...

كان عمره ثمانية عشر عاماً (٢) ، حين غاله الموت إثر فرحة الفداء!

وترملت العروس الشابة، وما يزال في يديها خضاب العرس!

---

(١) النويري: ٦٦/١٦.

(٢) هذا هو المشهور (السهيلي ١٨٥/١) ونقل ابن سعد في طبقاته عن الواقدي ان سنه كانت يوم وفاته خمساً وعشرين سنة، وقيل ثلاثون (عيون الأثر ٢٤/١) . وانظر نهاية الأرب: ٦٦/١٦. والحاوي للفتاوي: ٢٣٠/٢.

المبحث الخامس

أمّ اليتيم

- الجنين
- الوليد
- الرضيع

الحَنين

مـــــا مضت فترة من الرسْل إلا
بشرتْ قومَهـــا بك الأنبيـــاءُ
فهنيئـــاً بـــه لآمنـــة الفضـ
ـل الـــذي شرفت بـــه حواء
من لحواء أنها حملتْ أحمـ
ـدَ أو أنها بـــــــه نفساء

(البوصيري)

وانفضَّ المأتم...

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوي في لحده بعيداً عن يثرب...

كانوا في حيرة من أمره:

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعاً، ففيم كان الفداء؟

من كان يظن، حين نُحرت الإبل المائة بالحرم، وتُركت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع، أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى، على قيدِ خطوات معدودات؟

وفي مثل هذا، كانت «آمنة» تفكر، وهي في وحدتها تجتر أحزانها، وتكابد الذي تجد من لوعة المصاب، حتى خيف عليها، فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها، وهي تأبى أن تقبل في «عبد الله» عزاء...

وناشدوها الصبرَ الجميل، فأنكرت على نفسها الصبر، ووجدت فيه غدراً بالحبيب الذي رحل...

وأوجس «آل هاشم وزهرة» في نفوسهم خيفة، أن تشتد وطأة الحزن على «آمنة» فتذهب بها، ولبثت «مكة» شهراً وبعض شهر، وهي ترقب في قلق، إلى أين تنتهي الأحزان بالأرملة العروس...

حتى كانت ليلة من ليالي شوال، أحاط فيها العواد بفراش «آمنة» وهي في غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها:

فيم كان فداؤه إذن، ما دام الله قد كتب عليه الموت العاجل؟

وفيم كان العرس الحافل، ويدُ القدَر تحفر له لحدَه بيثرب؟

على أنها ما لبثت أن أُلهِمَتْ في نجواها:

- كأني عرفت سرّ الذي كان: إن عبد الله لم يُفتد من الذبح عبثا! لقد أمهله الله ريثما يودعني هذا الجنين الذي أحسست به اللحظة يتقلب في أحشائي، والذي من أجله يجب أن أعيش...

ومن تلك اللحظة الحاسمة، أنزل الله سكينته على «آمنة» فطوت أحزانها في أعماقها، وبدأت تفكر في ابنها الذي يحيا بها ويحييها...

* * *

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن أمومة «آمنة» أقف قليلاً لأشير إلى اختلاف الروايات في وفاة «عبد الله»:

هل كانت والابن جنين في رحم أمه؟

أو كانت بعد أن وضعته؟

لا مراء في أن الرسول يتيم، وقد نزلت بهذا آية الضحى: «ألم يجدك يتيماً فآوى»

والمشهور، أنه – ﷺ – ولد يتيماً. وقد اكتفى «ابن اسحاق» بهذا، دون أن يشير إلى أي خلاف فيه. قال: «... ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب، أبو رسول الله ﷺ، أن هلك وأم رسول الله ﷺ حامل به»(١).

ونقل «ابن هشام» عبارة ابن اسحاق هذه، من غير أن يضيف إليها أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا في هذا... وعن «الزهري» قال:

«أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم فمات بها، وقيل بل كان في الشام فأقبل في عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض، فتوفي بها... قبل أن يولد رسول الله ﷺ»(٢).

وتواتر الخبر عن زهد المراضع فيه ليتمه، عندما جئن من البادية إلى مكة يلتمسن الرضعاء.

وفي نهاية الأرب: «فذهب أخوه الحارث إلى يثرب فوجده قد توفي ودفن... ورسول الله ﷺ حمل»(٣).

لكن «السهيلي» نقل في (الروض الأنف): أن «أكثر العلماء على أن عبد الله مات والرسول في المهد، ذكره الدولابي. قيل ابن شهرين، ذكره ابن أبي خيثمة. وقيل أكثر من ذلك... وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهراً»(٤).

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة «السهيلي» التي ذكرناها آنفاً، بلا محاولة لتحقيقها...

وأشار «البرزنجي» إلى الخلاف إشارة عابرة فقال:

---

(١) السيرة: ١/١٦٧.

(٢) الكامل لابن الأثير: ٢/١٣ وعيون الأثر ١/٢٦.

(٣) للنويري: ٦/٦٦.

(٤) الروض الأنف: ١/١٨٤ – وانظر نهاية الأرب: ١٦/٦٦ وعيون الأثر ١/٢٤.

«ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ، توفي بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله في مرضه عائداً من الشام» (١).

وعلق «الشيخ عليش» على هذا في شرحه للمولد ، فذكر من الأقوال المروية التي أشار إليها البرزنجي : أن أبا الرسول توفي وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهراً...

* * *

وندع هؤلاء إلى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئناناً إلى رواية من قالوا إن عبدالله توفي وابنه جنين. قال بودلي :

«وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه إليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه في يثرب وهو في رحلة تجارية ، عقب زواجه من «آمنة» ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذي رأى النور في أغسطس سنة ٥٧٠ م ، بعد وفاته بشهور» (٢).

و«فيليب حتي» يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لا يشير إلى خلاف في ذلك (٣).

وتحدث «الدكتور هيكل» مطمئناً غير مرتاب ، عن سفر عبد الله إلى الشام في رحلته الأخيرة ، تاركاً «آمنة» حاملاً ، وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت إلى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه وُلِدَ له غلام (٤)...

غير أنا نجد عند بعض المفكرين المحدثين – أذكر منهم أستاذنا أمين الخولي – ميلاً إلى الرواية القائلة بأن محمداً ولد قبل أن يموت أبوه. وهم لا يحتجون لذلك بقوة سند

---

(١) المولد النبوي : ص ١٢.

(٢) الرسول : ص ٢٨ من الترجمة العربية.

(٣) تاريخ العرب : ص ١٣٥ ط ثانية من الترجمة العربية.

(٤) حياة محمد : ٦٩.

هذه الرواية ورجحانها على الرواية الأولى ، بل يستأنسون لها بما اطمأن إليه علم النفس من تأثير حالة الأم المعنوية على جنينها : جسماً وخلقاً وأعصاباً. وحياة «محمد» - ﷺ - تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفي واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عوداً وأثبتهم جناناً وأجلدهم أعصاباً ، فكان فيها جميعاً المثلَ والقدوة في الثبات والقوة ، مما قد يرجح أن أمَّه لم تُروَّع وهي حامل به ، بحزن منهك للأعصاب ، وترمل يحرمها طمأنينة البال وراحة النفس.

وهذا أقرب إلى أن يكون ترجيحا بالرأي لا بالأدلة.

وإذا كانت آية الضحى : «ألم يجدك يتيما فآوى» تصح شاهدا للقولين ، فإن القول بمولده يتيما صح عند أئمة من قدامى العلماء بالسير ، معه ما اشتهر من كفالة عبد المطلب لحفيده اليتيم ، من ليلة مولده ، وما كان من زهد المراضع فيه ليتمه.

ولنذكر ، في الحالة المعنوية للأم الحامل ، أنها وجدت في الجنين ، ابن عبد الله ، ما يلطف من حزنها الثقيل عليه ، وما يؤنس وحشتها في ترملها الباكر. والذي اشتهر من حديث خواطرها ورؤاها أثناء الحمل ، كاشف عن نفس مطمئنة ، أنزل الله سكينته عليها.

والله أعلم.

* * *

تسامعت بيوتات مكة بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل قريش على دار عبد الله ، يهنئن آمنة ، ويصغين إلى ما كان من بشريات المولد المبارك.

وكانت بلاد العرب آنذاك ، تموج بأقوال مرهصة بنبيٍّ منتظر ، قد تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب [١].

(١) بتفصيل ، في الشمائل للترمذي ، والشفا للقاضي عياض ، والسيرة الهشامية ١/١٢٧ وما بعدها ، وشرحها في الروض الأنف ١/١٨٠ - ١٨٤ ، وعيون الأثر ١/٢٦ - ٣١ ، ونهاية الأرب ، الجزء ١٦ ...

ولعل العرب لم يلقوا بالاً – أول الأمر – إلى هذا الذي ذاع وانتشر، غير أني أكاد أطمئن إلى أن «آمنة» قد ألقت كل بالها إلى تلك المبشرات، فما نسيت قط أن زوجها هو الذي استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء الذي لم يحدث منذ افتدي اسماعيل...

وقد بقي في مسمعها صدى قوي مما ذكرته أخت ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر – وقد كانت فيما روى الطبري وابن الأثير كاهنة من خثعم – عن النور الذي انتقل من «عبد الله» إثر زواجه، والغرة التي ذهبت بها «بنت وهب» فلم تدع لغيرها من النساء في «عبد الله» مأرباً...

ثم هي قبل هذا كله، سيدة من صميم البيئة الرفيعة الحاكمة في مكة، ومن شأن نساء هذه البيئة، أن يرنون إلى بعيد، وأن يرجون للأجنة في بطونهن مجداً لم يسبق إليه أحد...

* * *

وجمهرة المؤرخين المسلمين، لم يتهموا المرويات عن الهواتف والبشريات للسيدة آمنة، عندما حملت بسيد البشر... وان يكن «الدكتور هيكل» قد مر بهذا عابراً دون أن يشير إليه، فقال:

«وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى»[(١)].

وأكثر المستشرقين، يأبون روايات البشرى إباء صريحاً، حتى «بودلي» وهو من أكثرهم انصافاً وإعجاباً بالرسول، ﷺ، رفض أن يقبل الذي قيل في رؤى «آمنة» عندما حملت بمن صار نبياً. قال في كتابه (الرسول):

«لا توجد أسرار تحيط بمولد النبي، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل: فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده، ولا بشرتها بقدومه... وإنما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع»[(٢)].

(١) حياة محمد: ٦٩.

(٢) الرسول: ص ٢٥.

وإني ليدهشني أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل «بودلي» أعرف فيه الاعتدال والحرص على أمانة التأريخ وسلامة المنهج. لقد قرر أن محمداً «حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع» فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى من البشر، تحمل وتضع في مثل ظروف «آمنة»؟

لماذا يسمي ما روي عن خواطرها ورؤاها «خرافات لا يقبلها عقل»؟

أو ليس من حقها، أن يتعلق طموحها للجنين الذي تحمله، بمجدٍ لم يكن لأحد من قبله؟

لو أن «بودلي» استفتى علماء النفس، لأنكروا عليه أن يسمي أحلام «آمنة» خرافات! وإنما الخرافة حقاً أن نجردها من بشريتها وأماني أمومتها، فما من أنثى تحمل، إلا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به بيئتها وظروفها. وقد كانت بيئة «آمنة» ما نعرف عزاً وشرفاً وعراقة وحسباً، كما حفَّت بزوجها «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم» ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه، فأي عجب في أن تُبعِدَ بآمنة رؤاها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد «سيد هذه الأمة»؟

أو ليست أحق بهذا من «هند بنت عتبة» التي ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة: ثكلتْه أمُّه إن لم يسد إلا قومه؟ (١).

لا نقول لبودلي وأمثاله، إلا أن «آمنة» في هذا كله، هي هي حواء في كل زمان ومكان... دون أن نكرههم على تصديق ما تناقله رواة العرب من أخبار عما سمعت المنجبات العربيات من هواتف البشرى بالمجد المنتظر للأجِنَّة في أرحامهن، كمثل ما رووا عن «ليلى بنت مهلهل» هتف بها الهاتف حين حملت بابنها «عمرو بن كلثوم»:

يــــا لكِ ليلى من وَلَــــد
يُقَــــدم إقــــدامَ الأسد

---

(١) راجع عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/٢٢٤.

من جُشَمٍ فيـــه العـــدد
أقـول قـولاً ، لا فنـــــــد

فلما استكمل وليدها سنةً أتاها ذلك الهاتف ليلاً فقال :

إني زعيم لكِ أمَّ عمرِو
بماجـــــدِ الجد كريم النجر
أشجـــعَ من ذي لُبَـــدٍ هِزَبْرِ
يسودهم في خمسة وعشر

قالوا : فساد قومَه ولم يجاوز خمس عشرة سنة...

وكذلك رووا أن «عتبة بنت عفيف» أتاها الهاتف حين حملت بابنها «حاتم الطائي» فسألها :

- أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك ، أم عشرة غلمة كالناس...؟

فأجابت : بل حاتم !

و«خبيثة بنت رياح الغنوية» ، حدثوا أن هاتفاً هتف بها في منامها ذات ليلة :

- أعشرة هدرَة - جمع هادر وهو الساقط - أحب إليك ، أم ثلاثة كالعشرة؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

- ان عاد الثالثةَ فقولي : ثلاثة كعشرة.

ففعلت ، وولدت : خالداً ، ومالكاً ، وربيعة ، وعُدّت بهم إحدى منجبات العرب.

و«بودلي» قد اتخذ من كتاب السيرة والمؤرخين الإسلاميين الأُوَل ، مصادر ومراجع في كتابه عن «الرسول» ، وزاد فاعتمد أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم في الجزيرة حيث عاش الرسول - ﷺ - إذ «أنهم لا يتحدثون عن محمد كما

يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبداً، لقد كان راعياً، ارتدى نفس الثياب التي يلبسونها، وامتطى إبلاً كما يفعلون، وكان التمر الذي عاش عليه يشابه تمرهم. إنهم ليشاركونه في كل ما فعله فهو بالنسبة لهم حي كفرد منهم...

«لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذي مر عليه ثلاثة عشر قرناً بالنسبة لي، أيسر من وصف جامعي في أكسفورد، الحياة في عصر اليزابيث، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكي عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال... عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم...

«إني أعرف العرب عن كثب، واني أحبهم، وقد عشت في خيامهم وأحببتها. وأظن أني أستطيع أن أفكر كما يفكر محمد، وأحس كما يحس، وأفهم على التحقيق مشكلاته».

فما باله بعد هذا ينكر إجماع كُتّاب السيرة على ما رأت «آمنة» من بشائر بمولد مَن كانت الجزيرة ملأى بالإرهاصات عن قرب مولده؟

قد يكون له ولقومه عذرهم في موقفهم من هذه الهواتف والرؤى والبشريات، من حيث هي في يقيننا من دلائل النبوة وأعلامها. لكن ما عذرهم في إنكارها، والحوامل قبلها وبعدها، وإلى يوم تنتهي الحياة على هذه الأرض، قد عرفن ويعرفن وسيعرفن الهواتف والرؤى والأحلام؟!

أو ليس مبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه، وإنما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم، وتحتمله بيئتها، ويمتد إليه بصرها!؟

السيدة «آمنة» بنت سيد بني زهرة، وُلدت في «أم القرى» في جوار البيت العتيق، تلك البيئة التي عرفناها، بكل حرمتها الدينية العريقة، وما حف بها من

السني والجلال ، تزوجها «عبد الله بن عبد المطلب» إثر افتدائه من النحر على نحوٍ يُذكّر بجده الأعلى اسماعيل ، وهي يومئذ - كما يقول ابن اسحاق ، شيخ كتاب السيرة - أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً...

وسمعت «آمنة» ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدِّهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك - في أدنى حالاته - تخيلا منهن وانفعالا بموقف الفداء. أفلا يؤثر فيها ذلك حين تحمل جنينها الأول : حفيدَ المنافَين[1] ، وسليل البيت الهاشمي وآل زهرة؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو إليه خيالها ، ويمتد إليه أملها ، وأن ترى حين حملت به كأنما خرج منها نور ، على ما تواترت به الأنباء الصحيحة ، كنص عبارة ابن اسحاق ![2].

* * *

ونستأنف صحبة السيدة «آمنة» من حيث تركناها في دارها بعد أن غاب عنها «عبد الله» إلى غير مآب ، وخلفها في حزن قاسٍ ، لم يلطف منه إلا حركة الجنين في رَحِمِها.

حتى إذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها «عبد المطلب» ذات أصيل ، يطلب إليها أن تتهيأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا في شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً من معرة الجيش الذي جاء به «أبرهة الحبشي» من اليمن...

وكانت «آمنة» قد سمعت بقدوم «أبرهة» هذا في جيش لجب ، لكنها لم تُقدّر أن الأمر قد بلغ من الخطر حداً يدفع قريشاً إلى الخروج من بلدهم الأمين...

---

(١) المنافان هما : عبد مناف بن قصي بن كلاب ، الجد الثالث للرسول ﷺ من ناحية أبيه ، وعبد مناف ابن زهرة بن كلاب : جدّ أمه «آمنة بنت وهب».

(٢) السيرة : ١/١٦٦ ، وانظر نهاية الأرب : ١٦/٦٤.

وسألت «آمنة» عبد المطلب :

- علمتُ يا عم أن قريشاً وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذي جَدّ في الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها؟

أجاب :

- عرفوا ألا طاقة لهم بأبرهة ، فكرهوا معركة غير متكافئة ، تذوب فيها قريش أمام العدوِ، ثم تؤوب بعار الهزيمة...

وسكتت «آمنة» برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاءٍ كان بين شيخ مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم في ذاك اللقاء...

فأجابها الشيخ :

«أجل كان بيننا لقاء ، سعى إليه أبرهة ولم أسع إليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث «حناطة الحميري» وقال له :

«سلْ عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم . فإن هو لم يُرِدْ حربي فائتني به» .

وجاءني «حناطة» فأبلغني رسالة «أبرهة» وتلقى جوابي :

«والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يُخلِ بينه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه» .

قال حناطة :

- فانطلق معي ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك...

ففعلتُ ، ومعي بعض أبنائي ، وهناك مضى به إلى أبرهة أحد رجاله فقال له :

«أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عير مكة، وهو يطعم الناس في السهل، والوحوش في رءوس الجبال»[1].

فأكرمني «أبرهة» عن أن أجلس دونه، وكأنما كره في الوقت نفسه أن تراه الحبشة معي على سرير ملكه، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسني إلى جانبه ثم قال لترجمانه:

– قل له ما حاجتك؟

فلما أجبت: حاجتي أن يرد علي الملكُ مائتي بعير أصابها لي...

بدا على الملك كأنما صغُرت في عينيه، وخيبت ظنه فيّ، وقال لترجمانه في جفوة:

– قل له: قد كنت أعجبتَني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني. أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك لا تكلمني فيه؟

قلت على الفور:

– إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربّاً يحميه[2]...

قال الفاجر مُدلاً بقوته: ما كان ليمتنع مني!

فأجبته متحدياً: أنت وذاك...

وكان معي سيد هذيل، فعرض على «أبرهة» ثلث أموال «تهامة» على أن يرجع ولا يهدم البيت، فأبى متكبراً واكتفى بأن أمَرَ بردِّ إبلي إليَّ...

وانصرفنا، فحَدثتُ قريشاً بالخبر، وأمرتهم بالخروج من مكة، ثم قمت فأخذت

---

(١) ابن هشام: السيرة ١/٥٠ وما بعدها/ عن ابن إسحاق.

(٢) الحوار بنصه، عن ابن اسحاق في (السيرة ١/٥١).
وانظر معه تاريخ الطبري ص ٩٤٠ من القسم الأول ط. أوروبا.

بحلقة باب الكعبة، وقام معي نفر من «قريش» يدعون الله، ويستنصرونه على «أبرهة» وجنده...

* * *

وأطرق «عبد المطلب» لحظة، ثم رفع رأسه إلى السماء وردد في ضراعة أبياته التي قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

إلاهُمَّ ان العبد يمنع رحلَه فامنع حلالَكْ
جروا وجموعَ بلادهم، والفيلَ، كي يَسبوا عيالَك
إن كنتَ تاركهم وكعبتَنا، فأمرٌ ما بدا لك؟ (١)
يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدوَّ البيتِ من عاداكا
امنعهمو أن يخربوا فناكا

فردَّدتْ «آمنة» من بعده:

يا رب لا أرجو لهم سواكا

ثم ودعها الشيخ وخرج، على أن يبعث إليها في غد من يصحبها في خروجها لتلحق بالجمع الراحل...

وخلت «آمنة» إلى نفسها تفكر في الجنين الغالي الذي قاربت أن تضعه، فعز عليها أن تلده بعيداً عن البلد الحرام وفي غير دار أبيه «عبد الله».

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها، لكنها أوت إلى فراشها وما

(١) رواه الواقدي: إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك.
وانظر الأبيات في (السيرة: ٥٣/١) وفي (تاريخ الطبري: ٩٤٠/١ ط. أوروبا).

يتخلى عنها إيمانها بأن الله مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وهي تتمنى ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، إلى أن يقضي الله أمره...

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتي من قومها أحد ، ثم مضى النهار إلا أقله وهي في عجب : لِمَ لم يبعث عبد المطلب رسوله إليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذي يخيم على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حي فيها أنفاسه ؟

ثم تناهى إليها من بعيد ، من أقصى الجنوب ، ضجيج مبهم مختلط ، لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟

ألا ان وراء ذلك كله لأمراً...

* * *

وأقامت « السيدة آمنة » تترقب ، حتى إذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب إليها أن تخرج إلى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة...

ولم يبق في « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن [١] « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ، وهيأ فيله وعبّى جيشه مجمعاً لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل من معسكره في ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه في رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم في أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم . فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

(١) بتضمين ، من السيرة ، ج ١ ص ٥٤ ، وتاريخ الطبري قسم أول ص ٩٤٠ ط أوروبا .

ثم كان أن سلط الله نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طيرٌ أبابيل ، فجعلتهم كعصفٍ مأكول ... [1]

وجُنُّوا من خوف ورعب ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق الذي جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمي » – وكان قد خرج مع قومه لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما أسره أبرهة ، افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب – فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم إليه أن يدلهم على الطريق إلى اليمن ، حتى يرد بأعلى صوته : [2].

أين المفر والإلــهُ الطــالب؟
والأشرم المغلوب ليس الغالب!

أو يقول [3] :

وكـل القـوم يسأل عـن نفيـل كــأن عليَّ للحبشان دينــا!

« فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة! » .

ولم تكن أرض العرب قد شهدت – فيما روى ابن اسحاق عن يعقوب بن عتبة – الحصبة والجدري قبل ذاك العام المشهود ...

وأقبلت « قريش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

---

(١) فيهم نزلت سورة الفيل :
« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » صدق الله العظيم .

(٢) السيرة : ١/٥٥ .

(٣) من قصيدة لنفيل ، روى ابن اسحاق منها ستة أبيات . (السيرة ١/٥٥) .

فتنكلوا عن بطن مكة انها كانت قديماً لا يرام حريمُها [١]
سائلْ أمير الجيش عنها ما رأى ولسوف ينبي الجاهلين عليمُهـا
ستون ألفاً لم يثوبوا أرضَهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمُها

* * *

وبلغت الأصداء مسمع «آمنة» فقامت تصلي وقد أشرق وجهها بنور اليقين والإيمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها – ابن عبد الله – أن يولد بعيداً عن البلد الحرام.

---

(١) من أبيات لعبد الله بن الزبعري السهمي ، شاعر قريش (السيرة ٥٩/١) وانظره في : (الاستيعاب).

الوليدُ

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله
للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي
والمنتهى ، والسدرة العصماء
(شوقي)

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد. حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوماً وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل «السهيلي» في الروض الأنف [١].

وعن «ابن عباس» أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان في عام الفيل [٢].

وكانت الرؤى قد عاودت «آمنة» في صدر ليلة مقمرة من ليالي ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

(١) وانظر الزرقاني ١/١٣٠ – والنويري : ١٦/٦٨ . وعيون الأثر ١/٢٦ .
(٢) السيرة ١/١٦٧ . وعيون الأثر ١/٢٦ .

«أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد» ثم تسميه محمداً...

وجاءها المخاض في أوان السحر من ليلة الاثنين، وهي وحيدة في منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها، وفي رواية أن «أم عثمان بن أبي العاص الثقفي» كانت كذلك معها [١] - فأحست ما يشبه الخوف، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها. ثم بدا لها كأن جمعاً من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها، فحسبتهن من بنات هاشم، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتي حسبتهن من نساء البيت الهاشمي، لسن سوى أطياف سارية! وخيل إليها أن من بينهن «مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وهاجر أم اسماعيل»!

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف، فتجلدت للحظة الحاسمة، وما كاد نور الفجر ينبثق، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى من البشر!

فتقول أم عثمان بن أبي العاص: «فما من شيء أنظر إليه من البيت إلا نوِّر، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو مني حتى إني لأقول: لتقعنَّ عليَّ» [٢].

* * *

وتوارت الأطياف النورانية السارية، حين لم تعد «آمنة» وحدها! كان ولدها إلى جانبها يملأ الدنيا حولها نوراً وأنساً وجمالاً، ومضت ترنو إلى طلعته البهية وكيانه اللطيف المشرق، وتذكر به الحبيب الذي أودعها إياه، ثم رحل...

حتى إذا انبلج الصبح، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت إلى «عبد المطلب» تبشِّره بمولد حفيده، فأقبل مسرعاً، وانحنى في حنو على الوليد، يملأ منه عينيه، وقد ألقى كلّ سمعه إلى «آمنة» وهي تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع...

---

(١) هي الصحابية فاطمة بنت عبد الله رضي الله عنها: الاستيعاب رقم ٤٠٥٩، وعيون الأثر ٢٧/١.

(٢) رواه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب. وابن سيد الناس في عيون الأثر، من طريق ابن السكن.

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل حفيده العزيز بين ذراعيه في رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولداً من ابنه الفقيد الغالي.

وأحاط به بنوه في خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة ويعوّذ حفيده منشداً [1] :

الحَمـــد للهِ الـــذي أعطـــاني
هــــذا الغلامَ الطيب الأردان
قــد ساد في المهـد على الغلمان
أعيــذه بــالبيت ذي الأركــان
حتى أراه بــالــغ البنيــان
أعيـــذه من شر ذي شنــآن
من حـــاسد مضطرب العنــان

ثم رده إلى أُمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة.

وكانت مكة – حين ذاعت فيها بشرى المولد – ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم في مولد «محمد» حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتُدِي بالإبل المائة...

وبلغ من غبطة البيت الهاشمي بالمولود العزيز ، أن «ثويبة الأسلمية» جارية عمه «عبد العزى بن عبد المطلب» – أبي لهب – لم تكد توافي سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته رؤية دوره في الحرب الدامية التي قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاماً ، عندما جاءها الهاشمي اليتيم ، برسالة الإسلام.

وفيه ، وفي امرأته ، نزل قوله تعالى : «تبَّت يدا أبي لهب وتب ، ما اغنى عنه مالُه

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، رواية عن الواقدي ، وانظر النويري : ٧١/١٦ والروض الأنف للسهيلي ١٨٤/١.

وما كسب. سيَصْلَى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدِها حبلٌ من مَسد» - صدق الله العظيم.

فيقال إن «العباس بن عبد المطلب» رأى أخاه «أبا لهب» بعد موته بسنة، فسأله عن حاله، فأجاب أبو لهب: في النار، إلا أن العذاب خُفِّف عني كل ليلة اثنين، بماء أمصُّه من بين إصبعيّ هاتين، وذلك أني أعتقت «ثويبة» حين بشرتني بولادة النبي ﷺ.

ولن يمضي وقت طويل، بعد المولد - أربعون سنة - حتى يقف التاريخ ليستعيد ذكرى تلك الليلة الخالدة على الدهر، ويبدأ بها كتابة عصر جديد للعرب وللإنسانية كلها، وحتى تمتلئ الجزيرة بأخبار ومرويات عن اللحظة المباركة التي وضعت فيها «السيدة آمنة» ولدها. وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل إلينا [١]، وقد أضافت إليها الليالي والأيام جديداً من رؤى المحبين، ومواجد العاشقين وملهَمَات الشعراء.

وكلما دار عام القمر دورته وأهل شهر ربيع الأول، أصغى الزمان في ذكرى تلك الليلة الميمونة، إلى هتاف الملايين من المسلمين في مختلف بقاع الأرض، يرتلون قصة «المولد» ويترنمون بما تمثله الوجدان المؤمن، لما حفَّ به من خوارق وغرائب:

«زيدت السماء حفظاً، ورُدَّ عنها المردةُ وذوو النفوس الشيطانية، ورُجِمت الجنُّ وتدلَّت إليه ﷺ الأنجمُ الزهرية، واستنارت بنورِها وهادُ الحَرَم ورُباه. وخرج معه ﷺ نورٌ أضاء قصورَ الشام القيصرية، فرآها من بطاحِ مكةَ دارِه ومغناه. وانصدع الإيوان بالمدائن الكسروية، الذي رفع أنو شروان سَمْكه وسَوّاه. وسقطت أربعٌ وعشرٌ من شُرفاته العلوية، وكُسِرَ سريرُ المِلك كسرى لهولِ ما أصابه وعَرَاه. وخَمَدَت النيرانُ المعبودةُ بالممالك الفارسية، لطلوع بدرِه المنير ومُحيَّاه...»

---

(١) الشمائل للترمذي، والشفا للقاضي عياض.
وانظر معها (عيون الأثر: ١/٢٧) والجزء السادس عشر من (نهاية الأرب) وشرح المواهب للزرقاني.

ويشدو المنشدون بقصائد الشعراء، من وحي الذكرى الغراء لمولد ذلك اليتيم الخالد:

بكَ بشَّر اللهُ السماءَ فزينت وتضوعت مسكاً بكَ الغبراءُ
يومٌ يَتيهُ على الزمان صباحُه ومساؤه بمحمد وضّاء
ذُعِرتْ عروشُ الظالمين فزلزلت وعلَتْ على تيجانهم أصداء
والنارُ خاويةُ الجوانبِ حولَهم خمدت ذوائبُها وغاض الماء
والآيُ تترى، والخوارقُ جمّةٌ جبريلُ روّاح بها غدّاء! (١).

* * *

وفي ضجيج الاحتفال بمولد «ابن عبد الله»، لم تنس «قريش» أن تسأل شيخها «عبد المطلب»: لِمَ عَدَلَ عن أسماءِ آبائه وسمَّى حفيده محمداً؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعاً بين القوم، ويقول «السهيلي»: «لا يُعرف في العرب مَن تسمى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة، طمع آباؤهم - حين سمعوا بذكر محمد ﷺ، وبقرب زمانه، وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولداً لهم... وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع - جد الفرزدق الشاعر - ومحمد بن أحيحة بن الجلاح... ومحمد بن حمران بن ربيعة. وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده عِلم من الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبي ﷺ وباسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً، فنذر إن وُلِدَ له ذَكرٌ أن يسميه محمداً...» (٢).

ونقل البغدادي عن القاضي عياض:

«وأما محمد، فإن الله تعالى حمى أن يسمى به أحد من العرب، ولا من غيرهم، إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده ﷺ أن نبياً يبعث اسمه محمد. قد قرب

---

(١) من نبويات أمير الشعراء: أحمد شوقي.
(٢) الروض الأنف: ١٨٢/١.

ابان مولده ، فسمَّى قومٌ من العرب أبناءهم محمداً [1] ».

وقال أبو جعفر ، محمد بن حبيب [2] : وهم ستة لا سابع لهم : محمد بن سفيان ابن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن حمران الجعفي ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري – ولد بعد الرسول وقبل المبعث – ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن خزاعي السلمي ، لا سابع لهم »

* * *

سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محموداً في الأرض وفي السماء...

ونقل السهيلي رؤيا لعبد المطلب ، ذكرها علي القيرواني في كتاب البستان : رأى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء وطرف في الأرض ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها . فقصَّها فعُبِّرت له بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض (الروض ١/٨٢) – وهذه الرؤيا ، نقلها ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/٣٠) من طريق أبي الربيع سالم ، الكلاعي ، صاحب الاكتفا.

ويعلق « بودلي » على تلك الإجابة قائلاً : « ... وأياً كان السبب ، فقد أصبح اسمُ الطفل محمداً ، وتسمَّى به ملايين الأطفال الذين وُلدوا بعده الدين الجديد الذي قدر لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين... »

* * *

(١) النويري : ١٦/٧٦. وانظر عيون الأثر ١/٣١.

(٢) خزانة الأدب : ٢/٢٤ وراجعه في (المحبر لابن حبيب).

الرضيعُ

«... فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد - ﷺ - فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم؟! وما عسى تصنع أمه وجده؟

«فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا على الانطلاق، قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة...»

(حليمة السعدية)

أحست «السيدة آمنة» بعد أن وضعت وليدها، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها المبشَّر بأنه سيد البشر. كما انتهت رسالة أبيه «عبد الله» منذ أن أودعه جنيناً في أحشائها. فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى، إلى حد أثَّر في صحتها، وان لم يُفض بها إلى التلف أو قريب منه. ذلك أن جزءاً من رسالتها لم ينته بعد، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يبلغ معها السعيَ، فتحدثه عن أبيه، ثم تصحبه إلى يثرب، حيث يزوران قبر فقيدهما الغالي...

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداتة

من رضعاء قريش ، بعيداً عن جو مكة الخانق. لكنّ لبن «آمنة» جفَّ بعد أيام – ويعلل «بودلي» ذلك بأنه أثرٌ لما أصابها من حزنٍ لموت زوجها – فدفعت به إلى «ثويبة» جارية عمه «عبد العزى» ، وكانت قد أرضعت قبله عمه «حمزة بن عبد المطلب» بلبن ابنها مسروح (١) .

ثم لم تمض إلا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بني سعد بن بكر ، يعرض خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهن «محمد بن عبد الله» فزهَّدَهُنَّ فيه يتمُه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافئُ نسبَه الشريف ، فلقد مات «عبد الله» في حياة أبيه «عبد المطلب» فلم يرث عنه مالاً ، وأعجلته منيتُه في مقتبَل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذي خرج إلى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشية «بركة أم أيمن» ، وخمسة أجمال أوراك – يعني تأكل الأراك – وقطعة غنم (٢) .

وإنها – كما يقول الدكتور هيكل – لثروةٌ ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليلِ البيت الهاشمي القرشي العريق...

وثقُل على السيدة آمنة ، أن ترى المراضع يوشكن أن يعدن إلى البادية ، زاهدات في ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفالَ الأحياء ممن يُرجَى منهم الخير الوافر. لولا أن عادت إحدى المراضع تلتمس «محمدًا» بعد أن انصرفت عنه أول النهار. كانت هذه المرضع : «حليمة بنت أبي ذؤيب السعدي» زوجة «الحارث بن عبد العزى : أحد بني سعد بن بكر بن هوازن».

وكان لها من الولد ، الذين شرُفوا بأخوة محمد من الرضاعة : عبد الله ، وأنيسة ،

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٣٧٠/١ وعيون الأثر ٣٢/١ ، والسيرة الحلبية ٨٥/١.

(٢) رواه ابن سعد عن الواقدي ، ونقله النويري : ٦٧/١٦.

والشيماء التي كانت تحضن الرضيع الهاشمي مع أمها [١] ...

وتروي «حليمة» قصتها مع الرضيع اليتيم، أو يرويها عنها «ابن إسحق» شيخ كتاب السيرة، نقلاً عمن سمع «عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» يقول:

«كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تُحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء. قالت: وذلك في سنة شهباء لم تُبق لنا شيئاً، فخرجتُ على أتان لي قمراء - أي عجفاء - معنا شارف لنا - أي ناقة مسنة - والله ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمعَ من صبيِّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، وما في ثدييَّ ما يغنيه، وما في شارفنا ما يُغذيه. ولكنا كنا نرجو الغيثَ والفرج، فخرجتُ على أتاني تلك... حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها محمد - رسول الله ﷺ - فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم. وذلك أنّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم؟.. وما عسى أن تصنع أمه وجدّه؟..

«فما بقيت امرأةٌ قدمت معي إلا أخذت رضيعاً، غيري، فلما أجمعنا على الانطلاق قلتُ لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه...

«قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة...

«فذهبتُ إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. فلما أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب، وشربتُ

---

(١) ابن هشام: ١/١٧٠، والزرقاني: ١/١٤٦، والنويري: ١٦/٨١.

وجاء في شرح المواهب ان لقبها «الشيماء» بغير ياء. واختلفوا في اسمها: ففي الاصابة والروض الأنف أنها «حذافة» وفي رواية بهما: خذامة» وفي تاريخ الطبري وطبقات ابن سعد: «جدامة».

معه حتى انتهينا ريّاً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة...

«يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلَّمي والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمة مباركة! فقلت: والله إني لأرجو ذلك...

«ثم خرجنا وركبتُ أتاني وحملت محمداً عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيءٌ من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي:

- يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! اربعي علينا، أليست هذه أتانَك التي كنت خرجت عليها؟

«فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي!

«فيقلن: والله إن لها لشأناً...

«ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ، حين قدمنا به معنا، شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان غيرنا... قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم:

«ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب!

«فتروح أغنامُهم جياعاً ما تبضُّ بقطرةِ لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً. فلم نزل نتعرفُ من الله الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه وفصلْتُه [1]».

* * *

هكذا نما الرضيع وترعرع في صميم البادية، بين قبيلة بني سعد وهي من أعرق قبائل العرب وأفصحها، «فنطق - كما يقول بودلي [2] - أول ما نطق، وخطا أول ما

(١) السيرة الهشامية: ١٧١/١، عيون الأثر ٣٣/١.

(٢) الرسول: ٢٩.

خطا بين أسياد البادية ، هؤلاء الذين سيقاتلونه يوماً ثم يخضعون له أخيراً ، ويحملون اسمه إلى بقاع من الأرض لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذاك… ».

كيف أمضت الأم أيامها حين كان وحيدها بعيداً عنها مع أمه الأخرى « حليمة » في بادية بني سعد؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشيء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذي شعرت به «آمنة» من أن دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء…

على أنا لسنا بحاجة إلى من يخبرنا أنها أقامت في دار « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذي أوحش من بعد رحيله…

وهاجت الأحزانَ المطوية في أعماقها ، وحدتُها الموحشة إثر ذهاب ابنها إلى البادية ، فأرهقتها إرهاقاً لم يكن لها عهدٌ بمثله إبَّان حملها ، وحين كان « محمد » معها…

ولكن أوانَ فطامه كان يدنو رويداً ، وهذه هي تُشغل عن أشجان ذكرياتها بانتظار ولدها الحبيب ، وتُسلِّي همَّها بتمثُّله إذ يعود فيملأ دنياها أنساً ونوراً.

* * *

واستبطأت عودةَ « حليمة » بفتاها ، ولعلها همَّت غير مرة بأن تبعث إليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامي رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به في حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو إليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضج…

وإذ أحست « حليمة » إعجاب الأم بصحة الصبي العزيز ، راحت تحدثها عن جوّ مكة – وقد كان إذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة – و« آمنة » تلقي إليها بعض سمعها ، إذ كانت في شغل به عنها.

حتى تشجعت «حليمة» وأفصحت عن مرادها قائلة :

- لو تركتِ بُنيَّ عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وَبَأ مكة (١) !

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت إلى «حليمة» نظرة عتاب : كيف خطر لها أن «آمنة» تستطيع أن تفارق للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن «حليمة» لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت في استصحاب الصبي ، متوسلة إلى والدته بكل ما في أمومتها من حنان وإيثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل فترة أخرى بعيداً عن مكة ، وأن يعود معها فيمرح في البادية ملء الصحة ، والانطلاق !

وعادت الأم تنظر إلى ابنها فتراه حقاً قد أينع في جو البادية النقي الطليق ، وحملها قلبها النابض بالحب والحنو والإيثار ، على مزيد من الاحتمال والتصبر ، في سبيل ما تعلم حقاً أنه أنفع لولدها وأفضل.

وودعت «آمنة» ولدها للمرة الثانية ، وفي قلبها وحشة وشجن...

وانطلقت به «حليمة» راجعةً إلى مراعي بني سعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، إذ كانت وقومها «شديدة الحرص على مُكثه فيهم ، لما رأوه من بركته (٢) ».

* * *

لكن ، لم تمض إلا بضعة أشهر ، حتى عادت «حليمة» من تلقاء نفسها بالصبي المبارك إلى أمه ، وهي بادية القلق...

ولم تذهب فرحةُ اللقاء بعجب «آمنة» من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل «حليمة» :

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٣/١ . وعيون الأثر ٣٤/١ من طريق ابن إسحاق.

(٢) السيرة لابن هشام : ١٧٣/١ .

– ما أقدمكِ به يا ظئرُ وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثِه عندك؟

أجابت «حليمة» بعد تردد وتفكير:

– قد بلغ الله بابني، وقضيتُ الذي عليَّ، وتخوَّفت الأحداثَ عليه، فأديتُه إليك كما تحبين (١).

ولم يُقنع جوابُها هذا «آمنة»، ولم يذهب بشيء مما خامرها من ريب وعجب، فما زالت بحليمة حتى أنبأتها بالخبر:

قالت – فيما رُوِي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

«فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر، مع أخيه – من الرضاعة – لفي بَهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتَد، فقال لي ولأبيه:

– ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، فشقَّا بطنه، فهما يسوطانه.

فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه. فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بُني؟

قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقّا بطني، فالتمسا شيئاً لا أدري ما هو...

فرجعنا به إلى خبائنا، وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيتُ أن يكونِ الغلام قد أُصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به.

فاحتملناه فقدمنا به... والله إنا لا نرده إلا على جَدْع أنفنا» (٢).

* * *

(١) السيرة لابن هشام: ١٧٤/١ وعيون الأثر ٣٤/١، ونهاية الأرب: ٨٤/١٦.

(٢) السيرة لابن هشام: ١٧٤/١ وعيون الأثر ٣٤/١ – ونهاية الأرب: ٨٤/١٦.

وأصغت الأم «آمنة» إلى القصة دون أن تبدو عليها بادرةُ خوف أو قلق ، حتى فرغت «حليمة» من حديثها ، فألقت عليها السؤال : أفتخوفتِ عليه الشيطان؟

أجابت حليمة : نعم.

فقالت آمنة : كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنيَّ لشأناً ، أفلا أخبرك خبرَه؟

فهتفت حليمة : بلى!

فحدثتها «آمنة» بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم قالت :

« ... فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخفَّ من حملِه ولا أيسر منه ، وقع حين ولدتُه وانه لواضعٌ يديه على الأرض رافعٌ رأسَه إلى السماء... دعيه عنك وانطلقي راشدة » ...

فظهر على «حليمة» أنها تذكرت شيئاً كان قد غاب عنها ، وقالت :

«الآن فهمتُ ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفراً من نصارى الحبشة رأوا ابني محمداً معي حين رجعتُ به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوني عنه ، وفحصوه ملياً ثم قالوا :

– لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به إلى ملِكنا وبلدنا ، فإن له شأناً نحن أدرى به وأعرف.

فاختطفته منهم ، وقد هاجني ذلك على رده إليك ، وهممت أن أفعل ، لولا أن مضارب بني سعد كانت أقرب إليَّ منك ، فعدوت نحوها ، ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلتُ به الحِمى».

ثم استعادت ذكرى بعيدة ، كانت قد نسيتْها لطولِ المدى واستطردت تقول : وأذكر كذلك يوم انطلقتُ بولدي محمد من مكة لأول مرة ، فمر بي اليهود فسألتهم ، ألا تحدثوني عن ابني هذا؟ وسردت لهم ما لقيت من بركته. فما راعني إلا أن قال

بعضهم لبعض : اقتلوه. ثم سألوني : أيتيم هو؟... قلت وأنا أشير إلى زوجي : لا... هذا أبوه وأنا أمه. فقالوا : لو كان يتيماً لقتلناه (١) !

* * *

المستشرقون لهم عذر في رفض حديث الملكين وشق الصدر. لكن الدكتور محمد حسين هيكل لم يكتف برفضها معهم ، بل زاد فجعل إنكارها موقفا عامًّا، للمستشرقين «والمفكرين من المسلمين».

ولست أدري كيف جاز في منطقه تعميم هذا الإنكار، وقلَّ من المفكرين المسلمين من تردد في التصديق بحديث شق الصدر، باعتباره من أعلام النبوة.

وقال الدكتور هيكل ، فيما قال ، محتجًّا لموقف الإنكار:

«وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين - هكذا بالجملة ! - إلى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها انسانية سامية ، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارق ، وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر في خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، وأن ليست لهم قلوب يعقلون بها» (١).

وأراه هنا ، والذين تكلم عنهم ، قالوا بالرأي فيما ليس للرأي فيه مجال ، بل الاعتبار فيه بضوابط الرواية والنقل والنظر في الإسناد ورجاله. وقد تعرض الدكتور هيكل لهذا ، فذهب إلى «أن رواية هذا الحديث ضعيفة السند» كما جرح المتن أيضا ، من جهة : «أن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببني سعد إلى الخامسة من عمره ،

---

(١) طبقات ابن سعد : ٧١/١ قسم أول - ونهاية الأرب : ٨٦/١٦.

(١) حياة محمد : ٧٣

وقصة الملكين هذه قد حددت سِنه بما دون الثالثة وأرجعته إلى مكة بعد فطامه بأشهر، فبين الروايتين تناقض صريح».

ومن جهة أن هذه القصة، مما «لا يدخل في معروف العقل»[(١)].

وما كنت أرجو أن يقحم الدكتور هيكل نفسه، في نقد الحديث، وليس من أصحاب هذا الشأن. فالحديث فيه عن رسول الله ﷺ، رواه ابن اسحاق بهذا الإسناد:

«وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم، ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي، أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: نعم، أنا دعوة أبي ابراهيم، وبشرى أخي موسى. ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض...» وذكر شق الصدر...[(٢)].

فإذا عددنا الحديث من مرسلات خالد بن مَعْدانَ الكلاعي، فالعلماء على قبول مرسلات التابعين الحفاظ الثقات. أخرج له الأئمة الستة أصحاب الصحاح. وكان «من فقهاء التابعين ومن خيار عباد الله» أدرك، فيما قال، سبعينَ من الصحابة رضي الله عنهم. وكان الأوزاعي يعظمه ويسأل عن هدْيه، روى عنه الحفاظ: **ثور بن يزيد**، ومحمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي، وحريز بن عثمان وحسان بن عطية، وطبقتهم.[(٣)].

وثور بن يزيد الكلاعي – الذي سمع ابن إسحاق عنه الحديث – هو أبو خالد الحمصي، من الحفاظ الأثبات العلماء. روى عن **خالد بن معدان** والزهري ومكحول

---

(١) حياة محمد: ٧٣

(٢) السيرة الشامية: ١٧٥/١، ورواه السهيلي من حديث أبي ذر (الروض ١٩٢/١).

(٣) ابن حجر: تهذيب التهذيب: ١١٨/٣ – ١٢٠.

وعطاء وعكرمة وابن جريج وأبي الزناد، وخلق. وروى عنه الحفاظ الأعلام: السفيانان، وعيسى بن يونس وابن إسحاق وابن المبارك ويحيى بن سعيد القطان والوليد بن مسلم وابو عاصم النبيل، وغيرهم.

تكلم فيه جماعة بسبب القدر، لم يأخذوا عليه شيئاً سوى القدرية. وقال يحيى بن سعيد القطان: ما رأيت شاميا أوثق من ثور بن يزيد. وقال وكيع: ثور كان صحيح الحديث، رأيته وكان أعبَدَ مَن رأيت. وأخرج له الإمام البخاري والأربعة أصحاب السنن [1].

ثم إن ابن إسحاق لم يقتصر، في خبر الملكين وشق الصدر، على هذا الحديث، بل ذكره بعد أن روى حديث الرضاع بسنده إلى «عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» رضي الله عنهما، قال: «كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله، ﷺ، التي أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها...» الحديث بطوله، وفيه حادث الملكين وشق الصدر.

وأما ما ذهب إليه الدكتور في نقد المتن، من تناقض صريح بين ما أجمعت عليه الروايات من «أن محمداً أقام ببني سعد إلى الخامسة من عمره، وقصة الملكين التي حددت سِنه بما دون الثالثة»، فقد فاته أن السيدة حليمة أرجعته إلى مكة بعد فطامه، ثم «لم تزل بأمه، السيدة آمنة، حتى ردته معها» [2].

وأما القول في نقد المتن بأنه مما «لا يدخل في معروف العقل، فمردود بأن شق الصدر أو البطن، ليس من المستحيل العقلي. وبفرض استحالته عقلا، فإنه لا يعتبر بهذه الاستحالة، فيما هو من قبيل دلائل النبوة وأعلامها، التي اشتهرت، وصحت عند علماء الحديث والسيرة والتاريخ، والله أعلم.

---

(١) تهذيب التهذيب: ٣٣/٢ – ٣٧، وخلاصة التذهيب: ٥٠.

(٢) السيرة الهشامية: ١٧٣/١، وعيون الأثر: ٣٦/١.

المبحث السادس

الرحيل

- سفر إلى يثرب
- الوداع
- عودة اليتيم

سفر إلى يثرب

ولنعُدْ إلى «السيدة آمنة» وهي تحتضن وحيدها اليتيم، بعد أن بلغ مقامه في البادية أقصى أجله ورجعت به «حليمة السعدية» إلى البلد الحرام، حيث مجد آبائه العريق، ومجد موطنه العتيق.

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التي كانت تغشى دنيا أُمِّه في وحدتها وترملها الباكر، وأحسبها لم تكف عن التحدث إليه عن والده الغائب، ووصف شمائله، ورواية قصة فدائه، وما كان معقوداً عليه من آمال كبار.

وقد بذلت الأم لولدها في تلك الفترة، غاية ما يُرجَى من عناية ورعاية، وهو وحيدها ومناط أملها ومعقد رجائها. ويعترف كُتّاب السيرة النبوية بما كان لها من أثر جليل في هذه المرحلة من عمر نبي الإسلام، فيقول شيخهم «ابن اسحاق»:

«وكان رسول الله ﷺ، مع أمه آمنة بنت وهب في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً» (١).

وأثمرت العناية ثمرتها، فبدت على «محمد» بوادر النضج المبكر، ورأت فيه أمه، عندما بلغ السادسة من عمره، مخايل الرجل العظيم الذي طالما تمثلته، ووُعِدت به في رؤاها...

---

(١) السيرة ١/١٧٧، وعيون الأثر ١/٣٧.

عندئذ أدركت أن الأوان قد آن، لكي تؤدي واجباً مفروضاً، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بها معاً إلى «يثرب» كي يزورا قبر الحبيب الثاوي هناك.

وهش الابن لفكرة السفر، وسره أن يصحب أمه في زيارتها لمثوى فقيدهما، وأن يتعرف – في الوقت نفسه – إلى أخوال أبيه المقيمين بيثرب [١]، وكانوا ذوي شرف هناك وجاه عريق، ولعله سمع أمه غير مرة، تقص عليه من حديث «أبي وهب بن عمرو» خال جده عبد المطلب، أنه تصدى لقريش حين أجمعت على تجديد بناء الكعبة فقال: يا معشر قريش: «لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً... لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس» [٢].

ولعله كذلك، سمع منها قول الشاعر في الخال أبي وهب: [٣].

ولو بأبي وهبٍ أنختُ مطيتي ... غدَتْ من نداه، رحلُها غيرُ خائبِ
بأبيضَ من فرعي لؤيٍّ بن غالب ... إذا حُصِّلتْ أنسابُها في الذوائب
أبيٍّ لأخذ الضيم، يرتاح للندى ... توسَّط جداه فروعَ الأطايب

* * *

وكان الجو صيفاً، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها، حين بدأت «السيدة آمنة» تتهيأ لرحلة طويلة شاقة، تجتاز بها الأميال المائتين التي تفصلها عن يثرب، حيث يرقد في ثراها «عبد الله» الذي ودعها من نحو سبع سنين.

---

(١) أم عبد المطلب بن هاشم – جد الرسول ﷺ – هي سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية. فهذه خئولة محمد – ﷺ – في بني النجار. انظر (السيرة: ١/١٧٧، ونسب قريش: ١٥، وجمهرة أنساب العرب: ١٢).

(٢) رواها ابن اسحاق في السيرة، عن عبد الله بن أبي نُجيح، مما حُدِّث به عن عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي. ثم عقب عليها بقوله: «والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم»: ١/٢٠٦.

(٣) السيرة الهشامية: ١/٢٠٦.

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون في أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب، لكن شوقها إلى زيارة يثرب كان أقوى من أن تغلبه عقبات سفرٍ هو قطعة من العذاب...

وشُغلت أياماً بتجهيز راحلتها وإعداد مئونة الطريق، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة، ذي مظلة مرفوعة تحجب الشمس عن الابن العزيز.

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال في رحلة الصيف الموسمية، فلما أذن المؤذن بالرحيل، ضمت إليها ولدها وركبت راحلتها، تصحبها الجارية الوفية: «بركة أم أيمن»[1].

* * *

وألقت «آمنة» نظرة وداع على دار عرسها التي جمعتها فترة بعبد الله، ووضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد. ثم عرجت على الحرم فطوّفتْ به داعية، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك، وقد علا رغاء الإبل مختلطاً بضجيج المسافرين ودعاء المودعين!

وسار الركب في أول أمره بطيئاً وئيداً كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات، حتى إذا توارت معالم «مكة» خلف الجبال الشم التي تحف بها، استقبل الراحلون طريق الشمال، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا، كيما يبلغوا سوق الشام في إبانها، ويعودوا إلى حماهم وإلى الأهل والأحباب.

ورفع الحادي عقيرته بالغناء، يودع الديار التي خلفوها من ورائهم، ويَعِدُ الإبل بالراحة والظل والري، إذا هي سارت حثيثاً فبلغت بأصحابها ما يأملون. ورجّعت أرجاء البيداء صدى الحداء الحنون، فرقّت قلوب الراحلين، من شجن الذكرى وشجو الفراق.

(١) طبقات ابن سعد. وانظر الزرقاني: ١٦٣/١، والنويري: ٨٧/١٦.

وعطفت «آمنة» على ولدها في حنو فياض، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب!

وساعدها صمت الصحراء، إلا من رجع النغم، على استرسالها في الحلم، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية، تنصت في الحداء إلى نداء شجي يتناهى إليها من بعيد، فهفا قلبها إلى الأليف النائي، ورنت عيناها إلى الأفق الشمالي، حيث تراءت لها «يثرب» أشبه بواحة خضراء، تحنو ظلالها الوارفة على أعز مرقد، ويؤوي ثراها الطيب أغلى رفات...

فإذا جن الليل وصمت الحادي ونام الرفاق وهجع الكون، ضمت «آمنة» وحيدها إلى صدرها، وأسلمت نفسها إلى رؤاها تسري بها نحو المزار، وتستحضر لها روح «عبد الله» آيبة من مأواها البعيد المجهول، لتحيي الزوجة الحبيبة الوفية، وتبارك الابن الصغير العزيز!

* * *

وشارفت الرحلة منتهاها، فجمعت «آمنة» نفسها وأقبلت على ولدها تحدِّثه من جديد عن أبيه، ثم تغريه بأن يتطلع معها إلى المدينة البيضاء التي بدأت تتكشف من وراء جبل «أُحُد» حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض، ويتموج عشبها الأخضر وتحنو عليها ظلال النخل الباسقات...

وأناخ الركب رواحله في «يثرب»، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء، ثم استأنف مسيره شمالاً، بعد أن ترك «آمنة» وولدها وجاريتها في حِمى «بني النجار»...

* * *

ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم، حتى أخذت بيد ولدها ومضت تطوف بالبيت الذي مرض فيه أبوه، وتحج إلى القبر الذي حوى رفاته، ثم خلَّتْ بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله، فانطلقوا إلى ملاعبهم

ومغانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم في مجامع المياه ، على حين عكفت «آمنة» على قبر الحبيب ، تناجيه حيناً وتبكيه أحياناً ، وهي على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يريح شجوها.

وطاب لها العيش شهراً كاملاً. نفَّست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، وتمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بني الخال.

* * *

ولا يدري أحد كيف أمضت «آمنة» ليلتها الأخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة إلى «مكة» ، وأغلب الظن أنها أمضتها في مناجاة الحبيب الذي توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى إذا آن لها أن تمضي ، انتزعت نفسها قسراً من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقي ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور صاحبها للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهي تجامل القوم الذين صحبوها مودعين إلى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها إلى أشجانها ، والناقة تمضي بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء...

* * *

الوَدَاع

وإذ هم في بعض مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت – فيما يقال – عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياماً ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت «آمنة» بضعف طارئ ، مكّن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد.

ولم يجزع «محمد» أولَ الأمر لما بدا على أمه من إعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن هدأت العاصفة. أما «آمنة» فأحست انه الأجل المحتوم ...

وتشبثت بوحيدها معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخذ يجفف دمعها بيده اللطيفة ، مستمرئا لذة الحنان الغامر ، يطوي عنه رهبة الموقف...

وفجأة... تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها فراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفئ ، وان صوتها يخفت رويداً رويداً ، حتى يصير الى حشرجة هامسة.

وتضرع اليها أن تنظر إليه ، وأن تكلمه ، فيقال إنها «نظرت لوجهه وقالت (١):

---

(١) الروض الأنف للسهيلي. وانظر الحاوي للفتاوي : ٢/٢٢٢.

والسهام هنا : الأقداح. اشارة الى افتداء عبد الله من النحر بمائة من الإبل ، غداة ضربوا عليها وعليه الأقداح عند الكعبة ، فخرج القدح أخيراً على الإبل.

بـــــارك فيك اللهُ من غلام

يا ابنَ الذي من حومة الحِمام

نجا بعون الملك العلام

فُودِي غـداة الضرب بـالسهام

بمائـــــة من إبـــــلٍ سوام

ثم أمسكت تستريح، فلما التقطت أنفاسها اللاهثة همست في حشرجة الاحتضار:

«كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى. وأنا ميتة وذكري باق، فقد تركت خيراً وولدت طهراً...».

وذاب صوتها في سكون العدم، فما تكلمت بعدها أبداً...

* * *

وخيم على الكون صمت رهيب، مزقته بعد حين، صرخة صبي مفجوع، انحنى على جثة أمه في العراء يناديها فلا تلبي نداء...

والتفت إلى «أم أيمن» يسألها عن سر هذه الحياة التي انطفأت، والجسد الذي همد وبرد، والصوت الذي فني وذاب، فضمته المسكينة الى صدرها، ولم تملك إلا أن تقول دون أن تعي:

«إنه الموت يا بني»!

الموت؟!

ذاك الذي غال أباه من قبل؟

ذاك الذي جرَّع أمه كأس الترمل، فما طاب لها عيش ولا اندمل في قلبها الجرح لمدى سبع سنين طوال؟!

ذاك الذي يطوي الأعزاء في جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء؟!

ذاك الذي يمضي بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب؟

وتلفت اليتيم حواليه حائراً ، فإذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة في حضرة الموت!

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة ، مغشّاة بزرقة كابية!

ومدّ بصره المجهد إلى الأفق البعيد ، فإذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة!

هنالك آب اليتيم الى «أمه» فجلس قريباً منها يحدق فيها صامتاً واجماً عاجز الحيلة ، على حين أخذت «بركة» تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتغمض العينين المنطفئتين...

وتبعها مطرقاً مستسلماً ، وهي تحمل الجثة الى قرية «الأبواء» كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى إذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها!

وعلا نحيب القوم من إشفاق وتأثر ، وخلّوا بينه وبين أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحّوه عنها في رفق ، وأضجعوها في لحدها...

وهالوا عليها الرمال...

* * *

عَوْدَة اليَتِيم

وجمت أرباض «مكة» وهي تشهد الصبي الحزين الذي غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر، بادي الغبطة والتهلل والإشراق، يعود إليها اليوم وحيداً مضاعف اليتم، قد ذاق الحزن المر، ورأى بعينيه مشهد الموت في أعز من له، وبلا المأساة الفادحة التي طالما حدثته أمه عنها، وهي تستعيد ذكرى أبيه «عبد الله».

وسوف تذكر «مكة» عودة «محمد» هذه، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن، تحت جنح الظلام، مهاجراً بدينه الجديد الى «يثرب» في صحبة شيخ صديق، وقريش من ورائه تعدو في أثره وتلح في طلبه...

وكذلك سوف تذكر «مكة» عودة الصبي اليتيم هذه، يوم يرجع إليها من دار هجرته عام الفتح، ويدخلها ظافراً منتصراً ليحطم الأصنام التي شوهت جلال الحرم، ويهتف من أعلى البيت الحرام:

«الله أكبر!»

فترجّع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالي، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال...

المبحث السابع

الخالدة

- ذكرى باقية
- طيف لا يغيب
- صورة وضاءة عبر الأجيال

ذكرى باقية

«... ها هنا نزلت بي أمي... وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله»

(من حديث للرسول ﷺ لما رأى دار بني عدي بن النجار، بعد الهجرة...).

إلى هنا تنتهي حياة «السيدة آمنة» على سطح الأرض، وينصرف عنها التاريخ حيناً ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاماً فيفسح لها أعز مكان في كتاب الخلود، أمّاً للنبي، الذي تركته وحيداً يتيماً في بادية الحجاز بين يثرب وأم القرى، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السماء للرسالة العظمى، واصطفاه الله ليبعثه بالدين القيم الذي يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الأجناس في مشرق الأرض ومغربها.

وقد عاشتْ أولَ ما عاشت، ملء قلب ولدها العظيم، يخفق لذكراها ويرق لها رقة تثير الشجن، وتستدر عصيَّ الدمع...

ولقد تلقاه جده «عبد المطلب» بعد وفاتها، وضمه إليه مسبغاً عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده، «فكان يقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام في فراشه» (١)

ذكر «الواقدي» – فيما نقله ابن سعد في طبقاته – «ان عبد المطلب كان يوضع

(١) السيرة الهشامية: ١٧٨/١.

له فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد منهم اجلالاً له . وكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيهم أعمامه بأن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلاً : دعوا ابني . . .

ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده»[١] .

* * *

وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، «فأحبه حباً شديداً ، فكان لا يفارقه ، ويخصه بالطعام ، حتى أن بنيه اذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال : كما أنتم حتى يحضر ابني»[٢] .

وكان لمحمد من حنان «فاطمة بنت أسد بن هاشم : زوج عمه أبي طالب» ثم من حب زوجته «السيدة خديجة» ولطف عشرتها وأنس صحبتها ، ما لا مطمع فيه لمزيد ، لكن شيئاً من هذا كله لم يُنسه ذكرى يتمه المر ، ولم يمحُ من خاطره مشهد أمه الغالية وهي تموت بين يديه في الصحراء .

روى «ابن سعد» في طبقاته ، أن رسول الله ﷺ لما مر بالأبواء في عمرة الحديبية قال : ان الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه . فأتاه ، وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أدركتني رحمتُها فبكيت[٣] . . .

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : «خرج النبي ﷺ يوماً وخرجنا معه حتى انتهينا الى المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فجلس إليه فناجاه طويلاً ، ثم ارتفع صوته ينتحب باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ . ثم ان رسول الله أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ما الذي أبكاك يا

---

(١) وانظر مع طبقات ابن سعد : عيون الأثر ٣٨/١ .

(٢) النهاية لابن الاثير : ١٧١/٣ والسيرة الحلبية : ٢/١ .

(٣) الطبقات الكبرى : ٧٧/١ قسم أول ، وانظر نهاية الأرب ٨٧/١٦ .

رسول الله فقد أبكانا وأفزعنا؟... فأخذ بيد عمر ثم أومأ إلينا فأتيناه فقال: أفزعكم بكائي؟ فقلنا: نعم يارسول الله. فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ثم قال: ان القبر الذي رأيتموني أناجيه، قبر أمي آمنة بنت وهب، واني استأذنت ربي في زيارتها فأذِن لي»[1].

وهكذا شهدته االدنيا يلتفت أبداً إلى تلك البقعة المهجورة حيث مضجع أمه، ويرنو إليها بقلبه على تطاول المدى وتنائي الأبعاد...

وعرفت «قريش» منه ذاك، وهي تعلن الحرب عليه وعلى من آمنوا معه، حتى إن «هند بنت عتبة» حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه إلى المدينة ليثأر لقتلى بدر، لم ترَ ما تؤذي به بطل الإسلام، أقسى من نبش قبر أمه «آمنة»، ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك. رووا عن هشام بن عاصم الأسلمي أنه قال:

«لما خرجت قريش الى النبي ﷺ في غزوة أُحُد فنزلوا بالأبواء، قالت هند بنت عتبة لزوجها أبي سفيان بن حرب: لو بحثتم قبر آمنة أم محمد فإنه بالأبواء، فإن أُسِر أحدٌ منكم افتديتم كل انسان بإرب من آرابها؟!»[2].

لكن أبا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش، حتى أخذ منها الفزع كل مأخذ، فصاحت بالرجل: «لا تفتح علينا هذا الباب» وكأنما روعها تمثلُ غضبة ابن آمنة والمسلمين للفعلة النكراء!

وانصرفتْ قريش عن الأبواء لم تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذي استودعه الصبي اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من أربعين سنة، ثم لم ينسها بعد ذلك أبداً...

---

(١) صحيح مسلم: ١٠٥/١١، ١٠٨ وسنن أبي داود: ٧٥/٢٠ وانظر أخبار مكة للأزرقي: ص ٤٣٣، والروض الأنف: ١٩٤/١.

(٢) تاريخ مكة للأزرقي: ٤٨١ – وانظر السيوطي في «الحاوي» ص ٢٣٣ ج ٢ والإرب، بكسر الهمزة: العضو.

ولم تُنسه جلائل الأحداث ولا كرُّ الغداة ومر العشيِّ ، ذكريات أيامه الخوالي في حضن أمِّه الغالية ، ومشاهد رحلته الأولى معها إلى يثرب ، بل تشبث بها خاطره وأبى أن يفلت شيئاً منها. فعندما هاجر ﷺ إلى المدينة ، مضى يطوف بالربوع التي شهدته – قبل نحو نصف قرن – صبياً خالي البال ، ويستعيد ما كان له من مواقف هناك. حدثوا أنه ﷺ لما رأى حي بني عدي بن النجار قال : «ها هنا نزلتْ بي أمي... وفي هذه الدار قبرُ أبي عبد الله» (١)

ونظر إلى أُطُمِ بني عدي ، فرقَّ قلبُه وهو يقول :

«كنت ألعب مع أنيسة – جارية من الأنصار – على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالي. وأحسنتُ العوم في بئر بني عدي بن النجار».

لم ينس محمد ﷺ تلك الأيام الخوالي ، كما لم ينس الدار التي شهدت مولده ، وقد أُغلقت أبوابُها بعد موتِ أُمِّه وتُركت خلاء...

وربما مر بها بين الحين والحين – أيامَ شبابه في مكة – فوقف يسائلها عما فعلت بها الأيام ، ويتملى ذكرى مشهد أمه حين كانت هناك...

* * *

حتى هاجر ﷺ من مكة وفيها المهد الحبيب ، فلما عاد إليها يوم الفتح وعلم أن دار مولده أخذها عقيل ابن عمه أبي طالب كره ﷺ أن يستردها منه ؛ كما كره للمهاجرين أن يرجعوا في شيء من أموالهم أُخِذ منهم في الله تعالى ، وهجروه لله (٢)

فبقي بيت المولد لعقيل وولده من بعده ، حتى اشتراه «محمد بن يوسف» فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء ، فلم يزل كذلك إلى أن حجت «الخيزران» – أم

---

(١) الطبقات الكبرى : ١/٧٧ قسم أول. ونهاية الأرب : ١٦/٨٧.

(٢) أخبار مكة للأزرقي : ٤٥٧.

الخليفتين موسى وهارون – فجعلته مسجداً للصلاة ، وأشرعته في الزقاق الذي يقال له «زقاق المولد» فحدثوا أن أهل الزقاق المبارك كانوا يقولون بعد أن نقلوا منه :

– ووالله ما أصابتنا فيه جائحةٌ ولا حاجة ، حتى أُخرِجنا منه فاشتد الزمانُ علينا (١)

* * *

(١) النهاية لابن الأثير: ١/١٨٦ – والروض الأنف للسهيلي : ١/١٠٧ – وأخبار مكة للأزرقي : ٤٤٦ .

طيف لا يغيب

«إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها . فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»

(حديث شريف)

طواها الثرى قبل أن يستكمل ولدها الوحيد عامه السابع ، ورأته الدنيا من بعدها ينعم بالحياة الزوجية السعيدة ، كما رأته من بعد ذلك يصطفى للنبوة ، ويخوض معاركه التاريخية المظفرة ، ضد الوثنية والشرك والضلال ...

ولقد بقي طيفها العزيز يصحبه ما عاش ، وبقيت ذكراها تراوحه حيثما ذهب وأنى أقام ، فتستثير فيه أعمق عواطف البر والرحمة ، وترتفع بالأمومة عنده إلى المقام الأسنى الذي لا يطاوله مقام ...

ذكرها في مرضعته «ثويبة» مولاة أبي لهب ، فكان ﷺ يَصِلها وهو بمكة ، كما كانت السيدة خديجة تكرمها ، فلما هاجر إلى المدينة ظل يبعث إليها بصلة وكسوة ، إلى أن جاءه خبر وفاتها سنة سبع ، عند مرجعه من خيبر. فلما دخل مكة ظافراً بعد ذلك بعام ، لم ينس في غبطته بالفتح الأكبر ، أن يسأل بمكة : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل له : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد (١) .

وكذلك فعل مع «أم أيمن» حاضنته الحبشية التي رافقته وأمه في رحلتهما إلى

(١) الروض الأنف : ٢/٩ – ونهاية الأرب : ١٦/٨١ .

يثرب ، وشهدت معه وفاتها بالأبواء ، فعاش ﷺ لا يرى «أم أيمن» حتى يرق قلبه لذكرى الراحلة ويقول :

«هي أمي بعد أمي» (١)

* * *

وكان بره بأمه التي أرضعته «حليمة السعدية» مظهرا لما يعمر قلبه الكريم من حب للأمومة في أي صورة من صورها. حدثوا عن «أبي الطفيل ، عامر بن واثلة الكناني» رضي الله عنه ، أنه قال : «رأيت النبي ﷺ يقسم لحماً بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظمَ الجزور ، إذ أقبلت امرأة دنت إلى النبي ﷺ فبسط لها رداءه ، فجلست عليه . فقلت : من هي؟ فقالوا : هذه أمه التي أرضعته» (٢)

وفي السنة الثامنة للهجرة ، حين انصرف الرسول ﷺ من غزوة الطائف منتصراً ومعه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، وما لا يُدرَى ما عِدَّتُه من الإبل والشاه ، أتاه وفدُ هوازن – ممن أسلموا – فقال قائلهم :

«يا رسول الله ، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك» – وكانت حليمة من بني سعد بن بكر من هوازن...

فلمست ضراعتهم قلبه الكبير ، واستجاب لمن استشفعوا بالأم التي أرضعته ، فقال لوفد هوازن ، وطيف أُمِّه «آمنة» يباركه :

«أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، في أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ...» .

فلما صلى رسول الله بالناس الظهرَ ، قام رجال هوازن فتكلموا بالذي أمرهم به ،

---

(١) الروض الأنف : ٧٩/٢.

(٢) رواه أبو داود في سننه : ١١٩/٤

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام:

- أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. فقال المهاجرون:

- وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ...

وقالت الأنصار:

- وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ...

وإذ رأى عليه الصلاة والسلام تردد بعض القبائل، مثل تميم وفزارة، قال:

- أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي، فله بكل إنسانٍ سِتُّ فرائضَ من أول غُنْمٍ أصيبه...

فردوا إلى هوازن أبناءها ونساءها (١)

لأن فيهن حواضن الرسول وعماته وخالاته من الرضاعة...

* * *

وتمثل ﷺ أمه «آمنة» في شخص فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، تلك التي رعته أيام صباه في بيت عمه أبي طالب، وكانت له من بعد أمه أماً. ذكر «ابن سعد» في طبقاته، و«ابن هشام» في السيرة، و«ابن عبد البر» في الاستيعاب، و«أبو الفرج الأصبهاني» في مقاتل الطالبيين، عن ابن عباس أنه قال:

«لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب، ألبسها رسول الله ﷺ قميصه، واضطجع معها في قبرها، فقال له أصحابه: ما رأيناك صنعتَ بأحد ما صنعت بها. فقال: إنه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرَّ بي منها. إني إنما ألبستُها قميصي لتُكسَى حُلَل الجنة، واضطجعت معها في قبرها ليهون عليها» (٢).

* * *

(١) السيرة: ١٣١/٤.

(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص ٨، ٩ ط. الحلبي، والاستيعاب: ١٨٩١/٤.

وكذلك رأى ﷺ ملامحَ من أمه الراحلة ، في زوجه الرءوم خديجة رضي الله عنها ، تلك التي سكن إليها منذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره إلى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين ، لم يستبدل بها سواها ولا ضمَّ إليها زوجة غيرها ، ولا نسي لها طولَ عمره ، ما عوضته من حنان الأمومة الذي افتقده منذ ودَّع أمه في الأبواء...

أجل ، ذكر محمد ﷺ أمه في كل هؤلاء...

وتمثَّلها في بناته حين كبرن وصرن أمهات ، ورأى صورتها في كل أمٍّ تحنو على ولدها ، فما عُرف عنه انه ﷺ كان ينفعل بمثل تلك العاطفة الفياضة التي كان يجدها أمام مشهد الأمومة ، فما وجد ما يُمثِّل به لأصحابه رحمة الله بعباده ، أقوى من حنو الأم : حدثوا أن سبيا قدم على النبي ﷺ بالمدينة «فإذا امرأة منهم قد تحلب ثديُها ، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنِها وأرضعته. فقال النبي ﷺ لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدَها في النار؟.. أجابوا : لا ، وهي تقدِر ألاَّ تطرحه. فقال : الله أرحمُ بعباده من هذه بولدها».

وما أرتاب في أنه ﷺ ، كان عامر القلب بذكرى أمه ، حين ارتقى بالأمومة إلى ما فوق البشرية ، فوضع الجنة تحت أقدامها وجعل البِرَّ بها مقدماً على شرف الجهاد في سبيل الله والدار الآخرة ، (١) إذ جاءه الصحابيّ «معاوية بن جاهمة السلمي» يستأذنه في الخروج للجهاد ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما سأله الرسول : أحيَّةٌ أمُّك؟ وقال : نعم ، أمره أن يرجع اليها فيبرها.

وعاود معاوية استئذانه في الخروج للجهاد ، فأعاد الرسول سؤاله عن أمه ، ثم أمره أن يرجع اليها فيبرها.

فلما كانت المرة الثالثة ، وعاد معاوية يُلح في الظفر بشرف الجهاد ، كرر الرسول سؤاله : أحيَّةٌ أمك؟ قال : نعم...

---

(١) راجع «تقديم بر الوالدين على الجهاد» في «الجهاد» بمفتاح كنوز السنة ص ١٣٤ ط ١٩٣٤

فما كان منه ﷺ إلا أن قال : ويحك ! الزمْ رجلَها فَثَمَّ الجنة ! وفي رواية : «فالزمها ، فإن الجنة تحت قدميها» (١)

وان الانسانية لتصغي اليوم ، وغداً ، الى قول الرسول الكريم :

«إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهيةَ أن أشق على أمه» (٢) . فلا يغيب عنها أن تلمح طيف «آمنة بنت وهب» ملء ذلك القلب الكبير الذي ينبض بأسمى ما تعرف البشرية من عاطفة البِر بالأمومة وتكريمها...

وأي مطمح للبشرية اذ تتسامى بالأم ، واهبة الحياة ، وراء الذي يقال من حديث ابن آمنة ، المصطفى بشراً رسولاً :

«لو كنت أدركتُ والديَّ أو أحدَهما وأنا في صلاة العشاء ، وقد قرأتُ فاتحة الكتاب ، تنادي : يا محمد ، لأجبتها : لبيكِ» (٣)

* * *

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ١٤١٣/٣ (معاوية بن جاهمة).

(٢) رواه البخاري في الصحيح.

(٣) رواه البيهقي في شعب الايمان ، بسند فيه يس بن معاذ ، ثم قال : يس بن معاذ ضعيف. وانظر السيوطي في «الحاوي» ٢٣٣/٢.

عبر الأجيال

تتبـــــاهى بك العصور وتسمو
بك عليـــاء بعـــدهـــا عليـــاءُ
فهنيئـــاً بـــه لآمنـــةَ الفضـ
ـلُ الـــذي شرُفَتْ بـــه حواء!

(البوصيري)

ولقد ثوى المصطفى ﷺ، بعد أن أدى رسالته، في ثرى «يثرب» كما ثوى أبوه من قبل، وآب الى المصير الذي يثوب إليه كل حي. «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» ولكنه عاش ملء الحياة في حساب الإنسانية والتاريخ، وفي قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته، وستظل الدنيا أبداً خاشعة أمام ذلك البشر الرسول الذي لم يكد يهتف هتافه الخالد: الله أكبر، «حتى كان النسر الروماني يترنح ثم يتمرغ في التراب لآخر مرة» وإذا العرب الحفاة البداة الذين لم يكونوا يخرجون من جزيرتهم إلا لرحلتي الشتاء والصيف، يطأون هذا النسر بالأقدام، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الأباطرة والفراعين، ثم يندفعون شرقاً حتى يبلغوا برسالة الإسلام أسوار الصين، وينطلقون بها غرباً حتى يصلوا إلى ساحل المحيط الأطلسي ليشيدوا لدينهم دولة إسلامية في أسبانيا، معقل الكاثولوكية المتعصبة، ثم يغذون السير شمالاً حتى يقرعوا أبواب «فيينا» عاصمة امبراطورية النمسا، ذات السلطان في قلب أوربا المسيحية.

وستظل العقول أبداً حيرى أمام عظمة ذلك الإنسان الذي ولدته أمه «آمنة بنت وهب» بشراً سويا: يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويذوق مرارة اليتم ولوعة الثكل، ويحب، ويتزوج، ويلد ويموت شأن كل بشر، واستطاع هذا البشر الرسول، أن يوجِّه تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادي، وأن يقرر مصاير دول عظمى وشعوب عريقة، ما كانت لتعرف شيئاً عن شبه الجزيرة القاحلة الجرداء، أو تحس وجوداً لأهلها الذين يتنقلون على الإبل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية...

وهذا «كيتاني» الذي وُلد وشب في جوار الفاتيكان وحِمى القديس بطرس، يشد رحاله إلى بلاد العرب في صدر القرن الرابع عشر الهجري، لعله يكشف هناك عن سر خلود ذلك الراعي اليتيم، وتعلق أتباعه به إلى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا...

وهذا مستشرق آخر، يمسك قلمه ليتساءل في دهشة وعجب، عن المعجزة التي جعلت من ابن «آمنة» القرشية آكلة القديد، بطل الأبطال كما وصفه «كارليل»، رغم كونه النبي الأوحد بين أنبياء العالم، الذي وُلد في ضوء التاريخ الكامل، ومعجزته كتاب عربي مبين، يُصِرُّ على بشريته، ويُنَحِّي عنه كلَّ ما حف بابن مريم قبله من قداسة وألوهية.

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبل محمد أو بعده، «يغدو سلوكه اليومي – كما يقول هوجارت – سواء في الأمور الخطيرة أو الأمور البسيطة، القانونَ الذي يرعاه الملايين من أتباعه بكل دقة، ويقلدونه عن يقين وإيمان الى أيامنا هذه؟».

«كلا، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد، في أية طائفة من طوائف الجنس البشري، المثلَ الكامل للانسان، فقُلِّدت أفعاله بتمام الدقة، كما حدث لمحمد بن عبد الله، الذي وضعته آمنة بنت وهب كما تضع كل أنثى من البشر» في فجر يوم من أيام ربيع، بجوار البيت العتيق، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره، فسعت به إلى قبر أبيه بيثرب، ثم خلَّفته وحيداً في الطريق إلى مكة!

* * *

ولم تَدْرِ «بركة» وهي تودع الجسد الساكن، تلك الحفرةَ النائية في صحراء الحجاز، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكراً خالداً يقهر الزمن ويغلب الفناء.

ولا أحست وهي تبكي سيدتها في ذاك القفر الموحش، أن قوماً ممن آمنوا بابن السيدة آمنة، قد زاروا قبرها بعد أعوام، فخُيل إليهم أن الجِن تنوح عليها منشدة [1]:

نبكي الفتـــاة البرَّة الأمينـــه
ذات الجمال، العفَّـــة الرزينـــه
زوجـــة عبـــد الله والقرينـــه
أمَّ نبي الله ذي السكينـــــه
لـو فُـودِيت لفـوديت ثمينـــــه
وللمنـــايـــا شفرةٌ سنينـــه
لا تبقَيْـنْ ظـاعنـا ولا ظعينـه
الا أتَت، وقطَّعت وَتِينـــــه

ولم يُقدِّر أحدٌ ممن شهدوا رقدتها في مضجعها الأخير بالأبواء، أن سوف يأتي حينٌ من الدهر تُبعث فيه الراقدة، ثم لا يموت لها ذكرٌ من بعد ذلك أبداً، بل تظل صورتها تتنقل عبر الأجيال باهرة السنا والبهاء، ويظل اسمها خالداً على مر العصور والأدهار، يحف به جلال أمومتها العظمى التي لبثت، وسوف تلبث دائماً، تستثير أنبل ما في وجدان المؤمنين من انفعال، وتُلهم شعراءهم روائع القصيد. وهذه الدنيا تصغي في الليلة المباركة من ربيع كل عام هجري، إلى هتاف المحتفلين بذكرى الساعة الغراء التي قامت فيها «آمنة» عن ولدها سيد البشر:

كيف ترقى رقيَّك الأنبيـــــــــاء
يـــا سماءً مـــا طـــاولتهـــا سماءُ

(١) رواه السهيلي في الروض الأنف، ونقله السيوطي في الحاوي للفتاوي: ٢٢٢.

لم يساووك في عُلاكَ وقــد حــا
ل سنى منكَ دونهم وســنــــاء
إنما مثّلوا صفــاتك للنــا
س كما مثّــــل النجومَ الماءُ
تتبــاهى بك العصورُ وتسمو
بكَ عليــاء بعــدهــا عليــاء
فهنيئــا بــه لآمنــة الفضـ
ـلُ الــذي شرفت بــه حواء
يوم نــالت بوضعــه ابنــةُ وهب
من فخــار مــا لم تنلــه النساء (١)

* * *

سلام على «آمنة» سيدة الأمهات، ووالدة النبي المصطفى المبعوث خاتما للرسل الأنبياء، عليهم السلام.

* * *

(١) من همزية البوصيري: انظرها في ديوانه.

الكتاب الثاني

نساء النبي

(عليه الصلاة والسلام)

نِسَاءُ النَّبِيّ

(عليهِ الصَّلاة والسَّلام)

مقدمة

هذا حديث عن حياة سيدنا محمد ﷺ في بيته، أعرضه في صور متتابعة للسيدات الكريمات اللواتي أظلهن هذا البيت، وكان، لكل منهن أثرها في حياة زوجهن المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكانها في تاريخه العظيم وسيرته الخالدة.

ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث، حتى قرأت ما في مكتبتنا مصادر ومراجع لهذا الجانب من حياة الرسول ﷺ، في بيته. مبتدئة بالقرآن الكريم، والحديث وكتب السيرة، والتفسير، ثم التراجم والتاريخ. وطالعت ما في خزانتي من كتب للمستشرقين في هذا الموضوع.

على أني حين بدأت أكتب، خليت هذا الحشد من المؤلفات إلى جانبي أرجع إليه كلما دعت حاجة أو ضرورة، وتركت قلمي يصور حياة أمهات المؤمنين في بيت النبي ﷺ، كما تمثلتها بعد أن وعيت الذي قرأت...

وأعترف بأني شعرت بتهيب حين فرغت من القراءة، هممت معه بالتراجع عن الكتابة في هذا الموضوع، وذلك لما ملأني من احساس بجلاله ودقته من ناحية، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية أخرى:

فهؤلاء السيدات اللواتي عشن في بيت النبوة، ينتزعن جميعا الى حواء، وقد جئن إلى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء، وتزوجن من بشر يتلقى الوحي من أعلى، ويبلغ رسالة الله عز وجل، فأنّى لقلم أن يصور حياة كهذه، تموج فيها اهواء البشرية في فيض من النور الأسنى، وتتجاذب فيها الأنوثة – التي نعرف

رقتها وضعفها ورهافة وجدانها – تيارات بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها الى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى الى السماوات العلا ، وتتعادل من هذا بشرية سماوية ، وسماوية انسانية !

غير أني عدت فرأيتها حياة حافلة مثيرة ، تغري بالدرس والتأمل ، وتجربة فذة ليس من السهل أن أنصرف عنها بعد أن اتجهت اليها.

* * *

وإذ صح مني العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق ، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه ، فما كانت هذه الكثرة لتحول دون تناول جديد له ، وبخاصة إذ ذكرت أن أغلب الذين كتبوا قبلي عن حياة النبي ﷺ في بيته ، مالوا عن الحق ، فمنهم من زين له الإيمان والاجلال أن ينزه الرسول عن بشريته التي فطره الله عليها ، وقررها القرآن والسنة أصلا من أصول العقيدة الإسلامية ، ومنهم من أضله التعصب وأعماه الحقد ، فجعل من هذا الجانب في حياة نبينا العظيم ، ما يشفي غله وينفس عن حقده.

ومن هنا بقي في الموضوع مجال لتناول جديد ، يتمثل حياة نساء النبي في البيت الكريم على هَدي دين الفطرة ، وبايحاء البيئة واملاء التاريخ ، وفي نزاهة مؤمنة ، ودراسة محققة...

وسيرى القارئ اني اقتصرت في هذا الكتاب على الأزواج اللائي شرفن بلقب أمهات المؤمنين ، ومعهن «مارية القبطية المصرية» التي كان لها الى جانب حُظوتها عند المصطفى ﷺ وشرف أمومتها لابنه ابراهيم ، أثر واضح في الحياة الخاصة لمحمد ﷺ . وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية ، لم أتحدث عن السيدات اللائي تزوجهن ولم يدخل بهن ، وقد اختلفت الروايات في عددهن وأسمائهن ، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى كتب السيرة النبوية وطبقات الصحابة وتأريخ عصر المبعث...

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، ولا اللواتي عرضن عليه أن يتزوجهن ، ولم يتم الزواج .

ولست أجهل أنه قد كان لهؤلاء السيدات أثر في حياته ﷺ ، العاطفية والزوجية ، غير أن التاريخ المروي ، لم يشأ أن يسجل ذلك الأثر ، ولا عرف لهن مكانا في بيته ، ومن ثم جاز لي أن أدعهن كي أفرغ للحديث عن أولئك اللاتي دخلن حياته ﷺ ، مركزة جهدي في تصوير شخصياتهن كما بدت في البيت المحمدي ، فلم أتعرض لما قبل مجيئهن اليه الا على سبيل التمهيد ، ولم أتتبع حياتهن بعده ﷺ ، إلا أن تكون إشارة موجزة يدعو إليها المقام .

ذلك لأنني لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبي جمعا لمًّا ، ولا أردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدي المألوف في تراجم الأشخاص ، وإنما عناني تمثل حياة كل منهن في بيت المصطفى ﷺ ، ومكانها منه ، وتصوير شخصيتها تصويرا يجلوها زوجاً وأنثى ، ولا على القارئ بعد هذا أن يلتمس هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخي لسنة وفاتها ، وتحديد لمكان قبرها وتتبع دقيق لأنبائها بعد زوجها ، بل فليلتمسه في غير هذا الكتاب اذا شاء ، وحسبه مني أن أقدم له من ملامح شخصيتها الأصيلة ، ما يضيء تاريخها كله .

وأود بعد هذا كله أن يطمئن القارئ إلى أنني تحريت جهدي في مادة الكتاب أصالة المصادر ، ثم كان لي بعد ذلك ، منهجي في التناول وأسلوبي في الأداء ونسق العرض .

وعسى أن أكون قد وُفقت إلى قريب مما حاولت من تقديم الحياة الزوجية في بيته ﷺ ، بما ينبغي لي من محض التقوى والإخلاص ، وصدق التقدير لجلال الموضوع وأمانة الكلمة .

«وعلى الله قصد السبيل» صدق الله العظيم .

البحث الأول

محمد ﷺ

الزوج النبي
صلى الله عليه وسلم

«قلْ سبحانَ ربي هَلْ
كنتُ إلاَّ بشراً رسولاً»
صدق الله العظيم

البيت والزوج

الحديث عن «نساء النبي» ﷺ في بيته، لا بد أن يسبقه حديث عن الزوج، وبيته الذي أظلَّهن. لا أعني به بنيانه وموضعه، بقدر ما أعني الحياة المشتركة فيه.

وأما البيت بمعنى البنيان، فالواقع أنه لم يكن بيتا واحدا، بل بيتين: أولها في «مكة» حيث عاش «محمد» ﷺ، مع زوجه الأولى وحدها، وحيث أنجب، وواجه التحول الأعظم في حياته وفي حياة العرب والإنسانية جميعا. وقد وصفتُ هذا البيت في كتابي عن «بنات النبي» ﷺ.[1] ومن ثم أعفي نفسي وأعفي قرائي من التزيد بتكرار ذلك الوصف. البيت الآخر كان في «المدينة» حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضي الله عنهن، فيجد القراء وصفه موجزا في الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضي الله عنها من هذا الكتاب، إذ كانت أولاهنَّ مكانا فيه، ومن بعدها جاءت نساء النبي تباعا، وصار لزواجه ﷺ معنى اجتماعي وسياسي وتشريعي لم يُلحظ في البيت الأول الذي دخله محمد - ﷺ - شابا في الخامسة والعشرين من عمره، لم يُبعث بعد برسالة، ولم يتلق الوحي.

* * *

وفي الحديث عن رب هذا البيت الذي أظلهن، لا أقدم هنا تتبعا للسيرة النبوية أو عرضا لأمجادها الخالدة ومواقفها المشهودة، وإنما أقف من هذا كله عند جانب

---

(١) ظهرت منه خمس طبعات لدار الهلال بالقاهرة. وثلاث لدار الكتاب العربي في بيروت. كما طبع في المجلد الجامع لـ(تراجم سيدات بيت النبوة) رضي الله عنهن، نشر دار الكتاب العربي ببيروت.

بعينه لا ينبغي أن أتجاوزه إلى سواه ، ذلك هو محمد الزوج ، النبي الإنسان الذي أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات ، ووسعتهن دنياه الخاصة ، وكان لهن حظ المشاركة في حياته الوجدانية ثم في حياته العملية .

والفصل بين شخصيته زوجا رجلا ، وشخصيته ﷺ نبيا رسولا ، جد عسير ، وليس الأمر كذلك في حياة نبي آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعاً آدميين ، يقول الله تعالى فيهم : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم » (١) ، ذلك لأن الإسلام قرر بشرية الرسل عليهم السلام أصلا من أصول عقيدته . ومحمد ﷺ كان أحرص الناس على تذكير أمته بأنه بشر: عبد الله ورسوله .

ولم تنتزع الرسالة من قلبه عواطف البشر ، ولا جردته من وجدانهم ، ولا عصمته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة ؛ فهو كما قال جل جلاله : « قل إنما أنا بشر مثلكم » (٢) : يسكن إلى زوجه ، ويشغل بالأبناء ، ويعاني مثل الذي يعانيه بنو آدم من حب وكره ، ورغبة وزهد ، وخوف وأمل ، وحنين واشتياق ، ويجري عليه ما جرى على سائر البشر من تعب ويتم وثكل ، ومرض وموت :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » (٣) .

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا ، ولأعفاه مما ذاق من حرِّ الثكل في بنيه ، وفداحة المصاب في خديجة ، ومحنة الإفك في عائشة . ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة ، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين من أتباعه ، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله :

« قل لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب

---

(١) من آيات : يوسف ١٠٩ ، والنحل ٤٣ ، والانبياء ٧ .

(٢) سورة الكهف ١١٠ وفصلت آية ٦ .

(٣) من آية ١٤٤ سورة آل عمران .

لاستكثرتُ من الخير وما مسَّني السوءُ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»[1]

وإنه لغاية التكريم للبشرية، أن ينتمي إليها النبي الرسول، ومن قبل كرمها الله، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، أبي البشر.

* * *

ولكن محمداً ﷺ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر، وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعا، خاتما للنبيين، وبعثه في الناس بشيرا ونذيرا... إنه بشر رسول، وهذا هو موضع الدقة والعسر في الحديث عن «الرجل» في حياته العاطفية والزوجية، فما يغيب عن كاتب يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد، أنه قد كان النبي المصطفى، وأن كلمة الإسلام الأولى هي الشهادة بأن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله.

ويزيد في دقة الأمر وعسره، أن نرى الشخصيتين مندمجتين فيه غير منفصلتين، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف شاء على نحو ما يفعل أي رجل من البشر، وإنما كان – عليه الصلاة والسلام – يتلقى من حين الى حين أوامر ربه في أخص الشئون الزوجية، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سماوي صريح:

فمحنة الإفك مثلا، لم يحسمها الا نزول الوحي ببراءة «عائشة» مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة.

وزواجه ﷺ من «زينب بنت جحش» ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذي كره لمحمد أن يخفي في نفسه ما الله مبديه، وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

---

(١) آية ١٨٧ من سورة الأعراف.

وطلاق الرسول ﷺ لزوجه السيدة حفصة ، خيف من وطأته على أبيها «عمر» رضي الله عنه ، فنزل أمين الوحي على النبي ﷺ بأمر الله أن يراجع حفصة ، رحمةً بعمر.

وضيق نساء النبي ﷺ ، بما فرض عليهن من حياة خشنة ، نزل فيه قوله تعالى في سورة الأحزاب :

«يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما» ٢٨ – ٢٩.

وسلوك نسائه ، ﷺ ، كان يخضع لتبعات القدوة ومسئوليتها الباهظة الصعبة ، قال تعالى في سورة الأحزاب :

«يا نساء النبي لستنَّ كأحد من النْساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا. وقَرْنَ في بيوتكن ولا تَبَرَّجْنَ تبرجَ الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيتِ ويُطهركم تطهيرا. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفا خبيرا» ٣٢ – ٣٤.

وبعض هذا يكفي لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبي.

فأي رجل كان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام؟

وأي زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات ، أختلفت أنماطهن ، وتباعدت أصولهن ومنابتهن ، وتفاوتت أعمارهن وصورهن؟..

قد نستطيع – بشيء من الجهد – أن نتبين بعض ملامحه المميزة ، في الشاب الهاشمي الذي صحب عميه أبا طالب ، وحمزة ، الى دار خديجة بنت خويلد ، ليحتفل بزواجه منها في العام الخامس عشر قبل المبعث...

لقد كان اذ ذاك بشرا غير رسول ، وان يكن المهيأ ليبعث بالرسالة...

كان شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ، أبوه «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم» ، الذي وعت «مكة» قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه (١) ، وهي قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول «اسماعيل بن ابراهيم» جد العرب العدنانية.

وأمه «آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي» أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا (٢).

وقد أمضى أعوامه الأولى في بادية بني سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص في شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان (٣) كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسؤولية ، وجاءت رحلة صباه مع عمه إلى الشام فوسعت من أفقه وَزَوَّدَتْه بَعضَ خبرةٍ بالدنيا والناس ، فكان – في إبان شبابه – الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح في شخصيته آثار البادية ، وفي سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم : مثابة الحجاج ، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجاري بين الأطراف المتحضرة في الجزيرة ، كما تلمح في عقله تجارب الحياة الجادة العاملة ، وفي خلقه شمائل هاشمي قرشي ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يُصِبْه الترفُ بآفات النعومة واللين.

هكذا كان «محمد» حين سمعت به السيدة خديجة ، وبلغها ما يتحدث به القوم

---

(١) السيرة النبوية ، رواية ابن هشام ١٦٠/١ ، ط الحلبي وانظر مبحث الفداء بتفصيل ، في كتاب (أم النبي) عليه الصلاة والسلام.

(٢) السيرة ١٦٥/١ ، عيون الأثر ٢٤/١.

(٣) لم يفتني هنا ان العرب عموما قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم ، قبل اختلاطهم بالشعوب بعد الفتوح الإسلامية ، ولكن يبقى للبادية مع هذا ، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس إلى بيئة مكة التي عرفت الاختلاط قبل الاسلام ، بحكم مركزها الديني والتجاري : فإليها كان حج العرب ، ومنها كانت رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام.

عن جده واستقامته، وصدقه وأمانته وعفته، فمهد هذا كله سبيله إلى قلبها الذي كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها: «شابا وسيما، معرب الملامح، أزهر اللوم، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، مبسوط الجبين، مرسل الذقن، عالي العنق، عريض الصدر، غليظ الكفين والقدمين، يتوج هامته شعر كث شديد السواد، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء اذا تكلم أو ابتسم» (١)

«وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه الى الأمام، ويحسن الاصغاء ملتفتا الى محدثه بكل جسمه، لطيف المحضر، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه فاذا غضب لم يخنه حلمه، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين، من أثر الغضب» (٢).

ولم تكن السيدة خديجة اذ ذاك بالفتاة الغريرة، بل كانت السيدة الناضجة المجربة التي بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادة قريش، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون في مالها الى الشام، وان في اعجاب مثلها «بمحمد» وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت في شخصيته الآسرة اللافتة، ما لم تجده في أي رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها، ولسنا بحاجة إلى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالي، لا النبي المنتظر.

وقد عاشرته هذه السيدة الناضجة المجربة خمسة عشر عاما قبل أن يبعث، وانها لأعوام طويلة تكفي لأن تكشف لها عن جوهر هذا الزوج وتبدي من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس. ثم لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحي الأول، حتى هتفت في حرارة ولهفة ويقين:

---

(١) تاريخ الطبري: ١٨٥/٣ – وانظر معه كتاب الفضائل من، صحيح مسلم: باب صفته ﷺ (١٨١٨/٤) وعيون الأثر ١٨٨/١.

(٢) من وصف الامام علي كرم الله وجهه للنبي عليه الصلاة والسلام: تاريخ الطبري: ١٨٥/٣، ١٨٦ وانظر: صحيح مسلم، من كتاب فضائله ﷺ (١٨٠٤/٤ – ١٨١٢).

«... والله ما يخزيك الله أبدا... انك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(١)

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت، وان فيها ما يجلو لنا ملامح من شخصية محمد الرجل السيد، قبل أن يبعث نبيا رسولا. ومن وصف «علي بن أبي طالب» - كرم الله وجهه - لابن عمه الذي عاش معه طويلا في بيت أبي طالب، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج من السيدة خديجة، قال:

«... وهو أجود الناس كفا، وأجرأ الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمةً، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه...»(٢).

ومعه، حديث لأم معبد الخزاعية «عاتكة بنت خالد»، قالت تصفه ﷺ، وقد رأته في هجرته قبل أن تعرفه:

«رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق... وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي عنقه سطع، وفي صوته صحل، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، ان صمت فعليه الوقار، وان تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر... ربعة، لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر... له رفقاء يحفون به، ان قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره...»(٣).

والسيدة «خديجة» تنفرد من بين نساء النبي جميعا بأنها وحدها التي عرفته رجلا وزوجا قبل مبعثه ﷺ. ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتها الزوجية نلتمس فيها

---

(١) الحديث. رواه مسلم في الصحيح. والسيرة ٢٥٣/١، وعيون الأثر ٨٣/١.

(٢) وانظر كتاب المناقب في صحيح البخاري، وكتاب الفضائل في صحيح مسلم.

(٣) الاستيعاب ١٩٥٩/٤، وعيون الأثر ١٨٨/١، ٣٢٣/٢.

شخصية الرجل الزوج ، فإذا تركناها إلى الزوجات الأخريات اللواتي جئن بيت النبي بعدها ، شق علينا تمثل حياتهن هناك ، فما من امرأة منهن دخلت حياة «محمد ﷺ» إلا رأت فيه الزوج والنبي معا.

والذي نطمئن إليه ، هو أن الزوجة منهن كانت تأتي بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، معتزة بشرف الزواج من النبي المصطفى ، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من زوجات يشاركنها في رجلها ، حتى ترى فيه - ﷺ - الزوج والنبي. ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التي تحتدم حتى تجاوز المدى ، وما يكون شيء من هذا في حياة نساء يرين في زوجهن نبياً فحسب !

وحياة «محمد ﷺ» في بيته ، تبدو رائعة في بشريتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان[1] ، ولم يحاول - إلا في حالات الضرورة القصوى - أن يفرض على نسائه شخصية النبي لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني ، ولا الجمود العاطفي ، وما ذاك الا لأنه ﷺ كان سَوِيَّ الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا ، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف.

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات ، بأنهن كن دائما في حياة الرسول البطل ، يصحبنه حين يخرج في معاركه ومغازيه ، ويهيئن له ما يرضي بشريته ، ويغذي قلبه ، ويمتع وجدانه ، ويجدد نشاطه ، فكان له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الباهظ ، واحتمال ما لقي في سبيل دعوته الخالدة.

وقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش ، فتيَّ القلب حتى بعد أن جاوز الستين ، حي الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه في حجر أحب نسائه

(١) في كتاب السمط الثمين للمحب الطبري ، حديث طويل عن رعايته ﷺ لزوجاته ، وسمره معهن ، وصبره عليهن : ص ٨ : ١١.

إليه وأحظاهن عنده.

فليغفر الله لمن حملهم إيمانهم على أن يجحدوا آية الله العظمى في ابن امرأة من قريش تأكل القديد...

وليغفر الله لمن زعموا أن نبيه عليه الصلاة والسلام، لم يخفق قلبه بحب «عائشة»، ولا أحس ميلا نحو «زينب بنت جحش»، ولا كان لعاطفته دخل في زواجه من نسائه!

ويأبى الله ورسوله، وتأبى هذه الفطرة السوية التي عرفتها الإنسانية في «محمد» واعترت بها، وتأبى السيرة النبوية التي تنفي عن الحياة في البيت المحمدي، ظلال الجفاف والجمود.

في بيت الزوجية، مع الضرائر

ولا بد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين في حياة النبي مع نسائه ، وأعني بهما تعدد الزوجات ، وحياة الضرائر...

وقد قال المستشرقون في أولاهما ما قالوا ، ولم يروا في هذا الجمع بين عدد من النساء ، لزوج واحد ، سوى مظهر مادية مسرفة. وانه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل ، وانحراف عن المنهج العلمي الذي يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة أضَرَّت بالمرأة والأسرة والمجتمع ، من حيث يُظن بها أنها مصلحة منصفة.

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعي ان نظام الزوجة الواحدة ، يُتَّبع في دقة وينفذ نصا وروحا ، ومع هذا يأتي بعض أبنائه فينكرون في جرأة ، تعدد الزوجات ، في بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التي لا تعرف سواه إلا في حالات قليلة ولدواعٍ خاصة. ولم يكن هذا النظام اختياريا ، وإنما قضت به طبيعة الزمان والمكان ، في مجتمع البنون فيه زينة الحياة ، وفخر المرأة الإنجاب ، وفخر الرجال الولد وعزة النفر.

وربما بدا لنا اليوم أن ذاك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم ، وأنه قصد إلى إرضاء الرجال. ولكنه في الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا ، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد ، وهو هذا الرق العصري الذي يعترف لزوجة واحدة بشرعية الزواج ويدع لغيرها – ممن يعاشرهن الزوج في الحرام – الضياع والهوان والعار ويرهق الإنسانية بموردٍ لا ينقطع من أولاد الحرام ، المنبوذين اللقطاء.

والإسلام قيد التعدد شرعا بأربع. ففارق الصحابة من زدن على أربع من نسائهم ، ولهن أن يتزوجن من بعدهم.

وأكرم الله تعالى أمهات المؤمنين فأحلَّهن للنبي عليه الصلاة والسلام:
«ذلك أدنى أن تَقَرَّ أعينُهن ولا يحزَنَّ ويرضين بما آتيتهن كلُّهن ... وكان الله عليماً حليما»

الأحزاب – ٥١

ذلك مع ما حرم الله على المؤمنين، من الزواج من أمهاتهم، نساء النبي ﷺ:

«وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما».

الأحزاب ٥٣

وأمر الله تعالى الرجال بالعدل بين أز واجهم، فيما هو من المعروف والمستطاع. مع تقدير الشرع لعجز الفطرة البشرية عن العدل المطلق ولو حرصنا. وقد كان ﷺ أحرص الناس على العدل بين نسائه، قدوة للمسلمين ومعلما وإماما، إلا فيما لم يكن تملكه بشريته من المساواة بينهن في العاطفة والقلب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:
«اللهم هذا قسَمي فيما أملك، فلا تلُمني فيما لا أملك».

* * *

وفي مسألة التعدد، جانب دقيق غفل عنه كثير ممن هاجموه. ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء، وقد تؤثر أنثى – راضية – أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل، على أن يكون لها غيره كاملا.

وليس معنى هذا أن نساء النبي كن سعيدات بحياة الضرائر، ولا هو يقتضي أن تستريح احداهن، إلى هذه المشاركة في الزوج، ولكن معناه على التحديد أن «محمدا» ﷺ، كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال، الذي تؤثر الزوجة أن يكون لها أي مكان في بيته، على أن تكون لها مع غيره، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة...

وليس من بين أزواجه -ﷺ- من دخلت بيته وفي حسابها أن تنفرد به، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصوره، لو ذكرنا أن «خولة بنت حكيم» اقترحت عليه أن يخطب عائشة بنت أبي بكر وسودة بنت زمعة في وقت واحد، وأن «أم المؤمنين، ميمونة بنت الحارث» طمحت إلى الزواج منه، ﷺ - وفي رواية أنها وهبته نفسها - وفي بيته عشر نساء: ثماني أزواج واثنتان ملك يمينه، وان عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبي بكر وعنده «أم رومان» حماة النبي ﷺ وأن علي بن أبي طالب همَّ بأن يتزوج على «فاطمة الزهراء» وأن أبا بكر وعمر، صهري النبي ﷺ رغبا في الزواج من «أم سلمة بنت أبي أمية زاد الركب» حين مات زوجها، وفي بيت كل منهما أكثر من زوجة[1]...

ولو خُيرت نساء النبي ﷺ بين حياتهن تلك المشتركة في بيت واحد، مع زوج واحد، وحياة أخرى منفردة في غير ذلك البيت، لما رضين عن حياتهن بديلا...

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها. وقد شهد البيت المحمدي من غيرة نسائه المحتدمة، ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر، وإن لم تر فيه الفطرة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات، ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به...

فإن يكن، ﷺ عانى من ذلك كثيرا، فلقد راض نفسه على احتماله، تقديرا للدوافع الطبيعية التي كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار، وحسبُنا كلمته في زوجه «عائشة» حين لجت بها غيرتها الجامحة:

«ويحها، لو استطاعت ما فعلت!»

شاهداً على سلامة الفطرة، وصحة النفس، وعمق الفهم لطبيعة حواء. وقد

(١) يأتي بيان ذلك، مع مراجعه، في مواضعه من مباحث الكتاب.

كانت نساؤه يعرفن هذا فيه ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لهن من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ، ويرحم ، دون أن يرى في ضعف البشرية إثما لا يغتفر ، أو يجد في فطرة حواء ما يدعو إلى الغض والازدراء.

وسيأتي في مبحث « السيدة حفصة بنت عمر » موقف أبيها حين سمع من امرأته أن نساء النبي ﷺ ، يراجعنه حتى يظل يومه غضبان...

ذلك أن عمر والصحابة رضي الله عنهم ، كانوا يرون في « محمد » النبي المصطفى ، أما نساؤه فكن يرين فيه الزوج أيضا . وهو ﷺ ، راضٍ بهذا مقر له ، غير ضجرٍ به ولا كاره...

* * *

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبي ﷺ من خصام وخلاف ، والحق أنه ﷺ ما ضاق بهذا إلا أن يجاوزن المدى ، فيغضب ، أو يزجر ، أو يهجر ، لعلهن يرعوين...

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التي اضطر فيها إلى أخذهن بالشدة ، لم يكره ﷺ أن يقف في ساعات فراغه من معركته الكبرى في سبيل الدين الحق ، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه ، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ، ولعله كان مما يرضي الرجلَ فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس أزواجه على الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج . وما حاول - ﷺ - أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها ، ويتجردن من الغيرة ، والشوق ، واللهفة ، والرغبة في الاستئثار بالزوج الحبيب ، وما كان أحلمه ﷺ ، وأرق وجدانه ، وألطف مزاجه ، حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له غِرْنَ من جمالها ، فأوصينها أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبي ﷺ ، استجلابا لمحبته ورضاه ، ففعلت وسرحها الرسول قبل أن يدخل بها ،

وقال عن نسائه :

« إنهن صواحبات يوسف ، وإن كيدهن عظيم ! »[1]

* * *

وهذه صورة من حياة زوجاته رضي الله عنهن ، أرجو أن يرى فيها القارئ شخصية هذا الرجل الفذ الذي آمنت به نساؤه رسولا ، وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجا ، وشاركن في حياته قائدا وزعيما.

(١) بتفصيل ، في الفصل الخاص بعائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها.

المبحث الثاني

أمهاتُ المؤمِنينَ رَضِيَ اللهُ عنهنَّ

على ترتيب دخولهن البيت المحمدي ومعهن «مارية القبطية»
أم ابراهيم عليه السلام

(١)

خديجة بنت خويلد
أم المؤمنين الأولى

... والله ما أبدلني خيراً منها : آمنتْ بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالِها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء »

محمد رسول الله ﷺ

(أخرجه ابن عبد البر
في ترجمتها بالاستيعاب)

ذكرى أليمة

أينع صباه واكتمل شبابه، في بيئة تَعِد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات، لكنه كان يجد طعمَ الحياة في مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة.

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده، وترده إلى لحظةٍ طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاما، وما يزال يذكر موقفه في بقعة موحشة من الصحراء بين «مكة ويثرب»، أمام أمه «آمنة» والحياة تتسرب من جسدها رويدا، ثم تنطفئْ إلى الأبد...

ثمانية عشر عاما، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التي ألقوا فيها جثمان الغالية «بالأبواء»، ضائع الحيلة مهيض الجناح، لا يملك أن يستبقي أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام، بعد أن هالوا عليها الرمال.

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه، وصرفته دواعي الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذي غال أعزَّ من له، أمام عينيه وبين يديه، لكنه لا يلبث أن يُنتزع من حاضره مستثارَ الحزن، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعوراً بعالم بعيد، في طريق الشمال، ليطوف بمرقد الثاوية في جوف الصحراء، ثم ينثني مثقلا بالأسى والشجن.

وما أكثر ما كان يمر في مكة بالبيت المهجور الذي ضمَّه وأُمَّه زمنا، ثم أوحش من بعدها وخلا!..

ما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعي خارج مكة، فإذا حان المساء وآن له أن يثوب إلى منزله، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى إلى يثرب، وحيدا محزونا مضاعَف اليتم، يتبع جاريته «بركة» وانيَ الخطو صامتا واجما، وهي تسعى به إلى بيت جده الشيخ «عبد المطلب».

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التي تروع صباه.

كم جاهد – عامين كاملين – ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامي في قلب حفيده الصغير العزيز!

لكن الزائر المرهوب الذي ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه، عاد من جديد فطوّف بحيٍّ بني هاشم، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب، وينذر بالرحيل.

ووقف الغلام مرة ثانية، يرقب الحياة وهي تنطفئ فيمن كان له أبا بعد أبيه...

وأصغى في حزن ذاهل إلى صوت الشيخ المحتضر، وهو يدعو إليه ولده «أبا طالب» فيوصيه بمحمد، ابن أخيه «عبد الله».

ثم يمضي...

وانتقل الصبي من بعده إلى منزل جديد، وألفى لدى عمه أبا ثالثا، لكنه ظل يفتقد الأم.

وبقي قلبه على الأيام والشهور والسنين، ينزع نحو مرقدها الأخير في «الأبواء»...

ولم يستطع ضجيج صبية بني هاشم في ملاعب حداثتهم، أن يمحو من مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التي صَكَّتْ أذنيه وقلبه في جوف البيداء.

ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول «البيت العتيق» في «أم القرى» أن تطوي في متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها، قرب «الأبواء»(١).

* * *

(١) بتفصيل في كتابنا (أم النبي) ﷺ.

وهذا هو يقف في المساء الساجي عند مدخل مكة شارد البال ، والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلَس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمتُ العميق شجنا و إعياء .

وتتكاثف الظلمة من حوله ، فيجمع نفسه في جهد ، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه ، وفي نفسه إحساس مرهف بفراقٍ وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذي آواه سبعة عشر عاماً ، وحسبُ العمِّ ما يحمل من أعباء بنيه الكثار...

ولكن إلى أين ؟...

إلى «الشام» مؤقتا كما أراد له عمُّه في صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه في مطلع الشمس عن رحلةٍ مرجوة الخير، وقال له فيما قال :

«يا ابن أخي ، أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا وأُلحَّتْ علينا سِنونَ منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضَّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ...

«وقد بلغني أنها استأجرتْ فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك في أن أكلمها ؟» [١] .

قال «محمد» :

– ما أحببتَ يا عم...

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل ؟

إذن فليرحل ، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوي في ضمير الغيب .

---

(١) هذه رواية الزرقاني عن الواقدي . وابن سيد الناس في (عيون الأثر ١/٥٧) والذي في سيرة ابن هشام ١/١٩٩ ، والسمط الثمين للمحب الطبري ص ١٣ طبعة حلب – وتاريخ الطبري ، ٢/١٩٦ ، أن السيدة خديجة هي التي عرضت عليه ، مباشرة ، أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرا .

لقاء

القافلة تغذ السير نحو «أم القرى» عائدة من رحلة الصيف الى الشام، والحداة يهزجون بأغانيهم التي تعد الابل بالراحة والظل والري، وتمني الركب بالأُنسِ في لقاء الأهل والأحباب.

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا «مر الظهران» على مقربة من «مكة» واشرأبت أعناقهم الى معالمها التي لاحت لهم من بعيد، تناديهم في لهفة واشتياق...

لكنه وحده، من بين هؤلاء جميعا، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التي هاجها مرور القافلة قريبا من «الأبواء» في طريق عودتها الى «مكة».

وعبثا حاول تابعه المرافق، أن يغريه بالتطلع الى «أم القرى» أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة، التي اختارته ليخرج في مالها إلى الشام، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطي غيره ممن استأجرتهم قبله...

وقال التابع «ميسرة»:

«أسرع أنا إلى سيدتي فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك، فإنها تعرف ذلك لك».

فتركه «محمد» يمضي وفرغ لتأملاته:

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام، والحُداة يمنون الركب بالأنس في لقاء العشيرة والأحباب؟!...

وكرَّ بصرُه راجعا إلى وراء، يتبع آثار طيف من أمه «آمنة»، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء.

وتذكر رحلته الأولى، في السادسة من عمره، عائدا من «يثرب» بغير أم!

* * *

حتى علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الإبل التي أناخت على ثرى «مكة» مطمئنة، فمضى «محمد» على بعيره قاصدا دار «خديجة» بعد أن طاف بالبيت العتيق...

وكانت «خديجة» هناك في دارها، ترقب الطريق من علية لها في لهفة مشوبة بشيء من القلق، وإلى جانبها غلامها «ميسرة» يملأ سمعَها بحديث مثير عن رحلته مع «محمد» [1].

وإذ ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة، عَجِلتْ إليه تستقبله لدى الباب مرحبة، مهنئة بسلامة العودة، في صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا.

ورفع اليها وجهه شاكرا: فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام...

وأنصتت إليه شبه مأخوذة، حتى اذا ودعها ومضى، ظلت واقفة حيث هي، تتبعه عيناها إلى أن توارى في منعطف الطريق.

واتجه هو الى منزل عمه «أبي طالب» وهو يحس شيئا من الرضى والارتياح، أن عاد إليه من رحلته موفقا سالما، لم يمسسه أذى من يهود...

(١) انظره في: السيرة ١/٢٠٠، والمحبَّر لابن حبيب ٧٧، وتاريخ الطبري ٣/١٩٦ والإصابة ٤/٦٠، والسمط الثمين ١٣. وعيون الأثر ١/٤٨.

زواج سعيد

وسارت الحياة في «مكة» على وتيرتها أياما، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم، وانصرف التجار العائدون إلى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل، محفوف بالأخطار...

وصُفّيَ حساب القافلة أو كاد، وانقطع ما بين التجار والأُجَراء إلى حين، اللهم الا ما كان بين السيدة «خديجة» و«محمد» الصادق الأمين...

لقد بلت «خديجة» الدنيا وعرفت الرجال، وتزوجت مرتين، باثنين من سادات العرب وأشرافهم: عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، وأبي هالة هند بن زرارة التميمي [(١)]، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان، فما رأت فيمن عرفت، ذلك النمط الفريد من الرجال.

واستغرقت في تفكيرها، تستعيد صوته الفريد المميز، وهو يحدثها عن رحلته، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والجلال.

وفجأة، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذي التقت فيه بالشاب الهاشمي، فهزها شعور مباغت، خفق له قلبها:

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد؟..

ترى هل مسَّه الحب فاستيقظ بعد ما طال به الهجوع وطاب له الرقاد؟

---

(١) هذه رواية السيرة (١٩٣/٤) وتاريخ الطبري (١٧٥/٣) والمحبر ٧٩، والسمط الثمين (١٣) وعيون الأثر ٥١/١ ومعها رواية أخرى في الاستيعاب: أن السيدة خديجة تزوجت أبا هالة، ثم عتيق بن عائذ (١٨١٧/٤) وانظر ترجمة عتيق وأبي هالة في جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ١٣٣، ١٩٩ ط أولى ذخائر العرب.

وإذ تلقت جواب القلب ، انتفضت مذعورة لا تدري كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت - في حساب بيئتها - من حياة الرجال؟

وكيف تلقى بها قومها وقد ردت عن بابها الخُطّاب من سادة قريش وسراة مكة؟ (١)

ولكن ويحها ! لقد فكرت في قومها ، دون أن تعرف رأي «محمد» فيها : أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة في الأربعين من عمرها وهو الذي انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بني هاشم الناضرات؟

وانتابها ما يشبه الخجل ، فما هيَ في كهولتها بالقياس إلى «محمد» في شبابه غير خالة أو أم ، ولو عاشت «آمنة بنت وهب» لما جاوزت يومئذ سنَّ الأربعين ! ... وهي بعد ليست خلية من هموم الأمومة ، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومي ابنة أدركت سن الزواج ، وخلف لها زوجها أبو هالة هند بن زرارة التميمي ، ولدها «هندا» غلاما لم يشب عن الطوق (٢)

فأي طائل وراء هذه العاطفة التي تبدو يائسة عقيما؟

وفي غمرة حيرتها واضطرابها ، زارتها صديقتها «نفيسة بنت مُنية» فلم يغب عنها الذي تجد صاحبتها ، فما زالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوي...

وهوَّنت «نفيسة» الأمر عليها ، فما في نساء قريش من تفوقها نسبا وشرفا ، وهي بعدُ ذات غنى وجمال ، كلُّ قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه (٣) .

---

(١) السيرة : ٢٠١/١ - والسمط الثمين ١٣ .

(٢) انظر ترجمة أم محمد بنت عتيق في جمهرة الأنساب (١٣٣) وانظر ترجمة هند بن أبي هالة ، ربيب رسول الله ﷺ في الاستيعاب (١٥٤٥/٤) وفي الجمهرة (١٩٩).

(٣) السيرة : ٢٠١/١

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا...

* * *

جاءت [1] «محمدا» فسألته فيمَ عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان؟.. هلا سكن إلى زوج تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته؟

فأمسك الشاب دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا في السادسة من عمره، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته:

- ما بيدي ما أتزوج به...

قالت على الفور:

- فإن دُعِيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

فما مسَّ سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعني:

تلك «خديجة» ورب الكعبة، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا وكفاءة؟..

ألا لو دعتْه لأجاب، ولكن هل تدعوه؟

وانصرفت «نفيسة» وتركته مشغول البال، يرنو في رقة إلى طيفٍ من خديجة، وقد تراءت له في وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير، تشع لطفا وبهاء وحنوا...

وأشفق أن تبعد به أمانيه، إذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها، فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه، وانطلق يسعى نحو الكعبة، فإذا كاهنة تلقاه في طريقه فتستوقفه سائلة:

- جئتَ خاطبا يا محمد؟

---

(1) كذا في شرح المواهب والإصابة في ترجمتي خديجة، ونفيسة. والذي في سيرة ابن هشام ان السيدة خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة. وروى المحب الطبري في السمط، انها بعثت الى محمد، ﷺ، ولم يذكر اسم من بعثته - وانظر تاريخ الطبري ١٩٧/٢ والروايتان في (عيون الأثر ٤٩/١).

أجاب غير كاذب : كلا

فتأملته برهة ثم هزتْ رأسها وهي تقول :

– ولم ؟.. فوالله ما في قريش امرأةٌ ، وإن كانت خديجة ، لا تراك كفئا لها [1]

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى ، حتى تلقى دعوة «خديجة» فسارع اليها ملبيا وفي صحبته عماه «أبو طالب وحمزة» ، ابنا عبد المطلب».

وهناك في بيتها ألفَوا قومها ينتظرون ، وكل شيء مهيأ لزواج : سريع ... وتكلم «أبو طالب» :

«أما بعد : فإن محمدا ممن لا يوازَن به فتى من قريش ، الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان في المال قل ، فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ...».

فأثنى عليه عمها «عمرو بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ» وأنكحها منه ، على صداق قدره عشرون بكرة [2] .

ولما انتهى العقد ، نحرت الذبائح ودقت الدفوف ، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فاذا بينهم «حليمة» قد جاءت من بادية بني سعد ، لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته ، ثم لتعود في الغداة ومعها أربعون رأسا من الغنم ، هبةً من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت «محمدا» زوجها الحبيب...

---

(١) راجع هذا الحديث كله ، في الجزء الاول الروض الأنف للسهيلي ٢١٤ ، وعيون الأثر ١/٥٠ . ونفسية بنت مُنية ، هي بنت أمية بن أبي عبيدة التميمية الحنظلية . تنسب إلى أمها منية بنت جابر . ترجمتها في الإصابة ٨/٢٠٠ والاستيعاب ٤/١٩١٩ .

(٢) في رواية لابن إسحاق والزهري ، أن أباها هو الذي زوجها . والتفصيل في (عيون الأثر ١/٥٠) السيرة ١/٢٠١ ، وفي رواية أخرى انه أصدقها اثنتي عشرة أوقية : السمط ١٥ ، والمحبر ٧٩ .

وتندت عينا «محمد» وهو يتفقد أمه «آمنة» فاذا يد لطيفة رقيقة، تأسو الجرح القديم في حنان غامر، وإذا به يجد في «خديجة» عوضا جميلا عما قاساه من طويل حرمان...

* * *

ولم يعنِ «مكةَ» من أمر الزوجين السعيدين، سوى أن زواجا ربط بين «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي» و«خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ» (١)

ولكِن «التاريخ» تلبث بعد بضع عشرة سنة، ليسجل يوم العرس المشهود، بين أيامه الخالدات على مر الزمان.

وقد انصرف إلى حين، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها «مكة» ويترشفان على مهل، رحيق ودٍّ صاف عميق، سيظل حديث التاريخ.

واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاما، ناعمين بالألفة والاستقرار، وقد أتم الله عليهما نعمته، فرزقهما البنين والبنات: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة (٢).

وأرخى الزمن لهما في حياتهما تلك الرخية الهادئة أعواما ذات عدد، ارتوى «محمد» خلالها من نبع الحنان، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم، ومتزودا لغد مقبل، حافل بالكفاح المضني والشواغل الجسام.

---

(١) وأم خديجة: فاطمة بنت زائدة بن الاصم بن هرم بن رواحة. راجع الاستيعاب (١٩١٧/٤) وتاريخ الطبري (١٧٥/٣) – ونسب قريش: ٢٣٠ والمحبر ١٢، ١٨.

(٢) انظر السيرة: ٢٠٢/١. وتاريخ الطبري ١٧٥/٣ والمحبر ٧٩، والاستيعاب ١٨١٧/٤، ونسب قريش ٢١.

وقد ذاقا في تلك الفترة لوعة الثكل في الولدين العزيزين ، فكان للزوجين في وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الكأس التي تدور على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد ، وما كان ولداهما إلا وديعة ، ولا بد يوما أن تسترد الودائع ! [1].

---

(١) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد وأمومة خديجة ، لأن موضع هذا الحديث في كتابنا عن «بنات النبي» ﷺ.

وذكر الطبري أن هند بن أبي هالة ـ كان عند أمه خديجة بعد زواجها بمحمد – ﷺ – وفي ترجمة هند بطبقات الصحابة ، والحفاظ ، وكتب الأنساب ، أنه ربيب رسول الله ﷺ.

مع المصطفى صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر

ثم كان الحادث الخطير، لا في حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب، ولا في حياة قريش والعرب وحدهم، بل في حياة الانسانية جمعاء.

لقد تلقى «محمد» رسالة الوحي، في ليلة القدر، واصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين عليهم السلام، وبعثه في الناس بشيرا ونذيرا...

وكانت الرسالة ايذانا بحياة جديدة، شاقة كادحة، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد والعذاب، والجهاد، ثم النصر.

وفي الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهاصات عن نبي جديد قد حان مبعثه، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها! (١).

و«مكة» على الخصوص، كانت الموضع الذي تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والبُشَريات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك، لتصب حول «البيت العتيق»: مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد...

---

(١) انظر هذه الأنباء بالتفصيل في الجزء الاول من سيرة ابن هشام، ط الحلبي – وفي الجزء السادس عشر من نهاية الارب للنويري، ط دار الكتب – وفي الجزء الاول من عيون الأثر ووفاء الوفا. بأخبار دار المصطفى للسمهودي. ط السعادة بمصر.

لكن أحداً لم يكن يدري يقينا كيف ومتى يكون المبعث المنتظر، ومن هنا كان لنزول الوحي على المصطفى ﷺ، وقع المفاجأة العنيفة التي جاوزت أبعاد التصور. كان منذ استقرت به الحياة في رعاية الزوج الرءوم، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي، أتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلى التأمل، وميل إلى التفكير المستغرق. وهي نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا. ووجدت في ساعات فراغه - أيام رعيه للغنم - مجالا رحبا، ثم صرفه عنها كدح العيش، لتعود فتظهر من جديد. قوية أصيلة، كأنما هي فطرة فيه.

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة، تلك التي صنعت تاريخ «مكة» وتاريخ أسرته بوجه خاص [1]. ووصلت ما بين أبيه «عبد الله» و«اسماعيل» جد العرب، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها، فأحيت بحادث فداء «عبد الله» من الذبح، ذكرى متناهية في القدم، لمشهد الذبيح الأول: ابن ابراهيم.

وانبلج له نور الحق، فرفض هذه الأصنام التي تكدست في بيت الله، صماء عمياء، لا تملك لنفسها نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا، وأنكر أن تخف أحلام قومه، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا.

وأرهف التأمل حسه، فإذا هو يستشف أدق ما في الكون من أسرار، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء، قوة عظمى خفية، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون...

* * *

وما شارف الأربعين، حتى كان قد ألف الخلوة في غار «حراء» واستطاب رياضته الروحية التي يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلي السر

---

(١) السيرة: ١٦٣/١ - واقرأ الفصل الخاص بمكة في كتابنا «أم النبي» ﷺ.

الأعظم ، وما كانت «خديجة» في وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ماوسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت ، فاذا انطلق الى غار «حراء» ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه [١] . دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد وحدته.

وهكذا بدا كأن كل شيء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة ، لكنها - رغم هذا التهيؤ - زلزلت حين جاءت ، أرجاء ذلك العالم الذي طالما أرهص بنبوة وشيكة . وهزت كيان ذلك النبي المصطفى «محمد بن عبد الله» الذي ما رضي قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا ارتاب قط في أن حياة قومه لن تمضي هكذا على سفهٍ وضلال ...

فما نزل عليه الوحي في ليلة القدر وهو في غار «حراء» ، حتى انطلق يلتمس بيته في غبش الفجر خائفا شاحبا مرتعد الأوصال ، وإذ بلغ حجرة زوجه ، أحس أنه وصل إلى مأمنه ، فحدثها في صوت مرتجف عن كل ما كان ونفض لديها مخاوفه :

أتراه يهذي حالما؟.. أم به جُنَّة؟..

وضمته إلى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة في قلبها ، وهتفت في ثقة ويقين :

«الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده ، انى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً... انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق» [٢] .

---

(١) السيرة ١/٢٥٣ - والسمط الثمين : ١٩ والإصابة ٨/٢٠٠ .

(٢) السيرة ١/٢٥٣ وشرحها في الروض الأنف ١/٢٧٠ . وتاريخ الطبري : ٢/٢٠٥ - ٢٠٧ ، والسمط الثمين ص ١٠ . وعيون الأثر ١/٨٣ . والإصابة ٨/٢٠٠ .

وأشرقت أساريره وزايله روعه، فما هو بالكاهن ولا به جنَّة، وهذا صوت «خديجة» العذب الحنون، ينساب مع ضوء الفجر الى فؤاده، فيبث فيه الثقة، والأمن والهدوء.

وأحس الراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق الى فراشه، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالي، ثم تهدهده بصوتها الحلو، وتنثر على مضجعه أسنى الأحلام.

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق في نومه الهادئ المطمئن، ورفَّ حوله قلبها ملء الحب والإيمان، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر، حتى اذا بلغت الباب اندفعت الى الطريق الخالي، تحث خُطاها نحو ابن عمها «ورقة بن نوفل» ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة.

وجاءت «ورقة» فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها، لكنه ما كاد يصغي الى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلا، وتدفقت الحيوية في بدنه الواهن، فانتفض يقول في حماسة:

«قدوس... قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقَتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، وانه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت» [١].

ولم تنتظر مزيدا من قوله، ولم تستعد كلمة واحدة منه، بل طارت الى زوجها الحبيب تعجل له بالبشرى، فاذا به لا يزال نائما كما تركته.

وعز عليها أن توقظه، فجلست بالقرب منه منتظرة، تكاد نفسها تذوب من لهفة عليه وحب وحنان، ثم اذا به فجأة ينتفض في فراشه، وتتثاقل أنفاسه، ويتفصَّد العرق من جبهته... وظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته وتنتظم أنفاسه،

---

(١) السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبري: ٢٠٦/٢ والحديث مخرج في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها.

ويبدو عليه كأنما يصغي الى محدث غير مرئي ، ثم يتلو في بطء كأنه يستعيد درسا ألقي عليه :

« يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربَّك فكبِّر، وثيابَك فطهِّرْ. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر» (١) .

وتلقته « خديجة » من صحوه بين ذراعيها ، وحدثته بما سمعت من « ورقة بن نوفل » فرنا محمد – ﷺ – اليها مليا بنظرة تفيض شكرا وامتنانا ، حتى اذا ملأ عينيه من تلك التي ملأت دنياه حبا وأمنا وسلاماً ، استدار فنظر الى الفراش وقال في تأثر :

« انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته ، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب؟ »

وبارك زوجه ، أول من آمن به ، وهو يشعر بسكينة وراحة ، ثم استجاب لها فقام ينشد « ورقة » الذي صاح حين لمحه مقبلا :

« والذي نفسي بيده ، انك لنبي هذه الأمة ، ولتكذَّبن ، ولتؤذَين ، ولتُخرجَن ، ولتُقاتلن ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ! »

ثم أدنى رأسه اليه فقبل يافوخه .

قال محمد ﷺ : « أو مخرجيَّ هم ؟ » .

أجاب « ورقة » : « نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به الا عودِي ، ليتني أكون فيها جذعا... ليتني أكون حيا ! » (٢) .

* * *

وطابت نفسه ، ﷺ ، بما سمع ، فآب الى بيته مطمئنا ليبدأ نضاله من أجل

---

(١) سورة المدثر: الآيات ١ : ٧

(٢) صحيحا البخاري ومسلم، السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبري : ٢٠٦/٢ ، ٢٠٧ .

الدعوة. وليلقى في سبيلها أشقّ ما وعى التاريخ من أذى واضطهاد، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها، ويحقر آلهتها التي وجدوا آباءهم لها عابدين.

ووقفت زوجه المحبة المؤمنة إلى جانبه، تنصره وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا، فلما قُضي على بني هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعب أبي طالب، بعد أن أعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا ترحم، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة علقت في جوق الكعبة [1]، لم تتردد «خديجة» في الخروج مع زوجها، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن، وناءت بأثقال الشيخوخة، والثكل، والاضطهاد.

وأقامت هنالك في شِعب أبي طالب ثلاث سنين، صابرة مع الرسول ومن معه من صحبه وقومه، على عنت الحصار المنهك، وجبروت الوثنية الراسخة العاتية العمياء.

* * *

(١) السيرة: ٣٧٥/١ وتاريخ الطبري ٢٢٨/٢.

عام الحزن

حتى تهاوى الحصار أمام ذلك الإيمان الصادق والمجاهَدة الباسلة. وآن للنبي ﷺ أن يعود إلى بيته في جيرة الحرم المكي، مع زوجه المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المحنة، ما أبقى لها الزمن من طاقة، في عامها الخامس والستين.

بعد نحو ستة أشهر من انهيار الحصار، مات العم «أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم» وقد كان لابن أخيه، ﷺ، أباً صديقاً وكافلا وحاميا، ومانعاً له من طواغيت قريش، قومه.

ولم تشهد رضي الله عنها مأتمه. كانت في فراشها تودع الدنيا، وزوجها عليه الصلاة والسلام إلى جانبها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشرى ما لها عند الرفيق الأعلى، ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده في هذه الدنيا. ثم أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام، بين يدي الزوج الذي تفانت في حبه منذ لقيته، والنبي الذي صدقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها، وكانت له سكنا وأنسا وملاذا، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. ودفنها، ﷺ، بالحجون.

* * *

كانت وفاتها، رضي الله عنها، قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح [١].

وتلفت محمد - ﷺ - حوله، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء، وإذا «مكة» تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان...

قال «ابن اسحق»: «فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الاسلام!» [٢].

---

(١) ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير (عيون الأثر ١/١٣٠) والإصابة ٦٢/٨، والمحبر لابن حبيب ١١.

(٢) السيرة: ٥٧/٢ - تاريخ الطبري: ٢٢٩/٢، عيون الأثر ١٣٠/١.

وبلغت متاعبه، ﷺ أقسى مداها في عام موت «خديجة» الذي سمي «عام الحزن»، وخيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء. وكذبتهم أمانيهم فظنوا أن الظفر به جد قريب، وما دروا ان الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر...

ذلك ان «خديجة» لم تمض الا وأمين الوحي يرعى النبي ﷺ غاديا رائحا، يذود عنه اليأس والإعياء، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح، ويرون الاستشهاد في سبيل دعوته مجدا وانتصارا...

لم تمت «خديجة» إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت «مكة» الى أطراف الحجاز، ثم الى ما وراءها من بلاد العرب، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار الى «الحبشة» مهاجرين بدينهم، متخلين عن ديارهم وأهليهم، عارضين على الدنيا مشهدا رائعا فريدا من مشاهد الإيمان الباذل الصابر، مالئين الأسماع والقلوب بحديث مثير عن شرف الجهاد ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد.

لم تمت «خديجة» إلا وفي الموسم بمكة، رجال من «يثرب» لن يلبثوا أن يبايعوا الرسول ﷺ ويعودوا فيعبئوا المدينة كلها لنصرته، وأقصى أمانيهم أن يخوض بهم المعركة المقدسة، ليظفروا بإحدى الحسنيين، النصر على أعداء الله، أو الاستشهاد في سبيله...

* * *

ملءُ الحيَاة

ولكن، هل ماتت «خديجة» حقا؟

كلا !.. انها لماثلة في حياة زوجها الرسول ﷺ، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه، وما يسري إلا وسنى مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات...

وستدخل بعدها في جياته ﷺ، نساء ذوات عدد، لكن مكانها من قلبه وفي دنياه، سيظل أبدا خالصا لهذه الزوج الأولى، والحبيبة الرءوم التي انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان، لم تشركها فيه أخرى، ولا لاح في أفقه ظل من شريكة سواها.

سوف تفد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات، فيهن ذوات الصبا والجمال، والحسب والجاه، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح «خديجة» عن مكانها هناك، ولن تفلح في ابعاد طيفها الذي أقام أبدا يحوم حول الحبيب ويستأثر باعزازه ما عاش.

وستشهده «المدينة» بعد أعوام عندما انتصر في «بدر» يتلقى فداء الأسرى من قريش، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها «زينب» في فداء زوجها الأسير «أبي العاص بن الربيع» حتى يرق قلب البطل الرسول من شجو وشجن، ويسأل أتباعه الظافرين، في أن يردوا على «زينب» قلادتها ويفكوا أسيرها [1].

وسيشهد بيت النبي «عائشة بنت أبي بكر» في عزة صباها ونضرة شبابها وحب النبي ﷺ لها، تشعلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها إلى قلب «محمد» واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه: أقبلت «هالة» – أخت خديجة – لزيارة المدينة، وسمع عليه الصلاة والسلام صوتها في فناء بيته، وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة، فهتف خافق القلب:

«اللهم هالة!»

---

(١) السيرة ٢/٢٠٧ – ولحديث القلادة فصل خاص في كتاب «بنات النبي» ﷺ.

فما ملكت «عائشة» نفسَها أن قالت:

«ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، أبدلك الله خيرا منها؟!»[1].

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا:

«والله ما أبدلني الله خيرا منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني اذ كذبني الناس، وواستني بمالها اذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء»[2].

فأمسكت «عائشة» وهي تقول في نفسها:

«والله لا أذكرها بعدها أبدا»...

وكانت قبل ذاك، لا تكف عن الكلام فيها!

قالت له يوما وقد ألفته لا ينقطع عن ذكرها:

«كأنْ لم يكن في الدنيا امرأة الا خديجة!»

فرد عليها، ﷺ:

«... انها كانت وكانت، وكان لي منها ولد...»

ورأته ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة. فحدثته في ذلك مرة، فقال: إني لأحب حبيبها![3].

وفي رواية بصحيح مسلم، أنه ﷺ قال: «إني قد رُزِقتُ حبَّها»[4]

وطالما سُمعت عائشة رضي الله عنها تقول:

«ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله ﷺ الا بعد ما ماتت»[5].

---

(١) صحيح مسلم: باب فضائلها، ح (٢٤٣٧).

(٢)، (٣) السمط الثمين: ٢٦ والاستيعاب: ١٨٢٤/٤.

(٤، ٥) صحيح مسلم: فضائلها رضي الله عنها، ح (٢٤٣٥) والإصابة ٦٢/٨.

أو تقول :

« ما غِرْتُ من امرأة لرسول الله ﷺ ، ما غِرْتُ من خديجة ، لما كنت أسمع من ذكره لها . وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين » وفي رواية : « لكثرةِ ذكره إياها ، وما رأيتها قط » [١] .

* * *

وحتى يوم الفتح – وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث – رُئي رسول الله ﷺ ، يختار مكانا إلى جوار القبر الذي ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى ، ليشرف منه على فتح « مكة » وليقيم في قبة ضربت له هناك [٢] ، تؤنسه روح « خديجة » ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، ملتفتا بين آونة وأخرى الى بيتها العزيز ، حيث رشف محمد من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الكفاح المضني الطويل ...

وستدخل في الاسلام من بعدُ « خديجة » ملايين النساء ، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور الأجل في حياة البطل الرسول . وسيذكر لها المؤرخون – المسلمون منهم وغير المسلمين – ذلك الدور ، فيقول « بودلي » :

« ان ثقتها في الرجل الذي تزوجته – لأنها أحبته – كانت تضفي جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد في كل سبعة من سكان العالم » [٣] .

ويؤرخ « مرجليوث » حياة محمد – رسولا – باليوم الذي لقي فيه خديجة « ومدت يدها اليه تقديرا » . كما يؤرخ حادث هجرته الى « يثرب » باليوم الذي خلت فيه « مكة » من « خديجة » . ورقدت تحت الثرى ...

ويطيل « درمنجم » [٤] الحديث عن موقف « خديجة » حين جاءها زوجها من

(١) صحيح مسلم (ح : ٢٤٣٥) – والاستيعاب : ١٨٢٣/٤ .

(٢) تاريخ الطبري – حوادث السنة الثامنة للهجرة « جـ ٣ » .

(٣) بودلي : الرسول ، الترجمة العربية لمحمد فرج وعبد الحميد السحار .

(٤) حياة محمد لدرمنجم – ص ٥٨ من الترجمة العربية للاستاذ عادل زعيتر .

غار حراء «خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية ، غريب النظرات ... فاذا بها ترد اليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذي يحتمي به من كل عدوان في الدنيا».

وكتب عن وفاتها :

«... فَقَد محمد بوفاة خديجة تلك التي كانت أول من علم أمره فصدقته ، تلك التي لم تكف عن القاء السكينة في قلبه... تلك التي ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات».

ودرمنجم هنا ، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين الذين فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة ، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة : فرجليوث يجعل لمال خديجة المكان الأول في زواج كهذا «بين شاب فقير ، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بني مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن» ثم يمضي فيكتب ، بكلمات تقطر حقدا وزُورا :

«إن دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبي طالب حين خطب إليه ابنته أم هانئ ، فرده لفقره وزوجها لذي مال ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة في الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء ، يداوي به جرح كرامته التي أهدرها فقره» (١) .

وكذب «مرجليوث» فما كان مال «خديجة» هو الذي جذب «محمدا» وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن ، وانما وجد فيها كما شهد «بلاشير» في كتابه Le problème de Mohamed تلك الرقة المتناهية والحنان الغامر.

وكان ما بينهما من فرق السن كافيا وحده لأن يرضي حاجته الملحة الى عطف الأمومة التي افتقدها منذ كان طفلا في السادسة ، وظل على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق...

وأعجب من قول «مرجليوث» هذا ، ما تحدث به «مويد» (٢) عما وراء وفاء

---

(١) راجع في أمر هذه الخطبة : طبقات ابن سعد ، السمط الثمين ١٣٤ .

(٢) The Life of Mohamed and the History of Islam

محمد – ﷺ – لخديجة من تهيب لمركزها المالي والاجتماعي ، وخوف من أن تطالبه بالطلاق !

وكان على «موير» أن يفسر لنا : فيم إذن كان وفاء الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، لخديجة بعد موتها؟... وهل كان ﷺ يخاف أن تطالبه بالطلاق ، وهو يخاصم «عائشة» فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها؟!

لقد كانت «خديجة» ملء حياته ﷺ حية وميتة ، وما جاوزت «عائشة» الحق حين قالت : «كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها».

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه؟!

هل كان لأنثى غيرها ، أن تهيِّئ له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها – في ايثار نادر – ما أعده لتلقي رسالة السماء؟!

هل كان لزوجٍ عداها ، أن تستقبل دعوته التاريخية من غار «حراء» ، بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار وعطف فياض وإيمان راسخ دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبدا؟!

هل كان في طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه في أحلك أوقات المحنة ، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد ، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟

كلا... بل هي وحدها التي مَنَّ الله تعالى عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وأن كانت أول الناس إسلاما ، كما بها أمّن على رسوله عليه الصلاة والسلام ، ملاذا وسكنا ووزيرا.

قال ابن اسحق [1] : «كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه

---

(١) في السيرة : ١/٢٥٧ – وانظر السمط الثمين : ٢٣.

وتكذيبه له فيحزنه ذلك ، الا فرج الله عنه خديجة رضي الله عنها : اذا رجع اليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضي الله عنها »(١) .

* * *

وتركت الراحلة من بعدها ، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ ، وملء التاريخ الاسلامي . وقد أفردت لهن كتابي عن « بنات النبي » وفيه تفصيل ما أجملت هنا عن أمومة السيدة خديجة ، أم المؤمنين الأولى رضي الله عنها وعنهن .

ومَنَّ الله عليها وعلى المسلمين ، بأن حفظ في نسل الزهراء بنت الطاهرة ، ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام ، قبسا من سَنا نوره ونفحة من عطر شذاه . فهي أم آل بيت النبي ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

* * *

(١) وانظر فضائلها رضي الله عنها في : المناقب من صحيح البخاري والفضائل من صحيح مسلم .

(٢)

سودة بنت زمعة

المهاجرة أرملة المهاجر

«... ووالله ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك»

سودة بنت زمعة

رضي الله عنها

(الإصابة)

وحشة

الأيام تمضي ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد، والليالي كوالح مسهدات، مشحونة بالذكريات، ومحمد ﷺ - في وحدته بعد خديجة: أم العيال وربة البيت ووزيره في الإسلام والشريكة في الجهاد - يخلو إلى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه، ليسامر طيف التي ملأت دنياه.

والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم ﷺ فيشفقون عليه من تلك الوحدة، ويودون لو يتزوج، لعل في الزواج ما يؤنس وحشته بعد «أم المؤمنين» الراحلة.

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث إليه في موضوع الزواج، حتى كانت «خولة بنت حكيم السلمية»[1] هي التي سعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة، تقول: «يا رسول الله، كأني أراك قد دخلَتْك خَلَّةٌ لفقد خديجة!»

فأجاب: «أجل، كانت أم العيال وربة البيت».

فتشاغلت «خولة» بالنظر الى بعيد، ثم أقبلت على الرسول فاقترحت عليه فجأة أن يتزوج!

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا، يصغي الى وجيب قلبه العامر بذكرى الراحلة، ويتذكر «نفيسة بنت منية» حين جاءته منذ بضع وعشرين سنة، تحدثه في الزواج وتعرض عليه «خديجة بنت خويلد»!

ثم آب إلى محدثته وسألها في نبرة عتاب:

- مَن... بعد خديجة؟

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/١٧٥ والسمط الثمين: ١٠٣، والإصابة ٨/١١٧.

فردت «خولة» على الفور، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب: «عائشة... بنت أحب الناس إليك»! [1]

وتفتح قلبه ﷺ حين ذكر صاحبه: أول رجل صدقه وآمن به مع ابن عمه علي، ومولاه زيد، ثم وقف إلى جانبه من اللحظة الأولى، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أخ وصاحب وصديق.

وذكر الرسول مع «أبي بكر» ابنته عائشة، تلك الصبية اللطيفة الحلوة، التي طالما آنسته بمرحها ولطفها، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة...

ولم يستطع أن يقول لخولة: لا...

ولو حاول أن يقولها، لما طاوعه لسانه!

أيرفض بنت أبي بكر؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة، ومكانة لأبي بكر عند الرسول لم يظفر بها سواه، وأنس الى تلك الصغيرة العزيزة، الذكية الملامح، اللطيفة المحيا...

– لكنها ما تزال صغيرة يا خولة...

وكان رد «خولة» حاضرا:

– تخطبها اليوم الى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج...

حتى تنضج؟..

لكن، من للبيت يرعى شئونه، ومن لبنات الرسول يخدمهن؟

وهل جاءت «خولة» لتعرض زواجا آجلا، لن يتم قبل سنتين أو ثلاث؟..

كلا، بل جاءت وفي خاطرها اثنتان، احداهما بكر وهي «عائشة بنت أبي

(١) تاريخ الطبري: ٣/١٧٥.

بكر . . . » والأخرى ثيب ، هي «سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ العامرية» (١) وأمها «الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو» من بني عدي بن النجار (٢) .

وأذن لها ﷺ في خطبتها ، فمرت أولا ببيت «أبي بكر» ثم جاءت بيت «زمعة» فدخلت على ابنته «سودة» تقول :

– ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة ؟

فسألت «سودة» وهي لا تدري مرادها :

– وماذا ياخولة ؟

قالت :

– أرسلني رسول الله أخطبك عليه !

وجاهدت «سودة» لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة ، ثم قالت في صوت مرتجف :

– وددت ! .. ادخلي على أبي فاذكري له ذلك .

فدخلت «خولة» عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج ، فحيته بتحية الجاهلية ، ثم قالت :

– ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه سودة .

فصاح الشيخ :

– كفء كريم ، فماذا تقول صاحبته ؟

---

(١) من بني عامر بن لؤي – انظر نسب قريش «٤٢١» وجمهرة الأنساب «١٥٧» ذخائر.

(٢) كذا في السيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ والإصابة ١١٧/٨ ، والمحبر ٧٩ والذي في نسب قريش «٤٢٢» وجمهرة أنساب العرب «١٥٨» وعيون الأثر ٣٠٠/٢ أنها بنت قيس بن عمرو بن زيد .

أجابته خولة :

- تحب ذاك.

فسألها أن تدعوها اليه ، فلما جاءت تلقاها قائلا :

- أي سودة، زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجكه؟

قالت : نعم[١].

وهنا أشار «زمعة بن قيس» الى خولة أن تدعو اليه «محمدا» ، فقامت تدعوه للزواج.

---

(١) تاريخ الطبري : ١٧٦/٣ ، والنقل منه ، والسمط الثمين ١٠٢.

هجـرة وترمل محمد ﷺ

وشاع في «مكة» أن محمدا ﷺ قد خطب «سودة بنت زمعة» فكاد ناس لا يصدقون سمعهم، فما في مثل «سودة» مأرب، وتساءلوا في ارتياب: أرملة مُسِنَّة، غير ذات جمال، تخلف «خديجة بنت خويلد» التي كانت يوم خطبها الشاب الهاشمي، سيدة نساء قريش، ومطمح أنظار السادة من قريش؟

كلا، لن تخلف «سودة» أو سواها «خديجه» وإنما تجيء إلى بيته ﷺ جبرا لخاطرها، وعزاء لها عن زوجها ابن عمها: «السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ القرشي العامري» الذي هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة، ثم مات عنها وترك أرملته من بعده، قد أسلمتها محنة الاغتراب إلى محنة الترمل.

وذكر رسول الله ﷺ أولئك النفر الثمانية من بني عامر، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر المرهوب ثم يركبون أهوال البحر، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة، تحاول أن تردهم قسرا إلى متاهة الضلال ومهواة الشرك.

من هؤلاء النفر الثمانية، كان: «مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامري» أخو سودة، و«السكران بن عمرو بن عبد شمس» زوجها وابن عمها، وأخواه «سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس» وابن أخيه «عبد الله بن سهيل ابن عمرو» (١).

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم، وكلهن عامريات: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس.

(١) السيرة: ١/٣٥٢، وتاريخ الطبري: ٢/٢٢٢، وعيون الأثر ١/١١٥ - ١١٨ مع: جمهرة الأنساب ١٥٧، والسمط ١٠١.

وهكذا خرجت الأسرة المؤمنة . برجالها ونسائها ، من دارها ووطنها . راضية بما هو أقسى من الموت . في سبيل الله .

وتمثل الرسول «سودة» وهي تودع أرضا عزيزة خلّت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها . ثم تمضي الى بلد مجهول . وناس لا هي منهم ولا هم منها . لسانهم غير عربي . ودينهم غير الاسلام ، وقبل أن تئوب من غربتها . وتهبط «أم القرى» فاضت روح زوجها «السكران بن عمرو» ... لم يمهله الموت ريثما يعود كما يدفن في ثرى مكة . مرقد من مضوا من الأهل والخلان(١) .

وتأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر . فما كادت «خولة بنت حكيم» تذكرها له . حتى مد يده الرحيمة اليها يسند شيخوختها . ويهون عليها الذي ذاقت من قسوة الحياة .

* * *

(١) في موت السكران بن عمرو روايتان : أنه مات عن سودة بأرض الحبشة مهاجرا . وقيل : عاد بها إلى مكة فما لبث أن مات قبل الهجرة إلى المدينة .

حكاهما ابن عبد البر في ترجمة السكران بالاستيعاب (٢/٦٨٥) وعلى القول الأول موسى بن عقبة . وابن حزم في الجمهرة (١٥٧) والزبير بن بكار . فيما نقل ابن سعد . وعلى الثاني : ابن إسحاق في السيرة (٢/٧) والواقدي . حكاه ابن سعد أيضا وابن حجر في ترجمتها بتهذيب التهذيب . وابن سيد الناس في (عيون الأثر ٢/٣٠٠) .

وهبت ليلتي لعائشة

وأصبحت «سودة» ذات يوم، فإذا هي زوجة لرسول الله ﷺ [(١)].

وداخلتها رهبة من جلال زوجها، وقاست نفسها اليه ﷺ، ثم الى «خديجة» الزوجة الأولى، ثم الى «عائشة» العروس الصبية المنتظرة، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها.

ولم تخدعها نفسها قط، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب «محمد» ﷺ – حاجزا لا سبيل الى اقتحامه.

وعرفت من اللحظة الأولى التي جمعتها بزوجها، ان «الرسول» هو الذي تزوجها، لا «الرجل» الذي لم تجرده النبوة من بشريته.

وأيقنت دون ريب، ان حظها من الرسول بر ورحمة، لا حب وتآلف وامتزاج...

لكن ذلك لم يرعها، بل كان حسبها ان رفعها رسول الله الى تلك المكانة، وأن جعل منها – أرملة السكران بن عمرو – أما للمؤمنين.

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت رسول الله، وأن تخدم بناته...

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مشيتها – وكانت ثقيلة الجسم – وأن يأنس أحيانا إلى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها...

قالت له مرة:

---

(١) في خبر بالمحبر (٨٠) أنها رأت قبل موت السكران رؤيا قصتها عليه، ففسرها بقرب موته، وزواجها من بعده بالنبي عليه الصلاة والسلام. فاشتكى من يومه ذاك، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات.

«صليت خلفك الليلة يا رسول الله. فركعتَ بي حتى أمسكتُ بأنفي مخافة أن يقطر الدم!» [١].

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها...

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة. روى «ابن اسحاق»:

قُدِم بأسرى بدر. وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء، في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء. وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب.

«قال: تقول سودة: والله إني لعندهم إذ قيل: هؤلاء الأسارى قد أتي بهم. فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه. وإذا أبو يزيد، سهيل بن عمرو – أخو السكران بن عمرو – في ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكتُ نفسي. حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أي أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم. ألا متم كراما؟

فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت:

«يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين؟»

قلت: – يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت! [٢].

* * *

ظلت «سودة» تقوم على بيت النبي ﷺ، حتى جاءت «عائشة بنت أبي بكر» فأفسحت لها «سودة» المكان الأول في البيت، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة. وأن تسهر على راحتها.

---

(١) الاستيعاب ١٨٦٧/٤. والإصابة ١١٨/٨.

(٢) السيرة: ٢٩٩/٢.

ثم وفدت على البيت أزواج أخريات . فيهن حفصة بنت عمر . وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت أبي أمية المخزومي زاد الركب ، فما ترددت سودة في إيثار عائشة بإخلاصها ومودتها ، وان لم تظهر ضيقاً بهؤلاء الزوجات اللائي يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول .

لكنه ﷺ ، أشفق عليها من الحرمان العاطفي . وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات . وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه . لكن بشريته لم تطاوعه . فكان أقصى ما استطاعه لسودة . أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، أما عواطفه فأنى له – وهو بشر – أن يقسرها على غير ما تهوى . أو يخضعها بارادته لموازين العدل وضوابط القسمة !

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع أحسَّ أنه يؤذيها ويجرح قلبها ، وان لم تبد منها بادرة شكوى أو ضيق ، فانتظر ﷺ إلى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها .

وسمعت النبأ ذاهلة ، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا . فرفعت وجهها الى الرسول في ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة . فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا . وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذي كاد يقضي عليها ...

واذ ذاك آبت اليها سكينتها فهمست في ضراعة :

– أمسكني ، ووالله ما بي على الأزواج من حرص . ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك (١) .

---

(١) ابن حجر . الاصابة : ١١٧/٨ . والنقل منه . ونحوه في الاستيعاب ١٨٦٧/٤ وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وفي رواية أخرى بالمحبر ٨٠ وفي الإصابة . أنه ﷺ بعث إليها بطلاقها فقعدت في طريقه وناشدته أن يرجعها . وجعلت يومها لعائشة .

ثم أطرقت محزونة، وقد عزَّ عليها أن تحمله ﷺ على ما يكره. وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته في تسريحها وهي التي تهب حياتها راضية في سبيل مرضاته.

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل. فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس على حبه عائشة بنت أبي بكر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة بنت زاد الركب، وحفصة بنت عمر!... وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا. بل شعرت انها اذ تأخذ ليلتها مثلهن، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه!..

وهمت بأن تجيب في قهر وعلى استيحاء:

- سرحني يا رسول الله!

لكن الكلمات تعثرت في حلقها...

وطال عذابها، وطالت حيرتها، ورسول الله إلى جانبها ينظر اليها صامتا في إشفاق وتأثر.

وفجأة، لاح لها خاطر سكنت له نفسها، فقالت في هدوء:

- أبقني يا رسول الله، وأهب ليلتي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء[1].

فتأثر ﷺ لهذا الموقف السمح الكريم: يأتي سودة ليسمعها كلمة الطلاق - وما أبغضها! - فيكون جوابها هذا الإيثار النبيل، تتحرى به مرضاته. الزوج الكريم.

وانجابت ظلمة الليل، فخرج محمد الى المسجد لصلاة الفجر، وقامت «سودة بنت زمعة» في مخدعها تصلي وقلبها عامر بنشوة الرضى والايمان!

* * *

(١) الاصابة: ١١٧/٨ والاستيعاب: ١٨٦٧/٤ - وصحيح مسلم - وانظر السمط الثمين. ص ١٠٣ - ويقال انها قد أشرفت يومئذ على المئة!

فلندعها في صلاتها راضية مطمئنة ، شاكرة لله أن ألهمها هذا الحل الموفق ، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله ، دون أن تستشعر الخزي بالحرص على الأزواج في مثل سنها العالية !

ولقد عاشت في بيت الرسول حتى لحق ﷺ بربه ، وفي الخبر أنها عمرت حتى «توفيت في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه» [١] وقد ظلت أم المؤمنين عائشة ، تذكر لها صنيعها ، وتؤثرها بجميل الوفاء ، فتقول : «ما من امرأة أحب إليَّ من أن أكون في مِسلاخها . من سودة بنت زمعة ، ... لما كبرتْ قالت : يا رسول الله قد جعلت يومي منك لعائشة» . الحديث [٢] .

(١) الاستيعاب ، والإصابة ، وعيون الأثر ، ٢/٣٠١ .

(٢) صحيح مسلم : كتاب ١٧ ح (١٤٦٣) ونحوه في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة .

(٣)

عائشة بنت أبي بكر

حبيبة سيد البشر الصديقة بنت الصديق

«أي بُنَيّة، خفّفي عليك الشأنَ فواللهِ لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثّرن عليها»

أم رومان
من حديث الإفك
في الصحيحين

الصهر الكريم

«إن أَمَنَّ الناسِ عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر. ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنْ أخوة الإسلام»

حديث نبوي

أخرجه مسلم في صحيحه

عندما ذكرت «خولة بنت حكيم السلمية» للرسول عليه الصلاة والسلام اسمَ عائشة بنت أبي بكر، تفتح قلبه ﷺ لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس اليه من صحبة وقربى، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق.

وتتحدث خولة عن مسعاها في هذه الخطبة فتقول فيما نقل الطبري [1] :

«دخلت بيت أبي بكر فوجدت «أم رومان» أم عائشة، فقلت لها :

– أي أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !

قالت : وما ذاك؟

أجبت : أرسلني رسول الله أخطب له عائشة !

فقالت : وددت، انتظري أبا بكر فانه آت...

وجاء «أبو بكر» فقلت له : يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ! أرسلني رسول الله أخطب «عائشة»...

قال وقد ذكر موضعه من الرسول : وهل تصلح له؟.. انما هي ابنة أخيه...

(١) تاريخ الطبري ١٧٦/٣، وانظر معه المحب الطبري في السمط الثمين ص ٣١.

فرجعت إلى رسول الله فقلت له ذلك ، فقال :

– ارجعي إليه فقولي : أنت أخي في الإسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لي.

فأتيت «أبا بكر» فذكرت له فقال : انتظريني حتى أرجع ...

وقالت «أم رومان» تجلو الموقف للخاطبة :

– إن المطعم بن عدي كان قد ذكر عائشة على ابنه «جبير» ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف.

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته «أم جبير» – وكانت مشركة – فقالت العجوز:

– يا ابن أبي قحافة ، لعلنا إن زوَّجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟! (١)

فلم يرد عليها «أبو بكر» بل التفت الى زوجها «المطعم» فقال :

– ما تقول هذه؟

– أجاب : إنها تقول ذلك «الذي سمعت».

فخرج «أبو بكر» وقد شعر بارتياح لما أحلَّه الله من وعده ، وعاد الى بيته فقال لخولة : ادعي لي رسول الله...

فمضت «خولة» إليه ﷺ ، فدعته ، فجاء بيت صديقه أبي بكر ، فأنكحه عائشة وهي يومئذ بنت ست سنين أو سبع»

وكان صداقها خمسمائة درهم...

ولا يذكر التاريخ عنها اذ ذاك ، الا أنها بنت ست سنين أو سبع . وانها كانت قد

---

(١) المحب الطبري : السمط الثمين ٣١.

خطبت لجبير بن المطعم بن عدي ، وأبوها أبو بكر بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر ، من بني الحارث ابن غنم بن كنانة (١) .

وقد عُرف قوم عائشة ، بنو تيم ، بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأي ، كما كانوا مضرب المثل في البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن...

ثم كان لأبيها الى جانب هذا الميراث الطيب ، شهرة ذائعة في دماثة الخلق وحسن العشرة ولين الجانب . وأجمع مؤرخو الاسلام على انه «كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وخبرته وحسن مجالسته» (٢) .

فلما بعث محمد ﷺ ، أضاف «أبو بكر» الى هذا كله شرف السبق إلى الاسلام ، وكان المناضل عنه بكل ما يملك ، الداعي إليه في شجاعة وحماسة . وممن أسلم من الصحابة بفضل أبي بكر واستجابة لدعوته : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله... وهم من العشرة المبشرين بالجنة ، رضي الله عنهم .

قال عليه الصلاة والسلام :

«ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبي بكر بن قحافة ، ما عكم – أي ما تلبث – حين ذكرته له وما تردد فيه» .

«ما نفعني مال قط ، ما نفعنا مال أبي بكر» . قيل فبكى «أبو بكر» وقال : «يا رسول الله ، وهل أنا ومالي إلا لك؟» (٣) .

* * *

---

(١) السيرة : ٢٩٣/٤ – وتاريخ الطبري : ١٧٧/٣ والاستيعاب ١٨٨١/٤ ، وعيون الأثر (٣٠٠/٢) .
ومات المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بمكة مشركا قبل بدر . وذكره ﷺ بخير في أسْراها من قريش . وأسلم جبير يوم فتح مكة . وأمه أم جميل بنت سعيد العامرية .

(٢ ، ٣) السيرة : ٢٦٧/١ – وانظر معه مناقب أبي بكر في صحيح البخاري : ٢٠٠/٢ وفضائله في الجزء الرابع من صحيح مسلم .

وأم عائشة : أم رومان بنت عامر الكنانية ، [1] من الصحابيات الجليلات. كانت قد تزوجت في الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدي فولدت له الطفيل ، ثم توفي عنها فخلف عليها أبو بكر فولدت له عائشة وعبد الرحمن . وهاجرت الى المدينة بعد أن استقر مقام الرسول وصاحبه بها ، فلما توفيت في حياة الرسول - بعد حادث الافك - نزل ﷺ قبرها واستغفر لها وقال : «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك» [2] وقال عليه الصلاة والسلام : «مَن سره أن ينظر إلى امرأةٍ من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» [2]

(١) لا خلاف في نسبها في بني مالك بن كنانة ، لكن الخلاف من أبيها الى كنانة كثير جدا كما صرح في الاستيعاب (١٩٣٦/٤) راجع معه الاصابة ، ونسب قريش : ٢٧٦ وجمهرة أنساب العرب : ١٢٧ - ذخائر ، والمحبر ٨٠ ، وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وتهذيب التهذيب ٤٣٣/١٢ .

(٢) أخرجه ابن سعد في ترجمتها بطبقاته ، وعنه ابن حجر في الإصابة كما أخرجه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب ، ولم يختلفوا في وفاتها بعد محنة الإفك ، لكنهم اختلفوا في تحديد سنة الوفاة.

راجع ترجمتها في طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (باب الكُنَى) ومعها : تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٦٧/١٢ .

مألوفة

كان حسب «عائشة» أن تكون بنت أبي بكر، لِيُنزلها زوجها ﷺ من قلبه ومن بيته في أعز مكان... لكنها كانت إلى جانب هذه البنوة، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضير.

وُلدت بمكة في الاسلام، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث، وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هي وأختها أسماء، وكان المسلمون إذ ذاك قلة معدودة.

وعرفها ﷺ، منذ طفولتها الباكرة، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية، وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة، مع فصاحة في اللسان وشجاعة في القلب، اذ كان الذي تولى حضانتها جماعة من بني مخزوم وبلغ من اعزاز الرسول لها أن كان يوصي بها أمها قائلا:

«يا أم رومان، استوصي بعائشة خيرا واحفظيني فيها».

فاذا رآها يوما غاضبة، وقف في صفها وقال لأمها في عتاب رقيق:

«يا أم رومان، ألم أوصِكِ بعائشة أن تحفظيني فيها؟»

* * *

ولم تدهش «مكة» حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا. ولم يجد فيها أي رجل من أعداء الإسلام أنفسهم موضعا لمقال، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء، أن يتخذ من زواج محمد ﷺ بعائشة مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه الا سلكوه، ولو كان بهتانا وزورا وافتراء.

وماذا عساهم أن يقولوا؟...

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة ، لم تتجاوز السابعة من عمرها على أبعد تقدير؟

لكنها قد ذكرت قبل أن يخطبها ، على «جبير بن مطعم بن عدي» بحيث لم يستطع «أبو بكر» أن يعطي كلمته لخولة بنت حكيم ، حتى مضى فتحلل من وعده لأبي جبير.

أو ينكرون أن يكون زواج بين صبية في سنها ، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين؟

وأي عجب في مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف في تلك البيئة إلى رجل في سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن؟ لقد تزوج «عبد المطلب» الشيخ من «هالة» بنت عم «آمنة» في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من تِرب هالة «آمنة بنت وهب»

وسيتزوج «عمر بن الخطاب» من بنت علي بن أبي طالب ، وهو في سن فوق سن أبيها !

ويعرض «عمر» على «أبي بكر» أن يتزوج ابنته الشابة «حفصة» وبينهما من فارق السن مثل الذي بين الرسول وعائشة.

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو ألف وثلاثمائة عام من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والبيئة ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه «الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء» ، ويقيسون بعين الهوى ، زواجا عقد في مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم في الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين ، وهي سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة في الجزيرة العربية ، بل في ريف مصر وأكثر مناطق الشرق . وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

«كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه نساء العرب ، والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السنين التي تعقب العشرين...

«ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد... نظروا اليه من وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك ، كان ولا يزال عادة أسيوية ، ولم يفكروا في ان هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوربا ، وكانت طبيعية في اسبانيا والبرتغال الى سنين قليلة ، وانها ليست غير عادية اليوم ، في بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة...» [1] .

---

(١) بودلي : الرسول – ص ١٢٩ من الترجمة العربية لفرج والسحار.

الهجرة

لم يرض محمد ﷺ أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهي حداثتها، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها، بل تركها حيث هي في بيت أبيها، تمرح لاهية مع لداتها وصواحبها وأترابها خلية البال...

وكان كل حظه منها أن تسرع اليه كلما مر ببيت «أبي بكر» فتكاد تنسيه بلطفها وايناسها، المشاغل الجسام التي تنتظره لدى الباب، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يجدها كلما أوى الى منزله وحيدا غريبا...

وحيداً، وإن كان في عصمته «سودة بنت زمعة» تتفانى في خدمته وتقوم على شئون داره وبناته.

غريبا، وان يكن مقيما في «مكة»: بلد آبائه وأجداده منذ ما لا يحصى من الدهور والأحقاب.

وطاب له أن يسعى إلى بيت صاحبه «أبي بكر» كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه في فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض.

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله ﷺ، في عظمته وجلاله ومهابته ووقاره، يرتاح اليها ويأنس الى صحبتها ويجد في عالمها المرح ما يجذبه اليه، حيث يشاركها لهوها في بساطة حلوة وألفة حبيبة.

وازدهاها «ألا يخطئ رسول الله ﷺ، أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، اما بكرة واما عشية» (١).

(١) السيرة: ١٢٨/٢ وعيون الأثر ١٨٢/١ من طريق البخاري.

وذات يوم – وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وخرج المسلمون عن مكة الى المدينة مهاجرين ، فلم يتخلف مع الرسول الا من حبس أو فتن ، غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب – علت شمس الضحى حتى توسطت كبد السماء ، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب ، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب ، وكانت « عائشة » في فناء الدار ، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة .

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب ، فأصغت في لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز.

وبادرت إلى الباب تفتحه مشوقة مرحبة ، فما لمح «أبو بكر» شخص النبي ﷺ قريبا من الدار في تلك الساعة من حر الهاجرة ، حتى وثب من مهجعه وهو يقول :

«ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة الا لأمر حدث» .

فلما دخل تأخر له «أبو بكر» عن سريره ، فجلس عليه الصلاة والسلام ، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل ، فأمسكت « عائشة » أنفاسها ، وكذلك فعلت أختها «أسماء» ، ووقفتا خاشعتين تترقبان...

وتكلم ﷺ فقال لصاحبه دون أن ينظر إلى من في الحجرة :

«أخرج عني مَن عندك ! »

قال الصديق : يا رسول الله ، انما هما ابنتاي ...

ثم أضاف مستفسرا في قلق : وما ذاك فداك أبي وأمي ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

«قد أُذِنَ لي في الخروج والهجرة ...»

فهتف الصديق : الصحبة يا رسول الله... الصحبة ! [1]

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول في الهجرة فيقول له :

«لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ! »

فيطمع في أن يكونه...

وتذاكر الصاحبان – على مسمع من عائشة وأسماء – ما كان من غيظ قريش «حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا ، فحذروا خروج رسول الله اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة – وهي دار قصي ابن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا الا فيها – يتشاورون فيما يصنعون في أمر الرسول . . .

وكان فيهم عتبة بن ربيعة – أبو هند – وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ، وطعيمة بن عدي ، وجبير بن مطعم ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وحكيم بن خزام ، وأمية بن خلف ، وغيرهم ممن لا يعد من قريش .

واستقروا آخر الأمر على رأي لأبي جهل بن هشام : أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيباً ، فيعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا الى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منهم بالدية ! [2] .

---

(١) السيرة : ١٢٩/٢ والنقل منها . وحديث الهجرة مخرج في الصحيحين عن السيدة عائشة ، وابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) ابن هشام ، السيرة : ١٢٤/٢ ، ١٢٦ ، تاريخ الطبري : ٢٤٣/٢ ، عيون الأثر ١٧٦/١ من طريق ابن إسحاق.

وأذن لرسول الله في الهجرة، واختار أبا بكر له صاحبا!

وأحست «عائشة» ضيقا وقلقا من الفراق الوشيك، وتطلعت الى الرسول الحبيب ثم الى أبيها، فما راعها الا أن رأته يبكي من الفرح.

وما شعرت قط – في سنها الغضة – قبل اليوم أن أحدا يبكي من الفرح، حتى رأت أباها يفعل يومئذ (١).

* * *

وبدأ التأهب لرحيل عاجل...

بعث «أبو بكر» يدعو إليه «عبد الله بن أُرَيقط» – وكان دليلا ثقة، خبيرا بمجاهل الطريق – فدفع اليه راحلتين يرعاهما لميعادهما الموقوت.

ودعا الرسول اليه ابن عمه «علي بن أبي طالب» فأسر اليه النبأ الخطير، ثم استخلفه بمكة ليؤدي عنه ودائع كانت عنده للناس.

فلما حانت ساعة الرحيل: وقف الرسول على مرتفع هناك ببيت أبي بكر، فرنا إلى «البيت العتيق» وقتا، ثم أشرف على «أم القرى» وقال:

«والله إنكَ لأَحبُّ أرضِ الله اليَّ، وانك لأَحَبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت» (٢).

ثم استدار فنظر الى «عائشة» وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا، وقد أدخلها الفراق المفاجئ السريع، فما درت أفي يقظة هي أم تلك رؤيا منام...

وتسلل الصاحبان من خوخة في ظهر بيت أبي بكر، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هي كل ما بقي له ولأهله من مال، ثم انطلقا وما يعلم أحد في

---

(١) السيرة: ٢٤٦/٢.

(٢) السيرة: ١٢٩/٢، والنقل منها، وتاريخ الطبري: ٢٤٧/٢.

«مكة» بخروجها الا «علي بن أبي طالب» وآل أبي بكر...

وأخذ المهاجران طريقهما إلى غار يعرفانه في «جبل ثور» بأسفل مكة، وبقيت «عائشة» في الدار وحيدة قلقة.

أما أخوها «عبد الله» فانطلق إلى مجتمع البلدة، يتسمع ما يقول الناس...

وأما أختها «أسماء» فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية إلى الغار في سِتْر المساء.

وسمعت «عائشة» من أخيها «عبد الله» ان المشركين قد أحسُّوا خروج الرسول ﷺ وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم.

وكادت نفسها تطير شعاعا، لولا أن عصمها من اليأس ايمانها بالله ورسوله، فضلا عما كانت تسمع من حديث أخيها الى مولاهم «عامر بن فهيرة» أن يرعى النهار في رعيان أهل مكة، فاذا أمسى أراح غنم أبي بكر على الغار!

وكانت مشغلة «عائشة» طول النهار أن تعد الدقائق وهي تمضي في بطء كأنها أعوام، مرهفة سمعها إلى نبأ جديد، فإذا ولّى النهار وتأهبت أختها «أسماء» لرحلتها المسائية، حملتها «عائشة» تحياتها ودعواتها للراحلين العزيزين، ثم وقفت تحدق في الطريق مترقبة عودة «أسماء» وقلبها يخفق في لهفة وقلق.

وتعود «أسماء» فتثب اليها عائشة معانقة، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب، واليد التي صافحتهما، والأذن التي سمعت صوتهما، ثم تجلس اليها لتسمع منها ما رأت من حالهما...

وتحدثها «أسماء» عن مشقة الاقامة في الغار، وعما كان من حزن أبي بكر حين رأى الرسول في ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، فقال:

«ان قُتِلتُ فانما أنا رجل واحد. وان قُتِلتَ أنت هلكت الأمة».

فيذهب الرسول عنه الخوف بقوله:

«لا تحزن ان الله معنا».

وتظل «عائشة» تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة، حتى ينال منها الجهد والسهد، فتستسلم عيناها للغمض، وتحوم روحها حول الغار القريب، مأوى أعز من لها في الوجود.

ومر اليوم الثاني يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد وصاحبه، ثم حان المساء وتسللت «أسماء» خفية تحمل الزاد، فلما عادت قصت على «عائشة» كيف أن المطاردين بلغوا الغار، وتلبثوا عنده برهة، بل هموا بالنزول إليه، لولا أن صدهم عنه نسيج من عنكبوت على وجه الغار، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه!

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منهما ويتشاورون في اقتحام الغار، فقال للرسول:

- لو أن أحدهم نظر الى قدمه لرآنا...

فكان جواب الرسول:

- ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟! [1]

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة، وقفت «عائشة» في مرقبها اثر نهار مشحون بالقلق، ترصد الطريق... وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت، وهي مرهفة الحواس تحدق في غسق الدجى لعلها تلمح شخص «أسماء»، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها، لعل هواء الليل يحمل اليها حسا من خطوات بعيدة!

---

(١) من حديث الهجرة في الصحيحين والسيرة - والنقل منها - ورواه ابن سيد الناس بسنده إلى: أنس بن مالك وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، رضي الله عنهم (عيون ١/١٨٢).

ومضى وهن من الليل وهي في وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب . حتى أقبلت «أسماء» أخيرا تسري على عِجل ، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس .

وجمَّد القلق حركة «عائشة» ، فوقفت حيث هي ، تحدق في نطاق «أسماء» الذي عادت به من رحلتها ممزقا . قد غاب شِقٌ منه !

ورحمتها «أسماء» فعجلت لها بنبأ خروجها سالمين من الغار ، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها . وأقبلت تحدث «عائشة» عما كان :

في هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر . والتي اختيرت ليبدأ بها التاريخ العربي ، جاء الدليل ، عبد الله بن أريقط البكري ، يسوق الراحلتين اللتين أودعها اياه أبو بكر منذ أيام ، وراحلة له ثالثة ، فأناخ عند فتحة الغار ، فخرج الرسول وصاحبه ، وجاءت «أسماء» بطعامها في سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما ، فلما همَّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها ، أعوزها العصام تربط به السفرة الى الرحل ، فحلَّت نطاقها فشقته نصفين ، علقت السفرة بأحدهما ، وانتطقت بالشق الآخر .

ونظر «أبو بكر» الى الراحلتين يفحصها ، ثم اختار أفضلها فقربها الى الرسول قائلاً : «اركب ... فداك أبي وأمي» ...

فركب الرسول ، ثم ركب «أبو بكر» وأردف خلفه مولاه «عامر ابن فهيرة» ...

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا الى الجنوب في طريق غير مطروق ، ووقفت «أسماء» تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد ، فعادت وحدها الى بيت أبيها ، وهي توجس خيفة من تنبه المطاردين ...

وغابت «عائشة» عما حولها ، ومضت تسري بروحها في أثر الراحلين ، فما راعها الا طرقات عنيفة تلح على الباب ، فوقفت مكانها لا تملك حراكا ، وخرجت ذات

النطاقين تلقى الطارقين بليل ، فاذا نفر من قريش - فيهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي - يسألونها في غلظة :

«أين أبوك يا بنت أبي بكر؟»

أجابت : «لا أدري والله أين أبي !»

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بأبيها منطلقا من الغار ، ساريا في مجاهل الفلاة ، الى حيث لا تدري أين بلغ به سراه في صحبة النبي ﷺ .

فلم تشعر الا وبد «أبي جهل» ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية ، طرحت قرطها ! [1]

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون ويتوعدون...

* * *

ومضت أيام وليال ، لم يكن لمكة فيها من حديث الا عن تلك المطاردة الشرسة العنيدة ، تعدو فيها قريش وراء المهاجر شبه أعزل ، وقد جُنَّ خوفها أن ينجو بدعوته الى حيث يغدو مطمئنا وما لها اليه من سبيل .

ونجا ﷺ ، وصاحبه في الغار .

وتضاربت الأنباء في وجهته ، حتى جاء خبر من يثرب أن أتباع محمد هناك يخرجون اذا صلوا الصبح الى ظاهر المدينة منتظرين ، فما يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال...

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا صيحة رجل من يهود : يا بني قيلة ، هذا جدكم قد جاء .

---

(١) السيرة ١٣٢/٢ ، وتاريخ الطبري : ٢٤٧/٢ وترجمة أسماء في الاستيعاب بسند ابن عبد البر ، وفي الإصابة من طريق مسلم وابن سعد .

فخرجوا مسرعين ليروا النبي ﷺ في ظل شجرة ومعه أبو بكر في مثل سنه ، وأكثرهم لم يكن رآهما قبل ذلك ، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما النبي ﷺ ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثاني فأظله بردائه ، فعرفوه [1] .

وسرى النبأ في أنحاء «يثرب» وتعالى الهتاف من كل مكان ، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية في شوق ولهفة الى حيث تلقى المهاجر العظيم ، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم ، تشق أجواز الفضاء !

وعرفت «عائشة» مكان الحبيب ...

وكذلك عرفت قريش ، حين لم تعد تجديها معرفة ، وجاء دورها لتنتظر في خوف وذعر ماذا يأتي به الغد ...

انكمشت في ذلة ، تجرع كأس الهوان ، أنْ أعجزها الظفر بمهاجرٍ فرد ، خرج من «مكة» وليس معه غير صاحب واحد ، ودليل غير مسلم . ومولى تابع ...

وأرهف التاريخ سمعه ، يبدأ بهذه الهجرة الى يثرب كتابا جديداً في تاريخ الانسانية ، ويبدأ بها ليثرب نفسها ، عهدا جديدا مباركا ، ومجدا خالدا على الدهر .

---

(١) انظر نسب «قيلة» أم الانصار الأوس والخزرج ، في جمهرة أنساب العرب (٣١٢ – ٣٤٧) وفي «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي ص ٨ : ١٥٦ ط ١٩٥٥ .

العروس

بعد أن استقر ﷺ في دار هجرته ، بعث «زيد بن حارثة» إلى مكة ليصحب بنات الرسول إليها ، ومعه رسالة من «أبي بكر» الى ابنه عبد الله ، يطلب اليه فيها أن يلحق به ، مصطحبا زوجته «أم رومان» ، وابنتيه «أسماء ، وعائشة» وكان مع زيد «أبو رافع» مولى النبي ﷺ .

وتهيأ الجمع للسفر ، وخرجوا صحبة يريدون مدينة الرسول ، وما تكاد الدنيا تسع «عائشة» من فرحتها وابتهاجها ، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب ، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت «أم رومان» مذعورة :

«وابنتاه ، واعروساه !» (١)

وأسرع عبد الله بن أبي بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة ، وأبو رافع ، فردوا البعير النافر ، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأعزاء .

* * *

وفي «المدينة» كان ﷺ يهيِّئ داراً لعائشة .

أقام ﷺ في «قباء» أربعة أيام ، أسس خلالها أول مسجد في الاسلام ، وكان مقامه عليه الصلاة والسلام بقباء ، في مربد هناك لكلثوم بن هِدْم الانصاري . (٢)

وركب ناقته «القصواء» يوم جمعة ، فأدركته صلاتها في «بني سالم بن عوف»

---

(١) تاريخ الطبري : حوادث الهجرة - والاستيعاب والإصابة ، في ترجمة أم رومان .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٣٩/٢ - وتاريخ الطبري ٢٥٦/٢ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي ٢٥٠/١ .

فصلى أول جمعة بالمدينة ، ثم استأنف مسيره فكلما مر بحي من أحياء يثرب خرج اليه رجاله مرحبين داعين :

«هلم الينا يا رسول الله ، الى العدد والعدة والمنعة» .

فيجيب شاكرا :

«خلوا سبيل ناقتي» حتى انتهت إلى باب «أبي أيوب الأنصاري» وفيا نزل رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه ... (١)

وتنافس المهاجرون والأنصار في البناء ، حتى تم بناء مسجد المدينة ، ومن حوله تسع حجرات ، بعضها من الجريد والطين ، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض .

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد .

وفي واحد من هذه البيوت أقامت «سودة بنت زمعة» ترعى الشئون المنزلية ، وتسهر على خدمة النبي ﷺ ، وبنتيه أم كلثوم ، وفاطمة ...

أما «رقية» فكانت مع زوجها «عثمان بن عفان» حيث نزل بالمدينة .

وأما «زينب» فكانت «بمكة» مع زوجها «أبي العاص بن الربيع» ابن خالتها هالة ، وكان لا يزال مشركا ، لم يفرق بينهما الاسلام بعد ...

* * *

بعد أن تم بناء مسجده عليه الصلاة والسلام وبيته ، واستقر المسلمون في دار الهجرة واطمأن بهم المقام ، آمنين من اضطهاد عدوهم ، تحدث «أبو بكر» بعد الهجرة بأشهر معدودات ، الى محمد ﷺ في اتمام الزواج الذي عقده بمكة منذ ثلاث سنين .

---

(١) السيرة ٢/١٣٩ ، ووفاء الوفا : ١/٢٥٦ .

فلبى رسول الله راضيا ، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار الى منزل صهره الصديق ، حيث كان ينزل بأهله ، في بني الخزرج.

وتصف «عائشة» يوم عرسها فتقول : «جاء رسول الله بيتنا فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتني ثم سوت شعر ي ومسحت وجهي بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب ، وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي ، ثم أدخلتني ورسول الله جالس على سرير في بيتنا ، فأجلستني في حجره وقالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك [١].

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بي رسول الله في بيتي ، ما نُحرت عليَّ جزور ولا ذُبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها الى رسول الله».

وحمل اليهما كذلك قدح من لبن ، شرب الرسول منه ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه ...»

وكانت عائشة عروسا حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين ، وشعر جعد ، ووجه مشرق ، مشرب بحمرة. وقد انتقلت الى بيتها الجديد ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التي شيدت حول المسجد ، من اللبن وسعف النخيل ، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض الا الحصير. وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر... [٢].

وفي هذا البيت البسيط المتواضع بدأت «عائشة» حياة زوجية حافلة ، ستظل

---

(١) السمط الثمين ص ٣٢ – وتاريخ الطبري : ١٧٦/٣ ووفاء الوفا : ٢٦٠/١ ونحوه ، بلفظ مقارب ، في صحيح مسلم : كتاب النكاح ، ح (١٤٤٢).

(٢) السمهودي : وفاء الوفا ٤٥٩/٢ : ٤٦١ وانظر في صحيح مسلم ، الحديثين ٢٠٨٢ ، ٢٤٣٨.

حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد بعده ، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق في حياة الرسول والاسلام.

كانت صغيرة السن ، أو طفلة - كما يحلو لذوي الهوى أن ينعتوها . وقال المستشرق بودلي : «منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها . ولو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبي بكر... فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه دور النبي الملحقة بالمسجد...» (١) .

وأدق من هذا أن يقال ان «عائشة» قد اكتمل نموها في هذا البيت ، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عيني الرسول من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب (٢) الى شابة ناضجة مجربة ، تسألها امرأة في مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها : «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي !»

وتكره أن تلقى امرأة زوجها في كآبة الحداد فتروي الحديث :

«لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج !»

* * *

ولم يكن وجود «سودة» على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذي أحبته «عائشة» بكل كيانها ، يشغل بالها في كثير أو قليل ، فما غاب عنها قط ألا مكان لسودة في قلب الزوج ، وانما الذي كان يشغل عائشة ، هو ذلك الحب العميق الذي ظفرت به «خديجة» قبلها من زوجها ﷺ ، وتلك المكانة التي احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان !

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة ، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ،

---

(١) بودلي : الرسول ، ص ٩٣ ، ١٣٠ من الترجمة العربية .

(٢) المسند : جـ ٦ ، صحيح البخاري ١٨٢/٣٠ ط الشرقية .

وهي راقدة هنالك بعيدا تحت ثرى مكة ، فما تستطيع «عائشة» أن تشتفي منها بدعابة قاسية ، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتيّ النضير، أو تفاخرها بأنها زُفَّت إلى الرسول ﷺ بكرا لم تعرف قط رجلا غيره.

وحاولت «عائشة» أن تتجاهل هذه الضرة التي ماتت ، فذهبت محاولتها عبثا. ذلك أن طيف «خديجة» بقي ماثلا أبدا أمام عيني زوجها ، واسمها الحبيب على لسانه ، وصوتها في مسمعه ، وذكراها حية ملء دنياه.

وزاد في قسوة الموقف أن الشهور مضت والسنون ، و«عائشة» لا تنجب لزوجها ولدا ، على حين ولدتْ له «تلك العجوز من قريش» -كما كانت تصفها- البنين والبنات (١)

وكانت عائشة تعرف في زوجها ، وفي رجال قومها جميعا ، ذلك الحب القوي للابناء ، والحرص على الانجاب ، ثم ترى من تعلق الزوج - الذي أحبته جهد الحب - ببنات خديجة ، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف هذا الزوج ومحبته ، وما يأخذها به ايمانها من تجمل بالصبر فيما لا حيلة لها فيه.

وكانت بحيث تجد في بنات محمد - زوجها الحبيب - ما يلطف من لهفتها على الأمومة ، لو حاولت أن تتبناهن ، لكنْ يبدو أنها ما تكاد تذكر أنهن ، كذلك ، بنات ضرتها «خديجة» حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن ، بل تحس أن كل واحدة منهن ، هي «خديجة» بلحمها ودمها ، تثير فيها أبدا شعورا مرا بالعقم ، وتذكرها في كل آن بما كتب عليها من حرمان.

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء اخوتها من تفيض عليه عواطف أمومتها

(١) في ترجمتها بالإصابة ، قال ابن حجر : «فقيل إنها ولدت من النبي ﷺ ولدا فمات طفلا. ولا يثبت هذا» وفيها : «وذكر أبو سعيد الأعرابي في معجمه بسند ضعيف جدا ، أنها أسقطت من النبي ﷺ ، سقطاً».

المحرومة كي لا يرهقها الكبت ، فأنزلت ابن أختها أسماء «عبد الله بن الزبير» منزلة الابن ، وبه كانت تكنى فيقال : «أم عبد الله» [1] . وحين مات أخوها «عبد الرحمن» ضمت إليها ابنه القاسم وابنته الطفلة ، فيقول القاسم :

«فما رأيت والدة قط أبر منها» .

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان ، بما عرفت لها من موضع في قلب المصطفى ﷺ لم تبلغه أخرى بعد خديجة ، وما ظفرت به من حبه وتدليله ، وإيثاره ... [2] .

---

(١) الاستيعاب : ١٨٨٣/٤ وفيه أنها استأذنت رسول الله ﷺ في الكنية ، فقال لها : اكتني بابنك عبد الله بن الزبير.

(٢) انظر مناقبها في صحيح البخاري ، وفضائلها في صحيح مسلم.

الضرائر

واذ هي سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها ، آملة أن تستطيع به – ولو بعد حين – تناسي ضرتها التي ماتت ، فوجئت بزوج جديدة تدخل بيت النبي ، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة «سودة» ، وتشاركها في حياتها الزوجية ، يوما بيوم وليلة بليلة !

ومَن الزوج الجديدة ؟

إنها «حفصة» بنت عمر بن الخطاب الذي أعز الله الاسلام به !

وروع «عائشة» أن يتزوج «محمد» ﷺ – عليها ، وما تزوج قط على خديجة ، حتى ماتت في الخامسة والستين !

وأشقاها ألا يحميها شبابها ومجد أبوتها ، وحبُّ الرسول لها ، من ذلك الهم البغيض المرير الذي لم يرض المصطفى لخديجة أن تذوقه ما عاشت !

وجاءت من بعد «حفصة» زوجات أخريات ، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة ...

كانت فيهن «زينب بنت جحش» الشابة الجميلة ، و«أم سلمة بنت أبي أمية زاد الركب» ، الحسناء الأبية المترفعة ، و«جويرية بنت الحارث» التي تأخذ العين بملاحتها ، و«صفية بنت حيي» سليلة اليهود ، الناعمة الساحرة ، و«أم حبيبة» بنت أبي سفيان زعيم مكة وقائد جيشها ...

ثم كانت هناك «مارية» المصرية الجذابة ، أم ابراهيم بن محمد .

وريحانة بنت عمرو : حسناء بني قريظة ، لم يتزوجها الرسول ، لكنها أقامت في مِلْكِهِ ما عاش .

وكان هذا بحيث يجعل «عائشة» تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام، لكن يخطئ من يزعم أنها أساغت يوما مرارة الضرائر، ويجهل فطرة الأنثى من يظن أن «عائشة» استراحت من ألم حرمانها من الأبناء ووجدت في كنيتها بأم عبد الله، أو في أمومتها للمؤمنين جميعا، ما يطفئ شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب، عزَّ مثله في الأزواج.

ولم تدر «عائشة» أول الأمر كيف تدفع هذا الضر المحتوم، فقد كانت تعرف – كما يعرف سواها – أن النبي ﷺ يتزوج لضرورة وحكمة، وان لم تبرأ بشريته من رغبة.

وكانت تعلم – ويعلم الناس جميعا – ان عائشة هي الزوجة الحبيبة المفضلة، أحظاهن عنده ﷺ.

فهل تسكن عن رضى واستسلام؟

كلا، بل حرصت جهدها على أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها في قلب الرسول مهما يكلفها الأمر، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصباها، أن تلزمهن موضعا بعينه لا يتجاوزنه.

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يتجرد من بشريته ولا يحمل «عائشة» أو غيرها من نسائه على التجرد منها.

فلتستجب «عائشة» لفطرتها دون كبت أو قهر، ولتكن لنسائه مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية، ولو جمحت بهن الغيرة، وكلفته ﷺ من أمرهن شططا.

* * *

وكانت «عائشة» بينهن أشدهن غيرة عليه، ونضالا في سبيل الاستئثار بحبه.

وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد «خديجة»، وأنها وحدها التي تزوجها بكرا، وأنها «عائشة بنت أبي بكر».

وقد نظرت الى ضرائرها تقيس نفسها اليهن ، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بإنصاف ، لتعرف من أين تأخذهن.

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن ، ممن لا قبل لهن بمنافستها ، مثل «سودة بنت زمعة» ، و«زينب بنت خزيمة الهلالية» التي لم تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات.

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الزوجات مجتمعات ، تظاهرهن «فاطمة بنت الرسول» التي أرادت لها «عائشة» منذ جاءت بيت محمد ، أن تكون لها ضرة وخصما.

وقررت أن تختار من هؤلاء ، أبعدهن عن الخطر في ميدان المنافسة ، فتوددت في شجاعة ولباقة الى «حفصة بنت عمر»[1] متخذة من تقاربهما في الأبوة سبيلاً إلى هذا التودد.

واستجابت «حفصة» لهذا التودد وقد سرَّها أن تؤثرها «حبيبة الرسول» ، بالمودة ، وان تعترف بأن بنت عمر ، أقرب نساء النبي إلى بنت أبي بكر...

واتخذت «عائشة» من «حفصة» موضع سرها منذ سمعت بزواج الرسول من «أم سلمة» فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس...

وهونت «حفصة» من خطر «أم سلمة» فإنها على جمالها كبيرة السن ، وإن الجمال ليذبل سريعا في مثل سنها ، فلتُبق عائشة غيرتها لمن تستحق...

وفعلت عائشة...

ادخرت غيرتها للشابة القرشية الحسناء «زينب بنت جحش» وتأهبت لها قبل أن

---

(١) في حديث السيدة عائشة عن حزب النساء ، أن حزبها كان فيه حفصة وسودة وصفية والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر الازواج رضي الله عنهن انظر السمط الثمين ص ٣٩.

تجيء ، فما إن أعلن النبي ﷺ ما نزل عليه من الوحي في زواجه من بنت عمته ، حتى قالت عائشة في غيرة وغضب :

«ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[1].

وراحت «عائشة» - تؤازرها حفصة - ترقب الزوجة الجديدة وتحصي الدقائق والساعات التي يقضيها الرسول معها ، فلما رأته يطيل المكث لديها ، فكرت في حيلة تصرفه ﷺ عنها.

وأشركت معها ، حفصة وسودة ، أيتهن دخل الرسول عليها إثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له :

«أكلت مغافير؟»[1]

والمغافير ثمر حلو كريه الرائحة ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يطيق الرائحة الكريهة.

وجاء الرسول «عائشة» فتشممت أنفاسه وقالت : «انني أشم رائحة مغافير، أكلت مغافير؟»

وكذلك قالت حفصة...

ولما مر بسودة سألته مثل ذلك فقال : «لا».

قالت : فما هذه الريح؟

قال : «سقتني زينب شربة من عسل».

فقالت سودة بلهجة الخبيرة بمراعي البادية :

---

(١) ذكرت رواية أخرى في كلمتها هذه. انظر السمط الثمين ٨٢.

(٢ ، ٣) السمط الثمين : ٨٠ ، ٨١ - وفي رواية ان التي سقته شربة العسل هي السيدة حفصة والحديث مخرج في الصحيحين ، بروايتيه.

«رعَتْ نحلُه العرفطَ».

والعرفط: الشجر الذي يثمر المعافين.

كان من النبي ﷺ إلا أن حرم شرب العسل عند «زينب» من يومه.

وأحست «سودة» ندما فقالت لصاحبتيها: «سبحان الله! والله لقد حرمناه!» (٢).

فنظرت إليها عائشة، أن اسكتي!

* * *

حتى جاءت وافدات أخريات شغلن «عائشة» حينا عن أم سلمة وزينب، وإن عرفت أن هاتين أحب نساء النبي إليه بعدها...

واحدى هؤلاء الوافدات من كندة، وثانية من مصر.

أما الأولى فكانت «أسماء بنت النعمان بن الأسود الكندية الجونية» التي أحست «عائشة» خطر جمالها منذ وقعت عليها عيناها، وقدرت أنها اذا لم تحل بينها وبين زوجها الرسول، فسوف تكلفها من أمرها عسرا.

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج!

وبدأت تعمل على الفور مستعينة بصواحبها!

دعت اليها حفصة، وأخرى ممن يحرصن على ارضائها، فقالت لها:

«قد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا».

واتفقن على خطة موحدة: أقبلن على العروس مهنئات، يجلونها للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضا الزوج العظيم ومحبته، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله إذا ما دخل عليها!

وفعلت المسكينة !

لم تكد تراه مقبلا عليها ، حتى استعاذت بالله ، وفي حسابها أنها تستجلب محبته ورضاه !

فصرف رسول الله وجهه عنها وقال :

«لقد عُذت بمعاذ»...

وغادرها من لحظته ، وأمر أن تُمتَّع وتلحق بأهلها (١) .

فبعثت اليه ، أو بعث أبوها ، من يتوسط لردها ويحدث عما كان من نسائه معها ، فلم يملك عليه الصلاة والسلام الا أن يبتسم ويقول :

«انهن صواحب يوسف ، وان كيدهن عظيم !»

وبقي عند كلمته ، فلم يمسك تلك التي عاذت بمعاذ ، وتخلصت عائشة من منافسة خطرة !

* * *

أما «مارية» المصرية ، فلعل «عائشة» لم تأبه لها أول الأمر ، اذ كانت أمة قبطية أجنبية وضعها الرق في منزل دون منازل أمهات المؤمنين.

وربما استكثرت «عائشة» عليها أن تعدها منافسة لها ، وهي التي تعيش خارج بيت النبي.

لكن «مارية» لم تكد تحمل من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حتى هاجت غيرة «عائشة» وغيظها ، فبدأت تكيد لها ، والرسول يحاول أن يحميها من كيد الحبيبة

(١) اختلفت الروايات في اسم التي استعاذت بالله عندما دخل عليها الرسول ، فقيل هي أسماء بنت النعمان ، وقيل هي ابنة عم لها من كندة ، كذلك – السيرة ٢٩٧/٤ . وفي الطبري أنها ملكة بنت داود الليثية (١٢٣/٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٣) وانظر : المحبر لابن حبيب (٩٤) وعيون الأثر (٣١٠/٢).

المدلة بمكانتها، لكن الأمر خرج من يده ذات يوم: جاءت «مارية» تلتمس لقاءه في شأن لها، فخلا بها في بيت حفصة التي كانت اذ ذاك تزور أباها. فلما عادت «حفصة» ألفت الستر مسدلا وعلمت أن «مارية» هناك، فأقامت تنتظر على أحر من الجمر، حتى إذا انصرفت «مارية» دخلت «حفصة» على الرسول باكية مقهورة، ولم تهدأ حتى حرم الرسول «مارية» على نفسه، موصيا «حفصة» بكتمان ما كان [1].

لكن حفصة لم تستطع أن تكتم سرا عن عائشة، فكأنما أشعلت فيها النار.

ولحت عائشة في غيرتها، والنساء يظاهرنها على النبي ﷺ، غيظا من «مارية» التي حملت دونهن من رسول الله، وترفق ﷺ بهن ما استطاع، مقدرا بواعث هذا التظاهر، لكنهن تمادين في اللجاج إلى حد الشطط، مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن...

* * *

وما كان ﷺ فارغ البال لذلك العبث النسوي المسرف، ولا كان يستطيع أن يرخي لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل، فاعتزلهن جميعا في صرامة لم يألفنها، وأعلن في حزم أنه منقطع عنهن، منصرف عن مؤمراتهن الصغيرة إلى شواغله الكبار...

وسرى الهمس بين المسلمين أن النبي طلق نساءه، وانكمشت المتظاهرات في بيت النبي حزينات نادمات، فقد جاوز الأمر ما قدَّرن، وما لهن من عاصم يقيهن سوء المصير، إذا لم تدركهن رحمة الله وعفو رسوله عليه الصلاة والسلام.

على أن «عائشة» - قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات - لم تفزع لغضب رسول الله، بقدر ما فزعت لما مسه ﷺ من مشقة. وكان قلبها يتمزق، كلما تمثلت الحبيب

---

(١) تفسير الطبري: سورة التحريم. والسمط ٨٥ وفي رواية أن آيات التحريم نزلت في قصة العسل والمغافير، ننقلها فيما يلي.

يأوي إلى خزانة له ذات مشربة [١] ، يرقى إليها على جذع خشن من جذوع النخل ، ويجلس غلامه «رباحاً» على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام بها ، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق ، وتنفض عنه غبار المعركة ، ولا من زوج يسكن إليها ويرتاح .

ومضى شهر بأكمله في شغل عنهن ، و«عائشة» في شغل به ، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر ، والمسلمون يرقبون نبيهم في عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته في موضوع نسائه ، إلا ما كان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١] .

* * *

ولكن النبي لم يطلق نساءه . ولطف الله بهن فاكتفى بانذارهن إن لم يتُبن فعسى ربه إن طلقهن ، أن يبدله أزواجا خيرا منهن ! [٢]

وطارت البشرى إلى أمهات المؤمنين إن النبي ﷺ عائد إلى بيته ، فوقفن بأبوابهن في لهفة يلتمسن نظرة إلى وجهه الكريم إذ يعود من معتزله ، على حين بقيت «عائشة» داخل مخدعها تستعد للقاء الحبيب العائد ، إذ كانت تعرف عن يقين أن اليها أولَ المطاف !

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها . ولاذت بكل ما استطاعت من تجمل لتتلقاه قائلة في عتاب رقيق :

«بأبي أنت وأمي يا نبي الله ! قلتُ كلمة لم ألق لها بالا فغضبتَ عليَّ» .

وإذ أقبل عليها مصغيا . استطردت تقول في دلال ودعابة حلوة :

«أقسمتَ أن تهجرنا شهرا ، ولما يمض منه غير تسع وعشرين ؟»

---

(١) انظر وصف المشربة التي اعتزل فيها الرسول نساءه ، بكتاب (وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى) للسمهودي : ٤٦٣/٢

(٢) سورة التحريم ويأتي حديث عمر ، في مبحث ابنته حفصة .

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقد سره ان يعرف انها كانت تحصي ليالي الفراق عدّاً...

وأجابها بأن شهرهما ذاك ، تسع وعشرون ليلة !

* * *

ونجت «عائشة» من محنة الهجر ، ومن قبل نجاها الله من محنة فادحة منكرة ، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها ، وأوشكت على الضياع...

تلك كانت محنة الإفك ، ننقلها فيما يلي ، من حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

محنة الإفك

حدث ذلك في نحو السنة السادسة للهجرة ، بعد أن تزوج ﷺ «زينب بنت جحش»...

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب لغزو بني المصطلق ، فأقرع بين نسائه على عادته كلما خرج في سفر أو غزوة ، فخرج سهم «عائشة» (١)

وانطلقت في صحبته سعيدة هانئة .

وكانت فألا حسنا على القائد المصطفى ، فعاد من غزوته منتصرا ، وسار ركبه الظافر يغذ السير الى «المدينة» التي كانت اذ ذاك تهزج بأغاني النصر...

وفي الطريق – قريبا من المدينة – أناخ العسكر فباتوا بعض الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل ، فارتحلوا ، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا .

وبلغ الركب المدينة في مطلع الصبح ، واقتيد بعير أم المؤمنين الى مناخه أمام بيتها ، وأنزل الهودج في رفق ، فاذا أم المؤمنين ليست فيه !

ولبث الرسول وصحبه ساعة من نهار، حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم في الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة...

حتى بدت من بعيد ، تركب بعيرا ، يقوده رجل عرفوا فيه «صفوان بن المعطل السلمي» .

---

(١) تاريخ الطبري : ٦٧/٣ – والسيرة ٣١٠/٣ وانظر طبقات ابن سعد : ٤٦/٢ ط ليدن.

واطمأن الرسول أن وجدها بخير، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئاً.

قالت: [1]

«خرجت لبعض حاجتي، قبل أن يؤذَّن في الناس بالرحيل، وفي عنقي عقد لي فيه جزع «ظفار» – مدينة باليمن – فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري. فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم – وأنا بعيدة – فرحلوا بعيري وأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه – إذ كنت خفيفة لم يُثقلني اللحم – فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشُكُّوا أني فيه. ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس...

«فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت ان لو قد افتُقدتُ لرُجع اليَّ. فوالله اني لمضطجعة، اذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليَّ – وقد كان يراها قبل أن يضرب عليها الحجاب – فلما رآني قال:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! ما خلَّفكِ يرحمك الله؟!

فما كلمته... ثم قرب البعير فقال: اركبي.

واستأخر عني، فركبت، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُقِدتُ، حتى أصبحت ونزل الناس، وطلع الرجل يقود بي».

وأوت «عائشة» إلى فراشها فنامت هادئة، والمدينة يقظى لا تنام! ذلك أن قوما

---

(١) حديث الإفك مروي بتمامه في الصحيحين وكتب السنن، وفي طبقات ابن سعد والسيرة الهشامية عن ابن إسحاق – والنقل منها، (٣/٣) وعيون الأثر (٩٦/٢ – ١٠٣) وهو فيها جميعا من رواية ابن شهاب الزهري.

من اليهود والمنافقين، على رأسهم «عبد الله بن أبيٍّ بن سلول» - الذي ما برئ من حقده على الرسول وما فتئ يكيد له - تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات، ليشفوا وترهم وأحقادهم...

وانتقل حديث الإفك من دار «ابن سلول»، ومن لفّ لفه، إلى أحياء المدينة، وردده ناس من المسلمين، فيهم «حسان بن ثابت الأنصاري» شاعر النبي ﷺ، و«مسطح بن أثاثة بل عباد» قريب أبي بكر وموضع بره، و«حمنة بنت جحش»، ابنة عمة النبي وأخت زوجته زينب!..

وبلغ الحديث أذني محمد ﷺ، كما بلغ مسامع أبي بكر وأم رومان فصكها صكا! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه «عائشة» بالشائعة الرهيبة، إذ كانت منذ عادت من غزوة بني المصطلق، معتلة تشتكي شكوى شديدة، فظلت لا تدري ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شيء، إلا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة، وقد عودها إذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنانه، فأمست هذه المرة ولا حظّ لها من ذلك اللطف والحنان إلا أن يدخل عليها من حين الى حين، وعندها أمها تمرضها فيسأل:

«كيف تيكم؟»، لا يزيد على ذلك!

ولم تشأ أن تسأله عما يريبها من جفائه، فقد كان يبدو لها واجما مشغول البال، وكانت تحس بقلبها أنه ﷺ يكابد هما ثقيلا، فتماسكت متجلدة، وهي تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التي غشيت دنياها.

فتقول «عائشة»:

«حتى وجدتُ في نفسي فقلت، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: يا رسول الله، لو أذنت لي فانتقلتُ إلى بيت أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك.

«فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة...

«فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي «أم مسطح» بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف – وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبي بكر – فوالله انها لتمشي معي اذ عثرت في مرطها فقالت:

تَعِسَ مِسْطَح!

قلت: بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا!

فقالت: أو ما بلغك الخبر يابنت أبي بكر؟

قلت: وما الخبر؟

قالت: نعم والله، لقد كان...

فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت فمازلت أبكي حتى ظننت إن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأمي:

– يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟

قالت: أي بنية! خفِّضي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثَّرن وكثر الناس عليها!»

لكن «عائشة» باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم.

* * *

وبعيدا عنها كان الرسول يعاني مثل الذي تعانيه: قلبه يحدثه أنها ضحية اتهام ظالم فادح، وأذناه تصغيان إلى الشائعات المرجفة بالسوء.

وقد قام في الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؟.. والله ما علمت منهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي».

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرا لنبيهم في محنته وعذابه، ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة، وعقيلة حرة، فتختلط أصواتهم في طلب الانتقام والتأديب، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر[١].

وتمضي عائشة في وصف محنتها فتقول:

«ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليَّ، فدعا «على بن أبي طالب وأسامة بن يزيد» فاستشارهما.

فأما أسامة فأثنى عليَّ خيرا وقال: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم منها الا خيرا، وهذا الكذبُ والباطل...

وأما «علي» فإنه قال: يا رسول الله، ان النساء لكثير، وانك لقادر على أن تستخلف. وسل الجارية فانها ستصدقك.

«فدعا رسول الله ﷺ جاريتي «بريرة» ليسألها: فقام إليها «على بن أبي طالب» فضربها فضربها ضرباً وهو يقول:

– اصدقي رسول الله ﷺ.

فتقول «بريرة»:

والله ما أعلم إلا خيرا، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله!»

ويخرج ﷺ مثقل الكاهل محزون الفؤاد.

ثم يعود بعد حين إلى بيت أبي بكر، فإذا عائشة هناك مقرحة الأجفان تبكي، فتبكي لها زائرة عندها من الأنصار، وأبواها ينظران إليها في صمت وأسى.

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك، جلس ﷺ يحدث عائشة، قال:

«يا عائشة ، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فاتقي الله . وإن كنت قد قارفتِ سوءا مما يقول الناس فتوبي إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده» .

فما هو إلا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت . وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها ، وإذ ذاك تلفتت إلى أبويها ، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ .

واذ سكتا لا يحيران جوابا ، صاحت فيهما بملء عذابها : ألا تجيبان؟

قالا معا بصوت تخنقه العبرات : والله ما ندري بم نجيب !

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل في كيانها ، ثم اتجهت إلى زوجها الرسول تقول في إصرار :

«والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدا ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أني بريئة ، لأقولَنَّ ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون ، لا تصدقونني» .

وحاولت أن تتذكر اسم «يعقوب» لتتأسى به فما استطاعت ، واستطردت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ثم صمتت (٢) ...

فلم يبرح ﷺ مجلسه عندها ، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحي ، فسُجي بثوبه ، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه .

وأمسك الأبوان أنفاسها حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما ، فرقاً وقلقا ، وأما هي فما فزعت ولا خافت ، إذ كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها .

ثم سُرِّي عن رسول الله ، ﷺ فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول :

(١ ، ٢) السمط الثمين ٦٧ – وتاريخ الطبري ٦٧/٣ .

«أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك!»

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جاثم، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح، فأشارت إلى عائشة أن تقوم إلى زوجها، فقالت عائشة في إباء: «والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي».

ثم التفتت إلى أبيها، وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا، فقالت له: «يا أبتاه هلا كنت عذرتني!» فأجاب: «أي سماء تظللني وأي أرض تقلني إن قلت بما لا أعلم؟»

وأما النبي ﷺ، فرنا إليها في عطف وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم، وخرج إلى المسجد وتلا على الناس آيات النور:

«إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسَبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم، لكلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم * لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يَعِظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذي يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (١١ - ١٩).

وبأمره تعالى، جُلِد الذين تقولوا بالفاحشة: «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا، وأولئك هم الفاسقون» النور: ٤

* * *

العُروةُ الوثقى

وعادت السيدة «عائشة» الى مكانها في البيت المحمدي، تحف بها هالة من آيات النور، نصرا إلّهيّاً جعل براءتها من الإفك الأثيم، قرآنا يتعبد به المسلمون...

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة، مزهوة بصباها ودلالها وحظوتها عند الحبيب، وتباهي ضرائرها قائلة:

«أية امرأة كانت أحظى عند زوج مني!»

ولا تفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام:

«حبك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى».

عن عمرو بن العاص، قال: قلت لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟

قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟

قال: «ثم عمر بن الخطاب...» فعدَّ رجالا.(١)

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:

قال لي رسول الله ﷺ: «إني لأعلم متى كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غَضْبَى» قلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «أما إذا كنت راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنتِ غضبى قلتِ: لا وربِّ إبراهيم». قلتُ: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمَك.(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب (٢٠١/٢) ومسلم في كتاب الفضائل: ح (٢٣٨٤) والنقل من البخاري.

(٢) صحيح مسلم: باب فضل السيدة عائشة (ح: ٢٤٣٩) والنقل منه. وأخرجه البخاري في كتاب الغيرة (١٨٦/٢).

و«حديث أمِّ زرعٍ» مشهور، خلاصته أن إحدى عشرة نسوة جلسن يتحدثن عن أزواجهن، وتعاهدن أن لا يكتمن من أحوالهم معهن شيئا. فتحدثت كل منهن عن زوجها وما تشكو من أمره أو أبويه، فلما جاء دور أخراهن «أم زرع» تحدثت عن زوجها «أبي زرع» فأثنت عليه أطيب الثناء. وأسهبت في وصف كرم سجاياه وفيض خيره وجميل عشرته.

قالت السيدة عائشة بعد أن حكت خبرهن؛ قال لي رسول الله ﷺ:

«كنتُ لكِ كأبي زرع لأمِّ زرع»(١)

وكان المسلمون يعلمو ن مكانتها عند النبي ﷺ، فيتحرَّوْن بهداياهم يوم عائشة، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ»(٢). و مع أنه كان يرسل لكل زوجة نصيبها مما يتلقى وهو في بيت عائشة، إلا أن الغيرة استفزتهن، فتشاورن في وضع حد لما يلقين من بنت أبي بكر.

وانتهى بهن الرأي إلى أن يلتمس من «السيدة فاطمة الزهراء» مخاطبة أبيها ﷺ في الأمر. واستجابت رضي الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت: يا أبي، ان نساءك أرسلنني اليك، وهن ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقال لها، ﷺ: «أي بنية، ألستِ تحبين ما أحب؟»

قالت: بلى. قال: «فأحِبِّي هذه».

فعادت إليهن فأخبرتهن بالذي سمعت من أبيها ﷺ، وقالت: «والله لا أكلمه فيها أبداً»(٣).

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في باب فضل السيدة عائشة (ح: ٢٤٤٨).

وشرحه القاضي عياض في كتاب مفرد، نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، ح (٢٤٤١) واللفظ منه. والسمط الثمين للمحب الطبري: ٤٠ والإصابة ١٤٠/٨.

(٣) صحيح مسلم، الفضائل: ح (٢٤٤٢).

وقد ظلت السيدة عائشة رضي الله عنها ، تبارك ما عاشت . الشهر الذي خطبها فيه النبي ﷺ ، وبنى بها فيه ، فكانت تستحب أن تزوج النساء من آلها في شوال ، وتقول :

« تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، وبنى بي في شوال ، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحْظَى مني؟ »[1]

وحين كانت الغيرة تشتط بها ، كان النبي ﷺ يوسع لها العذر فيقول :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وقد يسألها : « أغِرتِ » ؟

فتجيب : وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك؟[2]

وصدقت « عائشة » ...

ووَهِمَ الذين ادعوا تجردها من البشرية وترفعها عن أهواء حواء وبراءتها من فطرة الأنثى . كتبت السيدة الزميلة « الدكتورة زاهية قدورة » ، في رسالتها للدكتوراه عن « عائشة أن المؤمنين » : « إن الغيرة لم تكن لتتغلغل الى أعماقها ، بل كانت تقف عند الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل ... وان الأمر لم يكن ليدخل في باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الاسلامي من الافرنج أن يصفوها ... ولعل ما يرد على هؤلاء ، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن في ارضاء زوجهن رسول الله » .

سبحان الله !

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب النكاح : ح (١٤٢٣) .

(٢) صحيح مسلم : ح (٢٨١٥) والسمط الثمين : ٨٠ .

وهل كان تحزبهن في قصة المغافير، وتظاهرهن ضد مارية، من صنع الفرنجة؟

أوكانت وصيتهن للعروس أن تستعيذ بالله إذا دخل عليها رسول الله ﷺ داخلَ ما تسميه الزميلة: الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل؟

أوكان اتفاقهن على مغاضبته ﷺ إذ خلا بمارية وهي حِلٌّ له، من بين هذه الصور للاتفاق الرائع بين الضرائر؟

اللهم لا، وإنما كانت «عائشة» أنثى سليمة الفطرة، ينزع بها ميراثها العاطفي الى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقا أو مداراة.

وما غيرتها المحتدمة العارمة - بعد هذا كله - الا مظهر حب عميق لرجلها الأوحد، ودليل تعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام، ورغبة لا تقاوم في الاستئثار به...

ونظلمها، ونظلم نبينا الكريم، اذا تكلفنا نفي هذه الغيرة عنها ووصفنا ما بينها وبين ضرائرها «بالاتفاق الرائع».

وما لها ألا يغار مثلها على مثله؟!

* * *

الوداع

كانت السنوات التي تلت محنة الإفك حافلة بجليل الأحداث...

والسيدة «عائشة» مع الرسول ﷺ تشهد أمجاده، وتتلقاه عائدا مظفرا من غزواته، وترقب دعوته وهي تنتشر وتمتد، كنور الفجر يغزو الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل.

ثم آن للبطل أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة،..

وآن للرسول البشر، أن يرجع إلى ربه، بعد أن أبلغ رسالته.

عاد من حجة الوداع سنة عشر الى «المدينة» فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشرة، فخرج إلى البقيع يحيي الراقدين هناك ويستغفر لهم.

فلما أصبح مر بعائشة في الغداة فوجدها تشكو صداعا وتئن متوجعة:

«وا رأساه!»

قال وقد بدأ يحس ألم المرض:

«بل أنا والله يا عائشة وا رأساه!»

فلما كررت الشكوى قال ملاطفا:

«وما ضرك لو مُت قبلي فقمتُ عليك، وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك؟»

ردَّت وقد هاجت غيرتها:

«ليكن ذلك حظ غيري! والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعتَ الى

بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك»[1]

فأشرق وجهه ﷺ بابتسامة لطيفة، وسكن عنه الألم هونا ما، ثم قام يطوف بزوجاته، لكن الألم ما لبث أن عاوده واشتد عليه.

حتى إذا وصل في طوافه الى بيت «ميمونة» لم يعد يحتمل مغالبة ألمه، فنظر إلى زوجاته وقد اجتمعن حوله، ثم قال متسائلا:

«أين أنا غدا؟.. أين أنا بعد غد؟» استبطاءً ليوم عائشة فطابت نفوسهن بأن يمرض رسول الله حيث أحب، وقلن جميعا:

«يا رسول الله، قد وهبنا أيامنا لعائشة»[2]

قال عليه الصلاة والسلام:

«مُرُوا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناس».

وانتقل إلى بيت الحبيبة، فسهرت عليه تمرضه وبودها لو تفتديه بالروح، وحانت لحظة الرحيل، ورأسه ﷺ في حجرها...

قالت عائشة تصف اللحظة الرهيبة:

«وجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر الى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول:

«بل الرفيق الأعلى من الجنة...».

قلت: خُيِّرتَ فاخترت والذي بعثك بالحق.

---

(١) السمط الثمين: ٥٥ والسيرة: ٢٩٢/٤ - وتاريخ الطبري: ١٩١/٣.

(٢) صحيح مسلم: ح (٢٤٤٣)، السيرة ٢٩٢/٤ والسمط الثمين: ٥٥. وفي تاريخ الطبري أنه ﷺ استأذن نساءه ان يمرض في بيت عائشة، فاذن له «١٩١/٣»

وقُبض رسول الله بين سحري ونحري ... فمن سفهي وحداثة سني انه ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي»[1]

* * *

وكادت تكون فتنة، عصم الله المسلمين منها حين ألهم «أبا بكر» أن يقف في المسلمين فيقول:

* أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت...

ثم يتلو فيهم قوله تعالى في كتابه المنزل على رسوله ﷺ:

«وما محمد إلا رسول قد خلتْ من قبله الرسل، أفئن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عَقِبيه فلن يضرَّ الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين».

آل عمران: ١٤٤

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها «أبو بكر» يومئذ![2]

ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ في بيت «عائشة».

وتولى أبوها الصديق الخلافة من بعده...

* * *

---

(١) تاريخ الطبري: ١٦٧/٣ والنقل منه - ونحوه في صحيح مسلم، كتاب الفضائل: ح (٢٤٤٤).

(٢) صحيح البخاري، مناقب أبي بكر (٢٠١/٢).

وعاشت «عائشة» لتكون المرجع الأول في الحديث والسنة، والفقيهة الأولى في الإسلام.

قال الامام «الزهري»: لو جمع علم عائشة، الى علم جميع أزواج النبي ﷺ، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل (١).

وقال هشام بن عروة عن أبيه: «ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة» (٢)

عاشت لتصحح رأي الناس في المرأة العربية، وتشارك في حياة الإسلام أعنف مشاركة، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التي صنعت التاريخ الإسلامي منذ مقتل «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، وتقود الجيوش لمحاربة «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه يوم الجمل.

ثم توفيت رضي الله عنها في السادسة والستين من عمرها، بعد أن تركت أعمق الآثار في الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ منها ألفان ومائة وعشرة أحاديث، في الكتب الستة.

وكانت وفاتها - على الأرجح - ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين (٣)، وصلى عليها «أبو هريرة» ثم شيعت جنازتها في غسق الليل إلى البقيع -كما أوصت- على أضواء مشاعل من جريد مغموس في الزيت، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة، فلم تُرَ ليلةٌ أكثرَ ناسا منها.

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين، وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة

(١، ٢) الاستيعاب: ١٨٨٣/٤، والإصابة ١٤٠/٨.

(٣) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٥٨ هـ - والسمط الثمين ص ٨٢ - والاستيعاب: ١٨٨٥/٤.

وتنافس ، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذي احتدم أعواما في ذلك الكيان الرقيق اللطيف .

وفي (صحيح البخاري) أن عائشة رضي الله تعالى عنها أوصت عبد الله بن الزبير - ابن أختها أسماء - أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع [١] .

ونزل معها الى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن ، وكلهم من رواة الحديث عنها [٢] .

ونامت أخيرا ، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها ، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت في السادسة من عمرها ، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التي عاشتها ملء الحياة ، من الشهر المبارك ، شوال ، الذي شرفت فيه بالزواج من خير البشر، خاتم النبيين عليهم وعليها السلام...

(١) وانظر وصف قبرها وموضعه ، في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودي : ٣/٩١٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ، والاستيعاب ، والإصابة ، وتهذيب التهذيب : في ترجمتها رضي الله عنها .

(٤)

حفصة بنت عمر رضي الله عنها

حافظة المصحف الشريف

«... يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب الرسول ﷺ إياها. والله لقد علمتِ أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقك»

عمر بن الخطاب

في (الصحيحين)

الأرملة الشابة

لم يشهد «بدرا» من بني سهم غير رجل واحد، هو[1] الصحابي الجليل «خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي القرشي»، وكان من أصحاب الهجرتين، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها، ثم إلى المدينة. وقد شهد «أحدا» كذلك، ثم مات بعدها في دار الهجرة، من جراحة أصابته في «أحد» وترك من ورائه أرملته «حفصة بنت عمر بن الخطاب».

وتألم «عمر» لابنته الشابة التي ترملت في الثامنة عشرة من عمرها.

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها ويخنق صباها وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته في حزنها، فبدا له - بعد تفكير طويل - أن يختار لها زوجا، قد تأنس الى صحبته فتسترد بعض الذي أضاعت في حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد...

ووقع اختياره على «أبي بكر بن قحافة» صفي الرسول وصهره، وصاحبه الصديق.

وارتاح للفكرة، فان أبا بكر في رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه، كفيل بأن يحتمل «حفصة» بما ورثت عن أبيها من شدة الغيرة وصرامة الخلق، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر.

وأرضاه أن يصهر الى أحب رجل الى رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر السيرة لابن هشام: ٦/٣، ٣٤١ وتاريخ الطبري: ١٧٧/٣ - وترجمة خنيس في: طبقات ابن سعد، والاستيعاب، والإصابة. ومعها: وفاء الوفا: ٩٠٠/٣.

وتحرف اسم خنيس في طبعة الشرفية بالقاهرة ١٣٢٥، في ترجمة حفصة، بحصن. وانظره في نسب بني سهم في جمهرة الأنساب ١٥٦، والمحبر لابن حبيب ٨٣، ونسب قريش ٤٠٢.

ولم يتردد عمر، بل سعى من فوره إلى أبي بكر، فحدثه عن «حفصة» والصديق يصغي في عطف ومواساة.

ثم عرض عليه أن يتزوجها، وفي يقينه أن «أبا بكر» سيرحب بالشابة التقية، ابنة الرجل الذي أعز الله الإسلام به.

لكن «أبا بكر» أمسك لا يجيب!..

وانصرف «عمر» واجدا، لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض «حفصة» بعد أن عرضها أبوها عليه.

وسارت به قدماه إلى بيت «عثمان بن عفان» وكانت زوجته السيدة «رقية بنت محمد» ﷺ قد مرضت بالحصبة - بعد عودتها من الحبشة - والمسلمون يلقون عدوهم في بدر، ثم ماتت بعد أن تم النصر للمؤمنين (١)

وتحدث عمر إلى عثمان، فعرض عليه «حفصة» وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبي بكر، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه، فلعل الله قد اختار لحفصة «عثمان» وهو تعالى، يعلم أي الرجلين أصلح للأرملة الشابة.

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما، جاءه بعدها فقال:

«ما أريد أن أتزوج اليوم!» (٢)

فكاد «عمر» يتميز غيظا من قسوة الموقف، ثم ثار به الغضب، فانطلق الى الرسول يشكو صاحبيه...

أمثِلُ حفصة - في شبابها وتقواها وشرفها - تُرفَض؟

---

(١) انظر حديث السيدة رقية رضي الله عنها في كتابنا «بنات النبي» ﷺ.

(٢) هذه رواية الاستيعاب «١٨١١/٤» والإصابة ٥١/٨، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ومعها رواية في السمط الثمين ٨٣، أن عمر عرض حفصة على عثمان، ثم على أبي بكر. رضي الله عنهم.

وممن؟ من أبي بكر وعثمان، صاحبي الرسول ﷺ وصهريه، وأولى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا؟

واستأذن «عمر» على النبي ﷺ، وما يملك نفسه من غضب وقهر، فتلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا، وأقبل عليه يسأله في عطف ومودة عما يؤلمه...

ونفض «عمر» لدى النبي الكريم ما يرهقه ويقهره، وكشف له عما كان من «أبي بكر بن أبي قحافة، وعثمان بن عفان»...

فتبسم ﷺ وقال:

«يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمانُ من هي خير من حفصة» (١)

وردَّد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؟»

وأشرقت في خاطره لمحة مضيئة. أيتزوج النبي ﷺ، ابنته حفصة؟

ذاك والله شرف لم تتطاول إليه أمانيه.

ونهض إلى الرسول يصافحه متهللاً، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض.

وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته، وإلى أبي بكر وعثمان، وإلى المدينة كلها، بشرى الخطبة المباركة.

وكان أبو بكر أول من لقيه، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته، فمد يده مهنئاً معتذراً يقول:

«لا تَجِدْ عليَّ يا عمر، فان رسول الله ﷺ، ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها» (٢)

(١، ٢) السمط الثمين ٨٣ - والاستيعاب: ١٨١١/٤، والإصابة ٥١/٨ وعيون الأثر ٣٠٢/٢

ومضى كلاهما إلى ابنته :

أبو بكر ليهون على «عائشة» من وقع الخبر.

وعمر ليبشر «حفصة» بأكرم زوج.

وباركت المدينة يد النبي ﷺ وهي تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة.

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من «أم كلثوم بنت محمد» في جمادى الآخرة، من السنة الثالثة للهجرة.

وتهيأ بيت النبي لاستقبال «حفصة» التي تزوجها الرسول في شهر شعبان، من تلك السنة على الأرجح [1]

---

(١) تاريخ الطبري : ٩/٣، الاستيعاب، الإصابة، وفاء الوفا للسمهودي : ٩٠٠/٣.

السِرّ المُذاع

جاءت العروس ، وفي البيت «سودة» و«عائشة» .

أما «سودة» فرحبت بها راضية ، وأما «عائشة» فغاظها أن يأتيها زوجها بضرة ، وما فعل ذلك قط مع «خديجة» .

وضايقها ألا تجد في «حفصة» مغمزا ، فهي مَنْ هي ، شبابا وتقى ، وعزة نسب . . .

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها ، بشبابها الغض وأبيها الصاحب الأول أحد العشرة ، وحظ «حفصة» من هذين ، ليس بالذي ينكر أو يجحد .

و«عائشة» كانت تضيق بيوم «سودة» التي ما اكترثت لها عائشة كثيراً ، فكيف يكون موقفها حين يبيت زوجها عند حفصة؟

واحتارت ماذا تفعل ، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضي عمر ويباركه الإسلام والمسلمون .

وسكتت على مضض وغيرة ، إلى أن وفدت على بيت النبي أزواج جديدات ، فتناست «عائشة» ما كانت تجد من «حفصة» ، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها اليها ، وأجدرهن بأن تقف معها في وجه الخطر المشترك .

وأدركت حفصة ، أنها اذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هي «عائشة» وقد سبقتها إلى بيت النبي ﷺ ، وإلى قلبه .

وربما جرح شعورها أن تعرف حب الرسول لعائشة ، لكنها حين تتابعت الضرائر ، وقفت دون تردد ، الى جانب بنت أبي بكر.

وكان «عمر» يرقب موقفها في قلق مبهم ، فيريبه هذا التقارب – غير الطبيعي – بين ابنته وبين بنت أبي بكر ، فلما استبان له ما وراء تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها من قلبه . فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية المدللة ، ويردها عن جموحها بمثل قوله :

«أين أنتِ من عائشة ، وأين أبوك من أبيها ؟»

وسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان ، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقا ؟ أجابت بأنه حق فصاح يزجرها :

– تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية ، لا يغرنَّك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها ، والله لقد علمتِ أن رسول الله ﷺ لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! »

ويمضي عن «حفصة» وفي حسابه أنه قد ردها الى ما يبغي لها من خضوع ومجاملة ، لكنها كانت معتدة بذاتها مدلَّة بشخصيتها ، لا ترى في منزلة عائشة أو سواها ما يجور على مكانتها ، أو ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس في طبعها . بل تركت نفسها على سجيتها ، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها ، عليه الصلاة والسلام ، حين يبدو له من الأمر ما لا يرضيها ، وربما سمعت منه حديثا فردت عليه غير متهيبة إذا بدا لها وجه آخر فيما يقول . روى «ابن سعد» في حديث الحديبية وبيعة الرضوان ، أن الرسول ﷺ ذكر عند حفصة أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال : «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها» قالت حفصة : «بلى يا رسول الله ! » فانتهرها فتلت الآية : «وإنْ منكم إلا واردها كان على ربك حتما

غضيا». فقال النبي ﷺ، قال الله: «ثم ننجي الذين اتقوا وَنَذَرُ الظالمين فيها جثيا»(١).

ولعل إباءها هو الذي فرض عليها أن تداري غيرتها من «عائشة» وتحاول أن تلتمس في صحبة هذه الشابة المرحة، ومشاركتها في معاركها الصغيرة ومؤامراتها الذكية، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوي...

ويرخي لها النبي ﷺ ما استطاع، ويشفع لها عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته، وبنوتها لأعز صاحبين.

حتى خلا يوما بمارية في بيت «حفصة» فعاد جرحها يقطر دما، وتمثل لها أبوها يقول:

«والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولاي لطلقك!»

فلما انصرفت «مارية» دخلت «حفصة» حجرتها وقالت للمصطفى: «لقد رأيتُ من كان عندك، والله لقد سببتني، وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك!»

ثم استعبرت باكية...

ووقعت كلمتها من الرسول موقعا أليما، فما كان ليهين بنت عمر، وقد تزوجها تكريما لصاحبه.

وأقبل عليها يترضاها بأن أسَرَّ إليها أن «مارية» حرام عليه. ثم أوصاها أن لا تحدث أحدا بما كان، ولتعتبره كأن لم يكن.

ورضيت «حفصة»...

وسعدت ليلتها بقرب الرسول وعطفه، حتى إذا مضى عنها الغداة ولمحت عائشة قريبة منها، لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوي من سر، فنبأت به صاحبتها التي انتهزت

(١) الطبقات الكبرى: ٧٣/٢ ط ليدن – والآيتان من سورة مريم: ٧١، ٧٢.

الفرصة السانحة، لتنال من غريمتها «الأمة القبطية».

ولم تقدر «حفصة» وهي تذيع السر لعائشة، عواقب هذا الإفشاء.

فهذا الحديث عن تحريمه ﷺ «مارية» على نفسه، وإفشاء حفصة السر إلى عائشة وتظاهرهما على النبي ﷺ، هو المتداول في كتب الفقه، في سبب نزول سورة التحريم [١].

وهو متداول أيضا في كتب التفسير. [٢]

على أن في الصحيحين، أن آيات التحريم نزلت في تحريمه ﷺ شرب العسل على نفسه، لما قالت له عائشة ومن معها: «أكلت مغافير؟» [٣]

والذي يعنينا هنا، هو ما يتصل بحفصة وأبيها «عمر» فقد كانت هي التي نبأت بالسر الذي أوصاها الرسول ﷺ أن تكتمه، فأشعلت النار من حيث لا تدري ولا تقدر.

فيقال إنه طلق «حفصة» فعلا، وهو خبر يرويه «ابن حجر» من طرق شتى، اتفقت على أن الرسول طلق حفصة تطليقة واحدة، ثم ارتجعها...

وفي هذا الارتجاع تختلف الروايات، فتذهب رواية الى أن ذلك كان رحمة بعمر الذي حثا التراب على رأسه وقال: «ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها». فنزل جبريل من الغد على النبي ﷺ فقال: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر».

وفي رواية أخرى، إن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال له:

«أرجع حفصة فانها صوامة قوامة، وانها زوجتك في الجنة» [٤].

---

(١) عن القاضي عياض، في شرح صحيح مسلم على هامش: ١١٠٠/٢.

(٢) تفسير الطبري، وكشاف الزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان: سورة التحريم.

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: ١٢٦/٢.

(٤) الاصابة: ٥٢/٨ – وانظر معه الاستيعاب: ١٨١٢/٤ وعيون الأثر ٤٠٢/٢ والسمط ٨٥.

والراجح أن هذا الطلاق الرجعي قد كان قبل أن تستفحل ثورة «عائشة» ومن معها من نساء النبي، فلما اعتزلهن الرسول، كان من الطبيعي أن يكون إحساس «حفصة» بالندم أوفر من إحساس أمهات المؤمنين الأخريات، وشعورها بالخطأ أفدح من شعورهن. فما كان لها – وهي التقية العابدة، بنت عمر بن الخطاب – أن تذيع سرا ائتمنها عليه الرسول ﷺ، وأن تخلف ما وعدت به من كتمان، ولا كان لها أن تلقى ترضيته لها، وإكرامه اياها، بمثل ذاك الجحود والنكران.

وفي الإصابة:

«دخل عمر على ابنته وهي تبكي فقال:

– لعل رسول الله قد طلقك؟ إنه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا».

وفي حديث عمر إلى ابن عباس، بالصحيحين، أنه خرج إلى المسجد فألفى المسلمين هناك ينكتون الحصا مطرقين ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه.

ولم يكن أحد قبيل ذلك قد جرؤ على أن يكلم الرسول فيهن منذ اعتزلهن. لكن «عمر» – وابنته هي السبب – لم يطق على ذلك صبرا، بل قصد إلى المشربة التي اعتزل فيها النبي ﷺ، وغلامه «رباح» قائم على عتبتها، فاستأذن عمر في الدخول على الرسول، وكرر النداء، و«رباح» لا يجيب.

هنالك رفع «عمر» صوته وقال في ضراعة:

«يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظنه ظن أني جئت من أجل حفصة... والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها».

وبلغ صوته سمع الرسول فتأثر، وأذن له فدخل، وأجال بصره في الخزانة وبكى... فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«ما يبكيك يا ابن الخطاب؟»

فأشار «عمر» الى الحصير الذي كان الرسول مضطجعا عليه وقد أثر في جنبه ، وإلى قبضة من شعير ومثلها من قرظ ، كانتا كل ما بالخزانة من طعام.

ثم أمسك عبرته وقال : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء؟ ان كنتَ طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ...

فابتسم له الرسول ، ورد اليه طمأنينته ، فما طلق نساءه وإنما هجرهن شهرا ...

ورُدَّت الروح إلى «عمر» ، فاستأذن ونزل إلى المسجد.

فبشر المسلمين : «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه».

* * *

وخرج النبي عليه الصلاة والسلام فتلا فيهم قوله تعالى :

«يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ◦ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ◦ وإذْ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبّأها به قالت : من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير ◦ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ◦ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ◦ عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتات تائبات عابدات سائحات ، ثيباتٍ وأبكارا».

صدق الله العظيم — التحريم ١ – ٥

الوديعة الغالية

وعت نساء النبي هذا الدرس ، وثابت «حفصة» إلى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما.

ولا نعرف أنها من ذلك الحين ، قد اشتركت في مؤامرة نسوية ببيت الرسول ، أو تسببت له فيما يكره ما عاش ، فلما انتقل ﷺ إلى جوار ربه الأعلى كانت «حفصة» هي التي اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا – وفيهن عائشة – لتحفظ النسخة الخطية للقرآن الكريم.

ذلك ان «عمر» أشار على «أبي بكر: الخليفة الأول» أن يبادر فيجمع ما تفرق من القرآن الكريم في صحف شتى ، قبل أن يبعد العهد بنزوله ، ويمضي حفظته الأولون ، وقد استشهد منهم مئات في حروب الردة.

فاستجاب «أبو بكر» ، وجمع المصحف الكريم وأودعه عند أم المؤمنين «حفصة بنت عمر».

* * *

في أواخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة للهجرة ، توفي أبو بكر الصديق ، أول الخلفاء الراشدين. وتولى الخلافة من بعده ، بعهدٍ منه ، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وشهدت حفصة أمجاد أبيها ومآثره ، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده...

إلى أن روعت وروع المسلمون كافة ، بالمقتل الفاجع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بطعنات من خنجر أبي لؤلؤة المجوسي ، في ليالي المحاق من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة.

وترك أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى من كبار الصحابة، فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وفي عهده تم توحيد حرف المصحف ورسمه، من المصحف المجموع المودع لدى أم المؤمنين حفصة. ونُسِخَت من المصحف العثماني الإمام، نُسخ وُزِّعت على الأمصار.

* * *

بعد مقتل ذي النورين عثمان رضي الله عنه، في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، بويع أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وكانت الفتنة الكبرى التي خرجت فيها السيدة عائشة مع الذين نقضوا البيعة، وحاربت معهم الإمام عليّ بن أبي طالب. وقد عزمت على السيدة حفصة في الخروج معها، فهمت بأن تستجيب لها، كالعهد بهما فيما مضى. لولا أن ردّها أخوها: «عبد الله بن عمر» عن الخروج في تلك الفتنة العمياء.

* * *

وأقامت بالمدينة عاكفة على العبادة قوامة صوامة، إلى أن توفيت في عهد معاوية ابن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية. وشيعتها المدينة إلى مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن (١).

وبقي لها مع ذكراها أمّاً للمؤمنين حافظة للمصحف الشريف، ما روت من الحديث عن النبي ﷺ، وعن أبيها عمر رضي الله عنهما. روى عنها أخوها عبد الله وابنه حمزة، في عدد من حفاظ التابعين...

---

(١) في سنة وفاتها خلاف، والراجح أنها توفيت سنة سبع وأربعين انظره في الطبقات والاستيعاب والإصابة، وفي عيون الأثر (٢/٣٠٢).

(٥)

زينبُ بنتُ خزيمة

أمّ المساكين

«وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم»

ابن إسحاق : في السيرة النبوية

لم يكن قد مضى على دخول «حفصة» البيت المحمدي غيرُ وقت قصير، حين دخلته أرملة شهيد قرشي من المهاجرين الأولين، رابعة أمهات المؤمنين: «زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، الهلالية»

ويبدو أن قصر مقامها ببيت الرسول ﷺ، قد صرف عنها كتّاب السيرة ومؤرخي عصر المبعث، فلم يصل الينا من أخبارها سوى بضع روايات لا تسلم من تناقض واختلاف.

لم يختلفوا في نسبها من جهة أبيها، كما صرح ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب، بعد سياق نسبها. وهو ما أجمعت عليه مصادرنا لترجمتها أو نسبها (١).

وأما من جهة أمها، فأغفلته جمهرة هذه المصادر. ونقل ابن عبد البر فيها قول أبي الحسن الجرجاني النسابة: «وكانت زينب بنت خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث – أم المؤمنين – لأمها» قال ابن عبد البر: «ولم أر ذلك لغيره، والله أعلم». وحكاه ابن سيد الناس عن ابن عبد البر، ولم يعقب عليه.

وأقول: بل ذكره كذلك، النسابة «أبو جعفر ابن حبيب» في مبحث (أسلاف رسول الله ﷺ) من قِبَل ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية. أمها: «هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة، الحميرية» وأخوات ميمونة لأبيها وأمها: أم الفضل لبابة الكبرى أم بني العباس بن عبد المطلب، ولبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وعزة بنت الحارث... واختهن لأمهن: زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية. وأسماء بنت عميس زوج الشهيد الطيار جعفر بن أبي طالب، خلف عليها أبو بكر الصديق ثم علي بن أبي طالب، وسلامة بنت عميس زوج عبد الله بن كعب...

---

(١) الطبقات الكبرى، ونساء الاستيعاب والإصابة. والسيرة الهشامية ٢٩٧/٤، وتاريخ الطبري ١٧٩/٣، والمحبر لابن حبيب ٨٣، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٢، والسمط الثمين ١١٢، وعيون الأثر ٣٠٢/٢.

«ولا يُعلم امرأة في العرب كانت أشرف أصهارا من هند بنت عوف، أم ميمونة وأخواتها». [1]

واختلفوا فيمن كانت عنده قبل النبي ﷺ، والراجح - والله أعلم - أنها: كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، فخلفه عليها أخوه عبيدة بن الحارث، استشهد رضي الله عنه في بدر، فخلفه عليها النبي ﷺ.

وهي رواية ابن حبيب في المحبر، والجرجاني النسابة - حكاه ابن عبد البر - وابن سيد الناس في عيون الأثر، والمحب الطبري في السمط، وأحد الأقوال في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة.

وقيل: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فخلف عليها النبي ﷺ. حكاه الطبري وابن عبد البر عن قتادة.

وفي السيرة الهشامية أنها كانت عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وكانت قبله عند جهم بن عمرو بن الحارث الهلالي، وهو ابن عمها.

وفي قول رابع انها كانت عند عبد الله بن جحش فاستشهد في أحد، فخلف عليها النبي ﷺ. حكاه ابن عبد البر - عن الزهري - وابن حجر في الإصابة:

ففي «الاصابة» انه عبد الله بن جحش، وقد استشهد «بأحد».

وعن «ابن الكلبي»: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فخلفه عليها اخوه فقتل عنها ببدر، فخطبها رسول الله ﷺ.

وفي الطبري:

«وفي هذه السنة - الرابعة - تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بني هلال، في شهر رمضان... وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها».

---

(١) المحبر: ١٠٥ - ١٠٩ ومعه الإصابة: ٨/٩٥.

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من النبي ﷺ.

في الإصابة عن «ابن الكلبي» ان رسول الله ﷺ خطبها إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها...

وقال ابن هشام في السيرة:

«زوَّجه إياها عمها: قبيصة بن عمرو الهلالي، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم».

واختلفوا رابعة في المدة التي أقامتها ببيت النبي:

ففي الاصابة رواية تقول: «كان دخوله ﷺ بها، بعد دخوله على حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت».

ورواية أخرى عن ابن الكلبي:

«فتزوجها في شهر رمضان سنة ثلاث، فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت في ربيع الآخر سة أربع».

وفي شذرات الذهب:

«وفيها – يعني السنة الثالثة – دخل بزينب بنت خزيمة العامرية، أم المساكين، وعاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت».

وكذلك اضطربت فيها نقول المحدَثين: ذكرها الدكتور هيكل باسم «زينب بنت مخزوم» في قضية زواج زينب بنت جحش. وجزم بأنها «قد كانت زوجا لعبيدة بن المطلب الذي استشهد يوم بدر، فلم تلبث إلا سنة أو سنتين (؟!) كما جزم بأنها «لم تكن ذات جمال» [1] ومبلغ علمي أنه ما من مصدر مما وقفت عليه، تعلق بوصف شكلها وصورتها.

---

(١) حياة محمد: ٢٨٨، ٢٩١.

وقال بودلي : «... تبع زواج محمد من حفصة زواجٌ آخر ، وكان زواجا شكليا أكثر من أي شيء آخر. كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث - ابن عم لمحمد سقط في بدر - وكان اسمها زينب بنت خزيمة ، وما ضمها محمد الى نسائه الا بدافع الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدا ، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر» [1] .

ولم يطل بها المقام في بيت النبي ﷺ ، ليقال إن زواجها كان شكليا بدافع الشفقة .

* * *

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتَّاب السيرة في أمر زينب بنت خزيمة ، فقد أجمعوا على وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء ، ولا يكاد اسمها يذكر في أي كتاب مما ذكرنا إلا مقرونا بلقبها الكريم : أم المساكين.

في السيرة الهشامية :

«وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ورقتها عليهم» [2] .

وفي الاستيعاب والإصابة :

«وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم» .

ومثله في تاريخ الطبري [3] وشذرات الذهب [4] .

ولا بد لي من أن أشير هنا إلى مقال كتبه فضيلة الأستاذ «الشيخ محمد المدني» في مجلة الرسالة - عدد ١١٠٣ تاريخ ٩٦٥/٣/٤ - فيه ما نصه :

---

(١) الرسول : ١٧٦ من الترجمة العربية.

(٢) السيرة : ٢٩٦/٤.

(٣) ٣٣/٣.

(٤) ١٠/١.

«وكانت زينب بنت جحش رضي الله عنها هي أجودهن – يعني أزواج النبي – وأبرهن باليتامى والمساكين... حتى كانت تعرف بأم المساكين».

ولست أدري من أين جاء فضيلته بهذا اللقب للسيدة زينب بنت جحش، فكل مصادرنا عن السيرة وطبقات الصحابة وكتب التاريخ الاسلامي الأولى، تجمع على أن لقب أم المساكين إنما كان للسيدة «زينب بنت خزيمة»!

* * *

والراجح أنها ماتت في الثلاثين من عمرها كما ذكر «الواقدي» ونقل «ابن حجر» في الاصابة، ولم أقف على خبر عنها في حياتها الزوجية القصيرة، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبي ﷺ وأمومة المؤمنين، منصرفة عن شواغل الحريم، بما كان يشغلها من أمر المساكين، قانعة بحظها من تقدير النبي ﷺ، والمؤمنين، لا يرهقها طمع ولا تنهكها غيرة...

ورقدت في سلام، كما عاشت في سلام. وصلى عليها النبي عليه الصلاة والسلام، ودفنها بالبقيع فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

ولم يمت منهن في حياته ﷺ، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى – ومدفنها بالحجون في مكة – والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية، أم المؤمنين وأم المساكين.

* * *

(٦)

أم سلمة رضي الله عنها

بنت زاد الركب

«لما تزوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت أضعاف ما وصفت به»

عائشة بنت أبي بكر

(طبقات ابن سعد)

العِزّة والجمال

خلا بيت «أم المساكين» في دور النبي ﷺ ، وقتا غير قصير، ثم جاءت «أم سلمة» فشغلته.

قالت، فيما روى ابن سعد في (طبقاته):

«... فتزوجني، فنقلني إلى بيت زينب بنت خزيمة، أم المساكين».

واسمها: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: القرشية المخزومية (١)

وأحدث دخولها ضجة في دور النبي ﷺ وأشاع قلقا في الزوجتين الشابتين، «عائشة وحفصة، ابنتي أبي بكر وعمر».

إنها ضرة جديدة عزيزة، عريقة المنبت، ذات جمال وإباء وفطنة، تزفها إلى بيت النبي ﷺ أمجاد طوال عراض.

أبوها: أحد أبناء قريش المعدودين، وأجوادهم المشهورين، وقد ذهب على الدهر بلقب «زاد الركب» أن كان إذا سافر لا يترك أحدا يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقته من الزاد.

وأمها: عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة الكنانية، من بني فراس الأمجاد. وكان جدها علقمة، يلقب بجذل الطعان.

وزوجها الذي مات عنها: أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد

---

(١) السيرة ١/٣٤٥، ٤/٢٩٤، تاريخ الطبري ٣/١٧٧، ونسب قريش ٢١٦، المحبر ٨٣، الاستيعاب ٤/١٩٣٩، السمط الثمين (٨٦)، الإصابة ٨/٢٤٠، عيون الأثر (٢/٨٦).

الله بن عمر بن مخزوم ، الصحابي ذو الهجرتين ، ابن عمة المصطفى : برة بنت عبد المطلب بن هاشم ، وأخوه ، ﷺ ، من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة ، مولاة أبي لهب [1] .

وكان لأبي سلمة ، ولزوجه هند ، إلى جانب هذا النسب العريق ، ماض مجيد في الإسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا مع العشرة الأولين إلى الحبشة ، حيث ولدت هند هناك ابنهما «سلمة» [2] .

ثم قدما مكة ، بعد تمزيق صحيفة المقاطعة ، وقد ضري اضطهاد قريش للمسلمين. فلما أذِنَ النبي ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى ، أجمع «أبو سلمة» أمره على الهجرة بأهله ، فكانت قصة خروجها مأساة ما تزال - على بعد العهد بها وتطاول الآماد - عنيفة الاثارة أليمة الوقع .

حدثت «أم سلمة» رضي الله عنها ، قالت : [3] .

«... لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة ، رحل بعيرا له وحملني وحمل معي ابني سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهووا الى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجي :

- والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسني بنو المغيرة عندهم .

---

(١) السيرة : ١٠٢/٣ والاستيعاب (٦٣٩ ، ١٦٨٢) وانظر معها : جمهرة انساب العرب (١٣٤) ونسب قريش (٣٣٧) .

(٢) السيرة ٣٤٥/١

(٣) ابن إسحاق : السيرة ١١٢/٢ ، والسمط الثمين ٨٧ ، مع ترجمتها في الاستيعاب والإصابة .

ومضى زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة. وفُرِّق بيني وبين زوجي وابني، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أُمسي، سنةً أو قريبا منها.

حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها!

وما زال بهم حتى قالوا:

– الحقي بزوجك ان شئت.

وردَّ عليَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني، فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله...

حتى اذا كنت بالتنعيم – على فرسخين من مكة – لقيت عثمان ابن طلحة [١] فقال: أين يا بنت أبي أمية؟

قلت: أريد زوجي بالمدينة.

فقال: هل معك أحد؟

فقلت: لا والله، الا الله وابني هذا.

فقال: والله ما لك من مَتْرَك.

وأخذ بخطام البعير فانطلق معي يقودني، فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه. اذا نزل المنزل أناخ بي ثم تنحى الى شجرة فاضطجع تحتها، فاذا دنا الرواح قام الى بعيري فقدمه ورحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي.

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره، وإنما أسلم في هدنة الحديبية، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد. فلما فتحت مكة، دفع النبي ﷺ مفاتيح الكعبة الى عثمان بن طلحة والى ابن عمه شيبة بن عثمان ابن أبي طلحة، وقتل عثمان شهيدا بأجنادين في خلافة عمر رضي الله عنهما. وانظر ترجمته في الطبقات، والاصابة، والاستيعاب.

فإذا ركبت واستويت على بعيري ، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمر بن عوف بقباء - وكان بها منزل أبي سلمة في مهاجره - قال :

إن زوجك في هذه القرية ، فادخليها على بركة الله .

ثم انصرف راجعا الى مكة» .

فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة ، كما كانت من المهاجرين الأولين الى الحبشة .

وكذلك كان زوجها أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ، أول من هاجر الى يثرب من أصحاب رسول الله ﷺ (١) .

وفي المدينة ، عكفت على تربية صغارها ، وتفرغ زوجها للجهاد .

ولما خرج الرسول في غزوة ذي العشيرة - في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة ، وهي الغزوة التي وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة - اختار من بين أصحابه أبا سلمة ، فاستعمله على المدينة (٢) .

وشهد غزوة «بدر» الكبرى ، فكان أحد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، تمَّ بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين ، في أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد ... ثم شهد يوم أحد ، وأبلى فيه بلاء مشهودا . ورُميَ بسهم في عضده مكث يداويه حتى ظن أنه التأم .

فلما أرجف المرجفون لمحمد بالاسلام بعد «أحد» وبلغ النبي ﷺ بعد شهرين اثنين من المعركة ، أن بني أسد يدعون إلى مهاجمته في دار هجرته ، دعا اليه «أبا سلمة» فعقد له لواء سرية إلى قطن ، وهو جبل بناحية فيد - ماء لبني أسد بن

(١) السيرة ٣٤٤/٢ وطبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ١١٥١١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢ ط ليدن والسيرة ٢٤٨/٢ ، وعيون الأثر ٢٢٦/١ .

خزيمة – ومعه مائة وخمسون رجلا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص . . .

ونفذ «أبو سلمة» ما أمر به النبي ﷺ من أخذ العدو على غرة ، فأحاط بهم في عماية الصبح على غير أهبة منهم لنضال ، وقاد معركة ظافرة ، ثم رجع وصحبه إلى المدينة سالمين غانمين ، قد أعادوا بعض ما ضيعت «أحد» من هيبة المسلمين (١) .

في هذه السرية ، انتكأ الجرح الذي أصاب أبا سلمة يوم أحد ، فظل به حتى مات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع .

وحضره النبي وهو على فراش موته ، وبقي إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبر عليه تسع تكبيرات .

قيل له : يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت؟ فقال :

«لم أسه ولم أنس ، ولو كبَّرتُ على أبي سلمة ألفا ، كان أهلا لذاك» (٢) .

* * *

قال ابن عبد البر، (٣) إن أبا سلمة «قال عند وفاته : اللهم أخلفني في أهلي بخير. فأخلفه رسول الله ﷺ على زوجته أم سلمة فصارت أمّاً للمؤمنين ، وعلى بنيه : سلمة وعمر وزينب» ودرّة .

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة «أم سلمة» فتقدم إليها منهم «أبو بكر الصديق» خاطبا ، فرفضت في رفق .

وتلاه «عمر بن الخطاب» فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣٥/٢ ، عيون الأثر ٣٨/٢ .

(٢) تاريخ الطبري : ١٧٧/٢ .

(٣) الاستيعاب ، ترجمة أبي سلمة : «عبد الله بن عبد الأسد المخزومي» .

ومن بعدهما، بعث إليها النبي ﷺ يخطبها، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم، لكنها أشفقت – وقد جاوزت سن الشباب، ومعها عيال لها صغار – ألا تملأ مكانها في بيت النبي، الى جانب عائشة وحفصة.

وأرسلت إلى النبي ﷺ تعتذر، وتقول: إنها غيرى، مُسِنَّة... ذات عيال...

فقال عليه الصلاة والسلام:

«أما أنك مسنة، فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأما العيال فإلى الله ورسوله»[1].

* * *

وتم الزواج في شهره المبارك «شوال من السنة الرابعة على الصحيح»[2].

وتكلفت «عائشة وحفصة» ما أطاقتا من شجاعة، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشيء من المجاملة، لكن «عائشة» لم تطق صبرا على هذا التكلف، فكشفت لحفصة عما تطوي من ألم وغيرة. في طبقات ابن سعد عن الواقدي، حديث عائشة رضي الله عنها:

«لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، حزنت حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها. فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وصفت به، فذكرت ذلك لحفصة فقالت:

«ما هي كما يقال»... وذكرتْ كبر سنها...

«فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة، ولكني كنت غيرَى».

وما من شك في أن «أم سلمة» قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة،

(١) السمط الثمين: ٨٩، والمحبر ٨٥، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ٢/٣٠٤.

(٢) الإصابة وعيون الأثر، خلافا لما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب «سنة اثنتين» ولا يصح.

الزوجة المفضلة، ولعلها - لذلك - قد رضيت أن تبعث بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة، كي تفرغ لواجباتها الزوجية (١).

وفي الصحيحين حديث أم سلمة رضي الله عنها، قالت:

قلت: يا رسول الله، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنيَّ. قال: نعم، لكِ أجرُ ما أنفقت عليهم» (٢).

* * *

وبدا واضحا أن «أم سلمة» تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على «عائشة» أو سواها المساس بكرامتها، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب.

وكذلك أبت على «عمر» أن يتكلم في مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن الرسول، وقالت له منكرة:

«عجبا لك يا ابن الخطاب، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟»

قال عمر: «فأخذتْني أخذا كسرتني به عن بعض ما كنت أجد» (٣).

وما قالت كلمتها هذه إلا وهي مدلة بمكانها عند النبي ﷺ وفي بيته، فقد كان ﷺ يعدها من أهله: حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضي الله عنهم، فضمها اليه، ثم قال: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. فبكت «أم سلمة» فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها في حنو: ما يبكيك؟... أجابت: يا رسول الله خصصتَهم، وتركتني وابنتي. قال: إنك وابنتك من أهل البيت (٤).

---

(١) السيرة ١٧١/٢، والسمط ٩٠، والإصابة.

(٢) اللؤلؤ والمرجان: ٢٣٤/١ ح (٥٨٥).

(٣) من حديث عمر رضي الله عنه، متفق عليه (اللؤلؤ: ٨٣٠/٢ ح ٩٤٤).

(٤) السمط الثمين: ٢٠.

وقد شبت زينب في رعاية الرسول «فكانت من أفقه نساء أهل زمانها» ويروى أنها «دخلت على النبي ﷺ وهو يغتسل فنضح في وجهها، فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت»[١].

وبلغ من اعزازه ﷺ ربيبه «سلمة» أن زوّجه «أُمامة بنت حمزة بن عبد المطلب» عمه الشهيد رضي الله عنه.

«ويقول أهل العلم بالنسب، إن سلمة هو الذي عقد الله، ﷺ، على أمّه أم سلمة. فلما زوجه أمامة بنت حمزة، أقبل ﷺ على أصحابه فقال: ترون كافأته؟»[٢].

وكذلك شب أخوه عمر وأخته دُرَّة، في كفالة النبي ﷺ ورعايته، فكانا مع سلمة وزينب، من ربائبه وأهل بيته رضوان الله عليهم.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر وابن حجر في ترجمة «زينب» بالاستيعاب والإصابة.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في ترجمة «سلمة» بالاستيعاب وانظر في طبقات الصحابة: عمر بن أبي سلمة، ودرة بنت أبي سلمة، ربيبي النبي ﷺ.

وحيٌ ... ومشورة

وكان الوحي ينزل على رسول الله في بيت «عائشة» فتباهي بذلك ضرائرها ، حتى جاءت «أم سلمة بنت زاد الركب» فكان مما أوحي إليه وهو عندها قوله تعالى ، في سورة التوبة :

«وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم» – ١٠٢ .

وفي سبب نزول الآية يروون أن النبي ﷺ ، لما غزا بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة ، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار ، قذف الله في قلوبهم الرعب فبعثوا الى رسول الله أن يرسل إليهم صاحبه «أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصاري» ليستشيروه في أمرهم . فأرسله إليهم ، فلما رأوه قام اليه الرجال ، وجهش اليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم .

وسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

فأجاب : «نعم ، انه الذبح» . وأشار بيده الى حلقه .

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف انه خان الله ورسوله .

وانطلق على وجهه ، فربط نفسه الى عمود من عمد المسجد ، وقال :

«لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت» .

قال ابن هشام :

«... أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع...

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: «أما أنه لو جاءني لاستغفرت له. فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» ثم روى ابن إسحاق بسنده، أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو في بيت أم سلمة، فقالت، وقد سمعته يضحك: قلتُ:

مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟

قال: «تِيبَ على أبي لبابة».

قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟

فقال: «بلى، إن شئتِ».

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

فثار الناس ليطلقوه، فأبى وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده.

فلما مر رسول الله ﷺ خارجا الى صلاة الصبح أطلقه (١).

* * *

وفي العام السادس للهجرة، صحبت «أم سلمة» النبي ﷺ في رحلته إلى «مكة» معتمرا، وهي الرحلة التي صدت فيها قريش «محمدا» وأتباعه عن دخول البلد الحرام، وتم عهد الحديبية.

---

(١) السيرة ٣/٢٤٧ - والنقل منها - وتاريخ الطبري. السنة الخامسة من الهجرة ٣/٥٤. وترجمة أبي لبابة بن عبد المنذر في الكُنى من الاستيعاب.

وكان «لأم سلمة» يومئذ دور جليل مذكور في تاريخ الإسلام.

ذلك أن الصحابة دخل عليهم أمر عظيم حين بلغهم نص العهد، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون. ويكفي أن نذكر من ذلك أنه حين تم الاتفاق على شروط الصلح ولم يبق إلا كتابته، وثب «عمر بن الخطاب» فأتى أبا بكر فسأله:

«أليس برسول الله؟

«أو لسنا بالمسلمين؟

«أو ليسوا بالمشركين؟

فيجيب أبو بكر في كل مرة: بلى.

قال عمر: «فعلام نعطى الدنية في ديننا؟»

فحذره أبو بكر ثم قال: «إني أشهد أنه رسول الله».

قال عمر: «وأنا أشهد أنه رسول الله».

ثم مضى «عمر» فأتى الرسول ﷺ، فسأله مثل ما سأل أبا بكر، حتى إذا بلغ قوله:

«فعلام نعطى الدنية في ديننا؟»

أجابه الرسول:

«أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني»(١).

واستفحل الأمر إلى حد منذر بخطر، حتى إن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا، فما قام منهم رجل، فعل ذلك ثلاث مرات وما منهم من

---

(١) السيرة ١٣١/٣، والنقل منها. والحديث متفق عليه، أخرجه الشيخان (اللؤلؤ والمرجان ٢٦٣/٢).

يستجيب. فدخل على زوجه «أم سلمة» فذكر لها ما لقي من الناس فقالت:

«يا نبي الله، أتحب ذلك؟.. اخرج ثم لاتكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك» وأصغى، ﷺ إلى مشورتها، فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر وحلق، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وندما.

وثاب المسلمون إلى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم، فأدركوا أي صلح خطير عقد النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه ما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه، فلقد دخل في دين الله بعد الحديبية، مثل من كان قبل ذلك وأكثر.

* * *

وكذلك صحبت «أم سلمة» النبي ﷺ في غزوة خيبر، وفي فتح مكة، وفي حصاره الطائف وغزو هوازن وثقيف، ثم في حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة.

ولا أعلم أنها ظاهرت السيدة عائشة على نساء النبي ﷺ، إلا ما كان من غيرتها من «مارية القبطية» حين حملت من سيد البشر، ولم تحمل منه أم سلمة وهي التي ولدت لابن عمته البنين والبنات.

فلما لطف الله بها، وبسائر أمهات المؤمنين بعد محنة اعتزال النبي ﷺ إياهن، ساد الهدوء الجو العام للبيت المحمدي. إلى أن مرض عليه الصلاة والسلام، واستبطأ يوم عائشة، فسمحت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين، عن طيب خاطر، بأن يُمرض حيث أحب، في بيت عائشة.

* * *

ألله مِن وَرَاءِ هَذِهِ الأمّة

ثم حاولت من بعده - ﷺ - أن تتجنب الخوض في الحياة العامة، إلى أن كانت الفتنة الكبرى فاندفعت تؤازر الإمام علياً، ابن عم الرسول، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسين.

وودت لو تخرج فتنصره، لكنها كرهت أن تبتلى وهي أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج، فجاءت «عليا» كرم الله وجهه وقدمت إليه ابنها عمر قائلة:

«يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله عز وجل، وأنك لا تقبله مني، لخرجت معك. وهذا ابني عمر، والله لهو أعز علي من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك» (١).

ثم مضت إلى «عائشة» فقالت لها في عنف وانكار:

«أي خروج هذا الذي تخرجين؟... الله من وراء هذه الأمة!.. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس، لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا قد ضربه عليَّ».

* * *

لكن «عائشة» مضت في طريقها لا تلوي على شيء...

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتُحنت، كما امتحن الاسلام وأمته، بمذبحة «كربلاء» ومصارع الامام الحسين وآل البيت، ﷺ، على الساحة المشئومة.

---

(١) شهد عمر بن أبي سلمة يوم الجمل مع الإمام علي. واستعمله على فارس والبحرين (الاستيعاب والإصابة).

«توفيت رضي الله عنها بعدما جاءها نعي الحسين بن علي رضي الله عنهما» على ما صح عند الحافظ ابن حجر، وحكاه في ترجمتها بالإصابة وتهذيب التهذيب عن أبي بكر ابن أبي خيثمة وابن حبان. وحكاه القاضي عياض عن ابن أبي خيثمة وابن عبد البر. وهو أيضاً ما أثبته ابن حبيب. خلافا لقول الواقدي بوفاتها سنة تسع وخمسين[1].

وصلى عليها «أبو هريرة» رضي الله عنه وشيع المسلمون إلى البقيع، أم سلمة بنت زاد الركب، آخر من مات من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

حديثها عن النبي ﷺ في الكتب الستة. وفيها كذلك ما روى ابنها سلمة وبنتها زينب، ربيبا النبي، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.[2]

---

(١) الإصابة. وتهذيب التهذيب (٤٥٦/١٢ : هند بنت أبي أمية المخزومية) وصحيح مسلم. هامش (٢٢٠٨/٤) مقابلا على الاستيعاب ١٩٢٨/٤.

(٢) تراجم: هند بنت أبي أمية. وعمر بن أبي سلمة وزينب بنت أبي سلمة. رضي الله عنهم في الإصابة وتهذيب التهذيب وخلاصة التذهيب.

(٧)

زينبُ بنتُ جحشٍ

أكرمُهنَّ وليّاً وسفيراً

«... يا رسول الله ، ما أنا كإحدى نسائك . ليست امرأة منهن إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها ، غيري... زوجنيك الله من السماء».

زينب بنت جحش
أم المؤمنين
(الإصابة)

شريفة ومولى

حين دخلت «أم سلمة» بيت النبي ، وتحدثت «عائشة» إلى «حفصة» عما تجد من لواذع الغيرة لما سمعت من جمال العروس ، لفتتها «حفصة» إلى أنها على جمالها كبيرة السن . ثم أوصتها أن تستبقي غيرتها لمن هي أولى .

وكأنما كانت «حفصة» تنطق بظهر الغيب ، فما مضى على زواج النبي ﷺ من «أم سلمة» غير عام أو بعض عام ، حتى دخلت بيت الرسول من هي أولى بغيرة عائشة :

«زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية» الشابة الشريفة الحسناء . سليلة بني أسد بن خزيمة المضري . وحفيدة عبد المطلب بن هاشم أمها «أميمة بنت عبد المطلب» عمة النبي ﷺ .

* * *

ولو كانت «زينب» قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للنبي ﷺ فحسب . لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من في بيته من أزواج . فكيف وقد كان زواجها بأمر الله تعالى . في القرآن الكريم .

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها مدينة الرسول مثل «زينب بنت جحش» . ذلك لما سبق هذا الزواج ، وأحاط به ، من ظروف خاصة . وما أثاره من شبهة حسمها الوحي .

---

(١) ترجمتها في : طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وتهذيب التهذيب . والمحبر لابن حبيب : ٨٥ . والسيرة الهشامية ٣٩٨/٤ . والسمط : ١٠٧ . وعيون الأثر ٣٠٤/٢ مع : نسب قريش ١٩ . وجمهرة الأنساب ١٨٠ .

ولبيان هذا لا بد من استطراد يسير، نرجع به إلى ما قبل المبعث، حين رجع «حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي» من تجارة له، ومعه رقيق، فيهم غلام في الثامنة يدعى زيدا.

وما كان «زيد» عبدا، بل هو «زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبي» من كلب بن وبرة القضاعي القحطاني. من بني زيد اللات، خرجت به أمه «سعدى بنت ثعلبة» لتزيره أهلها بني معن بن طيئ، فأصابته خيل من بني القين بن جسر، فباعوه بسوق من أسواق العرب، وكان حكيم بن حزام هو الذي اشتراه.

وجاءت «خديجة» - وهي يومئذ زوجة سيدنا محمد بن عبد الله - تزور ابن أخيها، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان، فأخذت «زيداً» ورآه سيدنا «محمد» فاستوهبه منها فوهبته له راضية [1].

وكان أبوه «حارثة بن شُراحيل» قد جزع عليه أشد الجزع، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه في مكة، فانطلق مع أخيه «كعب» حتى وقفا على محمد بن عبد الله، حيث وجداه في البيت العتيق، فقالا له:

«يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العاني وتطعمون الجائع، وقد جئتك في ابننا، فتحسن الينا في فدائه؟»

قال: «أو غير ذلك؟»

قالا: «ما هو؟».

أجاب: «أدعوه وأُخيِّره، فإن اختاركما فذاك، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً».

(١) هذه رواية السيرة: ٢٦٤/١ وتاريخ الطبري ٢١٥/٢ وترجمة زيد في الاستيعاب (٥٤٤/٢) ومعها رواية أخرى أن حكيم بن حزام اشتراه لعمته من سوق عكاظ بأربعمائة درهم، فلما تزوجها سيدنا محمد وهبته له فأعتقه وتبناه قبل المبعث. وقريب منه، ما في السمط الثمين (١٠٨).

هتفا معا : «قد زدتَ على النصفة».

ودُعيَ زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخيَّره سيدنا محمد : إن شاء ذهب معها ، وإذا أحب أقام معه.

فاختار سيده !

وتوسل إليه أبوه :

«يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك ، وبلدك ، وقومك ؟»

فتماسك «زيد» ليجيب :

«اني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذي افارقه أبدا».

فعند ذلك أخذ محمد بيده ، وقام به الى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا.

ودعي الغلام «زيد بن محمد».

وكان أول من أسلم ، بعد «علي بن أبي طالب».

وعندما آخى النبي ﷺ بين أصحابه المهاجرين ، كان زيد وحمزة بن عبد المطلب الهاشمي ، أخوين.

فلما بلغ «زيد» سن الزواج ، اختار له النبي عليه الصلاة والسلام بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب : «زينب بنت جحش».

وكرهت زينب ، وكره أخوها «عبد الله بن جحش» ، أن تزف الشريفة المضرية الى مولى من الموالي.

وفزعا إلى ابن خالها يسألانه ألا يلحق بهما مثل ذلك الضيم ، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موالٍ وان أعتقوا... وقالت زينب فيما قالت يومئذ : «لا أتزوجه أبدا...».

فحدثهما ﷺ عن مكان «زيد» منه ومن الإسلام، وعن أصله العربي الصريح، أباً وأماً. لكنهما – على حبهما للنبي عليه الصلاة والسلام وحرصهما على طاعته، كرها هذا الزواج، حتى نزل فيهما قوله تعالى:

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرةُ من أمرهم، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا»[١].

وتزوجت «زينب» زيدا... طاعةً لأمر الله ورسوله، والزاما بالمبدأ الإسلامي: لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى.

* * *

(١) سورة الاحزاب: آية ٣٦.

زواج بأمر السماء

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لها ، فما نسيت «زينب» قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق ، ولا أساغت لحظة أن تكون تحت مولى كهذا ، دخل بيت آلها رقيقا !

وقاسى «زيد» من صدها وابائها وترفعها ما استنفد صبره ، فشكا إلى النبي ﷺ غير مرة ، ما يجد من سوء معاملة زينب ، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال ، ويأمره أن «أمسك عليك زوجك واتق الله...» .

ثم حدث ما يرويه «الطبري» بسند مرفوع إلى محمد بن يحيى بن حبان ، أن الرسول افتقد زيدا فجاء منزله يطلبه . فهرعت «زينب» تستقبله ، وقد أعجلتها اللهفة عن استكمال ثيابها للقاء الرسول ، فقالت :

«ليس هو ها هنا يا رسول الله ، فادخل بأبي أنت وأمي»[1] .

وفي رواية أخرى ، نقلها الطبري كذلك : «ان الرسول جاء يطلب زيدا وعلى باب زينب ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف عنها وهي في حجرتها حاسرة ، فوقع اعجابها في قلب الرسول ﷺ» .

ودعته الى الدخول فأبى ، وولى – عليه الصلاة والسلام – وهو يهمهم بكلمات ميزت فيها زينب قوله : «سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب» .

وأقامت «زينب» في مكانها تفكر فيما سمعت من قول ابن خالها ، حتى جاء «زيد» فكان أول ما لقيته به ، أن النبي ﷺ أتى منزله . سألها زيد :

«ألا قلت له : ادخل...» قالت :

---

(١) تاريخ الطبري ٤٢/٣ وما بعدها.

«بلى ، قد عرضت عليه ذلك فأبى».

واستطرد «زيد» مستفسراً : «فسمعتهِ يقول شيئاً؟»

قالت : «سمعته يقول حين ولى : «سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب».

فأطرق «زيد» برهة ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فقال :

«يا رسول الله ، بلغني أنك جئت منزلي ، فهلا دخلت بأبي أنت وأمي؟».

ثم أضاف متسائلا : «فأفارقها؟»

فقال النبي عليه الصلاة والسلام :

«مالك؟ أرابك منها شيء؟»

قال زيد : لا والله يا رسول الله ، ما رابني منها شيء ولا رأيت الا خيرا ، ولكنها تتعظم عليَّ لشرفها ، وإن فيها كبرا ، تؤذيني بلسانها».

قال عليه الصلاة والسلام :

«أمسك عليك زوجك».

وأذعن زيد ، وعاد ليجرب الاحتمال من جديد ، ويكابد مزيدا من الشقاء.

لكن زينب هجرته ، فما استطاع إليها سبيلا بعد ذلك اليوم ، حتى نفد احتماله ففارقها وكان الطلاق.

* * *

هذه هي قصة زينب في رواية الإمام أبي جعفر الطبري في تاريخه. وبنحوها ذكرها النسابة أبو جعفر ابن حبيب ، والمحب الطبري ، وجار الله الزمخشري (١).

(١) المحبر لابن حبيب : ٨٥ ، والسمط الثمين : ١٠٨ ، ويأتي فيما يلي نص أقوال الزمخشري في الكشاف.

وأغلب الظن أن «الدكتور محمد حسين هيكل» لم يقف على هذه الرواية الإسلامية في مصادرنا، فذهب إلى أنها -يقينا- من مفتريات المستشرقين والمبشرين: «الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله... ويكفي لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه، هي ابنة عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام..و.. وأنه كان يعرفها ويعرف أهي ذات مفاتن أم لا؟ قبل أن تتزوج زيدا... وأنه الذي خطبها على زيد مولاه. إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص: من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال: سبحان مقلب القلوب. أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار على غرفة زينب فألفاها في قميصها وكأنها مدام ريكاميه. فانقلب فجأة ونسي سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سلمة.[1]

وعند الدكتور هيكل أن هذا الزواج لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة، وإنما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبني والادعاء، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس في خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة، فلم يرضَ له الله أن يخفي في نفسه ما الله مبديه، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

وأضاف الدكتور هيكل:

«أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التي يكررها المستشرقون والمبشرون.

«ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة، والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للاسلام تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية، هي التي تملي على هؤلاء جميعا ما يكتبون، وتجعلهم في أمر زواج النبي، وفي أمر زواجه من زينب بنت

---

(١) حياة محمد: ٢٩١ وقوله: «زينب بنت مخزوم» فيه وهم، فهي بنت خزيمة الهلالية ولم تدرك زواج بنت جحش، بل توفيت قبله بزمن.

جحش ، يتجنون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه مما دس عليه ونسب إليه » [١] .

وما أنبله من رد ، لولا ان قصة اعجاب الرسول بزينب ، وحكاية الستر من الشعر الذي رفعته الريح ، وانصراف الرسول عن بيت زيد وهو يقول : سبحان الله مقلب القلوب ، قد حكاها سلف لنا صالح ، غير متهمين بالكيد للإسلام ، من قبل أن تسمع الدنيا بالحروب الصليبية والتبشير والاستشراق.

فمن الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين أمثال موير ، ومرجليوث ، وارفنج ، وسبرنجر ، ولننظر في القضية على ما حكاها الطبريان وابن حبيب .

هل فيها ما يريب؟

إن آية العظمة في شخصية نبينا ، انه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وما نعرف في تاريخ الأبطال – ولا أقول الأنبياء – من أصر على تقرير بشريته إصرار محمد ابن عبد الله ، ولا عرفت الإنسانية كتاب دينٍ كالقرآن ، جعل من بشرية المبعوث به ، آية تتلى وقرآنا يتعبد به المؤمنون ، وأصلا من أصول العقيدة الإسلامية :

أفينكر على بشر رسول ، أن يرى مثل زينب فيعجب بها؟

وماذا يطلب من مثله – في سمو خلقه وعفة ضميره – أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته ، وهو يسبح باسم الله العظيم ، مقلب القلوب؟

وأي ضبط للنفس ينتظر من بشر رسول ، أكثر من أن يجيئه زيد فيستأذنه من جديد في طلاقها ، فيأبى عليه الا أن يمسكها ويتقي الله ! ؟

ان القصة – وقد نقلها إلينا رواة غير متهمين – لترتفع بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبط للنفس واعتقال للهوى ، وانها

---

(١) حياة محمد : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

لجديرة بأن تعد مفخرة لمحمد والاسلام، فما ادعى قط أن قلبه بيده يصرفه حيث شاء، ولا زعم مرة، انه مبرأ من عواطف البشر منزه عن أهوائهم، وقد كان يقول في إيثاره عائشة على غيرها من أزواجه، مع ما تحرى من العدل بينهن:

«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

فكيف نخاف عليه لو ما إن مال قلبه إلى «زينب»، ثم أبى مع هذا الميل، إلا أن يأمر زوجها بإمساكها، على ما يعرف من شقائهما بهذا الامساك؟

أما كونه رآها طفلة وصبية وشابة، وزفها بيده إلى زيد، فسبحان مقلب القلوب.

وأما ان المسألة خلت خلوا تاما من أي ميل أو هوى، وان «قصة الحب» من مفتريات المبشرين، وان الله لم يعاتب الرسول الا لأنه أشفق من مواجهة العرب بنقض عادتهم في التسوية بين البنوة والتبني، أما هذا كله، فننقل فيه قول الزمخشري في تفسيره للآية من نحو تسعة قرون – أن رسول الله «أبصر زينب بعد ما أنكحها زيدا فوقعت في نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب. وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، ولو أرادتها لاختطبها.

«فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد اياها...

«فان قلت: كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به، وما له لم يعاتبه في نفس الأمر، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع على زينب وتتبعها، ولم يعصم نبيه ﷺ عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟ قلت: كم من شيء يحتفظ منه الانسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله... لأن طموح قلب الانسان الى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، لأنه ليس بفعل الانسان، ولا وجوده باختيار» (١).

---

(١) تفسير الكشاف: سورة الاحزاب جـ ٢٣٧/٣ ط التجارية.

هل لي أن أقول بعد هذا ، إن «الدكتور هيكل» أخطأ من حيث أراد الدفاع عن سيدنا محمد ﷺ ؟.. ذلك انه بانكاره ما أنكر منها ، قد ألقى على المسألة ظلالا من الريبة ، توهم أن مثل هذا ، خطأ لا يجوز على المصطفى ، ومنقصة يجب أن ننزهه عنها . وما في الأمر شيء من ذلك قط ، إنما هي البشرية تتعرض لما لا تملك دفعه من أهواء ، فتتسامى وتترفع في نبل وعفة ، ثم تأبى الا المضي في الامتناع عما أحل الله دفعا لمقالة الناس ، ويأبى الله على رسوله أن يتحرج من زواج كهذا أباحه الشرع ، وقضت به مصلحة عامة هي «ألا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا» ومصلحة أخرى خاصة «هي أن تأمن زينب - بنت عمته - الأيمة والضيعة ، وتنال الشرف بأن تغدو من أمهات المؤمنين. ومن هنا كان عتاب الله لرسوله ، حين كتم الأمر وبالغ في كتمه ، والله لا يرضى له الا اتحاد الضمير والظاهر ، والثبات في مواطن الحق ، حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مراً» (١)

* * *

فلندع المبشرين والمستشرقين ، ولننظر في هذه الرواية الإسلامية من القرون الأولى للهجرة .

أقدم من رواها على هذا الوجه - فيما أعلم - الأخباري النسابة ابن حبيب (توفي سنة ٢٤٥ هـ) ولم يذكر فيها أي سندٍ له.

بعده رواها الإمام الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه ، من مراسيل التابعين ، بإسنادين رجالها معروفون.

لكن هذه الرواية لم تأت في مصادر أمهات ، ككتب الصحاح الستة ، وسيرة ابن إسحاق وطبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وعيون الأثر. كما أن الإمام الطبري نفسه ، لم يشر في تفسيره العمدة ، إلى هذه الحكاية التي رواها في تاريخه.

---

(١) الزمخشري : الكشاف ٢٣٨/٣ تفسير آية الأحزاب ٣٧.

الذي في تفسيره لآيات الأحزاب ، لا يكاد يخرج عما في المصادر التي ذكرناها آنفا . وأنقل هنا ما في ترجمة الحافظ ابن عبد البر ، لأم المؤمنين زينب بنت جحش :

« ... ولا خلاف في أنها كانت قبله تحت زيد بن حارثة . فلما طلقها زيد وانقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ ... ولما تزوجها تكلم في ذلك المنافقون وقالوا : حرَّم محمد نساء الولد ، وقد تزوج امرأة ابنه . فأنزل الله عز وجل : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ... ، إلى آخر القصة . وقال الله تعالى : « ادعوهم لآبائهم ... » الآية . فدُعِيَ من يومئذ : زيد بن حارثة . وكان يُدعَى زيد بن محمد » .

ونحوه ما في تفسير الإمام الطبري ، وفي الإصابة مجملا ، وعيون الأثر . مع خلاف يسير لا يتعلق بجوهر القضية . (١)

وأحسبه ، والله أعلم ، أقرب إلى صريح النص من الآيات المحكمات ، في سورة الأحزاب :

« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تُظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ... » ٤ - ٥ .

« وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسِكْ عليك زوجك واتّق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا » . - ٣٧ .

صدق الله العظيم .

* * *

(١) الاستيعاب ١٨٤٩/٤ ، تفسير الطبري ٧٥/٢١ ، الإصابة ٩٢/٨ ، عيون الأثر ٣٠٤/٢ .

وليمة وحجاب

روى الواقدي : فبينا رسول الله ﷺ يتحدث عند عائشة ، أخذته غشية . فسُري عنه وهو يتبسم ويقول : من يذهب إلى زينب يبشرها ؟ وتلا : «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله». الآية [(١)]

وطار البشير إلى «زينب» بالبشرى ، قيل حملته إليها سلمى خادم الرسول وقيل بل حمله إليها «زيد» نفسه ، فتركت ما بيدها وقامت تصلي لربها شاكرة [(٢)] .

وكانت وليمة العرس حافلة مشهودة : ذبح المصطفى شاة ، وأمر ﷺ مولاه «أنس بن مالك» أن يدعو الناس إلى الوليمة ، فترادفوا أفواجا ، يأكل فوج فيخرج ، ثم يدخل فوج . قال أنس في حديثه عن وليمة العرس :

«حتى أكلوا كلهم فقال لي : يا أنس ، ارفع .

وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس ، وزوجته مولية ظهرها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ» .

وفي رواية : فتخلف رجلان استأنس بهما الحديث لم يخرجا . فجعل يمر على نسائه فيسلم على كل واحدة منهن : «سلام عليكم ، كيف أنتم يا أهل البيت ؟» فيقلن : بخير يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فيقول : «بخير» فلما فرغ رجع ورجعت معه ، فلما بلغ الباب إذا هو بالرجلين قد استأنس بهما الحديث ، حتى خرجا . فوالله ما أدري : أنا أخبرته أم أنزل عليه الوحي بأنهما قد خرجا ؟ وأرخي الحجاب بيني وبينه ، وأنزل الله تعالى : «لا تدخلوا بيوت النبي ...» الآية [(٣)] .

---

(١) طبقات ابن سعد ، وعنه في الإصابة .

(٢) تاريخ الطبري : ٤٣/٣ . وصحيح مسلم ١٠٤٨/٢ : ح (١٤٢٨) .

(٣) حديث أنس رضي الله عليه وسلم في في وليمة العرس ، أخرجه الشيخان في كتاب النكاح من (الصحيحين) – اللؤلؤ والمرجان ١٠٨/٢ ح : ٩٠٢ – ٩٠٥ .

وتمام آية الحجاب، من سورة الأحزاب:

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إنَاهُ ولكنْ إذا دُعِيتُم فادخلوا فإذا طَعِمتُم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم، واللهُ لا يستحيي من الحق، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبِهن، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكِحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما» – ٥٣

ومن يومئذ، فُرِضَ الحجاب على نساء النبي، وعلى المؤمنات جميعا، رمز تصون وعزة، وسمة كرامة وترفع عن الابتذال...

* * *

كانت العروس يوم تزوجها النبي ﷺ في السنة الخامسة على أرجح الأقوال، بنت خمسٍ وثلاثين سنة.(١)

وكان اسمها «برَّة» فسماها ﷺ زينب. وفي (صحيح مسلم) حديث زينب بنت أبي سلمة، ربيبة النبي ﷺ:

«كان اسمي برَّة، فسماني رسول الله ﷺ زينب. ودخلتْ عليه زينب بنت جحش واسمُها برَّة، فسماها زينب»(٢).

(١) الإصابة، عن الواقدي: ٩٣/٨، وعيون الأثر ٣٠٤/٢.

(٢) صحيح مسلم ١٦٨٧/٣: ح (٢١٤٢).

أكرمهن وليًّا وسفيرًا

ودخل محمد ﷺ ببنت عمته، التي زوجه إياها الله.

وباتت «عائشة» ليلتها فريسة الغيرة، قد أخذها – فيما قالت – ما قرُب وما بعُد. لما تعرف من جمال زينب، ولما هي حَرِيَّة أن تفخر به من صنع الله لها.

وكذلك غارت نساء النبي رضي الله عنهن، وضقن بهذه العروس الجديدة: تعتز بجمال وشرف وقربى من رسول الله ﷺ، وبأن الله هو الذي زوجها.

ولم تكذب زينب ظنهن، فإنها ما لبثت أن واجهتهن – وقد أدركت ما يطوين لها – مباهية: «أنا أكرمُكن وليا، وأكرمكن سفيرا: زوجكن أهلكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات!»(١)

وإذا كانت «أم سلمة» قد سرها أن ترى أثر دخولها على عائشة، الزوجة المفضلة، فلا ريب أن زينب قد أرضاها أن تجيء فتتقدم «أمَّ سلمة» غريمة لعائشة!

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب، كما لم تكتمها من أم سلمة، بل اعترفت بأنهما: «كانتا أحب نسائه اليه – فيما أحسب – بعدي».

ثم تؤثر زينب وحدها بمنافستها في الحظوة فتقول: «لم تكن واحدة من نساء النبي تناصيني غير زينب»(٢).

أي تنازعني وتباريني، من قولك: ناصيت فلانا اذا أخذت بناصيته ونازعته.

وقد مر بنا ما كان من ضيق «عائشة» بميله ﷺ إلى زينب «وإطالته المكث

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧٣/٨، المحبر ٨٦، الاستيعاب، الإصابة، عيون الأثر.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣١١/٣، الاستيعاب، الإصابة.

لديها» ثم تآمرها مع حفصة وسودة، أيتهن دخل عليها الرسول إثر انصرافه من عند زينب، فلتقل له: «إني أجد ريح مغافير»[1].

وكان يحدث أحيانا أن تحتدم بينهما المنافسة في حضرة الرسول، فيدعهما وشأنهما لعل في هذا راحة لها وتنفيسا عن مشاعرهما. وقد استطاعت «عائشة» مرة أن تغلب «زينب» فما زاد ﷺ على أن تبسم وقال:

«إنها ابنة أبي بكر»[2].

وحدث مرة أخرى، أن أفلت لسان «عائشة» بكلمة غضب لها المصطفى، فقد تلقى هدية وهو في بيتها، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها. لكن زينب ردَّت ما جاءها، فلم تملك عائشة أن قالت:

«لقد أقمأتْ وجهَك حين ترد عليك الهدية».

فقام عنها مغضبا وهو يقول:

«أنتن أهون على الله من أن تُقْمِئنني»[3].

وكذلك ما كان من موقف زينب من «صفية بنت حُيَيّ، أم المؤمنين» وقولها لرسول الله ﷺ: «أنا أعطي تلك اليهودية؟!»

ويأتي حديثها في المبحث الخاص بها.

---

(١) حديث العسل والمغافير متفق عليه (اللؤلؤ ٢/١٢٧) وقد مرَّ، مع: السيدة عائشة، والسيدة حفصة.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، ومسلم في باب فضائل السيدة عائشة رضي الله عنها (ح: ٤٤٢)

(٣) السمط الثمين ص ٤٠.

وأطولهنّ يدا

على أن هذه الخصومة المحتدمة بين الزوجتين الأوليين، لم تمنع حفيدة عبد المطلب من الدفاع عن «عائشة» في محنة الافك، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت: في رواية ابن إسحاق من طريق الزهري:

«وكان كِبر ذلك – الافك – عند عبد الله بن أبيّ بن سلول في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش. وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزلة عنده غيرها... فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل الا خيرا، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني لأختها، فشقيت بذلك»[١].

أجل عصمها الله تعالى بدينها، وقد كانت «زينب» صالحة تقية، صادقة التدين.

شهدت لها بذلك كله غريمتها السيدة عائشة فقالت:

«ولم أر امرأة قط خيرا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به الى الله عز وجل»[٢].

وفي الحديث ان رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب «ان زينب بنت جحش أواهة» فقال رجل: يا رسول الله: ما الأواه؟..

---

(١) السيرة ٣/٣١٢، مع حديث الإفك، رواية الزهري، في الصحيحين.

(٢) صحيح مسلم، ح: (٢٤٤٢)، والاستيعاب، والسمط ١١٠، والإصابة.

قال : الخاشع المتضرع. ثم تلا عليه الصلاة والسلام : «ان ابراهيم لحليم أواه منيب»[١].

وكانت كذلك كريمة خيرة، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين، عيال الله الذي أكرمها وأعزها، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها.

* * *

وألغى موت محمد ﷺ، ما بين «زينب» وبين ضرائرها من التنافس على زوجهن الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، فلم يعدن يذكرن إلا أنها كانت له ﷺ زوجا حبيبة، وللمؤمنين أما رحيمة، ولربها عابدة قانتة.

ذكرتْها «أم سلمة» فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين «عائشة» ثم قالت :

«كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة قوامة صوامة، صناعا وتتصدق بذلك كله على المساكين».

وسُمعت «عائشة» تقول حين بلغها نعي «زينب» :

«لقد ذهبت حميدة متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل».

ثم فقالت :

«قال رسول الله ﷺ : أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا...

«فكنا اذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ، نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، ولم تكن

---

(١) الاستيعاب، والإصابة. والآية من سورة هود : ٧٥.

بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ انما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز ، وتتصدق في سبيل الله »[1] .

ويروون أن « عمر بن الخطاب : أمير المؤمنين » أرسل اليها عطاءها اثني عشر ألفاً ، فجعلت تقول : « اللهم لا يدركني هذا المال في قابل ، فانه فتنة »[2] .

ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة ، فبلغ « عمر » ذلك ، فوقف ببابها وأرسل اليها بالسلام وقال :

« بلغني ما فرقتِ ، فأرسل ألف درهم تستبقينها » .

وأرسل الألف ، فتصدقت بها جميعا ، لم تبق منها درهما .

وحين حضرتها الوفاة – سنة عشرين – [3] قالت :

« اني قد أعددت كفني ، وان عمر أمير المؤمنين ، سيبعث اليَّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما . وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوي – إزاري – فافعلوا »[4]

* * *

وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وشيع أهل المدينة إلى البقيع ، أم المؤمنين زينب بنت جحش ، أول من مات من نساء النبي ﷺ ، وأسرعهن لحاقا به ...

---

(١) السمط الثمين : ص ١١٠ . والاستيعاب : ١٨٥١/٤ والإصابة ٩٣/٨ عن الواقدي.

(٢) في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة . وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، في كتاب فضائل الصحابة : ح (٢٤٥٢).

(٣) الإصابة عن الواقدي ، والسمط الثمين ١١١ .

(٤) في رواية انها توفيت سنة احدى وعشرين ، عام فتح العرب للاسكندرية (الاستيعاب ١٨٥٢/٤ والإصابة ٩٤/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٥/٢ .

(٨)

جويرية بنت الحارث

سيدة بني المصطلق

« ... لما قسم رسول الله سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها. وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها – فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أن سيرى فيها ﷺ ما رأيت! ».

عائشة بنت أبي بكر

أم المؤمنين

أخرجه ابن إسحاق

(في السيرة النبوية)

---

(٥) من كُتاب السيرة من يقدمون في ترتيب أمهات المؤمنين، «أم حبيبة بنت أبي سفيان» على جويرية، باعتبار خطبة الأولى وهي في الحبشة. كما في السيرة الهشامية والحبر.

ومنهم، كالحافظ ابن سيد الناس في عيون الأثر، من قدم جويرية على أم حبيبة، باعتبار بناء الرسول عليه الصلاة والسلام بها، حين عادت من الحبشة بعد خيبر.

الأسيرة الحسناء

شُغِلَ المصطفى عليه الصلاة والسلام، بعد زواجه بزينب بنت جحش، بأحداث هامة كبار، ملأت النصف الثاني للعام الخامس الهجري، في شهر شوال وأوائل القعدة، (١) كانت وقعة «الخندق» التي لقي فيها الرسول والمسلمون جموع الأحزاب من المشركين الذين عبأهم اليهود لحرب الإسلام في دار هجرته. لقيهم النبي ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذي حفره حول المدينة، وقد أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

ونقض اليهود العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالحياد، وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزلزلوا زلزالا شديدا حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق وقال قائلون: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال طمعا في الغنيمة، فلما ظنوا أنه مهزوم، كروا راجعين إلى ديارهم.

وكان حصار مرهق استغرق سبعة وعشرين يوما، ثم دارت الدائرة على المشركين، وتم النصر لرسول الله ﷺ، والذين معه (٢).

* * *

---

(١) في السيرة (٢٤/٣) ان غزوة الخندق كانت في شوال سنة خمس، ومثله في تاريخ الطبري (٤٣/٣) والذي في طبقات ابن سعد (٤٧/٢) انها كانت في ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. وفي رواية نقلها الزرقاني: قال موسى بن عقبة في مغازيه: كانت سنة أربع. وانظر عيون الأثر ٦٨/٢.

(٢) السيرة ٢٣٠/٣ – وطبقات ابن سعد: ٤٧/٢ وتاريخ الطبري: ٤٦/٣.

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم المعركة، وأووا إلى بيوتهم في الصبح يلتمسون راحة طويلة، فما انتصف النهار حتى تناهى إلى أسماعهم صوت مؤذن النبي ﷺ يؤذن في الناس:

«من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة».

واستأنفوا القتال، وحاصروا يهود بني قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم في شهر ذي القعدة وصدر ذي الحجة (١).

بعدها كانت غزوة بني لحيان، وغزوة ذي قرد. وعاد ﷺ إلى المدينة فما يقيم بها شهرا وبعض شهر، حتى بلغه أن بني المصطلق - وهم حي من خزاعة - يجمعون الجموع لقتاله، بقيادة زعيمهم «الحارث بن أبي ضرار» (٢).

وخرج إليهم ﷺ ومعه من نسائه «عائشة بن أبي بكر» حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، فكان قتال انتهى بهزيمة بني المصطلق.

وسيقت نساؤهم سبايا، وفيهن «بَرَّة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب» سيد القوم وقائدهم، أو «جويرية» كما سماها ﷺ.

وقفل راجعا إلى المدينة.

فبينا هو جالس يوما في حجرة عائشة، سُمِعت امرأة تستأذن في لقائه ﷺ.

وقامت «عائشة إلى الباب لترى مَن تلك، فإذا شابة حلوة، مفرطة الملاحة، «لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه (٣)، في نحو العشرين من عمرها، ترتجف قلقا وذعرا، وقد زادها انفعالها حيوية وسحرا.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٣/٣، والسيرة ٣٠١/٣.

(٢) تاريخ الطبري، حوادث السنة السادسة للهجرة. وانظر جمهرة أنساب العرب: ٢٢٨.

(٣) ابن اسحاق في السيرة: ٣٠٧/٣، وتاريخ الطبري: ٦٦/٣ والاستيعاب ١٨٠٤/٤ والسمط الثمين: ١١٧.

وكرهتها «عائشة» من النظرة الأولى، فوقفت حيالها وبودها لو تحول بينها وبين زوجها ﷺ، الذي كان وقتذاك يستريح.

لكن الشابة الغريبة ألحت في الاستئذان على النبي ﷺ، فلم تملك «عائشة» الا أن تستأذن لها كارهة، وفي نفسها خاطر قلق.

ودخلت الشابة المليحة فقالت في ضراعة تمازجها عزة:

«يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس... فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على أمري».

فتأثر الفارس العربي للكريمة المهانة والعزيزة المستذلة... واستثار شهامته موقفُ سيدة حرة أصيلة، تلوذ به – وهو الذي هزم قومها – لتنجو من مهانة السبي وعار الرق.

ورق قلبه لبرة، العربية الخزاعية، بنت سيد بني المصطلق، في موقفها ببابه مستطارة اللب مستثارة القلق، ولا مَن ينقذها من محنتها سواه.

* * *

وتكلم ﷺ فقال: «فهل لك في خير من ذلك؟»

سألت في لهفة وحيرة: «وما هو يا رسول الله؟»

قال: «أقضي عنك كتابتك، وأتزوجك!»

فتألق وجهها الجميل بفرحة غامرة، وقالت وهي لا تكاد تصدق انها قد نجت من الضياع والهوان:

«نعم يا رسول الله!»

قال عليه الصلاة والسلام: «قد فعلت!»[١].

وفي رواية بالاستيعاب والإصابة، «أن النبي ﷺ سَبَى جويرية - ويعني أن يتزوجها - فجاءه أبوها فقال: يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فإن ابنتي لا يُسْبَى مثلُها، فخلِّ سبيلها. قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتَ إن خيَّرتُها، أليس قد أحسنتُ؟» قال: بلى. فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت: اخترت الله ورسوله.

وقيل إن أباها كان قد أخفى بأحد شعاب مكة بكرين مما جاء به في فداء ابنته، فلما سأله رسول الله ﷺ عنهما، قال: «أشهد أنك رسول الله حقا»[٢] فخطب إليه ابنته، فزوجه إياها، وكان صداقها أربعمائة درهم[٢].

* * *

(١) السيرة: ٣٠٧/٣ - والنقل منها - والمحبر ٢٨٩ وتاريخ الطبري ٦٦/٣ وترجمة جويرية في الاستيعاب ١٨٠٤/٤، والإصابة ٤٣/٨، وعيون الأثر ٣٠٥/٢.

(٢) السيرة: ٣٠٨/٣، والسمط ١١٧، وعيون الأثر ٣٠٥/٢.

بَرَكَةُ العَرُوس

وما أسرع ما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبي ضرار، فتداعَوا لتكريم السيدة التي أعزها نبيهم بالزواج.

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون: «أصهار رسول الله».

ودخلت العروس بيت النبي، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها: أُعتِقَ بزواجها من رسول الله ﷺ، أهلُ مائة بيت من بيوت بني المصطلق [1].

«وسماها ﷺ جويرية، كراهة أن يقال: خرج من عند برة» [2].

وظلت «جويرية» ما عاشت، تبارك تلك اللحظة السعيدة التي لقيته فيها، فنجت من العار، وأعتقت قومها من الأسر، وكرمت بالزواج من سيد البشر.

وكذلك ظلت «عائشة» تذكر تلك اللحظة، لكن في مرارة وألم، فتقول في صراحة مؤثرة:

«... وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو الا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيت...» [3].

---

(١) السيرة: ٣٠٧/٣، وتاريخ الطبري: ٦٦/٣ – والاستيعاب، والإصابة والسمط الثمين ١١٦.

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس: ١٦٧٨/٣ ح (٢١٤٠) وابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب من عدة طرق، وابن حجر في الإصابة، من طريق مسلم.

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة، عن ابن إسحاق.

وهل من حرج على الرسول في أن ينظر لجويرية؟

قال «السهيلي» في شرحه للسيرة الهشامية: «وأما نظره عليه السلام لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فانما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة. ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها... وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها... وقد ثبت عنه عليه السلام الرخصة في النظر إلى المرأة عند ارادة نكاحها. وقال للمغيرة حين شاوره في نكاح امرأة:

«لو نظرتَ اليها، فإن ذلك أحرى أن يدوم بينكما. وقال مثل ذلك لمحمد بن مسلمة حين أراد نكاح بثينة بنت الضحاك»[1].

وقد كان ما توقعت «عائشة» وخافت:

نظر ﷺ الى الأسيرة الحسناء، وأصبحت «جويرية بنت الحارث» شريكة لعائشة في بيت الرسول.

كما أصبحت، وقد أسلمت وحسن إسلامها، أما للمؤمنين.

على أن «عائشة» ما لبثت أن شغلت عن «جويرية» وغير جويرية، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بني المصطلق، من قيل وقال.

حتى اذا انجلت غمة الافك، وعادت عائشة الى بيت النبي معتزة بما أنزل الله في براءتها من آيات، واجهتها «جويرية» بملاحتها الأخاذة، فما كان من عائشة الا أن قالت في زهو وهي تنقل بصرها بين جويرية، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وحفصة، وطيف ماثل من خديجة:

«لم يتزوج، ﷺ، بكرا سواي».

---

(١) الروض الأنف ١٩/٣.

ذلك أن «جويرية» كانت قبل أن تسبى زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقي (١).

* * *

وقد عاشت إلى أن استقر الأمر لمعاوية، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول الهجري «سنة ست وخمسين على الأرجح وصلى عليها «مروان بن الحكم» أمير المدينة وقد بلغت سبعين سنة. وقيل: توفيت سنة خمسين، وهي بنت خمس وستين سنة».

رضي الله عن جويرية، أم المؤمنين التي «لم تكن امرأة أعظم على قومها بركةً منها».

* * *

(١) كذا في المحبر ٨٩، والاستيعاب: ١٨٠٤/٤ والإصابة ٤٣/٨ والسمط الثمين ص ١١٦، والذي في تاريخ الطبري (١٧٧/٣) انه ملك بن صفوان ذي الشفر بن سرح بن مالك ابن المصطلق.

(٢) الاستيعاب، والإصابة، وعيون الأثر ٣٠٥/٢ وتهذيب التهذيب ٤٠٧/١٢، والسمط ١١٨.

(٩)

صَفيّة بنت حُيَيّ رضي الله عنها

عقيلة بني النَّضير

«وأمر ﷺ بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه».

السيرة النبوية

وصحيح مسلم

خربت خيبر

انتهت السنة السادسة للهجرة، بعد أن أحدثت في بيت النبي ضجة ما مثلها ضجة: تزوج فيها ﷺ جُويرية بنت الحارث، وابتلي بمحنة الافك في أعز زوجاته ﷺ وأحبهن إلى قلبه بعد خديجة وفيها أيضا، تم صلح الحديبية.

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع، وهو يتهيأ لمعركة حاسمة تقطع دابر اليهود اللئام الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير، وما يبيتون للإسلام من شر وغدر.

وخرج عليه الصلاة والسلام في النصف الثاني من المحرم (١) إلى «خيبر» معقل العدو، فما أشرف عليها حتى هتف:

«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وخربت خيبر: فُتِحَتْ حصونها حصنا حصنا، وقُتِلَ رجالها، وسبي نساؤها، وفيهن عقيلة بني النضير «صفية بنت حُيي بن أخطب» التي ينتهي نسبها إلى هرون أخي موسى عليهما السلام، وأمها برة بنت شموال - أو: سموأل -

ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها.

لكنها، على صغر السن، تزوجت مرتين:

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم: «سلام بن مشكم».

ثم خلف عليها «كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق (٢)» صاحب حصن

---

(١) كذا في السيرة ٣/٣٤٢، وتاريخ الطبري، وعيون الأثر ٢/١٣٠. وفي طبقات ابن سعد أن غزوة خيبر كانت في جمادى الأولى.

(٢) كذا في السيرة ٣/٣٥١ وتاريخ الطبري ٣/٩٥، ١٧٨، والمحبر ٩٠، وعيون الأثر ٢/٣٠٧. وفي طبقات ابن سعد ٢/٧٧، والاستيعاب ٤/١٨٧١، والإصابة ٨/١٢٦: «كنانة بن أبي الحقيق» ولعله من رفع النسب إلى جَدِّه.

«القموص» أعز حصن في خيبر.

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال مرير، وجيء بكنانة حيا، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله ﷺ عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أرأيتَ ان وجدناه عندك، أأقتلك؟».

قال: نعم...

فلما اكتُشِف مخبأ الكنز عنده، دفعه ﷺ إلى «محمد بن سلمة» فضرب عنقه بأخيه «محمود بن سلمة» الذي قتله اليهود في المعركة[1].

وسيقت نساء القموص سبايا، وفي مقدمتهن «صفية» امرأة كنانة، وابنة عم لها، يقودهما «بلال» مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومر بهما بلال على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود، فهمَّت «صفية» أن تصيح، لكن الصيحة احتبست في حلقها لا تنطلق.

أما ابنة عمها فأعولت صارخة، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها...

وجيء بهما إلى رسول الله ﷺ:

«صفية» في حزنها الصامت وجزعها المكبوت، تحاول أن تتماسك في ترفع وكبرياء، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر، وإن بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة وجلال:

والأخرى، شعثاء الشعر معفرة بالتراب، ممزقة الثياب، لا تكف عن عويل ونواح.

---

(١) تاريخ الطبري: ٩٥/٣ والسيرة: ٣٥١/٣ - وانظر طبقات ابن سعد ٨١/٢.

قال وهو يشيح بوجهه عنها :

«اغربوا عني هذه الشيطانة»[1].

ثم دنا من صفية ، وقد بدا عليها أنها راغبة في أكثر من حماية النبي الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال :

«أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالها؟»[2].

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فكان ذلك إعلاما بأنه ﷺ ، قدا اصطفاها لنفسه.

وكان المسلمون قد قالوا : ما ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد ، فلما حجبها عرفوا أنه ﷺ قد تزوجها.

وفي حديث عن «أنس رضي الله عنه» أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حيي ، قال لها : «هل لك فيَّ؟ قالت : يا رسول الله... قد كنت أتمنى ذلك في الشرك ، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام؟».

فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها.

وكان عتقها صداقها[3].

---

(١) تاريخ الطبري : ٩٤/٣ والسيرة ٣٥٠/٣ ، والإصابة ١٢٦/٨.

(٢) تاريخ الطبري : ٩٤/٣ – والسيرة : ٣٥١/٣ والإصابة ١٢٦/٨ وانظر طبقات ابن سعد : ٨١/٢.

(٣) طبقات ابن سعد : ٨٤/٢ ، والاستيعاب ١٨٧٢/٤ ، والإصابة ١٢٦/٨ والسمط الثمين : ١٢٠ ، وعيون الأثر ٣٠٧/٢ قال ابن حجر : «وثبت ذلك في الصحيحين». وانظر صحيح مسلم : كتاب النكاح (ح : ١٣٦٥).

رؤيا العروس في ذكرياتها

وانتظر ﷺ بخيبر حتى هدأت المناحة ، وظن أن الروع قد ذهب عن «صفية» أو كاد ، فحملها وراءه وانطلق بها إلى المنزل في أطراف خيبر – على بعد ستة أميال منها – فمال يريد أن يعرس بها ، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل (١) .

فوجدها – ﷺ – في نفسه ، وشق عليه تمنعُها ورفضها ، ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره إلى المدينة ، فلما كان بالصهباء – بعيدا عن خيبر – نزل هناك يستريح ، فبدا له أن «صفية» متهيئة للعرس :

جاءتها ماشطة – يقول ابن اسحق انها أم سليم بنت ملحان ، أم أنس ابن مالك (٢) – فمشطتها وجملتها وعطَّرتها . وظهرت «صفية» عروسا مجلوة ، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول أم سنان الأسلمية ، إنها لم تر بين النساء أضوأ منها (٣) .

ووراء جلوة الفرح المرتقب ، غابت آثار الحزن والألم ، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التي ألقت بأهلها صرعى مجندلين ، وأخرجتها من حصن «القموص» ذليلة أسيرة ، تساق بين السبايا !

وتَمت ، أقيمت وليمة العرس حافلة ، وأكل الناس من طيبات خيبر حتى شبعوا (٤) ، ثم دخل الرسول على «صفية» وما يزال في نفسه شيء من رفضها الأول .

وأقبلت عليه العروس بادية اللهفة تحدثه حديثا عجبا :

---

(١) السمط الثمين : ١٢٠ ، والإصابة ١٢٦/٨ .

(٢) السيرة : ٣٥٤/٣ – واقتصر ابن سعد على كنيتها – أم سليم (٨٤/٢) .

(٣) الاصابة ١٢٦/٨ .

(٤) صحيح مسلم : كتاب النكاح (ح ١٣٦٥) .

قالت : إنها في ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت في المنام ان قمرا وقع في حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة ، فقال غاضباً :

«ما هذا الا أنك تُمنين ملك الحجاز محمدا ! » [١] .

ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه .

ونظر الرسول إلى أثر اخضرار في عينها ، وقد سره ما سمع من حديثها ، وهمَّ بأن يقبل عليها ، لكنه أمسك وسأل :

« ما حملك على الامتناع أولا ؟ » أو قال : ما حملك على ابائك في المنزل الأول ؟

وأجابت العروس على الفور :

« خشيتُ عليك قربَ اليهود » [٢] .

فزال ما كان يجد في نفسه من جفوة ، وأشرق وجهه الكريم بابتسامة راضية .

وتسترجع صفية ، ذكريات لها عن ارهاص أهلها اليهود بنبي منتظر يعرفونه من أسفارهم ، ثم حقدهم وغيظهم يوم استقبلت دار الهجرة النبي المهاجر ، الذي طالما بشرت يهود بقرب مبعثه ، تستغل البشرى لحماية ثروتها بيثرب من كل غاز وطامع ، أو تتفاخر بها على العرب الأميين ، فيما تتفاخر من علمها بالكتاب .

تقول صفية بنت حيي بن أخطب :

«كنت أحبَّ ولد أبي اليه والى عمي أبي ياسر . لم ألقها قط مع ولدهما الا أخذاني دونه . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، غدا عليه أبي وعمي مغلِّسين ، فلم يرجعا حتى ككان مع غروب الشمس ، فأتيا كالين ساقطين يمشيان الهوينا . فهششت

---

(١) السيرة : ٣/٣٥٠ – وتاريخ الطبري : ٣/٩٤ – والسمط الثمين ١٢٠ وفي رواية بالإصابة ، أنها قصت رؤياها على أمها – عن ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير – وفي عيون الأثر ، أنها قصتها على أبيها .

(٢) الإصابة ١/١٢٦ .

اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم . وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي : أهو هو؟

«قال : نعم والله . قال عمي : أتعرفه وتثبته؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه؟ أجاب : عداوته والله ما بقيت» [1]

وهناك خارج القبة التي دخل فيها الرسول على صفية ، بات رجل من الأنصار ، هو «أبو أيوب خالد بن زيد» يقظان ساهرا ، متوشحا سيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من الرسول ، فلما أصبح ﷺ سمع حركته ورأى مكانه فسأله :

«مالك يا أبا أيوب؟»

أجاب :

«يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك» .

فيقال ان الرسول دعا له قائلا :

«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»

أو قال : «رحمك الله يا أبا أيوب» مرتين [2] .

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ، تلك الفعلة الشنعاء لامرأة من يهود خيبر ، هي «زينب بنت الحارث» امرأة سلاَّم بن مِشكم ، أحد زعمائهم القواد .

دخلت «زينب» هذه على الرسول وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر ، فأهدت اليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أي عضو من الشاة أحب الى رسول الله؟ قيل لها : الذراع . فأكثرت السم

---

(١) السيرة ١٦٥/٢ ووفاء الوفا ٢٧٠/١ .

(٢) السيرة : ٢٥٤/٣ - وطبقات ابن سعد : ٨٤/٢ .

في الذراع حتى سرى منها الى سائر الشاة.

ووضعتها بين يديه ﷺ ومعه صاحبه «بشر بن البراء»، فتناول الرسول الذراع، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب.

لكن الرسول لم يسغ الذراع، بل لفظها وهو يقول: «ان هذا العظم ليخبرني انه مسموم».

ودعا بامرأة سلاَّم، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة. ولما سألها ﷺ عما حملها على ذلك أجابت:

«بلغتَ من قومي ما لا يخفى عليك، فقلتُ: ان كان نبيا فسيُخبَر، وان كان ملكا استرحت منه».

فتجاوز عنها الرسول، ومات «بشر بن البراء» من أكلته التي أكل... [1].

فلعل «أبا أيوب الأنصاري» ذكر هذه الفعلة اليهودية، حين بات ساهرا حول القبة التي دخل فيها ﷺ على «صفية» عقيلة بني النضير.

* * *

وبلغ الركب المدينة. وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «فعثرت الناقة الضباء، وندرت صفية فقام ﷺ فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية» [2].

وآثر النبي ألا يدخل بالعروس على نسائه، «وقد خرجت جواريهن يتراءينها ويشمتن بصرعتها» [3]، فأنزلها في بيت لصاحبه «حارثة بن النعمان».

---

(١) السيرة: ٣٥٢/٣، وتاريخ الطبري ٩٥/٣.

وأخرجه مسلم، بلفظ مقارب، من حديث أنس رضي الله عنه (باب السم ح ٢١٩٠) ١٧٢١/٤ وروى ابن سعد حديث الشاة المسمومة التي أهديت الى الرسول ﷺ يوم فتح خيبر، عن أبي هريرة... وفيه ان الذين سموها وأهدوها، جماعة من اليهود (٨٤/٢).

(٢، ٣) صحيح مسلم ١٠٤٨/٢: ح (١٣٦٥).

وتسامعت نساء الأنصار بها ، فجئن ينظرن الى جمالها ، ولمح الرسول زوجته «عائشة» تخرج متنقبة على حذر ، فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت حارثة ابن النعمان.

وانتظر حتى خرجت ، فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

«كيف رأيت يا شقيراء؟».

فأجفلت عائشة ، وقد هاجت غيرتها ، ثم هزت كتفها وهي تجيب :

«رأيت يهودية !»

ورد عليها الرسول :

«لا تقولي ذلك ، فإنها أسلمت وحسن إسلامها !»[1].

ولم تعلق «عائشة» بكلمة ، بل سارت الى البيت حيث كانت حفصة في انتظارها ، مشوقة إلى أن تسمع رأيها في العروس.

ولم تنكر «عائشة» أنها جميلة حقا ، ولعلها زادت فحدثت «حفصة» عما كان من تتبّع الرسول لها وحواره معها.

---

(١) ابن سعد في طبقاته ، وابن حجر – من طريقه – في الإصابة ، والسمط ٨٠.

زوجي محمّد وأبي هارون - وعمّي موسى

ثم انتقلت «صفية» إلى دور النبي ، فواجهتها هناك مشكلة محيرة : كانت عائشة ومعها حفصة وسودة في جانب ، والزوجات الأخريات في جانب تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء ، رضي الله عنهن .

وكان على «صفية» أن تختار ، وإنه لموقف دقيق صعب ، فما كانت في ذكائها بالتي تناصب «الزوجة الأثيرة» أو «الابنة الغالية» عداء أو شبه عداء !

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث ، فقررت أن تتقرب من عائشة وحفصة والزهراء جميعا !

وكان مظهر تقربها إلى ابنتي أبي بكر وعمر ، إظهار استعدادها للانضمام اليهما ...

وأما «الزهراء» فأهدتها «صفية بنت حيي» حلية لها من ذهب ، رمزا لمودتها واعلانا لمسالمتها ! (١) .

ولعل «صفية» أرادت أن تحتمي بهذا الموقف اللبق ، مما كانت تخاف من تعريض بأصلها اليهودي ، وتذكير بما بين قومها والإسلام من عداء مستحكم مرير .

وما كان لها ، في الحق ، أن تخشى أذى من «الزهراء» فانها - رضي الله عنها - كانت أحرص الناس على سلام ، وأبر بأبيها من أن تشارك في هذا الضجيج النسوي ، اللهم الا أن تدفع الى شيء من ذلك دفعا ، كالذي أشرنا إليه من سفارتها لزوجات النبي عند أبيها ﷺ في أمر السيدة عائشة .

---

(١) الإصابة : جـ ١٢٧/٨ .

وإنما الخوف كل الخوف من «عائشة» في غيرتها العارمة، وضيقها بكل ضرة حسناء تدخل بيت المصطفى وتشاركها فيه!

ولم يعصم «صفية» مما كانت تخاف، تقربها من عائشة وحفصة، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرا وتلميحا بالدم اليهودي الذي يجري في عروقها؟! وما أكثر ما صكت أذنيها سهام جارحة، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن، في ظلّ أكرم زوج!

والذي آلم «صفية» ان عائشة وحفصة – اللتين انضمت إليهما – كانتا تشاركان الأخريات في النيل منها، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات، وهي الأجنبية الدخيلة.

* * *

وبلغ «صفية» كلام عن حفصة وعائشة، فلما حدثت النبي به وهي تبكي، قال ﷺ:

«ألا قلت: وكيف تكونان خيرا مني، وزوجي محمد، وأبي هرون، وعمي موسى؟» (١)

ونزل كلام الرسول على «صفية» بردا وسالما، وكان لها منه حمى وملاذ.

* * *

وكان النبي ﷺ، يحسّ غربة «صفية» في دوره بين نسائه، فيدافع عنها كلما أتيحت له فرصة.

حدثوا أنه كان في سفر ومعه «صفية» و«زينب بنت جحش» فاعتل بعير «صفية» وفي ابل زينب فضل، فقال لها:

(١) الإصابة ٨/١٢٧ – والنقل منها – والاستيعاب ٤/١٨٧٢، والسمط ١٢١.

«ان بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا؟»

أجابت في ترفع وازدراء :

«أنا أعطي تلك اليهودية؟».

فولى الرسول عنها مغضبا ، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها ، أو قيل «فهجرها لذلك ، ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر ، ثم أتاها بعد ، وعاد الى ما كان عليه معها»(١).

ولم تحرم «صفية» هذه الحماية حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام. رُويَ أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول ﷺ في مرضه الأخير ، فقالت صفية : إني والله يا نبي الله ، لوددت أن الذي بك بي . فما كان من أزواجه إلاّ أن غمزن ببصرهن فما راعهن الا أن قال عليه الصلاة والسلام :

«مَضْمِضْنَ» !

تساءلن في دهشة : من أي شيء؟

قال : «من تغامزكن بها ، والله إنها لصادقة»(٢).

* * *

ولحق الرسول بربه الكريم ، وافتقدت «صفية» تلك الحماية الطيبة ، فما نسي الناس لها أنها منحدرة من سلالة يهود ، وما أنفوا من مهاجمتها من تلك الثغرة التي لم يكف لسدِّها حسنُ إسلام صفية ، وزواجها من النبي عليه الصلاة والسلام.

حدثوا أن جارية لها أتت «أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» فقالت : «يا أمير المؤمنين ، ان صفية تحب السبت وتصل اليهود».

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث السيدة عائشة ، بسنده إليها . وابن حجر في ترجمة صفية بالإصابة ، من طريق ابن سعد.

(٢) ابن سعد في الطبقات ، بسند عن زيد بن أسلم. وابن حجر في الإصابة ، من طريقه.

فبعث «عمر» الى صفية يسألها عن ذلك فأجابت :

«أما السبت فاني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأما اليهود فان لي فيهم رحما فأنا أصِلُها ! »

ثم انثنت الى جاريتها فسألتها عمَّا حملها على مثل ذلك الافتراء ، فأجابت الجارية : «الشيطان ! »

وردت «صفية» :

«اذهبي فأنت حرة» [1] .

* * *

واندفعت «صفية» راضية أو كارهة ، تشارك في المعركة السياسية التي بدأت في عهد «عثمان» وكان موقفها اذ ذاك شبيها بموقفها بين عائشة والزهراء ، فبالرغم من حرصها على مودة عائشة التي كانت حينذاك ذات نفوذ سياسي قوي ، ومكانة في الدولة الاسلامية رفيعة ، لم تأل «صفية» جهدا في الولاء لأمير المؤمنين «عثمان» الذي ما فتئت «عائشة» تحرض عليه ، حتى بلغ بها الأمر أن دلَّت قميص رسول الله من بيتها وصاحت في المسلمين :

«أيها الناس ، هذا قميص رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته ...»

حدث مولى لصفية يدعى كنانة - وقيل هو ابن أخيها - قال :

«قدمت صفية ، في حجابها ، على بغلة لترد عن عثمان ، فلقينا الأشتر - هو النخعي - فضرب وجه البغلة ، وهو لا يعرف راكبتها ، فقالت لي صفية :

- ردني لا تفضحني !

(١) رواه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب ١٨٧٢/٤ ، وابن حجر في الإصابة ١٢٧/٨ من طريقه والسمط ١١٢ .

ثم وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل إليه الطعام والماء» وهو في محنة الحصار[1] .

وماتت «صفية» حوالي سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية...

ودفنت بالبقيع ، مع أمهات المؤمنين...

حديثها عن رسول الله ﷺ مخرج في الكتب الستة ، .ومن الذين رووا عنها : ابن أخيها ومولاها كنانة ، ومولاها الآخر يزيد بن متعب ، والامام زين العابدين علي بن الحسين ، ومسلم بن صفوان ، في عدد من حفاظ التابعين رضي الله عنها وعنهم .

* * *

(١) ابن سعد في الطبقات. حكاه ابن حجر في آخر ترجمتها بالإصابة.

(١٠)

أمّ حبيبة

بنت أبي سفيان

« ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته « أم حبيبة » ... فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه. فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه »

ابن إسحاق: السيرة النبوية

عودة المهاجرة

رجع النبي ﷺ إلى مدينته ، وقد تمَّ له النصر في «خيبر» ، وتزوج عقيلة بني النضير، وسيقت بين يديه غنائم اليهود.

وتأهبت «المدينة» للقائه ، وقد أعدت له أسعد مفاجأة ترضيه !

فهناك في «المدينة» ، وهو ﷺ غائب في خيبر، كان مهاجرو الحبشة قد جاءوا في صحبة «عمرو بن أمية الضمري» الذي بعثه النبي عليه الصلاة والسلام إلى «النجاشي» ليعود بمن بقي في بلاده من المهاجرين الأولين[1].

وحملهم «عمرو» في سفينتين، فبلغ بهم «المدينة» حيث الأهل والأنصار، ومعركة «خيبر» اذ ذاك في ذروة احتدامها.

وأعقب وصولَهم اعلانُ فتح «خيبر» والنصر المبين على يهودها ، وخرج أهل «المدينة» لاستقبال العسكر المنتصر، فضاقت بهم أرجاء الوادي ، وقد بُحَّت أصواتهم من هتاف ودعاء.

وأهلَّ عليهم ﷺ ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من «مكة» أيام الاضطهاد والعذاب ، أولئك الذين كان آخر عهده - ﷺ - بهم ، يوم تسللوا من «مكة» أيام المحنة ، خارجين من ديارهم وأموالهم في سبيل الله ، وأقصى ما يتمناه أحدهم ان يموت على الاسلام غريبا مهاجرا فتكون له الجنة.

وكانوا رضي الله عنهم قد تواعدوا على اللقاء في الدار الآخرة ، حيث النعيم الذي وُعد به المؤمنون ، وها هم أولاء يلتقون في أرض الوطن ، يوم الاحتفال بفتح خيبر،

(١) تاريخ الطبري : ٨٩/٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/٤.

وقد صارت للاسلام الكلمة العليا في جزيرة العرب !

ووثب رسول الله ﷺ من فوق راحلته ، فالتزم ابن عمه «جعفر بن أبي طالب» معانقا ، وقبل عينيه وهو يقول في غبطة :

«ما أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»[1] .

والتفت الرسول من بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين ، وقد كانوا فيما أحصى «ابن اسحق» ستة عشر رجلا[2] .

وهناك بين المهاجرات العائدات ، كانت «أم حبيبة ، بنت أبي سفيان بن حرب» تنتظر النبي ﷺ ، ليحملها إلى بيته !

وقد مضى على زواجه بها بضع سنين ، مذ كانت في مهاجرها بالحبشة .

فلنمض مع الأحداث ، راجعين بها إلى بدايتها هنالك...

(١ و ٢) السيرة : ٣/٤ ، ٥ وتاريخ الطبري : ٩٠/٣ .

محنة الغربة

كانت «رملة» بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، زعيم مكة وقائد المشركين، زوجة لابن عمّة الرسول، عبيد الله بن جحش الأسدي، أخي السيدة زينب أم المؤمنين. وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه «رملة»، وأبوها «أبو سفيان» على الكفر.

وخشيت أذى أبيها، فهاجرت بدينها مع زوجها في الهجرة الثانية إلى الحبشة وهي مثقلة بحملها، وتركت أباها «بمكة» وقد جن غيظه وقهره، أن أسلمت ابنته وليس له اليها سبيل. وهناك في الحبشة، وضعت «رملة» بنتها «حبيبة بنت عبيد الله» التي كنيت بها فصارت تدعى «أم حبيبة».

وإذ هي في غربتها تكتم حنينها إلى الوطن، وتحاول أن تجد في زوجها عوضا عمن فارقت من أهل وعشيرة، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة، فقد روعت في الحلم برؤية «عبيد الله» بأسوأ صورة، فأصبحت فإذا هو قد ارتد عن دينه الذي من أجله هاجر إلى الحبشة، ودخل «النصرانية» دين الأحباش...

وحاول أن يردها عن دين الاسلام فصبرت على دينها (١).

وكادت «بنت أبي سفيان» تهلك غما وأسى وحسرة:

فيم كانت هجرة عبيد الله اذن، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب، ومرارة التنكر للآباء والأجداد، وهذا هو يصبأ عن الإسلام الذي من أجله احتملت «رملة» كل ذلك، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم؟

---

(١) ابن سعد في الطبقات، وابن حجر في ترجمتها بالإصابة ٨/٨٤، عنه. والسمط ٩٦.

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته دفاعا عن ديانة وجدوا آباءهم عليها من قديم الحقب.

أما أن يكفر بهذا كله ، ويرضى بالاسلام دينا ليجيء إلى الحبشة فيكفر بالدين الجديد ، ويستبدل به دينا غريبا لقوم غرباء ، في يُسْر ودون تحرج ، كما يبدل ثوبا بثوب ، فأية مهانة وأي عار!

وهذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبها لكي تولد لمثل هذا الأب الصابئ المرتد؟ وما جريرتها لتتخرج إلى الحياة في أرض غريبة ، وقد انبتّ ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلَها دياناتٌ شتى : فأبوها نصراني ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الاسلام!

واعتزلت «رملة» الناس شاعرة بالخزي لفعلة الرجل الذي كان لها زوجا ، ولطفلتها والدا...

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها «حبيبة» مضاعَفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس في دار هجرتها ، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن ، وهناك أبوها يعلن حربا شعواء على النبي الذي صدقته وآمنت به...

وأين تراها تقيم في «مكة» لو عادت؟

أفي بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت؟

أم في دار «آل جحش» رهط زوجها ، وقد أقفرت بهجرة أهلها وصارت منهم خلاء؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن عتبة بن أبي ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة ، مروا بدار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، ثم تنفس الصعداء وقال:

«وكـــل دار وإن طـــالت سلامتها   يوما ستدركها النوباء والحوب!

أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها».

فقال أبو جهل: «وما تبكي عليه؟»... ثم قال:

«هذا عمل ابن أخي، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا»[1].

كلا، لا سبيل لرملة إلى «مكة» والمعركة محتدمة بين أبيها والنبي ﷺ، ودار بني جحش تخفق أبوابها يبابا!

---

(١) السيرة: ٢/١١٥.

رسالة من الحجاز

ومرت حقبة من الزمن وهي في عزلتها الحزينة، فما شعرت ذات يوم الا وطرقات تلح على بابها الموصد، مستأذنة لجارية من جواري النجاشي...

وفتحت «أم حبيبة» الباب، فدخلت الجارية وأدت اليها رسالة النجاشي:

«ان الملك يقول لك: وكِّلي مَن يزوجك من نبي العرب، فقد أرسل إليه ليخطبك له!».

واستعادت «رملة» حديث الجارية مرة ومرتين وثلاثا، حتى اذا استيقنت من البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتهما إليها حلاوة البشرى [1]، ثم أرسلت الى «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس» –كبير المهاجرين من قومها بني أمية– فوكلته في زواجها.

وفي المساء، دعا النجاشي إليه مَن بالحبشة من المسلمين، فجاءوا يتقدمهم جعفر ابن أبي طالب، ابن عم النبي ﷺ، وخالد بن سعيد، وكيل رملة...

وتكلم النجاشي وترجم المترجم:

«ان محمد بن عبد الله كتب لي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فمن أولاكم بها؟».

أجاب القوم:

«خالد بن سعيد، قد وكَّلته».

---

(١) أخرجه ابن سعد من حديث أم حبيبة رضي الله عنها. وحكاه ابن حجر في ترجمة «رملة» بالإصابة ٨/٨٤. والسمط الثمين ٦٧.

فاتجه اليه النجاشي قائلا :

«فزوّجْها من نبيكم ، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار» – وقيل : أربعة آلاف - فقام خالد وقال :

«قد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله ﷺ ، وزوجته أم حبيبة»...

وقبض الصداق.

وأولم لهم النجاشي وليمة الزواج قائلا : «اجلسوا ، فان سنة الأنبياء اذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج»(١).

ثم أتوا باب «أم حبيبة» مهنئين مباركين.

وباتت بنت أبي سفيان ، وهي «أم المؤمنين» !

وأصبحت فجاءتها «جارية النجاشي» تحمل اليها هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب ، فقدمت إليها «أم المؤمنين» خمسين دينارا من صداقها قائلة :

«كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدي شيء من المال ، وقد جاءني الله عز وجل بهذا».

فأبت أن تمسَّ الدنانير، وردَّت السوارين وهي تقول : ان الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا ، كما أمر نساءه أن يبعثن اليها مما عندهن من طيب.

وتقبلت «أم حبيبة» الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبي ، فكان ﷺ يرى عندها طيب الحبشة وعودها فلا ينكره.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر: ١٩٣٠/٤ والمحبر ٨٨ ، والإصابة ٨٤/٨. وفي رواية بها ، أن الذي زوَّجها : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية. وهو خال رملة ، أخو أمها «صفية بنت أبي العاص بن أمية. ولعله الذي زفها إلى النبي ﷺ ، بعد هجرتها من الحبشة إلى المدينة. والله أعلم.

بين الأب والزوج

واحتفلت «المدينة» بدخول بنت أبي سفيان بيت النبي ﷺ.

وأولم خالُها «عثمان بن عفان» وليمة حافلة، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم.

وباتت «مكة» ساهدة مؤرقة، تردد قول زعيمها أبي سفيان والد أم حبيبة، حين بلغه نبأ زواجها:

«هذا الفحل لا يُجدع أنفه!»(١).

ولم يكن قد مضى على زواجه، ﷺ، من عقيلة بني النضير، غير أيام معدودات!

واستقبلت نساء النبي زميلتهن «أم حبيبة» بشيء من المجاملة، ولم ترَ «عائشة» فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها، إذ كانت «رملة» تدنو من عامها الأربعين، وليس لها سحر صفية، ولا ملاحة جويرية، ولا حسن أم سلمة، ولا جمال زينب...

وأبدت «عائشة» استعدادها لقبول الزوجة الجديدة في صفِّها، لكن «بنت أبي سفيان» أنفت أن تكون تابعة لأخرى...

وبقدر ما أنكرت «عائشة» ألا تسارع «رملة» إلى كسب رضاها كما فعلت «حفصة بنت عمر»، أنكرتْ «بنتِ أبي سفيان» على «عائشة» الزهو الطامح إلى الاستئثار بالنفوذ في بيت النبي...

لكن الجفوة بينهما لم تشتد إلى درجة الخصومة السافرة المعلنة، وإن بقيت

---

(١) تاريخ الطبري: ٩٠/٣: والسمط الثمين: ٩٩ - والاستيعاب ١٨٤٥/٤ ونسب قريش ١٢٢، والإصابة ٨٥/٨.

«عائشة» تهاب «رملة» وتخشى وقوفها في سبيل ما تشتهي من تفرد بالكلمة العليا بين ضرائرها !

وكانت «رملة» بحيث تفعل ما تخشاه «عائشة» لولا ان ظلت تحس في أعماقها حزنا قاسيا، لأن أباها لا يزال على الوثنية الضالّة.

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة، تأكل من رجال أعزة عليها، فما من قتيل إلا وهو من شيعة أبيها، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها، أبنائها المؤمنين !

* * *

وتناهى إليها يوماً أن قريشا نقضت عهد «الحديبية» وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها ﷺ وسيرته، أنه لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يُغدر به أو ينقض له عهد، فهل تراه يغزو «مكة» ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين، وفيهم أبوها، وإخوتها، وكل أهلها وعشيرتها ؟

كذلك لاحت نذر الخطر في «مكة» فاجتمع قادتها يتشاورون في أمر «محمد» الذي يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به. لقد كانوا من قبل يستهينون به وبمن اتبعه، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ، وصار له السلطان الأكبر في بلاد العرب ؟

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا منهم إلى المدينة يفاوض محمدا - ﷺ - في تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين، ولكن من يكون رسولهم ؟

أبو سفيان بن حرب، ولا أحد سواه !

على هذا أجمعوا أمرهم، ولم ع «أبو سفيان» الا أن يذعن، وأنّى له أن يعتذر وهو الذي أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات أكباد مكة ؟...
فليصلَ اليوم حرَّها، وليمضِ الى «محمد» خصمه الألد، يسأله الموادعة والمسالمة !

وخرج «أبو سفيان» صاغرا مكرها يريد المدينة، فلما بلغها أشفق من لقاء «محمد» وذكر أن له ابنة هناك في بيت خصمه، فتسلل اليها يستعين بها على ما جاء من أجله.

وفوجئت به «أم المؤمنين» يدخل بيتها، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت الى الحبشة، فوقفت تجاهه بادية الحيرة، لا تدري ماذا تفعل أو ماذا تقول...

وأدرك «أبو سفيان» ما تعانيه ابنته، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، فما راعه الا أن وثبت «رملة» فاختطفت الفراش وطوته في اعزاز، ثم وقفت تلهث.

سألها وهو يلوذ بالصبر:

«أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش، أم رغبة بالفراش عني؟».

وجاءه جوابها:

«هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه!».

قال والألم يفري كبده:

«لقد أصابك يا بنية بعدي شر»[١].

وانصرف غاضبا...

واستندت هي على جدار بيتها، عصية الدمع، معطلة الحواس.

حتى جاء رسول الله أخيرا فعرفتْ ما كان من أمر «أبي سفيان»:

ذهب إلى النبي ﷺ فكلمه في العهد فلم يجبه بشيء...[٢].

---

(١) السيرة: ٣٨/٤، وابن سعد في الطبقات، والإصابة، عنه.

(٢) السيرة: ٣٨/٤ وتاريخ الطبري: ١١٢/٣ والسمط الثمين: ص ١٠٠.

فتوسل بأبي بكر الى الرسول لكن أبا بكر رفض...

فكلم «عمر بن الخطاب» فرد عليه في غلظة وجفاء:

«أنا أشفع لكم الى رسول الله؟.. فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به!»[1].

وانطلق أبو سفيان إلى بيت «علي بن أبي طالب» وعنده فاطمة بنت رسول الله، وولدها الحسن يدب بين يديها، فقال: «يا علي، إنك أَمسُّ القومِ بي رَحِماً، واني قد جئت في حاجة... فاشفع لي الى محمد».

أجاب «على»:

«ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه».

فالتفت أبو سفيان الى السيدة فاطمة وسأل في ضراعة:

«يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر؟».

أجابت رضي الله عنها:

«والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ».

واذ سدت السبل في وجهه، التمس نصيحة ابن عم الرسول، عليّ بن أبي طالب، فقال كرم الله وجهه:

«والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا، لكنك سيد بني كنانة. فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. وما أظن ذلك مغنيا، ولكني لا أجد لك غيره»[2]

---

(١) تاريخ الطبري: ١١٢/٣.

(٢) السيرة: ٣٨/٤ - وتاريخ الطبري: ١١٢/٣.

فذهب «أبو سفيان» الى المسجد، وهناك أعلن انه اجار بين الناس، ثم أسرع الى راحلته وانطلق بها يعدو في طريق مكة، كأنه يفر من مطارد...

سمعت «أم المؤمنين» ما جرى لأبيها، فما زادت على أن دعت لزوجها الرسول بالنصر، وقد رأته يتخذ أهبة للمعركة الحاسمة في البلد الحرام.

ولعل نساء النبي راقبنها وهي في موقفها ذاك الدقيق الحرج، ترى جيش المدينة يتأهب لأخذ قومها على غرة، ومكة لا تزال في حيرة من الأمر، تستمع لما كان من أمر أبي سفيان الذي رجع من وفادته خائبا على غير قرار، يقول:

«جئت محمدا فوالله ما رد عليَّ شيئا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو»(١).

كان الموقف صعبا بالغ الصعوبة، دقيقا أشد الدقة، فانتصار محمد - ﷺ - يعني القضاء على أبيها وعشيرتها، وإن «أم المؤمنين» لتناصب قومها العداء، وتبرأ منهم إلى الله ورسوله، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سيطت به؟.. وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذي ينتظرهم؟! كلا، بل إن عَنَتهم عزيز عليها، مثلما هو عزيز على رسول الله ﷺ.

وإذ هي في حيرتها المضنية، لاح لها شعاع من الأمل:

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان، كما أسلم عمر بن الخطاب وأخوها معاوية، وخالد ابن الوليد، وأبو العاص بن الربيع، زوج السيدة زينب كبرى بنات النبي ﷺ؟..

انه لأمل واهٍ، أقرب الى أن يكون سرابا، ولكنها تشبثت به ليعصمها من الحيرة والجزع، فتوجهت إلى السماء، تدعو الله أن يهدي أبا سفيان إلى الاسلام!

وأحست حينذاك طمأنينة وسلاما، فتلت ما نزل من آي الكتاب الكريم حين تزوجها محمد رسول الله:

---

(١) السيرة: ٣٩/٤ وتاريخ الطبري: ١١٣/٣.

«عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذي عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم»[١] .

وكان هذا أقصى ما تملك «أم المؤمنين ، بنت أبي سفيان» لأبيها وأهلها...

على حين بلغ الجزع برجل من صحابة النبي الذين شهدوا بدرا ، أن بعث كتابا مع امرأة من «مكة» تدعى «سارة» ووعدها مكافأة سخية اذا هي أبلغت كتابه قريشا ، ليعلموا الخطر الذي يوشك أن يدهمهم[٢] .

وعلم النبي ﷺ بكتاب صاحبه «حاطب بن أبي بلتعة» فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فأدركا «سارة» وما زالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها .

ودعا النبي اليه صاحبه ، فسأله عما حمله على ذلك . قال حاطب :

«يا رسول الله ، أما والله اني لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرتُ ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم» .

فوثب به «عمر بن الخطاب» واستأذن الرسول في أن يضرب عنقه ، لكنه ﷺ حال دونه ، إذ كان أحد أصحاب «بدر»[٣] .

وانما جئت بحديث «حاطب» هنا ، لنقدر صعوبة الموقف على «أم المؤمنين بنت أبي سفيان» حين رأت زوجها الرسول وهو خارج في عشرة آلاف مقاتل يريد «مكة» !

* * *

(١) السمط الثمين : ١١٠ - والاية من سورة الممتحنة «٧» .

(٢) سيرة ابن هشام : ٤٠/٤ - والإصابة : حاطب بن أبي بلتعة .

(٣) السيرة : ١٠/٤ .

وتم الفتح...

وطارت البشرى إلى «المدينة» بما أفاء الله على رسوله من نصر...

وتسامعت «دار الهجرة» بما كان من لقاء النبي ﷺ، بأبي سفيان، الذي أرسلته مكة حين رأت نيران العسكر الغازي تتوهج قريبا منها، ليستطلع أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام.

وعرف «العباس بن عبد المطلب» أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر:

«ويحك يا أبا حنظلة، هذا رسول الله في الناس، واصباحَ قريشٍ إذا دخل مكة عنوة! فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك» (١).

قال أبو سفيان:

«فما الحيلة فداك أبي وأمي؟».

فأردفه «العباس» وراءه، وسار به خلال المعسكر، مارا بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقي الرعب في قلوب المشركين.

فلما مرا بنار «عمر بن الخطاب» عرف أبا سفيان فأسرع الى خيمة النبي مستأذنا في أن يضرب عنقه...

وجاء العباس، على أثره فقال: «إني يا رسول الله قد أجرته».

وأمسك القوم أنفاسهم حتى سمعوا كلمة الرسول عليه الصلاة والسلام:
«اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحتَ فائِتني به».

وقضى «أبو سفيان» ليلته مؤرقا يترقب حكم «محمد بن عبد الله» في كبير قريش.

---

(١) السيرة: ٤٥/٤ - وتاريخ الطبري: ٤٠/٣ - طبقات ابن سعد: ٩٨/٢.

فلما كان الصبح جيء بأبي سفيان إلى حضرة النبي ﷺ، وفي مجلسه كبار المهاجرين والأنصار[1].

وتكلم النبي ﷺ:

«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟»

قال: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى شيئا بعد!».

قال النبي ﷺ:

«ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»

قال «ابو رملة»:

«بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه، فوالله إن في النفس منها حتى الآن شيئاً!»

ولكن «أبا سفيان» ما لبث أن أعلن اسلامه...

فالتمس «العباس» من النبي ﷺ ان يكرم الرجل بشيء يرضي كبرياءه، فأجاب النبي الكريم:

«نعم... من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»[2].

وبعث أبو سفيان من نادى في مكة:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...»

---

(١) السيرة: ٤/٤٥ – وتاريخ الطبري: ٣/٤٠.

(٢) السيرة: ٤/٤٦ – وتاريخ الطبري: ٣/١١٧ وطبقات ابن سعد: ٢/٩٨.

فما زالت أصداء الهتاف تنتقل في الأفق حتى بلغت سمع «أم حبيبة» فهتفت وقد هزها الفرح :

«من دخل دار أبي فهو آمن ! »

ألا ما أكرم زوجها الرسول ، وما أحلمه ، وما أنبله ، وما أوصله !

وسجدت لله شاكرة...

وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة ، وحفصة ، وكل نساء النبي ﷺ...

* * *

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها «عائشة» ، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة.

وظلت ما عاشت ، تقف لعائشة بالمرصاد ، وتتصدى لها كلما أسرفت في غلوائها أو اشتطت في اعتدادها بمكانتها.

حتى إذا حان الرحيل ، دعت إليها «عائشة بنت أبي بكر» فقالت لها وهي تحتضر :

«قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فتحللينني من ذلك ؟ »

أو قالت : «قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك ».

فحللتها عائشة واستغفرت لها ، واذ ذاك أضاء وجهها الشاحب بنور الرضا وهمست :

«سررتني سرَّك الله».

وفعلت مثل ذلك مع «أم سلمة بنت زاد الركب»[(١)].

ثم رقدت بسلام، وأودع جسدها ثرى البقيع الطيب، في المدينة المنورة في عهد سنة أربع وأربعين على الأرجح.

ولها في الكتب الستة خمسة وستون حديثا، روت عنها بنتها حبيبة ربيبة رسول الله ﷺ، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبي سفيان وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة، وعروة بن هشام بن المغيرة، وأبو صالح السمّان، وزينب بنت أبي سلمة ربيبة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن سعد، من حديث عائشة رضي الله عنها. وابن حجر في ترجمتها بالإصابة، من طريق ابن سعد، والسمط ١٠١.

(٢) الإصابة ٨/٨٥، وتهذيب التهذيب ١٢/٤١٩، وخلاصة التذهيب ٤٢٣.

(١١)

مارية القبطية
أم ابراهيم

«استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً»

حديث شريف

(صحيح مسلم)

هدية من مصر

وغير بعيد من بيت النبي ، في منزل خاص ، كانت تقيم سَرِية للنبي ﷺ لم تحظ بلقب أم المؤمنين ، ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابنه ابراهيم عليه السلام إلى جانب حظوتها ، مثلهن ، بشرف الصحبة (١) .

وهي لم تقم في دور النبي الملحقة بالمسجد ، إلا أن أثرها في هذه الدور وساكناتها كان جد بعيد .

فمن تكون هذه السرية ؟ وكيف دخلت حياته ﷺ ؟ وأي موضع كان لها في هذه الحياة؟

* * *

في قرية من صعيد مصر ، تدعى «حفن» قريبة من بلدة «أنصنا» (٢) الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، ولدت «مارية بنت شمعون» لأب قبطي ، وأم مسيحية رومية .

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل في مطلع شبابها الباكر مع أختها «سيرين» الى قصر «المقوقس» عظيم القبط .

وقد سمعت هنالك بما كان من ظهور نبي في جزيرة العرب يدعو الى دين سماوي جديد ، وكانت في القصر حين وفد «حاطب بن أبي بلتعة» موفدا من هذا النبي العربي يحمل رسالة إلى المقوقس .

---

(١) الاستيعاب ١٩١٢/٤ ، الإصابة : ١٨٥/٨ (قسم أول) .

(٢) سيرة ابن هشام : ٧/١ – وراجع معه القاموس الجغرافي لرمزي جـ ١ ط دار الكتب المصرية – وللاستاذ حفني ناصف ، بحث في «موطن مارية القبطية من الديار المصرية» قدمه الى مؤتمر المستشرقين بأثينا عام ١٩١٥ – رحمه الله .

وأذن في الدخول ، فأدى الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم.

«من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمْ تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك اثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون» (١) .

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه في عناية وتوقير ، ووضعه في حُقٍّ من عاج دفعه إلى واحدة من جواريه.

والتفت من بعد ذلك إلى «حاطب» يسأله أن يحدثه عن النبي - ﷺ - ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس مُليا ثم قال لحاطب :

«قد كنت أعلم أنّ نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ... ولكن القبط لا تطاوعني» وضنَّ بملكه أن يفارقه.

ثم دعا بكاتبه فأملى عليه رده :

«... أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام...

«وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم ، وبكسوة ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك» (٢) .

(١ و ٢) تاريخ الطبري ٣/٨٥ والمحبر ٩٨ ، وعيون الأثر ٢/٢٦٦ والنقل منه وفي الهدية ، عند ابن سعد : الحمار عفير ، أو يعفور حكاه ابن حجر في ترجمة مارية بالإصابة.

ودفع «المقوقس» كتابه إلى «حاطب» معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم، وموصيا اياه بأن يكتم مادار بينهما، فلا يسمع القبط منه حرفا واحدا.

وانطلق «حاطب» عائدا إلى النبي ﷺ، ومعه «مارية» وأختها «سيرين» وعبد خصي، وألف مثقال ذهبا، وعشرون ثوبا لينا من نسج مصر، وبغلة شهباء (دلدل) وجانب من عسل «بنها» وبعض العود والند والمسك.

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن، فسارتا تملآن أعينهما من الوادي الحبيب، حتى إذا غابت عنهما آخر معالمه، ألقتا نظرة وداع دامعة، على الأرض التي حُلّت فيها تمائمهما، ودرج عليها صباهما.

وأحس «حاطب» ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق، ويروي لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرون لا عداد لها، ثم انثنى يتحدث عن النبي ﷺ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب، فأخذت الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للاسلام ونبيه الكريم.

واستغرقهما التفكير في الحياة الجديدة التي توشك أن تستقبلهما، وفي السيد النبي الذي ينتظر في «المدينة» رجوع صاحبه «حاطب» برد المقوقس. وفي الإصابة، من طريق ابن سعد، أن حاطبا عرض الإسلام على مارية ورغبها فيه، فأسلمت هي وأختها.

* * *

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة، وقد عاد النبي ﷺ من «الحديبية» بعد أن عقد الهدنة مع قريش.

وتلقى ﷺ كتاب المقوقس، وهدية مصر...

وأعجبته «مارية» فاكتفى بها ، ووهب أختها «سيرين» لشاعره «حسان بن ثابت».

وطار النبأ إلى دور النبي ، أن شابة مصرية حلوة ، جعدة الشعر ، جذابة الملامح ، قد جاءت من أرض النيل هدية للنبي ﷺ فأنزلها بمنزل لحارثة بن النعمان ، قرب المسجد.

وتكلفت «عائشة» ما استطاعت من جهد ، لكي تعلل نفسها بألا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة ، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة ، أهداها سيد الى سيد.

لكنها راحت ترقب في كثير من القلق ، مظاهر اهتمام الرسول بتلك المصرية الطارئة ، وقد أثار جزعها أن تراه ﷺ يكثر من التردد عليها ، ويمكث لديها طويلا «فكان عامة الليل والنهار عندها» في ساعات فراغه [1].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث السيدة عائشة ، وذكره ابن حجر في الإصابة من طريق ابن سعد.

طيفٌ وأمل

ومضى عام أو نحو عام ، و« مارية » سعيدة بحظوتها لدى السيد الرسول ، عليه الصلاة والسلام قد اطمأن بها المقام في كنفه ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب ، شأن أمهات المؤمنين.

وانحصرت أمانيها وخواطرها ، بل انحصر وجودها كله في شخص ذلك السيد العظيم الذي ربطها القدر به على غير ميعاد ، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه.

وكانت تحمل في كيانها سحر مصر ، وفي أعطافها أريج الوادي العطر ، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف ساحرة ، لإيزيس في حبها العبقري ، ونفرتيتي في جمالها الباهر ، وحتشبسوت في ملكها العتيد ، وكليوباتره في جاذبيتها الآسرة...

ولم يَغِض أبدا ذلك النبع الدافق الذي كان يمدها في كل آن بعذب الحديث وشهى السمر ، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة « هاجر » زميلتها المصرية التي جاءت من أرض النيل ، وحملت من سيدها « ابراهيم » فأثارت غيرة زوجته السيدة « سارة » فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق ، حيث تركها هنالك : وحيدين بواد غير ذي زرع عند أطلال البيت المحرم العتيق.

وطالما شاق « مارية » أن تسمع الحديث عن نجدة السماء التي هدت « هاجر » إلى نبع زمزم ، وكيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة ، وكيف عاشت « هاجر » ملء التاريخ ، وصارت هرولتها ومسعاها بين الصفا والمروة ، شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب في الجاهلية والإسلام.

وألِفت « مارية » حين كانت تخلو بنفسها ، أن تفكر في « هاجر » ومصريتها وأمومتها لاسماعيل وللعرب ، فلم تخطئ فيها ملامح شبه بها : فكلتاهما جارية مصرية ، وكانت

«هاجر» هبة من سارة للنبي ابراهيم عليه السلام : كما أن «مارية» هبة من المقوقس للنبي محمد ﷺ وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات في بيت السيد النبي، ابراهيم، أو محمد، صلوات الله عليهما.

ولكن «هاجر» كانت أما لولد ابراهيم، فهل تغدو «مارية» أما لولد محمد؟ !...

ما أبعد الأمنية، بل ما أدناها من المستحيل!..

لقد تزوج المصطفى ﷺ منذ ماتت السيدة خديجة، عشر زوجات، منهن الشابة الفتية، والمرأة الناضجة، ومنهن من كانت ذات ولد. ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للنبي الذي تخطف الموت أبناءه من خديجة، فلم يدع له سوى ابنة واحدة، هي السيدة «فاطمة الزهراء».

وقد شارف الستين من عمره، وبدا كأنه كف عن تمني الولد، بعد سنين مجدبة، مع زوجات ذوات عدد.

فأنّى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لإسماعيل؟

يا لها من أمنية أبعد من الوهم، ويا له من أمل أوهى من السراب!

---

(١) ابن هشام: ٧/١.

بشرى

استقبلت «مارية» عامها الثاني في حياة النبي ﷺ ، وما تكفّ عن ذكر هاجر، واسماعيل، وابراهيم.

وفجأة أحست بوادر حمل مستكن، فكذبت إحساسها واتهمت يقظتها، وخيل إليها أن المسألة لا تعدو أن تكون وهما جسمه شوقها الملح إلى الامومة، وتفكيرها الدائم في هاجر واسماعيل.

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهي في ريب من الأمر، لا تدري أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام... حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تتهم.

هنالك أفضت به إلى اختها «سيرين» فأكدت لها أن ليس في الامر وهم ولا شبه وهم، وإنما هو جنين حي.

وأخذ «مارية» من الانفعال والفرح ما قرُب وما بعُد، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها هكذا، وتحقق أملها الذي بدا عقيما واهيا كالسراب.

واستغرقتها نشوة حالمة، حتى جاء السيد الرسول، فأفضت إليه ﷺ بالسر الخطير الذي تجنه أحشاؤها.

وتذكر ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها في الطعام، وهي أعراض عرفها من قبل في «خديجة» في مستهل كل حمل، لكنه حسبها في «مارية» وعكة طارئة لا تلبثُ أن تزول.

ورفع إلى السماء وجها مشرق الاسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء الجميل الذي منّ به على عبده الرسول، إثر فقده ابنته الغالية «زينب» بعد أن ماتت قبلها رقية، وام كلثوم، ومات عبد الله، والقاسم...

سبحانه، جلَّت قدرته وعظمته آياته، ووسعتْ رحمتُه عبده المصطفى، كما وسعتْ من قبله، عبديه ابراهيم وزكريا:

قال تعالى:

«هل أتاك حديثُ ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجلٍ سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة، قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته في صَرّةٍ فصكّتْ وجهَهَا وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلِك قال ربُّك، إنه هو الحكيم العليم»[(١)].

ومن آياته تعالى في زكريا والبشرى: «قال ربِّ أنَّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكِبَر عِتِيا * قال كذلكَ قال ربك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا»[(٢)]

لكن «مارية» لم تكن عجوزا، كما لم يكن ﷺ عقيما قد بلغ من الكِبَر عِتِيًا!

وفاض عالمها المشترك بالهناءة والغبطة.

وسرعان ما سرت البشرى في انحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر مولودا له من «مارية المصرية»، وما بقارئ حاجة إلى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبي.

أتحمل هذه الغريبة الطارئة، ولما يمض عليها في المدينة سوى عام واحد، وإن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل؟...

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى، وأمهات المؤمنين، وفيهن بنتا أبي بكر وعمر، وبنت زاد الركب، وحفيدة أبي طالب، محرومات لا يلدن؟

(١) سورة الذاريات: الآيات: ٢٤ - ٣٠.

(٢) سورة مريم: الآيتان: ٨، ٩.

وخاف الرسول على «مارية» فنقلها الى «العالية» بضواحي المدينة، توفيرا لراحتها وسلامتها، وعناية بصحتها وصحة جنينها.

وسهر عليها يرعاها، وكذلك فعلت اختها «سيرين» حتى بلغ الجنين أجله، وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة.

ودعا الرسول قابلتها «سلمى: زوج ابي رافع» ثم انتحى ناحية من الدار، يصلي ويدعو...

فلما جاءته أم رافع بالبشرى [1] أكرمها كل الاكرام، وخف الى مارية فهنأها بولدها الذي أعتقها من الرق [2]، ثم حمل وليده بين يديه مستثار الفرح والحب، وسماه «ابراهيم» تيمنا باسم جد الانبياء.

وتصدق ﷺ على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد ورقا، وتنافست الأنصار فيمن يرضعه، وأحبوا أن يفرّغوا مارية للنبي ﷺ لما يعلمون من هواه فيها، فاختار مرضع ولده، وجعل في حيازتها سبعا من الماعز كي ترضعه بلبنها اذا شح ثدياها [3].

وراح يرقب نموه يوما بعد يوم، ويجد فيه انسه ومسرته، ويود لو شاركته دنياه كلها في هذا الأنس.

حمله يوما بين ذراعيه إلى «عائشة» ودعاها في تلطف وبشر، لترى ما في الصغير من ملامح أبيه، فأحست «عائشة» كأن سهما نفذ الى قلبها، وكادت تبكي مما تجد، لكنها أمسكت عبرتها وقالت في غيظ:

---

(١) وفي رواية ان الذي حمل البشرى الى الرسول أبو رافع زوج سلمى – السمط: ١٤٠ – وانظر الأستيعاب: ٥٤/١.

(٢) السمط الثمين: ١٤٢ – وانظر الاستيعاب. ١٩١٣/٤.

(٣) الاصابة لابن حجر: جـ ١ – والاستيعاب: ٥٥/١.

وفي رواية أنه ﷺ، حلق رأس ولده يوم سابعه، وتصدق بزنة شعره فضة، وذبح كبشين «وفاء الوفاء: ٣١٦/١».

- ما أرى بينك وبينه شبها !

وأدرك الرسول على الفور مدى ما تكابد ، فانصرف بولده وهو يرثي لعائشة...

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمداراة ، حتى كان اليوم الذي اجتمع فيه الرسول بمارية في بيت «حفصة» فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا ، وكان ما كان من قصة التحريم.

وخُيل لمارية انها بلغت مناها ، فهذه هي تلد للنبي ولدا كما ولدت «هاجر» لابراهيم ابنه اسماعيل.

وهذه هي محنة الغيرة تنتهي على خير لها.

ولم يسعد «مارية» شيء قدر ما أسعدها أن تهب السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام على اليأس غلاما تقر به عينه ، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى رضي الله عنها.

* * *

لكنها لم تنج من غيرة نساء النبي ﷺ :

في (الإصابة) من طريق عَمرة ، بنت عبد الرحمن ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : «ما غِرتُ على امرأة إلا دون ما غِرْتُ على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ ، وكان أنزلها أولَ ما قدم بها في بيتٍ لحارثة بن النعمان ، الأنصاري ، فكانت جارتنا فكان عامة الليل والنهار عندها... فجزعتُ فحولها إلى العالية ، وكان يختلف إليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا» زادت في رواية : «ثم رزقها الله الولدَ وحُرِمناه منه».

على أن غيرة أمهات المؤمنين ، رضي الله عنهن ، لم تنلْ من «مارية» ما نالته شائعة سوءٍ أرجف بها مرجفون من أهل المدينة ، واتهموها إفكا وبهتانا بالعبد «ما بور» الذي

جاء معها من مصر في هدية المقوقس «وكان يأوي إليها لخدمتها ويأتيها بالحطب والماء. فقال ناس، لا يتقون الله، علج يدخل على علجة».

ولم يتخل الله تعالى عنها في محنتها، بل أتاح لها دليلا قاطعا على براءتها من الإفك: في حديث أنس رضي الله عنه؛ أن رجلا كان يتهم بأمٍّ ولد رسول الله ﷺ، فقال لعلي: «اذهب فاضربْ عنقه» فإذا هو في ركيٍّ - بئر - يتبرد فيها. فقال له علي: اخرجْ. فناوله يده فأخرجه - عاريا - فإذا هو مجبوب... فكفَّ عليٌّ عنه ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه لمجبوب...» الحديث[1].

(١) رواه ثابت البناني عن أنس، وأخرجه مسلم في صحيحه من طريق زهير بن حرب، في باب (براءة حرم النبي ﷺ من الريبة) ٢١٣٩/٤، ح (٢٧٧١) وأخرجه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب، بسنده إلى زهير بن حرب.

الهلالُ الغاربُ

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المرير...

مرض «ابراهيم» ولما يبلغ عامين من عمره، فجزعت أمه ودعت إليها أختها، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق، لكن الحياة أخذت تنطفئ فيه رويدا رويدا... فجاء أبوه معتمدا على يد «عبد الرحمن بن عوف» لشدة ألمه، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه، ووضعه في حجره محزون القلب ضائع الحيلة، لا يملك الا أن يقول في أسى وتسليم:

«إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئا» ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت، ويسمع حشرجة احتضاره، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة...

وانحنى على جثمان فقيده فقبله والدمع يفيض من عينيه ثم تمالك نفسه فقال:

. «يا إبراهيم، لولا أنه أمرٌ حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأوَّلنا، لحزنًا عليك حزنا هو أشد من هذا. وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون. «تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»[1].

ثم نظر إلى مارية في عطف ورثاء، وقال يواسيها: «إن ابراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة»[2].

وأقبل ابن عمه ﷺ «الفضل بن عباس» فغسَّل الصغير الميت، وأبوه الرسول جالس يرنو اليه في حزن بالغ.

---

(١) الاستيعاب: ١/٥٦ – والنقل فيه – والإصابة: ابراهيم بن محمد عليه السلام. والسمط الثمين ١٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل: ١٨٠٨/٤ (ح ٢٣١٦).

وفي رواية أنه مات في بني مازن عند ظئره أم بردة خولة بنت المنذر بن زيد. وغسَّلته وحُمل من بيتها على سرير صغير وصلى عليه أبوه، عليه الصلاة والسلام وكبَّر اربعًا. ثم سار وراءه إلى البقيع، وأضجعه بيده في قبره، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء[1].

وآب المشيعون الى «المدينة» واجمين، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس، فقال قائلهم: «انها انكسفت لموت ابراهيم».

وبلغت الكلمة مسمع النبي ﷺ، فالتفت إلى أصحابه يقول:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته...»[2].

وطوى جرحه في قلبه الكبير صابرا مستسلما لقضاء الله فيه، واعتكفت «مارية» في بيتها تحاول ان تتجمل بالصبر حتى لا تنكأ الجرح في قلب السيد الرسول، فاذا عز الصبر خرجت الى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها، والتمست راحة في البكاء.

* * *

ولكن أيامه ﷺ لم تطل بعد موت «ابراهيم» في السنة العاشرة للهجرة، فما أهل ربيع الاول من السنة التالية حتى شكا ﷺ، ثم لحق بربه الأعلى، وترك «مارية» من بعده تعيش خمس سنوات في عزلة عن الناس، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين، ولا تكاد تخرج إلا لكي تزور قبر الحبيب بالمسجد، أو قبر ولدها بالبقيع.

فلما ماتت سنة ست عشرة من الهجرة «أخذ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحشد

---

(١) عيون الأثر ٢٩١/٢ – والنقل منها – والاستيعاب من طريق الواقدي ٥٦/١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من عدة طرق. منها حديث جابر بن عبد الله، (٦١٣/٢).

الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع »[1]

وكل نفس ذائقة الموت ، فحسب « مارية » أنها دخلت في حياة النبي ﷺ ، وان الله آثرها بفخر أمومتها لابراهيم عليه السلام.

(١) الاستيعاب والإصابة : مارية.

وَصِيَّةٌ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

ثم حسبها بعد هذا كله ، أن دعمت ما بين مصر والجزيرة العربية من صلة عريقة بدأت بهاجر من أعماق الماضي الموغل في القدم ، فجعلت سيدنا خاتم النبيين يوصي بقوم مارية فيقول .

« اللهَ الله ! في أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا » .

وأخرج مسلم في (باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر) حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستفتحون مصر... فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحما » أو قال : « فإن لهم ذمة وصهرا ... » الحديث [١] .

ولقد ترك ﷺ هذه الوصية ميراثا بعده ، فيقال إن الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما طلب إلى معاوية في مفاوضات الصلح بينهما ، أن يرفع الخراج عن أهل قرية « حفن » وفيها خئولة ابراهيم عليه السلام [٢] .

كما يقال إن « عبادة بن الصامت » لما جاء مصر بعد فتحها ، بحث عن تلك القرية وسأل عن موضع بيت مارية ، فبنى به مسجدا ...

---

(١) صحيح مسلم ؛ كتاب الفضائل ١٩٧٠/٤ : ح (٢٥٤٣) والاستيعاب ٥٩/١ .

(٢) بلدان ياقوت : حفن (٣٠٢/٣) .

(١٢)

ميمونة بنت الحارث

آخر أمهات المؤمنين

«ذهبت والله ميمونة... أما إنها والله كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم».

عائشة بنت أبي بكر

الإصابة : ١٩٢/٨

أمنية قلب

لم يكن هنالك شيء يشغل المسلمين بعد فتح «خيبر» وعودة المهاجرين إلى الحبشة، مثل التفكير فيما نص عليه «عهد الحديبية» الذي عقد آخر سنة ست، من أن «يعود محمد وأصحابه إلى مكة في العام الذي يليه، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها، ولا شيء غيرها».

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة إلى «أم القرى» ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا إلى أرض الوطن، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملأوا عيونهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد.

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذي جُعل مثابة للناس وأمنا، يأتون اليه من كل فج عميق.

فلما سمعوا اليه في العام السادس للهجرة حاجين مسالمين وصاروا من «مكة» قاب قوسين أو أدنى، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام، وإن قبلوا أخيرا أن يتركوا المسلمين يعودون إليه في قابل...

* * *

ومرت الأيام بطيئة والليالي طويلات، حتى استدار العام ونادى النبي ﷺ في الناس كي يتجهزوا للخروج إلى مكة.

وركب ناقته «القصواء» وتبعه ألفا راكب من المهاجرين والأنصار يتلهفون شوقا إلى أقدم بيت عُبِد الله فيه، وحرصا على السعي إلى مثابة حجهم ومهوى أفئدتهم.

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة، للقرية المباركة: مهد النبي الهاشمي ومهبط الوحي.

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم باليوم الموعود ، وأمامهم «عبد الله بن رواحة» آخذا بخطام «القصواء» ينشد حاديا : (١)

خلُّوا بني الكفـارِ عن سبيلهْ
خلُّوا ، فكـلُّ الخير في رسوله

...

يـا رب إني مؤمن بقيلـه
أعرف حقَّ الله في قبولـه

حتى دخلوا مكة ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصِّرين لا يخافون ، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد.

وصدق الوعد الحق :

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجدَ الحرامَ إن شاء اللهُ آمنين مُحَلِّقين رءوسَكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا» (٢)

وهتفوا في صوات واحد ملبين :

«لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك».

فتجاوبت أرجاء «مكة» بالهتاف المؤمن ، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام، وأحسوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم :

---

(١) ابن اسحاق في السيرة : ١٣/٤ ، وابن سعد في الطبقات (٨٨/٢).

(٢) آية ٣٧ سورة الفتح.

«لا إله الا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

فما بقي مكي إلا وقد أيقن يومئذ أن يوم النصر الاكبر للمؤمنين جد قريب...

وفعل المشهد المهيب في مكة فعل السحر...

فإذا سيدة من أكرم سيدات مكة يهفو قلبها إلى «محمد» ﷺ.

تلك كانت «برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية» إحدى «الأخوات المؤمنات».

شقيقتها «أم الفضل، لبابة الكبرى بنت الحارث» زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه، وأول امرأة آمنت بعد خديجة عليها السلام، والسيدة التي يذكر لها الإسلام أنها ضربت أبا لهب عدو الله ورسوله. حين دخل بيت أخيه العباس فاحتمل مولاه «أبا رافع» فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه لانه أسلم. فقامت أم الفضل الى عمود هناك، فشجّت رأس أبي لهب شجة منكرة وهي تقول:

«استضعفتَه أن غاب عنه سيده؟؟» فقام مولّياً ذليلا، فما عاش الا سبع ليال حتى رماه الله بداء قتله [1].

وأخوات برة لأمها:

«زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية» أم المؤمنين وأم المساكين. و«أسماء بنت عميس الخثعمية» زرج جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين، وأم ابنه عبد الله. وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدا، ثم خلف عليها الامام علي بن أبي طالب فولدت له يحيى، رضى الله عنهم».

و«سلمى بنت عميس» زوج حمزة بن أبي طالب، أسد الله وشهيد أحد وأم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣٠١/٢.

بنته «أمامة» التي زوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام ربيبه سلمة.

وأمهن جميعا، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، التي كان يقال فيها: «أكرم عجوز في الارض أصهارا هند بنت عوف: أصهارها، رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضي الله عنهما، وجعفر وعلي ابنا أبي طالب رضي الله عنهما».

وكان لهند غير هؤلاء، أصهار آخرون من ذوي المكانة: الوليد بن المغيرة المخزومي، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث، أم خالد، وأبيّ بن خلف الجمحي، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث، أم أبان، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالي، زوج عزة بنت الحارث.

ولبابة، وعصماء، وعزة، بنات الحارث، شقيقات لبرة... (١).

كانت «برة» إذ ذاك أرملة في السادسة والعشرين من عمرها، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامري (٢).

وأفضت «برة» إلى شقيقتها «أم الفضل» بما يهفو اليه قلبها، فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس، وجعلت له يدها.

ولم يتردد «العباس» في حمل رسالة كهذه إلى النبي ﷺ، بل مضى من فوره إلى ابن أخيه، فخاطبه في أمر «برة» وعرض عليه أن يتزوجها، واستجاب المصطفى، وأصدقها أربعمائة درهم، وبعث ابن عمه جعفر - زوج أختها أسماء - يخطبها، وأنكحه إياها، وليّاً عنها، عمه العباس.

وفي رواية أن «برة بنت الحارث» هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، فأنزل الله

---

(١) انظر مع طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (ميمونة بنت الحارث): السيرة ١٩٦/٤، والمحبر ١٠٧، وجمهرة الأنساب لابن حزم ٢٦٢ وعيون الأثر ٣٠٨/٢ والسمط الثمين ١١٣.

(٢) هذه رواية ابن اسحاق في السيرة ١٩٦/٤ - والاستيعاب. وفي اسم الزوج خلاف - راجع تاريخ الطبري: ١٧٨/٣ - والاستيعاب والإصابة والسمط الثمين ١١٥.

تبارك وتعالى فيها : «وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحَها خالصة لك من دون المؤمنين»[1].

قال السهيلي : «لما جاءها الخاطب بالبشرى وكانت على بعير، رمت بنفسها من على البعير وقالت : البعير وما عليه لرسول الله ﷺ».

* * *

وكانت الأيام الثلاثة التي نص عليها عهد الحديبية[2]، قد قاربت نهايتها، فود المصطفى لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج، فيكسب بهذا الامهال مزيدا من الوقت، يمكن للإسلام من هؤلاء الذين لا يزالون يكفرون بألسنتهم عنادا وحسدا...

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان إليه أن يخرج، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه في العهد، قال مسالما :

«ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه؟!»

لكن رسولي قريش، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائعة، إذا امتد مقامه بها أياما أخريات.

وأجابا في جفاء : «لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا»[3].

فنزل على كلمتهما وفاء بعهده، وأذَّن في المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه «أبا رافع» بمكة، ليلحق به في صحبة «برة».

(١) سيرة ابن هشام : ٢٩٦/٤ والاستيعاب ١٩١٦/٤. والإصابة ١٩٢/٨، وعيون الأثر ٣٠٩/٢. كلهم عن الزهري والآية من سورة الاحزاب «رقم ١١٥.

(٢) نص العهد على أن يرجع الرسول وأصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ، السنة السادسة هـ، ثم يدخلها بأصحابه في عام قابل، فيقيموا بها ثلاثة ايام – راجع نص العهد في تاريخ الطبري ٧٩/٣ وطبقات ابن سعد : ٧٠/٢.

(٣) السيرة : ١٤/٤ وطبقات ابن سعد ٨٨/٢ وتاريخ الطبري : ١٠٠/٣، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ١٤٨/٢.

البقعة المباركة

وفي «سرف» قرب التنعيم، على بريد من مكة، جاءت «برة» يصحبها مولى النبي عليه الصلاة والسلام...

فبنى بها ﷺ في شوال من سنة سبع، ثم انصرف بها راجعا إلى «المدينة».

وسماها «ميمونة» أن كان زواجه بها في المناسبة الميمونة الغراء، التي دخل فيها أم القرى، لأول مرة من سبع سنين، ومعه صحابته آمنين لا يخافون...

ودخلت «ميمونة» بيت النبي مسالمة، قد اكتفت من دنياها بما منَّ الله عليها به من نعمة الإسلام، وشرف الزواج بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

وما من ريب في أن الغيرة أخذتها من «عائشة» ثم من «مارية»: أن استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب النبي عليه الصلاة والسلام، وكان للثانية شرف أمومتها لابراهيم.

وما من ريب كذلك في أنها لم تقاوم عاطفة الجماعة، حين جمحت الغيرة بنساء الرسول، وهي منهن، فكانت المغاضبة والهجر.

لكن مؤرخي الإسلام وكتاب السيرة، لا يذكرون لها، فيما عدا ذلك، حادثة خصومة انفردت بها، أو شجار شبَّته في البيت المحمدي.

وإنما صح في الحديث أنه ﷺ كان في بيتها حين اشتد به الوجع في مرض الموت، فرضيت أن ينتقل ليُمرَض حيث أحب، في بيت عائشة.

---

(١) السيرة: ١٤/٤ – وتاريخ الطبري: ١٠١/٣ – والاستيعاب: ١٩٢٨/٤ ووفاء الوفا للسمهودي: ٣١٦/١.

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه الأعلى، عاشت «ميمونة» تذكر اليوم الميمون الذي جمعها بخير البشر، وتحن إلى البقعة المباركة في «سرف» حيث بنى بها...

وقد أوصت ان تدفن في موضع قبتها هناك، فلما ماتت سنة إحدى وخمسين، على الأرجح صلى عليها ابن أختها عبد الله بن عباس، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها. حتى أرقدوها حيث أحبت...(١)

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة...

حدث «يزيد بن الأصم»:

«تلقيت عائشة من مكة، أنا وابنٌ لطلحةَ من أختها، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه... فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه، ثم أقبلت علي فوعظتني موعظة بليغة ثم قالت: أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك في بيت من بيوت نبيه؟... ذهبت والله ميمونة، ورُمي بحبلك على غاربك. أما أنها كانت والله من أتقانا لله، وأوصلنا للرحم»(٢).

ولأمّ المؤمنين ميمونة ستة وأربعون حديثا عن الأئمة الستة. روى عنها عبد الله بن عباس ويزيد بن الأصم وجماعة من التابعين.

سلام على ميمونة...

وسلام على نساء النبي ﷺ، أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

* * *

---

(١) لاخلاف في مدفنها في موضع قبتها بسرق. لكنهم اختلفوا في تاريخ وفاتها. نقل ابن سعد عن الواقدي أنها ماتت سنة إحدى وستين. وقال ابن عبد البر: سنة إحدى وخمسين، وقال ابن حجر: هو الأثبت. وتعقب قول الواقدي فوهمه فيه مستدلا بحديث عائشة بعد وفاة ميمونة رضي الله عنها. ولم يذكر ابن سيد الناس في وفاتها غير سنة إحدى وخمسين، وقد بلغت ثمانين سنة (عيون الأثر ٣٠٩/٢).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات بسنده إلى يزيد. وحكاه ابن حجر عنه.

الكتابُ الثالث

بناتُ النبيّ

(عليه الصلاة والسلام)

بنات النبيّ

(عليه الصلاة والسلام)

تقديم :

تمضيَ القرون والأدهار، وشخصية «محمد ﷺ» موضع اهتمام الكتّاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا، ويلتمسون لديها ما يجلو أسرار العظمة الانسانية كما تمثلت في بشر رسول، بهر الدنيا وصنع التاريخ، وإنه ليأكل الطعام ويمشي في الأسواق...

ذلك لأن الانسانية – على كثرة من عرفت في تاريخها الطويل من رسل وأنبياء، وقادة وأبطال – ستظل أبد الدهر ترنو الى هذا النبي العربي الذي اصطفاه الله تعالى بشرا رسولا، فكانت هذه البشرية آية عظمته، بقدر ما هي تكريم للبشرية.

وحين تختلف بالناس الأديان، وتفرقهم المذاهب والملل والأهواء أحزابا وشيعا، تظل البشرية ما بقيت، تباهي بأن يكون منها نبي، حمل الى الدنيا رسالة التوحيد التي رفعت عنها وصمة الوثنية ولعنة الشِّرك، وجاء الناس بدين الاسلام الذي يقرر بشرية الرسل، أصلا من أصول العقيدة:

«قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده».

«قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد».

«قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا».

«وما منع النّاسَ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أنْ قالوا أَبعَثَ اللهُ بشرا رسولا».

«ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلُنا بالبينات ، فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا ، واستغنى الله ، والله غني حميد» .

وهذا الايمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذي وجَّه دراساتي للجوانب التي اخترتها من شخصيته الفذة : فكان كتابي عن «أم النبي» محاولة لفهم جانب البنوة في الوليد اليتيم الذي وضعته امرأة من قريش تأكل القديد ، كما تضع كل انثى من البشر ، ليكون بعد أن يبلغ أشده ، المصطفى المبعوث بآخر رسالات الدين .

وكان كتابي عن «نساء النبي» ﷺ محاولة لدرس شخصية الزوج الرسول ، إذ يمارس حياته الزوجية في بيته ببشرية سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والرغبات ، ولم تنكر على نسائه – أمهات المؤمنين – نوازع الفطرة وميراث حواء !

وهذا كتابي عن «بنات النبي» ﷺ أحاول فيه أن أقدم شخصية الأب الرسول ، وأن أجتلي عاطفة الأبوة ، ممثلة في شخص نبي إنسان ، سواه الله بشرا وأراد له أن يكون والدا لبناتٍ أربع ، في بيئة وأدت الإناث وفُتِنت بالبنين ...

* * *

وبعد ، فأحسب أن قارئي يقدر أن لموضوع هذا الكتاب من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلي ، ما يحميه من شطط القلم وجموح الخيال ، ومن ثم لا أراني في حاجة الى أن أؤكد أن مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قد أخذت من مصادرها الأصول ، وأن ليس لي من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل وأسلوب التناول والأداء ...

لكنما يعنيني هنا أن أقول : إنه اذا كان بعض قومي يتحرجون من التحدث عن الجانب البشري في حياة الرسول زوجا وأبا ، فإني لأحمد الله على أن عصم ايماني من مثل هذا التحرج المنكر الذي يشعر بأن من أنباء الحياة الخاصة لخاتم الأنبياء ، ما يحتاج الى سترٍ أو كتمان ! ... ومعاذ الايمان بعظمة الرسول الكريم الذي تلا علينا من

هذه الأنباء ، آيات قرآنية يتعبد بها منا من يؤمن بالله ، ويصدق برسالة محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ، عليه الصلاة والسلام...

مصر الجديدة

رمضان: ١٣٨٢ هـ — بنت الشاطئ

مارس : ١٩٦٣ م

المبحث الأول

الأبوة في المجتمع العربي

- الأبوة في الجاهلية

- الأبوة العربية في الرسالة المحمدية وفي شخص رسول الله عليه الصلاة والسلام

الأبوة في الجاهلية

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبي ﷺ ، بدأت أقرأ في كتب السيرة والحديث والتاريخ . لأستخلص منها ما يتصل بهؤلاء الكريمات اللواتي شُرفن بأمجد أبوة عرفتها البشرية منذ كانت . غير أني ما كدت أمضي في القراءة ، حتى وجدت أني لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع ، اذا لم أبدأ قبل كل شيء بدراسة متفرغة لأبوة محمد ، وهي دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب الى خبرة دقيقة بالمجتمع العربي ومعرفة مكان الأبوة فيه ، ليكون لنا من هذا كله ما يجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا ادراكا لنواحي السمو والجلال فيها .

والحديث عن الأبوة في المجتمع العربي ، حديث يطول ، وأخشى إذا أنا أرسلت قلمي يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الأصيل الذي يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه في مباحث ثلاثة : ألم في أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، وأنتقل منها الى هذه الأبوة كما تعرفها في الرسالة المحمدية ، ومن ثم في شخص الأب الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

* * *

أما الأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكنا اذا ذكرنا أن محمدا ﷺ تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الأربع جميعا قد ولدن في الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، اذا ذكرنا هذا ثم أضفنا اليه ما نعرف من احتكام الوراثة

وأثر البيئة ، بدت لنا صلة «الأبوة العربية في الجاهلية» بموضوعنا ، قوية وثيقة الى حد لا يسمح لنا بتجاهلها أو التغاضي عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن «محمد» ﷺ في أبوته...

ذلك لأنه اذا كان المنهج العلمي ، يأبى علينا أن نبتر شخصا من بيئته التي صنعته ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجداده الذين تنقل في أصلابهم جيلا بعد جيل ، فنحن أولى بأن نذكر هذا ، في الحديث عن بشر رسول ، طالما اعترف بفعل الوراثة في مثل قوله : «تخيروا لنطفكم فان العرق دساس» أو قوله : «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما» وقال عليه الصلاة والسلام : «إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم»[1] كما اعتز بأمهاته «العواتك من سُليم» ، وبأنه ابن امرأةٍ من قريش تأكل القديد...

وهذه الفطرة البشرية السوية فيه ، تعدها الإنسانية - كما قلت غير مرة - على اختلاف الأديان والأجناس ، وعلى مر الأحقاب والأدهار ، من آيات عظمته وأسرار بطولته ، وهي التي تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوة «محمد» إلى ماض قريب وبعيد ، ملتمسين من صميم البيئة العربية في جاهليتها ، الأصول الأولى للأبوة التي تجلت لنا في «محمد بن عبد الله» قبل مبعثه ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا ورسولا...

والملحظ الأول الذي نسجله هنا ، هو أن المجتمع العربي في الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللأبوة في هذا النظام مقام جليل وشأن ذو خطر ، ذلك لأن القبيلة في أصلها لا تعدو أن تكون فروعا تكاثرت من جذر واحد هو الأب الذي تنتمي اليه. ثم ، بمضي الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو ما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه. وانظر (عيون الأثر ١/٢٣).

نرى في انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن أصلها الأول ، عندما تتهيأ لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الأصل...

ويحدث أحيانا ، أن تنتمي القبيلة إلى الأم ، وهو طور عرفته العربية في جاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار في أنساب العرب المسلمين ...

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة – الذي هو في الواقع أبوها الكبير – ملكا غير متوج ، وحاكما لا يُعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سلطانه ، كان هذا السلوك خروجا على أعراف القبيلة ، جزاؤه الخلع والطرد والنبذ من مجتمع القوم...

وما بنا من حاجة الى التماس الشواهد على ما كان للأب من مكانة في الجاهلية العربية ، فما ذاك بالأمر الذي يخفى ، ولنا أن نقول بعد هذا إن لقريش على وجه الخصوص ، أن تدَّعي فضلَ تمثيلها لأعزِّ ما عرف المجتمع العربي من تكريم للأبوة ، اذ كانت هي القبيلة التي ذهبت بأكثر ما للعرب في الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى غيرها . فلا ريب أن اعتزَّت بالأصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب وتخير الأرحام ، وآية ذلك ما نرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به إلى قرون وأجيال ، لم يفتها منه أم ولا أب ، على ما نعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية ، والعهد بهم جد قديم . ولا يشغلنا اتهام بعض المحدَثين المفتونين ، بأنها أنساب اختُرِعَتْ بأخرة . فقد صح منها على ضوابط المنهج النقلي ما يصل إلى عدنان وقحطان [1] ثم ان هذا الاتهام على وهنه ، أبلغ في الدلالة على ما للأبوة من خطر في تقدير القوم ، والا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الأنساب يسدون بها الثغرات التي تركتها أنامل الزمن في تاريخ العرب الطويل...

(١) راجع فيه : مقدمة ابن عبد البر لكتابه « القصد والأَمَم في أنساب العرب والعجم » ومقدمة ابن حزم لكتابه (جمهرة أنساب العرب).

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان أظهر ما يميز المجتمع العربي ، وأن تكريم الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب في هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الديني بقصة جدهم «اسماعيل» الذبيح الذي جاد بالحياة طاعة لأبيه ، وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق (١) ، ثم يختمون تاريخهم الديني في الجاهلية ، بقصة بني عبد المطلب الذين ما ترددوا في طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة . لو بلغوا عشرة ، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم الى الكعبة ، حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح (٢) .

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للأوثان بعد أن دعاهم محمد - ﷺ - الى التوحيد ، الا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين :

«وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون»؟ (٣)

«فلا تكُ في مِرْيَةٍ مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل» (٤)

وما نقموا على «محمد ، ﷺ» شيئا كما نقموا عليه أن غضَّ من آبائهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل إن «أبا طالب» نفسه - عم النبي وكافله - ودَّ لو يتبع ابنَ أخيه ، لولا أن وجد غضاضة في مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : «أي ابن أخي ، اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلصْ اليك شيء نكرهه ما بقيت» (٥) .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/١٩١ ط الحسينية.
وانظر آية ١٠٢ سورة الصافات ، وأقوال المفسرين فيها.

(٢) السيرة ١/١٦٠ : ١٦٤ ط الحلبي وتاريخ الطبري : ٢/١٧٤ .

(٣) البقرة ١٧٠ ، وانظر معها آيات : لقمان «٢١» والمائدة «١٠٤» والاعراف «٢٨».

(٤) سورة هود : ١٠٩ .

(٥) السيرة ١/٢٦٤ . وتاريخ الطبري ٢/٢١٤ .

وكذلك فعلت العرب البائدة في سالف الحقب وغابر الدهور: ردوا رسلهم بمثل ما ردت به قريش رسولها، فقوم عاد قالوا لنبيهم هود: «أجئتنا لنعبد الله وحده، ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا» (١).

وثمود: «قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب» (٢).

هم الآباء دائما: سُنتهم عبادة، ودينُهم ميراث، واتّباعهم فرض محتوم.

ونظام القبيلة، الذي جعل للأبوة مثل تلك المكانة في المجتمع العربي القديم، هو نفسه الذي جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب ويباهون بكثرة الولد، اذ كانت القوة والكثرة، هما مناط العزة والمنعة، وقوام الحياة في مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش. فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة، كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ...

ونذكر هنا – حديث «عبد المطلب» – جد المصطفى عليه الصلاة والسلام – وقد انتهت اليه سقاية الحجيج وراثة عن جده «قصيّ» فكان يلقى في سبيل ذلك كل المشقة والعناء. واذ يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم التي طُمِرت تحت رمال الزمن، تلح عليه الرؤى في أن يمضي للتنقيب عن البئر المباركة التي بثت الحياة في الوادي الأجرد، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل. فيمضي «عبد المطلب» ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذ ولد غيره، فما كاد يجيء بالمعول ويبدأ في الحفر حتى قامت اليه قريش، تقسم ألا تتركه يحفر في ذلك المكان الذي شاءت الأقدار أن يقع بين الوثنين الكبيرين: «أساف ونائلة». وأدرك عبد المطلب أن قريشا إنما استضعفته لقلة ولده، فنذر لئن وُلِدَ له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه،

(١) سورة الاعراف آية ٧٠.

(٢) سورة هود ٦٢ – وانظر معها آيات: الزخرف ٢٣، لقمان ٢١. ابراهيم ١٠.

لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. ثم تلا ذلك ما هو ذائع معروف من انطلاقه ببنيه العشرة الى الكعبة وخروج السهم على عبد الله – أصغر بنيه – فهمَّ بذبحه لولا أن كان الفداء! [1]

وللقصة دلالتها الصادقة على الاعتزاز بكثرة الولد في مجتمع القبائل، حيث لا أمل لإحداها في البقاء، إذا لم يكن لها من أبنائها من يمنعونها ويحمون حماها...

ولا أريد أن أدع الحديث عن الأبوة والبنوة عند العرب الأولين، دون أن أعرض هنا مشهدا إنسانيا مؤثرا، من القرآن الكريم، لعاطفة الأبوة وما لها من سلطان قاهر لا قبل لبشر بمقاومته – حين يدعو الواجب – ولو كان من الأنبياء المصطفين. ذلك هو مشهد «نوح» عليه السلام، حين ركب ومن اتبعوه في سفينته:

«وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بنيَّ اركبْ معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموجُ فكان من المغرَقين * وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ويا سماءُ أقلعي وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمر واستوت على الجُودِيِّ وقيل بُعْداً للقوم الظالمين * ونادى نوح ربَّه فقال ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدَك الحقُّ وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غيرُ صالح فلا تسألنِ ما ليس لك به علمٌ إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذ بك أن اسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفرْ لي وترحمْني أكن من الخاسرين * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممن معك، وأممٌ سنمتعهم ثم يَمسهم منا عذاب أليم» [2].

فما أرحم الأبوة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه. وهذه الآيات

(1) ابن هشام: السيرة ١/٢٦٤ – تاريخ الطبري ٢/١٧٤.

(2) سورة هود، الآيات ٤٢: ٤٨.

البينات لا تجحد بشرية الأنبياء ولا تبرئهم من نوازع غريزة لولاها لما قامت حياة...

والله تعالى لم يلعن الأب بدعائه للابن الضال، ولم يطرد به عبدَه نوحا من رحمته، ويحرمه شرف مكانه رسولا يدعو إلى الحق، بل وعظه، جل جلاله، ثم أمره أن يهبطه بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه!

وسلام على ابراهيم إذ يدعو ربه:

«ربِّ اجعل هذا البلد آمنا واجنُبْني وبنيَّ أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم»(١)...

* * *

هل لنا أن نقول بعد هذا، ان علاقة الآباء بالأبناء في المجتمع العربي بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا العصري الحديث، الذي يميل بالتدريج نحو الانفصام، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليده الموروثة في الأبوة والبنوة، فيعترف للآباء بحقهم في تحديد النسل، وللابناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال، بل ربما اعترف لهم أحيانا بأنهم أحق بالحياة بما هم أصحاب الغد. وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق!!

وقلما يفتش مجتمعنا العصري عن آباء الرجل وأجداده، على حين كان المجتمع العربي القديم يعتز بكرم الأبوة وعراقة الأصل وشرف المنبت، ويرى في هذا ومثله مدعاة للفخر الذي ما بعده فخر.

(١) سورة ابراهيم. الآيتان ٣٥، ٣٦.

الأبوّة العربيّة

في الرسالة المحمدية، وفي شخص الرسول

من فجر المبعث. عرفت قريش أن رسالة التوحيد تدعو إلى نبذ دين الآباء، وتمحق الأصنام والأوثان التي ظلوا لها عاكفين...

وما كانت قريش لتأبى أن تصغي إلى الأمين الذي ما عهدت عليه كذبا قط، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد، ولا يرضى بما دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء:

«وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون...»؟[1]...

على أن القرآن الكريم في محقه لوثنية الأسلاف، أبقى للأبوة حرمتها فجعل برَّ الوالدين تاليا للتوحيد «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا، إما يبلغن عندك الكبرَ أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرْهما وقل لهما قولا كريما، واخفِضْ لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا»[2].

ولم يأذن الاسلام للابن بعقوق الأبوين حتى مع الشرك، بل الذي يباح له، هو ألا يطيعهما في ذلك، دون أن يهدر حقهما عليه في أن يصاحبهما في الدنيا معروفا:

«ووصينا الانسان بوالديه حملتْه أمُّه وهنا على وهن وفصالُه في عامين أنِ اشكرْ لي ولوالديك إليَّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا

---

(١) آية ١٧٠ سورة البقرة.

(٢) الاسراء: آيتا ٢٣، ٢٤ وانظر معها آيتي: ٣٦ النساء، ١٥١ الانعام.

تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبعْ سبيلَ مَنْ أناب إليَّ، ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون»(١).

وعرض القرآن كذلك للبنوة، فصرح في آيات محكمات بأن البنين زينة الحياة الدنيا، وعدَّهم من النعم الكبرى التي منَّ الله بها على عباده:

«يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا».

«المال والبنون زينة الحياة الدنيا»(٢).

ويقال هنا إن القرآن الكريم حذرنا من الفتنة بالأبناء، لما يعلم من إسرافنا في حبهم والتعلق بهم فطرة الله التي فطر الناس عليها:

«زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حسنُ المآب». (٣)

«واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم»(٤).

لكن في هذا التحذير تنبيها على ما للبنين علينا من سلطان يشق علينا أن نقاومه، وما لهم في قلوبنا من حب قد يعمي ويصم...

* * *

والعلاقة بين الأبناء والآباء تأخذ في الرسالة المحمدية وضعا ساميا، بحيث لا

---

(١) سورة لقمان: ١٤، ١٥.

(٢) معها آيات المدثر ١١ – ١٦. النحل: ٧٢ المؤمنون ٥٥. الشعراء ١٣٣.

(٣) آل عمران ١٤، ومعها آيات: الحديد ٢٠ سبأ، المنافقون ٩، التغابن ١٥.

(٤) الأنفال: ٢٨، وانظر معها: التغابن ١٥. آل عمران ١٠، المنافقون ٩، سبأ ٣٧.

يهدرها اختلافُ الدين ولا يفصمها تباين العقيدة. وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أن نتلو هذه الآيات في هول اليوم الآخر:

«يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤويه» المعارج ١٠ - ١٢.

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يومَ ترونها تَذهَلُ كلُّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها. وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد». الحج ١ - ٢.

وقد كان النبي ﷺ القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الأعلى فيهم، فرأى المسلمون من أفعاله ﷺ، وسمعوا من أحاديثه، ما لمس أعمق مشاعر الأبوة فيهم، واستثار أنبل ما في نفوسهم التي جُبِلت على توقير الآباء ورعاية الأبناء...

قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»[١].

وقدَّم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله: أقبل رجل على النبي ﷺ فقال: جئت أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله قال: «فهل من والديك أحد حي؟» قال: نعم. قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»[٢].

وحدث الصحابي «معاوية بن جاهمة السلمي» رضي الله عنه قال: «أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة. قال: ويحك، أحيَّة أمُّك؟.. قلت: نعم... قال: ارجع فبِرها.

«ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت: يا رسول الله اني كنت أردت الجهاد معك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، من عدة طرق.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة.

أبتغي وجه الله والدار الآخرة ، قال : ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله. قال : فارجع اليها فبرها...

«ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ما قلت ، فقال : ويحك !.. الزم رجلها ، فثمَّ الجنة !» (١).

وفي كتاب الإيمان من الصحيحين حديث عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ : «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال : «نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما؟... قال : «هما جنتك ونارك».

وإنه لحق لا يهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : قدمت عليَّ أمي وهي مشركة ، في عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيتُه قائلة : إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصِل أمي؟... قال : «نعم... صِلي أمَّك».

وأخرج مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة ، فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، قلت : يا رسول الله ، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ . فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة. «اللهم اهدِ أمَّ أبي هريرة» فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله ﷺ . فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجافٍ ، فسمعتْ أمي خَشْفَ قَدميَّ فقالت : مكانك. وسمعت خضخضة الماء. قال : فاغتسلتْ ولبستْ دِرعَها وعجلتْ عن خمارها. ففتحتْ الباب ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد

---

(١) في رواية ابن عبد البر بالاستيعاب (١٤١٣/٣) أنه ﷺ قال لمعاوية : «فالزمْها ، فإن الجنة تحت قدميها»

أن محمدا عبده ورسوله . فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي من الفرح ، قلت : يا رسول الله ، أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدَى أم أبي هريرة . فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا ...

* * *

وكذلك لا ينقطع هذا البر بالموت : «عن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ اذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟.. قال : نعم ... الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصَل الا بهما ، وإكرام صديقهما » .

وانما استحقت الأبوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل في سبيل الأبناء ، ولما تمنح من حب صادق وحنان خالص . ولأنها في جوهرها بذل وتضحية وإيثار. ورسول الله ﷺ في انسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا وينفعل به . حدثوا أن سبيا قدم على النبي ﷺ بالمدينة «فإذا امرأة منهم قد تحلب ثديها . إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها في النار؟.. قالوا : لا ، وهي تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها »(١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : «كنا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته ، فمر بقوم ، وامرأة فيهم تحصب تنورها ومعها ابن لها ، فاذا ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأتت النبي ﷺ فقالت : أنت رسول الله؟.. قال : نعم ... قالت : بأبي أنت وأمي ، أليس بأرحم الراحمين؟.. قال : بلى ... قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها؟.. قال : بلى ... قالت : فان الأم لا تلقي ولدها في النار.

---

(١) صحيح البخاري : ك ٧٨ باب ١٨ وسنن ابن ماجة : ك ٣٧ باب ٣٥.

فأكب رسول الله ﷺ يبكي ثم رفع رأسه لها وقال: ان الله لا يعذب من عباده الا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا اله الا الله».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتت امرأة النبي ﷺ بصبي لها فقالت: ادع الله له فلقد دفنتُ ثلاثة... قال: دفنتِ ثلاثة؟.. لقد احتظرت بحظار شديد من النار».

وأخرج مسلم في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتُقبِّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. قالوا: لكنا والله ما نفعل. فقال رسول الله ﷺ: «وأمِلكُ، إن كان الله نزع منكم الرحمة؟».

وأخرج معه حديث أبي هريرة، قال: إن الأقرع بن حابس التميمي أبصر رسول الله ﷺ يقبل الحسن. فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم. فقال رسول الله ﷺ: «إن منْ لا يَرحم، لا يُرحم».

* * *

وليس عجبا من دين الفطرة، ألا يوصي الوالدين بولدهما كما وصَّى الإنسان بوالديه. ذلك لأن الفطرة السوية تعرف عقوق الأبناء، فأما عقوق الآباء فلا تعرفه أبدا. وعلى هذا المبدأ، تقرر في الشرع أن «لا يُقادَ والد بولده» فالأصل في الأب أن يفتدي ولده بالمهجة والروح، ومحال أن يقتله إلا تحت وطأة ظروف فادحة تشل إرادته وتخرجه عن أبوته وتفقده وعيه ورشده.

المبحث الثاني

الأنثى في المجتمع العربيّ

- ليس الذكر كالأنثى
- « وإذا المَوْؤُدة سُئِلت »
- « المثل والقدوة »

ليس الذكر كالأنثى

في التناسل بقاء النوع. وكل كائن حي مدفوع إليه بأقوى غرائزه. وينفرد الإنسان بأنه الذي يعي سنة الفطرة ويدرك حكمة التناسل، ويتعلق طموحه بأن يكون ولده امتدادا لحياته على وجه أصلح، ومطمح آماله الكبار.

لكن الذي يبدو شذوذا في منطق الفطرة، هو كراهة الآباء مولد الإناث، وهن حاملات أجنة البشرية والمرجوات للإنجاب الذي نعرف ولعهم به وحرصهم عليه.

والإنجاب في عُرف الأسلاف، لا يكون إلا بالأولاد الذكور، وإذا قالوا: منجبات العرب، فإنما يعنون بالمنجبة منهن «مَن ولدت ثلاثة بنين فأكثر، شرُفوا في قومهم»[1] ففيم كرهوا مولد الأنثى، ولا سبيل إلى إنجاب دون أمهات؟

نميل إلى القول بأن ظروف الحياة في الأزمنة القديمة أغرتهم بالحرص على كثرة الولد، والزهد في الإناث. فما هن بحيث يمنعن الحمى ويحمين الذمار، ولا فيهن غنية حين يُهدد وجود القبيلة. وهن بعدُ هدف العدو إذا غار، يقصدهن بالسبي الذي يورث القبيلة ذل العُمر وعار الأبد.

وغني عن البيان أن ذلك قديم في البشرية، وليس قصرا على العرب وحدهم، وفي القرآن الكريم من سورة آل عمران:

«إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتْها قالت رب إني وضعتها أنثى، والله أعلمُ بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» ٣٤ – ٣٥

* * *

(١) المحبر لابن حبيب: ٤٥٥.

وفي حديثنا عن المجتمع العربي بخاصة ، نذكر الشائع المعروف من زهدهم في البنات وما حملوا من همهن ، قال شاعرهم :

إني وإنْ سيق إليّ المهرُ
ألفٌ ، وعبدان ، وذُودٌ عشر
أحَبُّ أصهاري إليّ القبر

وكانوا في خطبة المرأة بالجاهلية ، إن كان الخاطبُ من العشيرة قال أبوها أو أخوها إذا حملها إليه : «أيسرتِ وأذكرتِ ولا آنثتِ ، جعل الله منك عددا وعزا وجلدا ...»

وإذا زُوجت في غربة ، قال لها : «لا أيسرتِ ولا أذكرتِ ، فإنك تُدنين البعداء وتلدين الغرباء ...» (١)

وغريب في المنطق ، أن يكون هذا موقفهم من الإناث ، مع المأثور من تقديسهم للأمومة ، والمحفوظ من غزلياتهم السائرة في النساء ، واعتزازهم بالانتماء إلى المنجبات . ولا يُعرف قط أنهم وصفوا الآباء بالمنجبين ، أو مدحوا سيدا بأنه ابنُ منجب !

وأعجب منه في شذوذ المنطق ، أنهم كانوا يسمون الملائكة تسمية الأنثى :

«إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا»

النجم ٢٦ – ٢٧

ويقولون إنها بنات الله (النحل ٥٧ ، والإسراء ٤٠ ، والطور ٣٩) .

وكذلك سموا أصنامهم تسمية الأنثى ، وأشركوها بالله تعالى في عبادتهم :

---

(١) المحبر: ٣١٠.

«أفرأيتم اللات والعُزَّى * ومَناةَ الثالثة الأخرى * ألكم الذكرُ وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى».

النجم ١٩ – ٢٢

وكانت لهم طقوس عجيبة في القرابين من الأنعام التي جعلوها لآلهتهم ؛ منافعها وألبان الإناث منها للرجال دون الإناث ، إلا أن تموت البهيمة التي جعلوها للآلهة ، إلا أن تموت البهيمة التي جعلوها للآلهة ، فعندئذ يشترك في أكلها الرجال والنساء [١] ، قال تعالى :

«وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومُحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء».

الأنعام ١٣٩

---

(١) بتفصيل في كتاب المحبر: ٣٣٠ – ٣٣١.

«وإذا المَوْؤُدَة سُئِلَتْ»

ثم إن هؤلاء الذين جعلوا لله البنات وسموا الملائكة والأصنام المعبودة تسمية الأنثى ، هم الذين وأدوا البنات ، على ما في الوأد من وحشية ضارية تنفي الوائد عن الآدمية.

ولقد قيل في تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يئدون الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤما منها ، ويأسا من تزويجها وفيها عاهة .

وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفا من الفضيحة والعار...

ويقال إن أول من فعل ذلك «لقمان بن عاد» من العرب البائدة ، وذلك أنه رُوع بخيانة نسائه فراح يقتلهن انتقاما واشتفاء ، واذ انحدر الى الطريق اثر المذبحة ، لقي ابنته فوثب عليها وقتلها متأثرا بما جرب على النساء من خيانة وسوء...

ومنه الوأد اتقاء لعار السبي أو الزواج من غير كفء ، كالذي حكاه بعض المفسرين ، من أن «النعمان بن المنذر» أغار على تميم حين منعته الاتاوة ، فحاربهم وسبى نساءهم. ولما ذهب «قيس بن عاصم» ، سيد تميم ، ليسترد سباياه ، تخلفت بنتٌ له مؤثرة أن تبقى مع النعمان ، فعاد «قيس» وقد جُنَّ غضبه فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لا تولَد له بنت إلا وأدها ، واقتدى به رجال من تميم وغيرهم (١) .

وأخرج الحافظ ابن حجر في ترجمة «قيس بن عاصم» من طريق الزبير بن بكار في الموفقيات : «قال أبو بكر لقيس بن عاصم : ما حملك على أن وأدت – وكان أول من وأد – فقال : خشيت أن يخلف عليهن غير كفء» .

وأخرج كذلك من طريق الحافظ «ابن مفده» بسنده إلى النعمان بن بشير الأنصاري ، قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول – وسئل عن الآية : « وإذا

الموءودة سئلت » – فقال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : إني وأدت ثماني بنات لي في الجاهلية. فقال : «أعتِقْ عن كل واحدة منهن رقبة» الحديث [١]

* * *

ووأدُوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن ، لما عرفوا من عجز الأنثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت على التعرض لعوادي الزمن وأفاعيل الدنيا. واختاروا مرارة الثكل وفجيعة الحزن ، على احتمال همٍّ الأنثى ومعاناة الكرب الذي قال فيه الشاعر :

وزادني رغبةً في العيش معرفتي ذلُّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عمٍّ أو جفاءَ أخ وكنت أبكي عليها من أذى الكَلِم
تهوى حياتي وأهوى موتَها شفَقا والموت أكرم نزَّال على الحرم
إذا تذكرتُ بِنتي حين تندبني فاضتْ لعبرةِ بنتي عَبرتي بدمِ

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمتُ. فلا همٌّ يؤرقني بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حلم

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قُدمت فيها الإناث قرابين إلى الآلهة ، على نحو ما عُرِف عن مصر قبل الإسلام من تقديم عروسٍ للنيل ضحية وقربانا. ولعل لهذا صلة بما أشرنا إليه آنفا ، من تسميتهم الملائكة والأصنام تسمية الأنثى ، على ما في هذا من شذوذ المنطق.

ولو كان الأمر في مثل هذا يخضع للعقل والمنطق ، لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماء إناث ، لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة لا تدع لصاحبها عقلا. وما دام الناس من ذكر وأنثى ، فليتقاسموهما مع الله : لهم البنون ولله الاناث :

---

(١) الإصابة : ٢٥٨/٢ رقم (٧١٨٨) ونحوه في تفسير الطبري لآية الموءودة من سورة التكوير.

«فاستفتِهم ألربِّك البناتُ ولهم البنونَ * أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولدَ اللهُ، وإنهم لكاذبون * أصطفى البناتِ على البنين * ما لكم كيف تحكمون.» ١٤٩ - ١٥٤

* * *

ووأدوا خشية فقر وإملاق، والرواة يذكرون في ذلك مئات ممن استنقذهن «صعصعة بن ناجية» من الوأد لهذا السبب وحده، وأخريات فداهن «زيد بن عمرو ابن نفيل القرشي العدوي» أبو الصحابي سعيد، أحد العشرة رضي الله عنهم.

فأما صعصعة، فيقال إن أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة، وغير بعيد منه امرأة تبكي متشبثة بوليدة لها. فلما سألها صعصعة عما بها، أشارت إلى الرجل وقالت: هذا زوجي يريد أن يئد ابنتي. وانثنى صعصعة إلى الرجل يسأله: ما حملك على هذا؟ قال: الفقر.

فافتداها منه بناقتين يتبعها أولادهما، وعاش السيد الكريم لا يسمع بموءودة عن فقر إلا سعى في فدائها، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا، باهى به حفيده «الفرزدق» قائلا:

وجَدِّي الذي منع الوائداتِ وأحيا الوئيد فلم يوأدِ(٢)
أجار بنات الوائدين ومن يجر على الفقر يعلم أنه غير مخفر

وأما «زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوى» فكان إذا سمع بفقير يهم بوأد ابنته، مضى إليه فقال: «لا تقتلها، أنا أكفيك مئونتها». فإذا كبرت عاد بها إلى أبيها فراجعه في أمرها، وخيَّره بين استردادها أو بقائها حيث هي، في كنف الذي استحياها...

---

(١) سورة النجم، آيتا ٢٧، ٢٨. وانظر معها: النساء ١١٦، والاسراء ٤٠ والزخرف ١٩ - وانظر كذلك مادة (أنثى) في (مفردات القرآن: للراغب الاصفهاني).

(٢) في رواية: «ومنا الذي منع الوائدات» أنظر هامش ص ٢٤٠ من السيرة ج ١.

قال «ابن اسحاق» في السيرة:

«حُدِّثتُ أن سعيد بن زيد بن عمرو، وعمر بن الخطاب - وهو ابن عمه وصهره - قالا لرسول الله ﷺ: أنستغفر لزيد؟... قال: نعم، فإنه يُبعث أمةً وحده»... [1]

* * *

والراجح أن الوأد عن إملاق، كان الغالب فيهم. إذ خصه القرآن بالذكر في آيتين:

الأنعام: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» ١٥١

والإسراء: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً» ٣١

ولم يرد لفظ «إملاق» في غير هذين الموضعين. ومعناه الفقر بنفاد المال لا يبقى منه شيء. ومن استعماله في العربية: مَلَق الثوب غسله، والولدُ أمَّه رضعها. فذكر الإملاق في الآيتين - دون الفقر وهو من معجم ألفاظ القرآن - شاهد على أن الرجل منهم لم يكن يقتل ولده إلا وهو معدم لم يبق له من المال شيء.

ويصف لنا «الزمخشري» كيف كان يتم الوأد: «يخرج الرجل وليدته وقد حفر لها بئرا في الصحراء، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر. وقيل كانت الحامل اذا أوشكت على الوضع حُفرت حفرة ونقلت قريبا منها عندما يجيئها المخاض، فاذا ولدت بنتا رموا بها في الحفرة، وإن ولدت ذكرا أمسكوا وعادوا به» [2].

* * *

---

(١) السيرة ١/٢٤٠ ومعها الاستيعاب ترجمة سعيد بن زيد رضي الله عنه ٢/٨١٧.
وانظر نسب عمر بن الخطاب بن نفيل، وزيد بن عمرو بن نفيل، في ولد عدي بن كعب بكتاب (نسب قريش: ٣٤٧).

(٢) الكشاف: ٤/١٨٨ آية الموءودة من سورة التكوير.

تلك صورة بشعة ومتناقضة لوضع الأنثى في الجاهلية ، وليس بالغريب أن تواري بشاعتها أوضاعا أخرى كريمة لبنات العرب ، كن فيها موضع الاعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تطغى تلك الأخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من إيثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والأرواح ، وأن يظل الصدى الحزين الذي يُرجِّع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن التكالى ، يصدَع سمع الإنسانية ، بحيث تتوه فيه أصداء أخرى ، تتناهى إلينا من قديم العرب البائدة ، حيث تروي الأساطير قصة فتاة جديس – وقد نقلها المسعودي في مروج الذهب – التي حررت قومها من جبروت ملك طسم وإذلاله ، حين ثارت على الشرط المشئوم الذي كان يقضي بألا تُزف عروس من جديس إلى زوجها ، إلا بعد أن تقضي ليلة في فراش الطاغية . وخرجت الثائرة ، من المخدع الملكي ، فانطلقت في الحي بثياب عرسها الممزقة ، الملوثة بدماء العار ، وهي تصرخ :

لا أحـد أذل من جـديس
أهكـــذا يفعـــل بـــالعروس !

ثم أبت أن تمضي الى زوجها ، وقادت معركة باسلة انتهت بنصر جديس ومقتل الطاغية ...

وكذلك تاه في غمار مأساة الوأد ، مثلُ حديث « بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائي » حين خطبها « الحارث بن عوف » سيد بني عبس ، فلما أراد الدخول عليها كرهت أن يمسها ، واستنكرت أن يخلو للنساء ورَحى الحرب تطحن الحيين من عبس وذبيان ، فلم يجد وسيلة الى إرضائها ، إلا أن يخرج فيحتمل – هو وهرم بن سنان – ديات القتلى من الفريقين ...

بل كدنا ننسى – في غمرة الأسى لمأساة الوأد – أن من الآباء من كُنوا بأسماء بناتهم ، كأبي أمامة النابغة الذبياني ، وأبي الخنساء قيس بن مسعود الشيباني ، وأبي سلمى ربيعة بن رباح – والد زهير – وأبي عفراء حنظلة الطائي ، وأبي سَفانة حاتم

طيِّئ ، وقد بقي منه في الإسلام كثير ، حيث نجد في باب الكُنى من طبقات الصحابة رضي الله عنهم ، عشرات منهم كُنوا ببناتهم ، وآخرين نسبوا إلى أمهاتهم.

وغاب عنا كذلك - أو كاد - أن من سادة العرب من كُرموا بمدح بناتهم ، وان من هؤلاء البنات من استُجير بها فأجارت ، كبنت عوف الشيباني ، وفكيهة بنت قتاد التي أجارت «السليك بن السلكة» فأثنى عليها في شعره الثناء المستطاب.

ويزيد في فداحة المأساة وسوء أثرها وعنف صداها ، أن قيل إن الوأد كان عاما في القبائل كلها ، على ما نقل «الميداني» (١) و«النويري» (٢) وإن أكد رواة آخرون ، ان الوأد لم يكن في غير تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل ، وانها جميعا تخلصت منه قبل الإسلام ، إلا ما كان من تميم. فقد جاء الإسلام وفيها الوأد.

ومن المحزن حقا ، أننا إذا استطعنا أن نجزم بأن الوأد لم يكن شائعا ولا واسع النطاق - وهذا لا يُهوِّن من بشاعته - فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن أسلافنا العرب ، ولا نحن بقادرين على الارتياب في أمره وقد تواترت به الأنباء وسجله عليهم القرآن الكريم.

كل الذي نملكه هو أن ننفي عموم الوأد ، ونستبعد القول بأنه كان على نطاق واسع ، وإلا كان ضربا من الانتحار الجماعي ، والاستسلام المخبوء للفناء والانقراض.

على أننا لا نكتفي بهذا في نفي عموم الوأد ، بل نضيف إليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع :

كان هناك الميراث القديم من عهد «الأمومة» في انتماء القبائل والأفراد الى أمهاتهم ، وفي تسمية العشيرة باسم «البطن» وفي تسمية الأصنام والملائكة والآلهة

---

(١) مجمع الامثال : ٣٨٩/١.

(٢) نهاية الارب : ٤٢/٣ ط دار الكتب بالقاهرة.

بأسماء إناث ، وهذه البقايا الموروثة كانت تضفي على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الإبادة ، وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض هو وأد الفتاة تأثرا – في رأي بعض علماء الاجتماع – بالطقوس الدينية القديمة ، على نحو ما كان يحدث لعروس النيل . . .

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمي بقوتها التي لا تدانيها قوةً غريزةٌ أخرى ، بناتِ العرب من الوأد قدر المستطاع .

وكانت هناك الأنثى في حياة كل رجل : أُمًّا ، أو زوجة ، أو حبيبة أو أختا ، تلطف من النظرة البغيضة إلى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة.

ثم كان هناك الى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العامل الاجتماعي والاقتصادي ، المحكوم بسنة الفطرة وقانون الطبيعة : البنت حين تكبر ، وعاء للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب في نظرتهم الجانبية إلى البنت قد اعتبروها كَلاًّ عليهم وعالة ، فلم ينتبهوا إلى الجانب الآخر ، وهو أنه لا سبيل إلى ولد لا تحمله أنثى جنينا وتغذوه رضيعا وتحضنه صبيا وتربيه غلاما وترعاه رجلا ، فإن الحياة كانت تسير بمقتضى السنن الثابتة ، مقدرة ضرورة وجود البنات لبقاء البشرية وعمران الكون ، غير معنية بما إذا كان القوم منتبهين إلى هذا أو غير منتبهين.

ومن هنا رجحنا في اطمئنان ، أن الوأد لم يكن عاما ولا واسع النطاق ، وقدرنا الجانب الآخر من حياة الأنثى في المجتمع العربي بالجاهلية ، حيث عاشت الناجيات من الوأد ، ملء عيون القوم وقلوبهم . وسبق لي في الفصل الذي كتبته عن « الأنوثة والأمومة » في كتابي « أم النبي » ﷺ بعض ما نقلت من أخبار تكريم الإناث وتقديرهن و إعزازهن والاعتراف بمآثرهن .

ولا غرابة في أن تجمع البيئة الواحدة في الزمن الواحد بين النقيضين ، فتزهد في ولادة البنت وقد تئدها كراهة لها أو لفرط حبها إياها وخوفها عليها ، في الوقت الذي تفتدي فيه نساء القبيلة بالدماء ! وتضيق ببنت تولد ، مع أنها ترفعها إلى مقام الملائكة

وتسمو بها «أما» الى حيث لا مزيد من التكريم والاكبار. لا غرابة في هذا، فالحياة ما تزال تجمع بين المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضطرب سير الفلك. والأمر في وأد الأنثى أو إعزازها، مردُّه إلى العادة والعرف وإلى التقليد الاجتماعي الذي لا يعتمد على شيء من التفكير، وإنما يتم بتوجيه الرأي الجماعي دون أن يكون للفرد الوقت الواحد: كالذي شهدنا في البيئة العربية القديمة من تسمية الأصنام بأسماء إناث، وهذا مظهر تقديس وتكريم، ومن وأد البنات زهداً فيهن وضيقا بهن.

وكالذي نشهده اليوم في البيئة الرجعية المحافظة، تعلم الفتاة وتأذن لها في الخروج والاحتراف وقد تأبى في الوقت نفسه على خاطبها أن يراها. وشبيه به ما نشهده في المجتمع الشرقي: ترقى المرأة فيه إلى منصب الأستاذية بالجامعة وينكر عليها عضوية المجامع الإسلامية والعربية، مع الترحيب بها (سكرتيرة) وموظفة إدارية! ويضيق أشد الضيق بظهورها في المؤتمرات الإسلامية، ولا يحرك ساكنا إذ يراها تشتغل في الملاهي الليلية أو تشرب الخمر علنا في الحانات والمراقص... وتظهر عارية في المصايف!!

وإنما يحدث هذا التناقض ومثله، لأنها كما ذكرتُ مسائل عرفية وليست منطقية، ينفعل الفرد فيها بشعور الجماعة، ويتأثر بعقلية القطيع فيسيغ ما لعل عقله يأباه، ويتحمس لتأييد ما كان جديرا بمعارضته لو نجا من احتكام العادة وسلطان العرف واستهواء الرأي العام.

* * *

ونعود الى ما كنا فيه من حديث عن مركز الأنثى في المجتمع العربي، فلا نملك بعد طول البحث والتنقيب عن الأخبار المروية في اعزاز الأنثى وتكريمها، والتماس الأدلة والشواهد المؤكدة بأن مأساة الوأد لم تكن عملية إبادة بالجملة، أقول: لا نملك بعد هذا كله الا أن نعترف بأن منزلة البنات كانت دون منزلة البنين...

وكذلك غبر العرب زمانا ومنهم من يَدسُّ وليدته في التراب ، ومنهم من يُمسكها على مضض وهون ، ومن ثم يبيت ساهرا عليها مهموما بها ، حتى يدفعها الى زوج كفء ، أو يسلمها إلى القبر خير الأصهار...

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التي جاوزت في بشاعتها أقسى المدى، وأول ما نزل من آياته تعالى في الوأد، قوله عز وجل منذرا بيوم الهول الأكبر:

«وإذا الموءودةُ سُئِلَتْ * بأيٍّ ذنب قُتِلَتْ»[1].

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء وهي مكية:

«ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خِطئا كبيرا» ٣١.

ثم قوله تعالى في سورة الأنعام المكية:

«قل تعالَوا أتْلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون» ١٥١

ويرى المفسرون، أن قتل الأولاد في الآيتين، يعني وأد البنات...[2]

وحكم بالخسران والضلال على السفهاء المفترين الذين قتلوا أولادهم:

«قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين» الأنعام ١٤٠

وأخرج مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه، من عدة طرق، حديث «عبد الله

---

(١) سورة التكوير: الآيتان ٨ – ٩.

(٢) الكشاف: ٢/٣٥٩.

ابن مسعود» رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خالقك». قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك».

* * *

على أن تحريم الوأد لم يمنع من الضيق بالبنات والزهد فيهن. بقية فينا من رواسب الماضي الطويل تأصلت على مر الزمن حتى صارت شبه طبيعة فينا يعز التخلص منها بعد زوال الأسباب التي قضت بها أول الأمر. فخروج المرأة الجديدة إلى ميادين العمل وقدرتها على الكسب المادي ووصولها إلى مناصب علمية وأدبية قيادية، لم يضع المولودة الأنثى كالذكر بمنزلة سواء، ولا حماها ساعة ميلادها من الاستقبال الكريه القبيح الذي تسجله أغانينا الشعبية، ويحفظه ديوان الشعر العربي الإسلامي، في مثل ما رواه «الجاحظ» من أبيات حزينة لأمٍّ هجرها زوجها حين ولدت له أنثى، وأقام عند جارتها، ولعلها ضرة لها، قالت:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبانَ أن لا نلد البنينا
تاللهِ ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا (١)

ونحن نتلو من آيات الله البينات المحكمات:

«ويجعلون للهِ البناتِ سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظل وجهُه مُسْوَدّاً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به، أَيُمسِكُه على هُونٍ

(١) هو أبو حمزة الضبي. انظر قصة هجره زوجته والشعر الذي قالته، في كتاب (البيان والتبيين) ١٦٣/١ ط التجارية ١٩٣٢م.

أم يَدُسُّه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون» .

النحل ٥٧ – ٥٩

* * *

قد يقال هنا إن تغيير الوضع الاقتصادي لا يمنع كراهة الأنثى خوف عار قد يلحق بأهلها من سلوكها ، أو خشية تفتت مال الأسرة عن طريق الميراث ، فنرد على هذا بأن البنات مكروهات حتى في البيئات المتحللة التي لا تكترث بالسلوك ، وفي الأسر الفقيرة التي لا جاه لها ولا مال ، وفي المجتمعات الاشتراكية التي تحد من الملكية ، وتحدد الدخل ، ولا تعترف بجاه موروث . وما ذاك الا لأن كراهتهن ميراث قد انحدر إلينا من قديم الحقب ، وعادة نشأت في الأصل بحكم البيئة وأثر العوامل المادية ، ثم أخذت مجراها في عواطفنا على طول الزمن ، فلم يعد من السهل التخلص منها ، حتى مع تغيير البيئة وزوال العوامل المادية .

والقرآن الكريم في خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، أدرك ما يشق على القوم من قهر الوراثة العاطفية وسلطان الطباع التي صنعتها البيئة المادية وحفرت مجراها في نفوسهم على تتابع العصور وتعاقب الأجيال . لكنه كذلك ، في تساميه بالإنسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضى بالبنات وحمايتهن من أثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة حاثة على اتقاء الله فيهن ، حاضة على إنصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتمل الطبائع والأوضاع .

«المثَلُ والقُدْوَة»

وما أحسبني في حاجة هنا إلى عد الحقوق الإنسانية والشرعية والمدنية التي حماها الإسلام للمرأة، أو بيان المنزلة الكريمة التي وضعها فيها: فقد كثر القول في هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المرأة[1]، وكانت الشريعة الاسلامية الغراء هي النبع الأول الذي استمد منه دعاة التحرير أدلتهم وأسانيدهم لدفع ما حاق بالمرأة الشرقية في العصور المتأخرة من ظلم، وتحطيم الأغلال التي كبَّلتها باسم الدين، والدين منها براء...

لكن يطيب لي مع ما أعرف ويعرف القراء من هذا كله، أن أروي بعض ما قرأت من وصايا النبي ﷺ بالإناث، وأعرض هنا من حديثه معهن، ما أراه تمهيدا طبيعيا للحديث عن أبوته لبنات أربع:

في الصحيحين – والنقل من البخاري – أن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، أخذتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت: فدخل النبي ﷺ فحدثته بأمرها فقال: من يُلِيَ من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن، كنَّ له سترا من النار».

وفي صحيح «مسلم» عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو– وضم أصابعه».

وفي سنن «أبي داود» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت

---

(١) للاستاذ سعيد الافغاني: الأستاذ بجامعة دمشق، كتاب عن «الاسلام والمرأة»، عرض فيه هذا الجانب عرضا وافيا.

وانظر كذلك الفصل الذي كتبته عن «المرأة المسلمة» في كتاب «الاسلام: أمس واليوم وغدا» ط الحلبي بالقاهرة، والبحث الذي قدمته في (شخصية المرأة في القرآن الكريم) إلى مؤتمر الإسلام والأسرة بجامعة الأزهر: ديسمبر ١٩٧٥. وبحث (المفهوم الإسلامي لتحرير المرأة) نشرته جامعة أم درمان الإسلامية.

له أنثى فلم يئدها ولم يُهِنها ولم يؤثِرْ ولده عليها – يعني الذكور – أدخله الله الجنة».

وروى البخاري كذلك حديث الصحابي الذي جاء يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام في أن يوصي بماله للمسلمين، إذ لم يرزق بولد ذكر، ولم تكن أحكام المواريث قد نزل بها القرآن بعد، فسأله ﷺ: هل له بنات؟... فلما أجاب بنعم، أبى عليه الرسورل أن يوصي بماله، وله بنات.

كذلك فعل لامرأة صاحبة سعد بن الربيع الأنصاري، رضي الله عنه، جاءته بابنتين لها فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتِلَ معك يوم أحد، وقد استفاد عمها مالها وميراثها كله فلم يدع لها مالاً إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله. فو الله لا تنكحان أبدا إلا ولها مال؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «يقضي الله في أمرك» وأمهلها الى الغداة، فنزلت آية المواريث. فقال ﷺ: ادعوا لي المرأة وصاحبها. فلما جاءا، قال لِعَمِّ البنتين: أعطها الثلثين، وأعطِ أمَّهُا الثمن، وما بقي فهو لك» (١)

وما رؤي أكرم منه قط في معاملة الإناث والترفق بهن والانتصاف لهن. عن عائشة رضي الله عنها أنْ فتاة دخلت عليها فقالت وهي بادية الانفعال والغضب: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع به خسيسته وأنا كارهة. فدعتها السيدة الكريمة لتجلس حتى يأتي النبي ﷺ.

وجاء النبي ﷺ، وسمع شكوى الفتاة، فأرسل إلى أبيها ثم جعل أمر الفتاة اليها. فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة:

«قد أجزتُ ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم: أللنساء من الأمر شيء؟»

ولقد أجارت زينب بنت النبي ﷺ، أبا العاص بن الربيع عندما أسر بالمدينة قبل أن يسلم (٢) ويأتي حديثها في المبحث الخاص بها. واستأمنت «أم حكيم بنت

---

(١) أخرجه مسلم في ميراث الكلالة (ح: ١٦١٦، ١٦١٧ وقابل على سنن ابن ماجه: ١٨/٤٨.

(٢) السيرة ٥٢/٤. وأخرجه الحاكم أبو أحمد بسند صحيح عن الشعبي (الإصابة، ترجمة أبي العاص ١١٨/٧)

الحارث بن هشام» – عام الفتح – لعكرمة بن أبي جهل ، فأمنه الرسول مع أنه كان قد ذكر اسمه بين الذين أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة . وفي يوم الفتح ، لاذ رجلان من بني مخزوم ببيت أم هانيء بنت أبي طالب ، فدخل أخوها «علي» في أثرهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتها ثم سعت إلى النبي ﷺ وهو بأعلى مكة ، فأخبرته خبر الرجلين من بني مخزوم ، وإصرار أخيها «علي» على قتلها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

«قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانيء ، وأمَّنا من أمنت ، فلا يقتلْها»[1] .

ثم كانت معاملة النبي للإناث ، على قرب العهد بالجاهلية ، فوق الذي طمعن فيه أو طمحن إليه من عزة وكرامة ومروءة...

وما من ريب في أن البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة في شخص الرسول الكريم لتقاوم ما ألفته في معاملة الإناث . ويكفي لنقدر تلك الحاجة ، أن نتدبر ما في (الصحيحين) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

«والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا أنا في أمر ائتمره اذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا؟... فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا؟... وما تكلفك في أمر أريده؟.. فقالت لي : عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فأخذت ردائي ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها :

يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ قالت : انا والله لنراجعه ! ثم خرجتُ حتى دخلت على «أم سلمة» لقرابتي منها ، فكلمتها ، فقالت

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٠٤/٢ ط بريل – ابن إسحاق : السيرة ٦٠/٤ وأخرجه مسلم في صحيحه (٤٩٨/١).

لي : «عجبا لك يا ابن الخطاب !.. قد دخلتَ في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ...»

فأخذتني أخذا كسرتْني به عن بعض ما كنت أجد»[1].

وهذا الخبر وحده، يغنيني عن مزيد من البيان لمدى حاجة المجتمع الإسلامي، إلى مثلٍ أعلى يروضه على تغيير موقفه من الإناث، فهذا عمر، صهر النبي ﷺ وصاحبه الذي أعز الله به الاسلام، قد وعى ما نزل من آيات الله في النساء، وكان من أفقه المسلمين بالدين القيم، ومع ذلك كره أن تشترك معه زوجته في أمر له، وأنكر منها أن تشير عليه برأي، فلما تمثلتْ بابنته حفصة استفظع واستنكر، وانطلق إليها مغضبا يسألها فيما سمع، وإنه ليطمع في أن تجيب بالنفي، لكنها أكدت له أنها، ونساء النبي، يراجعنه ﷺ حتى يظل يومَه غضبان، فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق أذنيه، إلى أن ردته «أم سلمة» بكلمتها الصادعة :

«عجبا لك يا ابن الخطاب، قد دخلتَ في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه»؟[2]

وتلقى «عمر» الدرس البليغ من بيت النبي ﷺ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون، فلا عجب أن رأينا «أبا دجانة» الفارس، يأخذ سيف الرسول ﷺ يومَ أُحُد، وينطلق به مختالا وقد عصب رأسه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت، فما يلقى أحدا من المشركين إلا صرعه، حتى يبلغ «هند بنت عتبة» تزأر في قومها محرضة على الفتك بالمسلمين، فيضع الصحابي الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث أن ينأى به عنها وهو يقول : أكرمتُ سيف رسول الله أن أضرب به امرأة[3].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : ٢/١٢٩ (ح ٩٤٤).

(٢) وانظر مناقشة أم المؤمنين حفصة، للرسول عليه الصلاة والسلام في (طبقات ابن سعد : ٢/٧٣) ط بريل.

(٣) هو الصحابي الفارسي، سماك بن خرشة. انظر ترجمته في الطبقات الكبرى والاستيعاب والإصابة. قصته مع هند عتبة في (السيرة) : ٣/٧٣.

هذا هو « محمد بن عبد الله » في انسانيته الرفيعة و بشريته المثالية ، وأبوته الرحيمة التي تفيض بأرق العواطف وأنبلها ، وأحسب أن قد آن الأوان لنتحدث عنه ﷺ أبا لبنات أربع ، ولدن له جميعا قبل أن يبعث رسولا ، وعشن حتى شاهدنه في نضاله الأقدس ومعركته الظافرة الخالدة...

المبحث الثالث

الأخواتُ الأرْبَع

- البَيْتُ والأبَوانُ
- أبو البنات
- الشَقِيقَتَانُ
- الشقيقاتُ الأرْبَع
- في بَيْتِهِنَّ الأوَّل

البَيتُ والأبوان

في جوار الحرم المكي ، حيث دور قريش حافَّةٌ بالبيت العتيق مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الأسنى ، قامت الدار التاريخية التي كُتِب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمي ، وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ليلة القدر، مبعوثا بختام رسالات الدين.

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فيُنزل اليها بعدد من الدرجات ، توصل الى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قَدم ، وطولها عشرة أمتار ، أما عرضها فأربعة...

وعلى اليمين باب صغير، يُصعد اليه بدرجتين ، يؤدي الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة أبواب : يفتح أولها – من الجانب الأيسر – على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبي المختار محرابا ومعبدا ، ويؤدي الباب الأمامي الى بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، أما الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح في غرفة مستطيلة ، طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة ، وقد جعلت لبنات محمد ، وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا في سبعة أمتار ، ويرتفع عن الأرض بنحو متر، وفيه كانت السيدة «خديجة» تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه المساحة مضيفة لاستقبال الضيوف (١) .

هذه هي الدار التي استقبلت محمدا – أول ما استقبلته – يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج في مالها الى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من رحلته ، حيث خفق

---

(١) نقلنا هذا الوصف ملخصا من «الرحلة الحجازية» – وفي تاريخ الطبري «٢/١٩٧» تحديد لمنزل خديجة الذي تزوجت فيه من سيد البشر.

له قلب سيدة نساء قريش وأخذها منه تفردُ سماته وجلال شخصيته ، حتى إذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل - السنة الخامسة عشرة قبل المبعث - دقت الطبول في الدار، احتفالا بزواج زين شباب قريش شرفا وأمانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، سيدة نساء قريش وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا (١)

وقضت مكة أياما وليالي ، ولا حديث لها الا عن ذاك الزواج المشهود. ولم تكن بهجة الحفل وحدها هي التي استأثرت بحديث القوم ، وانما كانت المفاجأة غير المنتظرة ، فما دار بخلد أحدهم أن ترغب «السيدة خديجة» في الزواج من جديد بعد الذي عُرف من زهدها في الرجال وانصرافها عنهم وردِّها سادة قريش واحدا بعد الآخر ردا موئسا ، ولا خطر ببالهم أن يكون «محمد» ابن الخامسة والعشرين ، هو الزوج المختار للأرملة الثرية ، ذات الأعوام الأربعين...

واذا كان رجال من قريش قد نقموا يومئذ على العقيلة الغنية ، أن تؤثر عليهم شابا غير ذي مال ، فلعلٍ بنات هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض ، تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا النديٍّ والحسن النضير...

على أن أحدا من هؤلاء أو أولئك لم يزعم - صادقا - أن خديجة في عزتها وشرفها وثرائها ، غير كفء لمحمد ، أو أن محمدا في عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته ، غير كفء لخديجة ، وانما أقصى ما قيل عنهما ، انها كهلة ثرية في الأربعين ، وانه شاب فقير في الخامسة والعشرين (٢) .

وحين ذهب أثر المفاجأة ولم يعد يجدي حديث عن فارق السن والثروة بينهما ،

(١) السيرة ٢٠١/١ وانظر (جمهرة أنساب العرب) ص ١١١ ط الذخائر.

(٢) لم نطل الحديث هنا عن الزوجين ، وإنما اقتصرنا على القدر الذي نحتاج اليه في الحديث عن الابوين. ولمن شاء أن يرجع الى الفصل الخاص بالسيدة خديجة رضي الله عنها في كتابي «نساء النبي» ﷺ.

كفَّت أندية قريش ومسامر مكة عن ذلك الحديث العقيم، وبدأت تستعيد ذكريات بعيدة أثارتها المناسبة، وتنفض عنها غبار السنين...

وربما كان أول ما تذاكره القوم يومئذ، قصة ابنة عمٍّ لخديجة، ثرية ناضجة، اختارت هي الأخرى فتى هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما، وان كان لم يستجب لها...

تلك هي «رقية بنت نوفل» الأسدية، أخت ورقة: رأت عبد الله ابن عبد المطلب إثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتُدِي من الذبح وفاء لنذر أبيه، فلمحت عليه مخايل مجد مرجو وآنستْ منه نورا ذكرها بما كانت تسمع من بُشريات عن نبي منتظر. فعرضت عليه نفسها، وله مثلُ الإبل المئة التي نحرت عنه، فاعتذر في تلطف ومضى فتزوج آمنة بنت وهب، فتاة بني زهرة (١)...

وهذه هي خديجة بنت عم رقية، تتقدم بكل جاهها وثرائها وعزتها، الى ابن عبد الله، تعرض عليه أن يتزوجها...

وعاش «ورقة بن نوفل» ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه، ويشهد حفل عرسها، بعد أن شهد بالأمس البعيد انصراف عبد الله أبي محمد، عن أخته بنت نوفل...

وحين كانت مسامر مكة في شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين، كان «ورقة» يسترجع ما ذكرته له «خديجة» من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد في مالها الى الشام، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما، من كلام أخته عن النور الذي رأته في وجه عبد الله، فيكاد «ورقة» يلمح في صهره الشاب، ملامح النبي المنتظر الذي

---

(١) ابن هشام: السيرة ١/١٦٤ - تاريخ الطبري ٢/١٧٤ وطبقات ابن سعد (١/٥٨ أول) ولا أعلم خلافا في أن التي عرضت نفسها على عبد الله، هي بنت نوفل، واخت ورقة، لكن الخلاف على اسمها: نقل السهيلي في (الروض الأنف ١/١٨٠) وابن حبيب في (المحبر: ٦١٦) أن اسمها رقيقة بنت نوفل، ونقل النويري في (نهاية الارب) أنها قتيلة بنت نوفل! وقد عرضت هذا الموضوع مفصلا في كتابي «أم النبي» عليه الصلاة والسلام.

شاع أن زمانه قد أظل، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول:

لججتُ وكنت في الذكرى لجوجا لهمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصفٍ من «خديجة» بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجا [(١)]

وبدأت حياة زوجية هانئة يظللها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر، ثم لم يكد يمضي على زواجها عامان أو ثلاثة، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة، فخفق قلب «محمد» فرحا وغبطة، اذ يوشك للمرة الأولى أن يغدو أبا! وأثارت الأبوة المرتقبة أعمق عواطفه، وأرق انفعالاته، وهو مقبل على التجربة العظمى التي لا يكمل وجودُ الرجل بغيرها، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة، لتكون امتداداً لحياته، وعما قريب يرى صورته ممثلة في كيان صغير لطيف، تتم به هذه السعادة التي عرفها منذ عرف «خديجة».

وذكر أمه التي رحلت عن الدنيا وهو صبي في السادسة، وذكر أباه الذي ثوى في «يثرب» وخلّفه جنينا في رحم أمه «آمنة بنت وهب»، فتمنى لو أنهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملآ أعينهما من مولوده المنتظر...

ولم ينس جدَّه الشيخ «عبد المطلب» الذي كان له من بعد أبيه أبا، فرق قلبه وهو يستعيد ذكراه، وتندت عيناه شجوا ورحمة، ثم آب من تأملاته وراح يرقب زوجته الحبيبة وهي تروح وتغدو في الدار بخطوات أثقلها الحمل الغالي، ووجهها المشرق يتألق بسنا السعادة والحنان...

لم تكن هذه تجربتها الأولى في الأمومة، فقد ولدت البنين والبنات من زوجيها السابقين: عتيق بن عائذ المخزومي، وأبي هالة التميمي [(٢)]. فهل تراها كفت عن

(١) السيرة ٢٠٢/١، عن ابن إسحاق، في ثلاثة عشر بيتا.

(٢) الاصابة: ٦١/٨ – الاستيعاب ١٨١٧/٤ وانظر «جمهرة انساب العرب» ١٣٣ ـ ١٩٩ ط الذخائر وكذلك (نسب قريش» ٢٢ ذخائر، و«تاريخ الطبري ١٧٥/٣» مع المبحث الخاص بها في كتابي (نساء النبي) ﷺ.

التشوق للأبناء ووجدت فيمن ولدت ما يرضي أمومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء؟...

معاذ الحب أن تقنع أمومة خديجة بأبنائها الأولين، فلا يشوقها أن يكون لها ولد من زوجها الحبيب محمد بن عبد الله...

ومعاذ الفطرة السوية للأنوثة الناضجة المجربة، أن تزهد خديجة في الأبناء، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها، ويثبت أنها ما تزال فتية منجبة!...

وكيف يُظن بها الزهد في الولد، وهي ترى زوجها العزيز في عز فتوته ونضرة شبابه، وقد بدأت هي العقد الخامس من عمرها، في بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة، وتكتهل نساؤها دون الأربعين؟...

وما أظن أن امرأة في قريش كانت أشدَّ لهفة على الحمل، من هذه السيدة التي جربت الأمومة من قبل وكان لها بنون وبنات. بل لعلها ما كانت هي نفسها، في زواجها الأول أو الثاني، بأشوق منها الى الولد في زواجها هذا الثالث والأخير، اذ كانت في المرتين الأوليين، أبعد من أن تُتهم بالجفاف أو يُظن بها اليأس، أما في هذه المرة فالأمل في الانجاب أبعد، والاتهام باليأس قريب...

ومن سُنة الفطرة، أن تكون المخاوف ساورتها في مطلع حياتها الزوجية الجديدة، وأشفقت أيما اشفاق من أن تمسك رحمها فلا تجود بولد لهذا الحبيب الذي لم يتزوج سواها من قبل، ولا عرف مثلها الولد...

ولم يرُعها أن تتمثل عجائز قريش وهن يتربصن بها الأيام ليملأن أشداقهن بالحديث عن كهولتها المجدبة وحيويتها الناضبة، ولا أهمها أن تتصور سيدات بني هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الهاشميين في حرمانه من الذرية، بقدر ما أهمها وراعها أن تكون هي السبب في هذا الحرمان، وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا عنها في بعض شئون العمل او التجارة، فيذود النوم عن عينيها ويؤرق لياليها، ولا تجد ما يسري عنها الا أن تلوذ بالسماء ضارعة الى الله أن يتم عليها

نعمته ، ويهبها ولدا من زوجها الحبيب. وما تزال كذلك حتى يثوب اليها محمد ، فتشعر بالحيوية تسري اليها منه ، وتحسّ نفحة عطرة تنسيها هواجسها التي شغلت بالها. وترد اليها ثقتها في نفسها ، واطمئنانها إلى حيويتها المذخورة الخصبة...

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشوقة تزف اليه البشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد في دور بني هاشم وينشرونه في أحياء قريش ، وأغدقت عطاءها على ذوي الحاجة ، وكأنما أرادت أن تشاركها «مكة» كلها في فرحتها فلا يبقى فيها جائع ولا محروم...

أبو البنات

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله، فظلت طوال شهوره التسعة، تعد دنياها لاستقبال الوليد، وتختار له المرضع قبل أن يولد[1]

حتى اذا آن أوان الوضع، تجلدتْ للتجربة التي عرفت من قبل شدتها وقسوة آلامها، على حين وقف الزوج في محرابه، ينتظر اللحظة الحاسمة بلهفة مشوبة بشيء من القلق، لم يلبث أن تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة، صيحة رقيقة واهنة، معلنة عن بشرى الميلاد.

وتبعتها صيحات ابتهاج عالية، سرت مع الهواء الى الحرم، وبلغت أسماع الحي القرشي، فعرف القوم أن خديجة بنت خويلد وضعت مولودها الأول. لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب...

ومضت فترة من الوقت والأب الكريم يرنو الى مخدع زوجته مستثار الشوق الى رؤية الفلذة الحية من صلبه، ثم فتح باب المخدع عن القابلة «سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب»[2] تحمل الى الأب طفلته الأولى، فتلقاها بين ذراعيه فرحا، ودنا بها من زوجته الراقدة في فراش الوضع، مسترخية الاعضاء من فرط الاجهاد، بادية الغبطة والهناءة مع ذاك...

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة، وخفق لها قلباهما وهما يريان فيها صورتهما معا.

---

(١) الاصابة: ٨/٦١.

(٢) ذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب ٤/١٨٦٢» أن سلمى كانت قابلة ابراهيم وبني فاطمة رضي الله عنها.

وسماها أبواها «زينب» [1]

ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها !...

ترى هل مر ببالهما في تلك اللحظة خاطر مشترك، هو أن الله رزقهما بأنثى، وليس الذكر كالأنثى؟...

وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا؟..

ربما، فما من شيء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما، في فطرتهما السوية، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه بيئتهما من حب البنين. لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذي يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع، أو يشوب حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الأولى بشائبة من فتور. وتشبثت الأم بوليدتها أياما قبل أن تدفع بها الى المرضع المختارة، على المألوف من عادة أشراف مكة...

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها، حتى عادت أشبه بزهرة غضة باسمة، أضفت على البيت مزيدا من الاشراق والبهجة...

ولم يطل بها المقام في البيت، حتى استقبل أختها «رقية» [2] فاتصل بها الأمل في نماء الأسرة، واعتدها الأبوان الكريمان بشرى خير وبركة...

ثم جاءت من بعدهما «أم كلثوم» وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة، في بيئة مفتونة بالبنين، ولكنهما أدركا أن الأمر في هذا لله وحده، وما كانا ليجحدا

---

(1) جاء في الاستيعاب ١٨٥٣/٤، عن أبي عمر: «وكانت زينب أكبر بناته ﷺ، لا خلاف أعلمه في ذلك إلا مالا يصح ولا يسلم» وانظر ترجمتها في طبقات ابن سعد، والإصابة.

(2) يتفق الاخباريون وكتاب السيرة، والنسابون، على ترتيب ولادة أبناء محمد «ص» وما هنا ليس الا ما اطمأننت اليه بعد مقابلة المرويات في مختلف المصادر الاصيلة، وهو ما في: السيرة ٢٠٢/١ قال ابن إسحاق: وهو المشهور. وابن عبد البر في (الاستيعاب ١٨١٨/٤) وحكى فيه الإجماع. وابن حجر في (الإصابة ١٥٧/٨) وقال إنه: الذي يسكن إليه اليقين.

نعمته عليهما ، ومن ثم أقبلا على طفلتهما الثالثة ، شاكرين لله ما أعطى ، طامعين مع هذا في مزيد من كرمه...

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة...

وصادف مولدها ، حادثا جليلا في تاريخ الأب ، وتاريخ مكة الديني أجمع... فقد حدث قبيل ذلك بأمد قصير ، أن أجمعت قريش أمرها على أن تعيد بناء الكعبة ، بعد أن أطال ترددها في ذلك ، تهيبا وتحرُّجا...

وكانت الكعبة قد أضرت بها شرارة طارت من مجمرة احدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذي بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة اليدين ، لا تدري ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذي جعل من «مكة» مركز حج العرب جميعا ومهوى أفئدتهم ، وأنزل قريشا ، بحكم جوارها للحرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها...

وشاع اذ ذاك أن البحر رمى بسفينة رومية جنحت الى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش ، وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل قبطي مصري نجار بناء [١] .

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ما تزال تتهيب أن تهدم بناءها الأول ، حتى قام «الوليد بن المغيرة المخزومي» فأخذ المعول وقال : «اللهم لم نزغ ! اللهم انا لا نريد الا الخير !» ثم أهوى بالمعول والقوم ينظرون اليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، أبوا مع ذلك الا أن يتربصوا ليلتهم تلك ، ليروا ماذا يكون . وأصبح «الوليد» غاديا على عمله لم يمسسه شر ، فهدم وهدم الناس معه .

وتنافست القبائل في جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك «محمد» في ذلك العمل

---

(١) السيرة ٢٠٥/١ وشرحها في الروض الأنف (١ ، ٢٢١ - ٢٢٩) وعيون الأثر (٥٢/١).

المجيد، فكان ينقل الحجر مع الناقلين، حتى اذا تم البناء، اختصمت قبائل قريش في الحجر الأسود، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه الى موضعه. واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ونذر الخطر تزداد، حتى قام فيهم «أبو أمية زاد الركب بن المغيرة المخزومي» — وهو يومئذ أسنُّ قريش كلها، وهو والد أم المؤمنين أم سلمة — فقال:

«يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه، أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه»...

فقبلوا، وتعلقت عيونهم جميعا بالباب تترقب الحكم المجهول، وانهم لكذلك، اذ أقبل رجل شاب، تام الفتوة، متزن الخطا من غير تكلف، رزين من غير فتور، بهيّ الطلعة مع جد ووقار، فهتفوا جميعا لما أن رأوه:

«هذا الأمين، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي، رضينا بحكمه»...

وأقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة في الثوب وقال:

«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا»...

ففعلوا، حتى اذا بلغوا به مكانه، وضعه محمد بيده ودعم بناءه...

وكانت سنة يومئذ، خمسا وثلاثين سنة، على ما روى ابن إسحاق (١)

* * *

وآب «الأمين» إلى بيته، حيث ترك زوجه في الغداة على وشك الوضع وسعى الى الكعبة داعيا، فكان أول ما استقبله عند عودته، بشرى مولد ابنته الرابعة «فاطمة»...

---

(١) السيرة: ١/٢٠٤ — ومثله في تاريخ الطبري ٣/٢٠١.

واقترنت هذه البشرى ، ببشري نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهددها من حرب ودمار...

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشي : (١)

تشاجرت الأحياء في فصل خطة جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، فالبغض بعد مودة وأوقـد نـارا بينهم شر موقـد
فلما رأينا الأمر قد جد جده ولم يبق غير سَلّ المهنـــــد
رضينا وقلنا : العدلُ أولُ طالع يجيء من البطحاء من غير موعد
فـفـاجـأنـا هـذا الأمينُ محمـد فقلنـا : رضينـا بـالأمين محمـد

وأقبل «محمد» على زوجه مهنئا بسلامة الوضع ، ثم تلقى طفلته الرابعة يبارك مولدها في ذلك اليوم الأغر ، وكأنما رأى في ذلك الاتفاق ، آية من الله ، تحبب اليه رزقه ، وتصرف سمعه عما كان يقال حينذاك عن أبوته لبناتٍ أربع !..

وتطلع إلى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيه من عند الله ، مستثار الرحمة والحنان على تلك المخلوقات اللطيفة البريئة ، يتلقاها القوم كارهين ، وما جاءت الى الدنيا مختارة ، ولا هي بمسئولة عن تخلف البنين !..

ثم رنا إلى زوجه في عطف وتأثر ، يريد أن يبث في نفسها الطمأنينة والرضى بما أعطاهما الله ، وأن يهوِّن عليها أمرا لا يد لها ولا لأحد فيه ، وانما تلك ارادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على ارادته...

لكن «خديجة» لم تكن في حاجة الى مواساة ، فانها ما كادت تملأ عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها ، وقد رأت فيها صورة من أبيها ! (٢) ...

---

(١) هو هبيرة بن ابي وهب المخزومي . راجع السيرة : ٢٠٩/١ وأبو وهب : خال عبد الله بن عبد المطلب . وانظر موقفه وخطبته عندما همت قريش ببناء الكعبة ، في السيرة ٢٠٩/١ .

(٢) انظر باب فضائل السيدة فاطمة في صحيح مسلم (ح : ٢٤٥٠ . ومسند أحمد بن حنبل : ١٦٤/٣ ، ١٩٧ .

فأدركت أن الله سبحانه حبا هذه الوليدة بعناية منه ، حين برأها على مثال «محمد» العزيز ، فكان شبهها به ، كافيا وحده لأن يحميها من جفوة الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والإعزاز ، في قلب هذه الأم التي اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجَ محمد ، وأرضاها كل الرضى ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، وأوصدت قلبها على يأس...

الشقيقان

وبقي للأبوين -كي تتم سعادتهما- مطلب واحد: أن يهبهما الله مولودا ذكرا، بعد أن منَّ عليهما باناث أربع...

وبدا الأمل بعيدا، اذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت، بعد مولد فاطمة، سن الخمسين، لكنها مع ذاك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية، ولا أخلفتها عادتها المؤذنة بصلاحيتها للحمل، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء في فضل الله...

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامها «القاسم» ثم تلاه «عبد الله» فتضاعفت الفرحة بمولده، حين ظُن أن لا رجاء...

لكن الله لم يشأ للوليدين أن يعيشا طويلا، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين، أحدهما بعد الآخر...

أما متى ولدا، وكيف وأنى ماتا، فالمؤرخون وكُتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد في ذلك الأمر مع ما له من أهمية قصوى في حياة الأسرة المحمدية والتاريخ الاسلامي، وعلى قرب عهد ابني محمد، بمبعث الأب الكريم، ﷺ.

وأعجب من هذا، أنهم اختلفوا في عدد الذكور من أبناء محمد وخديجة، وهل كانا اثنين، أو كانوا ثلاثة، أو أربعة؟

فالذي في (السيرة) [1] قول ابن اسحاق: «أكبر بنيه: القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر... فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الاسلام فأسلمن وهاجرن معه...»

---

(١) السيرة ١/٢٠٢

وفي (تاريخ الطبري) ما نصه : «فولدت – خديجة – لرسول الله ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله ، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة»[١]

وجاء في (الاستيعاب) :[٢]

«وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الاسلام وهاجرن ، فهن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، ، وأم كلثوم...

«وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنى ﷺ . هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم . وقال معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر...

وقال بعضهم : ما نعلمها ولدت له الا القاسم ، وولدت له بناته الأربع . وقال عقيل عن ابن شهاب :

«ولدت له خديجة : فاطمة ، وزينب . وام كلثوم . ورقية ، والقاسم ، والطاهر ، وقال قتادة : ولدت له خديجة غلامين وأربع بنات : القاسم وبه كان يكنى... وعبد الله مات صغيرا».

وفي «الروض الأنف»[٣] رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : «ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمي بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذي سمي به أولا عبد الله.

«وبلغ القاسم سن المشي غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات».

وفيه كذلك ، في الموضع نفسه ، أن خديجة رضي الله عنها : «دخل عليها رسول الله ﷺ ، بعد المبعث ، وهي تبكي ، فقالت : يا رسول الله ، درت لبينة القاسم

(١) تاريخ الطبري : ١٧٥/٣
(٢) جـ ٤ ص ١٨١٨
(٣) السهيلي : ١٢٣/١

– تصغير لبنة ، تعني بها بقايا اللبن في ثديها – فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته ! فقال الأب الرسول : ان له مرضعا في الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك لهوَّن عليَّ . فقال النبي : ان شئت أسمعتكِ صوته في الجنة . فأجابت : بل أصدق الله ورسوله » . . .

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا في الاسلام كأخيه عبد الله ، الذي لقب بالطاهر والطيب لمولده في الاسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أخي السيدة خديجة . . .

وفي (الاصابة) في ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين : (١)

« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ، سمّي بذلك لأنها ولدته في الاسلام » . . .

واذا رجعنا الى كتب الأنساب ، وجدنا في (نسب قريش) (٢) :

« فولد رسول الله ، ﷺ : القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية » .

وفي (جمهرة أنساب العرب) (٣) : « ولم يعقب عليه السلام ذكرا الا ابراهيم بن رسول الله ، مات صغيرا لم يستكمل عامين في حياة النبي عليه السلام . . . وكان لرسول الله ﷺ من الولد سوى ابراهيم : القاسم ، وآخر اختلِف في اسمه فقيل : الطاهر ، وقيل الطيب ، وقيل عبد الله . . . ماتوا صغارا جدا . وكان له عليه السلام من البنات : زينب أكبرهن ، وتاليتها رقية ، وتاليتها فاطمة ، وتاليتها أم كلثوم . أم جميع ولده – حاشا ابراهيم – خديجة أم المؤمنين » . . .

---

(١) الاصابة : ٨/٦١

(٢) للمصعب الزبيري : ٢١ ط الذخائر

(٣) لابن حزم : ١٤ ط الذخائر

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر، فيما يختص بعدد أبناء محمد، فقد يقال إن اللقب التبس بالاسم، وجعل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة، أو مع القاسم وعبد الله فهم أربعة، وما الطيب والطاهر – على الأرجح – سوى لقبين لعبد الله، وبذلك يكون للنبي من خديجة ولدان اثنان، وهذا هو المشهور عند جمهور المسلمين، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك المرويات (١)...

* * *

أما فيما يتصل بوقت ولادتهما ووفاتهما، فالتوفيق فيهما أشق وأعسر، فقد ذكر «ابن اسحاق» – دون اسناد – موتهما في الجاهلية. على حين روى غيره أن القاسم ولد في الجاهلية ومات في الإسلام، وأما عبد الله فولد ومات في الاسلام. وقد حكاه السهيلي عن الزبير بن بكار، ونص رايته.

«الذي قاله الزبير، وهو أعلم بهذا الشأن، أنها ولدت له القاسم وعبد الله، وهو الطاهر والطيب، سمي بذلك لأنه وُلد بعد النبوة. وبلغ القاسمُ المشي غير أن رضاعته لم تكن كملت» (٢)

* * *

وأيا ما كان الأمر، فالذي لا ريب فيه أن البيت المحمدي لم تطل فرجته بولديه، فقد ماتا طفلين قبيل المبعث أو في مستهله، ولعلنا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا، لوجدناه في «سورة الكوثر» حيث يقول الله تعالى لنبيه الكريم:

«انا أعطيناك الكوثر * فصلِّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر»

وسورة الكوثر، مكية مبكرة، فهي الخامسة عشرة في ترتيب تاريخ النزول، بين السور المكية التي بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة. وجمهرة المفسرين على أن الكوثر

---

(١) انظر مع ما نقلنا هنا: المحبر لابن حبيب ٧٩، وعيون الأثر: ٢/٢١٦.

(٢) الروض الأنف ١/٢١٤.

نزلت في «العاص بن وائل السهمي» أحد أشراف مكة الذين ساروا الى أبي طالب يسألونه أن يرد ابن أخيه عن دعوته...

وكان العاص – فيما نقل ابن اسحاق كذلك – «إذا ذُكر الرسول قال لقومه: دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لا نقطع ذكرُهُ واسترحتم من أمره» فأنزل الله في ذلك سورة الكوثر [1]...

ويقول «الزمخشري» في تفسير آية الكوثر: «ان من أبغضك هو الأبتر لا أنت، لأن كل من يولد من المؤمنين الى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر، وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثني بذكرك، فثلك لا يقال له أبتر، وانما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة، وان ذُكر ذكر باللعن» [2]...

ولم يدُر بخلد ذلك الشانئ، يوم عيَّر محمدا، أن ذكر ابن عبد الله سوف يبقى حيًّا خالدا ما عُبد الله في الأرض...

لقد كان أقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش، أن يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمي دونهم بالزعامة في مكة، وربما امتد سلطانه الى القبائل القريبة المجاورة فيبقى له الأمر ماعاش، ثم ينقطع ذكره بموته، أما أن يمتد سلطانه من أقصى المشرق الى أقصى المغرب، ويخلد ذكره على مر العصور والآباد، فذلك ما لم يكونوا يتصورونه وقد عاشوا حتى ذلك الحين محصورين في جزيرتهم لا يكادون يخرجون عنها الا رُحلا أو متاجرين...

وما كانت قرشية «محمد» الصميمة الخالصة، لتهوِّن عليهم انتقال السلطان اليه، فان المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على أشدها...

---

(١) السيرة: ٣٤/٢.

(٢) الكشاف: ٢٣٧/٤، سورة الكوثر.

حدثوا أن الأخنس بن شريق الثقفي أتى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فأجاب :

«ماذا سمعت؟!.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا - يعني الديات - وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء!.. فمتى ندرك مثل هذه؟! . والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه» (١) ...

على أن النزاع بين بني عبد مناف أنفسهم لم يكن الا شبيها بهذا أو أشد منه ، فقد كان هناك البيت العبشمي والبيت الهاشمي ، يتنازعان ما استرده أبواهما «عبد شمس وهاشم : ابنا عبد مناف» من ميراث جدهم «قصي» الذي كان قد وصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده «عبد الدار» كي يلحقه بأخيه «عبد مناف» الذي شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وقد بُعث محمد بدعوته رسولا ، وفي بني هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وفي بني عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا ما مر بنا من خبر قيام قريش في وجه «عبد المطلب بن هاشم» حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف ، فهل تراهم يتركون حفيد عبد المطلب يظهر نبيا ورسولا من السماء؟...

الى ذلك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بموته ويقول قائلهم مهونا عليهم الأمر :

«دعوه فانما هو أبتر!..»

أما محمد ﷺ ، فقد كان يؤمن بأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجة الى ولد من صلب الرسول يرثها وينهض بها من بعده ، فالنبوة اصطفاء لا وراثة ، وهو ﷺ قد بعث خاتما للمرسَلين ، لا نبي بعده.

* * *

(١) السيرة : ٣٣٨/١ ، رواه ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهري.

ولست بالقائلة مع هذا كله ، أن محمدا ﷺ تجرد من حب البنين ، فما كانت بشريته ، ﷺ ، لتسمح له بذلك ، ولا كانت فطرته السويّة بالتي تجمَّد فيها أسمى المشاعر الانسانية وتنزع منها غريزة يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون...

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : «علي بن أبي طالب» وكانت قريش قد أصابتها أزمة شديدة وأبو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعمه العباس ، أغنى بني عبد المطلب :

«ان أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنكِلها عنه»...

ووسَّع محمد لابن عمه «علي» مكانا في بيته ، وفي قلبه ، ثم زوجه ، بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن اليه...

و «زيد بن حارثة الكلبي» وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائي ، خرجت به صبيا لتزيره أهلها في طيّىء ، فأصابته خيل من بني القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته السيدة خديجة التي وهبته زوجها قبل المبعث ، فأعتقه وتبناه ، وأذاع في الملأ من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد . حتى جاء أمر الاسلام : «ادعوهم لآبائهم» فدُعي زيدَ بن حارثة ، وظل مع ذلك أثيرا عند الرسول مقربا إليه عزيزا عليه... وكذلك فاضت عاطفة أبوته على ربائبه من نسائه أمهات المؤمنين : «هند بن أبي هالة التميمي» ، ربيب رسول الله ﷺ ، أمه خديجة بنت خويلد.

وعن «هند» رُويت صفةُ الرسول الكريم ، رواها الحسن بن علي بن ابي طالب عن خاله هند بن أبي هالة ربيب النبي ، أخي فاطمة الزهراء (١)

---

(١) الاستيعاب : ١٥٤٤/٤ والشفا للقاضي عياض.

وسلمة بن أبي سلمة عبد الله المخزومي ، وإخوته عمر وزينب ودرة : أمهم أم سلمة أم المؤمنين وحبيبة بنت عبيد الله بن جحش : أمها أم حبيبة ، أم المؤمنين.

وقد ظل محمد - ﷺ - حتى أخريات أعوامه يشتاق الولد ويلتمس الوسيلة إليه ، حتى إذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا ، لولا أن الله لم يمهل «ابراهيم» غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه إليه ، فحزن الأب الثاكل لفقده أشد الحزن ولم يكتم ألمه ، ولا ملك دموعه [١] ، وان ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذي شاء لحكمة سامية ، ألا يكون لمحمد في تلك البيئة المفتوذة بالبنين ولد ذكر ، وإن دان برسالته ملايين البشر في مشارق الأرض ومغاربها ...

* * *

(١) الاستيعاب والإصابة : ترجمة ابراهيم بن محمد ﷺ ، وترجمة أمه : مارية القبطية.

حب النبيّ لبناته

ونستأنف الحديث عن بنات محمد ، اللواتي كُتب لهن أن يعشن دون اخوتهن من البنين ، وأن يتزوجن جميعا في حياة أبيهن العظيم ، كما كتب عليه أن يثكل ثلاثا منهن ، ولا يبقى له غير الزهراء ...

ولا نعلم أحدا ممن عاصروا محمدا وحاربوه نبيا رسولا ، قد جحد حب محمد لبناته جميعا ، أما أعداء الاسلام المحدثون من المستشرقين ، فيأبون أن يصدقوا أنه أحب بناته ذلك الحب الغامر الذي يبدو لهم شاذا ، وقد ركزوا حملتهم بوجه خاص على الأنباء المستفيضة بحبه فاطمة الزهراء ، زاعمين – كما سنرى بعد في الفصل الخاص بالزهراء – أنها أنباء اختُرعت بعد عهد المبعث بزمن ، عندما ظهرت فكرة التشيع !

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل ، وانما حسبنا – مؤقتا – أن نقدر حين نذكر حب محمد بناته الأربع ، أثر السيدات الكريمات اللواتي دخلن حياته قبل أن يغدو أبا : أمه «آمنة بنت وهب» وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدها و«حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية» أمه التي أرضعته ؛ و«فاطمة بنت أسد بن هاشم» زوجة عمه أبي طالب التي كانت له من بعد أمه أما ، والتي سُمع رسول الله ﷺ يقول إنه لم يجد أبر به منها بعد أبي طالب ، و«خديجة بنت خويلد» زوجه الحبيبة التي أنسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وأنسا وطمأنينة وسلاما ...

سبحانه جلّت حكمته ، لكأنما أراد أن يروض الرجل الذي يصطفيه نبيا ، على احتمال أبوة الأنوثة والصبر عليها ، فنشأ سيدنا محمد على الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، وكان في أبوته لبنات أربع قُدوة صالحة للمؤمنين برسالته التي أعزت الأنوثة ، وقررت لها من الحقوق مالا تطمح إلى مثله نساء العصر الحديث .

الشقيقاتُ الأربع

خرجن إلى الدنيا في أكرم بيت ، وأنبتتهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منها ولا أنقى ، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بمثله لداتهن ، فقد كن ثمرة ١٠ أنقى ، زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة ، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجه الحبيبة التي أنسته بحنانها الغامر كل ما ذاق في طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان...

وتجد فيهن الأم ، فلذات حية من زوجها الحبيب الذي بهرها منذ عرفته بجلال طلعته ، وأسرها بنبل شخصيته ، وفتنها بجميل خصاله ، فتفتح له قلبها المغلق ، وأقبلت على الحياة من جديد...

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشظف العيش ، ولا أذبلها الحرمان...

ودرجت حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة ، فالتُمست لهن – واحدة بعد الأخرى – خير المراضع بعيدا عن حر مكة الخانق وقيظها المنهك ، حتى اذا أدركن سن الفطام عدن الى حضانة الأم التي كانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت «محمدا» من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج الأمين الاشراف على استثمار ثروتها الواسعة ، وأقبلت هي بكل طاقتها ترعى دنياها الجديدة ، غير ملقية بالا الى ما وراء جدران بيتها السعيد...

وأكسبتها تجربتها السابقة في الأمومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم ، فأسرعت فتياتها الى النمو بفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر في المنبت الطيب. واذا كانت ثروة الأسرة أتاحت لها استخدام من تشاء من الخدم والغلمان ، فالحق أن عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة الى حضانة الأطفال ، اذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة الجليلة ، كي

تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن، وما في مكة من تدانيهن شرفا وعزة...

حتى اذا شبت كبراهن «زينب» عن الطوق، بادرت أمها بتمرينها على المشاركة في العبء الكبير، وأخذتها مبكرة مأخذ الجد، ونأت بها عما يشغل لداتها وأترابها من عبث الطفولة ولهوها، فكانت «زينب» لشقيقتها الصغرى «فاطمة» أما صغيرة، ترعى شئونها وتمضي فراغها في ملاعبتها، كما تعفى أمها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها...

وقرَّب هذا الوضع ما بين زينب وفاطمة، كما أوجد تقارب السن ألفة بين الأختين رقية وأم كلثوم، فكانتا رفيقتين متلازمتين، يجمعهما الملعب المشترك والفراش الواحد، والطباع المتشابهة، والسمت المتماثل، حتى لكأنهما توأمان!

وسارت حياة الشقيقات هكذا رخية هانئة حتى تزوجت كبراهن «زينب» فافتقدتها أخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها، ولبثن ليالي عديدات ينظرن الى فراشها الخالي فيخامرهن احساس مبهم يختلط فيه الفرح بالأسى، ودار سمرهن طوال هاتيك الليالي، حول الزواج، وقد أعياهن أن يدركن كنه هذا الوضع الذي ينتزع الفتاة من أحضان أهلها، ويلقي بها وحيدة الى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب!

وكانت صغراهن «فاطمة» بحكم طفولتها، أجهلهن لحكمة الزواج وأشدهن سخطا عليه، فما أرضاها قط أن يبعدوا عنها «أمها الصغيرة» التي طالما لاعبتها ودللتها ورعتها ولعلها ساءلت أختيها كيف هان على الأسرة أن تستقبل حادث الزواج بالفرح المعلن، والاحتفال المشهود. وكان أولى بها أن تتمسك بزينب، أو لا فلتودعها كارهة، بغير احتفال!

وتحاول رقية – متأثرة بشعورها أن الدور عليها – أن تهون الأمر على أختها الصغرى فاطمة، وأن تقنعها أن أبويها ما كانا ليسلما «زينب» إلى زوجها في احتفال بهيج كالذي كان، لو لم يكن فيه خيرها وسعادتها...

لكن فاطمة تصر على رأيها في الزواج، وقد يبدو لأم كلثوم أن تقول لأختيها:

– من يدري؟.. لعل ضجة العرس انما قصد بها شغل العروس عن التفكير في قسوة التجربة الجديدة التي تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها...

واذ تحس من أختها «فاطمة» بوادر الاقتناع، تمضي مزهوة برأيها، فتلفت نظر أختيها الى ما بدا على أمها بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكتمه، فتفلت منها بوادر واشية به دالة عليه.

ثم تسألها:

– أما سمعتماها غير مرة تنادي «رقية» باسم «زينب» ثم تتنبه فجأة، فتستدرك بصوت رقيق حالم: ويحي!.. لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا!

فتردد فاطمة في أسى:

– هو ما تقولين...

أما رقية فتجيب:

– انك تبالغين يا أم كلثوم، فالواقع أن أمنا قد ألفت أن تنطق باسم زينب، وليس في سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب، وانما هو حكم الإلف وسلطان العادة...

ولكن «أم كلثوم» تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها:

– فما قولك اذن في أبينا؟.. أو ما تلاحظين عليه منذ حين أنه يأنس الى الخلوة ويميل الى الوحدة ويجنح الى الصمت والتأمل؟ أو ما يبدو عليه في هذه الأيام أنه مشغول البال بهمٍّ يطويه؟

فهتفت «فاطمة» وهي تنتفض حبا وحنانا:

– يا لأبي العزيز!.. انه لكما ذكرتِ يا أم كلثوم...

وقالت رقية:

– وما يدريكما أن لفراق زينب صلةً بميل أبينا الى العزلة وشغفه بالخلوة؟

فهزت «أم كلثوم» رأسها وهي تقول بلهجة ذات مغزى :

– ما أراك يا رقية الا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ، وقد جاء دورك !

فردت «رقية» في غير انفعال :

– ما خطر لي هذا يا أخت ببال...

وعقبت فاطمة :

– فلتتزوجا أنتما وليبارك الله لكما ، أما أنا فلست بتاركة أبوي ما استطعت الى ذلك سبيلا...

ولم تدر «فاطمة» وهي تلقي هذه العبارة ، أنها كانت تنطق بلسان القدر!..

فما مضى على زواج «زينب» غير قليل ، حتى خطبت أختاها رقية وأم كلثوم ، وبقيت هي في بيت أبيها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا...

* * *

الى هنا ينتهي الفصل الأول من حياة الشقيقات الأربع ، بانتهاء حياتهن المشتركة في بيت أبويهن ، ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة منهن قد واجهت دنياها الجديدة واستقلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهن ، لنصحبها في ذلك الدور الثاني من حياتها ، ونرى ما فعلت بها الأيام...

(١)

زينب الكبرى

- العَروسُ الهاشِميّة

- إبن الخالة

- سَعادة لم تطُل

- ليل لا يبدو له آخِر

- الأسيرُ والقِلادة

- مسْلِمة ومشرك

- طارق بليل

- لقاء.. وفِراق

- ذِكرى...

زينب الكبرى

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت اليها عيون الهاشميين، وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبواها من كرام الفتية القرشيين...

ولكن واحدا منهم، لم يكن له من الأمل في الزواج من «زينب» مثل ما لابن خالتها «أبي العاص بن الربيع» أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا، فلقد أتيحت له فرصة لم تتح لسواه، إذ كانت خالته «السيدة خديجة» تنزله منزلة الابن. فتهيأ له بذلك أن يغشى بيت «محمد» كلما أراد، فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق، ما يطمعه في أن يكون الزوج المختار لزينب، تلك التي خفق لها قلبه منذ حداثتها الباكرة، فراح يرمقها وهي ترقى سراعا في مدارج النمو، وتتفتح للصبا ملء النضرة والبهاء...

وكان مكانها في بيت أبيها، كبرى بنات أربع، قد أسرع بها الى النضج قبل الأوان، بما ألقى عليها من عبء المشاركة في حضانة أخواتها، مع الأم الطيبة التي كانت حينذاك قد جاوزت عامها الخمسين، وأجهدتها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع دراكا في العقد الخامس من عمرها، فأضفت هذه المشاركة على «زينب» طابع الأنوثة الناضجة، ولما تزل ندية الصبا غضة الإهاب...

وكان «أبو العاص» يراها كلما ألم ببيت خالته فيؤخذ ببهاء مرآها وعذوبة حنانها وذكاء ملامحها ولطف طباعها وتفتح أنوثتها...

وكانت مشاغله الجسام تمسكه أحيانا عن الالمام ببيت خالته، وبخاصة في المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج الساعين اليها من الحجيج والتجار، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة، الى الشمال والى الجنوب، في الصيف والشتاء، تحبسه عن

«أم القرى» فترات قد تمتد وتطول حتى تبلغ الرحلة منها أشهرا ذوات عدد ، لكنه كان أبدا يرنو الى «أم القرى» على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين ، يؤنسه طيف من تلك الصبية الرقيقة الوديعة ، التي يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة آسرة ساحرة...

ولم يغب عن باله قط . أن الفتية الأمجاد من آل هاشم يرنون الى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن الى مواتاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعا من يتاح له مثل مكانته في بيت محمد . أو تتهيأ له فرصة التلطف في كسب ود «زينب» والوسيلة الى الظفر بإعجابها وتقديرها...

وأبت عليه ثقته في نفسه أن يدخل مع منافسيه في معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره الغالي لدى خالته الرءوم ، وانصرف مطمئنا . الى تدعيم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين...

وكذلك أبت عليه فطنته أن يحاول كسب عواطف فتاته في عجلة ، أو أن يطرق باب قلبها البكر في عنف ، فهي على نضجها واتزانها ما تزال الصبية الخجول ، وأي تسرع في الكشف لها عن حبه قد يخدش حياءها العذري ويجرح براءة صباها ، وهو ما كان ابن الخالة يتجنبه ويتقيه...

وقد كلفه هذا الموقف جهدا غير قليل ، وفرض عليه قيودا ثقالاً من الكتمان والحرص والتأني ، ولكنه في الوقت نفسه جعل «زينب» تطمئن اليه وتأنس له في غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل رجولته التي أنضجتها التجربة والرحلة ، ما جعلها تعتز به أخا ، ولا ترى في فتيان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وإن كان فيهم من يُوزن به أصالة ونسبا ، وربما مالا كذلك...

وقد اعتاد «أبو العاص» أن يجعل بيت «محمد» قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت «زينب» ترتاح الى محضره ، ويطيب لها أن تصغي الى ما في جعبته من طرائف وغرائب التقطها من مدرسة الأسفار ، وكأنما كانت ترى في وعيها الحديث

رحلاته ، وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية رشدها الذي تميزت به عن لداتها وأترابها ...

وربما جاءها في بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو هدية مناسبة ، فتتقبلها في بساطة وبِشر ، وترى فيها تحية جميلة لما يربطها من أواصر المودة والقربى ...

وهكذا تفتح له قلبها البكر على مهل ، فأحست تلك اللمسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها في رفق ولطف ، وكانت أمها الى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لا تنام ، وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر «أبو العاص» بقلب «زينب» والا فما كانت خديجة بالتي تفرضه على ابنتها لو أن قلبها ظل مغلقا دونه ...

و«خديجة» قد عرفت الحب الطاهر ونهلت من رحيقه العذب ، وخرجت من تجربتها العبقرية الفذة – التي بدت للقوم في حينها أشبه بمغامرة – أشد تحمسا للزواج القائم على الحب المتبادل ، وأعمق إيمانا بأنه النعمة الكبرى التي تهبها السماء للموعودين السعداء ...

وتلطفت السيدة الأم ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التي لمست قلب فتاته الأولى ، فرقَّ قلب الأب النبيل للحبيبين العزيزين ، وتمثلها وهما يترشفان ، في حياتهما الزوجية ، من ذاك النبع السخي المبارك الذي شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يزهد أو يمل ...

هنالك وافقت «خديجة» على أن يتقدم ابن أختها الى أبي زينب خاطبا . وكان بودها لو تمهلت فترة لتستبقي ابنتها الكبرى الى جانبها ، لكنها رأت حرص الفتية القرشيين على مصاهرة الهاشمي الأمين ، وخشيت اذا هي تريثت أمدا ، أن يسبقوا «أبا العاص» الى طلب يد «زينب» فيكون شيء من الحرج لا ترضاه لزوجها العزيز ...

* * *

وقد أحسن «محمد» لقاء «أبي العاص» كما اعتاد دائما أن يفعل ، وأصغى بملء سمعه اليه وهو يعرب له عن رغبته في الزواج من «زينب» ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هذه الرغبة الى ابنته ، فإنها لأهل لأن تكون صاحبة الكلمة الأولى في أمر جليل كهذا ، يعنيها أكثر مما يعني أي فرد سواها .

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو «أبي العاص» ورأيها فيه ، لكنه ، على ما يعرف من هذا كله ، لم يشأ أن يقطع في الأمر دونها . وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد الى أمها في أن تسبقه اليها بالنبأ السعيد . ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

- بنيتي زينب . ان ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك ...

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا . فقد كان يعرف أن حياءها سوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم الا ان كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الأمر على ما تكره ...

وتلبث الأب برهة يصغي ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الأم الطيبة ... واذ ذاك عاد الى حيث ترك «أبا العاص» ينتظر ، فصافحه مهنئا داعيا مباركا ...

* * *

وذاع النبأ السعيد في مكة ، فوجمت له قلوب شبان طمعوا في الظفر بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يسعه أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئذ أن بني العم كانوا أولى بزينب من ابن الخالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبي العاص إلا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا الا خيرا؟...

قرشي صميم، يلتقي نسبه من جهة الأب مع «محمد بن عبد الله» عند الجد الثالث: عبد مناف بن قصي، فهو «أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي»(١)

ويلتقي نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد، عند جدهما الأدنى: خويلد ابن أسد بن عبد العزى بن قصي، فأمه «هالة بنت خويلد» أخت خديجة الطاهرة، زوج محمد وأم زينب...

وكان الى جانب ذلك الأصل العريق والعرق الطيب. كريم الخصال نبيل الشخصية، حتى لقد لقبه قومه بالأمين(٢)، كما لقبوا محمد بن عبد الله...

وأتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم اليه ما جعله يتقدم الى الصف الأول من صفوف التجار، وهم يومئذ سراة مكة وأثرياؤها(٣).

ولقائل أن يقول ان السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق رغبته، وأعانت على اختياره زوجا لزينب، ولآخر أن يقول ان محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين. لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة، وهي من هي في حياة محمد وفي قلبه وفي دنياه...

ولكن اذا كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع. فقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ما يزكيه ويغنيه ويفتح له أي بيت شاء من بيوتات مكة، ويزف اليه أي عروس يختارها من زهرات المجتمع القرشي العالي...

* * *

(١) نسب قريش ٢٣١ وجمهرة أنساب العرب: ٧٠ – ذخائر. والمحبر ٥٣، وكُنى الاستيعاب ١٧٠١/٤ والإصابة ١١٨/٧.

(٢) المصعب الزبيري: نسب قريش ٢٣١ ط الذخائر

(٣) السيرة: ٣٠٦/٢ وانظر معها الاصابة لابن حجر: ترجمة أبي العاص.

تهيأ البيت المحمدي للعرس. وامتلأ بذلك الضجيج المحبوب الذي يقترن عادة بإعداد بيت جديد. وقد بعث «محمد» في طلب أزكى العطور والأطياب، كما أرسلت خديجة من يجوبون الأسواق القريبة، ويترصدون من يفد على مكة من التجار، ليأتوها بخير ما يحملون مما يصلح للعروس. على حين مضى «أبو العاص» يعد بيته لاستقبال الوافدة الغالية، ويسخو في هذا السبيل بما يتيحه له ثراؤه العريض...

وآن موعد الزفاف، ورددت أرجاء مكة أصداء العرس. ونُحرت الذبائح ودعي إليها أهل البلد العتيق...

وصحبت الأسرة المحمدية عروسها الى بيتها الجديد. ولبثت هنالك وقتا تبارك الزوجين، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الأول الذي حُلت فيه تمائمها...

ثم تركتها في رعاية زوجها الكريم...

وهناك أظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة خالصة، وأتاح لهما الحب المتبادل أن ينعما بالعيش في ظل الزوجية الموفقة، وان مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت، حين يُضطر أبو العاص الى السفر في تجارته، فيمضي تاركا قلبه في مكة، وتحاول «زينب» أن تتجلد للفراق، وتستعين عليه بزيارة بيت أبيها، فرارا من وحدتها والتماسا لبعض التسلي، واسترواحا لذكريات طفولتها السعيدة، وهنالك كانت تشهد ما يلوح في أفق الأسرة من طلائع ذلك الغد المغيب. وقد كثر انقطاع أبيها الى التعبد والتأمل في خلوته بغار حراء، وبدت أمها ولا شغل لها إلا أن ترمقه على البعد، وتهيىء له ما في وسعها من أسباب الراحة والهدوء...

وتتشاغل «زينب» بالمشاركة في تدبير شئون الدار لكي تتيح لأمها الفراغ للتفكير في الحبيب واعداد زاده والسهر على سلامته حتى يعود «أبو العاص» من سفره فترجع زينب الى بيتها حيث تفضي الى زوجها بما يساورها من قلق، فيبث في نفسها الطمأنينة، ويردها الى مألوف حالتها من دعة واشراق، وربما أنشدها بعض ما كان

ينشده في سفره، وهو عنها بعيد:

ذكرتُ زينب لما وركتْ ارماً فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاهـا الله صالحة وكل بعلٍ سيثني بالذي علما[1]

ثم منَّ الله عليهما[2] بوليدهما «علي بن أبي العاص» ومن بعده جاءت أخته «أمامة» ففاض عالمها بالغبطة والفرح...

* * *

وذات صباح، سعت «زينب» مبكرة الى بيت أبيها وأبو العاص على سفر، فالتقت لدى الباب بأمها عائدة من زيارة عجلى لابن عمها «ورقة بن نوفل».

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هذه الحال من اللهفة والاهتمام والاشتغال، وقد راعها أن مرَّت بها فلم تكد تراها. بل اندفعت لا تلوي على شيء نحو مخدع زوجها. حيث تلبثت هناك فترة غير قصيرة، قبل أن تخرج الى بناتها وقد عاودها هدوؤها...

وأصغت «زينب» الى أمها وهي تحدثها حديثا عجبا عن نزول الوحي على أبيها ﷺ وهو يتعبد في غار حراء، فأخذت بما سمعت حتى لم تحر جوابا، ذلك أن الأمر كان من الخطر والجلال بحيث قصرت عن إدراكه وأعياها أن تبلغ مداه...

ولبثت في مكانها ساكنة لا تريم، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهي، بل خيل اليها أنها تسبح نائمة في بحر لجي لا تدرك عبره!

حتى ردها الى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول:

– أو ما يسرك يا أختي أنك بنت نبي هذه الأمة؟

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢٠/٨ – والاستيعاب ١٨٥٤/٤. والروض الأنف ٦٨/٣.

(٢) نسب قريش ٧٠ – وجمهرة أنساب العرب ٧٠، ١٥٨، والاستيعاب ١٨٥٤/٤ والمحبر ٥٣، ٩٩.

أجابت بعد تأمل صامت :

- أجل والله يا فاطمة ، وأي فتاة لا يزدهيها ذلك الشرف الذي ما بعده شرف؟ لكنه الذي سمعتُ وسمعتِ من قول خالي «ورقة» : لَيُكَذَّبَن أبي ، وليؤذَيَن ، وليخرجَن ، وليقاتلَن !(١) .

ففكرت «فاطمة» مليا وقد عزَّ عليها أن يؤذَى أبوها . ثم رفعت وجهها وقالت لأختها :

- هو والله ما قالت أمي لأبي :

«الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت . والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث . وتؤدي الأمانة ، وتحمل الكلَّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق»(٢) .

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وان أحست كلتاهما أن لهذا الأمر ما بعده !

* * *

عاد «ابن الربيع» من رحلته ، وملء سمعه شائعات تناقلها الركبان ، عن ظهور «محمد بن عبد الله» بدين جديد...

وتحدثت إليه زوجه «زينب» بالنبأ اليقين ووجهها يفيض بشرا وفخرا ، فما راعها إلا أن أمسك صامتا لا يعقب !

وسألته : ما بك ياابن الخالة؟

أجاب وهو يضمها إلى صدره : بي يا حبيبة أني خائف...

---

(١) السيرة الهشامية ٢٧٤/١ ، تاريخ الطبري ٢٠٧/٢ .

(٢) ترجمتها في الاستيعاب والاصابة : وتاريخ الطبري ٢٠٥/٢ .

ثم أرسلها من بين ذراعيه وهو يردد كمن يحدث نفسه :

لو تبعته لقال القول : فارق دين آبائه إرضاء لزوجته وحميه ، ولو خالفته...

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته في لهفة وضراعة :

- لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق... ورنت إليه طويلاً قبل أن تستطرد قائلة : وأنا بعد قد أسلمتُ يا ابن الخالة...

قال وقد أسقِط في يده : أو قد فعلتِها يا زينب؟

قالت : ما كنت لأكذب أبي ، وإنه والله لكما عرفت : الصادق الأمين...

ثم أضافت : وكذلك أسلمت أمي وأخواتي ، وعليّ ابن العم أبي طالب ، وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابنُ عمك عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد...

فلم يبد عليه أنه أصغى الى ما تقول ، بل استطرد متسائلا وفي صوته رنة أسى وملام : فهل فكرت يا زينب حين تبعتِ دين أبيك ، فيما يحدث لو أني بقيت على دين آبائي؟

فهزت رأسها وهي تجيب : كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق إلى الاسلام كما سبق اليه من قومك عثمان ابن عمك والزبير ابن خالك...

فانثنى موليا . وخرج الى دار الندوة ، وبقيت هي تنتظر على جمر...

وآب اليها في غسق الدجى واجما مطرقا . فلم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :

- لقيتُ أباك اليوم في الكعبة يا زينب . ودعاني إلى الإسلام [1]

(١) السيرة : ٢/٢٠٦.

ثم لم يزد...

وكان في وجوم ملامحه، وترنح صوته، ما يغني زينب عن سؤاله:

بم أجاب الدعوة؟

ووقفا في أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والأسى، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى همَّا بعناق، ثم ما لبثا أن تراجعا فجأة، وكأن حاجزا غير مرئي يقف بينهما فيحول دون ما يبغيان من شعور بالتداني، والتماس كل منهما في صاحبه ملاذا وسكنا...

ولم يناما ليلتهما، ولا ما بعدها من ليال، اللهم الا أن يغلبهما الكلال فيغفوا مجهدين، غفوات خاطفة قلقة ممزقة.

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ما تكابد:

- والله ما أبوك عندي بمتَّهم، وليس أحب اليَّ من أن أسلك معك يا حبيبة في شِعب واحد. لكني أكره لك أن يقال إن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاء لامرأته، فهلا قدَّرتِ وعذرتِ!؟

وتمثل بموقف العم أبي طالب بن عبد المطلب: بقي علي دين قومه، وإن محمدا لأحبُّ إليه من ولده، وما يساوره في صدقه أدنى ريب.

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب، وإن خايلها الأمل في أن تنجلي الغمة عن قريب. كما منتها أمها خديجة...

* * *

على أن الغمة لم تنجل سراعا، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى، وهذه قريش قد لجت في عدواتها للرسول، وأمعنت فيمن اتبعوه أذى واضطهادا حتى أثخنتهم بالجراح وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم. ثم لم يكفها كل ذاك الذي فعلت

بالمسلمين، بل مدت يد الأذى الى بني هاشم وبني عبد المطلب. لأنهم أبوْا أن يسلموا رجلهم الى أعدائه المشركين، فكانت المقاطعة الرهيبة التي سُجلت في صحيفة عُلقت بالكعبة، وخرجت بالهاشميين الى شعب أبي طالب بظاهر مكة، حيث أقاموا هنالك في حصار طويل منهك امتد ثلاث سنين[١].

ولم تكن «زينب» فيمن خرج الى الشِعب، لكن أنباء من فيه كانت تأتيها في دار زوجها. فتروعها بالذي يكابده أهلها هنالك...

ولم تنجل محنة الحصار، الا لتسلم إلى ليل طويل، لا يبدو له آخر!..

مات العم «أبو طالب» بعدْ ستة أشهر من تمزيق صحيفة المقاطعة.

وبعده بثلاثة أيام[٢]، توفيت خديجة أم المؤمنين الأولى، وربة بيت النبي ﷺ وأم عياله، ووزيره في الإسلام.

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين في النصر على النبي، وعادت معركة الاضطهاد التي فترت هونا عقب فك الحصار، الى أشد مما كانت عليه تأججا وسعيرا...

وبدأ أتباع محمد ﷺ، يهاجرون تباعا فرارا بدينهم من الفتنة والأذى، حتى لم يبق مع الرسول بمكة الا من حُبس أو فُتن، غيرَ عليّ بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما...

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها، وسرى الهمس في مكة أن المشركين قد ائتمروا بمحمد ﷺ ليقتلوه ويستريحوا منه...

وأصبحت «زينب» ذات يوم، ومكة من أدناها الى أقصاها. تتحدث عن

---

(١) السيرة: ٣٧٥/١. تاريخ الطبري ٢٢٥/٢. عيون الأثر ١٢٦/١.

(٢) المحبر: ١١.

مطاردة قريش لمحمد الذي خرج من «مكة» وليس معه سوى صاحبه أبي بكر الصديق...

وأوجست في قلبها خيفة «زينب» وهي تصغي الى أنباء المطاردة العنيفة العنيدة، حتى اذا بلغها وصول أبيها ﷺ الى مأمنه في دار الهجرة، اطمأن بالها...

وجاء رسول من يثرب فصحب أختيها «فاطمة وأم كلثوم» الى هناك، وكانت «رقية» قد هاجرت كذلك من قبل، وبقيت زينب في دار زوجها أبي العاصْ بن الربيع بمكة، اذ لم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد...

وتلفتت حولها فإذا مكة قد خلت من كل الأهل، وإذا دار أبيها مغلقة خلاء، اللهم من أطياف الأحباب الذين هجروها كارهين...

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة، تسائلها: أين من كانوا بالأمس يملئونها بهجة وأنسا؟

أين محمد وخديجة؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة؟ وأين القاسم وعبد الله؟

رحلوا جميعا. فأما خديجة وولداها فإلى غير مآب، وأما محمد. ﷺ، وبناته فإلى هجرة واغتراب...

والتمست قبر أمها فأكبت عليه تروي الثرى بدمعها. حتى إذا أراحها البكاء هونا أغرقت في تأمل صامت حزين:

واعجبا؟ الأحياء من أهلها وأحبابها جِدُّ نائين، والموتى منهم هم الجيران الأقربون!..

وذكرت سعادتها المدبرة، فشعرت بقلبها يكاد يتصدع: إن زوجها العزيز لا يزال على دين آبائه، ولو كان قد أسلم لما تمزّق الشمل وانفردت هنا بمكة، بعيدا عن أبيها وأخواتها...

* * *

وتتابعت النذر معلنة عن دنو عاصفة عاتية ، فمحمد ﷺ قد وجد في «يثرب» أنصارا ودارا ومقاما . وأصحابه هناك يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوي بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم في الظفر بعيرٍ تحمل تجارة لقريش . فيها عمرو بن الحضرمي ، فعاد المسلمون الى يثرب بالعير وبعض الأسرى ، وتركوا ابن الحضرمي صريعا بسهم على أديم الصحراء (١) ...

وظل أهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب في أمر هذه القلة المغتربة مع «محمد» بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة «ضمضم بن عمرو الغفاري» – وكان مسافرا في تجارة بالشام مع أبي سفيان – فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحوّل رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :

– يا معشر قريش ... اللطيمةَ اللطيمةَ !... أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى لكم أن تدركوها ... الغوثَ الغوثَ ! (٢) ...

فجاءته الأصوات من كل جانب : أيظن محمد وأصحابه أن تكون عِير أبي سفيان كعيرِ ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سمع «زينب» فأدركت أنها الحرب ...

الحرب بين قريش والمسلمين ...

وفي الأولين زوجها ووالد طفليها عليّ وأمامة : أبو العاص بن الربيع .

وفي الآخرين أبوها : محمد رسول الله ﷺ !

وباتت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة أشقى منها ولا أفدح هما .

فلما أصبحت ، وقفت ترقب قريشا وهي تسير إلى دار الهجرة في ألف مقاتل كاملي العدة شاكي السلاح ...

(١ – ٢) السيرة : ٢٥٢/٢ ؛ الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٢ وتاريخ الطبري : ٢٦٣/٢ ، وعيون الأثر : ٢٢٧/١ .

كم ترى يكون عدد الجيش مع أبيها في المدينة؟ مائة؟ مائتان؟ ثلاثمائة؟ يا لزينب مما تتمخض عنه المعركة الرهيبة غير المتكافئة...

وانثنت الى مهد صغيريها . علي وأمامة ، فرنت اليهما بعين دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين :

– لن تطلع علينا الشمس في مثل يومنا هذا ، إلا وأنتما يتيمان ، أو أنا...

ثم أرخت يديها . وجمد الدمع في مقلتيها . واستسلمت لقضاء الله وقدره...

ولم تحاول أن تتبع أنباء القتال الدائر أو تتلمس ما يصل الى مكة من أخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام «زينب بنت محمد» الا اليتم أو الترمل !

واذ هي منطوية على نفسها تجتر مخاوفها . جاءتها عمة أبيها «عاتكة بنت عبد المطلب» فابتدرتها قائلة : أو ما بلغكِ النبأ العجيب؟

فنظرت اليها زينب بادية اليأس . ولم تجب...

واستطردت العمة : انتصر محمد في قلة من صحابته ، على قريش في كثرتها وعدتها...

فانتفضت زينب هاتفة : انتصر أبي ! ؟.. وافرحتاه !..

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص . فضمت طفليها إلى صدرها واستعبرت باكية...

لكن العمة عَجِلتْ إليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص . بل وقع في أسر صهره الكريم ، ﷺ .

هنالك تعلقت «زينب» بعنق عمتها . تقبلها بدموع الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح...

* * *

وأتتها بقية من الأنباء بعد حين...

جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذي ترك هامات قريش ورءوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر...

وأذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم في الفداء...

وكان «أبو العاص» ذا مال ، وقد أراد أهله أن يغلوا في فدائه ، لكن «زينب» آثرت أن تفتديه بما هو أغلى من المال...

* * *

سيق أسرى بدر الى يثرب في أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم الرسول ﷺ ملياً ، ثم نحّى عنهم صهره «أبا العاص بن الربيع» وفرق الباقين بين أصحابه وقال :

«استوصوا بالأسارى خيرا»...

وبقي أبو العاص عند النبي ﷺ ، حتى جاءت رسل قريش في فداء أسراها...

وغالوا في الفداء ، حتى ان المرأة لتسأل عن أغلى ما فُدي به قرشي . فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها في فداء ابنها (١)...

وتقدم «عمرو بن الربيع» أخو أبي العاصي ، فقال للنبي :

– بعثني «زينب بنت محمد» بهذا ، في فداء زوجها . أخي ، أبي العاصي بن الربيع... (٢)

وأخرج من ثيابه صُرَّة قدمها الى الرسول ، فاذا فيها «قلادة» لم يكد «محمد»

---

(١) السيرة : ٣١٦/٢ . والطبري : حوادث السنة الثانية للهجرة . وانظر الطبقات الأخرى لابن سعد : ١١/٢ – ولاحظ أن ابن الربيع ، يذكر في بعض المصادر باسم «أبي العاصي» وفي بعض آخر باسم «ابي العاص» .

(٢) مسند احمد : ٢٧٦/٦ والسيرة ٣١٧/٢ . والاستيعاب والإصابة : ترجمة أبي العاص .

يراها حتى رق لها رقة شديدة، وخفق قلبه للذكرى...

لقد كانت قلادةَ «خديجة» أهدتها الى ابنتها زينب يوم عرسها حين زفتها الى أبي العاصي، ابن أختها «هالة»...

وأطرق أصحاب الرسول خشعا وقد أخِذوا بجلال الموقف وروعته:

قلادة الحبيبة، تبعثها بنت النبي الى أبيها. في فداء زوج حبيب!..

وتكلم الأب النبي بعد فترة صمت. فقال في حنان:

- إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها. فافعلوا.

فهتفوا جميعا بملء قلوبهم:

- نعم يا رسول الله...

وأدنى محمد - ﷺ - اليه صهره الذي غلبه التأثر لهيبة الموقف، فأسرَّ اليه حديثا لم يعلم ما هو، فحنى ابن هالة رأسه موافقا. ثم حيًّا ومضى، فلما أبعد. التفت الرسول الى أصحابه من حوله، فأثنى على أبي العاص خيرا وقال:

«والله ماذممناه صهرا»[1].

* * *

دخل «أبو العاص» بيته فما رأته زوجته «زينب» حتى وثب قلبها إليه فرحة بنجاته، ثم لم تسعفها قواها على النهوض لفرط ما هزها الانفعال، فرفعت وجهها الجميل الى السماء تحمد الله أن رده سالما اليها والى طفليه، وتضرع اليه تعالى أن يشرح قلبه للاسلام...

---

(١) السيرة: ٣١٧/٢، وتاريخ الطبري ٢٩١/٢، والاستيعاب: ١٧٠١/٤.

وأخرج مسلم في كتاب الفضائل من صحيحه، حديث المسور بن مخرمة، وفيه أن النبي ﷺ «ذكر صهرا له في بني عبد شمس. فأثنى عليه في مصاهرته إياه فأحسن» ١٩٠٢/٤ ح ٢٤٤٩.

وشغلتها فرحة اللقاء، فلم تلمح ما يغشى وجه زوجها من وجوم واكتئاب، الى أن قال وهو مغمض العينين كأنما يشفق أن يرى وقع كلماته عليها:

- جئتك مودعا يا زينب...

فسألت بقلب واجف: هكذا ولما نكد نلتقي!.

قال وما زال يتحاشى النظر إليها: لستُ راحلا يا زينب، ولكنك الراحلة هذه المرة!..

ورابَها ما سمعت.

كانت تعرف أن قريشا أرادت أصهار الرسول على أن يردوا بناته اليه ليشغلوه بهن، وقد استجاب لهم زوجا أختيها «رقية وأم كلثوم» فردَّاهما الى أبيهما، أما أبو العاصي فتركهم يقولون:

- فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش...

ثم صدمهم ردُّه: لا والله اني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش (١).

فهل تراهم عاودوه اليوم في أمر فراقها فاستجاب لهم بعد الذي كان في «بدر»؟

وشعرت ببرودة تجمد أطرافها وتسري الى قلبها. فاستندت الى جدار مخدعها مرتعدة، تنتظر في استسلام يائس، ماذا بعد...

وأدرك «أبو العاص» ما هجس في قلبها، فبادرها قائلا في حنو وكأنما ذاب قلبه في صوته: رحماك يا حبيبة، إن أباك هو ٱلذي طلب أن أردك اليه، لأن الاسلام فرَّق بيني وبينك، وقد وعدتُه أن أدعك تسيرين اليه، وما كنت لأنكث عهدي...

وحملها صوته إلى بعيد...

---

(١) السيرة: ٣٠٧/٢ وانظر معه ترجمة أبي العاصي وسعي قريش في طلاقه في الاستيعاب.

وتمثلت نفسها في يثرب ، تقبل أباها وتعانق أخواتها ، وتلقى النازحين من الأهل والعشيرة ، والصحابة من المهاجرين والأنصار.

وانتشت بالحلم الهنيء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على «أبي العاصي» غارقا في شجنه ، فسألته مترفقة :

-كم بقي لنا من وقت نقضيه معا؟

أجاب بصوت واهن :

- ليس بالكثير... ان هي الا أيام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون الفراق المحتوم...

وبقي سؤال لزينب :

- وترافقني إلى دار الهجرة؟

فأمسك دموعا تحيرت في مقلتيه وأجاب :

-كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتي أخوك زيد بن حارثة ، ومعه صاحب من أنصار أبيك حتى يبلغا «بطن ياجج» - على بعد ثمانية أميال من مكة - فينتظرا هناك حتى تمري بهما فيصحباك الى أبيك بيثرب [١] .

* * *

وخرجت «زينب» في الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها «هند بنت عتبة» التي روعها مصابها في بدر ، وأخرجها من بيت زوجها أبي سفيان إلى محافل مكة وأنديتها تدعو للثأر من المسلمين الذين قتلوا : أباها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وأبناء عمومتها : عبيدة والعاصي ابني سعيد بن العاص

(١) السيرة : ٣٠٨/٢ - وتاريخ الطبري : ٢٩١/٢ .

ابن أمية بن عبد شمس وعقبة بن أبي معيط ، وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان بن حرب ... [٢]

ولم يخفَ على هند – في ذكائها اللماح – أن زينب إنما تتجهز لتلحق بأبيها ، لكنها أرادت أن تستوثق من الأمر. فدنت منها وقالت متلطفة : يا بنت محمد. ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟..

فتحيرت «زينب» لا تدري بماذا تجيب. وأضافت هند مجاملة :

أي ابنة عمي ، ان كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك فان عندي حاجتك ، فلا تضطني مني فانه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال...

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، فهمت بأن تفضي الى هند برحيلها القريب ، لولا أن شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها ...

ومضت كلتاهما لشأنها ...

أما زينب فقالت : «والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد اللحوق بيثرب» [١] ...

وأما هند. فراحت تؤجج في قريش نار الثأر، وتغذيها بوقود من الحقد والحمية ...

* * *

وسرعان ما حل الموعد المضروب ...

وودعت «زينب» أبا العاص وداع مُحِبَّةٍ غير قالية ولا هاجرة ، وخرجت وفي

(١) السيرة ٣٦٦/٢. وعيون الأثر ٢٨٥/١.

(٢) السيرة : ٣٠٨/٢ وتاريخ الطبري : ٢٩٢/٢.

أحشائها بضعة منه: جنين لم يستكمل شهره الرابع...

وحاول «أبو العاص» أن يتجلد فقال: مهما يحدث يـ زينب ـ فسأبقى على حبك ما حييت. وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التي شهدت أيامنا وليالينا السعيدة...

ثم خانه تجلده، فأرخى بصره وترك أخاه «كنانة بن الربيع» يمضي بزينب الى حيث ينتظرها زيد وصاحبه...

وانطلق «كنانة» يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا. فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع، وخرج رجال منهم في أثر المهاجرة حتى أدركوها بذي طُوى، فكان أسبقهم اليها «هبارُ بن الأسود الأسدى» الذي روعها بالرمح وقد جُن حزنه على اخوة له ثلاثة، صرعوا جميعا في بدر بأيدي أصحاب محمد ﷺ [1].

ونخس البعير، فألقى براكبته على صخرة هناك، واذ ذاك برك «كنانة» دونها ونثر كنانته وهو يزأر:

- والله لا يدنو مني رجل الا وضعت فيه سهما...

فتراجع المطاردون الجبناء ووقف «أبو سفيان» بعيدا يقول لكنانة:

- كف عنا نبلك حتى نكلمك...

فكفّ كنانة...

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال:

- انك لم تصب يا ابن الربيع: خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا. وان ذلك منا ضعف ووهن. ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة،

(١) السيرة ٢/٢٦٦. الروض ٣/١٣٤. العيون ١/٨٥.

ولكن ارجع بالمرأة حتى اذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها. فسلَّها سرا فألحقها بأبيها [١].

فكبر على «كنانة» أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن يذاع في الناس أن قد ردتها قريش. لولا أن سمع توجعها فالتفت اليها فراعه أن رآها تنزف دما. وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء!..

وعاد بها الى مكة، حيث بقي «أبو العاص» الى جانبها أياما يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار، فلما تمالكت بعض قواها. خرج بها «كنانة» حتى أسلمها الى «زيد بن حارثة» وما تزال تنزف دما...

ولم يتبعها في هذه المرة طالب. بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم، وقد ركبهم الخزي والعار من قول «هند بنت عتبة» تعيرهم وتسخر بهم:

- أمعركة مع أنثى عزلاء؟.. فهلا كانت هذه الشجاعة يومَ بدر؟

أفي السلم أعيارٌ، جفاءً وغلظةً وفي الحرب أشباه النساء العوارك؟

ورجع «كنانة» الى أخيه بعد أن اطمأن عليها وهو يردد بملء صوته.

عجبت لهبَّارٍ وأوباش قومه يريدون اخفاري ببنت محمد!..
ولست أبالي، ما حييتُ، عديدهم وما استجمعت قبضا يدي بالمهند! [٢]

* * *

استقبلت «يثرب» بنت الرسول باحتفال مهيب. شابت فرحة اللقاء فيه، سورةُ الغضب لما أصاب العقيلة الكريمة أولَ خروجها من مكة، وحملت الركبان الى قريش قول شاعر الأنصار منذرا متوعدا:

(١) السيرة. ٣٠٩/٢ - وتاريخ الطبري: ٢٩٢/٢.

(٢) السيرة: ٣١٠/٢. وشرحها في الروض الأنف ٦٨/٣.

أتاني الذي لا يقدر الناس قدره لزينب فيهم من عقوق ومأثم
فأقسمت لا تَنفك منا كتائب سراة خميس في لهام مسوَّم
نزوع قريش الكفر حتى نعلَّها بخاطمة فوق الأنوف بميسم
ننزلهم أكناف نجد ونخله وان يُتهِموا بالخيل والرجْل نُتهِم
يَد الدهر حتى لا يعوج سربنا ونلحقهم آثارَ عاد وجرهم
فأبلغ أبا سفيان إما لقيته لئن أنت لم تخلص سجودا وتُسلم
فأبشر بخزي في الحياة معجل وسربال قار خالدا في جهنم!.. (٢)

كذلك تحدثت الركبان بغضب المصطفى ﷺ لابنته، حتى لقد أمر أصحابه أن يحرقوا بالنار الرجلين الأثيمين – هبارا وزميله – إذا هم ظفروا بهما، لكنه ﷺ لم يكد يخلو الى نفسه ويتدبر ما كان من أمره باحراق الرجلين، حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يحق لمثله من حدود العقاب، فلما تنفس الصبح بعث الى أصحابه مسترْجعا ما سبق من أمره، ومستبدلا بالإحراق عقوبة القتل...

حدث أبو هريرة قال:

« بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها. فقال لنا: ان ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي سبق معه الى زينب – سماه ابن اسحاق فقال: هو نافع بن عبد قيس – فحرقوهما بالنار...

« فلما كان الغد بعث إلينا فقال: إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما. ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار الا الله. فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما » (١)...

* * *

ومضت سنوات ست. حافلة بجليل الأحداث، و« زينب » في حمى أبيها

---

(١) السيرة: ٢/٤١٢.

بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو أن يشرح الله صدر «أبي العاص» للاسلام...

وليس بمستغرب ألا نسمع عنها خبرا في هاتيك السنين ، وألا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء أبيها ﷺ من شواغل الغيرة والتنافس ، وألا نعرف لأبي العاص بعد موقعة بدر، مشاركة في تلك الحرب الطاحنة التي لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين في المدينة والمشركين في مكة...

حتى كانت ليلة من ليالي جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت «زينب» مؤرقة تسامر ذكريات ألمت بها فذادت النوم عن عينيها... وطاب لها أن تحلم في يقظتها بالغد الذي طال انتظارها اياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل في دين محمد ألوف وألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا أن النصر المبين آت دون ريب كما وعد الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فهل يسلم «أبو العاص»؟..

ودنا الفجر وما تزال في يقظتها الحالمة ، فلم تكد تشعر ببابها وهو يفتح في تردد وحذر، ثم يبدو منه فجأة «أبو العاص بن الربيع» وقد شحب وجهه وبان عليه القلق والإجهاد.

وارتابت «زينب» في يقظتها وظنت أن ما ترى ليس الا طيف من تحب ، يسري اليها في هدأة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لها سعيد ، ولى وراح...

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة ما ألمَّ بها ، وغمغمت في شجو ورقة :

– أبو العاص !..

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

– أجل يا أعز من لي... أبو العاص ، ألقت به المقادير قريبا من يثرب ، فسعى

اليك والمطاردون في أثره...

ولم تصدق «زينب» سمعها. بل ظلت ترمقه بنظرة حالمة وهي ما تزال أشبه بمنومة، واستمرأت أن تبقى هكذا، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد، الى أن لمحت نور الفجر الوليد يتسلل من كوى الدار، وسمعت بلال بن رباح يؤذن لصلاة الصبح بصوته الرخيم، فتجيبه أصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا الأذان:

«الله أكبر»...

وميزت خطوات قريبة ساعية الى المسجد فعرفت أنه أبوها ـ ﷺ يخرج ليصلي بالناس...

وقالت كمن تحدث نفسها:

«رباه، لكأني في يقظة، ولكأني بك يا أبا عليٍّ إلى جانبي!..»

فرد عليها صوتُ من حسبته طيفا: أجل يا زينب. وهذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد أن أجهده السرى، وأرهقته المطاردة، وأضناه الفراق!..

فسرت رعدة في جسدها. وقامت اليه تريد أن تحييه، حتى اذا لم يبق بينها وبينه الا خطوة واحدة، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها، ورنت اليه بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام...

وهز ابن الربيع رأسه أسفا وهو يجيب عن سؤالها الصامت:

-كلا يا زينب. لم آتِ يثرب مسلما، وإنما خرجت تاجرا الى الشام في أموال لي وأخرى لرجال من قريش. فلما فرغت من تجارتي وأقبلت قافلا. لقيتني سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا، فأصابوا كل ما معي وأعجزتهم هاربا، حتى اذا جنّ الظلام جئتك متخفيا مستجيرا!..

فعادت الى مكانها الأول، وهي تقول بصوت يقطر أسى ويأسا:

- مرحبا بابن الخالة، مرحبا أبا علي وأمامة...

ولفها صمت مشحون بالشجن، وغرق الكون من حولها في سكون خاشع. وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها لحظة، ثم تناهى الى سمعها صوت أبيها ﷺ يكبر في المسجد ويكبر معه الناس. فجمعت زينب نفسها وقامت الى الباب، ثم صاحت بأعلى صوتها:

«أيها الناس. اني أجرت أبا العاص بن الربيع»[1]...

وحمل نسيم الفجر صوتها الى من في المسجد. فلما سلم الرسول ﷺ أقبل على من معه فقال: «أيها الناس. هل سمعتم ما سمعت؟...»

أجابوا: «نعم يا رسول الله»...

قال: «أما والذي نفس محمد بيده، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم»...

وأضاف بعد صمت قصير:

«انه يجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت»[2]...

* * *

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها، فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة:

«يا رسول الله، إن أبا العاص إن قَرُبَ فابنُ عَمٍّ، وان بَعُدَ فأبو ولدٍ، وإني قد أجرته...»

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٦٣/٢. والسيرة ٣١٢/٢. والاستيعاب ٧٠٢/٤والاصابة: ٩١/٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٩٢/٢ - السيرة: ٣١٣/٢ والاستيعاب: ١٧٠٢/٤ - وطبقات ابن سعد: ٦٣/٢.

فرنا اليهما الأب الكريم في عطف وتأثر، ثم قال يحدث ابنته:

- «أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يَخلُصنَّ إليك، فانك لا تَحلين له»[1].

وتركها وما يدريان علام استقر رأيه فيهما، فأتبعاه بصريهما حتى اذا بعد. التفت كل منهما الى صاحبه، وقالت زينب لأئمة:

- هان عليك فراقنا يا أبا العاص...

فأجابها وهو يمسك قلبه:

- معاذ الحب يا زينب. أما والله ما طاب لي من بعدك عيش...

فسألته: ففيم اذن هذا العذاب؟.. وحتام؟..

أجاب: حتى يقضي الله فينا أمره...

وأخفى وجهه بين راحتيه، كيلا تلمح زينب دمعة ترنحت في مقلتيه...

همست في ضعف: يرحمنا الله يا ابن الخالة...

فرفع وجهه إليها وقال متمهلا: لقد عرضوا عليَّ بالأمس أن أسلم وآخذ ما معي من أموال فانها أموال المشركين. فأبيت قائلا: بئس ما أبدأ به إسلامي، أن أخون أمانتي[2]...

فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ما وراء كلامه، لكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفليه النائمين في سلام...

وفي الصبح. بعث النبي ﷺ من يصحب «أبا العاص» إلى المسجد. حيث

---

(١) السيرة: ٣١٣/٢ - وتاريخ الطبري: ٢٩٣/١ والاستيعاب: ١٧٠٢/٤ وأخرجه ابن حجر في ترجمة أبي العاص، من طريق البيهقي (١١٩/٧).

(٢) السيرة: ٣١٤/٢.

كان ﷺ يجلس في جمع من صحابته، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال أبي العاص...

وقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام:

«إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا. فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نُحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به».

أجابوا بصوت واحد: يا رسول الله. بل نرده عليه...

وأسرعوا يفعلون، حتى إن أحدهم ليأتي بالدلو، وبالاناء الصغير. وبالسقاء البالي، إلى أن ردوا عليه ماله بأسره، لم يفقد منه شيئا[١].

وحان موعد رحيله، فقال الرسول وهو يودعه:

- حدثني فصدقني. ووعدني فوفى لي...

والتفت «أبو العاص» الى دار زينب مودعا من بعيد. ثم مضى وقد اعتزم أمرا...

* * *

مضى حتى بلغ مكة، وفرحت قريش إذ رأته يعود بتجارتها رابحة، وبأموالها مثمرة لم تمس، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الأعداء في يثرب، لكنه استمهل القوم حتى أدى الى كل ذي مال منهم ماله، ثم وقف بحيث يُسمَع وصاح بأعلى صوته:

- يا معشر قريش. هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟...

أجابوا: «لا... فجزاك الله خيرا، فقد وجدناك وفيا كريما!...»

(١) السيرة: ٣١٣/٢، وتاريخ الطبري: ٢٩٣/٢ - والاستيعاب والإصابة، في: أبي العاص.

فأدار فيهم بصره، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول:

– فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. والله ما منعني من الاسلام الا تخوف أن تظنوا أني انما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها. أسلمت (١)...

وخلَّف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة، وانطلق مستقبلا دار الهجرة.

* * *

أهلَّ هلال المحرم من سنة سبع، وقد عاد الرسول ﷺ وصحبه من الحديبية – على بعد مرحلة من مكة – بعد أن عقدوا الصلح التاريخي الذي بدا كأنه المحاولة الأخيرة لمشركي مكة، قبل المعركة الفاصلة.

وتناقل الناس هنا وهناك، حديث الرسول ﷺ يوم حالت قريش بينه وبين ما أراد من دخول مكة معتمراً مسالما لا يريد قتالا:

«يا ويح قريش!.. لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فان هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟.. فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة!».

وأشار إلى صفحة عنقه...

وصدق رسول الله: يا ويح قريش. لقد أكلتهم الحرب وما يزالون على عنادهم وكفرهم، وانهم لعلى يقين أنها معركة خاسرة، لكنهم مع يقينهم ذاك، يأبون الا أن يلقوا بفلذات أكبادهم وقودا لنار الحرب...

وفي قريش أهل وعشيرة، وفي مكة للمسلمين المهاجرين وطن ورحم وقربى،

(١) السيرة: ٣١٣/٢ – وتاريخ الطبري: ٢٩٣/١ والاستيعاب: ١٧٠٣/٤.

وان دار الهجرة لتفتح قلبها قبل أبوابها لكل من يفد إليها من هؤلاء مسلما ، وتوطئ له في رحابها منزلا وسكنا...

وها هي ذي تستقبل مع هلال المحرم «أبا العاص بن الربيع» وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتتفاءل بمقدمه الذي اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد توجه «أبو العاص» فور مقدمه ، إلى مسجد الرسول ، مارا في طريقه ببيت زينب. فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبي ﷺ ، ثم حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمه : أترى الرسول يرد اليه «زينب» بعد الذي كان؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الاسلام يَجُبُّ ما قبله ، فجمع شجاعته وتقدم الى الرسول بحاجته في استرجاع زينب...

وأثنى الرسول عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ، وسار الى بيته ومعه ابن الربيع...

ودعا اليه ابنته ، فردها على أبي العاص : قيل ردها اليه على النكاح الأول ، وقيل ردها عليه بنكاح جديد[1].

واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال.

* * *

ومضى عام واحد. ثم كان الفراق الذي لا لقاء بعده في هذه الدنيا.

ماتت «زينب» في مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثرة بعلتها التي لزمتها منذ

(١) على القول الاول اقتصر الطبري ٢٩٣/٢ ، وابن حبيب في (المحبر ٥٣) وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب ١٧٠٣/٤ من حديث ابن عباس. ثم أتبعه بالقول الآخر وقال : رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وهو قول الشعبي وطائفة من أهل السير وانظر الروض (٦٩/٣).

طرحت جنينها على أديم الصحراء وهي خارجة من مكة.

وريع «أبو العاص» للمصاب الفادح، فأكب على الحبيبة يناجيها ويتشبث بها حتى أبكى من حوله، ولم يجرؤ أحد منهم على ابعاده عن فراش الراقدة، حتى جاء أبوها محزونا فاستودعها الله، ثم قال للنساء:

«اغسلنها وترا: ثلاثا أو خمسا. واجعلن في الآخرة كافورا...»[1]

هنالك غادر «أبو العاص» مخدع الغالية بخطوات مترنحة، ووقف بالباب ملتاعا شارد النظرات، إلى أن جهزوها للرحلة التي لا يئوب منها مسافر...

وصلى عليها أبوها المصطفى عليه الصلاة والسلام في مسجده، ثم شيعها إلى مرقدها حيث أودعوها ثرى طيبة...

ورجع «أبو العاص» إلى داره التي كانت بالأمس جنة الحب. فأمست بعد رحيل «زينب» منزل الذكريات والأشجان...

وكاد الحزن يهلكه، لولا أن وجد في ولده «عليّ» بعض عزاء، وفي ابنته «أمامة» صورة حية من الراحلة، تؤنس وحشته، وتأسو جراحه، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب...

وكذلك وجد الرسول ﷺ في «أمامة» ما يخفف حزنه على «زينب» فكان يأنس بها ويهش لها، وفي الصحيحين أنه كان يحملها على عاتقه ويصلي بها، فاذا سجد وضعها حتى يقضي صلاته ثم يعود فيحملها...

وحدثت السيدة عائشة أن الرسول ﷺ أهديت اليه هدية فيها قلادة من جزع، فقال: لأدفعنها الى أحب أهلي اليَّ. فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة!... لكن رسول الله دعا «أمامة» بنت زينب، فأعلقها في عنقها...[2]

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أم عطية الأنصارية. وعنه في (الإصابة: ٩٢/٨).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات، من رواية الليث بن سعد، وعنه في (الإصابة ١٤/٨).

وماكان أحبَّ اسمَها إليه ! حدثت زينب بنت أبي سلمة ، ربيبة ﷺ قالت : «كان اسمي برة ، فسماني رسول الله ﷺ زينب . ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برة ، فسماها زينب»[(١)] .

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذي يوصف ، فلقد راحت تبكي فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتها . وتذكر أيامها السعيدة في مكة اذ البال خالٍ وشمل الأسرة ملتئم . ثم كان لها - بعد سنين - بعض عزاء في تسمية وليدتها باسم «زينب» احياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذي لا يمل...

ولحق «أبو العاص بن الربيع» بزينب . أيام أبي بكر . في ذي الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة[(٢)] ...

وأوصى بابنته أمامة إلى «الزبير» ابن خاله العوام بن خويلد بن أسد . وقد زوجها الزبير من علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها الزهراء . رضي الله عنها وعنهم . وظلت معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهي تطيف به اذ هو مسجى على فراشه . يمزق القلوب ويفتت الأكباد...

قالت «أم الهيثم النخعية»[(٣)] :

أشاب دؤابتي وأذلَّ ركبي «أمامة» حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها اليه فلما استيأست رفعت رهينا

وكان الامام الشهيد كرم الله وجهه قد قال لأمامة حين حضره الموت : «إني لا آمن أن يخطبك هذه الطاغية - يعني معاوية - بعد موتي ، فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيرا»...

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : ١٦٨٨/٣ . ح (٢١٤٢) .
(٢) طبقات ابن سعد ، والاستيعاب والإصابة .
(٣) المصعب الزبيري : نسب قريش ٢٢ . جمهرة أنساب العرب ١٤ .

فلما انقضت عدتها. كتب «معاوية» إلى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه، وبذل لها مائة ألف دينار. فلما ذكرتْ ذلك للمغيرة المطلبي الهاشمي، قال مغضبا:

- أتتزوجين ابنَ آكلة الأكباد؟ فلو جعلتِ أمرك اليَّ؟

أجابت وقد ذكرت وصيةَ زوجها الامام الراحل: «نعم...»

فقال المغيرة: «قد تزوجتك...»

وأقامت معه حتى ماتت. عن غير خلف وكذلك مات أخوها «علي» مراهقا. كما نص على ذلك المصعب الزبيري، وابن حزم[1].

وكل ما وصل إلينا من أخباره - فيما بين مولده وموته - خبر «زعموا فيه أن رسول الله ﷺ أردفه خلفه يوم فتح مكة».

وبموتهما انقطع عقب «زينب الكبرى بنت النبي» صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

(١) نسب قريش: ١٢، ٢٢، وجمهرة الانساب ١٥.

(٢)

رقية ذات الهجرتين

- الخاطبات
- ظلال على الأفق
- في بيتِ أبي لهب
- مع حمّالة الحطب
- النجاة
- زواج .. وهجرة
- الهجرة الثانية
- مأتم في يوم النصر!
- الثريّ الطّهور

رقية ذات الهجرتين

بعد زواج «زينب» من أبي العاص بن الربيع بوقت قصير. استقبل البيت المحمدي وفدا من آل عبد المطلب، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين، وقد خافوا أن يسبقهم إليه كفء كريم من شباب قريش...

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم، على مألوف عادتهما من الملازمة، حين وفد القوم، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا:

– ما أرى دورك إلا قد حان يا رقية...

وقبل أن تهم رقية بجواب، أقبلت «فاطمة» تقول ردّاً على ما سمعت من كلام أختها أم كلثوم: بل جاء دوركما معا!...

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة أبيها حين جاء الضيوف، فلم تشأ أن تفارقه، بل انتظرت وفي حسابها أنهم قد ينصرفون على عجل، فتستأنف ما كانت تحظى به من صحبة أبيها...

وأتيح لها بذاك أن تسمع قول شيخهم أبي طالب:

– إنك يا ابن أخي قد زوجت زينبَ أبا العاص بن الربيع، وإنه لنعم الصهر، غير أن بني عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة، وليسوا دونه شرفا ونسبا...

أجاب محمد: «صدقت يا عم...».

واستطرد الشيخ يقول: «وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم، وما أراك تضن بهما على ابني عمك...»

قال محمد : معاذ القرابة والرحم ، ولكن هلا أمهلتني يا عمٍّ حتى أتحدث في هذا إلى ابنتيَّ؟..

ولم تنتظر «فاطمة» لتسمع أكثر من هذا ، بل أسرعت تعدو إلى أختيها في بهو الدار وأسرت اليهما بالنبأ الخطير...

ووجمت الأختان لما سمعتا . فقد كان الأمر كله مفاجأة غير متوقعة ، ومن ثم استغرقهما جمود صامت ، وراحت كل منهما تنظر إلى الأخرى ، وكأنها تستنجد بها أو تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما ارتد إليهما بغير جواب...

هنالك التفتتا معا إلى «فاطمة» وقالتا :

- فهل عرفتِ لأي أبناء العم يسعى جدنا الشيخ؟

أجابت الصغيرة : كلا ، فما أطقت صبرا بعد أن سمعت حديث الجد ، وعجِلتُ إليكما بالنبأ دون انتظار لما بعده...

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض . وكأنها تحدث نفسها :

- وماذا يعنيني من اسم الخاطبين؟... ليكونا من يكونان ، فلن يتغير الموقف في كثير أو قليل ، وعما قريب يتكرر المشهد القاسي ، وتُنتزع رقية وأم كلثوم من بيتنا كما انتزعت زينب من قبل ، وتنقلان إلى دار أخرى غير هذه الدار ، وأبقى هنا وحدي ، بغير أخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت أمها تلتمس أختيها . ولم يفت الأم في اشتغالها بالأمر المهم ، أن صغيرتها فاطمة تبكي ، فانعطفت إليها تسألها في حنان : ماذا يبكيك يا صغيرتي؟..

أجابت وهي تتشبث بها معانقة :

- لا تدَعي أحدا ينتزعني منك ومن أبي ، فلست أطيق فراقكما...

فتبسمت «خديجة» ضاحكة من قولها. وأجابتها:

-كلا، لن تتركينا يا حلوة، حتى تريدي أنت!...

فصاحت «فاطمة» بملء سذاجتها: لكني لن أريد!..

وعقبت الأم هامسة في دعابة وشجو:

-كذلك تقولين الآن يا صغيرتي، وكذلك كنا نقول من قبل...

وأسبلت جفنيها حالمة، وارتدت بها الذكرى إلى أربعة عشر عاماً مضت، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وعقدت العزم ألا تتزوج، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم إليها خاطبا، بل كانت هي التي سعت إليه، غير مكترثة بما قد يقول الناس، ولا ملقية بالا إلى ما يحتمل أن يلقاها به المجتمع القرشي، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير، وهي التي ردَّت خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها. وهذه هي تقف بعد بضعة عشر عاما من زواجها بمحمد، لتبارك اليوم السعيد الذي لقيته فيه، وتستعيد ذكراه الحلوة، فتشعر بدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهي تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين!...

وآبت من حلمها الهنيء الذي ما تزال في نشوة منه، فإذا صغيرتها «فاطمة» تبادرها سائلة:

– من يكون الخاطبان يا أم؟..

أجابت في إيجاز وهي ترنو إلى رقية وأم كلثوم، وقد وقفتا غير بعيد تصغيان:

– عتبة وعتيبة، ابنا العم عبد العُزَّى (١).

(١) هذا هو اسمه، وقد غلبت عليه كنيته «أبو لهب» بن عبد المطلب بن هاشم وأمه لبنى بنت هاجر الخزاعية، وجدته لامه: هند بنت عمرو بن كعب، من تيم بن مرة – راجع جمهرة انساب العرب: ١٨ – ذخائر.

وأطالت النظر إلى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسحبتا إلى مخدعهما في سكون ، دون أن تنسبا ببنت شفة...

وتبعتهما فاطمة...

وبقيت الأم وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدري سببه ، فعللته بقرب فراقها لابنتيها . على أنها ما لبثت بعد فترة تأمل ، أن عرفت فيم انقباضها : لقد كانت لا تستريح الى «أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس» زوجة عبد العزى وأم ولديه ، ففيها شيء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان... وفيها كذلك صلف أحمق وطيش أهوج ينأيان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، وبفقدانها ذلك السمت الجليل الذي يغلب على السيدات القرشيات ، وقد أشفقت «السيدة خديجة» على ابنتيها من معاشرة هذه المرأة ، فما لهما بها قِبَل وما تزالان صغيرتين ، ولو أن الأمر بيديها لحالت دون إتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى أن هي فعلت ، أن تثير الهاشميين عليها ، وتتعرض لاتهامهم اياها بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمد وآله من أواصر القربى...

والسيدة خديجة إلى جانب هذا ، تعرف لأم جميل انتماءها إلى بيت قرشي كبير ، ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وإنها لقادرة على أن تفعل ، وحسبها أن تتناولها بلسانها السليط وتنطلق في المجتمع القرشي متحدثة بما شاءت وشاء لها حقدها من مفتريات...

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضي إلى زوجها بمخاوفها . فما اعتادت قط أن تخفي عنه شيئا مما يهجس في خاطرها أو يجول في سريرتها لكنها كرهت أن تشغل محمدا بهذه الهواجس ، وهي تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا عن شواغل الدنيا ، وإنها لتدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد . أن هناك أمرا خطيرا يشغله ، وان لم تدرِ كُنه هذا الأمر ، ولا هي بحيث تحمله على الافضاء به اليها قبل أن يفعل ذلك هو من تلقاء نفسه ، وانما حسبها أن توفر له ما يحتاج اليه من هدوء وسلام ، وأن تحوم حوله من غير

أن تثقل عليه، وترمقه في خلوته بعين ساهرة، دون أن تقتحم عليه خلوته...

وما كان لها وهي الحريصة على طمأنينته أن تعكر هدوءه بمخاوفها من أم جميل بنت حرب، أو تشغله بالصراع بين حرصه على هناءة ابنتيه، وبين برّه بقومه واحترامه لأعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشمية، أو تعرضه – وهو في حالته تلك – لعداوة عمه عبد العزى وبغضاء امرأته.

وفي الغرفة القريبة، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين، وأختهما الصغرى ترقبهما في حيرة: ان الأمر اليوم ليختلف عما شاهدت من «زينب» فلقد كانت بادية البشر والاشراق تستعد للفرح في غبطة وعلى استحياء، أما رقية وأم كلثوم فتبدوان أقرب إلى الاكتئاب والقلق. ولم تستطع طفولة فاطمة أن تميز بين زواج قام على المودة والتعاطف والألفة، وآخر تعقده أواصر العشيرة وروابط الدم...

ولم تتبادل الأختان حديثا عن حياتهما المقبلة، لكن أفكارهما كانت تدور بلا ريب في مدار واحد: ما بال الأسرة تتعجل زواجهما، هلا أتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال الى دار أم جميل؟...

وفي الحق انهما ما أنكرتا من أمر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا، فهما من فتية آل هاشم الأمجاد، ولهما كذلك في بني عبد شمس عز الخؤولة وصراحة النسب القرشي الكريم، أما العم عبد العزى، فله – الى جانب حسبه وثرائه – مكرمة سابقة هيهات أن يجحدها آل محمد. فانه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله، حتى أعتق جاريته «ثويبة» التي حملت اليه البشرى السعيدة...

وما غاب شيء من هذا عن بال رقية وأم كلثوم، لكنهما رغم ذاك تجفلان من فكرة الانتقال الى بيت العم، أيكون هذا لأنهما لم تألفا بعدُ الوضعَ الجديد، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه؟ أم لعلهما تكرهان أن تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور، عشرة «أم جميل بنت حرب» – زوج العم عبد العزى – ذات السمت السوقي والطبع الجامح الحاد؟.. أو من يدري، لعلهما أحستا

بهدي الفطرة، فطرة حواء التي قلما تخطئ في مثل هذا، أن لأم جميل على ولديها من السلطان ما يجرح عزة رجولتهما، ان لم يهدر شخصيتهما اهدارا...

وقالت أم كلثوم لرقية:

– انك لتعلمين أن أبانا لن يقضي هذا الأمر دوننا، فماذا ترينك فاعلة؟...

فشحب وجه رقية وهي تجيب:

– لست بالتي تعق أباها. فتعرضه للحرج أمام أهله وعشيرته الأدنين...

ثم رنت الى أختها وقالت تشجعها في رقة وعطف:

– لا عليك يا أختاه، فسنكون معا...

* * *

وكذلك تم الأمر في هدوء مشوب بالقلق: تزوجت رقية عتبة بن أبي لهب، وتزوجت أختها أم كلثوم أخاه عتيبة [1]. وبارك محمد ابنتيه ثم تركها في حراسة الله ورعايته، وانصرف إلى ما كان يشغله من تعبد وتأمل...

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير في زوجها الحبيب. وقد ازداد ميلا الى الخلوة ونزوعا إلى الصمت والتأمل. وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذي يكتمه حتى عن «خديجة» موضع حبه وثقته وسكنه...

ليته يدعها تشاركه الهمَّ وتحمل معه العبء الذي تحسه ثقيلا باهظا! ليته يرحمها مما تعانيه من قلق ووحشة، فيفضي اليها بالذي يشغل باله!

---

(١) في طبعة نهضة مصر من الاستيعاب ما نصه: «كانت رقية تحت عتبة بن أبي لهب، وكانت أختها أم كلثوم تحت عتبة بن أبي لهب» وكتب المحقق على هامشه: في نسخة (أ): عتيبة (١٨٢٩/٤) وهذا من عجيب الوهم!

وفجأة ، لاح لها في هدأة الليل شعاع من نور أضاء الظلمة التي أغرقت الكون من حولها ، وتناهى الى مسمعها في ذلك الصمت العميق ، صدى من قول ابن عمها «ورقة بن نوفل» لها . وقد استبطأ أمرا توقعه ، بعد أن سمع حديث ميسرة عن محمد في رحلتها الى الشام :

لجحت وكنتُ في الذكرى لجوجا لهَمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصفٍ من خديجة بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي حديثك أن أرى منه خروجا !
ويظهر في البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا
فياليتني اذا ما كان ذاكم شهدتُ فكنت أولهم ولوجتا (١)

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع . فأغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد أن ألح عليها السهاد ...

ومضت أيام وليال ، كثر فيها خروج محمد الى غار حراء وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وانْ بقيت بجسمها في البيت ، تعد له زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب ...

وقد تذكر ابنتيها رقية وأم كلثوم ، فيرق قلبها رحمة لها وإشفاقا عليهما مما قد يثقل عليهما من عشرة «أم جميل» لكنها لا تلبث أن تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع الأمر الجليل المرتقب ...

* * *

ولم يكذب السيدة خديجة ظنُّها ...

فما كاد محمد ﷺ يتلقى رسالة ربه ويدعو إلى الدين الحق ، حتى أُخرِجت «رقية وأم كلثوم» من بيت أبي لهب ، ورُدتا إلى بيت أبيهما !..

---

(١) السيرة : ٢/٢٠٣ .

وكانت قريش قد ائتمرت بسيدنا محمد في بناته قائلة :

– انكم قد فرَّغتم محمدا من همِّه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن …

ومشوا الى أصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :

– فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت …

فأما «أبو العاص» فأبى ، مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا . وأما ابنا أبي لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجة من آل سعيد بن العاص ، بدلا من «رقية بنتَ محمد» (١)

وفي الحق ، ان ابني أبي لهب لم يكونا في حاجة إلى سعي من قريش في طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به «أم جميل بنت حرب» من قبل ، حين أقسمت ألا يظلها وبنتي محمد سقف ، ثم ما زالت بزوجها «أبي لهب» حتى أثارت حفيظته على البنتين البريئتين ، فقال لولديه :

– رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد … (٢)

وكان الظن بابني العم ألا يفعلا …

بل كان الظن بالعم ألا يقف هذا الموقف من حفيدتي أخيه عبد الله ، وابنتي محمد الذي ابتهج بمولده وأعتق جاريته حين بشرته به …

لكن «أم جميل» كانت وراءه ، تسوقه أمامها مسلوب النخوة مضيع المروءة فاقد الارادة ، وتسمم الدم الهاشمي الذي يجري في عروقه ، وتنسيه ما توجبه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ …

---

(١) السيرة : ٣٠٧/٢ – وانظر معها الاصابة : جـ ٣٨/٨ – و(مسند أحمد) ٤٩٢/٣ ، ٣٤١/٤ .

(٢) في الروض الأنف ٦٨/٣ ، أن عتبة وعتيبة «طلقاهما بعزم أبيهما عليهما وأمها حين نزلت «تبّت يدا أبي لهب وتب» فأما عتيبة فدعا عليه النبي ﷺ أن يسلط عليه كلبا من كلأبه ، فافترسه الأسد من بين أصحابه . وأما عتبة فمن مسلمة الفتح .

لكأنما أرادت هذه العبشمية أن تكيد لبني هاشم ، الذين استأثروا بأكثر المجد والسلطان دون قومها بني عبد شمس . فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق أواصرهم وتضرب بعضهم ببعض...

أو كأنما أرادت هذه المرأة الحقود ، أن تشفي غليلها من «خديجة بنت خويلد» التي كانت ملء العيون مهابة وجلالا ، ملء الآذان عفة وطهرا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد ، لتغيظ غريمتها خديجة وتفسد عليها سعادتها التي كانت مضرب الأمثال...

ولم يكفها أن ردت اليها ابنتيها طالقين ، بل خرجت ومعها زوجها أبو لهب إلى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فما رؤي أحد أشد عداوة منهما لنبي الله ، ولا بلغ أحد من أذاه قدر ما بلغا ، ولا سُمع أن أحدا من بني هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم ، كما فعل أبو لهب !..

وانه لموقف يدعو حقا الى الدهشة والعجب...

وليس مثار الدهشة أن أبا لهب لم يسلم ، فكذلك بقي أكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طال أو قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله أو يسلموه...

أقبل حمزة بن عبد المطلب . أخو أبي لهب ، ذات يوم متوشحا قوسه عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امرأة تقول :

«يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام؟ وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره»...

فاحتمل حمزةَ الغضب – ولم يكن قد أسلم بعد – واندفع غير ملق بالاً الى أحد في الطريق ، حتى عثر بأبي الحكم جالسا في القوم بالبيت العتيق ، فأقبل نحوه حتى اذا قام على رأسه ، رفع القوس فشجه به شجة منكرة ثم قال :

«أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟.. فرُدَّ ذلك عليَّ ان استطعت!»[1]

وهكذا أسلم حمزة، رضي الله عنه، لأنه لم يطق أن يؤذَى ابنُ أخيه بمرأى منه أو مسمع!

وكذلك لم يطق أحد من بني هاشم وبني عبد المطلب أن يخذل محمدا، سواء في ذلك الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا، غير أبي لهب!

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

لما أنزل الله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» خرج رسول الله ﷺ حتى أتى الصفا فصعد عليه فهتف: «يا صباحاه!» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقيَّ؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟ فنزلت:

«تبَّت يدا أبي لهب وتب»[2] تمام السورة: «ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد»..

ذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر...

قال ابن إسحاق:

فذُكِر لي أن أم جميل حمَّالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة – قطعة تملأ الكف – فلما وقفتْ عليهما أخذ الله

---

(١) السيرة: ٣١٢/١، ومعها الطبقات والاستيعاب والاصابة، ترجمة حمزة «رضي الله عنه» وتاريخ الطبري: ٢٢٤/٢ والروض الأنف ٤٩/٢ وفيه شعر لحمزة رضي الله عنه، حين أسلم. وعيون الأثر ١٠٤/١.

(٢) حديث متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التفسير، ومسلم في كتاب الإيمان. والنقل هنا من (اللؤلؤ والمرجان ٥٧/١، ح ١٢٤).

ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. أما والله إني لشاعرة. ثم قالت:

مُذَمَّماً عصينا
وأمرَه أبينـــا
ودينَــه قلينــا

وانصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني»(١).

وفي حمالة الحطب، يقول «الأحوص عبد الله بن محمد بن عبد الله الدوسى، الشاعر الأنصاري»:

ما ذاتُ حَبْلٍ يراه الناسُ كلهمُ وسْط الجحيم ولا يخفى على أحد
كلُّ الحبال، حبال الناس، من شعَر وحبلُها وسْط أهل النار من مَسَدِ(٢)

وربما استيقظ ضمير أبي لهب مرة، وحَمِيَ في عروقه الدم الذي يحن إلى ابن الأخ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بني هاشم. حدثوا أن أبا سلمة المخزومي ابن برة بنت عبد المطلب، استجار بخاله أبي طالب، حين أرادت قريش أن تفتنه عن إسلامه، فمشى رجال من بني مخزوم إلى أبي طالب فقالوا له:

– لقد منعت منا ابنَ أخيك محمدا، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟

قال: إنه استجار بي وهو ابن أختي، فإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي...

---

(١) السيرة: ٣٨٢/١.

(٢) نسب قريش: ٨٩، وجمهرة الأنساب ٣١٣.

وكان أبو لهب حاضراً ، فقال مغضبا : يا معشر قريش . والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ؟.. ما تزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنَقومَنَّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد...

فآثروا أن يبقوا عليه في حزبهم وقالوا :

«بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة» (١) .

لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة فيما أعلم ، أن «أبا لهب» وقف مثلها مرة أخرى ، بل ظل على مظاهرته أعداء قومه حتى مات ،..

وأعشى سحرُ «أم جميل» عينيه فلم يعد يبصر، وقذف به وراء هاشميته ورجولته ، وإنسانيته .

في السيرة النبوية أن بني هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار في شعب أبي طالب ، كانوا اذا قدمت العير مكة وأتى أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي ، فأنا ضامن ألا خسار عليكم...

فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع المسلم أو الهاشمي الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء يطعمهم به . ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بني هاشم جوعا وعريا (٢) .

وأدع الخبر بغير تعليق ، وأدع معه ذلك الاستطراد الطويل الذي مضيت فيه بالرغم مني ، مستثارة بما قرأت عن أبي لهب وأنا ألتمس أخبار ابنتي محمد ، ﷺ ،

---

(١) السيرة : ١٠/٢ .

(٢) وانظر كذلك مسند أحمد ٤٩٢/٣ ، ٣٤١/٤ . وتاريخ الطبري : ٢٢٥/٢ .

في زواجها الخائب بابني ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتها إلى أبويها ، شفاء لحقد حماتها أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب...

وبين هاتيك السطور التي نقلتها ، أقرأ ما لم يكتب عن معاملة هذه العبشمية لابنتي محمد ، إذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالها إلى بيت أبي لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية أخرى (١) ...

وأكاد ألمحها وراء هذا كله ، في تجربتها القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الأول الذي تظله أجنحة الحب والسلام ، – أوكانتا بسبيل أن تغادراه – إلى بيت تتلقاهما فيه – وهما في جلوة العرس – امرأة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقي عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى في سمتهما النبيل وملامحها اللطيفة ، من مخايل السيدة «خديجة بنت خويلد» موضع غيرتها وحسدها...

فإذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، أساءت الظن بوداعتهما فحملتها محمل الازدراء والترفع ، وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء...

ولم تفكر احداهما في الشكوى لأبويهما ، فقد كانتا أبر بهما من أن تروعهما بالحديث عن أفاعيل «أم جميل»...

وكان الظن أن تجد كل منهما في أختها متنفَّسًا لكربها وموضعا لشكاتها ، لولا أن «أم جميل» كانت هنالك دائما ، تقف لها بالمرصاد ، وتأبى ما وسعها الجهد أن تخلو الأخت إلى أختها ، ولو استطاعت لأقامت بينهما سدا...

وهكذا احتملتا همومها في صمت وصبر ، حتى أراحها الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها النكدة!..

* * *

(١) ابن حجر: الاصابة ٨٣/٨ و٢٧٢/٨.

على أن الحياة في بيت أبيهما - ﷺ - كانت قد تغيرت عما ألفتا في أمسها الخَليّ السعيد، فولى عنها ما كانت تنعم به من راحة وهدوء...

أو لم يقل المصطفى ﷺ لزوجه: «مضى عهد النوم يا خديجة»؟.. بلى، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب في سبيل الله، وان المصطفى ليعود الى بيته كلما خرج، محزونا لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله، فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقى، حتى يزول ما به من حزن... [1]

ومع كل هذا البلاء، طاب لرقية وأم كلثوم أن تشاطرا أبويهما ما يلقيان في سبيل الله، وارتاحت نفساهما لاحتمال كل صنوف الأذى.

* * *

وخاب ظن حمالة الحطب وظن المشركين من قريش، فلم يُشغل «محمد» - ﷺ - بابنتيه عن دعوته، ولم يشق عليه طلاقهما، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابني حمالة الحطب وأبي لهب، ثم ما لبث أن أبدلها خيرا منهما: زوجا صالحا كريما، من النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الاسلام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم ذلك هو «عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس» [2] أعزه الله في الجاهلية فكان من أعرق فتيان قريش نسبا. يلتقي مع الرسول الكريم من جهة الأب عند عبد مناف بن قصي، ومن ناحية الأم عند عبد المطلب بن هاشم، فجدة عثمان لأمه، هي البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبي [3]...

وكان «عثمان» الى هذا النسب العريق، بهي الطلعة، فخم السمت موفور

---

(١) السيرة النبوية: ٢٥٧/١.

(٢) نسب قريش: ١٠ وصحيح مسلم: ١٨٦٦/٤ وصحيح البخاري: ٦٢ باب ٥، ٧، ١/٨ باب ١١٩.

(٣) الاستيعاب: ١٠٣٨/٤، ونسب قريش ١٨.

المال، رضي الخلق. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «كان عثمان أوصلَنا للرحم، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين[1]».

أعزه الله في الإسلام فكان من السابقين الأولين...

* * *

تقدم «عثمان» الى رسول الله ﷺ يسأله شرف المصاهرة، فزوجه ﷺ ابنته «رُقية» ولم يُر زوجان قط أجمل منهما ولا أبهى فيروى أن النساء غنينها في العرس:

أحسن شخصين رأي إنسانٌ رقيـــة وبعلهـــا عثمان[2]

ولم تشارك «مكة» هذه المرة في الاحتفال بالعرس الكريم، بل باتت قريش بغيظها مسهدة تفكر في هذا الخصم العنيد الذي يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا. ويتحدى في قلة عزلاء من صحابته، قبائل قريش مجتمعة، وفيها الجاه والكثرة والبأس!

وعجبت لهؤلاء النفر الذين اتبعوه، يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ولا يترددون في افتدائه بالمهج والأرواح، بل يرون الاستشهاد في سبيل دينه مجدا وانتصارا...

من هؤلاء، من كان بالأمس له عدوا، ومنهم من تردد أمدا قبل أن يؤمن برسالته، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا...

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة التعذيب في مستهل المبعث. فقد «وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب

---

(١) الاستيعاب ١٠٣٩/٤ وانظر باب فضائله في كتاب فضائل الصحابة، من صحيح مسلم.

(٢) الروض الأنف ٧٩/٢.

والجوع والعطش . وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر» حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يرتد الى دين الكثرة الغالبة ! [١]

وطال ليل قريش وهي تذكر «عثمان بن عفان» الذي رضي أن يبيع أهله وعشيرته ودنياه في سبيل رضى محمد وربه ، وانه ليعلم ما يلقى أصحاب «محمد» من أذى ، ويقدر أنه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بخصومة المجتمع القرشي الذي أحله مكانا مرموقا...

* * *

ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرأت فتى أمية : «عثمان بن عفان» يهاجر من مكة ، موطن آبائه ومهد طفولته ومناط عزته ، الى بلد ناء وقوم غرباء...

«ذلك أن محمدا – ﷺ – لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يُظلم عنده أحد . وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ! »

فكان «عثمان بن عفان» أول من هاجر إلى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة «رقية» على قرب عهدهما بالزواج [٢]...

وتجلد المهاجر وهو يلقي نظرة وداع على البلد الحبيب...

أما «رقية» فلم تملك دمعها . وهي تطوف بمغاني صباها مودعة ، وتعانق أباها وأمها وأخواتها الثلاث ، قبل أن تتبع زوجها الى مهاجرَه.

وتمهلت في مسيرها الى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن أوان الرحيل تلفتت وراءها لتملأ عينيها من الوطن فحال الدمع دون ما تبغي .

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٢٣٠ – والسيرة : ١/٢٣٩ .

(٢) السيرة : ١/٣٤٤ والطبري : ٢/٢٣١ .

وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد أن تتزود من عبير أم القرى ، فلما خرجت الى الصحراء العارية الجرداء ، انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادي : [1]

الأهـل والأوطـانْ فراقهم صعبُ
لكنـــه الايمانْ فـــداؤه القلب
والروحُ والأبـــدانْ فليقبـــل الربٌّ
فليقبل الرب

وهز الصوت الشجي قلب «رقية» فأصغت إليه وهي ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من مكة ما يزال يلوح من بعيد . فإذا زوجها «عثمان» على قيد خطوة منها ، يرنو اليها في عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت «رقية» ما يهجس في خاطره ، فأشرق وجهها بابتسامة راضية وقالت :

– الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا في جوار البيت العتيق...

ثم استدبرت أحبَّ أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق أن «عثمان» الى جانبها ، وأكرِمْ به صاحبا وعشيرا...

* * *

وفي أول مرحلة من الطريق ، أناخت الإبل ريثما تجمع المهاجرون الأولون في سبيل الله ، فبلغت عدتهم بضعة عشر رجلا [2] ، فيهم من بني عبد شمس ، آل عثمان : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أخو هند ، وصهر أبي سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية...

---

(١) ليس هذا الحداء مما نقلت ، بل رجَّعتُ فيه صدى وجداني وأنا أتمثل رحلة المهاجرين . فمن العجيب أن إذاعات عربية اشترت من بعضهم حلقات في نساء مسلمات ، منقولة نصا من كتبي في سيدات بيت النبوة ، وفي حلقة السيدة رقية ، هذا الحداء ! !

(٢) عدَّ ابن إسحاق هذا الفوج الأول عشرة : السيرة ١/٣٤٥ . وفي رواية أنهم كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة «الطبري : ٢/٢٣١ وفي (عيون الأثر) أنهم كانوا اثني عشر رجلا وأربع نسوة : ١/١١٥ .

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، أخوال رقية : الزبير بن العوام بن خويلد ...

ومن بني عبد الدار بن قصي ، أبناء عم عثمان ورقية : مصعب بن عمير بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار...

ومن بني زهرة ، أخوال الرسول : عبد الرحمن بن عوف الزهري...

ومن بني مخزوم : عبد الله بن عبد الأسد ، ابن عمة الرسول ، برة بنت عبد المطلب . تصحبه زوجُه «هند بنت زاد الركب ، أبي أمية بن المغيرة المخزومي» – خلفه عليها المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد «أحد»...

وتبادل المهاجرون الأولون تحية الاسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان ابن مظعون الجمحي ، فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله أن ينصر دينه ، ويحمي رسوله من كيد المشركين...

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمرأوا ما يملأ قلوبهم من شجن ، وطاب لهم أن يكتووا بنار الغربة في سبيل دينهم الحق ، والتمسوا العوَض عمن فارقوا من الأهل والأحباب ، في هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والاخوان في الدين والهجرة...

* * *

ورحَّبت الحبشة بالمهاجرين الأولين ، وأوسعت لهم في أرضها مكانا سهلا ، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جديدة من اخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو وُلدوا في مهاجَرهم...

وسرَّ «رقيةَ» أن كان فيهم من بني هاشم : ابن عم أبيها «جعفر بن أبيَ طالب» ، ومعه امرأته «أسماء بنتُ عميس»...

ومن بني أمية ، آل زوجها عثمان : عمرو بن سعيد بن العَاص بن أمية ، وأخاه خالدا ، ومعها زوجتاهما...

ومن بني أسد: عبد الله بن جحش - ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول - وأخاه عبيد الله، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، التي تزوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد سنين...

ومن أخوالها بني زهرة: عامر بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة...

ومن بني عامر: ثمانية نفر. منهم السكران بن عمرو، ومعه امرأته «سودة بنت زمعة بن قيس» التي خلف عليها المصطفى، بعد عامُ الحزن...

* * *

وأحاط المهاجرون الأولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا النبي عليه الصلاة والسلام؟ وكيف حال الأهل والصحابة بمكة؟!

قالوا: على العهد بهم، لم ينسوا من هاجروا في سبيل الله.

وحدثوا أن «النبي» عليه الصلاة والسلام افتقد أنباء ابنته، حتى أتت امرأة أخبرته ﷺ أنها رأت رقية وزوجها. فقال:

«منحها الله، أن عثمان أول من هاجر بأهله»(١).

* * *

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين، كما لم تضق بمن سبقوهم، بل أمَّنهم «النجاشي» وأحسن جوارهم، وتركهم أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا...

هنالك رفع «عبد الله بن الحارث بن قيس السهمي» صوته منشدا وهو يرجو أن

---

(١) الاصابة: ٨٣/٨.

يسمع من بمكة : (١) .

يـا راكبـا بلغنْ عني مغلغلـة من كان يرجو بلاغ الله والدينِ
كلَّ امرىءٍ من عباد الله مضطهدٍ ببطن مكـــــة مقهورٍ ومفتون
أنّـا وجـدنـا بلاد الله واسعة تُنْجِي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ي في الممات وعيب غير مأمون

ثم انثنى إلى قلبه المثقل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغي قريش ، وقال : (٢)

أبت كبدي ، لا أكذبنك ، قتالهم عليّ ، وتـــأبـــاه عليٌّ أنــاملي
وكيـف قتـــــالي معشرا أدبوكم على الحق أن لا تأشبوه بباطل

وقال «عثمان بن مظعون» يعاتب ابن عمه وكان شريفا في قومه :

أأخرجتني مـن بطـن مكة آمنا وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبـــالا لايواتيك ريشهـــا وتبري نبالاً ريشُها لك أجمعُ
وحـــاربت أقوامـــا كرامـــا أعزة وأهلكتَ أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم ان نـابتْك يومـا مُلِمَّـة وأسلمك الأوبـاش ، مـا كنت تصنـــــــــــــــــــــــع ! (٣)

وبلغت هذه الأصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشا فوق ما بها من فزع...

وأطار النوم من عيونها ، أن أصحاب محمد قد أمنوا بأرض الحبشة وأصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكي يفسدوا ما بين النجاشي وبين المهاجرين المغتربين...

ووقع اختيارهم على «عبد الله بن أبي ربيعة» – والد الشاعر عمر – و«عمرو بن

(١ ، ٢) السيرة : ٣٥٤/١ ، وانظر معه في الاصابة ترجمة عبد الله بن الحارث.

(٣) السيرة : ٣٥٥/١ ، وشرحها في الروض الأنف ٨١/٢.

العاص بن وائل»[١] وجمعوا لها هدايا للنجاشي ولبطارقته، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد ﷺ، ومن بقي الى جانبه من أصحابه وآله...

وأشفق «أبو طالب» على من بأرض الحبشة – وفيهم ولده جعفر، وولدا ابنتيه أميمة وبرة، ورقية حفيدة أخيه عبد الله – من مكيدة عمرو وصاحبه، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم «النجاشي» ويحضه على أن يحمي جواره:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفرُ وعمرو، وأعداء العدو الأقاربُ؟...
وهل نالت أفعال النجاشي جعفرا وأصحابَه، أو عاق ذلك شاغبُ؟
تعلمْ، أبيتَ اللعن، أنك ماجدٌ كريم، فلا يشقى لديك المُجانِبُ
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادي نفعَها والأقارب[٢]

فهزت قريش رأسها لمَّا سمعت نداءه، وقال قائلها مستهزئا: ما يبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه؟ وماذا تجدي الكلمات مع الهدايا التي حملها مبعوثا مكة إلى النجاشي وبطارقته؟

* * *

وكان المهاجرون في منزلهم النائي، يرهفون أسماعهم إلى ما تناثر من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون يلقون إليها بالا، حتى رابهم ذات يوم وصول «عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة» الى هناك والتماسها لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر...

ثم مالبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشي ليتحدث إليهم في أمر ذي بال، فذهبوا وهم يتساءلون:

---

(١) هذه رواية ابن إسحاق في اسم مبعوثَي قريش إلى النجاشي (السيرة ١/٣٥٦) قابلها على: الروض الأنف (٢/٩١) وعيون الأثر (١/١١٩).

(٢) السيرة: ١/٣٥٧.

– ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

وكان الجواب الذي أجمعوا عليه :

– نقول والله ما علمنا . وما أمرنا به نبينا...

وسعت المهاجرات إلى منزل رقية رضي الله عنها وعنهن ، وقد خامرهن شيء من القلق ، فإذا لديها «أم سلمة ، هند بنت زاد الركب»[1] تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين...

قالت :

– هو ما سمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغها أنا جاورنا بالحبشة خير جار : أمِنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وقالوا لهما أن يدفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلما النجاشي فينا . ثم يقدما الى النجاشي هديته ، ويسألاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا...

«فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا... وقالا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى الى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا – أبصر بهم – وأعلم بما عابوا عليهم...

فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم...

«فغضب النجاشي وقال : لاها الله !.. اذن لا أسلمهم اليهما ولا يُكاد قوم

(١) تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد وفاة زوجها أبي سلمة المخزومي من جرح أصابه يوم أُحُد.

جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني ...»[1]

وهذا هو قد أرسل الى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا...

***

وطال انتظارهن قبل أن يعود الرجال من قصر النجاشي ويحدثوا عما كان...

استقبلهم النجاشي وقد جمع أساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسألهم : «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟..»

فأجاب عنهم «جعفر بن أبي طالب» :

– أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القويّ منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا . خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك» .

(١) رواه ابن إسحاق من طريق الزهري ، بسنده إلى أم سلمة رضي الله عنها : السيرة ٣٥٧/١ ، ومعه السمط الثمين للمحب الطبري ٨٦ ، وعيون الأثر ١١٩/١ .

فصمت النجاشي مليا ثم سأل : هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

أجاب جعفر: نعم...

قال النجاشي : فاقرأه علي...

فتلا جعفر صدرا من سورة مريم...

قالوا : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :

– ان هذا والذي جاء به «عيسى» ليخرج من مشكاة واحدة. والتفت إلى عمرو وعبد الله ، مبعوثي قريش ، قائلا :

– انطلقا. فلا والله لا أسلمهم إليكم ولا يُكادون...

فانصرفا . أما عمرو بن العاص فلم يفقد ثقته في دهائه ولا استسلم للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم (يعني شجرتهم التي منها تفرعوا).

وأما عبد الله بن أبي ربيعة ، فأخجله أن يكون النجاشي الغريب ، أبر بجيرانه منه ، وما فيهم من لا يمت اليه بقربى أو رحم...

قال لعمرو: لا نفعل ، فان لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا...

ورد «عمرو» في إصرار:

– والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد!

ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعمرو بن العاص يدبر لغده ، أما المهاجرون فباتوا آمنين لا يخافون من النجاشي غدرا ، وقد أجمعوا رأيهم أن يجيبوه اذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وما جاءهم به نبيهم محمد. وليكن بعد ذلك ما يكون...

فلما أصبحوا دعاهم النجاشي وسألهم عما يقولون في «عيسى» فأجاب جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول»...

قالوا: فمد النجاشي يده الى الأرض فأخذ منها عودا وقال لجعفر:

– والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ، هذا العود...

ثم أمسك لحظة، وجعل ينقل بصره بين البطارقة، وعمرو وصاحبه، حتى استقر على المهاجرين فقال:

«اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبَّكم غرم –كررها ثلاثا– وما أحب أن لي جبلا من ذهب، وأني آذيت رجلا منكم»...

والتفت من بعد ذلك الى بطارقته قائلا:

«ردوا عليهما هداياهما. فلا حاجة لي بها. فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حتى ردّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه»[1].

ورجع عمرو وعبد الله إلى قريش بخفي حنين...

وأقام المهاجرون مع خير جار ما شاء الله لهم أن يقيموا...

على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع الى مكة، وتحن الى من تركوا بها من الأهل والأحباب...

وظلت أسماعهم مرهفة، تتلهف على أنباء الرسول ﷺ وصحبه في حربهم المقدسة مع عبدة الأوثان...

ولعل السيدة «رقية» كانت أشد المهاجرين حنينا الى مكة، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل، مثلما افتقدتهم آنذاك، فلقد أثرت الأحداث الشداد التي

(١) السيرة ١/٣٦٠ وما بعدها. عيون الأثر ١/١١٩.

مرت بها في صحتها أيما تأثير، فأسقطت جنينها الأول، حتى خيف عليها من فرط الضعف والاعياء...

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم، ما أعانها على اجتياز الأزمة الحرجة، ريثما عاودتها العافية بورود الأنباء من مكة، أن قريشا يئست من الرسول وصحبه، فرفعت الحصار المنهك الذي ضربته على الهاشميين...

وأضافت الشائعات أن قريشا ثابت الى رشدها لما رأت من عجيب ثبات النبي وصدق ايمان الذين اتبعوه، فمالت طائفة منها الى الاسلام عن تأثر واقتناع، ورغبت أخرى فيه التماسا للغنم والمجد حين يعلو أمر محمد. ﷺ.

وقد أصغى مهاجرة الحبشة الى هذا الذي قيل وشاع، فهفت قلوبهم الى العودة الى الوطن...

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستثار، فتهيئوا للرحيل على عجل، يحدوهم الشوق الى أحب أرض وأعز موضع، على حين آثر آخرون أن يتلبثوا في مهاجرهم، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قريش للرسول ﷺ، وإسلام عدد منهم...

* * *

سار الركب في طريق مكة، وقد بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين رجلا يتقدمهم «عثمان بن عفان» وزوجه السيدة «رقية» وابنهما عبد الله رضيعا. والزبير بن العوام ابن أخت السيدة خديجة، وعبد الله بن جحش ابن عمة الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد معه امرأته «أم سلمة، هند بنت أبي أمية»، والسكران بن عمرو معه امرأته سودة بنت زمعة»...

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون أنفسهم بلقاء الأحباب، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم في الوطن من أنس وطمأنينة...

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحلهم ساعين الى البلد العتيق ، خدرتهم النشوة . وسبقتهم قلوبهم الى الوطن الى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة...

فهناك على الصخور الملتهبة ، رأوا بعيونهم التي ما زالت بها بقية من خدَر الحلم . نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين . تسومهم زبانية قريش سوء العذاب...

وأخذت العائدين صيحاتٌ من هنا ومن هناك ، تعدهم بالويل والهلاك. وصمت الحادي ، وطارت النشوة ، وتمزقت الرؤى ، وتبعثرت الأحلام...

ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا أدبر النهار دخل بعضهم مكة في جوار من الوليد ابن المغيرة المخزومي ، أو أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي...

وعلى أثرهم دخل الباقون مستجيرين بالحرم الأقدس . وعلى وجوههم نور الاستشهاد...

* * *

وآبت «رقية» الى بيت أبيها مشوقة مجهدة ، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد... وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

– أين أبي ، وأين أمي ؟...

أجابتا :

– أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة...

ثم اختلجت شفاهها في تأوه مكتوم...

وعادت رقية تسأل وقد أوجس قلبها خيفة : «وأمي ، أين هي ؟ !»

فأطرقت «أم كلثوم» صامتة لا تجيب . أما «فاطمة» فغادرت الغرفة وهي تنشج باكية...

هنالك كفت «رقية» عن أسئلتها ، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة الأطراف...

إلى أن جاء أبوها ﷺ ، فأذاب ذلك الجمود القاتل بحرارة لقائه ، وأزاح بحنوه ذلك الركام الصخري الذي جثم على قلب ابنته...

وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها وأساها . ثم أوت الى الصدر الرحب الكريم ، وثابت الى السكينة والصبر...

* * *

ولم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك...

هاجر أبوها ﷺ الى يثرب ، وكذلك هاجرت هي في صحبة زوجها .

وفي دار الهجرة ، وضعت طفلها عبد الله بن عثمان (١) . فملأ عليها منزلها الجديد أنسا . وأقبلت عليه تريد أن تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصابها في أمها . وما ذاقت في هجرتها من شجن الغربة...

وحسبت أنها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد...

مات «عبد الله» صبيا في السادسة من عمره ، بنقرة من ديك ، فترنحت رقية تحت وطأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى ، قيل إنها الحصبة .

وأقام «عثمان» الى جانبها يمرضها ويرعاها . حتى إذا تناهى الى سمعه صوت داعي الرسول يؤذن أن حي على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والأنصار للقاء عدوهم في «بدر» ود عثمان لو يلبي الداعي الكريم ، لكن قلبه لم يطاوعه على فراق «رقية»

---

(١) نسب قريش : ٢٢ والاصابة جـ ٨/٨٣ . والاستيعاب : ١٠٣٧/٣ .

التي كانت تعالج ما يشبه سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر بأمر النبي ﷺ ، وراح يشهد معركة الموت في أعز من له ! [١]

وقسا الصراع وطال ، ثم رفَّت روحها على شفتيها في حشرجة وانية ، وعيناها على زوجها ، وغابت عن الوجود...

ورنا إليها «عثمان» يتزود لفراق طويل ، وفي مسمعه صدى من حشرجة الموت ، مختلطا بهتاف البشرى بانتصار المسلمين في «بدر»...

* * *

وجاء الأب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادي الحزن والأسى ، ثم انثنى في رفق نحو ابنته «فاطمة» التي أكبت على مضجع أختها تبكي ، فجعل ﷺ يمسح دموعها بطرف ثوبه [٢] ...

وهنا لم تتمالك النساء أنفسهن أمام المشهد الفاجع ، فانسحبن خارج الغرفة مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن ما كن يصطنعن في حضرة الرسول من تجمل وتصبر...

وهاج نحيبهن غضب «عمر بن الخطاب» فزجرهن في عنف وقسوة محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا المكان من سكينة ووقار ، لكن الرسول الرحيم كفه عنهن قائلا :

«مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان»...

وصلى الأب النبي على ابنته رقية...

---

(١) الاصابة ٨٣/٨ - وتاريخ الطبري : حوادث السنة الثانية للهجرة. والطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢.

(٢) الاصابة : ٨٣/٨.

وشيعت «يثرب» جثمان بنت الرسول ، ذات الهجرتين . حتى ووريت الثرى الطيب الذي ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء «بدر» ... .

وضرب أبوها الرسول ، لصهره «عثمان» بسهمه وأجره ، مما أفاء الله على المسلمين في «بدر» إذ كان إنما تخلف عن شهودها . لمرض «رقية» الراحلة[1] رضي الله عنهما .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢ . الاستيعاب ١٨٤١/٤ .

(٣)

أمّ كلثوم

- زَوَاج وَطَلاقٌ
- الهِجْرَة
- مَع رقيّة دَائمًا
- الرحيلُ

أم كلثوم

أراد الله بها خيرا فطلقها «عتيبة بن أبي لهب» عدو الله. ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع «حمالة الحطب» كما نجت معها أختها العزيزة «رقية» التي ما لبثت أن تزوجت «عثمان بن عفان» وهاجرت معه الى الحبشة...

وبقيت «أم كلثوم» مع أختها الصغرى «فاطمة» في بيت أبيهما، ﷺ، بمكة، تشاركان أم المؤمنين الأولى عبئها الجليل، وتستقبلان معها النبي عليه الصلاة والسلام اذ يعود كل يوم الى بيته، وعلى جسمه الكريم ندوب المعركة، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من أذى قريش وحربها. فيحطن به في بر وحنو، يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هذه الآثار، وأن يروحن عنه في الفترات القليلة التي كان يسكن فيها الى بيته وأهله...

وهكذا عاشت «أم كلثوم» مع أسرتها في صميم معركة الاضطهاد الأولى التي بلغت أقسى ذروتها حين يئست قريش من خذلان أبي طالب لابن أخيه، وخاب سعيها لديه كي يسلمه الى أعدائه فيبطشوا به...

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب، وأسلم عمر بن الخطاب، فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم، فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بني هاشم، وسجلوا مقاطعتهم في وثيقة علقوها في جوف الكعبة [1]، وخرج محمد بأسرته ومن تبعه الى شعب أبي طالب، وانحازت اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب. الا أبا لهب...

وهناك عاشوا في ضيق الحصار، حتى انهم كانوا يأكلون الخبط وورق السمر. وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل اليهم شيء إلا سرا...

---

(١) انظر حديث «الصحيفة» في السيرة ٣٧٥/١ وفي تاريخ الطبري: ٢٢٥/٢، عيون الأثر ١٢١/١.

حدثوا أن أبا جهل بن هشام، لمح حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي، يسير متخفيا معه غلام يحمل قمحا، يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي مع زوجها الرسول وبنتيها أم كلثوم وفاطمة في الشعب. فتعلق به أبو جهل وصاح:

«أتذهب بالطعام الى بني هاشم؟... والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة»[1]

* * *

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنا قول سعد بن أبي وقاص رى الله عنه بعد محنة الحصار بسنتين:

«لقد جُعت حتى اني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو الى الآن!»[2]...

ومن عجب أن ذلك السهم الذي راشته قريش. ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع ايمانهم مثقال ذرة، أو يزحزحهم قيد شعرة، عن موقفهم من نصرة الرسول، وعاد السهم منطلقا الى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا!..

ذلك أن نفرا من مشركي قريش. روعهم الحصار الوحشي المضروب على المؤمنين منهم، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب...

وبدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب الضمير...

حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامري - وكان ابن أخي نضلة ابن هاشم لأمه - كان يأتي ليلا بالبعير قد أوقره طعاما، حتى اذا بلغ به فم الشعب، خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه، فيدخل البعير على بني هاشم وبني عبد المطلب. بما يحمل[3]...

(١) السيرة: ٣٧٩/١. تاريخ الطبري: ٢٢٥/٢.

(٢) السيرة: ١٧/٢.

(٣) السيرة: ١٤/٢.

وذات ليلة ، خرج الرسول الى قريب من فم الشعب يستقبل البعير الموقر طعاما . كما يشرف على توزيعه في ذوي العيال ممن معه ، وسهرت «أم كلثوم» عند فراش أمها التي علت بها السن وأنهكتها الأحداث وأحست دنو أجلها . وان بدا أنها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ، وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب ، ومن أجل بنتيها أم كلثوم وفاطمة...

وقالت تناجي ابنتها :

– ليت الأجل يمهلني حتى تنجلي المحنة ، فأموت قريرة العين راضية .

فهتفت «أم كلثوم» من كل قلبها :

– لا بأس عليك يا أماه !

ثم خنقتها العبرات فلم تزد...

واستطردت الأم :

– أي وربي لا بأس عليَّ يا ابنيْ !.. ما من امرأة في قريش ذاقت ما ذقت من نعيم !.. بل ما من امرأة في هذه الدنيا نالت مثل الذي نلت من مجد : حسبي من دنياي أني زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبي من آخرتي أنني المؤمنة الأولى ، وأني أم المؤمنين...

ثم أسبلت عينيها وهمست :

– اللهم اني لا أحصي ثناء عليك !.. اللهم اني لا أكره لقاءك ، ولكني أطمع في مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت عليَّ !..

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذي كانت تبعثه ذبالة واهية هناك ، ولفَّ الكونَ سكون خاشع ، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فلم يعد يسمع فيه سوى أنفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التي راحت تدعو صامتة...

ثم... فتح الباب، فانبثق منه شعاع من نور باهر أضاء المخدع، ودخل رسول الله بهي الطلعة متهلل الأسارير، فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقائه بوجه مشرق وقد سرى في بدنها الكليل فيض من القوة والعافية...

وأصغت «أم كلثوم» الى ما كان أبوها عليه الصلاة والسلام يحمل من الأنباء، فأحست كأن ظلام الليل ينقشع رويدا رويدا، كما يفسح المجال لنور فجر جديد...

فلقد عاد العم «أبو طالب» في ليلته تلك من زيارة الحرم الأقدس. ليحدث مَن في الشعب عما رأى هنالك وما سمع من أمر نقض الصحيفة.

مشى هشام بن عمرو – ذاك الذي كان يحمل المئونة الى المحاصرين. ليلا – إلى زهير بن أبي أميّة المخزومي، أخي هند أم سلمة، وابن عاتكة بنت عبد المطلب. فقال له:

– يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث علمت؟.. أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوتَه الى مثل ما دعاك اليه من مقاطعتهم، ما أجابك اليه أبدا!..

فأصغى زهير، وفكر مليا ثم سأل:

– ويحك يا هشام!.. فماذا أصنع؟.. انما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض الصحيفة حتى أنقضها...

قال هشام: قد وجدتَ رجلا...

فسأله: من هو؟..

أجاب: أنا...

قال زهير: ابغنا رجلا ثالثا...

فذهب هشام الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له:

– يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟.. أما والله لئن أمكنتموهم من هذه، لتجدنهم اليها منكم سراعا...

فكان جواب مطعم كجواب زهير...

ومضى هشام بعد ذلك الى أبي البختري بن هشام، فحدثه بمثل ما حدث به صاحبيه زهيرا ومطعما، فسأله أبو البختري:

– وهل أجد من يعين على هذا؟..

أجاب هشام:

– نعم. ابن زاد الركب. والمطعم بن عدي، وأنا. معك...

فطلب اليه أبو البختري أن يلتمس مؤيدا خامسا. فذهب الى زمعة بن الأسود ابن المطلب بن أسد. فكلمه في بني هاشم وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه، فأجاب زمعة...

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخطم الحجون – بأعلى مكة – وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها، واتفقوا كذلك على أن يبدأ «زهير» فيكون أول من يتكلم في مجتمع القوم...

فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم، وغدا «زهير» عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا. ثم أقبل على الناس فقال:

– يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم؟.. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة...

قال أبو الحكم بن هشام، وكان في ناحية المسجد:

– كذبتَ، والله لا تشقّ!

فأجابه صوت «زمعة بن الأسود» :

– أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كُتِبت !

وثنى أبو البختري :

– صدق زمعة : لا نرضى ما كُتِب فيها ولا نقر به…

وأيدهما المطعم :

– صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها…

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقَّل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

– هذا أمر قُضِي بلَيل ، تُشوور فيه بغير هذا المكان…

فلم يعره الرجال اهتماما ، وقام المطعم بمرأى من القوم – وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد – والتمس الصحيفة ليشقها ، فإذا الأَرَضة قد أكلتها فلم تدع منها الا : «باسمك اللهم»[1] !…

ووجمت قريش ، وأسقط في يديها وأحست بالسهم الذي راشته يرتد الى صدرها فيمزقه…

ونهض أبو طالب يسعى الى الشِّعب بالبشرى ، وقد ذكر – وهو في طريقه من البيت العتيق – بنيه الذين هاجروا الى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو أن يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحريِّنا صنع ربنا على نأيهم ، والله بالناس أروَدُ
فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت وأن كل ما لم يرضه الله مُفسَد

(١) انظر حديث «نقض الصحيفة» في السيرة : ٢/١٤ : ١٦ والحوار بنصه منقول منه .

تراوحهـــا إفك وسحر مجمـــع ولم يُلفَ سحرٌ آخرَ الدهر يصعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا على ملأ، يهدي لحزم ويرشد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم مقـــاولـــة، بـــل هم أعز وأمجد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا على مهل، إذ سائر الناس رُقَّد[1]

وأيقظ صوته كل من في الشعب، فهبوا من مضاجعهم يهتفون البشري السعيدة، وصاح المسلمون منهم: «الله أكبر»...

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا، لفرط الفرح والانفعال...

وأصبحوا ساعين الى الكعبة فطافوا بها، ثم آبوا الى بيوتهم في مكة، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار.

* * *

وفي بيت النبي ﷺ بمكة، رقدت السيدة خديجة في فراشها تتهيأ للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب، ثم ما لبثت روحها أن فاضت، والنبي الى جانبها يهون عليها سكرات الموت، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم[2]...

وبناتها الثلاث: زينب وأم كلثوم وفاطمة، يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل...

وفي اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث، حُملت الى الحجون، وهنالك أضجعها زوجها الرسول بيديه في حفرتها، ثم ودعها وآب الى بيته محزونا، فضمَّ إليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة، يواسيها ويعينها على المصاب الفادح...

وأحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به، فلم يعد له فيها بعد رحيل «خديجة» مقام!

---

(١) القصيدة رواها ابن اسحاق، وعدد أبياتها ستة وعشرون – السيرة: ٢/١٧، ١٨.

(٢) الاصابة جـ ٨، والسمط الثمين ١٧.

لكن طيفا منها ظل يلم به غاديا ورائحا ، فيؤنس غربته في وطنه ، حتى أذن الله له في الهجرة الى يثرب...

وودع الرسول بناته ، ثم ذهب في ضحوة النهار الى بيت الصديق أبي بكر فاستصحبه...

وتلبث لحظة قبل أن يفصل عن مكة ، فأشرف من علية هناك على مهد الصبا ومبعث النور، ثم قال :

« والله انك لأحب أرض الله إلى الله ، وانك لأحب أرض الله اليّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما فارقتك ».

ومضى في طريقه إلى الغار يصحبه الصديق أبو بكر. وترك ابنتيه أم كلثوم ، وأختها فاطمة ، وحيدتين في البيت المهجور، يكاد يتلفها الأسى لولا رحمة الله...

* * *

وتلكأت الأيام في سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ، ومضت الليالي حوالك ليلاء مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرى بوصول النبي سالما الى يثرب ، ثم ما لبث زيد بن حارثة أن أقبل ، ليصحب أم كلثوم وشقيقتها فاطمة ، وآل أبي بكر الى دار الهجرة.

وأمضت بنتا النبي يومها الأخير بمكة مع أختيها زينب زوجة أبي العاص ، ورقية زوج عثمان ، يذكرن الأمس السعيد الذي ولّى وراح ثم أغلقن الدار التي شهدت ماضيهن الخلي ، وسعين الى الحجون فروين قبر الأم الطاهرة بدموعهن...

وأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة ، ومضت بها إلى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل...

وألقتا نظرة وداع على مغاني مكة وما تدريان أتكون اليها عودة !

ثم اندمجتا في الركب المهاجر، وقد خفف عنهما شجنَ الفراق أنهما ذاهبتان الى أبيهما الرسول في منزله الكريم بين الأنصار!

* * *

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الأحداث...

وشهدت «أم كلثوم» عودة أبيها منتصرا من «بدر»، كما شهدت موت شقيقتها الغالية «رقية» يوم النصر...

وأهلَّ العام الثالث وما يزال الحزن على رقية جديدا، وما تزال قريش تبكي قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة...

وكانت «أم كلثوم» تلمح «عثمان» في هذه الفترة، وهو يلازم أباها ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية...

إلى أن كان يوم من أيام شهر ربيع، وقد أوى الرسول الى بيته يستريح، فاذا عمر بن الخطاب يسعى اليه مستثار الغضب ليشكو اليه صاحبيه أبا بكر وعثمان...

لقد عرض على أحدهما بعد الآخر، أن يتزوج من بنته «حفصة» بعد أن مات عنها زوجها خُنيس بن حذافة، فسكت أبو بكر، وأجاب عثمان: ما أريد أن أتزوج اليوم[1]...

وسمعت «أم كلثوم» أن أباها الرسول قال لعمر ملاطفا:

– يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمانُ من هي خير من حفصة![2]...

وخفق قلبها لما سمعت!

(١، ٢) الاستيعاب ١٨١١/٤، ١٩٥٢. المحب الطبري: السمط الثمين ٨٣.

فما من امرأة خير من بنت عمر إلا بنت النبي ﷺ ، فهل تشغل مكان أختها «رقية» في بيت عثمان؟

وعجبت لأن أباها لم يحدثها في هذا الأمر من قبل ، وقد عهدته لا يزوج إحدى بناته دون أن يعرف رأيها...

وعادت بها الذكرى إلى ماض بعيد ، يوم وقفت هي وأختها الراحلة «رقية» تصغيان الى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابني أبي لهب في الزواج منهما...

وقد عُقد الزواج ، ثم واجهت الأختان حظهما المشترك ، الى أن طلقها ابنا حمالة الحطب في وقت واحد...

وتزوجت «رقية» بعد ذلك من عثمان ، فأي قدر عجيب يجمع بين الأختين ، لو كُتِب لأم كلثوم أن تتزوج هي أيضا من زوج شقيقتها : عثمان بن عفان؟!

وبينا هي تحدق – شبه حالمة – في الخيوط الخفية التي ينسجها القدر ليربط بينها وبين أختها رقية ، دخلت عليها «أم عياش» خادم النبي ، تدعوها للقاء أبيها ﷺ...

وتم عقد زواجها من عثمان ذي النورين [١] ، «على مثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها» وخرجت الى بيت زوجها وعليها ثوب عرس ، شبيه بذلك الذي دخلت به رقية على عثمان...

وبعث معها أبوها ، ﷺ ، «أمَّ عياش» كما بعثها مع أختها من قبل...

فلما شارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها في يقظة أو منام...

---

(١) في ترجمته بالاستيعاب (١٠٧٩/٣) : «قيل للمهلب بن أبي صفره : لم قيل لعثمان : ذا النورين؟ قال : لأنه لم يُعلَم أن أحدا أرسل سِترا على ابنتي نبيٍّ غيره».

ولعلها همست في شجن:

«لم يبق يا رقية إلا أن ألحق بك حيث ترقدين، فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا!»...

لكنها عاشت ست سنين، رأت فيها الإسلامَ يبلغ أوج انتصاره. وشاهدت أباها المصطفى عليه الصلاة والسلام يخرج من غزاة إلى غزاة، مؤيَّدًا مظفرا، وزوجها ذو النورين معه، صاحبا ومجاهدا بماله ونفسه:

رُوي أنه كانت «بئر دومة» بالمدينة ليهودي يبيع للمسلمين ماءها. فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري دومة فيجعلها للمسلمين يضرب دلوه في دِلائهم، وله بها مشرب في الجنة؟» فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعه إلا نصفها باثني عشر ألف درهم. فجعله عثمان للمسلمين، واتفقا على أن يكون لليهودي يوم ولعثمان يوم، فكان إذا جاء يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين. فلما رأى اليهودي ذلك، قال لعثمان: أفسدتَ عليَّ ركيَّتي فاشترِ النصف الآخر. فاشتراه بثمانية آلاف درهم.

وقال رسول الله ﷺ: «من يزيد في مسجدنا؟» فاشترى عثمان موضع خمس سوارٍ فزاده في المسجد (1).

وفي ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، خرج أبوها ﷺ على راحلته القصواء، مع نحو ألف وخمسمائة من أصحابه، يريدون «مكة» لقضاء العمرة، وليس معهم سلاح الا السيوف في القِرَب...

وتصدت قريش لهم، قرب الحديبية، تأبى أن يدخلوا مكة...

وقال المصطفى ﷺ لصهره ذي النورين «عثمان بن عفان»: اذهب الى قريش فأخبرهم أنّا لم نأت لقتال أحد، وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته، معنا الهَدْي ننحره وننصرف.

---

(1) الاستيعاب: عثمان (1039/3).

وأمسكت «أم كلثوم» قلبها ، وهي تخشى على زوجها غدر المشركين وساورها القلق ، وهي في انتظار أوبة عثمان ، بعد أن طال غيابه ... فما راعها الا نبأ ذاع ، أن عثمان قد قتل...

قال النبي ﷺ لما بلغه النبأ : «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا المسلمين إلى «بيعة الرضوان» وفيها بايع لعثمان رضي الله عنه ، فضرب بشماله على يمينه وقال : «إنه ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله...» [1]

لكن لم يطل بأم كلثوم الحزن !

فلقد عاد «عثمان» من رحلته ، لم يصبه أذى...

وتم صلح الحديبية...

وكان «عثمان» ممن لم يرضوا عن شروطه...

وحين نحر الرسول هديه وحلق رأسه ، حلق عامة الصحابة ، وقصر نفر ، منهم «عثمان بن عفان» ! [2]

وقد عز الموقف على «أم كلثوم» وهي تسمع أباها يقول : «رحم الله المحلقين...» قالها ثلاثا...

ولم تطمئن ابنته ، حتى قال من بعد ذلك : «والمقصرين...».

وعرفت كذلك أنه عُدَّ من أصحاب بيعة الرضوان وإن تغيب عنها ، إذ بعثه النبي ﷺ إلى مكة ، في أمرٍ «لا يقوم به غيره».

* * *

وتم النصر الأكبر...

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٧٠ ، السيرة ٣/٣٣٠ ، عيون الأثر ٢/١١٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٧٥.

فتحت مكة ، بعد عامين من صلح الحديبية ، وأدركت «أم كلثوم» هذا الفتح ، كما أدركته أختها «فاطمة»...

ورقّ قلباهما لذكرى الراحلات الغاليات : أمها خديجة ، وشقيقتيها زينب ، ورقية ...

وأدركت كذلك ، مسيره ﷺ إلى (تبوك) في شهر رجب من سنة تسع .

ولم يكن ﷺ يجد ما يحمل عليه أصحابه الذين لبوا داعي الجهاد وأرادوا الخروج معه ، فكان لعثمان رضي الله عنه ، مثوبة أن جهز جيش العُسْرة - كما سُمّي جيش تلك الغزوة - بتسعمائة وخمسين بعيرا . وأتمّ الألف بخمسين فرسا . وفي روايةٍ أنه رضي الله عنه حمَل في جيش العُسرة على ألف بعير وسبعين فرسا [1] .

* * *

ثم رحلت «أم كلثوم».

ماتت في بيت عثمان ، في شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد...

ووسدوها ثرى «يثرب» الى جانب ما بقي من رفات أختها ، ووقف المصطفى ﷺ على قبر ابنته دامع العينين[2] ، مثقل القلب بألم الثكل المتتابع ...

ورحم الله «أم كلثوم» فأعفاها من محنتي اليتم والترمل ، فلم تشهد رحيل أبيها ، بعد عام واحد ، عن الدنيا ، ولا المصرع الفاجع لزوجها «عثمان» يوم الدار بعد نحو ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجتيه اللتين جاءتا الدار بعدها : أم البنين بنت عيينة بن حصن ، ونائلة بنت الفرافصة الكلبية[3] ...

---

(١) الاستيعاب ١٠٤٠/٣.

(٢) مسند أحمد : ٣٥٤/٥.

(٣) تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٣٦ هـ - ونسب قريش : ١٠٢ .

فاطمة الزهراء

أم أبيها

صلى الله عليه وسلم

- أحبُّ البنات
- في دوّامة الأحداث
- الهجْرة
- البيت الجديد
- سحابة صيف
- محنة تنجلي
- حلم هنيء
- يقظة مروّعة
- إلتئام الشمْل
- تاريخ ممتد

فاطمة الزهراء

كانت رابعة البنات في تلك البيئة التي عرفناها مفتونة بالبنين، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الاسلامي كما لم يدخله أحد قط بعد أبيها ﷺ، وتركت فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال، يوم استقبلها البيت المحمدي وليدة، قبل المبعث بخمس سنوات...

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها، في السنة الخامسة قبل المبعث، بالحادث الجليل الذي ارتضت فيه قريش «محمدا» حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود، بعد تجديد بناء الكعبة المكرمة [1]، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه «مكة» في مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد. وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها، وبخاصة كبراهن «زينب» التي كانت لها بمثابة أم صغيرة...

حتى تزوجت «زينب» من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع، ومن بعدها تزوجت «رقية، وأم كلثوم» من ابني عبد العزي بن عبد المطلب، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة في أثر أخرى، وأعياها – في طفولتها الباكرة – أن تدرك حكمة هذا الزواج الذي يفصل بين البنت وأبويها، وبين الأخت وأختها، وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالي ذات عدد، حتى تركت أثرا عميقا في مشاعرها الغضة وقلبها البكر، وكان للظروف التي طرأت على الأسرة حينذاك، يد في تقوية ذلك الأثر: فلقد شغل الأب بتأملاته التي انتزعته من دنيا الناس ومضت به الى عزلة عابدة متأملة، وشغلت الأم بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها في أثره اذا غاب، وشغلت الأخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة، وتُركت

(١) ابن سعد، عن الواقدي. وجزم به المدائني (الإصابة ٨/١٥٧).

«فاطمة» شبه وحيدة مع خواطرها التي انفردت بها وراحت تؤثر في وجدانها على مهل...

وكانت بحيث تجد في ابن العم، عليّ بن أبي طالب - ذاك الذي اختاره أبوها فضمه اليه واتخذه ولدا [1] - أخا وزميلا، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين، لولا أنها استحيت أن تفضي اليه بهمومها التي تدور حول الزواج، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها...

ثم كان الحادث الأجل الذي هز الجزيرة هزا، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها في عنف من أحلام طفولتها، وألقى بها في دوامة الأحداث الهائلة التي أعقبت المبعث...

ووجدت نفسها - ولما تتجاوز الخامسة من عمرها - تواجه الصدمة العنيفة، وتقف في مهب الأعصار المارد الذي أثارته الوثنية العتيقة العاتية، في وجه الدين الجديد...

لكنها لم تأس قطّ على ما فاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال، بل حلّت تمائم صباها راضية، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها في غير تردد، واستقبلت الحياة الجديدة وهي تدرك على صغر السن، معنى بنوتها للنبي الذي اصطفاه الله رسولا، وتعي فداحة العبء الذي يجب عليها أن تحمله، لتكون جديرة بمكانها من البطل الذي يلقى قريشا مجتمعة، أعزل الا من ايمانه بالحق، وحيدا الا من فئة قليلة مضطهدة.

ولم تعد «فاطمة» تشعر بالوحدة التي كانت فيها قبل المبعث، فلقد ربط الاسلام بينها وبين أبيها المصطفى، ووالدتها أم المؤمنين، وأخواتها المسلمات، برابطة أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم، ونسي كل فرد في البيت المحمدي شواغله

(١) السيرة: ١/٢٦٣.

الخاصة، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد. لا يدينون بغيره، ورب واحد، يجثون له سجدا، لا يشركون به الها آخر ولا يعبدون ربًّا سواه...

وسرها أن «عليّ بن أبي طالب» كان أحد الثلاثة الذين سبقوا إلى الإسلام، إذ كان بمثابة أخ لها عزيز، ولا يهون عليها أن يختلف بهما الدين فتحظى هي بنعمة الإسلام دونه، ويترك هو مكانَه في بيت سيد البشر، ليلحق بالعصبة الكافرة التي باءت بغضب من الله...

وودتّ لو يسلم شيخ الهاشميين «أبو طالب» فانه لكما قال أبوها الرسول: «وأنت أي عمٍّ، أحق مَن بذلتُ له النصيحة ودعوتُه الى الهدى، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه»...

وودت كذلك لو يسلم أبو العاص بن الربيع، ابن خالتها هالة، وزوج شقيقتها العزيزة زينب. بل ودت لو يسلم بنو هاشم جميعا، فهم آل أبيها وعشيرته الأقربون. يعز عليه فراقهم، ويشق عليه حربهم وعداوتهم، لكن الله أراد أن يمتحن آل النبي ويصهرهم في بوتقة الابتلاء وشاء تعالى — جلّت مشيئته — أن يضرب رسوله المصطفى المثلَ الأعلى في قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية...

كما آثر — سبحانه وتعالى — فاطمة بنت محمد بالحظ الأوفى من الألم العبقري، فكتب لها أن تشهد الحرب المقدسة وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة، وتعيش دون أخواتها جميعا. حتى يجود أبوها البطل بأنفاسه، ويلحق بالرفيق الأعلى...

وكانت لذلك كله اهلا...

وهذه هي، قد هجرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواحبها مكانا قريبا من أبيها في قلب الميدان، وكان صغر سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتبع أباها إذ يسعى كل يوم الى أندية قريش ومحافلها ليبشر بدعوته، ويلقى في سبيلها ما يلقى من كيد الطغاة وأذى السفهاء...

كانت هناك، قريبا منه، يوم أقبل يمشي الى الكعبة حتى استلم الركن، فما لمحه المشركون حتى وثبوا اليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ – وعدوا ما قال من شتم آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم...

فيقول عليه الصلاة والسلام: «نعم، أنا الذي يقول ذلك»...

وأمسكت «فاطمة» أنفاسها وهي ترى رجلا منهم يأخذ بمجمع رداء أبيها، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث هي، وقام أبو بكر دون رسول الله ﷺ، وهو يقول منكرا:

«أتقتلون رجلا أن يقول: ربي الله؟!»...

فالتفتوا اليه وشرر الغضب يتطاير من عيونهم، فجذبوه بلحيته، ثم لم يدعوه الا وقد صدعوا رأسه! (١)...

وغادر محمد – ﷺ – البيت الحرام، ومشى في الطريق، وابنته تتبعه عن كثب، فلم يلقه أحد من الناس، لا حرٌ ولا عبد، الا كذبه وآذاه، حتى بلغ بيته، فتدثر في فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه...

وكانت هناك، تقف غير بعيد من أبيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله، اذ هو ساجد في الحرم، وحوله ناس من مشركي قريش، فجاء «عقبة ابن أبي معيط» بسلي جزور، فقذفه على ظهره، فلم يرفع – ﷺ – رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلي ودعت على من صنع ذلك، واذ ذاك رفع ﷺ رأسه وقال:

«اللهم عليك الملأ من قريش!.. اللهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأبيّ بن خلف»...

فخشع المشركون لدعائه، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف الى بيته، تصحبه ابنته فاطمة...

---

(١) السيرة: ٣١٠/١.

ولن تمضي غير أعوام معدودات لترى فاطمة هؤلاء الملأ الذين دعت ودعا عليهم أبوها صلوات الله عليه وسلامه، صرعى مجندلين حول ماء بدر...

وكانت هناك، يوم خرج النبي ﷺ الى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» فجعل ينادي:

«يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم... لا أغني عنكم من الله شيئا...

«يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئا...

«يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا» (١)

وخفق قلب «فاطمة» حنانا وتأثرا، فهمست تقول:

- لبيك يا أحبَّ والد وأكرم داع...

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف، مرفوعة الهامة مشرقة الأسارير، وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها النبي، من بين أخواتها جميعا، بل من بين أهل بيته الخاص، ليؤكد للبشر أنه لا يغني من الله شيئا عن أعز الناس عنده وأحبهم اليه وأدناهم منه...

لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته، ثم ببني مناف عشيرته الأقربين، ثم عمه العباس وعمته صفية، ثم كانت ابنته فاطمة هي آخر من يتخذه الرسول مثلا في ذلك الموقف الجليل. فعندها اذن، ينتهي أقصى ما يبلغه ﷺ في العظة والاعتبار، واذا كان محمد لا يغني عن بنته فاطمة من الله شيئا، فهل يطمع غيرها - كائنا من كان - في أن يغني عنه أحد من الله شيئا!؟

---

(١) حديث متفق عليه، أخرجه الشيخان من عدّة طرق: البخاري في كتاب الوصايا، ومسلم في كتاب الإيمان. والنقل هنا من (اللؤلؤ والمرجان ١/٥٧: ح ١٢٣).

وفي صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ، قال:

«إنما فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما آذاها، ويريبني ما رابها».

«خير نساء العالمين أربع: مريم وآسية وخديجة وفاطمة»...

«ان الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك».

وعن ابن جريج: «قال لي غير واحد: كانت فاطمة أصغر بنات النبي ﷺ وأحبهن إليه»[1]...

* * *

وسبق أن أشرنا إلى اتهام متعصبي المستشرقين ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبي ﷺ ابنته فاطمة، والزعم بأنها مرويات صُنِعت بأخَرة، بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسي والديني، ذا الأثر البالغ في التاريخ الاسلامي كله...

وفي ذلك يقول «لامنس»:

«إن المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها أول الأمر، حتى اذا ظهرت فكرة التشيع في الاسلام، عادوا يطيلون الحديث عنها، وأخذت شهرتها تذيع و تنتشر على حين ظلت أخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث»...

ويرد أحد الكتاب المسلمين – الأستاذ عمر أبو النصر– على هذا الزعم قائلا:

«فأما عدم ذكر مؤرخي السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله ﷺ، فرده أن مؤرخي السيرة انما كانوا يؤرخون للنبوة والاسلام، ولم تكن النبوة والاسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن، خصوصا وأنهن لم يخضن حربا ولا اندفعن في معركة ولا كان لهن من الشأن في سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ الى ذكرهن

(١) من: كتاب المناقب في صحيح البخاري، وكتاب الفضائل في صحيح مسلم. مع ترجمتها رضي الله عنها في: طبقات ابن سعد ٨/١٥ والاستيعاب ٤/١٨٩٣ والإصابة ٨/١٥٧.

والتبسط في تاريخهن. ومن البداهة والحالة هذه ألا يذكر المؤرخون من أخبارهن الا ما كان له كبير شأن أو عظيم أثر»[١].

وهو رد لا ينفي زعم «لامنس»...

وأولى منه أن يُردَّ عليهم، بأن المرويات عما حظيت به الزهراء، أم أبيها، من حبه ﷺ، وصلت إلينا في مدونات موثقة، لرجال الطبقات الأولى من أئمة الحفاظ وعلماء السيرة ومؤرخي عصر المبعث، بأسانيدهم الصحيحة إلى عصر النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم...

وهذه المدونات القديمة، قد تعاقب على خدمتها أجيال من أئمة النقاد وأعلام النظار، فحصاً وتوثيقا وتهذيبا واستدراكا، على أدق ضوابط المنهج النقلي للرواية: متنا وإسنادا ورجالا ولا أحتاج في رد هذا الزعم الباطل إلى مزيد، اللهم إلا أن أعرض مثلا من تهافت هذه العُصبة الحاقدة من المستشرقين، في حديث الحلية التي رُوِي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فيها: «لأهبنها أحب أهلي اليَّ» ثم دفعها إلى حفيدته «أمامة بنت أبي العاص ابن الربيع» فلقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هذا الحديث، يريدون أن ينقضوا به كل ما تواترت به الأحاديث والأخبار، عن حبه ابنته فاطمة. ومن عجب أنهم حملوا خبر الحلية محمل الثقة التي لا يرتفع إليها ظن ولا تجوز عليها ريبة، واتهموا بالوضع المرويات الخاصة بالسيدة فاطمة، مع أن المصدر واحد!

ولو أنهم كبحوا جماح هواهم لما رأوا في حديث الحلية سوى مظهر من مظاهر عطفه ﷺ على حفيدته الطفلة التي خلفتها أمها الراحلة، السيدة زينب، ولفتة كريمة من لفتاته التي طالما أسعدت النساء من أهله وعشيرته، وسنجده ﷺ في موقف آخر، يُهدَى حلةً من استبرق، فيقول لابن عمه علي: «اجعلها خُمُرا بين الفواطم» فشقها «علي» أربعة أخمرة، أحدها لفاطمة بنت محمد، والثاني لفاطمة

(١) عمر أبو النصر: فاطمة بنت محمد، ٦٠.

بنت أسد بن هاشم ، زوج أبي طالب وأم بنيه علي وجعفر وعقيل ، والثالث لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت أبي طالب «أم هانىء» ، وفي رواية ، لفاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، زوج عقيل بن أبي طالب...

* * *

وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند أبيها ﷺ ؟

وهو سؤال يعرض لمن يكتب عن الزهراء ، أما متعصبو المستشرقين فأراحوا أنفسهم كما رأينا بجواب سهل قريب ، هو أن ما رُوي عن حب محمد لفاطمة إنما اخترعته الشيعة بعد وفاته - ﷺ - وما هذا بمستغرب منهم ، فهكذا يلتوي تاريخ الإسلام في أيديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبرأون من ضعف وهوى ، وإن كنا في الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الإنسانية من جهود هؤلاء العلماء الذين نقدر ما أتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب في الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا خير الثمر ، لو برئا مما شابهما من شوائب هذا التعصب ، وهيهات !

الدارسون المخلصون ، لا يشق عليهم أن يصلوا الى نتائج أعمق وأبعد من هذه التي التقطها القوم ارتجالا من أقرب الطرق ، كأن يربطوا بين هذا الحب للبنت الرابعة ، وما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للإناث ، فلعل المصطفى في حبه لفاطمة ، كان متأثرا بما يُظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد أن سبقتها أخوات ثلاث.

فمحمد ﷺ ، في أبوته الرحيمة وانسانيته المهذبة ، أهل لأن يغمر بحبه هذه البنت التي شاء لها القدر أن تجيء حيث يُظن ألا تلقى ترحابا ، وأحق بأن يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس - ولو على سبيل الوهم - أنها غير مرغوب فيها . ونحن الأمهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية أو ثالثة ، فكيف إذن يكون موقف الأب الكريم الذي اصطُفي ليُبعث رسولا ؟.. مثله

بلا ريب من يذود عن طفلته تلك الظلال الكثيبة التي تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس المر الذي قد يكسر قلبها ويعقد نفسيتها...

ولنا أن نقول بعد هذا ، إن تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند أبيها ، لم تنقص حبه أخواتها الثلاث ، ولنا أن نقول كذلك إن حظ الزهراء من حب أبيها ﷺ قد ازداد بعد موت هؤلاء الأخوات ، ثم تضاعف بمولد الحسنين ، وانقطاع ذريته ﷺ إلا من ولد هذه الابنة الوحيدة التي بقيت له !

* * *

دخلت «فاطمة» على أمها السيدة خديجة ، تحدثها - والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها - عما سمعت من دعوة أبيها لقومه أن يشتروا أنفسهم ، فإن أحدا لن يغني عن أحد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن يغني عنها أبوها النبي شيئا إذا لم تؤمن...

وهي قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، وللآخرة خير وأبقى...

ومرت الأم الطيبة بيدها الحانية على جبين ابنتها الطفلة ، وغمغمت في رفق :

- ماذا ستلاقين من بعدي يا صغيرتي ؟.. لقد نلتُ حظي من الدنيا فأنا هامة اليوم أو غد ، وأختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما في كنف أكرم زوجين ، ولأم كلثوم من سنها وتجربتها ما يغري بشيء من الطمأنينة عليها ، وأما أنت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا في مستهل الصبا ، حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والآلام...

فردت فاطمة وهي تذكر أباها البطل :

- اطمئني ، فلا بأس عليَّ يا أماه ، لتطغ قريش ما شاءت لها وثنيتها أن تطغى ، ولتمضين في اضطهادها للفئة المسلمة الى أقسى وأفدح ما تستطيع ، فلقد طابت

نفوسهم باحتمال هذا العذاب الجليل ، و«فاطمة» أجدر بأن تحمل منه ما يكافئ ما نعمت به من بنوتها للنبي ، واستئثارها بالحظ الأوفى من محبته واعزازه...

* * *

واستجاب الله لها ، فامتحن ايمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الأذى ، وتروع بالذي يكابده أتباعه من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة التي كانت تلقى عليهم حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدنها أثر السياط التي كانت قريش تلهب بها ظهور من تقدر عليه من المستضعفين.

وصحبت «فاطمة» أبويها الى شعب أبي طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت أمها خديجة ، ثم هجرة أبيها الى يثرب ، بعد أن لم يبق له في مكة مكان!

وعلى أثره هاجر «علي» ابن العم أبي طالب ، وكان قد تمهل ثلاثة أيام في مكة ، ريثما أدى عن النبي المهاجر ، الودائع التي كانت عنده للناس[1] ...

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيهما فصحبهما الى يثرب ، وأغلقت دارُ محمد بمكة ، كما أغلقت دور المسلمين فيها هجرةً ، ليس فيها ساكن...

ولم تمر رحلتها بسلام : فما كادتا تودعان أم القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتى طاردهما اللئام من مشركي قريش ، وباء «الحويرث بن نقيذ ابن عبد بن قصي» - وكان ممن يؤذي أباهما النبي بمكة - بإثم اللحاق بهما حتى نخس بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض[2] ...

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قد أنهكتها الأحداث الجسام التي

---

(١) السيرة ١٢٩/٢.

(٢) السيرة : ٥٢/٤.

لقيتها قبل أن تمتلئ شبعا وريا ، وترك الحصار المنهك أثره في صحتها وان زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها «الحويرث القرشي» فرمى بها وأختها على أديم الصحراء الأوعث ، سارت بقية الطريق متعبة ، الى أن بلغت «المدينة» وما تكاد ساقاها تنهضان بها ، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمرّ السنوات وأبوها الرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه في العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الأكبر، ويسميه مع النفر الذين عهد النبي الى أمرائه أن يقتلوهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة...

وكان علي بن أبي طالب ، أحق هؤلاء الأمراء بقتل الحويرث ، وقد فعل ! [١] ...

* * *

كان ﷺ قد شرع في بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله إلى دار الهجرة ، ونزل ﷺ ريثما يتم البناء ، في دار أبي أيوب الأنصاري – وهي الدار التي صارت من بعده الى مولاه «أفلح» فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار، بعد ما خربت وتداعت جدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة –

وكان ﷺ يعمل في بناء مسجده وبيته الجديد ، مما أثار همة المهاجرين والأنصار، فأقبلوا يتنافسون على العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبي يعملُ
لَذاك منا العملُ المضلل

فيجيبه المسلمون :

لا عيش الا عيش الآخره
اللهم فارحم الأنصار والمهاجره !

(١) السيرة ٥٢/٤ – وتاريخ الطبري ، حوادث السنة الثامنة للهجرة.

و رؤي الرسول يومئذ و هو ينفض بيده الكريمة وفرة «عمّار بن ياسر» وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبن...

وسُمع علي بن أبي طالب ينشد مرتجزا:

لا يستوي من يعمر المساجدا
يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يُرَى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه «عمار» وجعل يرتجز بها حتى تم البناء...

ولم يكن البيت الجديد قصرا فخما ولا صرحا مشيدا، بل كان حجرات بسيطة مطلة على فناء المسجد النبوي، بعضها من حجارة مرصوصة، وبعضها من جريد يمسكه الطين، وكانت جميعا مسقوفة بالجريد...

أما ارتفاعها فيقول الحسن بن علي، حفيد الرسول وابن بنته الزهراء: كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي.

وفي صحيح البخاري، أن بابه عليه الصلاة والسلام كان يُقرع بالأظافر – يعني: لا حلق له!.

أما الأثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ بساطة وخشونة وتواضعا، وكان سريره ﷺ، خشبات مشدودة بالليف.

* * *

الى هذا المنزل الجديد المتواضع، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة، لترى أباها ﷺ في أعز موضع، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام، وآخى الرسول بين الأنصار وبينهم، ليذهب عنهم وحشة الاغتراب، ويشد أزر بعضهم بعض...

وتمت المؤاخاة قبل قدوم «فاطمة» من البلد العتيق، ولعلها لو كانت بيثرب يومها، لما استغربت أن ترى أباها ﷺ يقف في أصحابه فيقول:

«تآخوا في الله أخوين أخوين»...

ثم يأخذ بيد علي بن أبي طالب ويقول:

«هذا أخي»(١)...

ويختار لعمه جعفر - وكان ما يزال غائبا بأرض الحبشة - معاذ بن جبل، ولأبي بكر الصديق، خارجة بن زهير الخزرجي، ولعمر بن الخطاب، عتبان بن مالك العوفي، ولأبي عبيدة بن الجراح، سعيد بن معاذ، ولعثمان بن عفان، أوس ابن ثابت أخا بني النجار، وللزبير بن العوام بن خويلد، سلمة بن سلامة...

وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ، وذهب علي بن أبي طالب بسيد البشر أخا!..

ولن يمضي وقت طويل، حتى نرى عليا، صهرا لأخيه النبي عليه الصلاة والسلام، وزوجا لأحب بناته اليه...

* * *

كانت «فاطمة» اذ ذاك قد قاربت عامها الثامن عشر، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه، متأثرة بنفورها القديم منه، يوم انتزعوا أختها الحبيبة «زينب» من بيت أبويها، وزفوها الى دار أبي العاص ابن الربيع، وفاطمة طفلة في عامها الرابع...

ولقد مضت الأعوام، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج، وأعدتها فطرتها لأن تستجيب لهذا الوضع الطبيعي الذي بلته كل أنثى قبلها: من حواء، الى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم...

---

(١) السيرة: ١٥٠/٢ والاستيعاب ١٠٩٨/٣، والمحبر ٧٠.

وكانت الى ذلك كله، تحس ابن العم، علي بن أبي طالب، قريبا منها في المنزل الجديد، وتلمحه يحوم حول أبيها الرسول وفي نفسه أمر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفتيه. على أن «فاطمة» لم تكن بالتي يخفى عليها سر ابن العم، فمنذ بلغت سن الزواج وهي تحس بالهام فطرتها ووحي قلبها، أن «عليا» متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغبٌ في سواها من بنات المسلمين...

وكذلك هي: لم تشعر في عالمها النفسي بمن هو أقرب اليها من «علي» وأعز موضعا، وهو بعد أكثر من أخ عزيز وابن عم قريب، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة و ذكاء وعزيمة، ولا بين شباب المسلمين جميعا من هو أسبق منه الى الاسلام أو أقرب الى رسول الله (١)...

ولكنها مع ذلك أغلقت قلبها دونه كما أغلقته دون الرجال جميعا، مؤثرة مكانها الى جانب أبيها الحبيب، متشبثة بموضعها في بيته الكريم، فمنذ ماتت أمها «السيدة خديجة» - رضي الله عنها - وهي ترى نفسها ربة هذا البيت التي تحمل عبء ادارته، وخليفة الأم الراحلة في الوقوف الى جانب البطل المجاهد، تهيىء له راحة وسكنا، وقد بلغت في ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجل كنية، فتدعى «أم أبيها»!

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الأعز، موضعا سواه!

لكن إلى متى؟

هذا ما لم تفكر فيه فاطمة رضي الله عنها، أو لعلها فكرت فيه حينا ثم انصرفت عنه، كيلا تفسد حاضرها بما يحتمل أن يأتي به الغد المجهول!

حتى دخلت «عائشة بنت أبي بكر» في حياة محمد - ﷺ - زوجة وربة بيت، فأحست «الزهراء» أن قد آن لها أن تنتقل من بيت أبيها راضية أو كارهة،

---

(١) السيرة: ٢٦٢/١ وانظر معها ترجمة الامام علي في الاستيعاب وسنن الترمذي: كتاب المناقب.

لكي تخلي المكان لربته الشابة الذكية الحسناء !...

ولا أرتاب في أن الزهراء رضي الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زُفت «عائشة» الى محمد، بعد الهجرة بأشهر معدودات، وأخذت مكان خديجة في داره ودنياه، ولعل الزهراء بكتها أحر بكاء في ليلتها تلك، ثم هون عليها الأمر أن يجد أبوها - الذي تؤثره على نفسها - في عروسه اللطيفة، ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة، وما يسري عن فؤاده بعض الشجن الذي أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ خمسة أعوام...

* * *

وزواج «أبي الزهراء» من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لأحد من قومه، فهو ﷺ قد خطبها قبل هجرته من مكة، يوم سعت اليه «خولة بنت حكيم» متلطفة مترفقة تقول:

«يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة!»...

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضي فتخطب له سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر(١)...

وما كانت الزهراء لتكره أن يجد أبوها النبي من تسكن اليها نفسه ويرتاح لها فؤاده، وانها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد، وما يكابده من محنة الغربة عن الوطن، ومأساة الاضطهاد من قومه وعشيرته...

وقد جاءت «سودة» قبل عائشة، فشعرت فاطمة -كما لم يشعر سواها- أن الفراغ في حياة النبي زوجا، ما يزال كما كان قبل أن تجيء بنت زمعة. فإن الرسول لم يتزوجها إلا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها «السكران بن عمرو» الذي لم يكد

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/١٧٦ - وانظر معه السمط الثمين ٣١ - والاصابة حـ ٨ وانظر الفصل الخاص بالسيدة عائشة، في كتابي «نساء النبي» ط دار الكتاب العربي - بيروت.

يعود بها من مهاجرَها في الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة، قد هدت المحن قواها، وطحنتها السنون الطوال العجاف...

ولم يغب عن فاطمة، ولا غاب عن سودة، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة، لا حب وتآلف وامتزاج، فلا عجب أن بقيت الزهراء «أم أبيها» في مكانها الأول، دون أن تشعر بأن وجود «سودة» يغني عنها...

أما حين جاءت «عائشة» فالأمر جد مختلف!

فلا عجب أن لم يمض على دخولها بيت النبي أربعة أشهر حتى كانت «الزهراء» في طريقها إلى بيت علي بن أبي طالب (١)...

* * *

والواقع أن «عليا» كان يتلبث حتى تحين فرصة مواتية مسعفة يستطيع فيها أن يطمع في قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها الى بيت الزوجية...

وطال انتظاره سنين عددا، حتى اذا دخل الرسول بعائشة الحبيبة، خامر «عليا» الرجاء في تحقيق رغبته، لكنه ظل محجما فترة، لا يدري بم يمهرها وليس في يده مال. ثم زاد إحجامه، حين بلغه أن أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - قد طلبا يد الزهراء، فردهما أبوها ﷺ في رفق بالغ (٢)...

وشعر خاصة أصحاب «علي» بما يهمه، فشجعوه على خطبة الزهراء، وذكروا له قرابته من أبيها، ومكانته عنده، ومكانة أبويه من قبله: والده أبي طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أول هاشمية وَلَدَتْ لهاشمي (٣)

---

(١) الاستيعاب: ١٨٩٣/٤، والإصابة ١٥٧/٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ١١/٨. وسنن النسائي: ٢٦ ك/٧ ب.

(٣) نسب قريش ٤٠، والاستيعاب ١٨٩١/٤ وهي احدى الفواطم الاربع التي آثرهن الرسول ﷺ بهدية جاءته.

قال «علي» يائسا : «بعد أبي بكر وعمر؟»

أجابوه :

«ولم لا ؟.. ووالله ما بين المسلمين – وفيهم أبو بكر وعمر – من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك ، ورعته أمك ، ثم نشأت في كنفه وربيت في بيته ، وكنت أسبق رجل إلى الاسلام».

وتشجع «علي» وأخذ طريقه الى ابن عمه ، حتى اذا جاءه حيَّاه بتحية الاسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته...

وأدرك ﷺ أن أخاه وابن عمه وصاحبه ، جاء لأمر لا يقوى على الإفصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله في تلطف :

– ما حاجة ابن أبي طالب؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :

– ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله ﷺ...

قال الرسول وما يزال على بشره وتلطفه : «مرحبا وأهلا !».

ثم أمسك لا يزيد...

وطال صمته ، فانصرف «علي» حائرا قلقا ، لا يدري بم يجيب أهله وأصدقاءه الذين كانوا في انتظاره ، يترقبون عودته برأي الرسول...

فلما ألحوا عليه ، قال : «ما أدري والله شيئا : تحدثت الى رسول الله بالأمر ، فما زاد على قوله : «مرحبا وأهلا !»

هتفوا جميعا : «يكفيك من رسول الله إحداهما !»

ثم تركوه مستجد الأمل ، حيَّ الرجاء !

* * *

وأقبل في اليوم التالي فوقف غيرَ بعيد من الرسول، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام:

«أردت أن أخطب الى رسول الله ﷺ ابنته، فقلت: والله مالي من شيء، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه»...

فما راعه الا أن التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا:

– وهل عندك شيء؟

أجاب علي: «لا، يا رسول الله...»

لكن الرسول ذكر أن «عليا» أصاب درعا من مغانم بدر، فعاد يسأله: «فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟»

أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبي ورعايته:

– هي عندي يا رسول الله...

قال عليه الصلاة والسلام: «فأعطها إياها...»[1]

فانطلق «علي» مسرعا، وجاء بالدرع، فأمره النبي أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها[2]...

وتقدم «عثمان بن عفان» فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهما، حملها «علي» ووضعها أمام الرسول، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى «بلال» ليشتري ببعضها طيبا وعطرا، ثم يدفع الباقي الى «أم سلمة» لتشتري جهاز العروس[3]...

و دعا المصطفى صحابته فأشهدهم أنه زوج ابنته فاطمة من علي بن أبي

---

(١) طبقات ابن سعد: ١٢/٨.

(٢) صحيح البخاري: كتاب البيوع. ومسند أحمد ١٤٢/١.

(٣) مسند أحمد: ٩٣/١، ١٠٤، ١٠٨ وسنن النسائي: كتاب النكاح باب ٨١.

طالب، علي أربعمائة مثقال من فضة، على السُّنة القائمة والفريضة الواجبة، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين، والدعاء لهما بالذرية الصالحة. ثم قدم إلى الضيوف وعاء فيه تمر. [١]

* * *

وعلى هذا النحو من البساطة، تمت خطبة الزهراء بنت النبي لابن عمه علي، وعقدت أخطر مصاهرة عرفها الاسلام في تاريخه الحافل الطويل...

وتمّ عقد النكاح في شهر رجب من مقدمهم إلى المدينة وبنى بها، فلما أهلّ في السنة الثانية مرجعهم من بدر، وكان «علي» قد وفق إلى استئجار منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء...

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل، وجاء حمزة - عم محمد، وعلي - بشارفين فنحرهما وأطعم الناس بمدينة الرسول...

فلما تم الحفل انصرف القوم مهنئين، ودعا الرسول «أم سلمة» فطلب اليها أن تمضي بالعروس الى بيت علي، ولينتظراه هناك...

وأذن «بلال» لصلاة العشاء فصلى النبي بالمسلمين في المسجد، ثم مشى الى دار علي، حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آي الذكر الحكيم ثم أمر العروسين أن يشربا منه، وتوضأ بالباقي ونثره على رأسيهما [٢]، وهمّ بعد ذلك بالانصراف وهو يقول:

«اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما».

فلم تملك فاطمة دمعها، فتمهل الأب برهة، وحنا عليها مهونا عليها الأمر بأنه إنما تركها وديعة عند أقوى الناس ايمانا وأكثرهم علما وأفضلهم أخلاقا وأعلاهم نفسا... [٣]

(١) الإصابة: ١٥٨/٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ١٥/٨ والاستيعاب والإصابة: فاطمة.

(٣) طبقات ابن سعد: ١٦/٣ والاستيعاب والإصابة: فاطمة.

ثم انصرف وطيف من «خديجة» يطيف بالعروس في ليلتها الأولى، ويحوم حولها، ويسري عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب، وشجن لغياب الأم...

واستجاب الله لدعاء نبيه في تلك المناسبة السعيدة، فكانت الزوجية المباركة التي شاء سبحانه أن تنحصر في ثمرها ذرية نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام...

* * *

كانت سن «الزهراء» عندما تزوجت ثمانية عشر عاما، ولكن الهوى جمح بالمستشرق «لامانس» فخيل إليه أنها كانت أسنَّ من ذلك بكثير، «وانما عمد بعض كتَّاب السيرة إلى تأخير ميلادها، كيلا يقال إنها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها الى أن فاتت سن الشباب»...

ولعلنا لو سألناه: فلم لم يفعل كتَّاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة؟.. لِم لَم يجعلوا الأولى أصغر سنا ويضيفوا إلى الأخرى عشر سنين أو عشرين، ليلائموا بينهما وبين زوجها النبي في السن؟.. أقول: لعلنا لو سألنا «لامانس» مثل هذا السؤال لما حار جوابا...

و«لامانس» – فيما أرجح – قد اعتمد في ذلك على خلاف يسير الشأن في تاريخ مولد الزهراء، فاستغله الى أبعد حد في إرضاء هواه، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد، يضع أصبعه على قول نقله «المسعودي» بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب، وآخر ذكره «اليعقوبي» بأنها ولدت بعد نزول الوحي. يضع «لامنس» إصبعه على هذا القول أو ذاك، متجاهلا أقوال الكثرة من الثقات الذين عليهم المعتمد في هذا الشأن، كابن اسحاق، وابن سعد، والطبري، وابن عبد البر، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين.

والخلاف – كما قلت آنفا – يسير الشأن، لأننا تعودنا أن نلقى مثله وأكثر منه في

تاريخنا النقلي ، الذي يعتمد على المروي شفاها قبل عصر التدوين ، حيث لا تكاد تخلو ترجمة شخص من خلاف كهذا ، وبخاصة في سنة مولده ، إذ المألوف ألا تتجه العناية الى ترجمة شخص الا بعد أن ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية ، وكان للمستشرق أن يأخذ من هذه الظاهرة العامة ما شاء ، لا أن يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وَسيِّئ التأويل...

وما أظن «لامانس» بالذي يغيب عنه الموقف المنهجي حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهلَ عامدا «ابن اسحاق» إمام كُتاب السيرة ومن أقربهم عهدا بالرسول وبناته ، وهو لم يذكر في مولد «فاطمة» غير قول واحد اقتصر عليه : السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو أن بنات محمد ولدن جميعا قبل أن يبعث ﷺ ، وهذا القول أغفِله «لامانس» كما أغفل معه أقوال الأئمة من رجال الحديث والثقات من المؤرخين والعلماء بالصحابة ، ليتمسك برواية المسعودي ، حتى اذا استغلها ما شاء له التعصب في الزعم بأن كتّاب السيرة أخروا مولد فاطمة لكي ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فنقضها برواية «اليعقوبي» التي تقول بولادة الزهراء بعد المبعث !...

* * *

إلى ذلك الحد ، بلغ بمتعصبي المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا في غنى عن هذا كله ، ليصلوا إلى ما شاءوا تقريره من تأخر زواج فاطمة ، مستندين إلى قول ابن اسحاق نفسه ، فسن الثامنة عشرة جد متأخرة إذا قيست بسن أخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهي أبعد تأخرا إذا قيست بسن أم المؤمنين «عائشة» بنت أبي بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهي بنت الأمين الطاهرة ، وهي أخت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، اللواتي تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن في مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، أقرب الناس شبها بأبيها في الخلقة والسَّمْت ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وإنما عرف القوم زهد الزهراء في الزواج ، وتشبثها بمكانها الى

جانب أبيها الرسول، وقدروا موضعها من البيت المحمدي وحاجته اليها بعد وفاة أمها رضي الله عنها.

ثم، لم لا نقول - اذا لم يكف كل ما قدمنا - إن تأخر زواجها كان عن تهيب لها؟.. لقد بعث أبوها ﷺ، وهي وحدها التي لم تتزوج، اذ كان عمرها خمس سنوات، والناس بعد المبعث أحد رجلين: أما كافر بنبوة محمد وهيهات أن يفكر في مصاهرته، وقد علمنا ما كان من سعي قريش الى أصهار محمد في رد بناته الثلاث اليه كي يشغلوه بهن، واما مسلم يؤمن بنبوة محمد ويصدق برسالته، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم والى أي مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتدونه بالمهج والأرواح، فغير مستغرب ألا يروا أنفسهم كفئا لمصاهرته، وأن يغضوا الطرف عن «أم أبيها، الزهراء» اجلالا وتهيبا.

ولا يرد على هذا بأن «عثمان» رأى في نفسه كفئا لرقية، فلقد قلّ في أصحاب الرسول - بل في قريش بعامة - مثل عثمان ثراء وشرفا وجاها، وهو بعد قد طمع في الزواج من بنت النبي ﷺ، بعد أن طلقها ابن أبي لهب كيدا وحقدا، وليس الأمر كذلك مع الزهراء...

ونحن - حتى يومنا هذا - نرى بنات الأسر الكريمة يتأخر زواجهن في انتظار الأكفاء وهم عادة القلة، إذ القاعدة المطردة هي أنه كلما تميزت الفتاة لعلمها أو ثرائها أو عزتها، قلّ أكفاؤها...

ولم يكن «علي» مع ذاك أول من طمع في الزواج من «فاطمة» بعد تهيب وتردد، فقد تسامى الى ذلك الشرف قبله، صاحبا الرسول أبو بكر وعمر، على ما روى «البلاذري» في «أنساب الأشراف»، وابن سعد في طبقاته [1]، والنسائي في سننه [2]، فردهما أبوها ردا كريما...

---

(١) جـ ٨ ص ١١.

(٢) كتاب النكاح، الباب السابع.

ويأبى «لامانس» بعد ذلك كله الا أن يعلل الزهد المزعوم في «الزهراء» بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!)

* * *

لم تكن حياة «الزهراء» في بيت زوجها مترفة ولا ناعمة، بل كانت أقرب إلى أن توصف بالخشونة والفقر، وهي في ذلك تختلف عن حياة أخواتها اللواتي أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادي، فقد تزوجت «زينب» من أبي العاص وهو معدود من أثرياء مكة، وتزوجت رقية وأم كلثوم أولا من ابني أبي لهب ذي المال الوافر، ثم تزوجتا واحدة بعد الأخرى من «عثمان بن عفان» الواسع الثراء، وأما «علي بن أبي طالب» فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو موروث، اذ كان أبوه على عظم مكانته وعلو شرفه، قليل المال كثير العيال، مما دفع ابن أخيه محمد الى أن يقترح على عمه «العباس» التخفيف من أعباء أبي طالب، بأن يأخذ كل منهما أحد بنيه فكفله عنه. وكان من نصيب «علي» أن يختاره «محمد» دون بقية أبناء العم...

وبُعث «محمد» ﷺ رسولا. فكان «علي» أول من آمن به صبيا، اذ كان عمره عشر سنوات على ما نقل ابن اسحق [1] وهكذا اشترك «علي» في الجهاد بمجرد أن شب عن الطوق، وشُغل بالجهاد عن جمع المال، وصرفته صحبة النبي ﷺ وهو يواجه طواغيت المشركين، عما كان يرجى أن يشتغل به من التجارة التي هي حرفة الرجال من قريش، وصنعة الأشراف في مكة، وسبيل الثراء بالوادي الأجرد غير ذي الزرع، فلا عجب أن رأيناه يطلب يد «الزهراء» وليس في يده ما يمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مغانم «بدر» التي أبلى فيها «علي» خير البلاء [2].

ولم يغب شيء من ذاك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها ﷺ طلب «علي»

(١) السيرة: ١/٦٢.

(٢) السيرة ٢/٣٧٢.

يدها ، ولو صح ما رواه «البلاذري» أن الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد أبوها المصطفى يزكيه :

«إنه سيد في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ، وانه أكثر الصحابة علما وأفضلهم حلما وأولهم اسلاما» ... (١)

أقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة في مثل هذا الموقف ، لكن «لامانس» لم يدعها تمر دون أن يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام عليّ كرم الله وجهه ، حتى إذا أحس أن الفقر لا يمكن أن يعاب على الامام ، وقد نشأ النبي نفسه يتيما فقيرا ، راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر ، وأخذ يبدي ويعيد عن ضآلة حظ «علي» من جمال الصورة وحسن الشكل ! ... ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه في أن شخصية فاطمة رُسِمَتْ بأخرة ، وأضيفت إليها ألوان زاهية من صنع التشيع ، مع هذا الذي ينقله من روايات عن الامام علي؟.. أقول : لو راجع نفسه ، لاستوقفه هنا أن مؤرخي الاسلام لم يضيفوا إلى امام الشيعة من الثراء والجمال ما يرفع قدره عند أمثال «لامانس» ، بل انهم – بشهادته – قد ذكروا أنه كرّم الله وجهه «كان فقيرا معدما قصيرا أفطس الأنف دقيق الذراعين» دون أن يجدوا في ذلك ما يغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الأبطال !.. (٢)

* * *

ونرجع الى حيث تركنا «الزهراء» تستقبل في عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى أحدا من رواة المسلمين حاول أن ينفي عنها ما كانت تجده من شظف العيش ، أو يجيء في جهازها بفراش وثير وأثاث جميل ، بل نقرأ أنها دخلت بيت زوجها

---

(١) انظر معه في ترجمتها بالاستيعاب ، ما رواه ابن السراج بسنده إلى عمران بن حصين (١٨٩٥/٤).

(٢) انظر مناقب الإمام علي رضي الله عنه في صحيح البخاري : كتاب المناقب . وباب فضائله من كتاب الفضائل في صحيح مسلم.

بخميلة ، ووسادة حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين ، وشيء من العطر والطيب...

وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها – رضي الله عنها – أن تنفرد بهذا العبء الثقيل (١) ، لكن «عليا» لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة مجهدة ، فحاول أن يساعدها في بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك ، اذ كان يخشى أن يستنفد العبء ما بقي لها من قوة جسدية ، بعد الذي كابدته – منذ عامها الخامس – من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد...

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتهز كرم الله وجهه فرصة مواتية ، وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها النبي عاد من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا :

– لقد شقوتِ يا فاطمة حتى أسليت صدري ، وقد جاء الله بسبي ، فاذهبي فالتمسي واحدة تخدمك...

أجابته وهي تنحيّ الرحى جانبا في تعب وكلال : أفعل إن شاء الله...

ثم لبثت ساعة حيث هي في ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها الذاهبة ، وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية ، فلما رآها ﷺ هش لها وسأل :

– ما بِك يا بنية؟

أجابت : «جئت لأسلم عليك !...»

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله...

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجها أنها استحت أن تطلب من أبيها شيئا...

---

(١) صحيح البخاري ٦/٦٩ ، ٧ وصحيح مسلم ك ٤٨/٨٠ ، والإصابة ١٦٠/٨

فقام كرم الله وجهه وصحبها الى بيت الرسول ، و تولى عنها السؤال وهي مطرقة من استحياء...

أجاب ﷺ :

– لا والله ، لا اعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن...

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب الأب الحنون ، وشغلته نهاره كله !...

وجن الليل وكان البرد قارسا ثقيل الوطأة ، فرقدا على فراشها الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد ، فاذا بالباب يفتح «ويقبل عليهما الرسول وقد انكمشا في غطائهما مقرورين ، اذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما ، واذا غطيا أقدامهما انكشفت رأساهما». فهبَّا للقاء الضيف الكريم ، لكنه ﷺ ابتدرهما قائلا : «مكانكما !...»

ثم أضاف في رفق وهو يقدر حالها : «ألا أخبركما بخير مما سألتماني».

أجابا معا : «بلى يا رسول الله...»

قال : «كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، واذا أويتما الى فراشكما ، تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين...

ثم ودعها ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الالهي ، ولقنهما هذه الرياضة النفسية التي تغلب المصاعب وتهزم المتاعب...

ولقد سمع «الامام علي» بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات الرسول ويقول : «فو الله ما تركتهن منذ علمنيهن !»

سأله رجل من أصحابه: «ولا ليلة صفين؟»...

فأجاب مؤكدا: «ولا ليلة صفين!»... [1]

* * *

وتأبى سنة الله التي فطر الناس عليها، ألا تؤثر هذه الحياة الشاقة الكادحة على صحة «الزهراء» ومزاجها، وقد كان وجودها رضي الله عنها في صميم المعركة منذ طفولتها، يميل بها عن المرح والابتهاج، ثم أحزنها موت أمها أشد الحزن، وزادها وحشة وشجنا، وكانت الى جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها النبي، تفكر فيه على البعد والقرب، وتتبعه قلبها في غزواته ومعاركه. وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال، كما حدث في موقعة «أحد» اذ رؤيت هنالك تضمد الجراح وتأسو الكلوم وتسقي المحتضرين من الشهداء...

وليست هذه الظروف مجتمعة، مما يعين على بهجة وانشراح، ولعل الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء البيت النبوي، وهي ترى مثلا، أم المؤمنين عائشة، تضفي على بيت زوجها إشراقا وتبث فيه حيوية وأنسا، وتلقى البطل إذ يعود الى سكنه، بابتسامتها الوضاءة ودعابتها اللطيفة ومرحها الحلو...

وربما حاولت الزهراء كذلك، أن تنحي عن بيتها الخاص ظلال الكآبة التي كانت تغشاه لفرط نزوعها الى ذكرى أمها، ومزيد قلقها على أبيها وزوجها، وعمق تأثرها بما لقيت ولقي أهلها والمسلمون من محن واضطهاد، لكنما أعوزها – لكي تنجح في محاولتها هذه – أن تجد الى جانبها زوجا لطيفا وديعا هينا لينا، و«علي» كرم الله وجهه لم يكن من هذا الصنف من الأزواج، بل كانت فيه شدة أقرب الى أن تكون صرامة، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة، وحزما يكاد يكون صلابة، واذا كانت رضي الله عنها في حاجة الى يد حانية رقيقة، تأسو جرحها وتنسيها ما لقيت في مستهل

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الذكر والدعاء ٤/٢٠٩١. والإصابة ٨/١٥٩.

صباها من متاعب وصدمات ، وتلطف أشجانها لفراق بيتها الأول الحبيب ، فقد كان «علي» كرم الله وجهه لا يقل عنها حاجة الى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التي تنفض عنه غبار المعارك التي خاضها منذ كان صبيا...

فليس يروعنا اذن ، ما تحدث به الرواة من خلاف كان يقع أحيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ أحيانا سمع الأب الرسول فيهتم ويحاول جهده أن يغريهما بمزيد من الاحتمال...

حدثوا انه ﷺ ، رئي ذات مساء وهو يسعى الى دار بنته فاطمة ، بادي الهم والقلق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة : يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك !..

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

«وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليّ؟» (١)

وحدث مرة أن ضاقت «الزهراء» بما تجد من شدة زوجها وصلابته ، فقالت له :

«والله لأشكونك الى رسول الله ﷺ»...

وخرجت ، و«علي» في أثرها ، حتى جاءت أباها فشكت اليه ما أنكرت من زوجها ، فتلطف الأب النبيل في ترضيتها وحملها على الرفق بعلي واحتماله...

قال «علي» كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته الى بيتها :

– والله لا آتي شيئا تكرهينه أبدا ! (٢)

* * *

(١ – ٢) طبقات ابن سعد : ١٦/٨ ، والإصابة (١٦٠/٨) من طريقه.

لكنه كاد يأتي – غير متعمد – شيئا تكرهه فاطمة أشد الكره، وتألم منه أفدح الألم...

وأي شيء أبغض إلى الزهراء، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة!؟

لقد همَّ «علي» بالزواج على الزهراء، وفي حسابه أنه لا جرج عليه من حلال مباح شرعا، وأنه يجوز على بنات النبي ﷺ ما يجوز على سائر المسلمات فيما أحله الشرع للمسلمين من تعدد الأزواج. ولعله توقع أن لا يُلام على ابتلاء الزهراء بضرة لها، فلها أسوة بعائشة بنت الصديق، وحفصة بنت عمر الفاروق، وأم سلمة بنت زاد الركب. ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام، في المرأة المخزومية التي سرقت واستشفع له قومها بحِبِّه أسامة بن زيد بن حارثة:

«أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!» ثم خطب الناس فقال: «إنما أهْلَكَ الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايمُ الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعتُ يدها»(١)

* * *

لكن الأمر جرى على غير ما توقع «عليٌّ».

لم يكد يعلن عن خطبته بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، على السيدة فاطمة الزهراء، حتى غضبت رضي الله عنها وغضب لها أبوها، عليه الصلاة والسلام. وكان الموقف بالغ الدقة والحرج:

فالنبي عليه الصلاة والسلام يعلم حق «علي» في الزواج ولو على فاطمة بنت محمد...

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، ومسلم في كتاب الحدود. والنقل من (اللؤلؤ والمرجان ٢/٢١٤: ح ١١٠٠).

ومحمد، في أبوته الرحيمة وبشريته السوية، يؤذيه أن تروَّع أحبُ بناته بضرة، ويشفق عليها من تجربة قاسية، يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها...

ألا ليت «عليا» قد صبر على واحدة، أسوة بابن عمه حين اكتفى بخديجة زوجاً، مدى ربع قرن من الزمان!.. إذن لأعفى الأب النبي من الموقف الصعب...

وإني لأتمثله ﷺ، يرنو إلى بنته الغالية وهي تترقب المحنة في خوف وقهر، فتكاد لفرط أساها وقلقها، تذوب من ضعف وكمد، ويود بكل ما استطاع أن يدفع عنها ما تكره، وأن يحميها من الخوف الذي يقرح أجفانها ويروع أمنها، ويؤرق لياليها، لكن هل يحرم النّبي ما أحلَّ الله؟...

كلا! لكن للقضية وجها آخر: إن عليا ذكر بنت «عمرو بن هشام المخزومي»، فهل يرضى الله أن يجمع بيت «علي» بين بنت رسول الله، وبنت عدو الله؟

أبوها «عمرو أبو الحكم بن هشام» هو «أبو جهل» الذي لم ينس النبي والذين آمنوا معه، ما لقوا من شدة وطأته وفحش عداوته للإسلام.

هو عدو الله الذي قال لقريش: «يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فضختُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم»(١)...

وهو القائل مستهزئا بالنبي عليه الصلاة والسلام:

«يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها، تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددا، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم؟» فنزلت فيه الآية:

---

(١) السيرة: ٣١٩/١.

«وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا» (١) ...

ثم هو القائل للأخنس بن شريق، حين سأله رأيه فيما سمعه من القرآن:

«ماذا سمعت؟.. تنازعنا و بنو عبد مناف الشرف: اطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى اذا كنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء؟.. فمتى ندرك هذه؟.. والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه!..»

وهو هو الذي كان إذا سمع برجل أسلم، من ذو ي الشرف والمنعة، أنَّبه وأخزاه، وقال: «تركت دين أبيك وهو خير منك؟.. لنسفهن حلمك، ولنقبحن رأيك، ولنضعن شرفك». وان كان الذي أسلم تاجرا، قال: «والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك». وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به...

وهو هو، الذي لقي حكيم بن حزام بن خويلد، يحمل طعاما يريد به عمته خديجة في محنة الحصار، فتعلق اللعين به وقال: «أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟.. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة» وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه...

وفيه نزل قوله تعالى: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون، كغلي الحميم!» (٢) ...

وهو هو الذي اعترض وفدا من النصارى جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة، فما جلسوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به، فلقيهم إثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم: «خيَّبكم الله من ركب!.. بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم

(١، ٢) الزمخشري، الكشاف... والسيرة: ٣٣٣/١. ٢٣٥.

دينكم وصدقتموه؟!... ما نعلم ركبا أحمق منكم!»[1]...

وهو هو الذي رأى لقريش قبيل الهجرة، أن تختار كل قبيلة منها فتى شابا جليدا نسيبا، ثم يُعطى سيفا صارما، فيعمدوا جميعا الى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فيتفرق دمه في القبائل جميعا[2]...

فلما هاجر الرسول، غدا القوم وفيهم أبو جهل، فوقفوا بباب أبي بكر، فخرجت اليهم أسماء فقالوا لها:

– أين أبوك يا بنت أبي بكر؟..

أجابت: «لا أدري والله أين أبي...»

فرفع «أبو جهل» يده – وكان فاحشا خبيثا – ولطم خدها لطمة طرحت قرطها...

وحين تهيأ الفريقان للقتال في بدر، بعث جيش قريش من يأتيها بنبأ العدو، فرجع اليها محذرا، ومشى حكيم بن حزام بن خويلد الى عتبة بن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس، فكاد عتبة يستجيب له، وسأل «حكيماً» أن يذهب الى أبي الحكم، فما يخشى «عتبة» المخالفة من سواه، فلما سمع أبو جهل بهذا، ابى الا القتال!..

وكان أحد سبعةٍ، سُمع الرسول يدعو عليهم يوم بدر.

وظل – عليه الصلاة والسلام – يقول لأصحابه: اطلبوه.

وقُتل كافرا ملعونا، وجيء برأسه إلى «محمد» فحمد الله!..[3]

واستبقى عليه الصلاة والسلام، جملَ أبي جهل، حتى إذا توجه إلى مكة

(١ - ٢) السيرة: ٢٢/٢، ١٢٦، ١٣٢.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٥/٢، ١٧

معتمرا بعد أربع سنوات ، ساق الجمل هديا ، ونحره يوم الحديبية [1] ...

أتكون بنت هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبي ؟..

يأبى الله ورسوله ذلك .

وانطلق ﷺ إلى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب في صحبه قائلا :

« إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم الا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فان ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها ، وإني أتخوف أن تفتن في دينها » ...

ثم ذكر ﷺ صهره أبا العاص - وهو من بني عبد شمس ، لا من بني عبد المطلب كعلي - فأثنى عليه في مصاهرته إياه أحسن الثناء وقال :

« حدثني فصدقني ، ووعدني فأوفى لي ، وإني لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ، ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا » ...

ولقد ورد هذا الحديث في الكتب الستة الأمهات ومسند أحمد بن حنبل ، [2] ولكن أحدا من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه في المدينة .

فهل يعيينا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ، تؤمن على قول النبي ﷺ ، وترى فيه آية ناطقة بأبوته الرحيمة التي كانت مضرب الأمثال ، ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذي شاء الله أن تملأ به قلب النبي المختار ، في بيئة وأدت بناتها ؟ !..

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٩/٢

(2) صحيح البخاري ٢٩/٥٣٨ . وصحيح مسلم ١٤/٤٤ . وسنن أبي داود «كتاب ١٢» وسنن الترمذي «كتاب ٤٦» وسنن ابن ماجه : ٥٦/٩ ومسند أحمد : ٣٢٦/٤ . ٣٢٨ .

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة «علي» وهو ينصرف من المسجد إثر سماعه خطبة صهره النبي عليه الصلاة والسلام، ويأخذ طريقه إلى بيته بطيء الخطو، مثقل القلب يفكر فيما كان!؟..

أتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة، من بنت عدو الإسلام؟..

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل في سبيل الدعوة المحمدية؟.. بل كيف هان عليه أن يُروِّع أمن الحبيبة بنت الحبيب، ويكسر قلبها بزواج مثل هذا مِظَنَّة أن يؤوَّل بالرغبة في متاع حسي مادي، لا يجده لديها؟..

لقد كان لزواج المصطفى ﷺ من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة، وظروفه الملجئة، وإلا فما باله ﷺ، قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة، لم يتزوج عليها حتى ماتت وهو في الخمسين من عمره، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله، والجهاد في سبيل الدين الجديد يملأ وقته؟..

ألا فلتكن بنت أبي جهل من حظ غيره، وأما هو، فليس بالذي يحبط جهاده الباسل، فيستبدل بالنبي ﷺ، أبا جهل بن هشام صهرا!.. وليس هو بالذي يؤذي نبيه وأباه وابن عمه، في أحب بناته إليه، ولن يكون أبو العاص بن الربيع، قبل إسلامه، أبر منه ببنت محمد، ابن عمه عبد الله بن عبد المطلب، ولا أرعى في مصاهرته للنبي ذماما!..

* * *

وينتهي به المسرى إلى البيت، حيث يجد «الزهراء» في وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه الى جانبها صامتا لا يدري ماذا يقول...

واذ رآها تبكي، همس معتذرا:

- هبيني أخطأت في حقك يا فاطمة، فمثلك أهل للعفو والمغفرة...

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب: «غفر الله لك يا ابن العم».

فأقبل عليها مترفقا ، ثم راح يروي لها ما كان من حديث المسجد ، ويصف لها شعوره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وانكاره أن يتزوج «علي» من بنت أبي جهل مع الزهراء ، وقسمه ألا يجمع بنت رسول الله و بنت عدو الله بيت واحد أبدا !..

واغرورقت مقلتا «فاطمة» بالدموع» تأثرا بحب أبيها ، وانفعالا بموقفه ، ثم قامت للصلاة !..

* * *

وبقي سؤال ذو بال :

متى همَّ «علي» بالزواج على الزهراء بنت النبي ؟..

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا الى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكنا نطمئن الى أنها كانت في الفترة الأولى من زواجها ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلي ، وإنما يغرينا به فهمنا لطبيعة الموقف ، وتقديرنا أنه أقرب احتمالا ، قبل أن يرزقا الولد ، حين كانت فاطمة وعليّ في مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يُرْضِ هو نفسه على احتمال ما كانت لا تزال تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الأول !...

وبهذا الاطمئنان ، نميل الى توقيت الحادثة على وجه التقريب ، بالعام الثاني من الهجرة ، قبل أن يأتيها العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج ...

* * *

انقشعت السحابة التي ظللت أفق «الزهراء» حينا لا نحدد مداه ، وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة : فاطمة في الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ،

وعليّ الى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح في جو «المدينة» الذي لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين، ويحاول قدر ما أطاق، أن يترفق بها ويروض نفسه على شيء من اللين واليسر...

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وعيون من يحبونها، فوضعت بكرها «الحسن بن علي» في السنة الثالثة من الهجرة [1]، وسعى البشير الى أبيها النبي بالنبأ السعيد، فخف اليها مشوقا فرحا، وحمل وليدها بين ذراعيه، وتلا الأذان في مسمعه، ثم أقبل عليه يتأمله في غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام!..

واحتفلت مدينة الرسول بمولد «الحسن» وتصدق جده ﷺ على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة. ثم راح يرقب تفتح الحياة في هذه الفلذة الغالية منه، فلما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام، حتى أردفته أمه الزهراء بشقيقه «الحسين» في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة [2]...

وتفتح قلب النبي لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن أم أبيها «الزهراء»، ورأى فيهما امتداداً لحياته الخاصة على هذه الأرض، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة التي يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضي الله عنها...

كان الرسول اذ ذاك – في العام الرابع الهجري – في نحو السابعة والخمسين، وقد مضى على وفاة خديجة ما يقرب من سبع عشرة سنة، تزوج خلالها من خمس نساء: سودة بنت زمعة الكهلة الأرملة، وعائشة بنت أبي بكر الصبية العذراء، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة، وزينب بنت خزيمة أم المساكين، وأم سلمة، هند بنت أبي أمية المخزومي زاد الركب، وقد دخل بها في شوال من السنة الرابعة

(١، ٢) طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة: ترجمتا الحسن والحسين. رضي الله عنهما وانظر هما في كتاب المناقب من صحيح البخاري، والفضائل من صحيح مسلم.

للهجرة، وكان لها من زوجها الأول، عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب: سلمة، وعمر، ودرة، وزينب. ومع ذلك، لم يرزق النبي بولد من إحدى هاتيك الزوجات الخمس، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله، الا أن يكون عن طريق ابنته «الزهراء»...

فلا عجب أن أقبل الرسول على سبطيه «الحسن والحسين» يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان، ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد، على كثرة من تزوج من النساء...

بل لا عجب أن دعاهما ابنيه، فعن أنس بن مالك أنه ﷺ «كان يقول لفاطمة رضي الله عنها: ادعي لي ابنيَّ... فاذا ما جاءا اليه شمَّها وضمها»...

ونقل الترمذي في (سننه) عن «أسامة بن زيد رضي الله عنه» أنه قال:

«طرقت باب النبي ﷺ في بعض الحاجة، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله؟..

فكشفه، فاذا الحسن والحسين، وقال: هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم اني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما»...

وكان اسماهما – رضي الله عنهما – نغمة حلوة في فم أبي الزهراء، يستعذبها ولا يمل من ترديدها، وفيهما كان يجد أنسه وسلوته عمن فقد من الأبناء!..

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى، فحصر في ولدها ذرية نبيه المصطفى، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت...

كما كرم الله وجه «علي» فجعل في صلبه نسل خاتم الأنبياء، فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الأبد...

ولعل محمداً ﷺ لو خُير أي بناته تكون وعاء لنسله الطهور، وأي أصهاره يكون

أبا لأهل البيت الشريف، لاختار ما أختاره له الله !..

فعليٌّ، أقرب أصهاره اليه مكانا وأمسهم رحما، في عروقه، يجري الدم الهاشمي الأصيل، وعند عبد المطلب يلتقي نسبه بنسب الرسول، فكلاهما له حفيد...

وقد كان لمحمد عند أبي طالب منزلة الابن: كفله منذ بلغ الثامنة من عمره، حتى اذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة، ضم اليه عليا ابن العم أبي طالب، وأنزله من بيته وفي قلبه منزلة الولد.

وليس لأبي العاص بن الربيع، ولا لعثمان بن عفان، مثل هذه الآصرة من الرحم ولا تلك المكانة من القربى، وان كان لكل منهما موضعه الذي لا يسامى في قريش. ولعثمان مكانه الذي لا يجحد في الاسلام...

وكان «علي» يعرف منزلته عند صهره النبي ويعتز بها الى حد جعله يسأل الرسول ذات مرة وقد غمره فيض عطفه:

– أيهما أحب الى رسول الله: ابنته الزهراء، أم زوجها علي؟..

قال، ﷺ، متلطفا: «فاطمة أحب إليَّ منك، وأنت أعز عليَّ منها!»

وليس بمستغرب بعد هذا، أن يعي الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلي وبنيهما، ما نستطيع معه أن نتمثله ﷺ وهو يرنو الى بيت صهره «علي» كلما مر به، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا، فاذا وجد من وقته سعة، عرَّج على دار الأحبة، فأسعد أهلها بعطفه، وأسبغ على حفيديه فيضا من حنانه الغامر!

وحدث في احدى المرات أن ألفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس، والحسن يبكي ويطلب طعاما، فلم يهن على الأب الكريم أن يوقظ العزيزين النائمين، بل أسرع الى غنمة كانت تقف في ساحة الدار، فحلبها وسقى «الحسن» من لبنها حتى ارتوى!...

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا :

«أو ما علمتِ أن بكاءه يؤذيني؟..»

ولا أصف هنا ما كان لهذا الحب الأبوي من أثر بعيد عميق في إسعاد «فاطمة» التي أرهقها الحزن صغيرة ، وأنهكها العبء شابة ، بل لا أصف هنا مدى ما بعث في حياتها الزوجية التي عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا ، من بهجة وأنس واشراق. فلقد أسعد «فاطمة» أن تكون أما لهذين الولدين الأثيرين عند أبيها ﷺ ، وأرضاها أن تستطيع بفضل الله ، أن تهيِّىء لأبيها الحبيب – بعد أن انتقلت من بيته – هذه المتعة الغامرة التي يجدها في سبطيه الغاليين...

ولم يكن علي –كرم الله وجهه– أقل منها سعادة وغبطة ، فلقد سره ، بل ازدهاه ، أن تتصل به حياة ابن عمه النبي هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبي الزكي ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو بنته الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبي ، وآل بيته الأكرمين...

* * *

وتتابع الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الأولى في العام الخامس من الهجرة ، فسماها جدها «زينب» تحية لذكرى خالتها الراحلة التي لم ينسها أبوها ، ولا نسيتها أختها «فاطمة» قط !..

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد «زينب» طفلة ثانية اختار لها الرسول اسم ابنته «أم كلثوم» ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين !..

وبذلك قدر للزهراء أن تحيي بابنتيها ذكرى أختيها زينب وأم كلثوم بنتي النبي ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول «الحسن والحسين» حين عزَّ الولد...

وحفظ الله تعالى لنبيه هذا القدر من سعادة الأبوة ، فلم يفجعه في الزهراء ولا في

أحد بنيها حتى لحق - ﷺ - بالرفيق الأعلى...

لقد مات ولداه «القاسم وعبد الله» صغيرين، ثم رزقه الله على الكبر غلامه الثالث «ابراهيم» في ذي الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة، فقرت به عيناه ﷺ، لكن الفرحة لم تتم، اذ ما لبث الهلال أن غرب، وثكل النبي ﷺ ولده الثالث قبل أن يستكمل عامه الثاني، وأبوه المصطفى قد جاوز الستين من عمره!

كذلك ماتت بناته الثلاث: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وهن في ربيع العمر، وأرقدهن أبوهن الثاكل المحزون، واحدة بعد الأخرى، في ثرى يثرب الذي ضم جثمان أبيه عبد الله حين كان محمد لا يزال جنينا في رحم أمه «آمنة بنت وهب»...

وعاشت له فاطمة، كما عاش بنوها يملئون دنيا الرسول بهجة وأنسا، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التي آدها ثكل البنين والبنات، ولم يبق لها الا هذه البنت الحبيبة، تعوض أباها عمن فقد، وتعزيه عمن غاب...

عاشت «الزهراء» ليظل محمد ما عاش يجد من يدعوه: «يا أبت!»

وعاش ولداها ليظل النبي الانسان يسعد بترديد اللفظ العذب: «ابني»...

وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم، ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين، بعد أن أقام زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن ندائهما!

ووقف التاريخ الإنساني يرقب مبهورا هذا النبي الانسان، في أبوته الفيّاضة بأنقى الحب وأصفى الحنان، وأصغت الانسانية في فخر واعتزاز، الى ما تواترت به الأنباء من حديث ذلك الحب الكبير، الذي يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى من السماء!..

وما تزال حتى اليوم، وحتى غد، والى الأبد، تتلو هذا الحديث، وترى فيه آية من آيات الله الذي سوّى ذلك البطل، بشرا رسولا!

وهيهات لها أن تنسى مشهد تنسى وهو يمشي في أسواق المدينة حاملا أحد حفيديه

على كتفه ، حتى اذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه الى جانبه في رفق وأقبل يؤم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب اذ يطيل السجود على غير المألوف من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

– يا رسول الله انك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك...

فقال : «كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته !..»

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين ، عليهما قيصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل النبي ﷺ من المنبر ، فحملها و وضعها بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

– صدق الله : انما أموالكم وأولادكم فتنة !.. نظرتُ الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتها !..

أو تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفي الحسين ، وقدماه على قدميه ﷺ ، يرقصه قائلا : «ترق ، ترق» فما يزال الصبي يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك !.. فيفتحه ، ويقبله ﷺ وهو يقول : «اللهم إني أحبه ، فأحبَّه وأحبِبْ من يحبه»(١)

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما في نفر من صحابته الى طعام دعوا اليه ، فاذا بالحسين في السكة يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم الرسول أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بحفيده ، والغلام يفر هاهنا ، وهاهنا ، فما زال – عليه الصلاة والسلام – يضاحكه حتى أخذه ، فوضع احدى يديه تحت قفاه ، والأخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال : «حسين مني وأنا من حسين... أحب اللهم من أحب

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ١٨٨٢/٤ .

حسينا ! »

والناس من حوله خاشعون اجلالا ، يقول قائلهم : أراه ﷺ يصنع هذا بحفيده ، فوالله ان لي ولدا وما قبَّلته قط !..

فيرد النبي الانسان ، وقد أنكر هذه الغلظة الجافية :

« من لا يَرحم ، لا يُرحم ! »...

ويرخي الزمن للزهراء ، لتشهد أباها البطل وهو يغزو الجزيرة بالنور الجديد ويدنو من النصر المؤزر الذي وعده الله به والمسلمين ، وتمسي رضي الله عنها ذات ليلة ، وهي تتأهب للسفر الى مكة ، وقد ذاد الكرى عن عينيها قربُ الأوبة الى الوطن الذي غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت تسامر زوجها المهاجر ، وتستعيد واياه ذكريات صباهما الحلو الذي مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ، أم غيَّرها كرُّ الغداة ومر العشي ، ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لكليهما بالأمس مهدا ومرتعا ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللاً دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الشريفة ، أما يزال الحمام الأبيض الجميل يرتع في حماها آمنا ملء الحرية والطلاقة والحياة ، أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هناك مكتئبا محزونا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا ، أما تزال تذكر مَن رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين ، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟..

ومثوى خديجة ، وقبر أبي طالب ، وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة ، أما تزال محتفظة بودائعها الغالية ، أم نبشها الطغاة الكفرة وبعثروا ما بها من رفات الأعزة الراحلين ؟

واذ هما في غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض علي -كرم الله وجهه- ليرى من الطارق بليل ، وتفتح «الزهراء» عينيها وان فيهما لبقية من خدر الذكرى ، فاذا أمامها «أبو سفيان بن حرب» حامل لواء المشركين ، وزوج آكلة الأكباد التي صنعت ما صنعت بشهداء أُحُد . ثم راحت تغري قومها بنبش قبر «آمنة أم محمد» اشتفاء وحقدا...

ويتكلم «أبو سفيان» فيذكر كيف جاء الى المدينة لمّا بلغ قريش تأهب «محمد» للمسير الى مكة ، فرأى من قوة الاسلام وضخامة استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، ما روعه . فدخل على ابنته «رملة ، أم حبيبة ، زوجة الرسول» فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهةَ أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزونا حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى أبي بكر ، ثم الى عمر ، يسأله أن يكلم له الرسول ، فأبى عمر قائلا : «أأنا أشفع لكم الى رسول الله ﷺ ؟.. فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدْتكم به !»[1]

وصمت «أبو سفيان» ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبي طالب :

- يا علي ، انك أمسُّ القوم بي رحما ، واني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لي الى رسول الله...

فقال علي : «ويحك يا أبا سفيان !.. والله لقد عزم الرسول ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه...»

فالتفت «أبو سفيان» الى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير الى غلامها «الحسن» الذي استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدي أمه :

- يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري بُنيَّك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد

(١) السيرة : ٣٨/٤.

العرب الى آخر الدهر؟

أجابت في هدوء: «والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ...»

وقام «أبو سفيان» لينصرف محسورا، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال في انكسار:

– يا أبا الحسن، اني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني.

قال علي: «والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك شيئا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك»... (٢)

قال: «أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا؟»...

فصمت «علي» يفكر لحظة ثم أجاب:

– لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك...

فانصرف «أبو سفيان» وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار «علي»، وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان في عجائب القدر وتصاريف الأيام، حتى مضى شطر من الليل فناما يحلمان بالأوبة المنتظرة الى أم القرى: مقر الكعبة، ومهد الصبا، ومنزل قريش!..

* * *

وسار النبي من المدينة في عشرة آلاف من المسلمين ميمما شطر البلد الحرام الذي تسلل منه منذ ثمانية أعوام ولا أحد معه الا صاحبه وحموه الصديق...

وخرجت «الزهراء» فيمن خرج من آل الرسول، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين...

(١) السيرة: ٣٩/٤.

ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار، تلك البقعة التي كادت تلقى فيها حتفها وهي في طريقها الى دار الهجرة، مع أختها «أم كلثوم»...

وهاجت شجونها للذكرى: أين رقية، وأين زينب؟.. لقد هاجرتا مثلها من مكة، لكن إلى غير رجعة أو مآب...

وهذه هي، تعود ولم يبق لها من شقيقاتها الثلاث، غير واحدة، وثوت الأخريان في ثرى يثرب...

غير أن الأطياف بقيت معها. وهي تقترب من أم القرى، فما انفكت في غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب «مرَّ الظهران» حيث عسكر النبي بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة...

ثم لم يكد النهار يُولي، حتى أقبل «أبو سفيان بن حرب» قائد لواء المشركين، فبات ليلته بباب النبي انتظارا لأمره ﷺ في أهل مكة، فلما تنفس الصبح دخل على محمد فأسلم، ثم انطلق عائدا الى مكة فوقف بحيث يُسمع وقال:

«يا معشر قريش. هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[1]...

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام، ووقف الرسول على راحلته بذي طوى، بين كبار الصحابة، ثانيا رأسه تواضعا لله على ما أكرمه، حتى لتكاد الشعرات التي بين شفته وذقنه تمس الرَّحل...

ونظَّم دخول جيشه الى البلد العتيق، فقسمه فرقا على رأس كل منها أحد كبار الصحابة، وكانت الراية مع سعد بن عبادة، فقال الرسول لعلي «أدركه فخذ الراية

---

(١) السيرة: ٤/٤٧ - والاستيعاب: أبو سفيان بن حرب وقد فصلنا الحديث عن اسلامه في الباب الخاص بابنته «أم حبيبة، رضها» في كتاب «نساء النبي».

منه ، فكن أنت الذي تدخل بها ! » [1]

ومن قبل ، كان « علي » حامل « العقاب » في خيبر ، وهي أول راية للرسول [2] .

وكذلك حمل « علي » لواء الرسول في غزوة بني قريظة ، ولواء المهاجرين يوم أحُد [3] .

* * *

دخل المصطفى ﷺ ، يوم الفتح . من « اذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضُربت له قبّة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة » . وصحبته إليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألمَّ بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذي نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهي مهاجرة من مكّة ، فألقت بها على الأرض ...

لكن أباها ، عليه الصلاة والسلام ، لم ينس ! .. وهذا هو يعهد الى أمرائه من المسلمين ألا يقاتلوا الا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ...

وكان من هؤلاء « الحويرث بن منقذ » وقد تولى قتله زوج الزهراء ...

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهي تصغي الى هتاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا اله الا الله والله أكبر ...

* * *

(١) السيرة : ٤٨/٤ وتاريخ الطبري . فتح مكة .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٧/٢ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧/٢ .
وقد حمل « علي » بعد ذلك لواء الرسول يوم حنين « الطبقات الكبرى ١١٧/٢ » .

ثم أوى ﷺ إلى قبته، حيث كانت «الزهراء» تنتظره هناك...

حدثت أم هانئ بنت أبي طالب – وكانت زوجة لهبيرة بن أبي وهب المخزومي – قالت:

«لما نز ل رسول الله ﷺ بأعلى مكة، فرَّ اليَّ رجلان من بني مخزوم – قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام، وزهير بن أمية بن المغيرة – فدخل عليَّ أخي، علي ابن أبي طالب ورآهما فقال: والله لأقتلنهما. فأغلقت عليهما باب بيتي ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف اليَّ فقال: مرحبا وأهلا يا أم هانيء، ما جاء بك؟.. فأخبرته خبر الرجلين وخبر «علي» فقال ﷺ: قد أجرنا من أجرتِ، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما»[(١)] ...

واستراح الرسول برهة ريثما اطمأن الناس أثر موجة الفتح الدافقة، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة. فطاف به سبعا على راحلته، فلما قضى طوافه أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب في الناس خطبة الفتح، ثم قال:

«يا معشر قريش. ما ترون أني فاعل بكم؟.. قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»...

وأقبل المساء رقيقا نديا بعد نهار حار، حافل بالحركة والضجيج. فضمت «أم القرى» جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين، وعلى من نزل معهم من الأنصار وبقية المسلمين، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الضخم الذي لم تشهد قط مثله حول قائد نبي، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان...

وهناك كانت «فاطمة» غير بعيدة من أبيها البطل، ترقد ساهرة في فراشها.

---

(١) السيرة: ٥٥/٤.

يقظى لا تنام...

كم شاقها في ذلك الليل الساجي أن تتمثل أمها خديجة وهي تطل من علاها على حبيبها النبي في يومه الأغر الميمون؟!..

وكم شجاها أن تتمثل شقيقتيها الراقدتين بيثرب، تسري روحاهما الى البلد العتيق الذي لم يكتب لهما رجعة اليه، فتطيفا بمن بقي من الأهل والأحباب، وتشاركا في فرحة النصر المؤزر؟!

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة في البيت السعيد. حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو!

وكم استهواها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى، حتى تسمع صوت «بلال» يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس، فيخشع الكون لجلال الدعاء، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين الى المسجد الحرام، ليؤدوا للمرة الأولى في تاريخ الاسلام، فريضة الصبح في البيت العتيق المطهر من الأوثان!

وقال «علي» وهو يتهيأ للخروج الى صلاة الصبح:

– أما نمتِ يا أم الحسن؟

أجابت وقد غلبها التأثر:

– بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة، وكأني أشفق اذا نمت، أن يكون الأمر كله حلما في الكرى...

ثم قامت تصلي، وأغفت قليلا بعد أن طال بها السهر...

وأصبحت تمني نفسها بالعودة الى دار مولدها، ومرتع صباها وصبا «علي» ربيب النبي، ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة الى مِلك «عقيل بن أبي طالب» وقد سئل الرسول يومئذ: ألا تنزل منزلك؟

فقال: «وهل ترك لنا عقيل منزلا»؟ (١)

وتساءلت الزهراء: ترى أي دار يختار أبي لتكون لنا في مكة منزلا؟

وكذلك تساءل الأنصار، وقد ظنوا أن الرسول مقيم بمكة، لما رأوا من ابتهاجه ﷺ باسلام قريش، وحرصه على تآلفهم، وغبطته بالرجوع الى مكة بعد طول اغتراب...

وقال قائلهم: «لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه!»...

وأنشد شاعرهم «حسان بن ثابت الأنصاري» يعاتب الرسول على إيثاره قريشا وقبائل العرب بالعطاء والفيء دون الأنصار:

وأتِ الرسول فقل: يا خير مؤتمَن ... للمؤمنين اذا ما عدد البشرُ
علام تُدعى «سليم» وهي نازحة ... قُدَّام قوم هُمُ آووا وهم نصروا؟
سماهم الله أنصارا بنصرهم ... دينَ الهدَى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا في سبيل الله واعترفوا ... للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا
والناس الب علينا فيك، ليس لنا ... الا السيوف وأطراف القنا وَزَر
فما ونينا، وما خُنَّا، وما خبروا ... منا عثارا وكل الناس قد عثروا! (٢)

وبلغ الصوت مسمع «فاطمة» كما بلغ مسمعَ كل من في مكة، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده، وأشفقت من الموقف الصعب، وان اطمأنت الى أن أباها ﷺ سوف يجد منه مخرجا...

لكن أي مخرج؟

لم تدر «فاطمة» على التحديد. حتى سمعت أباها يسأل «سعد بن عبادة» وقد شكا له ما تجد الأنصار:

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٩٨/٢.

(٢) السيرة: ١٤٠/٤.

- فأين أنت من ذلك يا سعد؟

أجاب الرجل: «يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي...»

فلم تبد على النبي العربي بادرة ضيق أو ضجر، بل عطف على صاحبه وطلب اليه أن يجمع له قومه الأنصار، فلما فعل «سعد»، خرج اليهم الرسول فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟.. ألم آتكم ضلاَّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألَّف بين قلوبكم؟»...

أجابوا: «بلى، الله ورسوله أمَن وأفضل»...

قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟»...

قالوا مشفقين: «بماذا نجيبك يا رسول الله؟.. لله ولرسوله المَنُّ والفضل»...

فما راعهم الا أن قال النبي الكريم، عليه الصلاة والسلام:

«أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم: أتيتَنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك!... أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة - بقلة خضراء ناعمة - من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم الى إسلامكم؟... ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم؟... فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت شِعبا لسلكت شعب الأنصار!.. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!»...

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وهتفوا بملء ايمانهم: رضينا برسول الله قسما وحظا! (١) ...

---

(١) السيرة: ١٤٢/٤. والنقل منها. وانظر مناقب الأنصار رضي الله عنهم في الصحيحين.

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد رأوا الرسول يوشك أن ينصرف راجعا الى دار الهجرة التي اختارها منزلا ومقاما...

وراحت «الزهراء» تودع دار الصبا. وتزور قبر «خديجة» قبل أن يحين الرحيل!...

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر: جاءتها في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها الى مدينة الأنصار، في أخريات ذي الحجة من العام نفسه...

لكأنما كان الأمر كله ، كما قالت فاطمة في الليلة الأولى بعد الفتح. حلما في الكرى أو رؤيا منام...

وقد امتد الحلم الهنيء عامين ، سعدت فيهما «الزهراء» بصحبة أبيها تستجلي طلعته البهية في الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيها وزوجها ، ما شاء الله لها أن تنعم ، وقد أتيح لها في تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الأولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيها - أحفاد الرسول وأحبابه - تاركة شئون الدار لخادم جاء بها «علي» بعد أن أيسر بما ناله من غنائم الفتح والنصر!

* * *

ثم كانت اليقظة المروعة!

شكا أبو الزهراء ﷺ من مرض ألمَّ به ، في ليال بقين من صفر في السنة الحادية عشرة للهجرة ، فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت!..

غير أن «أم أبيها ، الزهراء» لم تكد تسمع بشكوى أبيها النبي ، حتى أجفلت وكأنما لسعتها نار!..

ذلك أنها ذكرت حديثا أسرَّ به ﷺ اليها منذ أيام ، وكانت قد جاءت لزيارته

وهو عند أم المؤمنين عائشة ، فلما رآها أبوها مقبلة ، أشبهَ أحدٍ به سمتا وهديا ، على ما وصفت عائشة ، هشَّ للقائها قائلا : «مرحبا بابنتي»...

ثم قبَّلها وأجلسها الى يمينه وأسرَّ اليها أنه يحسب أن قد حان أجله ، فلما بكت هوَّن عليها بقوله :(١)

«وانك أول أهل بيتي لحوقا بي» ثم أضاف : «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة؟»...

فسرَّها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت عائشة وقالت : «ما رأيت كاليوم فرحا أقرب الى حزن !» ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسرَّ به الرسول اليها . فأجابت أم أبيها :

«ما كنت لأفشي على رسول الله سرَّه !»...

وانصرفت يومئذ الى دارها ، وقد رد اليها بعضَ طمأنينتها أن رأت أباها ﷺ صحيحا معافى...

فلما بلغها بعد أيام أنه يشكو ، ساورها قلق مشوب بالخوف ، وأسرعت الى بيت أبيها وهي تحس أن قلبها قد سقط من موضعه في صدرها...

ورأته يتحامل على نفسه ، ويتجمل بالصبر ، ويدور على نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى اذا بلغ بيت «أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية» تمَّ به وجعه فدعا زوجاته اليه واستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة(٢)...

وأقامت «الزهراء» الى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال...

---

(١) صحيح البخاري : ١٢/٦٢ - وصحيح مسلم : ٦٧/٤٤ وطبقات ابن سعد . ١٦/٨ .

(٢) الاستيعاب : جـ ٨ ترجمة السيدة عائشة وانظر معه السيرة جـ ٤ وتاريخ الطبري .

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول : واكرباه !..

فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :

«وا كربي لكربك يا أبتاه ! »...

فرد عليها وهو يرنو اليها في عطف وحنو:

«لا كرب على أبيك بعد اليوم ! »...

ثم حمّ القضاء ، ولحق محمد بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد الى العزاء سبيلا !...

* * *

وأذهلها المصاب الفادح ، فما أفاقت من غشيتها الا وقد تمت البيعة «لأبي بكر الصديق» في السقيفة ، ولما يكد يمضي على وفاة الرسول غير ثمان وأربعين ساعة فحسب !..

وجمعت كيانها الممزق ، وتحاملت تسعى الى قبر الحبيب وما تقوى قدماها على حملها . حتى اذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها من عينيها اللتين قرّحها البكاء(١) ، ثم راحت تشمها وهي تقول متفجعة :

ماذا على مَن شمَّ تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا؟
صُبَّت عليَّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عُدنَ لياليا!

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها . وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها في حركة يائسة ، ثم تحدق في يديها الفارغتين ، و تمضي ، كمن فرغت من الدنيا !..

(١) صحيح البخاري : ٦٤ ك. ٨٣ باب وطبقات ابن سعد ٢/٢ومسند أحمد : ١٤١/٣ .

وأتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى اذا بلغت دارها استأذن عليها «أنس بن مالك : خادم أبيها النبي» وراح يسألها الصبر الجميل...

قالت له معاتبة : «كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله؟..»

فشهق بدمعه دون أن يجرؤ هو أو سواه على أن يعاود الحديث في الصبر والعزاء !...

الصبر والعزاء؟... كيف وكل مصاب بعد مصابها لمم !؟...

* * *

ودخل على اثره زوجها «علي» كرم الله وجهه ، وفي صحبته رجال من بني هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذي كان من أمر البيعة...

وتذاكروا بلاء «علي» في نصرة الاسلام ، ومكانه من رسول الله :

لقد شهد «علي» مع الرسول مشاهده كلها...

وكان يحمل لواء المهاجرين يوم أُحُد . ولواء الرسول يوم غزوة بني قريظة ، وحمراء الأسد ، ويوم حنين...

وحمل يوم خيبر ، أول راية للاسلام... وكان ﷺ قد اتخذها من برد لزوجه عائشة» أم المؤمنين ، وقال :

«لأدفعن الراية الى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ويفتح عليه...»

فتطاول «عمر بن الخطاب» لها واستشرف ، رجاء أن يدفعها الرسول إليه . فلما كان الغد ، دعا الرسول «عليا» ودفعها اليه [1] ...

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٨٠/٢.

ويوم الفتح. كانت الراية مع «سعد بن عبادة» فقال الرسول لعلي: «أدرِكه فخذ الراية منه، فكن أنتَ الذي تدخل بها»[1] ...

وقاد سرايا الرسول الى «فدك» في شعبان من السنة السادسة للهجرة...

والى «الفُلس: صنم طيِّىء» في السنة التاسعة...

والى «اليمن» في السنة العاشرة...

وعاد منها جميعا مظفرا منصورا...

وعلى «القصواء» ناقة الرسول المباركة، خرج «علي» الى الحج بعد الفتح بعام[2] ...

ويوم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، اصطفى «عليا» أخا.

ويوم خرج الى «بدر» غازيا، ومعه أصحابه، كل ثلاثة على جمل، اختار عليا وأبا لبابة زميلين، وقد عرضا عليه ﷺ أن يمشيا ليستريح في مركبه، فأبى وقال:

«ما أنتما أقوى على المشي مني، وما أنا أغنى عن الأجر منكما»[3]

«وتذكرا القوم أحاديث الرسول لعلي. وفي علي:

«أنت مني بمنزلة هرون من موسى»[4]

«أنت مني وأنا منك»[5]

---

(١) السيرة: ٤/٤٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/١٢١.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/١٤.

(٤) رواه البخاري، ومسلم. في المناقب والفضائل والترمذي، وبن ماجة، وابن حنبل.

(٥) رواه البخاري، والترمذي، وابن ماجة، وابن حنبل.

«أنت وليُّ كل مؤمن بعدي» [(١)]

«من كنتُ مولاه ، فعليٌّ مولاه؟» [(٢)]

«لا يحبه الا مؤمن ، ولا يبغضه الا منافق» [(٣)]

أهناك من هو أحق بالخلافة من «علي» ربيب النبي ، وابن عمه أبي طالب ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبي الحسنين ريحانتي الرسول ، وأول الناس اسلاما ، وأطولهم في الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما؟..

وأمسكت «الزهراء» صامتة لا تعقب ، ومضت أيام وهي في عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها الذي أباه عليها أبو بكر . وهل أبقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضال؟..

وكان بحيث تظل منطوية على جراحها وحزنها ، لو لم يدعها الواجب الى أن تؤدي حق زوجها وولديها عليها ، فتسعى في رد الأمر الى أهل بيت الرسول...

وحملها «علي» فوق دابة ، وخرج بها ليلا فطافت بمجالس الأمصار مجلسا مجلسا . تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فيما يطلب من حق جُحِد.

أجابوا جميعا : «يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبي بكر ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق الينا لما عدلنا به أحدا»...

فكان الامام يقول : «أفكنت أدع رسول الله في بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع في سلطانه؟» [(٤)]

---

(١) رواه الترمذي وابن حنبل.

(٢) رواه ابن حنبل ، في أكثر من موضع.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حنبل.

(٤) كان علي رضه – هو الذي غسل الجسد الشريف ، أنظر طبقات ابن سعد ٢/٦٠ ومسند أحمد : ١/٢٦٧ – والسيرة جـ ٤.

وترد فاطمة : «ما صنع أبو الحسن الا ما ينبغي ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم »...

* * *

ورجعت الى بيتها فلزمته ، فما راعها حين أصبحت الا ضجة قد علت قريبا من الباب ، وتناهى اليها صوت «عمر» يحاول أن يدخل ، وهو يقسم منذرا ، أن سوف يحمل «عليا» على البيعة اتقاء الفتنة وخوفا من تفرق كلمة المسلمين وانتثار قواهم. فصاحت الزهراء بملء لوعتها :

«يا أبت رسولَ الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة؟»...

فضج الناس بالبكاء ، ومضى «عمر» محزونا مغلوبا على أمره ، فأتى «أبا بكر» وسأله أن ينطلق معه الى «الزهراء» لعلهما يحاولان استرضاءها...

واستأذنا عليها فلم تأذن لهما . حتى جاء «علي» وأدخلها فسلما . لكنها أشاحت بوجهها عنهما واستدارت الى الحائط معرضة مغضبة...

واستطاع «أبو بكر» رضي الله عنه أن يجد صوته ويقول :

– يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب اليَّ من قرابتي ، وانك لأحب اليَّ من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك ، وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، إلا أني سمعته ﷺ يقول : لا نورَث ، ما تركنا صدقة !..

فقالت فاطمة : «أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله ﷺ ، تعرفانه وتعملان به؟..»

قالا : نعم...

قالت : نشدتكما الله . ألم تسمعا رسول الله يقول : رضى فاطمة من رضاي ،

وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني . ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟..

أجابا : بلى ، سمعناه من رسول الله ﷺ ...

قالت : فاني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه ...

فارتاعا لما سمعا ، وخرج أبو بكر الى الناس والدمع ينساب من مقلتيه ، فسألهم أن يقيلوه من بيعتهم ، لكنهم أبوا حتى لا تكون فتنة !.. (١)

* * *

ولا يذكر المؤرخون - فيما قرأت - أن الزهراء قد حاولت بعد ذلك أن تسترجع ما فات ، وانما الذي وعاه التاريخ أنها أسلمت نفسها للحزن ، فلم تُرَ قط منذ مات أبوها ﷺ ، الا محزونة باكية ...

وعز العزاء وغُلِب الصبر ، ولم يبق لها من رجاء الا أن تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل ...

وما أسرع ما لحقت به !...

أصبحت يوم الاثنين ، الثاني من رمضان سنة احدى عشرة ، فعانقت أهلها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت اليها « أم رافع » مولاة أبيها عليه الصلاة والسلام ، فقالت لها بصوت واهن خفيض :

- يا أمه ، اسكبي لي غسلا ...

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت قد نبذتها

---

(١) انظر صحيح البخاري ك ١/٥٧ وصحيح مسلم ٥٢/٣٢ وطبقات ابن سعد : جـ ٢ ، جـ ٨ . وسنن الترمذي ٤٤/١٩ .

حدادا ، ثم قالت لأم رافع :

«اجعلي فراشي في وسط البيت» ...

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهيأ للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب ...

ثم أغمضت عينيها ونامت !..

وقام «علي» فاحتملها باكيا ، ودفنها بالبقيع ، ثم ودَّعها وعاد محزونا الى صغاره ، والى البيت الذي أوحش من بعد «الزهراء» ...

وبات المسلمون محزونين ، بعد أن شيعوا إلى القبر آخر بنات النبي ﷺ ولما تمض ستة أشهر بعد وفاته ، على أرجح الأقوال (١) ...

* * *

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن في غير هذا العالم ، فضم ثرى طيبة جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها ﷺ وأخواتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، رضوان الله عليهن ...

وطوى القدر الصفحة الأولى من حياة الزهراء ، ثم ما لبث أن عاد بعد حين الى الكتاب التاريخي الحافل ، ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبيين . وخدعة الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار في حياة العقيدة الاسلامية ، وفي التاريخ المذهبي والسياسي للمسلمين !...

وتتغير الأحداث والدُول ، وتبقى «أم أبيها» ملء الحياة ، في ذريتها الطاهرة المباركة ، آل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

* * *

(١) طبقات ابن سعد : ١٧/٨ والاستيعاب والإصابة ، في ترجمتها رضي الله عنها .

الكتاب الرابع

السيدة زينب

عقيلة بني هاشم

السيدة زينب

عقيلة بني هاشم

رضي الله عنها

الإهداء

إلى أبي...

فضيلة الأستاذ «الشيخ محمد علي عبد الرحمن».

ذكرتك يا أبي وأنا أكتب كل كلمة في هذا الكتاب، فلما فرغت منه شعرت كأنما كنت معي: تكتبه لي وتمليه عليّ...

ها هو ذا، أهديه إليك، تحية ووفاء لعهد خلا، أيام كنت صبية أباهي بك لداتي وأترابي جميعاً، حين نمر «بمعهد دمياط» في طريقنا إلى المدرسة، فنراك من نافذة المعهد، في حلقة طلاب من العلم، يصغون إلى درسك بكل عقولهم وكل جوارحهم. فإذا عدنا من المدرسة، ألفيناك في حلقة أخرى من صحبك ومريديك يأخذون «العهد» عليك، ويصغون وأصغي معهم إلى حديثك المؤثر عن طريق الوصول إلى الحق، فأشعر – على صغر السن – أنني أتطاول إلى ذاك الأفق العالي الذي تحلق فيه، واستشرف له طامحه مريدة!

ولم أنس يا أبي، على بعد العهد وتطاول الأيام، مجلسك فينا تحدثنا عن آل

البيت الكرام أولئك الذين أشربتنا منذ الصغر حبهم ، وعلمتنا أن نزهو بشرف انتسابنا إليهم .

* * *

أذكرها يا أبي ليلة من ليالي شهر رجب ، وقد رأيناك تتهيأ للسفر في غد إلى القاهرة ، وأمنا الغالية – نضر الله وجهها – تترقب ساعة الوضع . فالتمسناك – أنا وشقيقتي الكبرى فاطمة – وأنت في خلوتك تتهجد ، ورجوناك أن تلغي سفرك ذاك أو ترجئه ، فقد كنا خائفتين...

قلت لنا :

– لا تخافا ولا تحزنا ، فالله معها...

ثم أفسحت لنا مكاناً إلى جانبك ، ومضيت تحدثنا عن رحلتك التي لم تكن تستطيع أن ترجئها ، لأنك تؤدي بها واجباً مفروضاً ، هو المشاركة في الاحتفال بذكرى «السيدة زينب» .

ومضى وهن من الليل ونحن في مجلسنا منك ، نسمع قصتها المؤثرة ، فلما أسفر الصبح ودعتنا وأنت تقول لأمي :

– إن وضعتها أنثى ، فسميها زينب...

ثم تركتها وإيانا ، لرعاية الله...

ومن تلك الليلة يا أبي ، وعيت اسم «السيدة زينب» وبعض ملامحها اللافتة المؤثرة ، ثم لم أنسها أبداً...

* * *

والیوم شاقني أن أكتب عن «السيدة»؛ فلما تهيأت للكتابة، ألفيتني أعود إلى أمسي ذاك البعيد، فأتمثله شاخصاً أمامي ملء الحياة، وظل هكذا: شاخصاً، ماثلاً، حاضراً حتى فرغت من الكتابة، فوضعت قلمي وأنا أشعر بشيء من الإجهاد، وغفوت حالمة، أذكر الماضي الذي ولّى وراح...

واستمرأت طعم هذا الشجن، فكدت أسلم له نفسي، لولا أني سمعت نداء طفلتيْ من بعيد، فصحوت من إغفاءتي وأنا أردد:

أبقاك الله يا أبي...

ورحم الله أمي...

عائشة

مقدمة

هذا الكتاب ليس تاريخاً بحتاً، وإن أخذ مادته كلها من مراجع تاريخية اصيلة ؛ كما أنه ليس قصة خالصة، وإن اصطنع الأسلوب القصصي - غالباً - في العرض والأداء.

وإنما هو صورة لأنثى، قدر لها أن تعيش في فترة تعج بجليل الأحداث، وأن تلعب على مسرح الدولة الإسلامية دوراً، أقل ما يوصف به أنه دور ذو شأن:

اقترن اسمها في تاريخنا، والتاريخ الإنساني، بمأساة فاجعة هي مأساة «كربلاء». وهي مأساة أجمع المؤرخون على انها كانت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الشيعة بخاصة، والتاريخ الإسلامي بعامة، ثم ذهب بعضهم بعد ذلك، إلى أنها كانت أخطر تلك المعارك جميعاً، وعدّوها الطور الحاسم الذي أصّل التشيع ومكّن له كمذهب، ومن ثم فهم يرون أن الدم المسفوح في تلك الواقعة المشؤومة، هو الذي صبغ تاريخنا السياسي والمذهبي بتلك الصبغة الدامية التي نعرفها في «مقاتل الطالبيين» ونضال «الشيعة»

ولم يجحد هؤلاء ولا أولئك دور «السيدة زينب» في المأساة، بل إن منهم من سماها «بطلة كربلاء» لأنها السيدة الأولى التي ظهرت في اللحظة الحرجة، تأسو الكلوم، وتواسي المحتضرين، وتثور للضحايا الشهداء الذين نُبذوا هنالك في العراء: أشلاء مبعثرة تنهشها الطيور والوحوش.

لكني أرى دورها الحقيقي قد بدأ بعد المأساة، إذ كان عليها أن تحمي السبايا من الهاشميات اللاتي فقدن الرجال، وأن تناضل مستميتة عن غلام مريض – هو علي زين العابدين بن الحسين – كاد لولاها أن يذبح، فتفنى بذهابه يومئذ سلالة الإمام. ثم كان عليها بعد ذلك ألا تدع الدم المسفوك يذهب هدراً...

وما أحسبني أغلو أو أسرف، إذا زعمت أن موقف السيدة زينب بعد المذبحة، هو الذي جعل من «كربلاء» مأساة خالدة!..

* * *

ولم تعش «زينب» طويلاً بعد الفاجعة، فما كان الذي كابدته من محن وآلام بحيث يحتمل أو يطاق، لكنها استطاعت في تلك الفترة القصيرة التي عاشتها، أن تشعل في نفوس الشيعة حزناً مستعراً لم يخمد لهيبه حتى اليوم، وأن ترهق الذين أسلموا آل البيت بوخز الحسرة والندم، وتجعل التكفير عن خطيئتهم ميراثاً رهيباً مقدساً، يتوارثونه جيلاً بعد جيل...

وأعود فاقول إن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون صورة لحياة تلك «السيدة» رسمها المؤرخون الثقات من قبلي، ثم جاء «المنقبيون» فأضافوا إليها ظلالاً شبه أسطورية، لها روعتها وسحرها، وعميق إيحائها، وقوة دلالتها.

وقد حرصت ما استطعت، على اصالة الألوان التاريخية في الصورة، دون أن أهدر هذه الظلال أو أهوِّن من شأنها: لأنها - مهما يكن رأي العلم والتاريخ فيها - عنصر في صورة «السيدة» كما تمثلها السابقون وكما رأوها، ولا أرى من حقي أن أسخر بأي ظل منها، إلا إذا كان من حق الدارس النفسي أن يسخر بالأوهام والأحلام.

وكل عملي في الكتاب، أني ألفت بين الألوان التاريخية والظلال شبه الأسطورية، لأجلو منها صورة لتلك التي شاركت في صنع تاريخنا الإسلامي، وذهبت في تاريخ الإنسانية قصة وعبرة ومثلاً...

المبحث الأول

في بيت النبوّة

- آبَاء وأجْدَاد
- ظِلال على المهْد
- الصّبا الحزين

آباءٌ وأجدادٌ

كان البيت الكريم ينتظر ساعة الوضع في لهفة وترقب، ومن ورائه عشرات الألوف ممن أسلموا، يترقبون النبأ السعيد وقلوبهم تحف بالسيدة الوالدة إجلالاً ومحبة، وألسنتهم تلهج لها بالدعاء الحار!..

إنها «الزهراء» بنت النبي، توشك أن تضع في بيت النبوة مولوداً جديداً، بعد أن أقرت عيني الرسول بسبطيه الحبيبين: الحسن، والحسين، وثالث لم يقدر له أن يعيش، هو المحسن بن علي.

وحانت الساعة المرتقبة...

وأذيعت البشرى أن «الزهراء» قد وضعت أنثى باركها النبي واختار لها اسم «زينب» إحياءً لذكرى ابنته الراحلة «زينب» التي كانت قد توفيت قبل ولادة الطفلة بقليل، فوجد الرسول عليها، وحزن لفقدها حزناً ثقيلاً!..

تلك الراحلة، هي كبرى بناته ﷺ، تزوجت ابن خالتها «أبا العاص بن الربيع ابن عبد العزى بن عبد شمس» قبل النبوة، فلما كان المبعث أسلمت هي ولم يسلم، على أنه ظل رفيقاً بها محباً لها، وأبى أن يستجيب لطلب قريش أن يفارقها كما فعل ابنا

«أبي لهب» زوجا أختيها «رقية. وأُم كلثوم». حتى كانت غزوة «بدر» وأسر «أبو العاص» فيمن أسر من مقاتلة قريش، فأرسلت «زينب» – وهي لا تزال بمكة – تفتديه، وبعثت قلادة كانت أمها «خديجة» – رضي الله عنها – قد أهدتها إليها يوم زواجها بأبي العاص، فلما رأى الرسول ﷺ القلادة، رق قلبه لها وقال لصحبه المسلمين:

– إن رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا.

قالوا: نعم يا رسول الله...

وأطلق النبي أسيره، على أن يرسل «زينب» إلى المدينة، فما عاد لها مكان في بيت «أبي العاص» وقد فرق إسلامها بينها وبينه.

وعادت «زينب» إلى المدينة تطوي جوانحها على شجو وشجن، وبقي «أبو العاص» بمكة، يغالب شوقه إلى زوجه النائية.

ثم خرج من بعد ذلك في تجارة إلى الشام، فأسرته حين عودته سرية للمسلمين، غلبت على القافلة المكية بمن فيها من رجال وعير ومال، لكن «أبا العاص» تمكن من الإفلات ودخل «المدينة» مستخفياً يلتمس زوجه «زينب». فلما بلغ دارها، لاذ بها مستجيراً فرحبت به وأمنت روعه، ثم تمهلت حتى صلى الرسول صلاة الصبح فصاحت بأعلى صوتها:

– أيها المسلمون، إني قد أجرت «أبا العاص بن الربيع».

وتناهى صوتها إلى أبيها فمس قلبه، وأقبل على من حوله يسألهم:

- هل سمعتم ما سمعت؟

أجابوا: نعم.

قال: فو الذي نفسي بيده ما علمت بذلك حتى سمعت ما سمعتم!

ثم صمت برهة، عاد بعدها يردد ما قرره من قبل:

«يجير على المسلمين أدناهم...»

وقام يسير صامتاً، متمهلاً، حتى دخل على ابنته «زينب»، وهي جالسة تترقب، وكأنها تصغي إلى صدى صيحتها...

قال لها أبوها:

- أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له!

قالت وقد هزها الفرح:

- أي وربي، ولكن، هل رددتم عليه ماله؟

فلم يجب أبوها، وإنما انطلق عائداً إلى صحبه، فدعا إليه رجال السرية التي أسرت قافلة قريش وقال:

- إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، وهو مما أفاء الله عليكم به، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإن أبيتم فأنتم أحق.

قالوا: بل نرده عليه.

وودع «أبو العاص» تلك التي كانت زوجه...

وأثنى على ذلك الذي كان صديقه وزوج خالته.

وانطلق إلى «مكة» وقد اعتزم أمراً...

وهناك، أدى إلى الناس ما كان في عهدته من أمانات لهم، ثم تساءل عما إذا كان لأحد في ذمته بقية مال؟

أجابوا: لا.

قال: إذن فاعلموا أني قد أسلمت...

وقفل راجعاً من حيث جاء: إلى «المدينة» ليبايع صاحبه، ويتزوج «بزينب» مرة ثانية.

لكن «زينب» ما لبثت أن ماتت متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من «مكة» إلى «المدينة» بعد غزوة «بدر»، ذلك أن أحد المشركين لقيها وهي في الطريق إلى دار الهجرة، فنخسها في بطنها وكانت حاملاً فأسقط حملها.

ماتت، وظل أبوها يجد في قلبه لوعة الحزن، حتى إذا ما ولدت أختها «الزهراء» أنثاها الأولى، سماها «زينب».

* * *

وتعالى هتاف «المدينة» للوليدة: مدينة الرسول التي استقبلته منذ ستة أعوام مهاجراً بدينه إليها من «مكة» بعد اضطهاد مرير دام ثلاثة عشر عاماً، فتلقاه أهلها في حماسة منقطعة النظير، وأنزلوه وصحبه المهاجرين منزلة عزيزة ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يذكرها ما عاش لأولئك الأنصار الذين آووه ومنعوه وأتاحوا له أن

يذيع رسالة السماء.

أجل، تعالى هتاف «المدينة» في العام السادس من الهجرة، للوليدة الغالية «زينب بنت علي» تلك التي تلاقى فيها أعز ما عرفت قريش والعرب من كريم الأصول ونقي السلالات.

* * *

أمها «الزهراء»: أحب بنات الرسول إليه وأشبههن به في خُلق وخَلق، آثرها الله بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث: زينب، ورقية، وأم كلثوم، فكتب لها أن تكون – وحدها – الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من آل البيت...!

* * *

وأبوها «علي بن أبي طالب» ابن عم النبي ووصيه، وأول من آمن به صبياً، وفتى قريش شجاعة وتقى وعلماً.

* * *

وجدّاها لأمها «محمد رسول الله» و«خديجة بنت خويلد»: أولى أمهات المؤمنين، وأقرب زوجات النبي إليه وأعزهن عليه حية وميتة، انفردت بحبه واعزازه خمساً وعشرين سنة، لا تشاركها فيه امرأة أخرى، ووقفت إلى جانبه في سني الاضطهاد الأولى تؤازره وترعاه، وتهوِّن عليه ما يلقى من قريش في سبيل رسالته.

كانت وحدها إلى جانب «محمد» لما آب من غار «حراء» مرتعداً مقروراً وقد نزل

عليه أمين الوحي رسولاً من عند الله ، يلقي إلى الأمي اليتيم الآية الأولى :

«إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم».

ولدى «خديجة» – قبل سواها – سكنت نفسه واطمأنت ، وزايله ما عراه من رهبة الوحي ، فعلم أنه المصطفى المختار للأمر الجليل ، وهي إلى جانبه مؤمنة مصدقة ، واثقة راجية ، محبة متفانية ، لا يزعزع ثقتها فيه وإيمانها به أن قريشاً تنكر ما جاء به ، وأن شيوخ قومها قد يظنون به الظنون ويتهمونه بالسحر أو بالجنون ، فكانت ثقتها في الرجل الذي أحبته وصدقته وآمنت به حتى الرمق الأخير ، تضفي كما يقول «بودلي» في كتابه (الرسول) – جواً من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد من كل ستة من سكان العالم.

وما كانت «خديجة» في سن تهون عليها احتمال المتاعب والآلام ، ولا كانت قد تعودت طوال حياتها شظف العيش أو شقوة الحرمان ، لكنها رضيت – وهي في تلك السن العالية – أن تستبدل بحياتها الناعمة المترفة الهادئة ، حياة القلق والخشونة والكفاح ، واحتملت في بطولة ، محنة الحصار الذي فرضه القرشيون على بني هاشم حتى كادوا يهلكونهم جوعاً !

ولقد ماتت «خديجة» ومحنة الاضطهاد في إبانها ، لكنها كانت قد مكنت للدعوة وتركت إلى جانب رجلها صحابة مخلصين ، يؤمنون به ويؤثرون الموت على التخلي عنه. وكان فقدها في هذه الفترة العصيبة بدء مرحلة من مراحل الجهاد ، إذ نبا بالرسول بعدها مكانه بمكة ، فكانت «الهجرة» التي يؤرخ بها المسلمون حتى اليوم ، وإلى الأبد.

هاجر وفي قلبه ذكرى باقية لتلك الحبيبة الأولى ، ولم تستطع واحدة من زوجاته اللواتي جئن بعدها – حتى عائشة نفسها – أن تمحو هذه الذكرى الحية في قلب محمد ﷺ ، أو تؤذي جلالها : أقبلت « هالة » – أخت خديجة – ذات يوم لزيارة الرسول في « المدينة » ، فلما سمع « محمد » صوتها في فناء دوره – وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة – اهتز انفعالاً وشجواً ، فقالت له « عائشة » بعد انصراف « هالة » :

– ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ !

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام ، ورد على « عائشة » زاجراً :

– والله ما أبدلني الله خيراً منها : آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ...

* * *

وجدّ « زينب » لأبيها ، أبو طالب بن عبد المطلب : عم الرسول بل أبوه ، فلقد مات « عبد الله » و« محمد » جنين في بطن أمه ، ومات « عبد المطلب » وحفيده غلام في السابعة أو نحوها ، فكفله عمه « أبو طالب » ، وكان له الأب والحامي والصديق ، لم يتخل عنه لحظة في سني المحنة كما فعل عمه « أبو لهب » ذاك الذي كان أشد على ابن أخيه « محمد » من المشركين البعداء وكانت زوجه « أم جميل » تحمل إليه الحطب فيقذف به « محمداً » وهو يسبه ويلعنه ، ولقد أبى – وأبت زوجه – أن يُظل سقفُ بيتهما ابنتي الرسول « رقية وام كلثوم » اللتين تزوجها « عتبة وعتيبة ، ابنا أبي لهب » قبل المبعث ، فطلقها ليتزوجها « عثمان بن عفان » الواحدة بعد وفاة أختها .

أجل، لم يتخل «أبو طالب» عن ابن أخيه كما فعل «أبو لهب» ولم يسلمه إلى أشراف قريش عندما ألحوا في طلبه. وإنه ليصغي إلى «محمد» يقول:

«والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه».

فيتناول الشيخ يد ولده في حنو وتأثر وهو يقول:

- اذهب وقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً! وصدق وعده...

ظل يحميه إبان المحنة، غير مكترث بإنذار قريش أن تنفي الهاشميين جميعاً إذا لم يسلموا ابنهم «محمداً» ليقتل.

وإلى شعب «أبي طالب» أوى «محمد» وزوجه وأصحابه وعشيرته، طوال الفترة التي حاصرهم فيها القرشيون وحاولوا القضاء عليهم جوعاً. ثم مات «أبو طالب» بعد أن ماتت «خديجة» بقليل، ففقد الرسول بموتهما أحب اثنين إليه وأقدرهم على تأييده، فكانت الهجرة...

* * *

وجدة زينب لأبيها: «فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف» زوجة أبي طالب عم الرسول، وأول هاشمية تزوجت هاشمياً وولدت له، أدركت النبي ﷺ فأسلمت وحسن إسلامها، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها، وصلى عليها، ونزل في لحدها، واضطجع معها فيه، وأحسن الثناء عليها. ذكر «ابن سعد» في (طبقاته) و«ابن هشام» في (السيرة) و«أبو الفرج الأصبهاني» في (مقاتل الطالبيين) عن «ابن عباس» رضي الله عنه أنه قال: «لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب، ألبسها رسول الله ﷺ قميصه، واضطجع معها في قبرها، فقال له

أصحابه : يا رسول الله ، ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه المرأة. فقال : إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها ، إني إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها في قبرها ليهون عليها».

وكانت «فاطمة» هذه تقابل بزوجة عم آخر للنبي قدر لها أن تذكر في (القرآن الخالد) ولكن أي ذكر ! ؟ انها «أم جميل بنت حرب» ! ! وهو اسم قد يبدو غريباً على مسمع كثيرين ، حتى من هؤلاء الذين يعرفون التاريخ الإسلامي ويقرأون القرآن ، لكنها غرابة لا تلبث أن تزول إذا علمنا أنها حمالة الحطب «زوجة أبي لهب» ، عم الرسول ، وفيها وفي زوجها قال الله تعالى في كتابه المنزل على محمد ﷺ :

«تبّت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد».

* * *

وجد «زينب» الأعلى لأبويها علي وفاضمة ، «عبد المطلب بن هاشم» : أمين الكعبة وصاحب السقاية والرفادة ، انتقل إليه هذا الشرف عن آبائه وأجداده كابراً عن كابر ، فما كان لأحد من غير أسرته – إلى مئات السنين – أن يتولى حراسة الكعبة وسقاية الحجيج.

منعه الله من «أبرهة» حين هاجمه في جيش من الأحباش والفيلة ، فجعل الله كيدهم في تضليل «وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول».

* * *

ظِلالٌ على المهدِ

تلك هي الوليدة التي استقبلتها «مدينة الرسول» في العام السادس للهجرة ، وهو العام الذي شهد استقرار الأمر لصاحب الدعوة ، وخروجه على ناقته القصواء — التي جاءت به من «مكة» أيام الاضطهاد مع صاحب واحد ، شيخ مخلص — في ألف وخمسمائة من صحابته المهاجرين والأنصار ، في ملابس الإحرام البيضاء ، يريدون «مكة» — معقل أعداء محمد والإسلام — ثم يعودون ظافرين بصلح «الحديبية» مع «أبي سفيان» والمشركين من قريش .

* * *

وبدا كأن كل شيء يعد الوليدة بحياة سعيدة ، وأقبل المهنئون من بني هاشم والصحابة ، يباركون هذه الزهرة المتفتحة في بيت الرسول ، تنشر في المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح في طلعتها المشرقة ووجهها الصبيح ، ملامح آباء وأجداد لها كرام .

لكنهم فوجئوا — لو صدقت الأخبار — بظلال حزينة تلف المهد الجميل ! ظلال ربما لا يكون لأكثرها مكان في كتاب تاريخ يكتب للتحقيق العلمي ، لكن لها مكانها في النفس البشرية ووقعها على الوجدان .

حدثوا أن نبوءة ذاعت عند مولد الطفلة ، تشير إلى دورها الفاجع في مأساة «كربلاء» ، وتحدث بظهر الغيب عما ينتظرها في غدها من محن وآلام.

كانت المأساة معروفة فيما يقولون ، قبل موعدها بأكثر من نصف قرن من الزمان ، ففي (سنن ابن حنبل : ٨٥/١) أن جبريل أخبر «محمداً» ﷺ بمصرع الحسين وآل بيته في كربلاء.

وينقل «ابن الأثير» في (الكامل) أن الرسول أعطى زوجه «أم سلمة» تراباً حمله له أمين الوحي من التربة التي سيراق فوقها دم «الحسين» وقال لها ﷺ : «إذا صار هذا التراب دماً فقد قتل الحسين» وأن «أم سلمة» حفظت ذلك التراب في قارورة عندها فلما قتل «الحسين» صار التراب دماً ، فعلمت أن «الحسين» قتل ، وأذاعت في الناس النبأ.

وسوف نسمع المؤرخين بعد ذلك في حوادث عامي ٦٠ ، ٦١ ، يذكرون أن «زهير بن القين البجلي» – وهو عثماني الهوى – خرج من «مكة» بعد أن حج عام ٦٠ ، فصادف خروجه مسير «الحسين» إلى العراق ، فكان «زهير» يساير «الحسين» إلا أنه لا ينز ل معه ، فاستدعاه ««الحسين» يوماً فشق عليه ذلك ، ثم أجابه ، فلما خرج من عنده أقبل على أصحابه فقال : «من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد».

ثم راح يروي لهم قصة قديمة من عهد الرسول : قال «زهير» إنه خرج مع جماعة من المسلمين في غزوة لهم فظفروا وأصابوا غنائم فرحوا بها ، وكان معهم «سلمان الفارسي» فأشار إلى أن «الحسين» سيقاتل يوماً ويقتل ، ثم قال سلمان لأصحابه «إذا

أدركتم سيد شباب أهل محمد ، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه ، منكم بما أصبتم اليوم من الغنائم ».

قال ابن الأثير : وتوجّه زهير – بعد أن حدَّث أصحابه بحديث سلمان الفارسي – فودع أهله ، وطلق زوجته مخافة أن يلحقها أذى ، ولزم الحسين حتى قتل معه ».

وكان « الحسين » – فيما يروي المؤرخون – يعلم منذ طفولته بما قدر له ، كما كان دور أخته « زينب » حديث القوم منذ ولدت . فهم يذكرون أن « سلمان الفارسي » أقبل على « علي بن أبي طالب » يهنئه بوليدته ، فألفاه واجماً حزيناً ، يتحدث عما سوف تلقى ابنته في كربلاء...

وبكى « علي » : الفارس الشجاع ، ذو اللواء المنصور ، والملقب بأسد الإسلام !

* * *

أكانت هذه المرويات جميعاً من مخترعات الرواة ومبتدعات السمار؟ .

أكانت من إضافات المنقبين وتصورات المتحدثين عن الكرامات ؟ .

أكانت من شطحات الواهمين ورؤى المغرقين في الخيال ؟

ذلك ما اطمأن إليه المستشرقون وقرره « رونالدسون » في كتابه (عقيدة الشيعة) . و« لامنس » في (فاطمة وبنات محمد) .

أما المؤرخون المسلمون فما يشك أكثرهم في أن هذه المرويات كلها صادقة لا ريب فيها ، وقلَّ منهم من وقف عند خبر منها مرتاباً أو متسائلاً . وليس الأقدمون وحدهم هم الذين نزهوا مثل هذه المرويات عن الشك ، بل إن من كتَّاب العصر من

لا يقل عنهم إيماناً بتلك الظلال التي أحاطت بمولد «زينب». فهذا الكاتب الهندي المسلم «محمد الحاج سالمين» يصف في الفصل الأول من كتابه (سيدة زينب Sayyidah Zeinab) كيف استقبلت الوليدة بالدموع والهموم، ثم يمضي – بعد أن ينقل بعض المرويات عن النبوءة المشئومة – فيتمثل «النبي العظيم وقد انحنى على حفيدته يقبلها بقلب حزين وعينين دامعتين، عالماً بتلك الأيام السود التي تنتظرها وراء الحجب».

ويمضي «سالمين» فيتساءل: «ترى إلى أي مدى كان حزنه ﷺ حين رأى بظهر الغيب تلك المذبحة الشنعاء التي تنتظر سبطه الغالي! وكم اهتز قلبه الرقيق الحاني وهو يطالع في وجه الوليدة الحلوة، صورة المصير الفاجع المنتظر؟!».

أما نحن فلا نحيل أن يكون شيء من هذه الشائعة قد شاع، ثم هي اليوم – بعدما كانت – ظلال على الصورة المعروضة يجمل بها التلوين، وانها لظلال يلقي مثلها على مهد الوليدة، كآبة ووجوماً، ويثير لها أعمق عواطف الرحمة والرثاء.

* * *

ونستطيع أن نضيف إلى هذا، أن «الزهراء» لم تكن أيام الحمل مشرقة مطمئنة، فلقد كانت تعتادها من حين إلى حين، نوبات من القلق والاكتئاب، وهي نوبات قديمة غير طارئة، لعلها بدأت بموت أمها «خديجة» رضي الله عنها، ثم أخذت تزداد في بطء، منذ جاءت «عائشة» إلى بيت الرسول وشغلت مكان الأم الراحلة، وهو المكان الذي ترك بضع سنين لفاطمة، الابنة الأثيرة المحببة.

ثم كان بين الابنة وزوجة الأب، ما يشبه الذي يكون بين مثيلاتهما في الناس، وهو ما اعترفت به «عائشة» بعد سنين، وتحدث عنه بعض الغربيين، أذكر منهم

«بودلي» في كتابة (الرسول) و«لامنس» في كتابه (فاطمة وبنات محمد) فجعلوا في دور النبي معسكرين: أحدهما معسكر «عائشة» الزوجة المدللة، والآخر معسكر «فاطمة» الابنة المفضلة

وليس ببعيد أن يكون لحالة الحمل أثر في اشتداد ما كانت «فاطمة» تعاني من ذاك، مع ما تجد لفقد الأم...

* * *

ونرمق «زينب» وهي تدرج في ساحة البيت الشريف، محوطة برعاية خاصة من جدها العظيم، وعطف سابغ من آلها الكرام، فنراها على البعد صبية حلوة في حضانة «الزهراء» تتلقى عنها الدروس الأولى في الحياة، فإذا جاوزت دور الحضانة ألفت أمامها أعظم من أنجبتهم الجزيرة في زمانها من المعلمين، جدها صاحب الرسالة، وأباها الفارس أمير البيان، والعلماء الفقهاء من الصحابة الكرام.

ولم تظفر صبية من لداتها – فيما نحسب – بمثل ما ظفرت هي به في تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية، وكان هذا كله بحيث يرضي «زينب» في صباها ويتيح لنا أن نراها مرحة مزهوة، ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال إنها عرفت النبوءة الأليمة: قيل أنها كانت تتلو شيئاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها، فبدا لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل، ثم استطرد – متأثراً بذكائها اللامع – يلمح إلى ما ينتظرها في مستقبل أيامها من دور ذي خطر. ولشد ما كانت دهشته حين قالت له «زينب» في جد رصين:

– أعرف ذلك يا أبي... أخبرتني به أمي، كما تهيئني لغدي.

ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتاً وقلبه يخفق رحمة وحناناً .

وأراني قد تناولت الحديث عن صبا « زينب » لألمح امتداد هاتيك الظلال الهائمة حول مهدها . فلأترك هذا إلى حين ، ولأعد إلى طفولتها الباكرة ، فأراها تستقبل من الأحداث الكبرى ظلال الواقع ، ولما تزل طفلة في الخامسة من عمرها !

* * *

الصّبا الحزين

لم تكن «زينب» جاوزت الخامسة، حين لبّى جدها ﷺ نداء ربه، وثوى جسده الطاهر في غرفة «عائشة» بعد أن فتح «مكة» وطهَّر البيت الحرام من الأوثان، وتلقى بيعة قومه الذين دخلوا في دين الله أفواجاً.

ولعل الطفلة تابعت المشهد الرهيب ورأت جدها العزيز يُحمل على الآلة الحدباء حتى يوارى الثرى. ولن نمضي مع المنقبين فنقول إنها أدركت في هذه الحداثة الغضة، مغزى تلك الرحلة الأليمة المحتومة، أو فهمت مدار ذلك الصراع بين الصديقين الصاحبين: «عمر وأبي بكر»، يصيح أولهما:

– إن محمداً لم يمت، ووالله ليرجعن كما رجع موسى!

فيجيبه صاحبه:

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين».

ثم إذا رأى إصرار صاحبه، صاح في الجمع الحاشد:

– من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

أجل ، لا أقول إن بنت الخامسة أدركت مغزى هذا أو ذاك ، ولكنها رأت – دون شك – مشاهد الذهول والحزن والجزع ، وأصغت إلى عويل الباكيات وصراخ المفجوعين. ومن يدري ما الذي كان يدور بخلد الصغيرة الذكية وهي تلفي جدها الكبير صامتاً في تلك المناحة المفجعة ، ساكناً والدنيا من حوله ضاجة صاخبة ، هائجة مائجة ، ثائرة فائرة ، كأنما قد لفها إعصار؟ !.

أي خوف غامض قد غزا قلبها الخلي إذ ذاك ، وروَّع روحها الساذجة الآمنة؟.

أي طائف من الحزن المبهم قد طاف بها في عامها الخامس فأسمعها لحن الموت ، وأراها موكب الرحيل؟.

اني لأتمثلها واقفة هناك ، تشهد جدها في ضجعة الموت ، وترى رأسه يسقط في حجر «عائشة» فتضعه في رفق على وسادة ، وتسبل عليه ثيابه ، وتغمض عينيه ، وتقبل الجبين العزيز ، ثم تنطلق إلى الرحبة فيرتفع الصياح والعويل ، متنقلاً من حجرة «عائشة» إلى دور النبي ، ومنتشراً من بعد ذلك إلى «أُحد» ، و«قباء».

ويغسل الجسد ويطيّب بالمسك ، ويكفن بأثواب ثلاثة ، ثم يؤذن للناس فيدخلون جماعات ليودعوا أعزّ راحل...

أتمثلها هناك... تحدق في القوم وهم يحفرون حفرة عميقة في حجرة الزاوية الأثيرة ، ثم يأتي ثلاثة من الصحابة – تعرف فيهم زينب أباها علياً – فيدلون الجسد في الحفرة مترفقين ويبنون لبنات فوقه ، ثم... يهال الرمل والتراب !..

أتمثلها كذلك، ثم أرنو إليها وهي تلوذ بحضن أمها «الزهراء» تلتمس مأمناً من خوف وفزع، فإذا الأم حزينة ولهى، ذاهبة الصبر، مصدعة الكيان.

وتنعطف الطفلة إلى أبيها، فتراه بادي الهم والحزن، يتحدث شاكياً عن حقٍ للأسرة اغتصب، ومكانة جحدت، وقُربى من الرسول أهدرت، وينظر في قلق وجزع إلى زوجه الغالية، وقد أضناها حزنها على أبيها، وآلمها جحود القوم لحقها، فهي تخرج في المساء على دابة يقودها «علي» وتطوف بمجالس الأنصار مجلساً مجلساً، تطلب لزوجها النصرة والتأييد، فإذا جوابهم جميعاً:

– يا بنت رسول الله، لقد مضت بيعتنا لهذا الرجل – يعنون أبا بكر – ولو أن علياً سبق إلينا لما عدلنا به.

فيقول ابن عم النبي:

– أفكنت أدع رسول الله في بيته ولم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟

وتعقب «الزهراء»:

– ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم.

* * *

حدث هذا بمرأى من الصبية أو مسمع، وما أحسبها نسيت مع الأيام، مشهداً أليماً طالعته في صباها حينذاك، يوم حاول «عمر بن الخطاب» أن يقتحم بيت «الزهراء» كي يحمل «علياً» على البيعة «لأبي بكر» خشية تفرق الكلمة وتمزق الشمل، فلما سمعت «فاطمة» أصوات القوم تقترب نادت بأعلى صوتها:

– يا أبت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من «ابن الخطاب» و«ابن أبي قحافة» ؟

فانصرف القوم باكين ، ومضى «عمر» محزوناً يسأل «أبا بكر» أن ينطلق معه إلى «فاطمة» ليسترضياها .

وانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا «علياً» فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما أخذا مجلسيهما حولت «فاطمة» وجهها إلى الحائط ، دون أن ترد عليهما السلام !

وتكلم «أبو بكر» فقال :

– يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي ، وإنك أحب إلي من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، إلا أني سمعته ﷺ وآله يقول :

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة» .

فأدارت «فاطمة» إليهما وجهها الشاحب الحزين وسألت :

– أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ وآله تعرفانه وتعملان به ؟

قالا معاً : «نعم» .

فقالت :

– نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : «رضا فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد

أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟».

قالا : «نعم سمعناه من رسول الله ﷺ وآله».

قالت :

– فإني أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما إليه.

وعادت فأشاحت بوجهها الحزين.

وخرج الزائران يبكيان!..

حتى إذا لقيا القوم، سألهم «أبو بكر» أن يقيلوه من البيعة فأبوا...

* * *

وتمضي الأيام التي أعقبت وفاة الرسول ، كئيبة مثقلة بالأحزان و«زينب» جالسة إلى فراش أمها العليلة بادية اللهفة والخوف والإشفاق.

وغشيت البيت سحب من الوجوم والانقباض «فما يذكر التاريخ أن فاطمة ضحكت بعد وفاة والدها حتى لحقت به» ، وما يعرف أنها غادرت مخدعها إلا إلى قبر الرسول ، تندبه وتبكيه ، وتأخذ بيدها حفنة من تراب القبر فتجعلها على عينيها ووجهها وهي تنشج :

ماذا على من شمّ تربة «أحمد» ألا يشم مدى الزمان غواليا

صبت عليَّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

فيبكي الناس لبكائها.

وجرؤ «أنس بن مالك» يوماً فاستأذن على «فاطمة» ومضى يتوسل إليها أن تترفق بنفسها، وأن تلوذ بالصبر الجميل على المصاب الجليل، فتجيبه سائلة:

-كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله؟

فيبكي «أنس» بكاء شديداً، وينصرف عنها متفجعاً ملتاعاً.

وضربوا بها المثل في الحزن، وعدوها من البكائين الخمسة أو الستة في التاريخ بكى «آدم» ندماً، وبكى «نوح» قومه، وبكى «يعقوب» ابنه «يوسف»، وبكى «يحيى» خوف النار، وبكت «فاطمة» أباها.

وسيأتي حفيدها بعدها فيأخذ مكانه إلى جانبها في هذه السلسلة الأليمة للبكائين، ويضاف اسمه إلى أسمائهم فيقال: «... وبكى علي زين العابدين أباه الحسين».

* * *

ثم أدركتها رحمة الله فلحقت بأبيها بعد قليل: قيل بعد ستة اشهر، وقيل بل ثلاثة، وقيل بل أقل من ذاك.

وتكرر المشهد أمام «زينب».

ولكنها في هذه المرة كانت أنضج إدراكاً وأرهف حساً، وفقد الأم جدير بأن ينضج الوعي ويذيق الطفولة مرارة الكأس.

لم يعد خوفها غامضاً ولا حزنها مبهماً. فهي تعرف أن أمها ترحل إلى غير عودة،

وتمضي إلى غير رجعة، وهذه هي – الابنة الباكية – تحدق في القوم وهم يودعون جثة أمها «الزهراء» في ثرى «البقيع»، ثم يهيلون الرمل والتراب، كما فعلوا بجدها ﷺ من قبل...

وتصغي «زينب» يومئذ إلى أبيها، وقد تمهل عند قبر «الزهراء» يندبها مودعاً:

«السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك. قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي، إلا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز!

«إنا لله وإنا إليه راجعون» فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فسهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم.

«والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم! فإن أنصرف فلا عن ملالة، وان أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين».

* * *

وتعود «زينب» إلى الدار. فتلفي الدار من أمها قفراً.

وتفتقدها إذا جن الليل وإذا طلع النهار، فلا تجد إلا الوحشة والفراغ...

ويحدثها قلبها أن قد فقدت أعز وأجمل ما في الحياة، فتحس لذلك ألماً مرهقاً يحاول أبوها أن يخففه عنها بفيض من رعايته.

وقد وفدت على دار «علي بن أبي طالب» من بعد وفاة «فاطمة» زوجات أخريات:

«أم البنين بنت خزام» وقد ولدت لعلي : العباس ، وجعفراً ، وعبدالله ، وعثمان .

وليلى بنت مسعود بن خالد النهشلي التميمي ، وقد ولدت له : عبيدالله ، وأبا بكر .

وأسماء بنت عميس ، وقد ولدت له : محمداً الأصغر ويحيى .

والصهباء بنت ربيعة التغلبية ، وقد ولدت له : عمر ، ورقية .

وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع – وأمها زينب بنت الرسول ﷺ – فولدت له : محمداً الأوسط .

وخولة بنت جعفر الحنفية ، فولدت له : محمداً الأكبر المعروف بابن الحنفية .

وأم سعيد ابنة عروة بن مسعود الثقفية ، وقد ولدت له : أم الحسن ورملة الكبرى .

ومخبأة بنت امرىء القيس بن عدي الكلبية ، وقد ولدت له : بنتاً ماتت صغيرة .

وفدت هؤلاء الزوجات – وغيرهن من الجواري والإماء – لكن مكان «الزهراء» ظل شاغراً في بيت «علي» ، أما في قلوب أبنائها : الحسن ، والحسين ، وزينب ، وأم كلثوم ، فهو أبداً شاغر...

وتريد الرواية أن تنفرد «زينب» من دون هؤلاء الأشقاء ، بوصية من أمها «فاطمة» على فراش الموت وهي : «أن تصحب أخويها وترعاهما وتكون لهما من بعدها أماً» .

ولم تنس «زينب» هذه الوصية أبداً .

وإذا استطعنا أن نتناسى إلى حين، أحزان تلك الصبية التي روّع عامها الخامس بشهود مأساة الموت مرتين، في أعز الناس لديها وأحبهم إليها، إذا استطعنا أن نكف لحظة عن التحديق في تلك الظلال التي حامت على مهدها، والأحزان التي أرهقت صباها، ألفينا جانباً آخر من الصورة مشرقاً، حيث تبدو «زينب» في بيت أبيها ذات مكانة أكبر من سنها: أنضجتها الأحداث، وهيأتها لأن تشغل مكان الراحلة الكريمة، فتكون للحسن والحسين وأم كلثوم، أماً لا تعوزها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حنو وإيثار، وان أعوزتها التجربة والاختبار.

وما بالغريب أن تشغل «زينب» مكان الأم ولما تبلغ العاشرة من عمرها، وإنما الغريب أن نقيس زمانها بزماننا ومكانها بمكاننا، فنزعم ان هذه سن اللهو واللعب! إن حياة القوم إذ ذاك كانت كفيلة بأن تجعل من يوم الفتاة شهراً ومن شهرها عاماً! تلك الحياة البدوية التي تنضجها شمس الصحراء بحرارتها اللافحة، وتهبها من حدة اليقظة وامتداد البصر ودقة الحس وسرعة الإدراك، ما لا يتاح للفتاة في زماننا هذا الناعم المترف.

ولماذا نبعد، وإن من أمهاتنا وجداتنا من حملن أعباء الزوجية والأمومة وهن في العاشرة أو بعدها بقليل، على حين نرى – نحن بناتهن – أن سن الخامسة والعشرين هي السن الملائمة لحمل مثل هذه الأعباء؟!

أجل، ليس بالغريب أن تكون «زينب» في حداثتها أماً لشقيقيها وأختها، فلقد تزوجت أختها الصغرى «أم كلثوم» وهي في مستهل حداثتها، «عمر بن الخطاب» الخليفة الشيخ، وتزوجت السيدة «عائشة بنت أبي بكر» قبل العاشرة، ولم يرَ القوم

في مثل هذا ما يثير دهشة أو عجباً ، وإن رآها أكثر الغربيين في يومنا هذا ، أعجوبة الأعاجيب . وإنما قلت : أكثر الغربيين ، لأن فيهم قلة نادرة ، استطاعت أن تعقل هواها فقدرت الزمان والمكان ، ورأت في زواج كهذا أمراً معتاداً ...

* * *

المبحث الثاني

عقيلة بني هاشم

- الزوجة
- الأبناء
- البيت

عقيلة بني هاشم

اختار «علي» لفتاته، حين بلغت مبلغ الزواج، من رآه جديراً بها حسباً ونسباً. لقد تهافت عليها الطلاب من شباب هاشم وقريش، ذوي الشرف والثراء، فكان «عبد الله بن جعفر» أحق هؤلاء جميعاً بزهرة آل البيت وعقيلة بني هاشم.

* * *

أبوه جعفر بن أبي طالب: ذو الجناحين وأبو المساكين، شقيق «علي» وحبيب «النبي» الذي قال فيه «أبو هريرة»: «ما ركب أحد المطايا... ولا احتذى النعال أحد بعد رسول الله ﷺ وآله، أفضل من جعفر بن أبي طالب».

هاجر بدينه إلى الحبشة إبان الاضطهاد، ثم رجع مع من رجع من المسلمين، وصادف وصوله إلى «المدينة» فتح «خيبر» فالتزمه الرسول وجعل يقبله بين عينيه ويقول:

«ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً: بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر»؟

وسمع رسول الله ﷺ وآله يقول: «الناس من شجر شتى، وأنا وجعفر من

شجرة واحدة».

سار مع الجيش الذي توجه إلى بلاد الروم في السنة الثامنة من الهجرة، وقد جعل الرسول لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة، (فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس...).

ومضى جنود الإسلام حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم جموع «هرقل» فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، ودارت المعركة طاحنة: قاتل «زيد» براية الرسول حتى مزقته رماح القوم، فأخذها «جعفر» وقاتل بها حتى قطعت يمناه فأخذها بيساره وقاتل حتى قطعت يسراه، فاحتضن الراية حتى قتل، فكان أول طالبي قتل في الإسلام.

وأم عبد الله بن جعفر، «أسماء بنت عميس»: أخت «ميمونة أم المؤمنين» و«سلمى» زوج حمزة بن عبد المطلب، و«لبابة» زوج العباس بن عبد المطلب.

تزوجها «جعفر» فكانت أم أولاده جميعاً، فلما قتل تزوجها «أبو بكر» فولدت له محمداً، ثم توفي عنها فخلف عليها «علي بن أبي طالب» فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر. وفي رواية «الواقدي» أنها ولدت له عوناً ويحيى.

* * *

ولد زوج «زينب»، «عبد الله بن جعفر» بأرض الحبشة، لما هاجر أبواه إليها، فكان أول من ولد بها من المسلمين. وينقل «ابن حجر» في (الإصابة ٣ – ٤٩) أن الرسول قال فيه: «وأما عبد الله فيشبه خُلُقي وخَلْقي» ثم أخذ بيمينه فقال: «اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه – قالها ثلاث مرات – وأنا

وليُّهم في الدنيا والآخرة».

كان «عبد الله» سيداً شهماً كريماً عفاً، سمي قطب السخاء، لا يبيع معروفاً ولا يرد سائلاً؛ عن «محمد بن سيرين» أن رجلاً من التجار جلب سكراً إلى المدينة فكسد عليه فبلغ خبره «عبد الله بن جعفر» فأمر قهرمانه أن يشتريه ويهبه للناس.

ووجه إليه «يزيد بن معاوية» مالاً جليلاً هدية، فلما تلقى عبد الله المال، فرقه في أهل «المدينة» ولم يدخل منزله منه شيئاً، فذلك قول «عبد الله بن قيس الرقيات»:

وما كنت إلا كالأغر «ابن جعفر» رأى المال لا يبقى، فأبقى له ذكرا

وقول «الشماخ، معقل بن ضرار»:

انك يا ابن جعفر نعم الفتى ونعم مـــأوى طـــارق إذا أتى

ورب ضيف طرق الحي سرى صادف زاداً، وحديثاً ما اشتهى

وروى «ابن قتيبة» في (عيون الأخبار) أن «معاوية» لما قدم «المدينة» منصرفاً من «مكة»، بعث بهداياه وصلاته إلى «الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر» وغيرهم من أشراف قريش. ثم أوصى رسله أن يتريثوا حتى يروا ما يفعل كل رجل بهديته، فلما خرج الرسل قال معاوية لمن حوله:

– إن شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم...

أما «الحسن» فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب ويهب ما بقي من حضره، ولا ينتظر غائباً.

وأما «الحسين» فيبدأ بأيتام من قتل في صفين ، فإن بقي شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن.

وأما «عبد الله بن جعفر» فيقول لمولاه : يا بديح ، أقض به ديني ، فإن بقي شيء فأنفذ به عداتي.

وأما فلان... الخ.

قالوا : وعاد الرسل فحدثوا بما رأوا وما سمعوا ، فكان الأمر كما قال «معاوية».

ولقد أسرف «عبد الله بن جعفر» على نفسه في الجود ، لا يبالي أن يهلك ماله أو أن يصل إلى أعدائه.

ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجاد بها : فليتق الله سائله

* * *

وأثمر الزواج المبارك ثمرته ، فولدت «زينب بنت الزهراء» لعبد الله بن جعفر أربعة بنين : علياً ، ومحمداً ، وعوناً الأكبر ، وعباساً ، كما ولدت له فتاتين ، إحداهما «أم كلثوم» التي أراد «معاوية» بدهائه السياسي ، أن يزوجها من ابنه «يزيد» كسباً للمعسكر الهاشمي ، فترك «عبد الله» أمر فتاته لخالها «الإمام الحسين» الذي آثر بها ابن عمها : «القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب».

ولم يفرق الزواج بين «زينب» ،أبيها واخوتها ، فقد بلغ من تعلق «الإمام علي» بابنته وابن أخيه ، أن أبقاها معه ، حتى إذا ولي أمر المسلمين وانتقل إلى الكوفة ، انتقلا معه فعاشا في مقر الخلافة ، موضع رعاية أمير المؤمنين وإعزازه ، ووقف عبد

الله بجانب عمه في نضاله الحربي ، فكان أميراً بين أمراء جيشه في «صفين».

وعرف الناس مكانة «عبد الله» من بيت النبوة ، فكانوا يلتمسون لديه الوسيلة إلى أمير المؤمنين ، وإلى ولديه الحسن ، والحسين ، فلا يرد له طلب ولا يخيب رجاء. جاء في (الإصابة : ٤ – ٤٨) نقلاً عن «محمد بن سيرين» أن دهقاناً من أهل السواد كلم «ابن جعفر» في أن يكلم «علياً» في حاجة ، فكلمه ، فقضاها ، فبعث إليه الدهقان أربعين ألفاً فردها قائلاً : إنا لا نبيع معروفاً.

وروى أبو الفرج الأصبهاني في (مقاتل الطالبيين) انه لما مات «الحسن بن علي» أراد آل البيت أن يدفنوه مع رسول الله كما أوصى قبل وفاته ، (فركب بنو أمية في السلاح ، وجعل مروان بن الحكم يقول : يا رب هيجا هي خير من دعة. أيدفن عثمان في أقصى البقيع ، ويدفن الحسن في بيت رسول الله ﷺ ؟ لا يكون ذلك ابداً ، وأنا أحمل السيف).

وأبى «الحسين» أن يدفن أخاه إلا مع جده ، فكادت الفتنة تقع ، لولا كلمة من «عبد الله بن جعفر» لابن عمه «الحسين» ، قال :

«عزمت عليك بحقي ألا تكلم بكلمة».

ومضى بابن عمه «الحسن» إلى البقيع ، حيث ثوت أمه «الزهراء» وانصرف «مروان بن الحكم».

* * *

كيف كانت «زينب» تبدو في ريعان شبابها؟...

تمسك المراجع التاريخية عن وصف صورتها لنا في تلك الفترة ، إذ هي في

خدرها محجبة لا نكاد نلمحها إلا من وراء ستار، غير انها سوف تخرج من خدرها بعد عشرات السنين، في محنة كربلاء وإذ ذاك يصفها لنا من رآها رأي العين فيقول كما نقل «الطبري»:

«... وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس طالعة... فسألت عنها، فقالوا: هذه زينب بنت علي».

ويصفها عبد الله بن أيوب الأنصاري – وقد رآها عقب وصولها إلى مصر، بعد مصرع الحسين، فيقول:

«... فوالله ما رأيت مثلها وجهاً كأنه شقة قمر».

وكانت «السيدة» يومئذ في الخامسة والخمسين من عمرها: غريبة متعبة، مفجوعة ثكلى. فكيف بها إبان الشباب قبل أن تأكلها السنون وتطحنها الأحزان وتجرعها كأس الثكل حتى الثمالة؟

أما شخصيتها، فيبدو اننا سوف ننتظر – هنا أيضاً – ريثما تكشف الأحداث عن قوة جنانها وثبات فؤادها، وتبديها لنا في أروع صورة من الشجاعة والإباء و الترفع.

وسيبدي المؤرخون إعجابهم بموقفها من «يزيد بن معاوية» وينقل لنا مثل «ابن حجر» في (الإصابة: ٨ – ١٠٠) ما بدا من قوة برهانها وقوة حجتها.

وسوف يسمعها أهل عصرها في كربلاء، وفي مجلس والي «الكوفة»، وفي حضرة «يزيد بن معاوية»، فتروعهم بلاغتها بقدر ما تروعنا اليوم، ويشهدون لها بسحر البيان.

روى «الجاحظ» في «البيان والتبيين» عن (خزيمة الأسدي) أنه قال:

«دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين... فلم أر خفرة أنطق منها، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب».

هذه هي «زينب» كما رأيناها بعد في كربلاء، وكما لاحت لنا منها ملامح في إبان شبابها. حيث نسمع انها كانت تشبه أمها لطفاً ورقة، وتشبه أباها علماً وتقى.

وكان لها – فيما تقول بعض الروايات – مجلس علمي حافل، تقصده جماعة من النساء اللواتي يردن التفقه في الدين.

وهكذا اجتمع لها ما لم يجتمع لسواها من نساء جيلها، فكانت (عقيلة بني هاشم) يروي عنها «ابن عباس» فيقول: (حدثتني عقيلتنا زينب بنت علي).

وغلب عليها هذا اللقب، فكان يقال «العقيلة» فيعرف انها هي!

ويعتز أبناؤها بهذا، فيعرفون (ببني العقيلة).

* * *

المبحث الثالث

بطلة كربلاء

- نذر العاصفة
- رحيل
- دليل الركب
- محاولة.. وإصرار
- نحو وادي الموت
- يوم الطف

نذر العاصفة

لم نكن لنلقي بأنفسنا في غمار الأحداث السياسية العنيفة التي شهدها (البيت العلوي) لو أن «زينب» ظلت بعيداً عن ميدان الأحداث وبقيت في الحجاز عاكفة على حياتها الخاصة متفرغة لأعباء الزوجية والأمومة.

أما وقد ساقتها الظروف إلى صميم الدوامة الهائلة التي رأيناها تلف الدولة الاسلامية في عنف، فنحن مضطرون إلى أن نمضي فنرقب تلك النذر التي آذنت بالعاصفة العاتية الهوجاء.

* * *

وقد تمر فترة طويلة تغيب «زينب» خلالها في غمرة الأحداث هذه، بل قد نفقد أثرها أحياناً في ضجة الدوي الراعد الذي كان يصم الآذان، ويدير الرؤوس. لكنا سنجدها أخيراً بعد أن تكون الأحداث العنيفة قد هيأت المسرح لظهور (بطلة كربلاء).

ومن هنا يبدو عذرنا إذ نطيل الحديث عن معارك سياسية قد يظن ظانٌّ انها لا

تمس «زينب» إلا من حيث صلتها بالقادة والأقطاب، ومكانها من البيت الهاشمي، على حين نرى في كل هذه المعارك، مقدمات لها خطرها في توجيه حياة «زينب» وأثرها في إعدادها لدورها الرهيب.

* * *

قدر «لزينب» أن ترى مجرى الحوادث عن كثب: شهدت الأمر ينتقل من «أبي بكر» إلى «عمر» ثم إلى «عثمان» عام ٣٥ هـ، لتبدأ المعركة الطاحنة، معركة الفتنة التي لعل نارها لم تخب حتى يومنا هذا.

سمعت أصداء صوت «عائشة أم المؤمنين» وهي تحض على الثورة، وتطالب بدم الشهيد، وتصيح في الناس: «إن الغوغاء من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة، قد سفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام، واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم، ويشرد من بعدهم...».

ثم تخرج «عائشة» على الجمل الأنكد. قائدة على جمع الخارجين على «علي» أمير المؤمنين».

وما كان «علي» قاتِلَ «عثمان» أو المحرض عليه أو الراضي به، ولا كانت «عائشة» راضية عن «عثمان» أو ولية دمه المسفوك، فلطالما حرضت عليه وتحدثت فيه بالنقد المثير. والمؤرخون لم ينسوا لها أنها غضبت على «عثمان» يوماً لأنه نقص عطاءها. فتربصت به حتى رأته يخطب في الناس. فدلت قميص رسول الله ﷺ وآله ونادت: «يا معشر المسلمين، هذا جلباب رسول الله لم يبل، وقد أبلى عثمان

سنته » !

وطالما سمعت تقول : اقتلوا نعثلاً - أي عثمان - فإن نعثلاً قد كفر.

ولا أعرف من المؤرخين من يشك في أنها ما كانت لتثور ، لو أن الأمر لم ينتقل إلى « علي بن أبي طالب » . روى « المدائني » أنه لما قتل « عثمان » كانت « عائشة » بمكة ، وبلغها النبأ وهي خارجة ، فقالت وهي لا تشك في أن « طلحة » صاحب الأمر : « بعداً لنعثل ... إيه يا صاحب الإصبع - وكانت تلك كنية طلحة منذ قطعت إصبعه دفاعاً عن الرسول في (أُحد) - إيه أبا شبل ، إيه يا ابن عم ! لكاني انظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثو الإبل » .

وكان « طلحة » قد أخذ مفاتيح بيت المال عقب مقتل « عثمان » وأخذ نجائب كانت للخليفة القتيل في داره .

ثم لما عرفت « عائشة » بما تم من البيعة « لعلي » ، أمرت برد ركائبها إلى مكة وهي تقول :

- قتلوا ابن عفان مظلوماً !

فقال لها من يسمعها :

- ألم أسمعك تقولين : بعداً لنعثل ، وقد رأيناك من أشد الناس عليه ؟

وروى « الطبري » في تاريخه أنه لما قتل « عثمان » تساقط الهراب إلى « مكة » ، و« عائشة » هناك تريد العمرة ، فأخبروها أن قد قتل « عثمان رضي الله عنه » فقالت ما معناه :

– هذا غب ما كان بينكم وبينه من عتاب الاستصلاح.

حتى إذا قضت عمرتها وخرجت. لقيها رجل من أخوالها من بني ليث، يقال له «عبيد بن أبي سلمة» المعروف «بابن أم كلاب»، فقالت متسائلة: «مهيم»!

فأصم ودمدم...

فقالت: «ويحك، علينا أو لنا»؟

قال: «قتل عثمان» وسكت.

قالت: «ثم صنعوا ماذا»؟ فقال:

– أخذها أهل «المدينة» بالاجتماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز: اجتمعوا على «علي بن أبي طالب».

فقالت:

«والله ليت أن هذه انطبقت على هذه – تعني السماء على الأرض – إن تم الأمر لصاحبك. ردوني، ردوني».

وارتدت إلى مكة وهي تقول كلمتها:

– قتل والله «عثمان» مظلوماً. والله لأطلبن بدمه...

فسألها «ابن أم كلاب»:

– ولِمَ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت! ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر.

أجابت :

– انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول .

فقال لها «ابن أم كلاب» في أبيات عدة أوردها «الطبري» :

منك البـــداء ومنك الغير ومنك الريـاح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتـل الإمـام وقلت لنا : إنه قد كفر !
فهبنـا أطعنـاك في قتلـه وقـاتلـه عنـدنـا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنـا والقمر

فأدارت «عائشة» راحلتها وعادت إلى «مكة» لا تلوي على شيء...

وأثارتها فتنة عمياء صماء ، انتقاماً من «علي» ذاك الذي لم تسالمه أبداً منذ دخلت بيت محمد – ﷺ وآله – صبية في العقد الأول من عمرها ، ولم تنس له قط أنه زوج «فاطمة» بنت «خديجة» الودود الولود التي شغلت من قلب رجلها – في حياتها وبعد المات – مكاناً لم تستطع «عائشة» بكل شبابها وجمالها ونضرتها وحيويتها وذكائها ، أن تزحزحها عنه .

كذلك لم تغفر «عائشة» لـ«علي» أبداً موقفه من قصة الإفك ، فقد كان ممن أشار على الرسول – ﷺ وآله – بطلاقها ، فالنساء غيرها كثيرات . وقيل إنه قال للرسول عليه الصلاة والسلام : «سل الخادم وخوفها . وإن أقامت على الجحود فاضربها» .

وقيل كثير وكثير... أصغت له «عائشة» ووعته ، ولم تستطع أن تتناساه !

* * *

كانت «زينب» حين شبت الفتنة، في الثلاثين من عمرها. تعيش مع زوجها وبنيها في دار الخلافة، وترقب عن كثب وميض تلك الثورة التي شبتها «عائشة» وتولت كبرها، وتشهد أباها أمير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة ويفرغ من موقعة «الجمل» ليلقى «معاوية» في جيش الشام «بصفين» ثم يفرغ منه ليلقى الخوارج في «النهروان» وهكذا مدى خمس سنوات طوال.

ولا يذكر التاريخ هنا «لزينب» مشاركة فعلية في المعركة، وإنما انفردت «عائشة» بدور البطولة في تلك المأساة المعروفة في التاريخ باسم موقعة «الجمل» الذي ركبته أم المؤمنين على رأس الجموع للمعارضة الثائرة، وكانت هي القائدة العليا للجيش: تصدر الأوامر، وتعين الأمراء، وتوجه الرسل بكتبها ذات اليمين وذات اليسار مصدرة بالعبارة التالية:

«من عائشة ابنة أبي بكر. أم المؤمنين. حبيبة رسول الله ﷺ وآله، إلى ابنها الخالص فلان...

«أما بعد فإن أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا. فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي».

ولباها من لبى، ورد عليها من يقول:

«... أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت ورجعت إلى بيتك، وإلا فأنا أول من ينابذك».

أو يقول:

«رحم الله أم المؤمنين! أُمرت أن تلزم بيتها. وأمرنا أن نقاتل، فتركت ما أمرت

به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه » !

وبذل بنو أمية لهذا الخروج أموالهم ، في سخاء . وأقبلوا من كل حدب وصوب إلى حيث وقفت « عائشة » بمكة تدعو للثورة . فلما فصل جيشها من « مكة » كانت عدته ثلاثة آلاف سارت بهم حتى دخلت « البصرة » ، ووقفت تخطب في الجمع المحتشد هنالك :

« ... كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا ... فننظر في ذلك فنجده بريئاً نقياً وفياً ، ونجدهم فجرة كذبة . يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر ...

فهاج الناس وماجوا ، وصرخت (عائشة) « اسكتوا أيها الناس » .

فأسكت لها الناس . فقالت :

« إن أمير المؤمنين عثمان كان قد غير وبدل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً ... قتلوه محرماً ، ذبحاً كما يذبح الجمل . ألا وإن قريشاً رمت غرضها بنبالها . وأدمت أفواهها بأيديها . وما نالت بقتلها إياه شيئاً ولا سلكت به سبيلاً قاصداً . أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس . وليسلّطن عليهم قوم لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب .

« أيها الناس :

« إنه ما بلغ من ذنب « عثمان » ما يستحل دمه ، مصصتموه كما يماص الثوب الرخيص ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم « ابن أبي

طالب» بغير مشورة من الجماعة، تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم؟

«ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان».

ووجدت «عائشة» في السامعين من يرد عليها:

«يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون... إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكت سترك وأبحت حرمتك!»

وعقب شاب من بني سعد. وجه كلامه إلى (طلحة والزبير):

– أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ وآله، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك، وأرى معكما أم المؤمنين، فهل جئتما بنسائكما؟

قالا: لا.

قال: فما أنا منكما في شيْ.

ثم أنشد:

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم ... هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها في بيتها ... فهوت تشق البيد بالإيجاف
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطِّي والأسياف

هتكت بطلحـة والزبير ستورها هـــذا المخبر عنهم والكـــافي

وتصدى لها «الأحنف بن قيس» يقول: إني سائلك ومغلظ لك في المسألة، فلا تجدي عليّ: أعندك عهد من رسول الله ﷺ وآله في خروجك هذا؟»

قالت: «لا».

فسأل:

«أفعندك عهد من رسول الله ﷺ وآله أنك معصومة عن الخطأ؟»

أجابت: «لا».

قال:

«صدقت، إن الله رضي لك (المدينة) فأبيت إلا البصرة، وأمرك بلزوم بيت نبيه ﷺ وآله، فنزلت بيت أحد بني ضبة، ألا تخبريني يا أم المؤمنين، أللحرب قدمت أم للصلح؟».

أجابت وهي تكظم غيظها:

- بل للصلح.

فقال لها:

«والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى، ما اصطلحوا على يديك، فكيف والسيوف على عواتقهم؟».

فلم تدر بما تجيب، واكتفت بأن تقول في ألم: «لقد استغرق حلم الأحنف

هجاؤه إياي، إلى الله أشكو عقوق أبنائي».

* * *

وحين تلاقى الجيشان واحتدم القتال، جعلت «القائدة» تلهب حماسة عسكرها.

فهي تلتفت يمينها وتسأل: «من القوم؟».

أجابوا: «بكر بن وائل».

قالت: لكم يقول القائل:

وجاءوا إلينا في الحديد كأنهم ۔ من العزة القعساء بكر بن وائل

وتنثني إلى يسارها فتسأل: «من القوم عن يساري؟»

فيجيبون: بنوك الأزد.

فتهتف بهم: يال غسان! حافظوا على جلادكم الذي كنا نسمع به:

* وجالد من غسان أهل حفاظها *

وتقبل على كتيبة بين يديها فتقول: من القوم؟

قالوا: بنو ناجية.

فتقول: بخٍ بخٍ! سيوف أبطحية قرشية، فجالدوا جلاداً يتفادى منه

فكأنما أشعلت فيهم من الحماسة ناراً!..

* * *

وتتابع حملة اللواء على خطام جملها مستبسلين، يقول قائلهم:

يا أمنا يا زوجة النبي
يا زوجة المبارك المهدي
نحن بنو ضبة، لا نفر
حتى نرى جماجماً تخر

فيتصدى لها من معسكر «علي» من يناجزه وهو يرتجز:

يا أمنا، أعق أم نعلم!
والأم تغدو ولداً وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلي منه يد ومعصم؟!

ويتقدم آخر، فيمسك خطام الجمل ويمر على جثة واحد من جيش «علي» قائلاً:

أسامع أنت مطيع لعلي
من قبل أن تذوق حد المشرفي
وخاذل في الحق أزواج النبي؟

ثم يخلص إلى «عائشة» وهو يهتف:

يا أمنا يا «عيش» لن تراعي
والأزد فيها كرم الطباع

فيلقاه من أصحاب «علي» من يجندله مرتجزاً :

جردت سيفي في رجال الأزد
أضرب في كهولهم والمرد
كل طويل الساعدين نهد

حتى عقر «الجمل» ، وكادت «عائشة» تتلف لولا أن أنقذها «علي» ، ونادى مناديه :

«ألا يجهز على جريح . ولا يتبع مول ، ولا يطعن في وجه مدبر . ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن» .

ووقف أمير المؤمنين بعد انتصاره ، يحدق في جثث القتلى وقد بلغوا نحو عشرة آلاف : كلهم عرب ، وكلهم مسلمون ، وفيهم صحابة الرسول ﷺ وآله ، وحملة القرآن الكريم ، وحفاظ السنة النبوية :

ثم أشاح بوجهه عن الساحة المغطاة بالجثث . ورفع يديه إلى السماء هاتفاً في ضراعة وابتهال :

إليك أشكو عجري وبجري
ومعشراً أغشوا على بصري
قتلت منهم مضري بمضري
شفيت نفسي وقتلت معشري

ثم صلى على القتلى من أهل الكوفة والبصرة .

* * *

وأعيدت «عائشة» إلى «المدينة» بعد أن انفردت ببطولة المعركة، فما تركت لامرأة سواها مكاناً إلى جانبها، اللهم إلا أن تكون كلمة عابرة أو مشهداً ثانوياً ليس بذي بال:

ودت «أم سلمة» أن تخرج لتنصر «علياً»، لكنها كرهت أن تبتلى – وهي أم المؤمنين – بمثل ذاك الخروج، فجاءت «عليا» وقدمت إليه ابنها «عمر» قائلة:

«يا أمير المؤمنين. لولا أن أعصي الله عز وجل، وأنك لا تقبله مني. لخرجت معك. وهذا ابني عمر – والله لهو أعز عليّ من نفسي – يخرج معك فيشهد مشاهدك».

وأتت «عائشة» فقالت لها:

«أي خروج هذا الذي تخرجين؟... الله من وراء هذه الأمة!! لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس. لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه عليّ!».

لكن «عائشة» لم ترجع...

بل مضت في طريقها. وتخلفت أمهات المؤمنين عنها. – وكن قد خرجن معها إلى مكة – مؤثرات أن يرجعن إلى «المدينة»، إلا «حفصة بنت عمر» فإنها قالت: «رأيي لرأي عائشة تبع».

وأرادت أن تخرج معها إلى البصرة. فحال أخوها «عبد الله بن عمر» دون ذاك، ولم تجد «حفصة» بداً من الاعتذار والقعود!.

* * *

وعلى هذا النحو، استأثرت «عائشة» ببطولة الموقعة وقيادتها. وتوارت «زينب» فلم نلمح لها أثراً ولم نسمع لها صوتاً. ذلك أن القدر كان يدخرها لبطولة من نوع آخر ويحتفظ بها وراء الستار حتى يحين أوان ظهورها في «كربلاء» بعد ربع قرن من الزمان.

لكنها مع ذلك كانت هناك في دار الخلافة، حيث مركز الأحداث، وقطب رحاها! كانت هناك –كما قلنا– ترمق أباها أمير المؤمنين في حب وقلق. وهو يخوض المعركة تلو المعركة، ويفرغ من موقعة «الجمل» ليلقى «معاوية» في «صفين» ثم يفرغ منه ليلقى «الخوارج» في «النهروان»؛ وهكذا مدى خمس سنوات. لم يهدأ فيها يوماً. حتى كانت تلك الليلة المشؤومة، ليلة الجمعة لتسع عشرة خلون من رمضان عام ٤٠ هـ. وقد خرج الإمام في الفجر يصلي بالناس في المسجد الأعظم بالكوفة، و«زينب» في الدار ما تدري إلا وضجة تعلو آتيةً من ناحية المسجد. مبددة أصداء الهتاف الذي جلجل منذ لحظات من مآذن الكوفة: حي على الصلاة، حي على الفلاح! الله أكبر، الله أكبر!..

وأمسكت «زينب» قلبها في ذعر مبهم، وأصغت في وجوم وقلق إلى الضجة وهي تقترب من دار الخلافة شيئاً فشيئاً، حتى إذا بلغت ساحة الدار ميزت «زينب» صيحات مروعة، تعلن ملء الفضاء: أن قد قتل أمير المؤمنين!..

وهنا جمعت «زينب» كيانها الموشك على التداعي، وتحاملت تستقبل أباها الحبيب محمولاً على الأعناق، قد أصابته طعنة قاتلة مسمومة، من سيف «ابن ملجم».

وأكبت عليه تقبله ، وتغسل جرحه بدموعها وأختها «أم كلثوم» إلى جانبها تصيح بالقاتل وقد جيء به مكتوف اليدين :

– أي عدو الله . لا بأس على أبي ، والله مخزيك .

وما أحسب «زينب» إلا سمعت من العواد قصة «ابن ملجم» هذا : سمعت أنه ثالث ثلاثة من الخوارج ، ائتمروا «بعلي ومعاوية وعمرو» ثأراً لإخوانهم قتلى «النهروان» وحسماً لذاك الداء الذي استشرى منذ مقتل «عثمان» .

وقد خرج «ابن ملجم» من «مكة» وسار حتى قدم «الكوفة» فزار رجلاً من أصحابه من «تيم الرباب» فصادف عنده «قطام بنت الأخضر» – وقد قتل أبوها يوم النهر – وكانت فائقة الجمال ، تعد من أجمل نساء زمانها فلما رآها «ابن ملجم» أخذت قلبه ، وأراد أن يخطبها فسألته :

– ما الذي تسمي لي من الصداق؟

أجاب : احتكمي بدا لك .

فقالت في عزم وجد :

– أنا محتكمة عليك ثلاثة آلاف درهم ، وعبداً ، وقينة ، وقتل «علي بن أبي طالب» !

ففكر برهة ثم قال لها وهو يكتم أمره :

لك جميع ما سألت . فأما قتلي «علياً» فأنى لي بذاك؟

قالت على الفور :

– تلتمس غرته ، فإن أنت قتلته شفيت نفسي وهناك العيش معي ...

فنظر إليها متأملاً ثم قال :

– أما والله ما أقدمني هذا المصير – وقد كنت هارباً منه لا آمن مع أهله – إلا ما سألتني من قتل «علي» فلك ما سألت !..

ثم مضت فندبت له من يساعده ويقويه ، وذهب هو فلبث أياماً ثم أتاها مع صاحبيه في الليلة الموعودة ، فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم ، وقلدتهم سيوفهم ، وأرسلتهم ... فكان ما كان :

فلم أرَ مهراً ساقه ذو سماحة
كمهر «قطام» من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف ، وعبد ، وقينة
وضرب «عليّ» بالحسام المصمم
ولا مهر أغلى من عليّ وإن علا
ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وتكاثر العواد يقفون بباب أمير المؤمنين جازعين داعين . فإذا لم يؤذن لهم في الدخول عليه ، عرفوا أنه الخطر قد اشتد والجرح قد غار ، وقال قائلهم لحاجب الإمام :

– قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً ، فوالله لقد كان الله في صدرك عظيماً !!.

وجاءوه بأطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من «أثير بن عمرو بن

هانئ» وكان متطبباً يعالج الجراحات ، أصابه «خالد بن الوليد» مع أربعين غلاماً في «عين التمر» فسباهم.

ونظر «أثير» إلى جرح الأمير، فدعا برئة حارة وانتزع عرقاً منها فأدخله في الجرح ثم استخرجه ، فإذا عليه بياض الدماغ ثم فقال له يائساً :

– يا أمير المؤمنين ، اعهد عهدك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك .

فدعا الإمام ولديه «الحسن والحسين» ، وتهيأ لكتابة وصيته...

ومن تلك اللحظة ، لم تدع «زينب» فراش أبيها...

كانت تريد أن تتزود منه قبل الرحيل.

وما أسرع ما رحل أمير المؤمنين!

ضرب في فجر الجمعة ، فمكث يومين اثنين ، وتوفي ليلة الأحد ، لإحدى وعشرين مضت من رمضان عام ٤٠ هـ ، على أرجح الأقوال.

وترك من ورائه ولديه الحسن ، ثم الحسين ، لخصمه الداهية «معاوية».

وترك العقيلة «زينب» لتشهد آل البيت وهم يصلون النار التي أشعلتها فتنة الثأر «لعثمان».

* * *

أما «عائشة» فحين أتاها النعي ، تمثلت بقول الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قرّ عينًا بالإياب المسافر

ثم سألت : من قتله؟.

فقيل لها : رجل من مراد.

فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

وسمعتها «زينب بنت أم سلمة» فسألتها منكرة :

- ألعلي تقولين هذا؟

فأجابت «عائشة» :

- إني أنسى ، فإذا نسيت فذكروني. ثم تمثلت :

ما زال إهداء القصائد بيننا باسم الصديق ، وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن قولك فيهم في كل مجتمع طنين ذباب

وفي رواية أنه : لما جاء «عائشة» قتل «علي» عليه السلام ، سجدت!

قالوا : وكان الذي جاءها بنعيه ، «سفيان بن أبي أمية».

* * *

أجل ، قالت «عائشة» حين نعي «علي» :

* فألقت عصاها واستقر بها النوى *

ولكنها لم تلق عصاها ولم تستقر بها النوى ، فإن مقتل «علي» لم يكن سوى حلقة

من سلسلة الفواجع التي ألمت بآل البيت . ودفعت بهم طعاماً لنار الفتنة العمياء التي شبتها «عائشة» وتولت كبرها .

ثكلت «زينب» أباها .

وجاء دور شقيقها «الحسن» !

بدأ هذا الدور بخطبة مؤثرة قال فيها :

«... لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ وآله ، فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح عليه . وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقية من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ! » .

ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه !

وانتهى هذا الدور – دور الحسن – بعد عشر سنوات .

حاول في أولها أن يقف لخصمه الداهية «معاوية» ، فخذله أهل «الكوفة» الذي قال فيهم «عدي بن حاتم» : «... ألسنتهم كالمخارق في الدعة ، فإذا جد الجد فراوغون ، كالثعالب ! »

وإذ ذاك تنازل عن الخلافة «لمعاوية» بعد أن شد بعض أهل العراق على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وامتدت يد أحدهم فنزعت مطرفه عن عاتقه ، فبقي جالساً متقلداً السيف بغير رداء ، وامتدت يد أخرى فأخذت بلجام

بغلته وطعنته في فخذه ! فازداد لهم بغضاً ومنهم رعباً ، وولى عنهم وهو يقول : «يا أهل العراق ، إنه سخا بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياي. وانتهابكم متاعي».

ومرّضت «زينب» أخاها الجريح ، فلما اندمل الجرح نسيت مواجعها إلى حين ، وظنت أن نزول «الحسن» عن حقه منجيه من الهلاك ، وحاقن دماء آلها من سيوف السفاحين !

ولكن «معاوية» كان يريد الخلافة ملكاً أموياً ، ولن يستطيع أن يأخذ البيعة لابنه «يزيد» والحسن بن علي حي يتنفس !..

ولم يكن عهده «للحسن» أن يلي الأمر من بعده ، هو الذي يشغله ويهمه ، فما لمثل «معاوية» عهد ، وإنما شغله أوهمه أن المسلمين لا يرضون بيزيد بن معاوية ، بديلاً من «الحسن بن علي» ، سبط الرسول.

وإن «معاوية» ليذكر تماماً ، يوم خطب في الناس — بعد أن تنازل له الحسن — فذكر «علياً» فنال منه ، ونال من «الحسن» ، فقام «الحسين» ليرد عليه فأخذ «الحسن» بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

«أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبي علي ، وأنت معاوية وأبوك صخر. وأمي فاطمة وأمك هند ، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدك حرب ، وجدتي خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً».

فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين...

وارتفع صوت يقول : ونحن نقول : آمين !

وردد آخرون : ونحن أيضاً نقول : آمين !

أيمكن أن يحقق «معاوية» حلمه ، و«الحسن» ملء قلوب هؤلاء الناس وإن خذلته سيوفهم رهبة من «معاوية»؟ !

قالوا : وانصرف «الحسن» بعد تنازله عن الخلافة إلى «المدينة» فأقام بها نحو ثماني سنوات ، وأراد «معاوية» البيعة لابنه «يزيد» فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر «الحسن بن علي» فدس له سماً.

وكان الذي تولى ذلك لمعاوية من «الحسن» ، زوجه «جعدة بنت الأشعث بن قيس» .

أرسل إليها «معاوية» : «إني مزوجك بيزيد ابني . على أن تسمي زوجك الحسن ابن علي» . ووعدها بمائة ألف درهم فقبلت ، وسمت «الحسن» ، فدفع لها «معاوية» المال ولم يزوجها من «يزيد» معتذراً إليها بأن حياته غالية عليه ! فخلف عليها رجل من «آل طلحة» فأولدها ، فكان إذا وقع بين أولادها وبين بطون قريش كلام ، عيروهم وقالوا : يا بني مسمة الأزواج ...

* * *

وشيعت «زينب» أخاها ، ثم آبت إلى البيت الحزين ، بعد أن أرقدوا فقيدها إلى جوار أمها «الزهراء» بالبقيع .

* * *

الهِجْرة

جاء دور «الحسين» فتهيأت «زينب» لترعى أخاها وهو يرى الأمر يخرج من بيت «النبي» إلى بيت «أمية» ملكاً موروثاً.

ذلك أنه لم تكد تمضي على وفاة «الحسن» ست سنوات، حتى دعا «معاوية» جهراً إلى البيعة لابنه «يزيد» من بعده، فاستوثق له الناس راضين أو مكرهين، غير خمسة نفر لم يكن فيهم من هو أحق بالغضب لهذا العدوان من «الحسين بن علي» ولد «الزهراء» وسبط الرسول.

وعاش «معاوية» أربع سنوات بعد أخذه الناس بالبيعة لابنه و«الحسين» ثابت عند موقفه، لا يرضى أن يعترف بيزيد ولي عهد للدولة التي أقامها جد الحسين.

إن يكن الأمر وراثة فمن أحق به من «الحسين»: غذي النبوة وابن بنت الرسول؟

وإن يكن اختياراً للأصلح. فمن أولى بالخلافة من «الإمام الحسين» التقي النقي والعالم الفقيه؟

أفأنكروا على آل الرسول حقهم في ميراث أبيهم، لكي يرثها فتى من بني أمية خليع رقيق الدين، صاحب لهو وشراب ومجون؟

أتصرف الخلافة عن حفيد «خديجة» أم المؤمنين وبطلة الإسلام الأولى، إلى حفيد «هند» آكلة الأكباد وبطلة الانتقام الوحشي في موقعة «أُحد»؟

إن الإسلام لم يكن قد نسي بعد ما ناله من «هند» في «أُحد»، وإن الجراح التي أحدثتها «هند» بالمسلمين لم تكن قد التأمت بعد. فما زال فيهم – يومئذ – أحياء شهدوا «هنداً» حين ظهرت في «مكة» تعير قريشاً بهزيمتهم الشنعاء أمام فئة قليلة من المؤمنين، انتصرت على جيش لأبي سفيان – زوج هند وزعيم المشركين – كامل العدة والعدد، وتركت على الساحة الدامية حول ماء «بدر» جثث الأبطال الصناديد من قوم «هند»:

أبيها «عتبة» وقد أطاحت رأسه ضربة باترة من سيف «حمزة بن عبد المطلب».

وأخيه «شيبة» وقد تكفل به «حمزة» أيضاً.

وابنه «الوليد»، وقد صرعه «علي بن أبي طالب».

و«أبي جهل» قائد جيش الكفار.

وعشرات آخرين، تركوا هناك مجندلين!..

يومئذ أقسمت «هند» ألا يقربها زوجها «أبو سفيان» حتى يثأر لقتلاها. ثم ما زالت بالمكيين حتى تجمعوا في ثلاثة آلاف مقاتل، يقودهم «أبو سفيان» وفيهم مائتا فارس تحت إمرة «خالد بن الوليد».

وخرجت هي على رأس ذاك الجيش الزاحف إلى «المدينة» تحف بها نسوة أخريات ، ينشدن أغنية الدم ويرتلن نشيد الثأر. وخلت هند بعبد لها «حبشي» اسمه «وحشي» فمنته ووعدته بالحرية ، إن هو جاء برأس «حمزة» ثمنا لفك رقبته من غل الرق !..

وتراءى الجمعان عند سفح «أحد» فأشارت «هند» إلى نسوتها فرحن يضربن على الدفوف وهي في وسطهن ترقص وتغني. وتحرض وتثير!..

ولما حمي وطيس القتال ، اقترب «وحشي» من «حمزة» وهو في شغل الإجهاز على بعض المشركين. وهزّ العبد حربته في الهواء ثم أطلقها فأصابت «حمزة» على غرة ، وأردته على الرمال يتخبط في دمه ، ثم رقد ساكناً...

هنالك انطلق «وحشي» يعدو نحو «هند» ، فلم تكد تلمحه على البعد. حتى عرفت ما جاء من أجله ، فسارت إليه صامتة ، وأسلمته يدها ليقودها إلى حيث يرقد المحارب البطل فما رأته حتى صاحت صيحة فرح هائج. وانحنت على جثة الشهيد تمزقها. وتجدع الأنف ، وتصلم الأذنين ، وتسمل العينين ثم بقرت بطنه وانتزعت كبده التي كانت لا تزال حارة وجعلت تلوكها بأسنانها في غبطة واشتهاء ، والنسوة من ورائها يقلدنها ويتخذن لأنفسهن قلائد وأقراطاً من آذان الشهداء وأنوفهم وأصابعهم !

وفي الحق أن «هنداً» أسلمت بعد ذاك كما أسلم زوجها عام الفتح. لكن هذا لم يمح صفحتها الأولى ، ولم يحل دون نبز أبنائها «ببني آكلة الأكباد».

* * *

و«يزيد» حفيد «هند» تلك ، أورثه أبوه الخلافة ملكاً عضوداً هرقلياً ، كلما

مات هرقل قام هرقل، وفي المسلمين صحابة أجلاء، على رأسهم الإمام «الحسين» ولد الزهراء، وحفيد خديجة!!

كلا! يأبى الإسلام ذلك، ويأباه «الحسين».

وإن «معاوية» ليعرف هذا حق المعرفة، ويعرف مَنِ «الحسين» ومَنْ «يزيد»، فكانت وصيته الأخيرة لولي عهده:

«إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب...

«وإني لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة: الحسين بن علي. وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير».

ويمضي «معاوية» فينظر في أولئك الثلاثة، ويقيس مدى خطرهم على وارثه وولي عهده فلا يرى فيهم من هو أخطر على «يزيد» من «الحسين» فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد ﷺ وآله، ومن ثم فهو يوصي ولي عهده بأن يدع «ابن عمر لعبادته فإنه رجل قد وقذه الدين، فليس ملتمساً شيئاً قبل يزيد» وأن يأخذ «ابن الزبير» بالشدة «فإنه خب ضب» أما «الحسين» فإن «معاوية» يلوذ بالأمل، ويدعو ليزيد: «أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه... ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه».

* * *

استقبلت «زينب» مع بني هاشم، خلافة «يزيد بن معاوية» في شهر رجب عام ٦٠ هـ.

وما كان ليزيد حلم أبيه، أو رزانته، أو دهاؤه السياسي.

لم يكفه أنه ورث الخلافة عن أبيه، فكان أول وارث لها عرفه الإسلام، ولم يشأ أن يدع «الإمام الحسين» معتكفاً في «المدينة» كما فعل «معاوية» من قبل، وإنما أصر على أن يأخذ بيعة «الحسين» والنفر الذين امتنعوا بالحجاز، وأبوا أن يجيبوا «معاوية» إلى بيعة «يزيد».

كان همه الأول أن يفرغ من هؤلاء. فكتب إلى أمير «المدينة» – الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان – غداة موت معاوية: «أن خذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا...»

وكبر الأمر على «الوليد» فاستشار «مروان بن الحكم» فكان جوابه: «أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول في الطاعة، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية...»

وجاء «الحسين» في رهط من شيعته ومواليه، فأبقاهم بباب «الوليد» على أهبة، ودخل إلى الأمير وعنده «مروان بن الحكم». فدعاه الوليد إلى البيعة، فقال:

– إن مثلي لا يعطي بيعته سراً ولا أراك تجتزئ بها مني سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية!..

قال الوليد: أجل.

قال الحسين:

– فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة، دعوتنا مع الناس فكان أمراً

واحداً.

فصمت «الوليد» وهم «الحسين» بالانصراف، لكن «مروان» انبعث يقول للوليد محذراً:

– والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع، لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه. أحبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه.

فوثب عند ذلك «الحسين» وهو يسأل في إنكار:

– يا ابن الزرقاء. أنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله وأثمت...

ثم خرج... و«مروان» يقول للوليد مؤنباً:

– عصيتني؟ لا والله، لا يمكنك من مثلها من نفسه أبداً...

فرد عليه الوليد:

– ويح غيري يا مروان، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله ما أحب أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه، من مال الدنيا وملكها، وأني قتلت «حسيناً». سبحان الله! أقتل «حسيناً» إن قال لا أبايع؟ والله إني لأظن أن امرأً يحاسب بدم حسين، خفيف الميزان عند الله يوم القيامة.

خرج «الحسين» حتى أتى منزله فألقى إلى أهله النبأ. وأسرَّ إليهم بعزمه على الرحيل...

ورنت «مدينة الرسول» في الليلة التالية، إلى ابن الزهراء يتسلل بأهله منها، حذراً يترقب تحت جنح الظلام، قبل أن يبزغ القمر فينم عنهم... لم يكد يترك منهم

بالمدينة غير أخيه «محمد بن الحنفية» فإنه قال للحسين :

- يا أخي ، أنت أحب الناس إليّ وأعزهم عليّ ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك . تنح بمن معك عن «يزيد بن معاوية» وعن الأمصار ما استطعت . ثم ابعث رسلك إلى الناس فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ، ولم تذهب به مروءتك وفضلك ، فإني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفوا فيما بينهم فمنهم طائفة معك وأخرى عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة هدفاً ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً ، أضيعها دماً وأذلها أهلاً .

قال الحسين : فأين أذهب يا أخي ...

قال محمد :

- فانزل «مكة» فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبت . لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ويفرق لك الرأي ، فإنك أصوب ما تكون رأياً حين تستقبل الأمور استقبالاً ، ولا تكون الأمور أبداً أشكل منها حين تستدبرها ...

فودعه «الحسين» وهو يقول متأثراً :

- يا أخي قد نصحت وأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً و موفقًا إن شاء الله .

* * *

وفي الطريق إلى «مكة» جاز أهل البيت بالمواقع التي شهدت جدهم الرسول حين

خرج من «مكة» مهاجراً منذ ستين عاماً!

ولَفَّهم الليل، وأسدل عليهم ستراً، وساد الصمت فلم يعد يسمع سوى وقع أخفاف الإبل تسير حثيثاً على الرمال.

ولم يكن ثمت حداء ولا غناء: وإنما هو «الحسين» يتلو هامساً قوله تعالى: «ربِّ نجِّني من القوم الظالمين».

فيؤمن رهطه وهم يلقون على مدينة جدهم ومغاني صباهم وشبابهم نظرة وداع، فيرتد إليهم البصر خاشعاً دون أن يميز من معالم «المدينة» في هذا الظلام الدامس، سوى هامات النخيل، وأعالي الجبال...

ولو قدر للنساء أن ينظرن إلى ما وراء ستار الغد. لملأن سمع الليل عويلاً ونواحاً، فإن الحسين، وآله وصحبه يخرجون الليلة من المدينة إلى غير مآب...

* * *

ومضت ساعات والركب يجد السير ويشق الظلام، حتى إذا أوغلوا في الصحراء وأوغل الليل، بزغ القمر وأطل عليهم فإذا فيهم مع «الحسين»، بنوه وإخوته، وبنو أخيه، وجل أهل بيته...

وفي جانب. كانت «عقيلة بني هاشم» تسير مع جماعة النساء، تنتظر انبثاق نور القمر. كيما يبدد الوحشة التي رانت عليها وعلى الدنيا من حولها...!

وأجهدهم السير أياماً وليالي ذات عدد، حتى شارفوا «مكة» فتلا «الحسين» قول ربه:

«ولما توجه تلقاء مدين، قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل».

ولم يقيموا إلا ريثما تلقوا رسل أهل «الكوفة» مبايعين إمامهم «الحسين»، وجاءته كتب القوم تترى: «أن قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي، فأقدم علينا».

وبدأ أهل البيت يتهيأون للسفر من جديد...

* * *

دليل الركب

تهيأوا للسفر، لكنهم لم يشدوا الرحال قبل أن يبعثوا إلى «الكوفة» دليلاً منهم، يستوثق من الأمر هناك.

وقد اختار «الإمام الحسين» ابن عمه «مسلم بن عقيل بن أبي طالب» لهذه المهمة، فخرج «مسلم» حتى أتى «المدينة» فأخذ منها دليلين. فمرا به في البرية فأصابهم عطش فمات أحد الدليلين – وقيل مات الإثنان – وانقبضت لذلك نفس «مسلم» فكتب إلى «الحسين»:

«... إني أقبلت إلى المدينة واستأجرت دليلين فضلا الطريق واشتد بهما العطش فماتا. وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا. وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبيث. وقد تطيرت، فإن رأيت أعفيتني وبعثت غيري».

وكان جواب الإمام: أن امضِ إلى «الكوفة» قدماً.

وامتثل الدليل فسار حتى بلغ «الكوفة» ونزل على رجل من شيعتهم هناك. فأقبلت الشيعة تختلف إليه، فكلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب

«الحسين» ، فيبكون ويعدونه من أنفسهم القتال والنصرة ، حتى بايعه من القوم اثنا عشر ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك ، فعجل بإيفاد رسول يحمل البشرى إلى «الحسين» المنتظر «بمكة» .

* * *

كان أمين «الكوفة» حين دخلها «مسلم» ، النعمان بن بشير الأنصاري» وقد نقم عليه «يزيد بن معاوية» أنه ترك أمر الشيعة يفلت من يده ، وأنه نام عن «مسلم» حتى ضم بضعة عشر ألفاً إلى لواء «الحسين» .

وبادر «يزيد» فعزل «النعمان» واستبدل به «عبيد الله بن زياد» واليه على «البصرة» ، وكتب إليه أن يطلب «مسلم بن عقيل» ويقتله ، فبدأ «ابن زياد» «بهانئ بن عروة المرادي» – وكان «مسلم» قد انتقل إلى داره – فحبسه ريثما يقتله ، وشاع الأمر فصاحت نسوة مراد :

«يا عثرتاه ! يا ثكلاه ! »

فثار «مسلم» مغضباً ، ونادى بشعاره فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل «الكوفة» سار بهم يريد إنقاذ «هانئ» عنوة .

ثم كان موقف أهل «الكوفة» بعد ذلك عجباً : روى «الطبري» في (تاريخه) و«أبو الفرج الأصبهاني» في (مقاتل الطالبيين) أن المرأة منهم كانت تأتي ابنها فتقول : «إنصرف ، الناس يكفونك» ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول : «غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب؟ إنصرف» .

فما زالوا يتفرقون عن «مسلم» وينصرفون حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون رجلاً ،

صلى بهم المغرب وخرج نحو أبواب «كندة» فما بلغها إلا ومعه عشرة، ثم جاوزها فإذا ليس معه منهم إنسان!

فمضى متلزراً في أزقة «الكوفة» لا يدري أين يذهب، حتى أتى دار امرأة عجوز، كانت قائمة بالباب تنتظر ولدها الذي خرج مع الناس. فسلّم عليها «ابن عقيل» فردت السلام ثم سألها أن تسقيه فأخرجت إليه ماء فشرب ثم لم يبرح مكانه، فاسترابت في أمره وسألته أن ينصرف إلى أهله، وكررت عليه مثل هذا ثلاث مرات حتى قال لها:

– يا أمة الله، والله ما لي في هذا المصر من أهل، فهل لك في معروف وأجر لعلي أكافئك به بعد اليوم؟.

فسألت: يا عبد الله، وما ذاك؟

أجاب: أنا مسلم بن عقيل، كذبني هؤلاء القوم وخذلوني.

فأدخلته دارها وعرضت عليه العشاء فلم يتعش، وأخفت أمره إلا عن ولدها، فما أصبح الصبح إلا وقد وشى به!

وحوصر «مسلم» فقاتل وحده مستبسلاً، ضد ستين رجلاً مسلحاً من شرطة «ابن زياد» أو سبعين. فلما أعياهم أمره، أخذوا يلهبون النار في القصب ويلقونها عليه، وإذ ذاك خرج إليهم يقتحم صفوفهم مقاتلاً بسيفه، فقال له محمد بن الأشعث:

«لك الأمان فلا تقتل نفسك».

فأبى إلا أن يمضي في قتالهم وهو يرتجز:

أقسمت لا أقتل إلا حرا
وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
كل امرئ يوماً يلاقي شرا
أخاف أن أكذب أو أغرا

فقال له ابن الأشعث: إنك لا تكذب ولا تخدع. القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك.

وكان «مسلم» قد أثخن بالجراح، فأسند ظهره إلى الحائط والقوم من حوله يؤكدون له الأمان.

وأتي له ببغلة فحمل عليها. وانتزعوا سلاحه، فداخلته ريبة من أمان القوم!

* * *

وجيء به إلى «ابن زياد» فأمر به فأصعد إلى أعلى القصر. فضربت عنقه وألقيت جثته من علٍ إلى الناس، وصلب صاحبه «هانئ بن عروة» في السوق.

ونقل «الطبري» أيضاً عمن شهد مصرع «هانئ بن عروة» بعد قتل «مسلم» إنهم أخرجوه حتى انتهوا به إلى مكان من السوق، كان يباع فيه الغنم، وهو مكتوف اليدين، فجعل يقول: «وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم! وامذحجاه وأين مني مذحج؟!».

فلما رأى أن أحداً لا ينصره، جذب يده فنزعها من الكتاف، ثم قال: «أما من عصا أو سكين أو حجر، أو عظم. يحاجش به رجل عن نفسه؟». قال الراوي:

« ووثبوا إليه فشدوه وثاقاً ؛ ثم قيل له : «أمدد عنقك ». فأبى أن يجود بها راضياً ، فضربه مولى لعبيد الله بن زياد بالسيف فلم يصنع سيفه شيئاً... ثم ضربه أخرى فقتله» والناس يتفرجون !

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري
إلى «هانئ» في السوق ، و«ابن عقيل»
إلى بطل قد هشم السيف وجهه
وآخر يهوي من طمار قتيـــــــل
تريْ جسداً قـد غيّر الموت لونه
ونضح دم قد سال كل مسيل !
فـــإن أنتم لم تثـأروا بـــأخيكم
فكونـوا بغـايـا أرضيت بقليـل

* * *

حدث كل هذا ، وآل البيت في «مكة» يقرأون كتاب دليلهم «مسلم» بأخذ البيعة «للحسين» ، واجتماع الناس عليه ، وانتظارهم إياه...

وتحرك «الحسين» يريد الخروج بأهله متعجلاً ، قبل أن تبلغه رسالة أخرى - شفوية - من الدليل الراحل .

ذلك أن «مسلم بن عقيل» لما يئس من نفسه دمعت عيناه ، فقال له قائل :

- إن من يطلب مثل الذي تطلب . إذا نزل به مثل الذي بك ، لم يبك !

قال :

– إني والله ما لنفسي أبكي ولا لها من القتل أرثي ... ولكن أبكي لأهلي المقبلين إلي ... أبكي لحسين وآل حسين.

ثم أقبل على «محمد بن الأشعث» – وهو الذي أعطاه الأمان من ابن زياد – فقال:

– يا عبد الله. إني أراك والله ستعجز عن أماني. فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يبلغ «حسيناً» خبراً على لساني، فإني لا أراه إلا وقد خرج إليكم مقبلاً، أو هو خارج غداً هو وأهل بيته، وإن ما ترى من جزعي لذلك.

أما نص الرسالة – فيما نقل المؤرخون – فهو أن يمضي الرسول فيقول «للحسين»: إن ابن عقيل بعثني إليك وهو في أيدي القوم أسير لا يرى أن تمشي حتى تقتل. وهو يقول: «ارجع بأهل بيتك ولا يغرك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل. إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي».

وقد أقسم «ابن الأشعث» لمسلم أنه باعث إلى «الحسين» بالرسالة...

لكن «الحسين» لم ينتظر...

بل اكتفى بالكتاب الأول، ومضى ... فما كان أصدق ما تمثل به يوم هاجر من «المدينة» من قول «ابن مفرغ»:

* والمنايا يرصدنني أن أحيدا *

* * *

محاولة وإصرار

أصبحت «مكة» ذات يوم وقد شاع فيها أن «الحسين» يوشك أن يخرج بآله منها، يريدون العراق. فأشفق بنو هاشم على «آل البيت» من تلك الرحلة التي لا يدرون عقباها، وانطلق منهم من انطلق، يتوسل إلى «الحسين» ألا يخرج، فإن كان فاعلاً فليترك أهله بمكة، فإنه لا يدري علام يقدم!

جاءه «عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام» فقال له: إني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك، فإن كنت ترى انك مستنصحي قلتها... وإلا كففت عما أريد». فقال له: «قل فوالله ما أستغشك وما أظنك بشيء من الهوى». قال له: «بلغني انك تريد العراق، وإني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه».

وأتاه «عبد الله بن عباس» فقال له:

– يا ابن عم، قد أرجف الناس انك سائر إلى العراق فبيّن لي ما أنت صانع.

قال «الحسين»:

– إني قد أجمعت العزم على المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى.

فتساءل «ابن عباس» منكراً:

– فإني أعيذك بالله من ذلك. أخبرني رحمك الله، هل تسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم؟ ان كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وان كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك.

فأجاب «الحسين» في إيجاز:

– إني أستخير الله وأنظر ما يكون...

* * *

وخرج «ابن عباس» فلقيه «ابن الزبير» وكان لا يزال ممتنعاً «بمكة» لا يبايع «يزيد»، فأحس «ابن عباس» من «ابن الزبير» غبطة وابتهاجاً أن يمضي «الحسين» فيخلو الجو «لابن الزبير» ولم يكن شيء أثقل عليه من مكان «الحسين» بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز، وعلماً بأن ذلك لا يتم إلا بعد خروج «الحسين»...

فلما كان المساء عاد «ابن عباس» إلى «الحسين» فقال له في إلحاح وتوسل:

– يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر! إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك

والاستئصال ! إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم ! أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا، فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم.

لكن «الحسين» لم يرجع عن عزمه، وإذ ذاك توسل اليه «ابن عباس»:

– فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فوالله إني لخائفٍ أن تقتل كما قتل «عثمان» ونساؤه وولده ينظرون اليه.

وأبى «الحسين» إلا إصراراً...

فلم يبق «لابن عباس» إلا أن يقول محتداً:

– لقد أقررت عين «ابن الزبير» بخروجك من الحجاز وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك، والله الذي لا إله إلا هو، لو أعلم انك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس، أطعتني، لفعلت ذلك.

ثم خرج، فمر بعبد الله بن الزبير فقال له: «قرت عينك يا ابن الزبير»:

يا لك من قنبرة بمعمر

خلا لك الجو، فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

هذا الحسين خارجاً فاستبشري

ودنا موعد خروج «الحسين» والقوم ينظرون اليه في جزع وإشفاق، ثم كانت المحاولة الأخيرة لرده عن السفر.

وكان صاحب هذه المحاولة «عبد الله بن جعفر» زوج السيدة «زينب» التي أجمعت أمرها على أن ترحل هي وأولادها، مع أخيها الإمام، مهما تكن العواقب...

وهنا نلحظ - للمرة الأولى - ان «عبد الله» يقيم بعيداً عن «الحسين»، ويلفتنا أنه لما أراد صرف ابن عمه عن الهجرة لم يذهب اليه بنفسه كما فعل «ابن عباس» وإنما آثر أن يبدأ فيبعث اليه كتاباً مع ولديه محمد وعون.

هل كان «عبد الله بن جعفر» مريضاً لا يقوى على الذهاب إلى «الحسين»؟

كلا، فإن نص كتابه كما حفظته لنا كتب التاريخ، ينفي أن يكون به مرض، وهذا هو الكتاب، نقلاً عن «الطبري وابن الأثير»:

«أما بعد، فإني أسألك بالله ألا انصرفت حين تنظر في كتابي، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في أثر الكتاب والسلام».

فهل كان «عبد الله» يجد في نفسه شيئاً من «الحسين»؟

كلا، فإنه كما نقرأ في كتابه، يرى الحسين «نور الأرض وعلم المهتدين ورجاء المؤمنين».

ففيم احتجاجه إذن وايثاره أن يكتب إلى «الحسين» بدلاً من المبادرة بالذهاب اليه؟

لعل الأمر أبسط من أن نقف عنده، فغير بعيد أن يكون «عبد الله» مشغولاً

ببعض شأنه ، فكتب معجلاً على أن يمضي في أثر كتابه ، وغير بعيد أن يكون قد آثر أن يبدأ محاولته مع الأمير قبل أن يذهب إلى «الحسين».

ولقد قام فعلاً في أثر الكتاب ، لكنه لم يمض إلى «الحسين» من فوره ، وإنما مضى إلى «عمرو بن سعيد» أمير «مكة» من قبل «يزيد».

وجلسا يتدبران الأمر ، فكان رأي «ابن جعفر» أن يكتب الأمير إلى «الحسين» كتاباً يؤمنه ، ويمنيه البر والصلة ، ويسأله الرجوع عما اعتزمه من الرحيل... فقال «عمرو» ملبياً :

– اكتب ما شئت وأتني به حتى أختمه.

فكتب «عبد الله بن جعفر» ما شاء على لسان الأمير ، وسأله أن يبعث به – بعد أن يختمه – مع أخيه «يحيى» بن سعيد» (فإنه أحرى أن تطمئن نفسه اليه ويعلم أنه الجد منك).

ففعل الأمير ، ومضى «يحيى» في صحبة «عبد الله بن جعفر» إلى «الحسين» بالكتاب المختوم.

ورد «الحسين» رداً جميلاً ، لكنه مضى في طريقه لا يلوي على شيء ، فزار قبر جده مودعاً وهو يقول : «وقد غسلت يدي من الحياة ، وعزمت على تنفيذ أمر الله».

* * *

ولن نستطيع أن نمضي معه ، دون وقفة هنا بما كان بين «عبد الله بن جعفر» وزوجته «السيدة زينب».

ذلك اننا لن نراهما معاً منذ اليوم...

وقد شغلتنا تلك الأحداث الصاخبة عن عقيلتنا ، فاندفعنا نرقب تلك الغيوم التي خيمت على بيتها والفواجع التي ألمت به ، بحيث يعذر من يظن أننا نسينا «زينب».

ونشهد اننا لم ننسها ، وإنما شغلنا بالذي كان يشغلها.

والآن نقترب منها ، فنراها في صحبة أخيها دون زوجها.

وسنظل حتى آخر يوم من حياة «زينب» نراها هكذا ، وقد استبدلت بمكانها في بيت «عبد الله بن جعفر» مكاناً لها آخر ، في بيت «الحسين بن علي».

سنراها تمضي في صحبة أخيها ، ويبقى الزوج بالحجاز.

وحتى بعد مقتل «الحسين» لا تعود «زينب» إلى موضعها بجانب الزوج ، وإنما تقيم بالمدينة فترة قصيرة ترحل بعدها إلى «مصر» فتدفن في ثرى أرضها الطيبة – على أرجح الأقوال – في شهر رجب عام ٦٢ هـ.

وبقي «عبد الله بن جعفر» بالحجاز ، ما نعلم أنه غادره حتى مات بمكة عام ٨٠ ، وهو المعروف بعام الجحاف ، إذ دهم «مكة» سيل جحف الحاج وذهب بالابل.

* * *

ونسأل كتب التاريخ والتراجم ، هل كان شيء بين الزوجين؟ فتصمت هذه وتلك ، لا تحير كلتاهما جواباً.

ونريد لننصرف عن مثل هذا فلا نرى الانصراف سهلاً ولا ميسوراً ، لقد كان

يمكن أن نكتفي بصحبة «زينب» في رحلتها، لو أنا لم نلتفت إلى ذلك الفراق بينها وبين زوجها. أما وقد انتبهنا، فسنظل نرقب في كل موقف، تباعد ما بين «زينب» وابن عمها.

سنظل نراها - حتى آخر يوم من حياتها - في صحبة آلها، لا تفارقهم أبداً، ولا تشغل عنهم بزوج أو ولد.

ويلاحقني السؤال في كل آن: أي شيء كان بين الزوجين؟

ثم أعثر أخيراً على خبر - حيث قدرت ألا يكون - في ترجمة لزينب أخرى، غير عقيلة بني هاشم!

ففي الوقت الذي أمسكتْ فيه كتب التاريخ والتراجم عن التعرض لما بين الزوجين، أقرأ في كتاب «السيدة زينب وأخبار الزينبات للعبيدلي النسابة) كلمة عابرة سيقت عرضاً، أثناء الحديث عن «زينب - الوسطى - بنت علي أبي طالب» وهي المعروفة بأم كلثوم، والتي تزوجها «عمر بن الخطاب» صبية صغيرة:

«ولما قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تزوجت بعده محمد بن جعفر بن أبي طالب فمات عنها، فتزوجها عبدالله بن جعفر، وكان زواجه بها بعد طلاقه لأختها زينب الكبرى، فماتت عنده».

وأمسك بطرف هذا الخيط، وأعود فأراجع ترجمة «عبد الله بن جعفر» حيثما ظفرت بها، فلا أرى من المؤرخين أو المترجمين من أشار إلى طلاقه «لزينب العقيلة» وزواجه من أختها «أم كلثوم».

فمتى طلقت «زينب» إذا صح الخبر؟

لا نملك أن نقطع في هذا بيقين، وإنما نرجح أن الطلاق كان بعد وفاة «الإمام علي» وقبل رحيل «الحسين» عن الحجاز.

ذلك لأن «أم كلثوم» ظلت عند «محمد بن جعفر» حتى آخر حياته، وقد رأينا محمداً يشهد «صفين»، ويقاتل بالجموح، تحت راية أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب»، و«أم كلثوم» قد توفيت عند «عبد الله بن جعفر» فيما يقول الخبر - «بغوطة دمشق، عقب محنة أخيها الحسين».

فهي إذن قد كانت عند «عبد الله بن جعفر» حتى توفيت عقب «محنة الحسين».

وإذن تكون «زينب العقيلة» قد طلقت قبل هذا، وسافرت مع أخيها بعد أن حل عقد الزواج.

* * *

ذاك أقصى ما استطعت الآن أن أصل اليه في محاولتي جلاء هذه النقطة الدقيقة الغامضة من حياة «زينب» الزوجية.

ولن أسأل المؤرخين بعد هذا عن أسباب الطلاق، وإنما أنصرف إلى «زينب» فأراها متفانية في حب أخيها وبني أخيها.

وأرى «عبد الله بن جعفر» - في الوقت نفسه - يؤيد «الحسين» بقلبه، وإن تخلف عن الرحيل معه إلى الكوفة.

ولقد ظل يوقره أبداً، ويجاهد ليمنعه مما يخاف عليه منه، فلما صمم «الحسين» على رحلة الموت بعث عبد الله ببنيه مع الإمام، وإنه ليعلم أن الرحلة قد تودي بهم

جميعاً...

وكان قلبه مع «الحسين»، وسوف نراه بعد مصرعه يجلس ليتلقى العزاء فيه، وكل سلواه أن ولديه «محمداً وعوناً» قد استشهدا معه كما روى «الطبري» في (تاريخه). وفي رواية، أن الذين استشهدوا من أبناء «عبد الله» مع «الحسين» ثلاثة: محمد، وعون، وعبيد الله...

* * *

نحو وادي الموت

فصل الركب من «مكة» في طريقه إلى «الكوفة» في أمسية شاحبة راكدة الهواء، ووجمت الجبال المشرفة على البلد الحرام حين رأت «آل محمد» يخرجون منها إلى غير رجعة.

وقد اعترضهم في أول الطريق رسل «عمرو بن سعيد بن العاص: أمير الحجاز» وحاولوا أن يردوهم إلى مكة، وتضارب الفريقان بالسياط. ثم تخلى الرسل، واستأنف الركب المسير.

وكان سراهم حثيثاً في بادئ الأمر، وقد هون عليهم مشقة المسرى أن هناك بالعراق بضعة عشر ألفاً ينتظرون مقدم ابن بنت النبي، كما انتظر الأنصار منذ ستين عاماً، مقدم جدهم المهاجر، محمد ﷺ وآله.

وتلفّتت «زينب» – وكانت على رأس النساء – وراءها مرة ومرتين، ترنو إلى الربوع الغالية المقدسة، وفي قلبها شجن!

لقد هاجرت إلى «العراق» من قبل، يوم كان لها أب، ملء الدنيا، واليوم هذه

هي تسير إلى العراق مرة أخرى ، مثقلة بمتاعب أعوام زادت عن العشرين ، ثكلت فيها أباها . وأخاها الحسن ، وثكلت معهما المرح ، ثم الشباب !..

وتترنح الدموع في مقلتي «زينب» وهي تلقي نظرة ملؤها الرحمة والحب والحزن على الركب الذي يغذ السير: هؤلاء هم كل آلها : أخوها ، وبنوها ، وبنو أخويها ، وبنو عمها ... هؤلاء هم آل الرسول ، وزهرة بني هاشم ، وزينة قريش . يهجرون ديارهم إلى مصير مجهول ، لكنه محتوم !

ترى ما ذاك المصير؟.

لم تنتظر «زينب» طويلاً لتعلم...

فإن الركب لم يكد يقطع مرحلتين من الطريق أو ثلاثاً ، حتى لقيه أعرابيان من بني أسد . فبدا «للحسين» أن يسألها عما تركاه وراءهما بالكوفة ، وفي حسابه أن يصفا له حشداً مهيئاً لاستقباله ، معيداً ذكرى مشهد استقبال الرسول المهاجر إلى «المدينة» وفتيات بني النجار يهتفن من أعماق قلوبهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع !

ولكن ما أسرع ما تبدد الحلم وتلاشى الصدى !

قال الأعرابيان :

— يرحمك الله ، ان عندنا خبراً ، فإن شئت حدثنا علانية ، وإن شئت سراً .

فنظر «الحسين» إلى أصحابه وقال:

- ما دون هؤلاء سر!

قالا:

- يا ابن رسول الله، إن قلوب الناس معك، وسيوفهم عليك، فارجع...

ثم أخبره بقتل ابن عمه «مسلم بن عقيل» وصاحبه «هانئ بن عروة»، فساد القوم وجوم حزين لم يطل... ثم أعولت النساء وضجّ الجمع بالبكاء.

وكانت مناحة في العراء...

وحين خفت ضجة النواح، أراد «الحسين» أن يرجع بآله فوثب عند ذلك «بنو عقيل» وهم يصيحون:

- لا نرجع والله أبداً حتى ندرك ثأرنا. أو نذوق ما ذاق أخونا ونقتل بأجمعنا!

فنظر «الحسين» إلى الأعرابيين اللذين نصحا له بالرجوع، وقال في جد وأسى:

- لا خير في العيش بعد هؤلاء...

وأمن القدر على ما قاله «بنو عقيل»!

لم يرجعوا، بل قتلوا أجمعين...

* * *

ولم يعجل الركب بالسفر هذه المرة:

انتظروا نهارهم كله، وأكثر ليلهم، حتى إذا كان السحر أمر «الحسين» فتيانه

وغلمانه أن يكثروا من الماء، فاستقوا وأكثروا.

ثم هموا يستأنفون المسير...

وكان الشطر الباقي من الرحلة قصيراً:

لم يعد ثمت شك في المصير الرهيب الذي ينتظر الركب وشيكاً، وأبي «الحسين» إلا أن يكشف لمن لحق به من الأعراب عن جلية الأمر، فلعلهم ما تبعوه إلا لظنهم أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله.

قال:

«... أما بعد فقد أتانا خبر فظيع: قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة... وقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام».

فتفرق عنه الأعراب يميناً وشمالاً، حتى بقي في أهله وأصحابه الذين جاءوا معه من الحجاز.

وتحركت القافلة من جديد: واجمة مسيرة، كأنما تدفعها نحو حتفها قوة لا تقاوم ولا تدفع.

وتوالت النذر...

فما انتصف عليهم النهار وهم يسيرون في الفلاة، حتى أتاهم من ينعي اليهم «عبد الله بن بقطر: أخا الحسين من الرضاعة ويأتيهم بخبره، وكان الإمام قد سيره إلى ابن عمه «مسلم بن عقيل» قبل أن يعلم بمقتله، فسبق «ابن بقطر» إلى عبيد الله بن زياد» فأمره أن يصعد فوق القصر ويلعن «الحسين» ثم ينزل حتى يرى فيه رأيه.

وصعد «عبد الله بن بقطر» فأعلم الناس بقدوم «الحسين» ولعن «ابن زياد وأباه» فألقاه ابن زياد من أعلى القصر فتكسرت عظامه وبقي به رمق، حتى جاء من ذبحه ليريحه.

لم يبك الراحلون هذه المرة: كما بكوا عندما نعي اليهم «مسلم»، بل أصغوا إلى النبأ حيارى مطرقين، ثم مضوا في طريقهم لا ينثنون.

ولاح لهم على البعد ما ظنه أحدهم نخلاً، فكبروا، يمنون أنفسهم براحة قصيرة، قبل المعركة المرتقبة.

سأل «الحسين» أصحابه:

– ما هذا التكبير؟

أجابوا:

– رأينا النخيل...

فارتفع صوت آخرين، ممن لهم بالطريق معرفة سابقة:

– ما بهذا الموضع والله نخل، ولا نحسبكم ترون إلا هوادي الخيل وأطراف

ففكر «الحسين» لحظة ثم قال:

– وأنا والله أرى ذلك...

وعاد الصمت الثقيل يلف الراحلين، فما عادت الصحراء تسمع سوى تنهدات النساء ورغاء الإبل...

وبدا كأن شبح الموت يجثم على هذه الكتلة البشرية الحزينة، السائرة في بطء ولكن في عزم وتصميم – نحو نهايتها المفجعة، كأنما ترصدها المنايا أن تحيدا...

وكان حر الظهيرة مرهقاً، فقال «الحسين» بأصحابه إلى جبل (ذي جشم) فأناخوا رواحلهم...

وأطبق على الجو غيم كثيف، تكشف عن «الحر بن يزيد» في ألف فارس من عسكر «عبيد الله بن زياد: أمير الكوفة» جاء يبلغ الحسين رسالة الطاغية:

– إني أمرت أن انطلق بك إلى ابن زياد، أو أجعجع بك فلا أتركك تزول من مكانك.

قال الحسين:

– إذن أقاتلك، فاحذر أن تشقى بقتلي: ثكلتك أمك!

فكظم «الحر» غضبه وأجاب:

– أما والله لو غيرك من العرب يقولها، ما تركت ذكر أمه بالثكل ان أقوله كائناً من كان، ولكن والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بخير الذكر...

وتحرك «الحسين» يريد السير، فتصدى له «الحر» يسايره ويمنعه من التحرك، فسأله «الحسين» عما يريد به، قال:

– إني لم أؤمر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخلك «الكوفة» ولا تردك إلى «المدينة» حتى أكتب إلى ابن زياد. وتكتب أنت إلى «يزيد» إن أردت، فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن

أبتلى بشيء من أمرك.

فتياسر «الحسين» عن طريق «القادسية» ونثر ما معه من كتب أهل «الكوفة»، ثم نظر إلى هؤلاء الذين جاءوا في جيش «ابن زياد» وقال:

– ... وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي، فلعمري لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغترّ بكم... ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام.

فقال له «الحر»:

– إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن!

فقال له «الحسين»:

– أبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟

سأمضي وما بالموت عار على الفتى   إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم   كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما!

فلما سمع «الحر» قوله أطرق خاشعاً متأثراً يدعو الله أن يعفيه من قتال «الحسين».

وكان قد بعث إلى «ابن زياد» يسأله: هل يأذن «للحسين» وآله في الرجوع من حيث جاءوا؟ وإنه ليرجو أن يجيب بنعم!

* * *

وشاع بنأ قدوم «الحسين» بين أهل «الكوفة» فأقبل من أهلها أربعة نفر – أربعة

فحسب ! – يريدون أن يكونوا معه ، فتصدى لهم «الحر» يمنعهم ، ثم كف عنهم لما قال له «الحسين» :

– لأمنعهم مما أمنع منه نفسي !

وأقبل «الحسين» عليهم يسألهم أن يخبروه خبر الناس خلفهم ، فقال قائلهم :

– أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ! وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

ثم حدثوه عما لقي رسوله إلى الكوفة ، فلم يملك دمعته ، وقرأ :

«فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً» اللهم اجعل لنا ولهم الجنة ، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك وغائب مذخور ثوابك .

ثم أطرق صامتاً ...

وباتوا جميعاً ينتظرون .

* * *

فلما كان الصبح وصلى «الحسين» الغداة ، تحرك ثم أخذ يتياسر بأصحابه و«الحر ابن يزيد» يردهم إلى «الكوفة» رداً شديداً ، فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا إلى «نينوى» فإذا راكب مقبل من «الكوفة» يحمل إلى «الحر» أمر «ابن زياد» :

«أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، فلا تنزله إلا بالعراء ، في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك

أمري والسلام».

وحيل بينهم وبين الماء، فباتوا على ظمأ...

وفي الصبح لاحت لهم طلائع جيش «الكوفة»: أربعة آلاف مقاتل، يقودهم «عمر بن سعد بن أبي وقاص» فلما شارفوا مكان «الحسين» بعث «عمر» اليه رسولاً يسأله: ما الذي جاء به؟

أجاب «الحسين»:

–كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم، فأما إذ كرهوني فإني انصرف عنهم.

فكتب «عمر» إلى «ابن زياد» يعرفه ذلك، فلما قرأ «ابن زياد» الكتاب قال:

ألآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة، ولات حين مناص!

ثم كتب إلى «عمر» يأمره أن يعرض على «الحسين» (بيعة يزيد. فإذا فعل ذلك رأينا رأينا) وان يمنعه الماء ومن معه. فأرسل «عمر» خمسمائة فارس نزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وصحبه وبين الماء.

فلما اشتد عليهم العطش. أمر «الحسين» أخاه «العباس بن علي» فسار في عشرين راجلاً وثلاثين فارساً – هم ثلثا صحبه تقريباً – فدنوا من الماء وقاتلوا عليه حتى ملأوا القرب وعادوا...

* * *

وبدا ان الموقف يزداد دقة وحرجاً، فبعث «الحسين» رسوله إلى القوم، يسألهم

أن يختاروا له واحدة من ثلاث :

- أن يرجع إلى الحجاز من حيث جاء.

- أو يمضوا به الى «يزيد بن معاوية».

- أو يسيروا به الى أي ثغر من ثغور المسلمين. فيكون رجلاً من أهله ، له ما لهم وعليه ما عليهم.

فبعث «عمر» بالرسالة» إلى «ابن زياد» ومضى الوقت ثقيلاً مرهقاً في انتظار جواب الأمير.

ثم وصل إلى «عمر» الجواب المنتظر مع «شمر بن ذي الجوشن» :

«أما بعد فإني لم أبعثك الى حسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندي شافعاً.

«انظر : فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم إلي سلما ، وان أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره ، فإنه عاق شاق ، قاطع ظلوم... فإن أنت قضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخلِّ بين شمر وبين العسكر والسلام».

* * *

بطلة كربلاء

ونادى «عمر بن سعد» في جيشه ، ثم زحف نحو «الحسين» قبل الغروب ، و«الحسين» جالس حينذاك أمام خيمته ، محتبياً بسيفه ، وقد أخذته إغفاءة قصيرة من أثر الإجهاد ، وأخته «زينب» الى جانبه ترعاه يقظى لا تنام.

وسمعت «زينب» ضجة الجيش الزاحف عن كثب . فدنت في رفق من أخيها فقالت :

– يا أخي ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟..

فرفع «الحسين» رأسه فقال :

– إني رأيت رسول الله ﷺ وآله في المنام ، فقال لي : إنك تروح إلينا...

فلطمت الأخت وجهها وصاحت :

– يا ويلتاه...

فقال لها الحسين :

– ليس لك الويل يا أخية ! اسكني يرحمك الله.

واتجه إلى أخيه «العباس» فطلب اليه أن يمضي فيستطلع خبر الزاحفين، فلما عرف انه القتال، بعث ثانية يسألهم أن ينصرفوا هذه العشية «لعلنا نصلّي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فإذا أصبحنا التقينا إذا شاء الله، فإما التسليم وإما القتال».

واستشار «عمر» أصحابه في أمر التأجيل، فقال منهم قائل:

– سبحان الله، والله لوكانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم اليها.

وأجلوا إلى غد...

* * *

وانثنى «الحسين» إلى أصحابه، فقال بعد أن أحسن الثناء على ربه:

«أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً...

«ألا واني قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً – أي مركباً – وليأخذ كل رجل منكم برجل من أهل بيتي، ثم تفرّقوا في البلاد حتى يفرج الله، فإن القوم يطلبونني، ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري».

فهتفوا جميعاً:

«معاذ الله والشهر الحرام! فماذا نقول للناس إذا رجعنا اليهم؟ أنا تركنا سيدنا

وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضاً للنبل وذريعة للرماح وجزراً للسباع ، وفررنا عنه رغبة في الحياة؟ معاذ الله ، بل نحيا بحياتك ونموت معك».

ثم سأله سائلهم :

«أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، والله لو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك».

فبكى الإمام تأثراً ، وبكوا عليه !

وجاوبتهم دموع أخرى من الخيام ، حيث السيدة «زينب» ومن معها من نساء البيت الكريم ، يصغين في هم وقلق.

ثم أوى الجمع إلى المضاجع ...

وأطبق على «كربلاء» صمت ثقيل مرهق ، مزقته صيحة تنبعث من فسطاط «الحسين» وإذا امرأة تصرخ من أعماق قلب متصدع :

«واثكلاه ! واحزناه ! ليت الموت أعدمني الحياة ! يا حسيناه ! يا سيداه ! يا بقية أهل بيتاه ! استقتلت ويئست من الحياة؟ اليوم مات رسول الله ، وأمي فاطمة الزهراء ، وأبي علي ، وأخي الحسن ! يا بقية الماضين وثمال الباقين...»

إنها «زينب» لا سواها ! زينب . عقيلة بني هاشم !

وندع «علي بن الحسين» ذاك الذي أنقذته عمته «زينب» من المذبحة – يصف لنا ذلك المشهد فيقول :

«إني والله لجالس في تلك العشية التي قتل أبي صبيحتها ، وعمتي «زينب» تمرضني ، إذ اعتزل أبي أصحابه في خباء له وعنده «مولى أبي ذر الغفاري» يعالج سيفه ويصلحه ، وأبي يقول :

يا دهر أف لك من خليل !
كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليـــل
وكل حي ، سالك السبيل

وأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها فعرفت ما أراد ، فخنقتني عبرتي فرددت دمعي ... فأما عمتي «زينب» فإنها سمعت ما سمعت ... فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حاسرة الرأس حتى انتهت اليه فصاحت : «واثكلاه ... ليت الموت أعدمني الحياة». الخ .

فنظر اليها «الحسين» عليه السلام ملياً ثم قال لها :

– يا أخية ، لا يذهبن بحلمك الشيطان .

قالت :

– بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله ، نفسي فداك !

فرد غصته وترقرقت عيناه وتمتم :

– لو ترك القطا ليلاً لنام ...

قالت :

– يا ويلتا ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً؟ فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي !

ولطمت وجهها وأهوت إلى جيبها فشقته ، وخرجت مغشياً عليها . فقام اليها «الحسين» فصب على وجهها الماء وقال لها :

– يا أخية ، اتقي الله وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه . أبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة.

فلما أفاقت من غشيتها ، قال لها :

– يا أخية ، إني أقسم عليك فأبري قسمي : لا تشقي عليَّ جيباً ، ولا تخمشي عليَّ وجهاً ، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت .

قال «علي بن الحسين» : ثم جاء بها حتى أجلسها عندي ، وخرج إلى أصحابه ... »

ولو علمت «زينب» ماذا كان ينتظرها وقومها غداة تلك العشية ، لادخرت دموعها إلى غد !

* * *

وكانت ليلة ليلاء ... أمضاها أكثرهم مسهدين يحدقون في شبح الموت الذي كان جاثماً لهم بالوصيد . يتربّص بهم مطلع النهار.

وراحت «زينب» ترسل عينيها في جمود شارد إلى الظلام المخيم على الصحراء ،

فإذا ارتد اليها وعيها قامت فطافت بمضاجع بنيها واخوتها . تتزود لفراق طويل .

* * *

وتنفس الصبح ، وتلاقى الجيشان !

ولكن أي جيشين ؟ !

«عمر بن سعد» في أربعة آلاف من جيش أمير الكوفة ، كامل العدة شاكي السلاح ...

ومن ورائهم الدولة والسلطان .

و«الحسين» في اثنين وثلاثين فارساً ، واربعين رجلاً من أهله وصحبه !

ومن ورائهم ، الصبية والنساء !

أخذ «الحسين» يرقب هاتيك الآلاف وهي تزحف نحو أصحابه السبعين ، فلما دنوا منه دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته : أن اسمعوا قولي ولا تعجلوني ثم اقضوا إلي ولا تنظرون . «إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين» .

وتناهى صوته إلى زوجاته واخواته وبناته ، فصحن وبكين ، وارتفعت أصواتهن حتى بلغته ، فأرسل إليهن ابنه علياً وأخاه العباس وقال لهما : «اسكتاهن ، فلعمري ليكثر ن بكاءهن» .

وذكر إذ ذاك ابن عمه «عبد الله بن عباس» ، وخيل إليه أنه يسمع صدى صوته آتيا من بعيد ، يلح عليه ألا يخرج عن الحجاز إلى الكوفة : «فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده

ينظرون اليه».

ولم ينقطع الصدى حتى سكتَتْ الصائحات الباكيات.

فلما سكتن، عاد فالتفت إلى جيش الكوفة، وقال بعد أن حمد الله:

«أما بعد. فانسبوني فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها وانظروا؛ هل يصلح ويحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيه وابن عمه وأولى المؤمنين بالله؟ أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض أن رسول الله ﷺ وآله قال لي ولأخي: أنتما سيدا شباب أهل الجنة وقرة عين أهل السنّة؟ أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟»

فلما لم يلق القوم اليه سماعهم قال:

«فإن كنتم في شك مما أقول، أو تشكون في أني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري».

فلم يجبه منهم مجيب.

واستطرد يسأل:

«أتطلبون بقتيل منكم قتلته، أو بمال استهلكته، أو بقصاص من جراحة»؟

فسكتوا لا يحيرون جواباً...

هنالك راح «الحسين» يتفرس في رؤوس جيش الكوفة وينادي: يا فلان... ويا فلان... ويا فلان... ألم تكتبوا إلي: أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت

الجام وإنما تقدم على جند لك مجند فأقبل؟..

فتمزقت كلماته بدداً، لم يكد يصغي اليها من القوم سوى «الحر بن يزيد» فإنه قام إلى قائده «عمر بن سعد» يسأله :

– أصلحك الله، أمقاتل أنت هذا الرجل؟

أجابه «عمر» :

– أي والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس ولا تطيخ الأيدي.

قال «الحر» :

– أفما لكم في واحدة من الخصال الثلاث التي عرض عليكم رضى؟

قال «عمر» :

– والله لو كان الأمر إلي لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك.

فلم يزد «الحر».

وانثنى يدنو نحو «الحسين» قليلاً قليلاً وقد أخذته رعدة، ولمحه رجل من قومه فقال :

– والله إن أمرك لمريب ! والله ما رأيت منك في موقف قط مثل ما أراه الآن، ولو قيل لي : من أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتك !

فقال له «الحر» :

– إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت

وحرقت!

ثم ضرب فرسه فلحق «بالحسين» وقال له:

«جعلني الله فداك يا ابن رسول الله. أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان، والله ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً... ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك الذي سألتهم، ما ركبتها منك. وإني قد جئتك تائباً إلى ربي مما كان مني، مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك».

ثم التفت إلى معسكر أصحابه فقال:

«يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل والعبر! أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه؟ وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه، وأحطتم به ومنعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً! ومنعتموه ومن معه من ماء «الفرات» الجاري الذي يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي، وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وهو وأهله قد صرعهم العطش!! بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا..».

فكان جوابهم أن رموه بالنبل، ورجع هو حتى وقف أمام «الحسين» فناضل عنه حتى استشهد...

دارت المعركة بين الآلاف والعشرات!

وجعل أصحاب «الحسين» يتقدمون رجلاً بعد رجل، (فقاتلوهم حتى انتصف النهار، أشد قتال خلقه الله).

وقام – رضي الله عنه – فصلّى بمن بقي معه صلاة الخوف ظهراً ، وعادوا إلى القتال ، ثم لما علموا أنهم لا يقدرون أن يمنعوا إمامهم ، تنافسوا أن يقتلوا بين يديه ، حتى فنوا جميعاً ولم يبق غير أهل بيته ، فتقدموا مستبسلين.

وكان أول قتيل منهم ، «علي الأكبر بن الحسين» أخذ يشد على الناس وهو يرتجز :

أنا علي بن الحسين بن علي
نحن ، وبيت الله ، أولى بالنبي

... ...

أضربكم بالسيف حتى يلتوي
ضرب غلام هاشمي علوي
ولا أزال اليوم أحمي عن أبي
تالله لا يحكم فينا «ابن الدعي» !

وكان يكر على الكوفيين ، ثم يرجع إلى أبيه يقول

– يا أباه ، العطش !

فيقول له «الحسين» :

– اصبر بني ، فإنك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله ﷺ وآله بكأسه !

فعاد الشاب يشد على العسكر ، وظل يكر الكرة بعد الكرة حتى رمي بسهم فوقع في حلقه فخرقه ، وأقبل يتقلب في دمه ، فتلقاه أبوه وهو يقول بصوت ثاكل :

– قتل الله قوماً قتلوك يا بني ! ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسول الله ! على الدنيا بعدك العفاء...

قالوا : ولم يكد يتم عبارته حتى اندفعت من خيام النساء امرأة كأنها الشمس طالعة ، تنادي في جزع :

(يا حبيباه ! يا ابن أخاه...)

فسأل عنها من لا يعرفها ، فقيل : هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وآله.

اندفعت «زينب» حتى انكبت على الفتى الشهيد. فجاءها «الحسين» فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط ، ثم عاد إلى ولده وقد أقبل فتيانه إليه ، فقال مفجوعاً :

– احملوا أخاكم.

فحملوه من مصرعه...

* * *

وأحاط القوم «بالحسين» فأقبل «القاسم بن الحسن بن علي» – وهو يومئذ غلام – يجري نحو عمه ، فجرت «زينب» إليه تريد أن تمنعه ، لكن الغلام أفلت منها حين رأى مجرماً يهوي بالسيف إلى «الحسين» ومد «القاسم» يده ليتقي ضربة السيف وهو يصيح بالمجرم :

«يا ابن الخبيثة أتقتل عمي»؟

فقطع السيف يده ، وبقيت معلقة بخيط من الجلد.

صرخ الغلام الشهيد وهو يفحص برجليه :

– يا أماه !

فأجابته «زينب» من بعيد :

«لبيك يا فتاي» !

وهرعت إليه ، فإذا «الحسين» واقف عند رأسه يقول :

«عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك صوته» .

ثم احتمله حتى ألقاه مع ابنه علي ، بين عيني «زينب» .

وأخذت «زينب» تتلقى هذا المحتضر من آلها أو ذاك ، فلا يكاد يلفظ النفس الأخير حتى تحتضن أشلاء آخر.

وكان فيمن حمل إليها ، ولدها عون بن عبد الله ، وأخواه محمد وعبد الله ، وإخوتها : العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد ، وأبو بكر ، وابنا أخيها الحسين : علي ، وعبد الله ؛ وابنا أخيها الحسن : أبو بكر والقاسم ، وبنو عمها عقيل : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله و... و... !

والرحى دائرة في جنون ، لا تريد أن تكف وعلى أرض كربلاء من «بني طالب» حي يتنفس !

وحين قاربت المعركة نهايتها ، اندفع عشرة رجال من جيش «ابن زياد» إلى فسطاط «الحسين» الذي فيه عياله ومتاعه لينهبوه ، فردتهم صيحة الإمام الذي كان يقاتل وحده :

«ويلكم ! إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في الدنيا ، فرحلي لكم عن ساعة مباح» !

* * *

وأبيح الرحل بعد ساعة...

ويا لها من ساعة رهيبة ، جعل «الحسين» يقاتل فيها وحده بعد أن قتل عنه ولده وأهل بيته وأصحابه ، فلم يبق منهم أحد...

قال من رآه يقاتل الجمع رابط الجأش : «فوالله إنه لكذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة ، وكأني أنظر إلى قرطها يجول بين أذنيها وعاتقها وهي تقول :

«ليت السماء انطبقت على الأرض».

فلما دنا «عمر بن سعد» من «حسين» قالت : «يا عمر بن سعد ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر»؟ فكأني أنظر إلى دموع «عمر» وهي تسيل على خديه ولحيته ، ثم أشاح بوجهه عنها...

أجل «زينب» حتى اللحظة الأخيرة ، وفي كل لحظة...

«زينب» دون سواها من الزوجات والأمهات والأخوات اللواتي شهدن «كربلاء» !

* * *

وبقي «الحسين» وحده ، (فما رؤي مكسور قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه ، أربط جأشاً منه ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً).

ووقفت أخته «زينب» غير بعيد تملأ عينيها منه قبل أن يمضي، حتى إذا أثخنته الجراح وأوشك أن يهوي، خانها جلدها فلم تعد تقوى على النظر إليه، فأغمضت عينيها وأصغت بملء جوارحها إلى صيحته الأخيرة في الألوف المجتمعة عليه:

«أعلى قتلي تجتمعون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم».

فكأنما زلزل الأرض تحت أقدام المنتصرين.

ومكث - رحمه الله - طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه، لكنهم مضوا عنه واحداً في أثر واحد، لا يكاد يهم به الرجل منهم حتى يضعف ويرعد.

* * *

ثم قضى الله امره، وكانت النهاية المحتومة!

قتل «الحسين»، وكان بجثته حين قتل، ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة.

ضربت كتفه اليسرى بالسيف فقطعت...

وأجهزت ضربة أخرى على الشهيد...

وتقدم ثالث فاحتز رأسه!

وكفت الرحى المجنونة بعد أن لم يبق من آل البيت من تطحنه!

وردت السيوف إلى أغمادها حين لم يعد هناك من تذبحه.

وتركت جثث الشهداء بالعراء...

«ومال الناس على الحلل والإبل فانتهبوها، ومالوا على نساء «الحسين» وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها» كما في عبارة الطبري...

وجعلت الخيل تطأ جثث الشهداء!

* * *

وغربت شمس العاشر من المحرم سنة إحدى وستين، وأرض «كربلاء» غارقة في الدماء، قد تبعثرت فيها أكرم الأشلاء، ولاح القمر من وراء الغيوم خابي الضوء شاحبة.

وعلى ذلك الضوء الشاحب بدت «زينب» في نفر من الصبية وجمع من الأرامل والثواكل، عاكفات على تلك الأشلاء، يلتمسن فيها ذراع ولد حبيب، أو كتف زوج عزيز أو قدم أخ غال.

وغير بعيد منهن، كان عسكر «ابن زياد» يسمرون ويشربون ويحصون على ضوء المشاعل ما قطعوا من رؤوس وما انتهبوا من أسلاب.

وسمعت أصوات من هناك، تقول للذي احتز رأس الإمام الشهيد:

«قتلت الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وآله. قتلت أعظم

العرب خطراً... أراد أن يزيل ملك هؤلاء فأت أمراءك واطلب جزاءك منهم فإنهم لو أعطونك بيوت أموالهم في قتله كان قليلاً».

فكان جوابه أن وقف بباب فسطاط «عمر بن سعد» ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضة وذهبا
إني قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأبا
وخيرهم، إذ ينسبون، نسبا

* * *

وقيل انتهت القصة...

قصة ثلاثة وسبعين شهيداً ثبتوا ساعات ذات عدد أمام أربعة آلاف.

حتى قتلوا عن آخرهم!

وسيمر حين قبل أن تكون لهم قبور تجمع ما تناثر من أشلائهم، ويقف بها الرائي منشداً:

وقفت على أجـــداثهم ومجالهم فكاد الحشى ينفض والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى سراعاً إلى الهيجا، حماة خضارمه
تـأسوا على نصر ابن بنت نبيهم بـأسيـافهم آساد غيـل ضراغمـه
وما أن رأى الراءون أفضل منهم لـدى الموت سادات وزهراً قماقمه

ولم يبق من أشخاص القصة الذين ظهروا على المسرح الدامي سوى «زينب».

«زينب» التي لم تكد تغيب عنا لحظة طول المشهد الفاجع ، والتي ذهبت وحدها في التاريخ بالدور الخالد : «بطلة كربلاء» هي التي سمعت الصيحة الأولى ، وكانت إلى جانب أخيها وقد أغفى ، وهي يقظى لا تنام!

وكانت إلى جانب المريض تمرضه ، والمحتضر تواسيه ، والشهيد تبكيه .

وهي التي رؤيت إلى جانب «الحسين» - رضي الله عنه - منذ بدأ القتال حتى انتهى ...

* * *

المبحث الرابع

بعد المأساة

- موكب الأسرى
- أوبة الركب
- الرحلة الأخيرة
- طالبة الثأر
- الصدى الخالد

موكب الأسرى

وكر نفر من الجيش راجعاً إلى الكوفة ، موقراً بحمله الرهيب من رؤوس الشهداء.

وكان الليل قد أوغل ، وقصر «ابن زياد» قد أغلق.

قالوا : فذهب حامل رأس الإمام الشهيد إلى منزله ، فوضع الرأس في مكان منه ودخل فراشه فقال لامرأته : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس «الحسين» معك في الدار!

فصاحت مرتاعة :

– ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن بنت رسول الله ﷺ وآله؟ والله لا يجمعني وإياك بيت أبداً!

وانطلقت من الدار خارجة تعدو في ذعر...

* * *

وسيق موكب الأسرى والسبايا ، فكان أبشع موكب شهده التاريخ منذ كان...

كان فيهم صبيان للحسن بن علي ، استصغرا فتركا بلا ذبح وأخ لهما ثالث ، ارتث جريحاً فحمل مع الركب.

وغلام مريض من أبناء الحسين، هو «علي الأصغر. زين العابدين» أنقذته عمته «زينب» بشق النفس. فكان كل من بقي من سلالة شهيدها الغالي.

ومع «زينب العقيلة» سيقت أختها «فاطمة» و«سكينة بنت الحسين» وبقية نساء بني هاشم : سبايا أسيرات.

وجاز الركب بساحة المعركة حيث الأشلاء مبعثرة في الدماء، فصاحت «زينب» :

«يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ! هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، يا محمداه ! هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا ».

فضجت النسوة من ورائها بالنواح ، وبكى كل عدو وصديق.

* * *

ودخل الموكب «الكوفة».

ووقفت الجموع محتشدة تشهد نساء البيت النبوي ، في طريقهن إلى «عبيد الله بن زياد».

وسمعت آهة من هنا ، وشهقة من هناك ، وكلمة من هنالك : رثاء وعزاء...

ورؤيت نساء «الكوفة» قياماً يندبن متهتكات الجيوب وبكى الباكون ، على الكريمات المستذلات.

فلم تطق «زينب» على ذلك صبراً...

لم تطق أن ترى أهل «الكوفة» يبكون وهم الذين خذلوا أباها وأخاها الحسن» ، وأسلموا ابن عمها «مسلم بن عقيل» وغرروا بأخيها «الحسين» فلما جاءهم باعوا سيوفهم ليزيد.

لم تطق أن ترى أهل الكوفة يبكون «الحسين» وآله وهم ضحاياهم ، ويرثون للأسيرات من بنات الرسول ، وما انتهك حرمتهن سواهم ! -

وذكرت ذم أبيها «علي» -كرم الله وجهه- أهل «الكوفة» وشكواه منهم ، ثم سرحت بصرها بعيداً ، حيث جثث الشهداء من أهلها ممزقة منبوذة بالعراء ، حتى استقرت عيناها أخيراً على أولئك الباكين ، فأشارت إليهم أن اسكتوا.

فطأطأوا رؤوسهم خزياً وندماً ، على حين مضت هي تقول :

«أما بعد يا أهل الكوفة ، أتبكون؟ فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرنة ! إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم ألا ساء ما تزرون.

«أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها بغسل ابداً . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء !..

«أتعجبون لو أمطرت دماً؟ ! ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، ان سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون...

«أتدرون أي كبد فريتم، وأي دم سفكتم، وأي كريمة أبرزتم؟ لقد جئتم شيئاً إدًّا، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا».

قال من سمعها: «... فلم أر والله خفرة أنطق منها، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فلا والله ما أتمت حديثها حتى ضج الناس بالبكاء، وذهلوا، وسقط ما في أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء».

ثم لوت رأسها عنهم، ومضت قدماً، إلى حيث أريد لها أن تمضي، هي والسبايا من آل البيت الكريم.

مضت حتى بلغت دار الإمارة، فأحست شجا في حلقها!

إنها تعرف كل قطعة في هذي الدار، فلقد كانت دارها، أيام كان أبوها «علي» أمير المؤمنين. ملء الدنيا والحياة...

وترنحت الدموع في مقلتيها، لكنها أبت عليها أن تذل، ونادت شجاعتها وهي تجتاز الساحة الكبرى حيث رأت – منذ أكثر من عشرين عاماً – ولدها عوناً يحبو لاهياً، ورأت شقيقيها الحسن والحسين ملء القلوب و الأبصار.

ووضعت يمناها على ما بقي من قلبها خشية أن يتصدع، حين أشرفت على القاعة الكبرى ورأت «عبيد الله بن زياد» جالساً حيث تعود أبوها أن يجلس: يستقبل الوفود، ويجتمع بالرسل والأمراء والولاة...

إنها تدخلها اليوم أسيرة يتيمة ثكلى، قد فقدت أباها، وولدها وشقيقيها، وبقية آلها.

ودَّت إذ ذاك لو نفست عن أشجانها بدمعة ، أو أنة ، لكنها كرهت أن تلقى الطاغية ذليلة باكية.

لم تكن قط كما هي اليوم ، بحاجة إلى أن تلوذ بكل كبريائها وقوتها ، وعزة بيتها ، وشرف آلها ، وعراقة محتدها ، لكي تقف الموقف الجدير بحفيدة الرسول ، وعقيلة بني هاشم.

وهي أشد حاجة إلى ذاك ، لتؤدي دورها الذي ينتظرها ، بعد أن اجتاح الإعصار كل من كان لها من الرجال...

وتقدمت «زينب» في مهابة وجلال ، وقد لبست أرذل ثيابها وحفت بها إماؤها ، فأخذت مجلسها دون أن تلقي بالاً إلى الأمير الطاغية.

وأخذتها عيناه وهي تجلس بادية الترفع ، قبل أن يؤذن لها في الجلوس ، فسألها : (من تكون)؟.

فلم تجب...

وأعاد السؤال مرتين وثلاثاً ، وهي لا تجيب ، احتقاراً له واستصغاراً لشأنه!

وأجابت إحدى امائها :

- هذه زينب ابنة فاطمة.

قال لها «ابن زياد» وقد غاظه ما كان منها : «الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم ، وأكذب أحدوثتكم».

فردت عليه ونظراتها تقطر احتقاراً : «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه ﷺ وآله ،

وطهرنا من الرجس تطهيراً ، إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله ».

فسألها :

–كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟

أجابت وما يزايلها ترفعها :

–كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده.

وهنا صغر الطاغية واضمحل ، لكنه قال في اشتفاء :

– قد شفي الله نفسي من طاغيتك والعصاة والمردة من أهل بيتك...

فردت عبرتها وهي تقول :

– لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبرت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت.

قال ساخراً في غيظ :

– هذه سجاعة ، لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً.

فقالت في رزانة صارمة :

– ما للمرأة والسجاعة؟ إن لي عن السجاعة لشغلاً.

فرد عنها بصره ، وعاد يتأمل وجوه أسراه حتى استقرت عيناه على « علي الأصغر

ابن الحسين» فأنكر بقاءه حياً وسأله :

- ما اسمك ؟

أجاب الغلام : أنا علي بن الحسين.

فعجب «ابن زياد» وتساءل :

- ولكن ، او لم يقتل الله علي بن الحسين؟

فسكت الفتى ...

وعاد «ابن زياد» يستحثه :

- ما لك لا تتكلم؟

قال :

- قد كان لي أخ يقال له أيضاً «علي» فقتله الناس.

قال «ابن زياد» :

- إن الله قد قتله !..

فأمسك الفتى لا يرد ، ثم قال حين استحثه «ابن زياد» :

- الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله.

فصاح الطاغية :

- أنت والله منهم ، ويحك !

ثم التفت إلى رجاله فقال :

- أنظروا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلاً!

ثم أمر به أن يقتل، فاعتنقته عمته «زينب» وهي تقول:

- يا ابن زياد، حسبك منا! أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحداً؟

ثم آلت عليه: ليدعن الغلام، أو فليقتلها معه...

فتأملها «ابن زياد» برهة، ثم انثنى يقول لأصحابه:

- عجباً للرحم! والله إني لأظنها ودت لو أني قتلتها معه: دعوا الغلام ينطلق مع نسائه.

وأمر «ابن زياد» برأس «الحسين» فطيف به في الكوفة محمولاً على خشبة.

ثم جعل الغل في يدي «علي زين العابدين» ورقبته...

* * *

وسيق الموكب مرة أخرى إلى دمشق...

رأس الحسين، ورؤوس السبعين من آله وصحبه، والأسرى من الصبية في الأغلال، والسبايا من نساء البيت الكريم محمولات على الأقتاب في حراسة بعض رجال «ابن زياد» الأشداء.

لم يتكلم «علي بن الحسين» طوال الطريق.

ولم تتكلم عمته «زينب».

كانت المحنة الفادحة قد ألجمت لسانيهما فانطوى «ابن الحسين» على نفسه صامتاً

يحدق في الأغلال.

وراحت «زينب» ترمق رؤوس الشهداء من آلها واجمة صامتة!

حتى إذا بلغوا «دمشق» سير بهم تواً إلى حضرة «يزيد بن معاوية» وصرخات النادبات من دوره تملأ الفضاء!

وكان «يزيد» قد دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله.

ووضعت رأس «الحسين» بين يديه، فالتفت إلى أصحابه يقول:

«هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضب في أيماننا تقطر الدما
يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلما!

ثم استطرد قائلاً وهو يشير إلى رأس الشهيد:

«أتدرون من أين أتى هذا؟ قال: أبي علي خير من أبيه، وفاطمة أمي خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر. فأما قوله: أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له. وأما قوله: أمي خير من أمه، فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي. وأما قوله: جدي رسول الله خير من جده، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً أو نداً. ولكنه – أي الحسين – أتي من قبل فقهه، ولم يقرأ: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء!».

ثم أمر بإدخال الأسرى والسبايا.

وجعل أهل المجلس ينظرون إلى بنات البيت الهاشمي ، وقد كن - حتى أمس قريب - عزيزات منيعات مصونات !

وذكروا عزة آلهن وشرف بيتهن ، فغضوا أبصارهن على استحياء إلا رجلاً شامياً ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق في فاطمة بنت علي - وكانت شابه وضيئة - ويلتهمها بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة مشمئزة ، وقام الرجل إلى «يزيد» فقال :

- يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه !

فأخذت فاطمة بثياب أختها «زينب» مذعورة ترتجف.

قالت «زينب» وهي تحتضن أختها :

-كذبت والله ولؤمت ! ما ذلك لك ولا له !

فغضب يزيد وقال :

-كذبت والله ، إن ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلت !

قالت :

-كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.

فاستثاره قولها غضباً وتساءل منكراً :

- إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فأجابت في إصرار:

– بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت يا يزيد، أنت وأبوك وجدك!

قال محنقاً:

– كذبت يا عدوة الله!

فهزت رأسها استخفافاً وهي تقول:

– أنت أمير مسلط، تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك...

فلم يجب...

وساد القاعة وجوم ثقيل، ثم عاد الشامي يملأ عينيه من «فاطمة» ويقول:

– يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية!

فصاح به أميره:

– أغرب، وهبك الله حتفاً قاضياً!

* * *

ثم كان المشهد الرهيب:

كشف «يزيد» عن رؤوس الشهداء، وانثنى يعبث بقضيب في يده، بثنايا الإمام «الحسين» وهو ينشد:

ليت اشياخي «ببدر» شهدوا جزع «الخزرج» من وقع الأسل
لأهلوا، واستهلوا فرحاً ثم قالوا: يا «يزيد» لا تشل!

فبكت نساء هاشم إلا «زينب» فإنها انتفضت تصيح في الطاغية:

«صدق الله يا يزيد: «ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوء، أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون»:

«أظننت يا يزيد انه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأساري، أن بنا هواناً على الله، وأن بك عليه كرامة؟ وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفيك جذلان فرحاً، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك والأمور متسقة عليك؟ ان الله ان أمهلك فهو قوله: «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين».

«أمن العدل يا ابن الطلقاء، تخديرك بناتك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ وآله كالأسارى قد هتكت ستورهن، وأصلحت أصواتهن، مكتئبات تجري بهن الأباعر، وتحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد ليس معهن قريب من رجالهن؟...

«أتقول: ليت أشياخي ببدر شهدوا، غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا «أبي عبد الله» بمخصرتك؟ ولم لا وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإهراقك هذه الدماء الطاهرة، دماء نجوم الأرض من «آل عبد المطلب»؟

«ولتردن على الله وشيكاً موردهم، وعند ذلك تود لو كنت أبكم أعمى.

«أيزيد والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك! وسترد على رسول الله ﷺ وآله برغمك، ولتجدن عترته ولحمته من حوله في حظيرة القدس،

يوم يجمع الله شملهم من الشعث : «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون».

«وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحكم ربنا والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك أينا شر مكاناً وأضعف جنداً.

«فلئن اتخذتنا في هذه الحياة مغنماً ، لتجدننا عليك مغرماً. حين لا تجد إلا ما قدمت يداك. تستصرخ بابن مرجانة - عبيد الله بن زياد - ويستصرخ بك ، وتتعاوى واتباعك عند الميزان وقد وجدت أفضل زاد تزودت به : قتل ذرية محمد ﷺ وآله.

«فوالله ما اتّقيت غير الله ، وما شكوت إلا لله ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبداً ! »

وسكتت . فأطرق «يزيد» وأطرق كل من كان معه ، كأن على رؤوسهم الطير...

* * *

وقيل إن «هنداً بنت عبد الله بن عامر : زوجة يزيد» سمعت بما يدور في مجلس زوجها ، فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت : «يا أمير المؤمنين ، أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله؟»

قال :

- نعم ، فأعولي عليه وحدي...

ورآه أحد الصحابة وهو ينكت بقضيبه في ثغر «الحسين» فقال منكراً:

«أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟ أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذاً لر بما رأيت رسول الله ﷺ وآله يرشفه! أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة و«ابن زياد» شفيعك، ويجيء هذا - مشيراً إلى الحسين - يوم القيامة ومحمد ﷺ وآله شفيعه».

* * *

وضاق «يزيد» بمرأى «زينب» وهزه ما سمع منها، فأشاح عنها بوجهه وهو يشير إليها وإلى النساء معها أن يخرجن إلى داره.

وأمر «بعلي بن الحسين» فأدخل مغلولاً فقال:

- لو رآنا رسول الله ﷺ وآله مغلولين لفك عنا.

قال «يزيد» وما يزال صوت «زينب» يدوي في أذنيه:

- صدقت.

وأمر بفك الغل عنه، ثم قرّبه إليه وهو يقول كالمعتذر:

- إيه يا علي بن الحسين! أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت.

فكان جواب «علي» أن تلا قوله تعالى: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور».

فهم «يزيد» بأن يتلو الآية:

«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ...» لكنه ما لبث أن سكت، فقد كان صراخ النسوة يسمع من بعيد، فاجعاً مؤثراً، عالي الرنين.

ولم تكن بنات هاشم وحدهن الباكيات، بل واستهن نساء بني أمية بدموعهن.

فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على «الحسين».

وأقيمت المناحة ثلاثة أيام وصالاً، ثم أمر «يزيد» فجهزن للسفر إلى «المدينة» في صحبة حارس أمين، معه خيل وأعوان...

وقيل إن «يزيد» دعا «علياً» فقال له مودعاً:

«لعن الله ابن مرجانة – يعني ابن زياد – أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله ما رأيت».

وسأله أن يكتب إليه كلما عنت له حاجة، ثم انسل إلى مخدعه وصدى صوت «زينب» يطارده في قسوة وإلحاح!

* * *

وخرج الحارس بنساء «الحسين» وصبيته، يسايرهم بالليل متلطفاً فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه، فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم، بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءاً أو قضاء حاجة لم يحتشم، فلم يزل ينازلهم في الطريق هكذا، وهو يسألهم من حين إلى حين: «هل من حاجة؟»

قالت «زينب» مره:

- لو عرجت بنا على «كربلاء»؟!

فأجاب محزوناً:

- أفعل!

ومضى بهم حتى أشرفوا على الساحة المشئومة.

* * *

كان قد مضى على المذبحة يومئذ أربعون يوماً، وما تزال الأرض ملطخة ببقع من دماء الشهداء، وبقية من أشلاء عفنة، عف عنها وحش الفلاة.

وناحت النوائح، وأقمن هناك ثلاثة أيام لم تهدأ لهن لوعة ولم ترقأ لهن دمعة، ثم أخذ الركب المنهك طريقه إلى مدينة «الرسول».

فلما كانوا بظاهر المدينة قالت «فاطمة بنت علي» لأختها «السيدة زينب»:

- يا أخية، لقد أحسن هذا الرجل إلينا في صحبتنا، فهل لك في أن نصله؟

أجابت «العقيلة».

- والله ما معنا شيء نصله به إلا حلينا...

وأخرجتا سوارين لهما ودملجين، فبعثتا به إلى الرجل، معتذرتين إليه عن ضآلة الهدية، بضيق الحيلة واليد.

لكن الرجل رد إليهما الحلي قائلاً:

– لو كان الذي صنعت إنما هو للدنيا ، كان في حليكن ما يرضيني ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

أوبة الركب

كانت «المدينة» في تلك الفترة، واجمة تترقب أنباء سبط الرسول الذي خرج لى «الكوفة» ملبياً نداء شيعته هناك، فما راعها إلا منادٍ ينادي:

«إن علي بن الحسين قد قدم إليكم مع عماته وأخواته».

علي بن الحسين؟ والعمات والأخوات؟

فأين «الإمام الحسين» إذن؟ وأين الأعمام والإخوة وبنو الأعمام؟

أين نجوم الأرض من «بني الزهراء» وآل عبد المطلب؟

أين... وأين!

وانتشر صدى النعي حتى بلغ سفح «أُحد» ثم ارتد إلي البقيع، فقباء، خافتاً نزقاً، وما لبث أن تلاشى في صراخ الباكين وعويل النادبات.

لم تبق مخدرة في «المدينة» إلا برزت من خدرها نائحة معولة، واندفعت «زينب

بنت عقيل بن أبي طالب» – أخت مسلم – ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وتصرخ :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم، وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى، ومنهم ضرجوا بدم؟
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وسمع من بعيد صوت ينوح :

أيها القائلون جهلاً «حسيناً» أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبي، ومالك، وقبيل
قد لعنتم على لسان أبي داو د وموسى، وحامل الإنجيل!

وأهل الركب الحزين على الجموع التي خرجت لاستقباله، فما رأت «مدينة الرسول» أفجع مشهداً، ولا رأت مثل ذاك اليوم أكثر باكياً وباكية!

* * *

وذكرت «المدينة» ليلة خرجوا منها إلى «مكة» – في إحدى أمسيات شهر رجب الفرد – جمعاً كريماً يتقدمه «زين شباب الجنة» في هالة من النجوم الزهر... خرجوا يطاولون «يزيد بن معاوية» ليزيلوه عن عرش لم يروه له أهلاً...

لقد آب الركب من سفره بعد تلك الغيبة التي لم تتجاوز أشهراً معدودات، فيا لله ماذا فعلت بهم الليالي والأيام؟

حثتهم إلى مناياهم سراعاً، حتى إذا بلغوا وادي الردى – ذاك الذي خالوه وادي

الأمل – حصدهم منجل الموت حصداً ، فلم يترك سوى هذه البقية التعسة من الصبية اليتامى والنسوة الثواكل!

أمّا الرجال والشباب فلم يؤب منهم مسافر...

* * *

وأقامت «مدينة الرسول» أياماً بلياليها تشهد المأتم الرهيب ، وتصغي إلى النواح الفاجع ، وتتلقى في ثراها الطاهر دموع البواكي...

وإذ ذاك نرى «عبد الله بن جعفر» – زوج زينب – يجلس ليتقبل العزاء في ولديه : عون الأكبر، ومحمد. وفي ابن عمه «الحسين» وبقية الشهداء من آل جعفر وبني عبد المطلب.

ونسمع مولى من مواليه يقول في حمق :

«هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين».

فيقذفه «عبد الله» بنعله ساخطاً مغضباً وهو يقول :

«يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه. والله انه لمما يسخى بنفسي عن ولدي ويهون عليَّ المصاب فيهما ، أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي ، مواسيين له صابرين معه»

ثم ينثني إلى جلسائه فيقول : «أعزز علي بمصرع الحسين ، ألا تكن يدي اسـت حسيناً ، فقد آساه ولداي».

ثم ينفض المأتم. وتبقى الأرامل والثواكل ، يسعين كل يوم إلى القبور فيندبن

الأعزاء الذين غودروا بكربلاء، وترجِّع «المدينة» أصداء أصواتهن فيبكي لهن الأعداء والأصدقاء.

حدثوا أن «أم البنين بنت خزام: زوج الإمام علي» كانت تخرج إلى البقيع فتبكي بنيها الأربعة «عبد الله، وجعفراً، وعثمان، والعباس» – وقد قتلوا جميعاً في كربلاء. وتندبهم أشجى ندبة وأحرقها، فيجتمع الناس إليها يسمعون منها، فكان مروان بن الحكم – عدو الطالبيين – يجيء فيمن يجيء لذلك، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكي!

وقيل إن «الرباب بنت امرئ القيس: زوج الحسين وأم ابنته سكينة» عادت بعد مصرعه إلى المدينة «فامتنعت على الخطاب من أشراف قريش، وبقيت بعده سنة لم يظلها سقف بيت حتى بليت وماتت!»

* * *

ونفتقد «السيدة زينب» في المأتم الذي أقامه «عبد الله بن جعفر» لولديه، فيخيل إلينا أنها أغفت مجهدة بعد أن ألح عليها السهاد.

غير أنّا لا نلبث أن نراها وقد أمسكت دموعها، وهبت تطلب أمراً...

ان لها اليوم لشأناً آخر، غير البكاء!

فهذا الدم المسفوح، لا ينبغي أن يضيع هدراً...

وأولئك الشهداء الكرام، لا يجوز والله أن يذهبوا باطلاً!

* * *

الرّحلة الأخيرة

أرادت «السيدة زينب» أن تقضي ما أبقت لها الأيام من عمر، في جوار جدها الرسول، لكن «بني أمية» كرهوا ذلك المقام:

فلقد عادت هي ومن معها يقصون على المؤمنين ما لقي سبط الرسول من جيش «يزيد»، ويصفون لهم المجزرة الشنيعة التي ذبح فيها الإمام الحسين وشيعته.

وكان وجود «السيدة زينب» في المدينة كافياً لأن يلهب الحزن على الشهداء، ويؤلب الناس على الطغاة، حتى كاد الأمر يفسد على بني أمية، فكتب واليهم «بالمدينة» إلى «يزيد»: «إن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر. وإنها فصيحة عاقلة لبيبة، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين».

فأمره «يزيد» أن يفرق البقية الباقية من «آل البيت» في الأقطار والأمصار.

وطلب الوالي إلى «السيدة زينب» أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء.

قالت غاضبة مستثارة:

«قد علم والله ما صار إلينا : قتل خيرنا . وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لاخرجنا وان أريقت دماؤنا».

لكن نساء «هاشم» أشفقن عليها من غضب الطاغية ، فأحطن بها يتلطفن معها في الكلام ويواسينها ويغرينها بالخروج. وقالت لها «زينب بنت عقيل بن أبي طالب» :

«يا ابنة عمي ، قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء وسيجزي الله الظالمين... إرحلي إلى بلد آمن».

فخرجت «زينب» من مدينة جدها الرسول ، ثم لم ترها المدينة بعد ذلك أبداً !

* * *

رحلت تريد «مصر»...

وما أكثر ما رحلت «زينب» !

أفتقضي العمر هكذا متنقلة من بلد إلى بلد لا يطمئن بها على الأرض مكان؟

وشعرت رفيقات السفر من الهاشميات ، ان عقيلتهن تبدو مجهدة كما لم تبد قط من قبل ، فهي تقطع الطريق تائهة النظرات جامدة العينين ، كأن شيئاً فيها قد انحطم أو مات.

ويردن ليؤنسن وحشتها فلا تزداد إلا وجوماً وشروداً.

ويعمدن آخر الأمر إلى شيء زعمن أنه قد يخفف عنها ، فمضين يتذاكرن ما كان في «كربلاء» كي ينكأن جرحها فتبكي....

لكن الدمع كان قد تحجر في مقلتيها...

وأوغل الجرح في قلبها: عميقاً غائراً مميتاً!

* * *

وكانت الليالي الأخيرة من السفر أشد المراحل كآبة وانقباضاً...

جاوز الركب الساري أرض الحجاز، مرتع الصبا وموطن الأجداد والآباء...

وأشرف على أرض النيل، حيث لا أهل، ولا وطن... الأفق مظلل بالغيوم وليس في السماء قمر...

وعلى الصحراء الشرقية جثم الهواء راكداً فاتراً ثقيلاً، كأنما جمد لمرأى الركب الحزين الساري.

* * *

وملأت الوحشة، ذلك الفضاء العريض...

ثم تغير المشهد:

بزغ هلال شعبان (عام ٦١ هـ) في اللحظة التي وطئت فيها «السيدة» أرض النيل، فإذا جموع من الناس قد احتشدت لاستقبالها.

وساروا هكذا حتى بلغوا قرية قرب «بلبيس» فقابلتهم هناك جموع أخرى آتية من عاصمة الوادي الأمين.

إنه «مسلمة بن مخلد الأنصاري: أمير مصر» في وفد من أعيان البلاد وعلمائها،

قد خرجوا للقاء ابنة «الزهراء» وأخت «الإمام الشهيد».

فلما أطلت عليهم بطلعتها المشرقة بنور الاستشهاد، أجهشوا بالبكاء.

وحفوا بركبها. حتى إذا بلغت العاصمة مضى بها «مسلمة» إلى داره فأقامت بها قرابة عام. لم تر خلالها إلا عابدة متبتلة.

* * *

ثم كانت نهاية المطاف...

ماتت «السيدة زينب» عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من رجب عام ٦٢ هـ على أرجح الأقوال.

وأغمضت العينان اللتان شهدتا مذبحة «كربلاء».

وآن للجسد المتعب المضنى أن يستريح.

فمهدت لها الأرض الطيبة مرقداً ليناً في مخدعها من دار «مسلمة» حيث نزلت «السيدة» منذ جاءت، وحيث اختارت أن تكون ضجعتها الأخيرة (١).

وبقي قبرها مزاراً مباركاً يفد إليه المسلمون – حتى يومنا هذا – من كل فج عميق...

وبقيت قصة آلامها المثيرة، حديث الأجيال والأعوام...

* * *

---

(١) من شاء فليرجع إلى (أخبار الزينبات – صفحات ٧ و ١٩ و ٥٩) وما استدرك على «السخاوي» في (تحفة الأخبار – هامش ص ١١١) وانظر أيضاً (طبقات الشعراني ص ٢٩) والخطط لعلي مبارك باشا.

طالبة الثأر

لم تعش «السيدة زينب» بعد أخيها الشهيد سوى عام ونصف عام.

لكنها استطاعت في هذه الفترة القصيرة أن تغير مجرى التاريخ!

فلقد ظن «بنو أمية» ان مقتل «الحسين» وآله جميعاً هو الفصل الأخير من قصة الشيعة.

ولم يكونوا في ذلك الظن سذجاً أو غافلين، فما كان يرجى أن تقوم لآل «علي» قائمة بعد أن فني الرجال ولم يبق سوى الصبية اليتامى والنسوة الثواكل!

ولقد قتل «علي» من قبل، ومضت الحياة سيرتها لا تتوقف ولا تنحرف...

واستوثق الأمر «لمعاوية» برغم ما شاع في الناس من أنه أغرى زوجة «الحسن بن علي» أن تدس السم لعميد البيت العلوي.

وسارت الحياة، غير ملتفتة كثيراً للذي مضى وفات!

ثم قتل «الحسين» على مرأى من شيعته بالكوفة ومسمع، وكانوا بحيث يفعلونها مرة أخرى فيدعون ابنه «علياً» ثم يخذلونه ويسلمونه كما فعلوا بأبيه وعمه من قبل، لولا أن «السيدة زينب» ظهرت على مسرح المأساة – قبيل إسدال الستار – لتقذف

بلغتها أهل «الكوفة» والطغاة من بني أمية!

ومن ثم لم يسدل الستار أبداً، وما أحسبه يسدل حتى تتبدل الأرض ومن عليها!

* * *

لم تمض «زينب» إلا بعد أن أفسدت على «ابن زياد ويزيد. وبني أمية» لذة النصر، وسكبت قطرات من السم الزعاف في كؤوس الظافرين!

فكانت فرحة لم تطل...

وكان نصراً مؤقتاً، لم يلبث أن أفضى إلى هزيمة قضت آخر الأمر على دولة بني أمية.

فلم تكد «زينب» تخرج من عند «يزيد» حتى أحس أن سروره بمقتل «الحسين» قد شابه كدر خفي، ظل يزداد حتى استحال إلى ندم، كدَّر صفو الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته.

ولحق منه «بابن زياد» شر كثير...

ويروي «الطبري» و«ابن الأثير» أنه «لما قتل عبيد الله بن زياد، الحسين بن علي – عليه السلام – وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلى «يزيد» فسر بقتلهم أولا، وحسنت بذلك منزلة «عبيد الله» عنده، ثم لم يلبث قليلاً حتى ندم على قتل «الحسين». فكان يقول: «وما كان عليَّ لو احتملت الأذى وحكمته فيما يريد؟.. لعن الله «ابن مرجانة» فإنه أخرجه واضطره... ثم قتله فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة بما استعظموه من قتلي حسيناً!.. ما لي ولابن مرجانة... لعنه الله!».

وغضب عليه!..

وسمع يحيى بن الحكم – الأموي – يقول:

«سمية» أمسى نسلها عدد الحصى   وليس لآل المصطفى اليوم من نسل!

* * *

وشغل الناس بعد وفاة «السيدة زينب» بالحديث عن استجابة السماء لدعاء الأنثى الطاهرة، وراحوا يملأون لياليهم بسمر عجيب عن غضب السماء للدم الطاهر المسفوح، والبيت الكريم المستباح...

وجاء المؤرخون فلم يستطيعوا أن يمروا بتلك الأقاصيص والأسمار دون أن يقفوا عندها وينقلوها إلينا:

فما تركوا أحداً ممن شارك في مأساة «كربلاء» إلا جاءونا بقصة عما سلط عليه من غضب السماء وانتقام الجبار.

وقد نتردد فيما جاءت به كتب غلاة الشيعة عن مصاير هؤلاء الآثمين. لكننا نصغي إلى مؤرخين عرفوا بالأمانة والاعتدال –كالطبري وابن الأثير– فنسمع العجب العجاب:

ذاك رجل من بني دارم حال بين «الحسين» وبين الماء. فدعا عليه الشهيد بالظمأ. قال من رآه بعد ذلك: «فو الله ان مكث إلا يسيراً حتى صب عليه الظمأ فجعل لا يروى... ولقد رأيته وبين يديه قلال الماء وعساس اللبن وانه ليقول: ويلكم! اسقوني، قتلني الظمأ! فيعطى القلة أو العس فيشربه، ثم يقول بعد هنيهة: ويلكم! اسقوني قتلني الظمأ، حتى انقد بطنه!...»

وآخر منهم، دعا عليه «الحسين»: «اللهم اقتله عطشاً». فحدثنا من عاده في مرضه قال: «فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد رأيته يشرب ثم يقيء، ثم يشرب... فما يروى... حتى مات».

وثالث من كندة، أخذ (برنس) الإمام الشهيد. وأقبل على داره يغسله من الدم. فقالت له امرأته: «أسلب ابن بنت رسول الله تدخل بيتي؟.. أخرجه

عني ! ». قيل : فذكر أصحابه انه لم يزل فقيراً حتى مات !

ورابع ، سلب سراويل «الحسين» فتركه مجرداً ، قالوا : «إن يديه كانتا في الشتاء تنضحان الدم ، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود ! »

وقد يكون أكثر هذا من صنع السمار والمنقبين. لكن الذي لا شك فيه عند المؤرخين أن دم «الحسين» الذي طلبته أُخته «زينب» لم يذهب هدراً !

فما هي إلا أعوام ثلاثة فحسب ، حتى كانت جذوة الغضب الكامنة قد نضجت في بطء ، واحتدمت مستعرة ترمي بشرر كالقصر...

وهبت الكوفة بأسرها تصيح : «يا لثارات الحسين».

وشهد عام ٦٦ هـ ، مذبحة أخرى بالعراق ، ثأراً لمذبحة كربلاء !

قتل من الذين شاركوا في قتل «الحسين» مائتان وثمانية وأربعون في موقف واحد !

وطورد الهاربون في إصرار وإلحاح ، فإذا جيء بهم سئلوا : «أين الحسين بن علي؟ قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه؟ ! »

ثم اختيرت لكل منهم قتلة تناسب دوره في مصرع الشهيد :

فهذا يحرق بالنار.

وذاك تقطع أطرافه ويترك حتى يموت.

وثالث يذبح ذبح النعاج.

ورابع كان يقول : «لقد رميت فتى من آل الحسين بسهم ، فوضع كفه على جبهته يتقي النبل فاخترق النبل كفه».

قالوا : فأثبتت كفه في جبهته وضربت بالنبال.

وكان «عبيد الله بن زياد» فيمن قتل يومذاك.

وكذلك «عمر بن سعد بن أبي وقاص» وابنه حفص.

وهرب «الأشعث بن قيس» فهدمت داره وبنيت بأنقاضها دار «حجر بن عدي الكندي» وكان «زياد بن سمية» قد هدمها!

حتى أفنوهم جميعاً.

وبعثت الرؤوس – في هذه المرة – إلى «المدينة»، لا إلى «دمشق»[١]

لكن القصة لم تنته بأخذ الثأر؟..

كانت هناك بقية لم تزل.

بقية من فصول ذات عدد...

كان منها ثورة «عبد الله بن الزبير» بالحجاز، وخروج أخيه «مصعب» بالعراق...

ثم سقوط الدولة الأموية فيما بعد، وقيام الدولة العباسية على دعوة ظنّت الشيعة أنها للعلويين، ثم ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب وما صاحب هذا كله، وما أعقبه، من معارك وأحداث، كتبت تاريخنا كله منذ مقتل «الحسين».

بل حدث هنا ما هو أهم من هذا: تأصل مذهب الشيعة، وكان له أثر بعيد في الحياة السياسية والمذهبية للشرق والإسلام.

و«زينب» هي باعثة ذلك ومثيرته!

لا أقول هذا من عندي تزيداً، وإنما هو قول التاريخ!

* * *

(١) ذكر الأستاذ «عمر أبو النصر» في كتابه (آل محمد في كربلاء – ص ١٠٤) ان الرؤوس بعثت إلى «علي بن الحسين». والذي في الخبر. انها بعثت إلى «محمد بن الحنفية» (تاريخ الطبري ١٢٧/٧) – والمسألة غاية في الدقة والخطر.

الصدى الخالد

بدت «زينب» لأهل «الكوفة» غداة مصرع أخيها «الإمام» – رضي الله عنه – صورة مثيرة لما اقترفوا في حق الشهداء من آل البيت.

وتكلمت. فهاجت فيهم شعوراً لاذعاً ممضاً بالحسرة والخزي والندم.

ثم غادرتهم...

وبقي صدى صوتها يدوي في آذانهم ويملأ الفضاء من حولهم، مذكراً إياهم بخطيئتهم الشنعاء!

وظل هذا الصدى باقياً لم يتبدد مع الأحداث التي أعقبت المذبحة وثأرت لقتلاها.

* * *

لقد كان نصيب أهل الكوفة – شيعة الحسين وحزبه وأنصاره – من إثم كربلاء، أبشع وأشنع من نصيب الآلاف الأربعة، الذين تكاثروا على الشهداء السبعين!

وهل يقاس ما فعله حزب يزيد بالحسين، بما فعله أنصار الحسين وشيعته؟

هؤلاء دعوا إمامهم، وأخرجوه من حماه، ثم أسلموه للأسنة والحراب وهم يتفرجون!

وأولئك خرجوا في جيش الدولة، يقاتلون بأمر أمير المؤمنين.

ولقد قتل أعداء الحسين، وقتلته.

وبقي الأصدقاء الغادرون.

وكانوا بحيث يستأنفون العيش بعد فعلتهم سادرين لاهين. غير شاعرين بفداحة خطيئتهم وبشاعة إثمهم.

وهل ندموا قبلها على ما اقترفوا في حق «الإمام علي» وولده «الحسن» من بعده؟

كلا!..

قضى «علي» وقضى «الحسن» كما رأينا.

وكادت فعلتهم بالحسين تمضي دون أن يبقى منها سوى بضعة أسطر في كتب التاريخ، وبضع قصص في أحاديث السمار...

لكن «السيدة زينب» وقفت على جثث الشهداء، تصيح بأهل الكوفة الذين بكوا لما رأوا موكب الأسرى من بنات الرسول:

«أتبكون؟ فلا سكنت العبرة!»

واستجابت السماء، فلم تسكن للقوم عبرة!

وقد بدأوا يحسون وخز الندم منذ اللحظة الأولى التي وقفت فيها «بطلة كربلاء» موقفها الأليم المثير.

قال «الطبري وابن الأثير»: ... «ومكثوا بعدها شهرين أو ثلاثة، كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى مرتفع ...».

وقالا : «لما قتل الحسين بن علي ، ورجع ابن زياد من تعسكره بالنخيلة ، ودخل الكوفة – ليستقبل موكب رؤوس القتلى ، والسبايا من بنات الرسول – تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائها الحسين إلى النصرة ، وتركه يقتل إلى جانبهم لم ينصروه».

ورددت حوائط الكوفة صدى صوت «زينب» :

«... أي والله !.. فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها . فلن ترحضوها بغسل أبداً. وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة... وهو سيد شباب أهل الجنة ؟»

فأمنوا جميعاً !

وتكلموا ، فكأنما كانوا ينتزعون عن لسان «زينب» !

قال قائلهم :

«دعونا ابن بنت نبينا ﷺ وآله ، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا . لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عنه بألسنتنا ، ولا قويناه بمالنا....

«فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا ﷺ وآله ، وقد قتل فينا ولده وحبيبه ، وذريته ونسله ؟.. لا والله لا عذر دون أن تَقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تُقتلوا في طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا . وما أنا بعد لقائه ، لعقوبته بآمن».

وعقب آخر :

«... إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وتربصنا وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ، ولدينا ، ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه...

ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى

الله ، ووالله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيدوا !

«فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ...»

أي وربي !

لكأنما كانوا ينزعون عن لسان «زينب».

* * *

وما زال أهل الكوفة منذ سنة ٦١ هـ – وهي السنة التي قتل فيها الحسين – يتلاومون ويتداعون ويجمعون آلة الحرب ، حتى تجمع جيش عرف في التاريخ بجيش «التوابين» الذين تنادوا : يا لثارات الحسين.

ولم يكتموا أمرهم هذه المرة ، ولا عمدوا إلى الخفاء . بل قال المؤرخون : «خرج التوابون يشترون السلاح ظاهرين ويتجهزون ويتنادون من كل جانب : إنا لا نطلب الدنيا ، وليس لها خرجنا ، إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله ، نبينا ﷺ وآله».

وما دخلت سنة ٦٥ هـ ، حتى كانت صيحتهم «يا لثارات الحسين» تزلزل الأرض تحت بني أمية ، وحتى كانت الكوفة تشهدهم في سلاحهم ينطلقون ساعين نحو قبر «الحسين» وهم يتلون الآية : «فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم».

فلما بلغوا القبر ، صاحوا صيحة واحدة ، فما رئي أكثر باكين من ذلك اليوم ، وأقاموا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرعون قائلين :

«اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد...

«اللهم إنا نشهدك إنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم .

«اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا ﷺ وآله ، فاغفر لنا ما مضى منا . وتب علينا .

وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

وغادروا القبر وقد ازدادوا ندماً وحماسة، فاندفعوا كالموج مستبسلين. يلقون الألوف المؤلفة من جند بني أمية، وأقصى أمانيهم أن يقتلوا في ثأر «الحسين» لعل ذلك يخفف عنهم وقر الإثم وقسوة النكال. ولقد كانوا يومئذ يعطون الأمان فيأبون صائحين:

«قد كنا آمنين في الدنيا. وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة»...

حتى أبيدوا جميعاً، فذلك قول أعشى همدان يرثي كل تائب منهم:

تخلى عن الدنيا وقال: طرحتها
فلست إليها ما حييت بآيب
وما أنا فيما يكره فقده.
ويسعى له الساعون فيها براغب

* * *

فساروا وهم ما بين ملتمس التقى
وآخر مما جر بالأمس تائب
فجاءهم جمع من الشام بعده
جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت سراتهم
فلم ينج منهم ثم غير عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فاصبحوا
تعاورهم ريح الصبا والجنائب

أبوا غير ضرب يفلق الهام وقعه
وطعن بـأطراف الأسنة صائب
فيا خير جيش بالعراق وأهله
سقيتم روايا كل أسحم ساكب

* * *

مضى التوابون، وأبقوا الندم والتوبة ميراثاً رهيباً لأبنائهم من بعدهم والأحفاد.

وكانت «زينب» هي التي جعلت من مصرع «الحسين» مأساة خالدة، لا نعرف ما هو أبعد منها أثراً في تطور العقيدة عند الشيعة.

وكانت هي التي صيرت من ليلة العاشر من المحرم، مأتماً سنوياً للأحزان والآلام. يحج فيه أحفاد «التوابين» إلى المشهد المقدس في «كربلاء»، حيث يعيدون تمثيل المأساة، ويفرضون على أنفسهم أقسى أنواع العذاب الجسدي، تكفيراً عن خطيئة الأجداد!

وكانت هي التي سلطت عليهم – من أنفسهم – نكالاً أليماً لا ينتهي بالموت، وإنما هي نار «الندم» الجامحة، يصلاها منهم الجيل بعد الجيل.

وان السنين لتمضي والقرون، وهم مصرون على أن تبقى تلك الجذوة متقدة أبداً، لا تخبو ولا تخمد، كأنما يجدون في هذا العذاب كفارة وتوبة.

أجل، إن السنين لتمضي والقرون، وأهل العراق مقيمون على الحزن يستمرئون طعمه، ويستعذبون مذاقه، ويرهقون أنفسهم بالإصرار على إحياء ذكرى خطيئة الذين ذهبوا بإمام الإمام الشهيد.

وما أحسب ان التاريخ قد عرف حزناً كهذا، طال مداه حتى استغرق بضعة عشر قرناً دون أن يفتر. فمراثي شهداء كربلاء هي الأناشيد التي يترنم بها العراقيون في

عيد حزنهم يوم عاشوراء من كل عام، وشاعرهم المفضل هو الذي يهيج لواعج شجنهم ويغذي النار المتقدة في أعماقهم بوقود جديد:

أناعي قتلى «الطف» لا زلت ناعيًا
تهيج على طول الليالي البواكيا

أعد ذكرهم في «كربلاء» ان ذكرهم
طوى جزعاً، طي السجل، فؤاديا

ودع مقلتي تحمر بعد ابيضاضها
بعد رزايا تترك الدمع داميا

شاعرهم المختار، هو الذي يعيد على أسماعهم – في إثارة عنيفة – قصة تلك الفئة القليلة المؤمنة التي آثرت الموت على التخلي عما تراه حقاً:

فثوت بأفئدة صوادَ لم تجد
ريا يبل سوى الردى أحشاءها

وأغنيتهم الأثيرة هي مناجاة الشهداء، والبكاء على يتاماهم الصغار:

كم لكم من صبية ما أبدلت
ثم من حاضنة إلا رمالا!

سل بحجر الحرب ماذا رضعت؟
فثدي الحرب قد كن نصالا

* * *

أجل هي «زينب» التي جعلت من مصرع أخيها الشهيد مأساة خالدة، وصيرت

من يوم مقتله مأتماً سنوياً للأحزان والآلام.

وكذلك كانت «زينب ـ عقيلة بني هاشم» في تاريخ الإسلام وتاريخ الإنسانية:

بطلة استطاعت أن تثأر لأخيها الشهيد العظيم ـ وأن تسلط معاول الهدم على دولة بني أمية، وأن تغير مجرى التاريخ!..

* * *

الكتاب الخامس

السيّدة

سُكَيْنَة

بنت الحسين

رضي الله عنهما

السيدة

سكينة

بنت الحسين

رضي الله عنهما

مقدمة
بقلم
الأستاذ أمين الخولي

ينظر القارئ فيما كتب مؤرخو التاريخ الاسلامي ، كالطبري ، والمسعودي ، وابن الأثير ، وغيرهم ، فتلفته ظاهرتان تسترعيان الانتباه ، وهما :

أولا : ان ما كتبه أولئك المؤرخون كانت توجهه الاعتبارات السياسية ، فهم انما يؤرخون في الحياة الاسلامية للخلفاء والولاة والحكام والقادة ، والفتوح والمعارك ، وما إلى ذلك من أخبار الساسة المدبرين للشئون العامة ، متجاهلين في نفس الوقت حياة الشعوب الاجتماعية .

فكان التاريخ عندهم هو تاريخ حكام الشعوب ، لا تاريخ الشعوب نفسها ، ومن ثم لم نظفر إلا بالنزر اليسير من تاريخ النشاط الحيوي لهذه المجتمعات في غير المجال السياسي والحكومي ، بل لم يقع ذلك إلا عَرَضا في أخبار الحكام والمسيطرين ، أو حواشيهم ومن يتصل بهم من الطبقة التي حولهم .

فاذا أردنا أن نلتمس شيئا من أخبار النشاط الحيوي ، فيما عدا المجال السياسي الذي أشرنا اليه ، فليس أمامنا الا أن نلتمسها منثورة مبددة هنا وهناك ، في مثل كتب الطبقات التي وضعها أولئك الأقدمون للفئات المختلفة ، من محدثين ، ومفسرين ،

وفقهاء، ونحاة، وأطباء... وغيرهم، مما نستطيع بعد الجهد الجهيد أن نستخرج منها ما يؤرخ للنشاط الاسلامي في صورته الاجتماعية والحضارية والاقتصادية... ولن نظفر مع ذلك بالبين الوافي، لأسباب أخرى لا محل هنا للتعرض لها...

ثانيا: يلاحظ على هذه الكتب التاريخية القديمة انها، بصفة عامة، تحوي من تاريخ الحياة الاسلامية أخبارا مجردة، وحوادث مسرودة، كان أولئك المؤرخون، أوَّلَ العهد - يصدرونها بسلسلة من أسماء الرواة، يعدونها أسانيد لما يليها من متون تلك الأخبار والأحداث...

على ان هؤلاء المؤرخين لم يلبثوا أن جردوا مروياتهم من الأسانيد وسردوها مُرسَلَة...

وهنا يجدر بنا أن نسأل: هل هذا السرد القديم هو التاريخ؟.. وهل يُعطَى لَقَب المؤرخ - اليومَ - مَنْ يجمع مثل هذه الأخبار فيقصها أو يسردها بسند أو بغير سند؟..

لعل هذين السؤالين يبدوان غريبين على من لم يلفته ما صار اليه الأمر اليوم من مستوى عال للثقافة الانسانية. وان هذا المستوى قد جاوز الدور الذي كان فيه التاريخ قصا وسردا...

ان التاريخ اليوم، هو وصف لسير الحياة بالناس، يبين السنن الاجتماعية في حياتهم، والنواميس التي تحكم وجود مجتمعاتهم وأفرادهم في هذه الجماعات، ومجال نشاطهم فيها.

والتاريخ اليومَ، درس دقيق ينفذ إلى ما وراء الأحداث المسرودة، وما خلف الأخبار المروية، ليستشف العواملَ التي تُسَيِّرها والمؤثراتِ التي تتحكم فيها.

والتاريخ لذلك لا يتلقى الأخبار في استسلام ، ولا يتقبل المرويات في تساهل ، بل يفحص ذلك كله ، ويختبره ، وينقده.

ثم هو بعد ذلك يربط بين السابق منها واللاحق ، ليرد المسبَّبَ إلى سببه ، ويتبين المقدمة التي أدت إلى النتيجة ، ويهتدي في ذلك بما عَرَفَ البحثُ الأصيل من حال الاجتماع البشري ، والسنن المقررة لحياة المجتمعات الانسانية.

واذا كان هذا هو شأن التاريخ اليوم ، فان القارئ يدرك اذن في وضوح ، ان الأخبار التي حفظتْها تلك المؤلفات أو الموسوعات الأولى ، ليست هي التاريخ ، وانما هي مادة التاريخ وخامات دراساته التي أشرنا إلى وصفها اجمالا.

وتاريخ الحياة الاسلامية يحتاج منا إلى هذا العمل الجليل والنشاط الفسيح ، ولعل أجيالا منا تتمه على وجهه الصحيح.

* * *

وهذا الكتاب حلقة من سلسلة تكتبها سيدة ، عن شخصيات نسوية في البيت النبوي ولهذه السلسلة صلة وأثر في تاريخ الحياة الاسلامية من نواح متعددة على ما أرجو وآمل.

لها هذا الأثر بموضوعها المختار ، وبالمؤلفة صاحبة الاختيار ، وبمنهجها الذي سلكه في اخراجها ، ولها هذا الأثر على حياة التاريخ بأسلوب أدائها (١).

* * *

(١) صدر عن هذه السلسلة ، كتب : ام النبي ، ونساء النبي ، وبنات النبي ، وعقيلة بني هاشم ، نشرتها ار الكتاب العربي ببيروت ، — وترجم أكثرها إلى اللغات الفارسية ، والاردية ، والاندونيسية.

وإلى القارئ كلمات قصار، في بيان هذه الآثار على تاريخ الحياة الاسلامية :

فأما موضوع السلسلة التي منها هذا الكتاب فهو حياة سيدات في تاريخنا ، يحلن في غير المجال السياسي الذي غني الأولون بأخبار حركاته الظاهرة دون المؤثرات المستترة ، مهما تكن قوية.

والمرأة كما نعرف من أقوى تلك المؤثرات أو أقواها ، فهي كما قيل : تهز المهد بيمينها وتهز العالم بيسارها ، وهي التي قيل عنها : «فتش عن المرأة» وما هذا التعرض للشخصيات النسوية إلا التفتيش عنها باعتبارها عاملا فعالا في سير الحياة ، وفهم الأحداث وتصور شخصيات الرجال.

واذا اختارت إحداهن هذا الموضوع النسوي فالمرجو أن تستشف من أسرار أرواحهن ما لا يستشف غيرها... فالأنثى أفهم للأنثى.

هذه ناحية التأثير بالموضوع المختار، ومَن اختارته... وهو تأثير كبير على فهم مجرى الحوادث ، وشخصيات أبطالها.

وأما أثرها بالمنهج الذي تتبعه ، ففيما يجب من نقد المرويات المتفرقة عن هذه الشخصيات نقدا يكشف عن صحتها والاستنتاج منها ، أو يبين انها أسطوريات لها دلالتها الاجتماعية على أنفس مخترعيها. وهو النقد الذي يتقدم الدرس التاريخي...

وأما أثرها بأسلوب الأداء في إخراجها ، فلأنها تختار أسلوب العرض الأدبي ، المتحرر من جفاف الأداء المنطقي ، المسامت لآفاق العرض في القضية التاريخية. وفي هذا اللون من العرض يُكمل الكاتبُ الحادثَ التاريخي بما يستلهم من نفسية صاحب الحادث ، وجو الحادثة ، وروح البيئة ، ومألوف النفس الانسانية ، وسنة الاجتماع

البشري. ولا يكون ذلك الا بعد تمثل تام للبيئة، والمعيشة مع أشخاص الحادث، والترس بتجارب نفسية مما عانى أصحابها، والبصر بنظام المجتمع الانساني الذي ينتظمهم.

وفي كل أولئك فُرَص للتحليل، الذي يسعف على تعليل الحوادث والانطلاق إلى نتائجها وأهدافها.

وهو ما نرجو أن يكون في هذا الكتاب، وسائر حلقات السلسلة، شيء منه، فتكون خطوة أو خطوات في ميدان الدرس التاريخي المحدث الذي يحتاج اليه تاريخ الحياة الاسلامية، ولما يتم منه شيء كثير.

* * *

وبعد...

فإن صاحبة هذا الكتاب، ربيبة مدرسة أدبية أنا أنتمي اليها... ثم هي ربة بيت أنا آوي اليه... وفي بعض هذا ما يؤثر على التقدير، ويهز سلامة الحكم... ومن أجل ذلك أستغفر الحق والانصاف، بين يدي القارئ الكريم، من شيءٍ يكون قد غُلِبَ فيه القلمُ على أمره... وقد بلغت اذ نبهته إلى منشئه.

* * *

المبحث الأول

في بيت النبوّة

برهان

- وافد غريب
- اللقاء الأول
- في بدء الطريق
- طفولة مرحة
- في دوّامة الأحداث
- مذبحة كربلاء
- بعد العاصفة

وافدٌ غريب

أخذ أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» مكانه في المجلس. وإلى جانبه صهرُ الرسول وابنُ عمه «عليٌّ بن أبي طالب» كرم الله وجهه، وولداه الحسن والحسين، ابنا الزهراء وسبطا المصطفى عليه الصلاة والسلام. ومن حولهم جلس نفر من أئمة الصحابة وأعلام المسلمين. يتحدثون فيما أفاء الله على الاسلام من نصر. وما أدال لهم من سلطان. وبيناهم في ذلك المجلس، استأذن وافد غريب فأذنَ له أمير المؤمنين. وما في المجلس يومئذ مَن كان قد رآه من قبلُ رأيَ العين. على أنه ما كاد يظهر بالباب، حتى تعلقتْ به الأبصار وهو يتخطى رقابَ الناس إلى الخليفة، ليقدم إليه التحية.

وأمسك القوم عن الحديث. وبودهم لو يعرفون مَنْ يكون هذا الرجل الذي تبدو عليه سِماتُ الشرف والسؤدد، وقد تولى عنهم الخليفة هذا الأمر. فسأل زائره: من يكون؟...

أجاب الوافد في تؤدة ورزانة:

– امرؤ القيس بن عدي بن أوس.

وحينذاك عرف القوم فيه سيدَ بني كلب، وكان لا يزال على نصرانيته. فقال قائل منهم:

– يا أمير المؤمنين ، هذا صاحبُ بكرِ بن وائل الذي أغار عليهم في الجاهلية يومَ فلج .

وتحدث «عمر» إلى ضيفه مليا ، وملءُ خاطره سؤالٌ واحد : أيكرمه الله بأن يدخل «امرؤ القيس بن عدي» الاسلامَ على يديه ؟..

وأسلم سيدُ بني كلب .

واذ ذاك لم يتردد أمير المؤمنين في أن يعقد له اللواء على من أسلم من قضاعة بالشام[١] .

ودعا «عمر» برمح ، وقلده إياه ...

هكذا في أول لقاء ، وليس للرجل سابقةٌ في الاسلام !

أوكما قال «عوف بن خارجة المري» وكان يومئذ بالمجلس : «فوالله ما رأيت رجلا لم يُصلِّ للهِ ركعةً قط ، أُمِّر على جماعة من المسلمين قبلَ امرئ القيس !»[٢] .

أجل ، ولكنه عمر الفاروق ، ذو البَصَر بالرجال ..

* * *

ونهض الرجل لينصرف ، فحيا الخليفة بتحية الإسلام ، وأخذ طريقه واللواءُ يهتز فوق رأسه ، والأنظارُ تتبعه حتى جاوز مجلس أمير المؤمنين منصرفاً ...

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب – ٤٢٧ ط الذخائر .

(٢) الاغاني : ١٥٧/١٤ ساسي .

اللقاء الأول

ولم يمض «امرؤ القيس» بعيدا، حتى استأذن «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه، وانصرف من المجلس مسرعاً وولداه معه، في أثر الوافد الذي خرج وشيكا يحمل لواء بني قضاعة بالشام!

وحث «علي» خطاه حتى أدرك امرأ القيس. فاستوقفه محييا. ثم تقدم إليه يقول:

– أنا علي بن أبي طالب. ابن عم الرسول ﷺ وصهره، وهذان – وأشار إلى الحسن والحسين – ابناي من بنته الزهراء.

فأقبل امرؤ القيس عليهم بكل وجهه، وراح يملأ عينيه من آل النبي الذي لم يُكتَب له شرفُ صحبته ونعمةُ رؤيته، والذي آمن برسالته منذ لحظات.

واستطرد «علي» رضي الله عنه قائلا:

– وقد رغبنا في صهرك فأنكحنا!

فما تلبث امرؤ القيس أن قال:

– مرحباً بكم آل بيت النبي: قد أنكحتُك يا علي. ابنتي «المحياة»[1].

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩٠/٥ ط مصر.

ثم أقبل على سبطي الرسول وهو يضيف:

- وأنكحتُك يا حسن «سَلمى بنتَ امرئ القيس»، وأنكحتك يا حسين «الربابَ بنت امرئ القيس».

وانصرف بعد حين إلى الشام، وترك من ورائه دويا!

فلا حديث للناس يومئذ إلا عن هذا الرجل الذي لقي أمير المؤمنين عمر لأول مرة، فخرج من حضرته بلواء مَن أسلم من بني قضاعة بالشام، هو الذي لم يكن قد صلى لله ركعة قط، كما قال «عوف المري»!

ولَقِيَه صهرُ الرسول وابنُ عمه، فخرج من أول مقابلة لها، وقد أخطبه إحدى بناته الثلاث، وظفر بالحسن والحسين - سبطي الرسول وزين شباب بني هاشم - خطيبين لبنتيه الأخريين: سلمى والرباب [1].

* * *

كان «الحسين» يوم خطبت له «الرباب» في ريق شبابه، يستقبل ربيعه الثامن عشر، ملء العيون والقلوب فتوة ومهابة وجلالا، يرى فيه المسلمون صورة نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام، ويجدون فيه نفحة عطرة من أثره، وشعاعا بهيا من سناه، حتى لقد بلغ من إعجابهم به أن ذاعت فيهم ذائعة تقول: انه معوذ بتعويذتين. حشوهما زغبُ جناحِ جبريل!

أما «الرباب» فكانت ما تزال صبية غضة الصبا طرية العود، مليحة وضيئة،

(1) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب. - ص ٤٢٧ ذخائر.

ذكية الملامح. مرهفة الحسّ. بادية الاعتزاز بشخصيتها وأبيها. وقد أرضاها بلا ريب. أن يتصل سببها بني العرب، وأن تدخل أشرفَ بيت في قريش، زوجة للحسين غذيّ النبوة.

لكن صغر سنها حال دون التعجيل بالزواج، فبقيت في بيت أبيها تتهيأ لدخول دنياها الجديدة، وتستعد لتملأ ذلك المكان الرفيع الذي أوثرتْ به من حيث لا تحتسب ولا تتوقع...

في بدء الطريق

جدّت أحداث عقب ذلك أجلت زواج عليٍّ وابنيه من بنات امرئ القيس . بضعَ سنين.

أحداث جسام ، شُغِل بها البيتُ النبوي ، كما شُغل بها العالم الإسلامي الذي اتسع بالفتوح التاريخية الكبرى ، فبسط لواء الإسلام على ممالك الفرس والروم ، وورث عروش الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والفراعين.

فمنذ طُعِنَ أميرُ المؤمنين عُمَرُ بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي . لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجة عام ٢٣ هـ ، وتيارات المأساة – التي سوف تتمخض عنها الأحداث – تتدافع من هنا ومن هناك ، ماضية في بطءٍ ولكن في عنفٍ وشراسة ، إلى مركز التجمع ومسرح المأساة.

منذ قُتل عمر . وصُرِفت الخلافة – لثالث مرة – عن عليٍّ بن أبي طالب . وسُحُبُ الفتنةِ الغاشمة تلوح على الأفق ، منذرة بالعاصفة.

فما رضي بنو هاشم قط . أن تغدو الخلافة مرعى خصبا مستباحا لعصبة بني أمية ابن عبد شمس . وأن يلمحوا أيديهم – في عهد عثمان رضي الله عنه – وهي تتصيد أزِمّة الأمر العظيم ، في مهارة وتصميم ، وتلوي بها إلى قبضة زعيمهم معاوية ، ابن آكلة الأكباد.

ولا رضي الصحابة قط ، أن يتحكم فيهم وُلاة انحرفوا عن مبادئ الإسلام وسيرة الرسول ، وأقبلوا يستكثرون من الأموال ويعيشون عيشة البذخ والترف ، وقد تجسمت أطماعهم واستشرت ذاتيتهم وهم بمأمن من غضب الخليفة ، بل في طمأنينة إلى لينه وتسامحه .

أو كما قال «مالك الأشتر» لسعيد بن العاص الأموي ، والي الكوفة لعثمان :

«أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا . بستانا لك ولقومك ؟.. والله ما يَزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدِنا»[1] .

وكان «عثمان» قد ولَّى سعيدَ بن العاص الكوفةَ ، بعد أن عزل «الوليدَ بن عقبة» فحزن الناس ... وتفجع عليه الأحرار والمماليك ، وسُمعت الولائد يقلن ، وعليهن الحداد :

يــا ويلتــا قــد عُزِلَ الوليــدُ   وجــاءنــا مُجَوِّعــاً سعيــدُ[2]

* * *

وطالت المغالبة ...

وخرج «الحسين وأخوه الحسن» ، في الجيش الزاحف إلى افريقية ، بقيادة «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» عام ٢٧ هـ ، في عشرة آلاف من قريش والأنصار والمهاجرين .

---

(١) تاريخ الطبري : ٥٠/٥ ، ٨٨ وانظر معه حديث أبي ذر الغفاري في الشام : ٦٦/٥ .

(٢) تاريخ الطبري : ٦٢/٥ .

والاستيعاب في معرفة الاصحاب : ٦٢٣/٢ ط نهضة مصر .

وأقام هنالك في غزوته، عاما وبعض عام، ثم عاد إلى المدينة منصورا، فاحتفل البيت الهاشمي بزواجه من «الرباب بنت امرئ القيس» احتفالا بسيطا متواضعا، وما تزال السحبُ متراكمةً على الأفق، وما يزال بنو أمية هناك في الشام، وفي غيرها من الأمصار، يُعِدون للغد عُدَّته...

وأثمر الزواج ثمرته المباركة، فوضعت «الرباب» ولدَها عبد الله بن الحسين[1]

وشغلت الأم بحضانة وليدها...

على حين عاد تيار الأحداث فجذب أبا عبدِ الله إلى صميم المعترك...

وكانت المدينة إذ ذاك قد ازدحمت بوفود الأنصار من شتى الأقاليم. جاءوا يشكون انحرافَ الولاة وأثرتهم وبغيَهم، والخليفةُ مُغْضٍ. والمغالبةُ بين الأحزاب تأخذ وضعاً رهيبا وقويا شرسا. والمرجلُ يهدر ويغلي ويلتمس الانفجار.

* * *

وقُتِلَ أمير المؤمنين. ذو النورين عثمان، بسيوف الثائرين عصرَ يوم جمعة، في الثامن عشر من ذي الحجة عام ٣٥ هـ[2].

وشبت الفتنة عاصفة هوجاء...

بويع أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» ليمضي خمس سنين. في معارك متصلة، آخذٍ بعضُها برقاب بعض، فما يكاد رضي الله عنه يفرغ من إحداها، إلا ليخوض غمار فتنة أخرى كره منه.

---

(١) المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري: نسب قريش. ط الذخائر.

(٢) تاريخ الطبري: ١٤٥/٥.

إلى أن غُصَّ بمرارة النصر كما لم يُغَص سواه بمرارة رارة وكان «الحسن والحسين» إلى جانبه، يجرعت بجرعان غُصصَ النصر في حرب الفتنة العشواء التي راحت تمزق المسلمين بدَدا، وتشطرهم طرائق قددا.

والأمويون يزدادون على الهزيمة إصراراً على أن يثأروا من بني هاشم، ذلك الثأر الذي ظلوا يتوارثونه أبا عن جد. منذ انعقدت زعامة قريش في الجاهلية لبني هاشم دون بني عبد شمس. وتأيدت باصطفاء نبي الإسلام منهم، فمتى يبلغون مثلَه –كما قال قائلُهم؟

– إلا تكن نبوة، فخلافة!

كان «أبو سفيان» حربا على النبي الهاشمي، فلم يُسلم الا مكرَها يوم فتح مكة، بعد معارك طاحنة امتدت ثماني سنين وصالا...

وبقي ما عاش يرنو إلى الأمر من بعيد. بعد أن رأى انصراف الخلافة عن بيت النبي وبني هاشم، ورأى الولاةَ من بني أمية يغلبوه يغلبون الأمصار، حتى لقد وقف يوما على قبر الشهيد «حمزة» صريع (وحْشيّ) فقال:

– رحمك الله أبا عمارة، لقد قاتَلتَنا على أمر صار الينا!

ومات «أبو سفيان»، وترك لابنه ذلك العهد البغيض...

وهذا هو «معاوية» يمضي في سبيل إنفاذه، وما يرتاب في أنه صائر إليه حتما. مهما يطل الطريق وتلتوِ السبُل!

وكان الطريق يبدو طويلا. وكأن لا نهاية له...

فما كان لمعاوية أن يطمع في هزيمة خصمه الفارس البطل الذي لا يُغلب «علي بن ابن طالب».

ولا كانت أمانيه لتجرؤ على أن يحلم بانتزاع الأمر من الإمام ما دام حيا!

فهل تمهله المنية، إلى ما بعد وفاة أمير المؤمنين علي؟

أو يسبقه هو إلى الرحيل، ويدع الأمر بينه وبين بني هاشم ميراثا لولده «يزيد»، كما تلقاه هو ميراثا عن أبيه «أبي سفيان» وأمه «هند بنت عتبة»؟

وأجابت الأيام عن سؤاله!

لقد تولى «الخوارج» عن غير عمدٍ. تمهيدَ الأمر لمعاوية!

أرادوا أمرا، وأراد الله غيره فكان ما أراد الله!

كانوا قد بدأوا يتمردون على أمير المؤمنين. منذ قَبِلَ خدعة التحكيم وهو الظافر المنتصر.

وأنكر منهم هذا التمرد، والتقى بهم في معركة النهر التي كلفتهم غاليا. وجرَّعته مزيداً من مرارة النصر.

وتآمروا فيما بينهم على أن يريحوا المسلمين من أبطال التحكيم الثلاثة: معاوية، وعمرو بن العاص، وعلي.

قال ابن ملجم: أنا أكفيكم عليًّ بن أبي طالب.

وقال ثانٍ منهم: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان.

وقال ثالث: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

وتعاهدوا وتواثقوا بالله : لا ينكص رجلٌ منهم عن صحابه صاحبه تَوجَّه إليه، حتى يقتله أو يموت دونه.

وضربوا لهم موعداً، لسبع عشرة ليلةٍ تخلو من رمضان، عام ٤٠ هـ[١].

وقُتِل الإمام علي بسيفِ ابن ملجم...

ونجا معاوية وعمرو.

* * *

وأصبح معاوية، غداةَ اليوم الثامن عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ، والأمرُ منه قابَ قوسين أو أدنى!

لقد بويع «الحينُ «الحسينُ علي» إثر مصرع أبيه الإمام كرم الله وجهه، لكن «معاوية» اعتصم بمعقله في الشام وأخذ البيعةَ لنفسه.

ولم يطل بهما الخلاف، فإن «الحسن بن علي» لم يلبث - في أول سنة ٤١ هـ - أن تنازل عن الأمر لمعاوية بشروط خاصة[٢] حقناً لدماء المسلمين، وارتياباً في ولاء العراق، ولكي يضع حدا لتلك الفتنة التي خضبت ساحة العالم الإسلامي الكبير، بدماء القتلى والشهداء.

وبايع «الحسين» معاوية، حتى لا تكون فتنة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٨٣/٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٩٣/٦ وانظر نص وثيقة الصلح وتحليلها في كتاب «صلح الحسن» للسيد الشيخ راضي آل ياسين: ٢٥٢ ط بغداد ١٩٥٣.

وأدى فريضة الجهاد، فاشترك في غزو القسطنطينية عام ٤٩ هـ وأبلى فيها خير بلاء.

ومن قبل اشترك في فتح افريقية وغزو طبرستان...

وعاد فلزم «المدينة»، يجلس في مسجد جده الرسول عليه الصلاة والسلام، يروي الحديث. ويشتغل بأمور الدين الدين، فيتحلق حوله المسلمون وتهوي إليه أفئدتهم، ويجدون فيه نفحات من نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام.

رآه «عبد الله بن عمر» ذات يوم مقبلا، فهتف:

«هذا أَحَبُّ أهلِ الأرض إلى أهلِ السماء اليومَ».

ومعاوية في دمشق، يمد بصره إلى هذا المجلس على بُعْدِ ما بينهما، ويحوم بفكره حوله، حتى ليقول لرجلٍ من حزبه استأذنه في السفر إلى الحجاز:

«إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة، فيها قومٌ كأن على رؤوسهم الطير. فتلك حلقة أبي عبد الله الحسين...».

طفولة مرحة

في تلك الأيام ، كانت «آمنة بنت الحسين» [1] تحبو في رحاب البيت النبوي ، طفلة حلوة الملامح ذكية النظرة ، مرحة الطبع آسرة السمات .

ولم يحدد لنا التاريخ عام ولادتها ، بل لا أعرف أحداً من كُتاب السيَر الذين نقلوا إلينا أخبارها ، قد التفت إلى تاريخ مولدها أو أشار إليه . وكنا بحيث نمر بهذا الصمت غير مبالين ، لو أن الأمر ليس بذي أهمية ، لكنا سنرى هذه الطفلة عندما شبت ، تشغل في المجتمع القرشي مكان السيدة الأولى في عصرها ، وسوف تشغل هذا المجتمع – ورواة الأخبار على مر العصور – بما اشتهرت به من حسن وملاحة ، وبحياتها الزوجية الحافلة ومجالسها الأدبية العامرة . ولن نستطيع أن نتمثل هذه الحياة الخصبة الحافلة للحسناء الهاشمية ، إذا لم نعرف تاريخ مولدها ، إن لم يكن على وجه التحديد ، فعلى وجه التقريب المستطاع . وموضوع حاجتنا إلى هذا ، أن تاريخ المولد هو الذي يحدد لنا عُمْرَ «بنت الحسين» في مختلف مراحل حياتها التي لم يعرف زمنها حياةً أحفلَ منها . وإذا أمكن أن نتجاهل مسألة السن في حياة رجل ، فليس من الهين أن نفعل ذلك مع أنثى ، وبخاصة إذا كانت هذه الأنثى ، هي «آمنة ، سكينة بنت الحسين» ! ...

---

(١) سميت باسم جدة امها الزهراء : آمنة بنت وهب ، أم الرسول ﷺ . وسكينة لقب لها ، وبه اشتهرت . انظر الاغاني ١٤/١٥٧ -ساسي.

وحين نحاول أن نلتمس من أخبارها، ما يعين على تقدير تاريخ مولدها، نجد أولَ ما نجد، ذلك الخبرَ الذي يشير إلى وفاتها وهي في نحو السبعين من عمرها.

ولا خلاف بين كُتاب السِيَر، في وفاتها عام ١١٧ هـ. ذكر ذلك «الطبري» في تاريخه (سنة ١١٧ هـ) وابن خلكان في (الوفيات: ٢٩٨/١) والذهبي في «الشذرات: سنة ١١٧) وذكرتْه المصادر الشيعية في (مقتل الحسين: ٣٦٨) للسيد عبد الرزاق الموسوي، ودائرة المعارف الإسلامية (مادة: سكينة) ولا نعلم أنهم اختلفوا في هذا التاريخ.

فالقول بوفاتها وهي في نحو السبعين من عمرها، يجعل مولدها حوالي عام ٤٧ هـ، بعد سبع سنين من مقتل جدها الإمام «علي» كرم الله وجه، وانتقال الخلافة إلى «معاوية» كبير البيت الأموي.

فإذا أضفنا إلى هذا، ما ذكره رواةُ سيرتها، من أن ابن عمها الحسن، تقدم إلى عمه «الإمام الحسين» يطلب أن يزوجه إحدى ابنتيه: فاطمة أو سكينة، فزوجه الإمام أولاهما [١]، كان مقتضى هذا أن «سكينة» أدركتْ سِنَّ الزواج في حياة أبيها رضي الله عنه، وهو ما يؤيد الاستنتاج الأول الذي يبلغ بسنها أربعة عشر ربيعًا. عندما استشهد أبوها الإمام في كربلاء، في شهر المحرم سنة ٦١ هـ.

فلنا أن نطمئن إذن إلى أن ولادتها كانت حوالي سنة ٤٧ هـ. وقد سُميت باسم جدتها أم النبي، ثم لقبتها أمها الرباب: بسكينة، ولعلها لحظت أن نفوس آلها الأكرمين كانت تسكن إليها لفرط مرحها وإشراقها.

---

(١) المصعب الزبيري: نسب قريش – ٥٧.
والأغاني: ١٥٨/١٤ ط الساسي.

وقد استقبل البيت الهاشمي قبلها مولد أخيها الشقيق «عبد الله بن الحسين» الذي استشهد مع أبيه رضي الله عنه.

وكانت «سكينة» في طفولتها الحلوة اللاهية، خلية البال من تلك الهموم الكبار التي كانت تشغل آلها وتلقي على الأفق من حولها ظلالا من الأسى، منذ رزئوا ورزئ الإسلام بمصرع أمير المؤمنين الإمام علي، قبل مولد «سكينة» بنحو سبعة أعوام، ثم بموت عمها «الإمام الحسن» سنة ٥٠ هـ[١]، و«سكينةُ» في نحو الثالثة من عمرها، فنأى بها صِغرُ السن عن عمق الإحساس بالفاجعة المزدوجة التي ألمت بالبيت الكريم.

والأخباريون يروون من أخبار «سكينة» في طفولتها المرحة، ما يؤكد أنها كانت مبعث أنس لآلها الكرام، ولأبيها «الحسين» بوجه خاص، يسكن إلى مرحها وظرفها في تلك الظروف العصيبة التي كانت تئوده. ويبدو أنه عوتب في اهتمامه المفرط «بسكينة»، وإسرافه في الأنس إليها وإلى أمها «الرباب»، فلم يُصغ فيهما إلى عتاب، بل قال:

لعمري إنني لأحِبُّ داراً تضيفها سكينةُ و الربابُ
أحبهما وأبذل بعدُ مالي وليس للائمي فيها عتاب
ولست لهم وإن عَتَبوا مطيعاً حياتي، أو يُغيبني الترابُ[٢]

---

(١) تاريخ الطبري: حوادث سنة ٥٠ هـ
ونسب قريش: ص ٤٠، وصلح الحسن: ٣٦١.
(٢) في نسب قريش: ص ٥٩ «لعمرك انني لأحبُّ دارا».

والبيتان الأولان، رواهما الأصبهاني في (مقاتل الطالبيين ص ٩٠) وفي (الأغاني ١٥٨/١٤):

لعمري انني لأحب دارا تكون بها سكينة و الرباب
أحبها وأبذل كل مالي وليس لعاتب عندي عتاب

وفي خبر رواه صاحب الأغاني [١] عن «مالك بن أعين»، أنه سمع «سكينة بنت الحسين»، رضي الله عنها، تقول: عاتب عمي «الحسن» أبي في أمي، فقال هذه الأبيات.

وان صح هذا الخبر، كان فيه ما يدل على أن «الإمام الحسين» بالغ في الاهتمام بزوجه وطفلته، إلى حد لفت أخاه الكبير ودفعه إلى التدخل في أخص شئون أخيه، بالملامة والعتاب. ونحن قد اطمأننا إلى أن «سكينة» ولدت حوالي سنة ٤٧ هـ. وقد توفي عمها «الحسن»، في سنة ٥٠ هـ. و«سكينة» في السنة الثالثة من عمرها. واذن فقد كانت منذ طفولتها، مبعثَ أنس خاص لأبيها الإمام الذي رأى أخاه يتزل عن الأمر «لمعاوية»، ويبايعه أميراً للمؤمنين بعد كل الذي كان!

ترى هل كان «الحسين» في إقباله المسرف على «الرباب» و«سكينة» يريد أن يتشاغل عن نذر عاصفة أخرى بدأت تلوح له على الأفق البعيد، وإن ظن أخوه وظن كثير غيره، أن تنازل «الحسين» قد وضع حدا للفتنة وعَصَمَ المسلمين من حربٍ هوجاء قاسية لا ترحم!؟..

ترى هل كان يفر إلى طفلته، هذه الذكية المرحة المليحة، من خاطر كان يثوده

(١) جـ ١٥٧/١٤ ساسي.

حين يخلو إلى نفسه ، مؤكدًا له أن تضحية « الإمام الحسن » لن تذهب هَدَراً فحسب ، ولكنها زادت بني أمية تشبثاً بالأمر الذي استقر بين يدي « معاوية » وهيهات أن يتركوه يخرج من أيديهم مرة ثانية ، وهم الذين كافحوا في سبيله نصف قرن أو يزيد؟

لقد بايع « الحسين » نفسه « معاوية » بعد صلحه مع الحسن . وماله ، رضي الله عنه ، في الخلافة مطمع ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن الفتنة لم تهدأ إلا إلى حين ، فما كان « ابن هند » بالذي يرضيه أن يتولى الأمر زمناً يطول أو يقصر ، ثم يتركه ليعود إلى البيت الهاشمي ، أعداء الأمويين من قديم الزمان !

ولو قد فعلها ، لباء بلعنة أبيه سفيان الذي قال للعصبة الأموية يوم تولى « عثمان » رضي الله عنه الخلافة :

– يا بني أمية ، تَلَقَّفُوها تلقفَ الكرة ، فو الذي يحلف به أبو سفيان ، ما زلتُ أرجوها لكم ، وَلَتَصِيرنَّ إلى صبيانكم وراثةً .

لو فعلها ، لطارده صدى من صوت أمه « هند » ، تصيح : ثكلتْه أُمُّه إن رضي بهذا . . .

هيهات هيهات ! . . . فما انتزع « معاوية » الخلافةَ إلا ليثبتها في بيته ، ويستخلصها لقومه من بني أمية .

ولكن كيف يجرؤ ، والعهدُ بينه وبين « الحسن » قائم؟ (١) .

(١) انظر الرسائل بين الحسن ومعاوية في (مقاتل الطالبيين : ص ٥٥ وما بعدها) وانظر نص العهد في « صلح الحسن » ص ٢٥٢ وما بعدها .

ظل المسلمون في ريب من هذا، أما «الحسين» عليه السلام، فما غاب عنه أن لذاك الأمر ما بعده. وكلما أمعن النظر. بدا له الليلُ طويلاً... لا نهايةَ له ولا آخر...[1]

وحاول مع ذلك ألا يسبق الأحداث، وأعانه على هذا، أن استغرقته العبادةُ وأمور الدين فإذا آب من المسجد إلى بيته، فثمة «سكينة» تملأ الأفق من حولها إشراقا وسنى، وتكاد تنسيه – إلى لحظات – ما يشغله من خواطر تسري به إلى ليل الهموم.

حتى مات «الحسن»...

وذاع أنه مات مسموماً بيد زوجته «ابنة الأشعث» بتحريضٍ من «معاوية» على أن يزوجها ولده «يزيد» ويعطيها مائة ألف درهم، ففعلتْ... وَسَوَّغها المالَ ولم يزوجها من ولده.[2]

وتأهب «الحسين» لمعركته ضد هذا الجبروت الظالم الذي لا يلوي على شيء...

ضد هذا الباطل الغاشم، الذي لا يرعى حرمة ولا عهدا، ولا يخشى عاقبة...

ضد هذه العصبة الباغية، وقد خلا لها الجو إلا من «أبي عبد الله الحسين».

* * *

ثم لم تك إلا أعوام معدودات، حتى أمسك التاريخ أنفاسه ووقف يرقب

---

(١) تاريخ الطبري: ٩٢/٦.

وانظر مروج الذهب للمسعودي: ٢٣٠/٢.

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٧٣ – وفيه ان ابنة الاشعث تزوجت رجلا من آل طلحة، وولدت له أبناء عيروا بأنهم بنو مسمة الازواج. وانظر «صلح الحسن: ٣٦١».

«معاوية» وهو يجلس في قصر الخلافة بدمشق، ليأخذ البيعة عَلَنا لابنه «يزيد» سنة ٥٦ هـ، بعد أن مهد لها طويلا [١]، فلم يفتر دقيقة واحدة عن السعي لها منذ تم له النصرُ الحاسم بصلح الحسن، ثم بموت الحسن بعد عشر سنين من استقرار الأمر «لمعاوية».

وعشر سنين ليست قليلة إذا حسبناها بالدقائق، وما نام «معاوية» دقيقة عن هدفه.

ولكن وجود «الحسين» جعله يحتاج إلى ست سنوات أخرى من كفاح دائب عنيد.

وكانت بين يديه خزائن المال يشتري بها من شاء.

فمن عَصِيَ على المال اشتراه بالدهاء والمكر والملاينة.

ووكل الباقين إلى الخوف من هيبة السلطان وجبرت الحاكم.

نقل «المبرد» في الكامل: «أن معاوية لما نصب يزيد»، لولاية العهد، أقعده في قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد. حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال:

– يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تُوَلِّ هذا – وأشار إلى يزيد – أمورَ الناس لأضعتَها.

«وكان الأحنف بن قيس جالساً، فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا

(١) تاريخ الطبري: ١٦٩/٦.

بحر؟.. فقال الأحنف: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت. فقال معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً. وأمر له بألوف.

«فلما خرج الأحنف، لقيه الرجل بالباب فقال: يا أبا بحر. إني لأعلمُ أن شرَّ مَن خلق الله. هذا وابنُه!.. ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت!»[1].

إذن فقد فعلها.

فعلها في جرأة وعلانية، فجعل الخلافة في بيته الأموي ملكاً موروثاً، وهرقلية كلما ذهب هرقل جاء هرقل...

وأخذ البيعة ليزيد، أميراً للمؤمنين من بعده، وإنه لينتزع بالوراثة إلى جدته آكلة الأكباد، ويزدهيه هذا الملكُ العريض الذي خلص لآل أبي سفيان، ويذهب في حياته مذهبَ الفتيان المترفين. مجاهراً بالفسق معالناً بالمعصية!..

ورنت القلوب، كل القلوب، إلى «الحسين بن علي»: سبط الرسول، وغذيّ النبوة، والمثل الكامل للرجولة والعظمة والتقوى والإيمان.

وامتدت الأيدي، إلى «معاوية» تبايعه على ولاية العهد ليزيد، وهم أحد ثلاثة:

رجل يعلم أن «يزيدَ» شر من خلق الله، ولكن بيديه مفاتيح الخزائن وأقفال بيت المال.

(١) بغية الآمل الكامل: ١/١٦٥ – ط ١٩٢٧.

وثان يخاف الله إن كذب ، ويخاف معاوية إن صدق.

وثالث حَذِر فطن ، قد يئس من خروج الأمر من الأمويين بعد أن صار إليهم ، فسايَر وداوَر.

ولم يتخلف عن البيعة ليزيد. إلا خمسة من وجوه أهل المدينة :

الحسين بن علي. وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن عباس [1].

وتكتلت حول البيت النبوي معارضةٌ قوية ، أنكرتْ أن تغدو الخلافة هرقلية ، وأن يئول أمر المؤمنين إلى مثلِ «يزيد».

ولم يعدُ «عبدُ الله بن همام» الحق ، حين قال :

فإن تأتوا برملةَ أو بهند [2] نبـــايعهـــا أميرَة مؤمنينـــا
حُشينا الغيظَ حتى لو شَرِبْنا دمـــاءَ بني أميـــة مـــا رَوِينـــا
لقـــد ضاعتْ رعيتكم وأنتم تصيـــدون الأرانبَ غـــافلينـــا

أغضى «معاوية» عن ذلك النفر الخمسة ، الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، بقدر ما أسرف في التنكيل بمن شايعهم علنا. وبلغ به الأمر أن قتل «حُجْرَ بن عَدِيٍّ» وستةً من أصحابه ، لأنهم أنكروا أن يُسَبَّ «الإمامُ علي» على منبر الكوفة ! [3]

---

(١) تاريخ الطبري: ١٧٠/٦.

(٢) رملة : بنت معاوية. وهند، أمه ، بنت عتبة.

(٣) تاريخ الطبري : ١٤١/٦ – وفيه ان السيدة عائشة قالت لمعاوية بعد مقتل حجر: يا معاوية ، أين كان حلمك عن حجر؟ فأجاب : يا ام المؤمنين، لم يحضرني رشيدٌ.

وحين غضب عابد قريش «محمد بن أبي بكر» لهذا المنكر، وكتب إلى «معاوية» يُذَكره بفضل الإمام علي وقديم سوابقه، ردَّ عليه يقول:

«قد كنا وأبوك فينا، نعرف فضلَ ابنِ أبي طالب، وحقه لازما لنا مبرورا علينا. ثم كان أبوك وعُمَرُ، أولَ مَن ابتزَّه حقه وخالفه على أمره... فإن يك ما نحن عليه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالَفْنا ابنَ أبي طالب ولَسَلّمنا إليه، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلَنا فأخذنا بمثله... فَعبْ أباك بما بدا لك أو دَعْ ذلك، والسلامُ على من أناب»[١].

* * *

أين كانت «سكينة» من هذا كله؟..

كانت هناك دائماً إلى جانب أبيها، تُتبعه خواطرَها وقلبَها إذا غاب عنها، فإذا آب إلى بيته كانت أسرعَ أهله إليه وأقدرَهم على إيناسه، فما يكاد يلمح ابتسامتها الوضيئة حتى يسكن إليها ويندمج لحظاتٍ في جوها المرح وعالمها الظريف.

وكانت في ذلك الوقت، قد جاوزت مرحلة الطفولة وشارفت مطلع الشباب، فما عادت بحيث يغيب عنها الذي يعانيه أبوها من هموم كبار، لكنها كانت قادرة على أن تطوي همومها ساعةَ تلقاه، لعلها بذلك تنسيه بعضَ همومه.

ولم تفتها صغيرة ولا كبيرة من أنباء ذلك الصراع المحتدم بين حق أبيها وباطل خصومه، بل لقد شاركت في هذه المعركة بكل وجدانها اليقظ وحسها المرهف ووعيها الذكي، وإن بدت خليةَ البال، لا هم لها إلا أن تملأ البيت بدعابتها المرحة،

---

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٢/١٩٤.

وإلا أن تمنح أباها المناضل – الذي ما بات منذ وعى وأدرك ، إلا على حقٍّ يذود عنه ، أو باطلٍ يدفعه باليد واللسان والقلب – بعضَ أنسٍ وراحةً.

وربما شهدتها الليالي ساهرة مسهدة تحاول عبثاً أن تذود عن مضجعها أشباح الهم التي تؤرق منام أبيها ومنامَها معه ، لكنها ما سُمعتْ شاكيةً ولا رؤيت باكية ، بل تغدو مع مشرق الشمس ملءَ الإشراق والمرح ، حتى لقد بدا لبعض أهلها أن يسألها ذات مرة : «إنك لتمزحين كثيراً ، وأختك فاطمة لا تمزح؟» فأجابت من فورها : «لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة ، وسميتموني باسم جدتنا الأخرى» تعني «فاطمة الزهراء» ، و«آمنة بنت وهب»[1].

وفي جوابها ما يدل على وعيها لما ألمَّ بجدَّتِها الزهراء من أحزان ، وتمثلها إياها في الأشهر الأخيرة من عمرها ، لا يرقأ لها دمع على أبيها العظيم ، ﷺ ، حتى لحقت به...[2]

وإذن فلم تكن بغافلة عن هموم آلها وأحزانهم ، ولكنها ما كانت تطيق أن تكتئب ، وهي تعلم أن أباها رضي الله عنه يلتمس لديها ما يعينه على احتمال عناء طال ، ولا تبدو له نهاية !

يلتمسه لديها وحدها ، في حضن أمها «الرباب» مع أن بيت «الحسين» كان يضم وقتذاك زوجات أخريات وأبناء أخر...

* * *

---

(١) الاغاني : ١٤/١٥٨ ساسي.

(٢) انظر حديث الزهراء بعد وفاة أبيها الرسول ، في كتابنا «بنات النبي».

وهنا، نقف لحظة لنلقي نظرة على أفراد البيت الكريم الذي كانت «سكينة» مبعث الأنس فيه:

فهناك، كان «عبد الله بن الحسين» شقيق «سكينة» من أمها «الرباب بنت امرئ القيس بن عدي»[1].

وكان هناك أخوها لأبيها: «علي» الأكبر، ابن الحسين، وأمه «ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي»، وأمها «ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب»، وفيه قال معاوية: «أولى الناس بهذا الأمر، علي بن الحسين ابن علي: جده رسول الله ﷺ، وفيه شجاعة بني هاشم، وسخاء بني أمية، وزهو ثقيف»![2]

وكان هناك كذلك، «علي» الأصغر «زين العابدين» مع أمه «سلافة بنت يزدجرد» آخر ملوك فارس، وقد سُبِيَت مع أختين لها في معركة فتح بلاد الفرس، وجيء بهن إلى «عمر» مع السبايا الأخريات. فأمر رضي الله عنه ببيعهن جميعاً، لكن الإمام علي تدخل لإعفائهن من هذا الموقف الأليم وأشار على أمير المؤمنين بأن يُقَوَّمْنَ، ومهما يبلغ ثمنهن يدفعه من يختارهن.

وقوّمت بنات يزدجرد، فأخذهن علي بن أبي طالب، واختار لهن خير ثلاثة من شباب قريش، فكانت الأولى لابنه الحسين وقد ولدت له «عليا» الأصغر.

والثانية لمحمد بنْ أبي بكر الصديق، فولدت له «القاسم».

والثالثة لعبد الله بن عمر، فولدت له سالما!

---

(١) نسب قريش: ٥٩.

(٢) الاصفهاني: مقاتل الطالبيين – ٨٠.

فيقال إن أهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم «علي ابن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله» ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس في اتخاذ السراري.

وقد كان «علي الأصغر ، زين العابدين» أكبر من أخته «سكينة» بنحو عشر سنوات ، إذ ولد رضي الله عنه سنة ٣٨ هـ [١] فأدرك مقتل جده الإمام علي ، وعُرِف عنه – منذ صغره – العكوفُ على العبادة ، والزهد في ملاذ الدنيا ، مما أعده ليكون – بعد استشهاد أبيه وبقية أهل بيته في كربلاء – من أشهر البكائين في تاريخ الإسلام [٢] .

وإنما سمي عليا الأصغر ، تمييزاً له عن أخيه «علي» الأكبر ، وأمه «ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي» ، الصحابي الجليل [٣] .

وأخ رابع «لسكينة» ، هو «جعفر بن الحسين» وأمه من قبيلة بَلِي [٤] .

ثم كانت هناك أختها لأبيها : «فاطمة بنت الحسين» . قيل إنها كانت منقطعة النظير في الجمال ، لكنها لم تكن مرحة كأختها «سكينة» ولعل ذلك راجع إلى ظروفٍ خاصة بها وبأمها «أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي» [٥] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/٤٥٥ بولاق وانظر معه (عيون الاخبار لابن قتيبة) ٤/٨ دار الكتب . وشذرات الذهب : ١/١٠٥ لابن العماد الحنبلي.

(٢) ارجع إلى كتاب «مقتل الحسين» ص ٤٥٠ : ٤٥٤ .

(٣) نسب قريش : ٥٧ – والإصابة : ٧/١٧٤ مصر.

(٤) نسب قريش : ٥٩ .

(٥) نسب قريش : ٥٠ .

فلقد كانت «أم اسحق» إحدى بنات تيم اللواتي اشتهرن بالجفوة والخشونة في معاملة الأزواج ، وفي «نسب قريش» أنها تزوجت «الحسن ابن علي بن أبي طالب ، فولدت له ابنه طلحة ، ثم تزوجت أبا عبد الله «الحسين» فولدت له فاطمة [1] ، وليس في مصادر سيرة بني علي ، ما يشير إلى انفصال أم إسحاق عن الحسن ، هل كان بطلاق أو ترمل . لكنا نميل إلى الظن بأنها طُلقت منه ، لأن زواج بنتها فاطمة كان في حياة أبيها الحسين ، وقد قتل رضي الله عنه في المحرم من سنة ٦١ هـ . ومن المستبعد أن يكون قد تزوج من أم «إسحاق» بعد موت أخيه الحسن عام ٥٠ هـ ، وولدت لها فاطمة التي ادركتْ سن الزواج قبل عام ٦١ هـ...

وأيا ما كان الأمر ، فتجربة الطلاق أو الترمل ، غيرُ هينة على مثل أم إسحاق . ولعلها زادتها جفوة وصرامة ، حتى ليقول الحسين رضي الله عنه فيها : «واللهِ لربما حَمَلتْ مني ووضعتْ ، وهي مصارمة لي ما تكلمني ! »

وفي ظرف كهذا ولدت له ابنته فاطمة ، وفيها ميراثُ بناتِ تيم ، وأثر تلك الظروف القاسية ، فأعوزها ما كان لأختها سكينة ، من مرح وبساطة وإيناس .

* * *

هؤلاء هم إخوة سكينة : «عبد الله» شقيقها ، و«علي» الأكبر ، و«علي» الأصغر ، و«جعفر» ، و«فاطمة» .

ولم يفت القوم أن أباهم الإمام مُقِل ، إذ يُروى أن رجلا قال لأحد بني الحسين :

---

(١) نسيب قريش : ٥١

ومثله في جمهرة أنساب العرب : ٢٤ ، ٦٢٩.

ما أقلّ ولد أبيك ؟.. فكان جوابه : «العجب أن يكون له ولد ، وهو الذي ما رُئي إلا عاكفا على العبادة والجهاد».

وقد كانت حياة الحسين كلها مجاهدةً وجهاداً : مع النفس ، ومع الباطِل أينما كان...

وقد عاش بنوه الأربعة ، وبنتاه فاطمة وسكينة ، حتى بلغت معركته ذروتها الرهيبة ، ولكن «سكِينة» هي التي استأثرت من دونهم جميعاً ، بأنها كانت مبعثَ أنسه وراحته...

لعمرك إنني لأحب دارًا تكون بها سكينـــةُ و الربـــاب

* * *

في دوامة الأحداث

من قريب ، وقفت «سكينة» وقد جاوزت مرحلة الطفولة ، ترقب الأحداث وهي تندفع نحو ذروتها المشئومة في عنف شرس ، وترنو إلى أبيها الحبيب ، في صميم الدوّامة ، يمضي إلى المصرع الدامي ، دون أن يملك عنه حولا !

فمنذ أخذ «معاوية» العهد لابنه «يزيد» ، وغَذِيٌّ النبوة هو قطب الصراع ومحور الأحداث وهدف المعركة ... المعركة الطويلة العنيدة ، التي بدأت مرحلَتها الأولى بين أبي سفيان بن حرب ومحمد ﷺ ، ثم انتقلت إلى صراع بين معاوية بن أبي سفيان ، والإمام علي صهر الرسول وابن عمه ، وها هي تنتقل –كأنها ميراث محتكم– إلى دورها العنيف ، بين «يزيد بن معاوية» : حفيد أبي سفيان وهند ، و«الحسين بن علي» : حفيد الرسول وولد الزهراء :

عبدُ شمسٍ أضرمتْ لبني هاشم حرباً يشيب منها الوليدُ
فابنُ حربٍ للمصطفى ، وابنُ هند لِعَلِيٍّ ، وللحُسينِ يَزيدُ

والتاريخ المروي لا يذكر أن «يزيدَ» أخذ مكانه في الصراع ، أيامَ أبيه معاوية ، ولكن الذي لا ريب فيه انه لبث منذ بويع وليا للعهد سنة ٥٦ هـ ، إلى وفاة معاوية سنة ٦٠ هـ ، يتدبر موقفه من «ابن الزهراء» ، ويستعد على مهل لمعركة عاتية تحسم هذا الموقفَ المعلق الذي ظل أكثرَ من نصف قرنٍ ، حائراً متردداً ...

ما من شك ، أنه قَدَّرَ أن الخلافة لن تصفو له ، وفي الناس هذا الحسينُ الإمام ، يفرض سلطانه على كل القلوب وكل الضمائر ، ويغزو المجتمع الإسلامي ، بجاذبيته الآسرة وشخصيته التي يحف بها سنا من نور النبوة وجلال الإيمان ، ومهابة الحق ، ووقار السمت ، ونُبل الطباع ، واكتمال الرجولة والإنسانية .

حتى مات معاوية بعد أن وطّأ الأمرَ لولده ، ولم يَعُدْ يخاف عليه إلا من بضعة نفر من قريش ، أولهم «الحسين بن علي» كما قال في وصيته ليزيد (١) .

وورثه «يزيد» وهو ابنُ اثنتين وثلاثين سنة ، في هلال رجب ، سنة ٦٠ هـ .

وإذ ذاك ، بدأ يقود المعركة في قسوة ضارية وشراسة محمومة ، فكتب إلى عامله بالمدينة ، الوليد بن عتبة ، أن يأخذ له البيعة قسراً ممن تخلف عنها من وجوه المسلمين هناك (٢) .

فبايعه «عبد الله بن عباس» .

وبايعه «عبد الله بن عمر» (٣) .

وفر «عبد الله بن الزبير» إلى مكة ، مستعيذاً بالبيت العتيق (٤) ، في طمأنينة الواثق أن دوره لم يَحُنْ بعد !

وأبى «الحسين» أن يبايع ، بل كان جوابه للوليد :

---

(١) أنظر نص الوصية في تاريخ الطبري ١٧٩/٦ .
(٢) أنظر نص كتاب يزيد الى عامله الوليد ، في تاريخ الطبري ١٨٨/٦ .
(٣) تاريخ الطبري : ١٦٠/٦ .
(٤) تاريخ الطبري ١٦٠/٦ ونسب قريش : ٢٣٩

«يا أمير... إنّا أهلُ بيت النبوة ومعدن الرسالة، بنا فتح اللهُ وبنا ختم، ويزيدُ فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، مُعلِنٌ بالفسق، مجاهر بالفجور. ومثلي لا يبايع مثله، ولكنْ نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أينا أحق بالبيعة والخلافة»[1].

ومضى...

قال «مروان بن الحكم» وقد كان حاضراً، للوليد بن عتبة:

- عصيتني حين قلت لك ألا تدعه يمضي أو تضربَ عنقه!.. لا والله، لا يمكنْكَ مثلَها من نفسِه أبداً[2].

فأجاب «الوليد»:

- ويحك!.. إنك أشرتَ عليَّ بذهاب ديني ودنياي، والله ما أُحب أن أملك الدنيا بأسرها وأني قتلت حُسَينا!.. سبحان الله، أأقتل حسينا لَمّا أن قال لا أبايع؟.. والله ما أظن أحداً يَلقى اللهَ بدمِ الحسين إلا وهو خفيفُ الميزان عند الله[3].

يبايع أو يقتل؟!

على هذا صمّم بنو عبد شمس!

ومحال أن يبايع «الحسين»..

---

(١) السيد عبد الرزاق الموسوي: مقتل الحسين ص ١٢.

(٢) بنصه من الطبري: ٦/١٩٠.

وانظر معه «نسب قريش»: ١٣٣ و«مقتل الحسين: ١٢٨».

(٣) الطبري ٦/١٩٠ ونسب قريش: ١٣٣.

محال أن يبايع مثلَ «يزيد» أميراً للمؤمنين، مهما يبلغ من طغيان السلطان وتحامل المتغلب وجبروت الحاكم:

ولستُ أبـــالي حين أُقتَـــلُ مسلما
على أيِّ جَنْب كان في الله مصرعي!..

وما كان «الحسين» طامعاً في أمر من أمور الدنيا، ولا كانت له في الخلافة رغبة، ولكن إذا انتهى الأمر إلى أن يصير «يزيد» أميراً للمؤمنين، فلن يبالي «الحسين»، على أي جنب يكون في الله مصرعه، ليدفع هذا الباطل بقلبه ولسانه، ثم بسيفه إذا لم يكن من القتال بد!..

وإذ رأى من والي المدينة إصراراً على حسم الموقف، هاجر بأهله إلى مكة، حيث «عكف الناس على الحسين، يفدون إليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون إلى كلامه وينتفعون بما يسمع منه ويضبطون ما يروون عنه»(١).

* * *

وهناك، في دار المبعث، طافت «سكينة» بأنحاء البلد العتيق، ووقفت بالمشاهد التاريخية التي صنعت حياة أسرتها وحياة العالم الإسلامي أجمع. وربما أتيح لها وقتئذ أن ترقب النشاط الأدبي الذي كانت مكة بوجه خاص، والحجاز بصفة عامة، مركزاً من أهم وأحفل مراكزه، وحيث كان عدد من شباب الأنصار وفتية قريش، قد عمرت بهم أندية الشعر ومجالس الطرب والغناء، وازدهرت في تلك البيئة الأرستقراطية، مدرسةٌ خاصة في الغزل، كما ازدهرت صنعةُ الألحان وفن الغناء.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية. ترجمة الحسين رضي الله عنه.
وانظر معه (تاريخ الطبري) ٦/٢٢٤.

وأهلَّ موسم الحج من عام ٦٠ هجرية ، و«سكينة» مع آلها في مكة ، فأتيح لها أن تشهد بعينيها وتسمع بأذنيها ، كلَّ ما كان يدور هناك في ذلك الموسم بخاصة ، من ضجيج أدبي حافل صاخب. وإن راحت في الوقت نفسه تصغي بكل قلبها وفكرها ، إلى نشاط من نوع آخر ، كان أبوها الإمام مصدره ومركزه معاً ، فمنذ وفد «الحسين» إلى مهد الإسلام ، وأوى إلى منزل الوحي الذي اصطُفِي له جدُّه العظيم عليه الصلاة والسلام ، وجموعُ المسلمين تلتقي عنده ، تلتمس لديه ما يعصمها من غلبة الضلال ، وتلوذ به في حيرتها بين يقظة الضمير وعجز الوسيلة ، وتستمد منه زاداً من القوة المعنوية تقوى به على مواجهة الطغيان المستبد!

وحين كانت مكة تستقبل عدداً من شباب الحجاز وشعراء الغزل ، الوافدين عليها في موسم الحج ، كانت هناك جموع أخرى جاءت لغير ما جاء له شعراء الغزل. أولئك هم رسل العراق ، وفدوا على مكة يبايعون «الحسينَ» ابن بنت النبي ، على الجهاد في سبيل الحق المغتصَب من أوْلَى الناس به ، واستردادِ الخلافة من بين يدي الفتى الأموي الذي تلقاها عن أبيه ميراثاً هرقليا ، وليس لها بكفء. ونشطت الرسائل ما بين الكوفة والمدينة ، وأعينُ الأمويين يقظى لا تنام...

* * *

وفي هذا العالم المضطرب بشتى الأحداث ، المائج بتيارات متناقضة ، المزدحم بحشد من طلاب الغناء وعشاق الأدب ، وآخر من طالبي الجهاد المتهيئين لبذل الحياة رخيصةً في سبيل ما يؤمنون بأنه حق... في هذا العالم المضطرب المتناقض ، استقبلت «سكينة» ربيعها الثالث عشر وتفتح صباها النضير عن آية من آيات الحسن والبهاء والجلال. وقد فرضت عليها الظروفُ أن تحيا بين التيارين المتجاذبين ، في مستهل هذا

الصبا الغض. وبقدر ما رأى فيها أبوها مبعثَ راحته وأنسه، رأتْ فيها أم القرى نموذجاً فريداً رائعاً لا عهد لها بمثلِه أناقة وظرفا وبهاء! وأقبلت عليها فتيات مكة، يرمقنها في إعجاب مشوب بشيء من الحسد، ورحن يرصدن لفتنتها الآسرة، وحركاتها الرشيقة الفاتنة، وذلك النمط الخلاب الذي استحدثته في تنسيق شعرها.

وفي هذا الموسم بالذات، بدأت شخصيتُها تظهر في المجتمع، وتلفت إليها القلوب والأبصار. كانت مكة في موسم الحج، تعتبر سوقاً أدبية واجتماعية حافلة. فحين أقبل موسم الحج من عام ٦٠ هـ، وسكينة هناك، شهد الموسم في دنيا النساء عجباً من العجب: ما من شابة حسناء إلا حاولت أن تقلد «سكينة» فيما ظنّته سرَّ فتنتها، وإن كانت الآراء قد اختلفت في تحديد هذا السر، وذهبت فيه كل مذهب؛ فمن قائل إنه أُنس المحضر وظرف الحديث وسرعة البديهة والذكاء اللماح، وآخر يرجع به إلى حسنها الفريد وأناقتها الساحرة، وثالث يرده إلى ما حفَّ بها من عظمة الأبوة وجلال النسب وسنَا النبوة، ورابع يراه في هذا كله مجتمعا متكاملا، وخامس يحسَبُه جاذبيةً خاصة، ليست مما يُحَدَّد أو يُفَسَّر أو يضبط!

وإذا كانت حسانُ قريش، قد أعياهن أن يأخذن عنها نُبلَ الملامح وجلالَ الطلعة ونور النبي، فقد بقيتْ لهن بعد ذلك أناقتُها يقلدنها حيثما استطعن، وشاعت «الطُّرَّةُ السكينية» فلم تبق واحدة منهن لم تُنسق شعرها على النَّسق المستحدث الذي ابتدعته الهاشمية الحسناء، وراح المجتمع المكي يعرف في بناته أثَرَ النموذج الفريد، ويصغي إلى ما يتناقله السُّمَّارُ من أنباء ظرفها ونوادر دعابتها الذكية المرحة.

وخفقت قلوب الشباب الهاشمي والقرشي، تسائل في لهفة: أيهم يسعده زمانه بأن تكون هذه الدرة الفريدة من نصيبه؟ وبأيهم ترضى «سكينةُ» زوجاً؟

وإذا كانت أمانيهم جميعاً قد تعلقت ببنت الحسين، فإن واحداً منهم هو الذي خطا خطوة حاسمة في سبيل الظفر بها، ذلك هو ابن عمها «الحسن المثنى»[1] الذي يرشحه شرفُه وبنوته للإمام «الحسن بن علي» لمصاهرة عمه الإمام الحسين.

وكان الحسن المثنى وصيَّ أبيه.

لكنه لم يشأ – أو لعله لم يستطع – أن يسمي «سكينةَ» حين تقدم إلى عمه الحسين يطلب مصاهرته، فرحب به العم وقال مجيباً:[2]

– اخترتُ لي ابنتي فاطمة، فهي أكثر ابنتيَّ شبَهاً بأمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وإنما لَذَاتُ دِينٍ وجمال.

ثم أردف بعد لحظة، فيما تقول الرواية:

«وأما سكينة، فغالب عليها الاستغراق مع الله، فلا تصلح لرجل».

وإذا صحت الرواية، فإن عبارة الإمام في ابنته تلفت النظر، فهذا الاستغراقُ مع الله يبدو مناقضا لما أشرنا إليه آنفاً من مرح سكينة وأُنْس مَحضرها، وما ذاع من أناقتها وميلها إلى الدعابة، لولا أننا نعود فنذكر أنها اعتادت – منذ وعتْ – أن تلوذ بهذا المرح لتبدد بعض الغيوم التي كانت تخيم على البيت العلوي الكريم، منذ مصرع جدِّها الإمام علي، وما تلاه من أحداث أليمة حمل أبوها الإمامُ الحسينُ عبئَها الباهظ. وقد بلغ من حرص «سكينة» على اصطناع المرح، ما استطاعت معه أن

---

(١) نسب قريش: ٥١ – وام الحسن هي خولة بنت منظور الهلالية الغطفانية.

(٢) الاغاني: ٥٩/١٤ ساسي، وفيه رواية أخرى، كالتي في «نسب قريش: ٥١» ان الإمام خيره بين فاطمة وسكينة، فكان هو الذي اختار فاطمة وانظر «مقتل الحسين: ٣٦٨».

تطوي همومها في أعماقها، وأن تحتفظ بهذه الابتسامة الوضاءة يتألق بها وجهها الصبوح، دون أن يلهيها هذا المرح، الذي فرضه عليها دورُها في المعركة، عما تنزع إليه بحكم ميراثها النبوي ونشأتها في رحاب البيت المحمدي، من تعبُّد يصل أحياناً إلى درجة الاستغراق مع الله، والاندماج في ذلك الجو الروحي المسعد الذي كانت تجد فيه ملاذها عندما يثقل عليها دورُها الصعب. فما كانت ظروف الحياة في بيئتها تلك بالتي تُعين على الابتهاج والمسرة، فلا عجب إذا رأيناها تنتقل من حالٍ إلى حال فتلقى الدنيا بوجهها الضحوك وظرفها المرح، ثم لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تُقبل على العبادة في خشوع واستغراق، استجابةً لما في طبيعتها المتدينة، وميراثها من الآباء والأجداد، ومتخففةً من ثِقَلِ الدور الذي يفرض عليها ما لا تحتمله ظروفُ حياتها من تهلل وإشراق.

ونطيل الوقوف عمداً عند هذه النقطة بالذات، لأنها تعيننا على فهم شخصية «سكينة» ولعلنا ما اهتممنا بمسايرة أحداث العصر، في تتبعنا لمراحل حياة بنت الحسين، إلا لكي نُلقي من هذه المسايرة ضوءاً على ما يبدو لسوانا تناقضاً في تلك الشخصية التي حيّرت كُتّاب السير: فالأخبار عنها تصورها لهم أحيانا خليةَ البال، معنية بأناقتها، مزهوة بملاحتها، مندمجة في الحياة الاجتماعية. ثم يقرءون مع ذلك وصفَ أبيها لها بأنها «يغلب عليها الاستغراق مع الله» [1] ويروون أخباراً أخرى تؤكد انها كانت مضرب المثل في التقوى والإيمان.

وكان من السهل أن نفترض أن «سكينة» عاشت عهدين مختلفين، كانت في

(١) السيد عبد الرزاق الموسوي: مقتل الحسين: ٣٦٨.

أولها مستغرقة في الله مندمجة في حياة التعبد ، ثم تغيرت من بعد ذلك ، فانصرفت إلى حياة المجتمع واندمجت فيه.

وكان من اليسير كذلك ، أن نحدد المرحلة الأولى ، بالفترة التي عاشتها في كنف أبيها الإمام ، وأن نجعل مقتله – رضي الله عنه – هو الحد الفاصل بين العهدين.

أجل كان من اليسير أن نفترض هذا ، فيسهل علينا به أن نفسر تناقض الأخبار عنها بين الزهد المسرف والدعابة اللافتة ، بين قول أبيها رضي الله عنه «إنها يغلب عليها الاستغراق في الله» وهذه «الطرة السكينية» التي فتنت عصرها... بين المشهور من تقواها وإيمانها ، والذي ذاع من ظهورها في المجتمع الأدبي ، واحتفائها بالمغنين والشعراء...

لكنما يحول بيننا وبين الاطمئنان إلى هذا الافتراض ، ما أجمع عليه الذين كتبوا عنها من كون أبيها رضي الله عنه كان يأنس إليها ويحب مجلسها ويستطيب محضرها ، منذ كانت طفلة صغيرة. وفي الخبر أنها سئلت : لم تمزح ، وأختها فاطمة قلما تفعل؟ فكان جوابها ما سمعناه من أن أختها سُميت باسم جدتها الزهراء...

ثم إن هذه المقارنة بين الأختين – إذا صح خبرها – قد كانت وهُما بعدُ في بيت واحد ، قبل أن تمضي الحياة بكل منهما في سبيل. وفاطمة قد تزوجت في حياة أبيها الحسين ، وإذن فقد كان ميل سكينة إلى المرح مبكراً ، وقبل أن تُفجَع – ويفجَع العالم الإسلامي – بمقتل أبيها في كربلاء ، ولم يمنع هذا المرحُ أباها رضي الله عنه ، من وصفِها بالاستغراق في الله!

من الممكن أن يقال ، إن سكينة كانت أكثر استغراقاً في العبادة وأقل ظهوراً في

المجتمع ، أيامَ كانت تعيش في كنف أبيها الإمام. كما يمكن أن يقال كذلك ، إن الأحداث الفادحة التي ألمت بها بعد مقتل أبيها قد وجهتها نحو الحياة الاجتماعية بضجيجها اللاغب ، على ما سوف نرى في الدور الثاني من حياتها.

يقال هذا وذاك ، فيقبل في طمأنينة ، فما لا ريب فيه أن مذبحة كربلاء ، قد كانت ذات أثر بعيد حاسم ، في حياة الشريفة الهاشمية الحسناء. بل لا نغلو إذا قلنا إنها الحد الفاصل بين طورين متميزين في حياتها الحافلة. لكن الذي لا نرتاب فيه كذلك ، هو أن بوادر هذا الازدواج في الشخصية ، قد لاحت منذ صباها الباكر. وأسميه ازدواجاً في الشخصية ، دون أن أعني به - بحال ما - ذلك المدلول الاصطلاحي المستحدَث للازدواج عند النفسيين ، وإنما أقصى ما أريده به ، هو ذلك الجمع بين المرح والدعابة والمزاح ، والتقوى والتعبد والزهد أو ما يشبه الزهد !

هذا الازدواج - وأضطر إلى استعماله على كره مني - هو الطابع المميز لشخصية سكينة. ظهرتْ بوادرُه في العهد الأول ، عندما كانت تلازم أباها الإمام وتعيش في كنفه ، ثم ازداد على الأيام وضوحاً ، وإن اتخذ صورة أخرى ، نراها بعد حين.

ولقد زُفت أختُها «فاطمة» إلى الحسن المثنى في حياة أبيها الحسين ، وقيل فيما قيل يومئذ : إن امرأة مردودتُها سكينةُ ، لمُنقطعةُ القَرِينِ في الحسن (١).

وبقيت سكينة في بيت الحسين ، وقد أرضاها أن يستبقيها أبوها رضي الله عنه إلى جانبه ، فما كانت لِتؤثرَ على مكانها هناك أيَّ مكانٍ سواه...

وتناقلت بيوتات مكة كلمة أبيها : «فلا تصلح لرجل» فتقاصرت عنها أطماع

(١) نسب قريش : ٥١ ، ومقاتل الطالبيين : ١٨٠ ، والأغاني : ٢٠٤/١٨.

الشباب ورأوها فوقَ منالهم ، وطُوِيت قلوبُ كثيرٍ منهم على يأس...

وأغلبُ الظن أن «مصعب بن الزبير» كان من بين الذين صَكّت الكلمةُ مسمعهم ، فلقد حدثته أمانيه [(١)] أن يتزوج من سيدة نساء عصرها جمالا وظرفا وحسنَ خُلق وعزةَ نسبٍ وشرفَ منبت ، وكان يرى نفسه أهلاً لها : أبوه الزبير بن العوام بن خويلد ، صاحب رسول الله وصهر أبي بكر الصديق. وأمُّه الربابُ بنت أنيف بن عبيد الكلبي. وجدَّتُه لأبيه ، صفيةُ بنتُ عبد المطلب ، عمة الرسول عليه الصلاة والسلام. وعَمَّتُه أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ، جدة سكينة لأمها.

وكان لمصعب من شرفه الخاص ، ما يُظاهر هذا النسبَ العريق ويكافئه ، فهو الذي يتناقل المجتمع القرشي أنباءَ جُودِهِ وشجاعته ومروءته ، حتى لقد شاعت فيه القولة المشهورة : «لو أن مصعبَ بنَ الزبير وجد أن الماء ينقُص مروءَتَه لَمَا شَرِبَه» وهو الذي قال فيه خصمه عبد الملك بن مروان: «متى تغذو قريشٌ مثلَك؟».

وكان إلى جانب ذلك كله جميلا في الرجال ، حتى ليقول «جميل بن معمر» : ما رأيت مصعباً يختال بالبلاط إلا غِرْتُ على بثينةَ وبينهما ثلاثة أيام! [(٢)]

وقد حدَّث «مصعب» برغبته تلك في الزواج من سكينة ، ثلاثةً من أصحابه ، هم : أخوه عروة بن الزبير، وعبدُ الله بن عمر ، وعبدُ الملك بن مروان [(٣)] - ولم تكن المعركة مع آل الزبير قد انتقلت إليه.

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٥٨/١ ط دار الكتب المصرية.

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار - ٢١/٤.

والبلاط موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين المسجد النبوي وسوق المدينة.

(٣) عيون الاخبار: ٢٥٨/١.

على أن مصعبا لم يبادر إلى خطبة سكينة ، ربما لأنه لم ير الظرف مناسبا وأبوها الحسين مشغول بهمومه الكبار ، وربما لأنها كانت لا تزال بعدُ صغيرة فلا بأس على مصعب في أن يتمهل انتظاراً لفرصة مواتية ، أو لعله كان لا يرى في غيره من شباب قريش كفئا لبنت الحسين !..

حتى ذاع نبأ خطبة الحسن المثنى لإحدى ابنتي الحسين ، ثم زواجه من فاطمة دون سكينة التي رأى أبوها أنها باستغراقها مع الله لا تصلح لرجل ، فكفَّ مصعب عن التعلق بأمنيته في الزواج منها ، وراح يغالب رغبته فيها ويأخذ قلبه بالانصراف عنها مخافة أن يرده الحسين خائباً فلا يستطيع أن يلقى الناس وقد كَذَّب كلمتَهم فيه : لو أنه وجد الماءَ ينقص مروءته لَمَا شَرِبَه !

فلتكن سكينة مَن تكون ! لتكن الماء الذي لا تقوم حياته بدونه ، فهو مَن يؤثر أن يهلك ظمأ على أن يطلب هذا الماءَ مع احتمالِ ردِّه عنه !..

وإلا لما كان مصعبَ بن الزبير ، ذاك الذي ضربت به قريش المثلَ في المروءة وعزة النفس !

ترى هل شعرت الشابة الشريفة الهاشمية بذلك الصراع الذي احتدم في نفس الفارس النبيل بين عاطفته ومروءته ، بين وجدانه وعقله ؟ !

مِثْلُ « مصعب » مَنْ لا يدع هواه المكبوتَ يغلبه أو تفلت منه بوادر تشي به وتنم عليه . ولعل سكينة لو دَرَتْ بما يطوي ، لَمَا ملكتْ له أكثر من الرثاء والعطف ، فقد كانت في شغل بدورها المزدوج عن شجون العواطف وشئون الخطبة والزواج ، فهل يرضى مصعب أن يكون موضعَ رثاءٍ من فتاة حسناء؟

الموت أهون من هذا !

وثمة سؤال آخر يعرض : هل لفتت سكينة في ذلك الموسم من مواسم الحج ، أعني سنة ٦٠ هـ ، عمَر بن أبي ربيعة شاعر الجمال؟ من المحقق أن عمر كان هناك ، يملأ مكة بغزلياته وأحاديث مغامراته الموسمية ، حيث اعتاد – فيما قالوا – أن يتعقب مَن يفد على مكة من ربات الجمال ، ليتغزل بهن في قصائد يتناقلها الرواة ويسري بها الركبان عبر البيد والقفار ، ويتغنى بها قيانُ المدينة ومغنوها الكبار : عَزَّةُ الميلاء ، والغريضُ ، وابنُ سريج ، ومالكٌ ، ومَعْبَد .

على أن الموسم انفض ، دون أن يتعرض «عمر» لاسم سكينة ، وهو الذي لم يَدَعْ ذاتَ جمالٍ إلا حياها في غزليةٍ أو أكثر من غزلياته . فلماذا أُلجمَ لسانُه فلم يقل بيتا واحدا فيه اسمُ «سكينة» زينة الموسم وأروع جميلاته ، ملاحة ونضرة وأناقة وسحرا ؟

وماذا يجديه أن يكون تغنى بأسماء : زينب وهند ورملة والثريا وفاطمة و... و... وترك اسمَ «سكينة» الذي صار بصاحبته أعذبَ الأسماء ؟

ما كان صمته عن جحود أو تجاهل ، إنما أُلْجِمَ لسانَه فرطُ تهيبه لمكانها ، وهو يعلم ما كان يشغل أهلَها وأهلَ مكة جميعاً من تهيؤ «الإمام الحسين» للسفر إلى العراق ، بعد أن جاءته رسلُ الكوفة ببيعة عَشَراتِ ألوفٍ من أهلها (١) .

كلا ، لا سبيل لعُمَرَ إلى التغزل بأعذبِ اسمٍ لأجملِ مسمّاة .

وأقول اسم «سكينة» لأني مطمئنة إلى أن عمر في غزلياته ، لم يكن يتحدث عن

---

(١) تاريخ الطبري : حوادث سنة ٦٠ هـ ومقتل الحسين : ١٤٧ .

واقع بينه وبين الشريفات القرشيات ، وإنما كان يختار أسماءَ الجميلات منهن لما ينظم من غزليات ، على ما سوف نوضحه بمزيد تفصيل وبيان ، في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

* * *

مذبحة كربلاء

خرجت مكة كلها تشيع سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد خرج منها بأهل بيته جميعاً غداةَ يومٍ من أخريات ذي الحجة سنة ٦٠ هـ يريد الكوفة، بعد أن ألحت عليه شيعته هناك، بأن يقدم إليهم ليجاهدَ بهم ضد الطغيان.

وقيل إن الذين أتتْه بيعتُهم من العراق، أربعون ألف رجل!

ولو استطاعت «مكة» قالت دونْ خروج أهل البيت النبوي منها، ولكن الإمام قد وعَد، وعزم وقرَّر، فما تستطيع قوة في الأرض أن تصدَّه عن النضال في سبيل الحق، وما يستطيع أي انسان، أن يغريه بإيثار السلامة والعافية! (١).

لقد حاول نفر من خاصة قرابته أن يحولوا دون استصحابه لأهل بيته في رحلته تلك. حاول ذلك: أخوه محمد بن الحنفية، وابنُ عم أبيه عبدُ الله بن عباس، وعبدُ الله المخزومي، وغيرُهم... (٢) ولكنْ ماذا تجدي المحاولة أمام مَنْ هانت عليه الدنيا وصمّم على أن يبيعها ويشرِي الآخرة؟

وقيل له فيما قيل: «إن أهل العراق هم الذين قتلوا أباه وأخرجوا أخاه» وذكّروه برأي الإمام الشهيد كرَّم الله وجهَه فيهم، ولكنه أبى إلا أن يمضي وهو يقول لناصحيه:

(١، ٢) تاريخ الطبري: ٢١٧/٦.

«إن من هوان الدنيا على الله ، أن رأسَ يحيى بن زكريا أُهدِيَ إلى بَغيٍّ من بغايا بني اسرائيل» !

أو يقول :

«إني لم أخرج أشَراً ولا بطَراً ولا مفسداً ولا ظالما ، وإنما خرجت لطلب الإصلاحِ في امّة جَدِّي : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمَن قبلني بقبول الحق فاللهُ أوْلَى بالحق ، ومَن رد عليَّ هذا ، أصبر حتى يقضي اللهُ بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين» .

وكان وداع ...

مضى الإمام الحسين فطاف بالبيت العتيق ، وسعى بين الصفا والمروة ، وقضى عمرته (١) .

كان وداع ضجت مشارف مكة من عنفه وقسوته ، فما هان على أهلها أن يُحرموا من طَلعة الحسين ، وفيها نورُ النبوة . ولا هان على مكة أن تمسي وقد ارتحل عنها خيرُ بيتٍ وأعزُّ رهط :

بيت النبي ورهط الإمام ...

ومضى الركب الحسيني في طريقه إلى ما كُتب له في الغَيْبِ المضمر .

وآب المودِّعون إلى البلد الحرام ، وما فيهم مَن لا يجد في قلبه مَسَّ الحزنِ ولذعَ الفراق ، وقلقاً مبهماً لم يلبث أن خالطه شيء من الخوف ، منذ جاوز الركبُ الحمى الآمنَ ووَدَّعوا جيرةَ الحرَم .

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/٢١٧ .

وكانوا جميعاً يدركون أن لهذا الرحيل ما بعده ، وإن اختلفت بهم الظنون فيما سوف يكون.

وتعلل أكثرهم بالأمل في أن «يزيد» لن يجرؤ على أن يبوء بدم الحسين ، لا تعففا أو تأثما أو تحرجا ، ولكن خوفا من أن يفسُد عليه الأمرُ كله بمقتل الحسين ، ويبوء بلعنة المسلمين حيثما كانوا...

ولكن قلة – منها عبد الله بن الزبير[1] –كانت على شبه يقين من أن دور يزيد في الصراع العتيد بين بني عبد شمس وبني هاشم قد حان ، وأنه في طيش شبابه ورعونة فتوته وجبروت سلطته ، لن يدع الحسين يفلت سالما ، وليس ليزيد حلمُ أبيه معاوية ، ودهاءُ رأيه ونضجُ خبرته.

* * *

ترى هل لمحت «سكينة» من هودجها ، وهي تتلفت نحو أم القرى لتتزود منها بنظرة طويلة قبل الفراق ، هل لمحت بين الجموع التي احتشدت لوداع الركب ، مصعبَ بن الزبير يرسل عينيه إثرَ الراحلين ، في تجمُّلٍ واجم؟

وهل استطاعت بأنوثتها الذكية اللماحة ، أن تدرك وراء تَجمُّلِه ما يطوي عليه جوانحه من سرٍّ لا يُذاع؟

وهل تراها لمحت بينهم كذلك ، عمرَ بن أبي ربيعة يُشيع راحلتهَا وقد بان عليه أثرُ الخيبة والغيظ ، وعزَّ عليه أن تمضي ربةُ الجمال والبهاء والأناقة ، ولم يُحَيِّ اسمَها تحيةَ إعجابٍ وتمجيد واكبار؟

---

(١) تاريخ الطبري: ٢١٧/٦ و«مقتل الحسين»: ١٧٤

أغلب الظن أنها كانت في شغل عن هذا كله بما يتوزع قلبَها وبالَها من شَجن الفراق لأم القرى ، ومن تلك الهموم الكبار التي استغرقت الركبَ كلّه إذ يغذُّ السيرَ عبر البيد والقفار ، إلى مصيره المحتوم ، المقدرِ عليه عند عالم الغيب ...

* * *

ونطوي الأيام على عجل ، لنرى الركب وقد دنا من مشارف العراق ، وآن للراحلين المجهَدين أن يحطوا الرحال بعد تلك المرحلة الشاقة المجهدة .

لكن أحداً منهم لم يهش لقُرْبِ المناخ ...

وتثاقلت رواحلُهم وهي تقطع المرحلةَ الأخيرة الباقية ، وقد خرس الحادي منذ بلغ القوم في الطريق — عند زَرُود ، على أميالٍ من القادسية — نبأ مصرع الشهيد «مسلم بن عقيل بن أبي طالب» ابنِ عم الإمام الحسين ، ورسوله إلى أهل الكوفة (١) .

وغشيتْهم غاشيةٌ من حُزن ثقيل مُمض ، حين لاحت لهم مشارفُ العراق من بعيد ، فذكرتْهم بشهيدِ الأمس الذي لم يجف دمُه بعدُ ، وبشهيدٍ قبله ، ثوى هنالك منذ عشرين عاما ...

ورددوا مرثية الحسين في ابن عمه عقيل ، حين أتاه نبأُ مصرعه المثير :

فإن تكن الدنيا تُعَدُّ نفيسةً فإن ثوابَ الله أعلى وأنبَلُ
وإن تكن الأبدانُ للموتِ أُنشئت فقتلُ امرىءٍ بالسيفِ في الله أفضَلُ

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٢٥/٦ .

وزرود : في طريق الحاج من الكوفة ، انظرها في (معجم البلدان لياقوت) .

وإن تكن الأرزاقُ قسماً مُقَدَّراً   فَقِلّةُ حرصِ المرءِ في السعْيِ أَجمَلُ
وإن تكن الأموالُ للتَّرْكِ جمعُها   فما بالُ متروكٍ، به المرءُ يَبخَلُ؟ (١)

وإذ هم في طريقهم، على ثلاثة أميال من القادسية، لاح لهم غبار مُثَار، ما لبث أن تكشف عن جيش جرَّارٍ، عَرَفُوا فيه جيشَ عبدِ الله بن زياد – وإلى الكوفة ليزيد – وعلى رأسه الحُرُّ بنُ يزيدَ التميمي (٢).

وعَدَلَ «الحسين» بصحبه عن طريق الجيش، فاعترضه الحرُّ بن يزيد، وما زال الحسين يسير بأهله وأصحابه يمينا ويساراً، والحُرُّ يعترضهم مرة ويُخلي بينهم وبين الطريق أخرى، حتى بلغ بهم كربلاء، فتركهم ينيخون هناك، في اليوم الثاني من مستهل العام الجديد.

ورجَّع الحسينُ بصرَه في الجيشِ الرابض تجاهَه، فإذا الجندُ جميعاً من أهل العراق!

وكانت عدتهم – أولَ الأمر – ألفَ مقاتل، والركبُ الحسينيُّ لا يتجاوز عدده بضعة وسبعين، من آل البيت وأصحاب الحسين!..

* * *

وعرف «الحسين» مصيرَه، قبل أن يقول له الحُرُّ بن يزيد وهو يسايره:

– إني لأشهدُ لئن قاتلتَ لتُقتلَنَّ، ولئن قوتلتَ لَتَهلِكَنَّ.

---

(١) مقتل الحسين: ١٩٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٦/٢٢٠.

وأجاب الحسين الإمام :

– أفبالموتِ تُخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطبُ أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقولُ لك ، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ ، فسأله : أين تذهب فإنك مقتول؟

فقال :

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى   إذا ما نوى حَقّاً وجاهد مُسلما [1]

وطاف بهم في ليلتهم الأولى هناك ، طائفٌ منذرٌ بما يطوي الغدُ القريبُ.

وفي مُخيّمِ النساء ، كانت هناك : السيدة زينب أخت الحسين ، وزوجُه الربابُ بنتُ امرئ القيس ، وبنتاه سكينة وفاطمة ، وبقيةُ العقائل الكريمات من آل هاشم !

وطال عليهن الليل وهن يتذاكرن ما كان ، ويتوقعن ما سيكون..

وتركتهن السيدة زينب إلى خيمة أخيها ، حيث رأته هناك مُكِبّاً على سيفه يصلحه ، وهو يرتجز :

يا دهرُ أفٍّ لكَ من خليلِ   كم لك بالإشراقِ والأصيلِ
من طالب وصاحب قتيلِ   والدهرُ لا يقنع بالبديلِ [2]
وكلُّ حيٍّ سالكُ السبيلِ   ما أقربَ الوعدَ من الرحيلِ
وإنما الأمرُ إلى الجليل [3]

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٢٩/٦ ومقتل الحسين : ١٧٨ .

(٢) تاريخ الطبري : ٢٣٩/٦ ومقاتل الطالبيين : ١١٣ ومقتل الحسين : ٢٣٩ .

(٣) تاريخ الطبري : ٢٣٧/٦ ومقاتل الطالبيين : ١١٣ .

صاحت العقيلة :

- واثكلاه ... ينعى الحسين نفسه ! ليت الموتَ أعدمني الحياةَ. ماتت أمي فاطمة ، وأبي علي ، وأخي الحَسن ، ولم يبق غيرك يا خليفة الماضين وثمالَ الباقين ...

وفي روايةٍ أنها سمعتْه رضي الله عنه يقول لها : إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فقال لي : إنك تروح إلينا.

فصاحت : يا ويلتا ...

قال : ليس لك الويلُ يا أُخيَّة. اسكتي رَحِمَكِ الرحمنُ (٢).

وبلغت صيحتُها ، في سكون ذلك الليل الموحش ، مسامعَ النساء في مخيمهن ، فهرعن إلى «الحسين» والكربُ يعصف بهن عصفاً ...

ونظر الحسين إليهن مليا ، ثم قال :

- يا أختاه ، يا أمَّ كلثوم ، وأنت يا زينب ، وأنت يا سكينة وأنت يا فاطمة ، وأنت يا ربابُ ، إذا أنا قُتِلتُ فلا تشق إحداكن عليَّ جَيْباً ، ولا تخمْش وجها ، ولا تقل هجرا ...

وأطرقن جميعاً واجماتٍ ، وخيم على المكان سكونٌ ثقيل راكد ، ما لبث أن مزَّقه نشيج مؤلم :

تلك كانت «سكينةُ» تبكي !

هذه التي أخذت نفسَها منذ كانت ، أن تؤنس أباها كلما ثقُل عليه الهمُّ ، وأن تبدد بسنا ابتسامتها المشرقة ، بعضَ ما يغشى الأفقَ حوله من ظلال ربداء ...

وأقبل عليها أبوها في حنو، وفي عينيه نظرةُ حزن وعتاب : كيف هان على سكينة أن توجع قَلبَه ببكائها ، وهي التي كان يجدها موضعَ أنسِه كلما أَلَمَّ حادث أو اشتدَّ كَرْبٌ؟

وسألها ملاطفا : أفلا يُهوِّنُ عليها الأمرَ أن أباها يبذل حياته دفاعا عن حق ودفعا لباطل ، وأنه ملاق غداً ، جدَّه الرسول ، وأمّه الزهراء ، وأباه الإمام ، وأخاه الحسن ، وعمَّه حمزة ، وابن عمِّه مسلمَ بن عقيل ، وأنها لا بد لاحقةٌ بهم في غدٍ قريب أو بعيد؟

لكنها لم تكف عن البكاء ، وكأنما كانت تبكي هموماً طالما طَوتْها ، وتذرف دمعاً آده الاحتباسُ الطويل.

ورنا إليها أبوها الحبيب طويلاً ، ثم قال في شجاعة المستسلم لقضاء الله وقَدرِه :

– سيطول بُعدي عنك يا سكينة [1] ، فهلا ادخرتِ البكاء لِغَدٍ ، وما غدٌ ببعيد؟.

ثم أوصى أمها «الربابَ» أن ترعاها ، وقام يصلي...

ولفَّ الكونَ كله صمتٌ خاشع ، لم يعد يُسمَعُ فيه سوى صوتِ «الحسين» في تهجُّدِه ، يتلو قرآنَ الفجر الذي بدأ نورُه الشاحبُ ينبثق من خلال الظلمة ، معلناً عن مولد يوم جديد ، هو الثالث من محرم سنة ٦١ هـ.

وأصبحوا فإذا الأجناد قد تدفقت من الكوفة ، حتى بلغت عدتهم أربعة آلاف

---

(١) السيد توفيق الفكيكي : السيدة سكينة : ص ١٢٣.

مقاتل، عليهم «عمرُ بن سعد بن أبي وقاص»[1]. لم يلبثوا أن زادوا حتى غدوا – في بعض الروايات – عشرين ألفا!

ولم يبدأ قتال، وإنما أحاطت الآلاف بالحسين وصحبِه، معترضة سبيلهم إلى الماء!

وتتابعت الأحداث سراعا في عنف شرس، فما استكمل الأسبوع دورتَه، إلا والساحةُ المشئومة قد امتلأت بجثث الشهداء من آل البيت، غارقة في بحار من دماء...

وأُمسِك هنا عن وصف المذبحة المروعة، فما من كتاب عن تاريخ تلك الفترة لم يصفها، وأنا بعدُ لا أجد لي طاقة على إعادة الحديث عنها، بعد أن أطلتُ الوقوف عندها في كتابي عن عقيلة بني هاشم «بطلة كربلاء»![2].

وإنما أمضي مسرعة لأقف إلى جانب سكينة وقد اقتحم العسكرُ فسطاطها وأُخرِجت لِتَرى هنالك أشلاءً مختلطة مبعثرة، لأبيها الحسين الإمام، وأعمامها عبد الله وجعفر وعثمان والعباس ومحمد وأبي بكر، بني علي بن أبي طالب.

وأخيها الشقيق عبد الله بن الحسين.

وأخويها لأبيها، علي الأكبر وجعفر.

وأولاد عمها: أبي بكر وعبد الله والقاسم، بني الحسن بن علي.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٣٤/٦.

(٢) ط دار الكتاب العربي ببيروت.

وابن عمتها زينب : «عون الأكبر بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» [1].

وأخيه لأبيه : محمد بن عبد الله بن جعفر.

وبني العم عقيل بن أبي طالب : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله.

هكذا ، مرة واحدة ، وفي يوم واحد ، هو التاسع من شهر المحرم سنة ٦١ هـ [2].

* * *

وفي ذهولٍ وقفت «سكينة» تُطل على البقايا والأشلاء...

حتى فرغ القوم من جَزِّ الرءوس وجاءوا يسوقونها مع النساء إلى الكوفة.

هناك ألقت بنفسها على ما بقي من جسَد أبيها – وفيه ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة – واعتنقته متشبثة به ، فخُيل إليها أنها تسمع صوتا يخرج من مَنْحَرِه الدامي : [3]

شيعتي مـــا إن شَرِبتُم عــذبَ مـاءٍ فـاذكروني
أو سمعتم بغريبٍ أو شهيـدٍ فـانـدبوني

ولكنهم انتزعوها من جسد أبيها في قسوة ، وألحقوها بركبِ السبايا ! وإنْ كانت إحداهن لَتُنازَعُ ثوبَها عن ظهرها حتى تُغلَب عليه ، فيُذهَبَ به منها ! [4]

(١) في الطبري (٦/٢٧٠) أن عون بن عبد الله ، وامه جانة بنت المسيب ، كان من بين قتل كربلاء ، وذلك هو عون الأصغر المقتول يوم الحرة. انظر مقاتل الطالبيين ص ١٢١ ، ١٢٤.

(٢) انظر «أسماء من قتلوا من بني هاشم مع الحسين عليه السلام ، وعدد من قتل في كل قبيلة» في (تاريخ الطبري : ٦/٢٦٩).

وفي (مقاتل الطالبيين ٩١).

(٣) السيد الفكيكي : ١٢٤ ، ومقتل الحسين : ٣٦٨.

(٤) تاريخ الطبري ٦/٢٦٠.

وسيق الركب التعس، نحو الكوفة.

وعند أطراف الساحة، تمهل الركب برهة ريثما ألقت السبايا نظرةً أخيرة على البقايا.

وطِيف برأس الحسين في أحياء الكوفة على مرأى من السبايا الثواكل...

أين الأشياع والأنصار؟

أين الألوف الأربعون الذين ألحوا في دعوته ليجاهدوا معه في سبيل الحق، فجاءهم ملبِّياً، وترك مأمنه إلى جوار البيت العتيق؟

ألا فليملأوا عيونهم من رأس سيد الشهداء، وليروا نساءه وبناته سبايا!

وليملأوا أسماعهم بصوت ابنته سكينة إذ تقف في الركب التعس حاسرةَ الوجه، مَهِيضةَ الجناح تقول: (١).

إن الحسينَ غداةَ الطفِّ يرشقُه ... رَيْبُ المَنونِ فما إن يخطئُ الحدَقَهْ
بِكَفِّ شرِّ عبادِ الله كلِّهم ... نسلِ البغايا وجيشِ المُرَّقِ الفَسَقَهْ

وصوتِ أمِّها الأرملة الثكلى إذ تقول: (٢)

إن الذي كان نورا يُستضاء به ... بكربلاءَ قتيلٌ غيرُ مدفونِ
سِبْطَ النبيِّ، جزاكَ اللهُ صالحةً ... عنا وجُنِّبْتَ خُسْرانَ الموازينِ
قد كنتَ لي جَبَلاً صعبا ألوذ به ... وكنتَ تصحبُنا بالرحْمِ والدِّينِ

(١) السيد توفيق الفكيكي: السيدة سكينة بنت الحسين: ١٢٥.
(٢) السيد عبد الرزاق الموسوي: مقتل الحسين: ٣٩٤..

مَنْ لليتامى ومَنْ للسائلين ومَن يُغني ويؤوي إليه كلَّ مسكينِ

* * *

وسيقت العقائلُ الهاشميات إلى قصر الإمارة ، في موكبٍ تعس لم تشهد الدنيا له مثيلاً من قبلُ ولا من بعد !

بنات النبي سبايا ، قد حُمِلْنَ على أقتابِ الجمال بغير وِطَاء ، ممزقات الجيوبِ حواسرَ الوجوهِ حافياتِ الأقدام ، يتقدمُهن حملةُ الرءوسِ علَى أسِنة الرماح !

رءوس الحسين وثمانية وسبعين من إخوته وبنيه وبني أخيه وأبناء عمومته وأصحابه ! (١) .

وتُركت الجثثُ حيث هي على الساحة المشئومة ، مُلقاةً بالعراء ، تسفي عليها الريحُ ، وتحوم عليها جوارحُ الطير وسباع الجوِّ ، ويرعى فيها وحشُ الفلاة :

إبْكِ حسيناً ليومِ مصرعِه بالطّفِّ بين الكتائبِ الخُرْسِ
أضْحَتْ بناتُ النبيِّ إذ قُتِلوا في مأتم ، والسباعُ في عُرْسِ (٢)

وسَمعتْ سكينةُ أمّها الرباب تقول : (٣)

واحسينا ، فلا نَسِيتُ حسينا أقصَدَتْه أسِنَّةُ الأعداء
غادروه بكربلاءَ صريعا لاسقى اللهُ جانبي كربلاءِ !

* * *

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٦١/٦ ومقاتل الطالبيين : ٧٨ وما بعدها .

(٢) عيون الأنباء لابن قتيبة : ٢١٢/٢ .

(٣) الأغاني : ١٥٨/١٤ ساسي – ومقتل الحسين : ٣٩٣ .

ثم أمر «ابنُ زياد» بالموكبِ المثير، فسِيقَ إلى دمشق، كي تقر عينا «يزيد» بمشهده ومرآه.

وعُرِضَ الموكبُ على أهل دمشق، قبل أن يساق إلى حضرة يزيد، ليضع الرأس بين يديه، ويتيح له أن ينكث ثنايا الحسين بقضيبٍ كان في يمينه وهو ينشد متمثلا:

نُفَلِّقُ هَاماً من رجالٍ أعِزَّةٍ علينا وهم كانوا أعَقَّ وأظلَما (١)

ثم يقول لمن حوله:

«إن هذا وإيانا لكما قال الحُصَينُ بنُ الحمام المُرِّي:

أبَى قومُنا أن يُنصِفونا فأنصفَتْ قواضبُ في أيمانِنا تقطرُ الدِّما» (٢)

وفي روايةٍ أنه تمثل كذلك بقولِ «عبدِ الله بن الزِبَعْرَى» في أُحُد:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزعَ الخزرجِ من وَقْعِ الأَسَلْ
قد قتلنا القرم من أشياخهم وعَدَلْنا ميلَ بَدْرٍ فاعتدلْ (٣)

وفي روايةٍ أنه زادَ عليها، بيته المشهور:

لأَهَلُّوا واستهلوا فرحاً ثمّ قالوا: يا يزيد، لا تُشلْ

وبلغ المشهدُ ذروتَه، حين أخذ أحدُ أتباع يزيدَ يَحدق في بنت الحسين. ويسأل سيدَه أن يهبها له أمَةً جارية!

(١) تاريخ الطبري: ٢٧٦/٦ - ومقاتل الطالبيين: ١٢١ - وفي (نسب قريش: ١٢٨) أن الذي تمثل بهذا البيت، عبيد الله بن زياد.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٧٦/٦ والكامل لابن الاثير: ٣٧/٤.

(٣) مقاتل الطالبيين: ١١٩ وشذرات الذهب ٩١/١ والأبيات في (السيرة لابن هشام: ١١٤/٣) حلبي.

«لقد جئتم شيئا إدًّا تكاد السماواتُ يتفطرن منه وتنشَقُّ الأرضُ وتخر الجبالُ هَدًّا».

وقام آخرُ من أهل الشام فقال: «إن نساءهم لنا حلال». فردَّ عليه «عليٌّ ابن الحسين» زين العابدين:

«كذبْتَ، ما ذلك لك إلا أن تخرج من مِلّتِنا»(١)

* * *

ثم كانت نهاية المطاف في مدينة جَدِّ الحسين، محمد عليه الصلاة والسلام...

وكانت قد تلقت خبرا بقدوم «علي بن الحسين، زين العابدين» مع عماته وأخواته. حمله إليها رسولٌ من زين العابدين الذي نجا من المذبحة، وما كان لينجو لولا أن حَمَتْه عمتُه زينب، وكان في حِضنها مريضا...

وضجّت المدينة بالبكاء، وهي تستقبل بقايا الركب الحسيني الذي ودَّعته الحجازُ منذ أقل من شهر!!

وبرزت النساء، كل النساء، صارخاتٍ باكيات، وخرجت عقيلات بني هاشم من خدورهن حاسرات الوجوه، يندبن في لوعة: واحسيناه، واحسيناه...

وخرجت «زينب بنت عقيل بن أبي طالب» - أخت هانئ - على الناس ناشرةً شعرَها وهي تبكي قائلة:

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٣/٦ - ونسب قريش: ٥٨.

والذي في (مقاتل الطالبيين ص ١٢٠) ان السيدة زينب بنت علي، هي التي قالت ذلك.

ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأُمَمِ
بعِترَتي وبأَهْلي بعدَ مُفْتَقَدِي منهم أسَارَى ومنهم خُضِّبوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكم أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رَحِمي (١)

فما سمعها أحدٌ إلا وبكى...

ولم تبق دَارٌ في المدينة إلا وبها مأتم...

ولبثت مناحةُ الشهداء هنالك قائمةً أياما وليالي، حتى جفّت المآقي من طولِ ما سَكَبَتْ من دمعٍ، وحتى صَحلت الحُلُوقُ من طولِ ما أجهدها النواح...

* * *

(١) هذه رواية الطبري للأبيات. وذكر أنها لامرأة من بني عبد المطلب (٢٢١/٦) ورواه الزبيري في (نسب قريش: ٥٨) وابن قتيبة في (عيون الانباء: ٢١٢/٢) مع خلاف يسير في الشطر الأول من البيت الثاني، ومع ذكر اسم القائلة: زينب بنت عقيل.
وانظر «مقتل الحسين: ٤٠٧».

بعد العاصفة

وتضطرب الأخبارُ عن «سكينة» فترةً، فيقال في رواية إنها صحبت عمتها «زينبَ» في خروجها إلى مصر، حين أدرك «يزيدُ» خطرَ مقامها بالمدينة، فأمر واليه بها أن يُفرِّقَ بينها وبين الناس حتى لا تكون ثورة [1].

وإذا صحت هذه الرواية، فلعل سكينة قد عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمتها زينب، في شهر رجب من عام ٦٢ هـ.

وفي المدينة، أقامت أمها الرباب، التي خُطِبت بعد فترة الحداد، فأبت أن تستبدل بالحسين زوجاً وبرسولِ الله صِهراً، وقالت: ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله ﷺ:

والله لا أبتغي صهرا بصهركم حتى أُغَيَّبَ بين الرملِ والطِّينِ [2]

ثم ما لبثت أن ماتت بعد عام واحد، حزنا عليه، وعلى ولدها عبد الله [3].

---

(١) العبيدلي النسابة: السيدة زينب وأخبار الزينبات: ١٨ - وانظر معه الفصل الخاص بهذه الرحلة إلى مصر، في كتابنا «بطلة كربلاء».

(٢) الاغاني: ١٥٨/١٤ ساسي.

(٣) تاريخ ابن الأثير: ٧٣/٤.

وأقامت «سكينة» بعدها في كَنَفِ أخيها السّجّاد، زينِ العابدين، علي بن الحسين...

وهنالك في المدينة، عادت أنظارُ بني هاشم فالتفتت إلى الشريفة الحسناء من جديد، وقد ثقُل الحزن عليها ولما تزلْ فتاةً في مستهل الشباب وعِزِّ الصبا.

وأحاط بها قومُها يُلحون عليها في الزواج، إبقاءً على سلالة الحسين النقية الطاهرة التي لم يبق منها – بعد مذبحة كربلاء – غيرها، وأختها فاطمة، وأخيها علي زين العابدين.

وكانت الأحداث العنيفة التي مرت بها، قد غيرت من حالها، فلم تعد تتشبث بالبقاء في بيت أبيها بعد أن غاب عنه مَنْ كانت ترى حياتها لا تدور إلا في فلكه.

ولعلها استجابت وقتئذ لرغبة آلها، ورضيتْ بالزواج، ولما يزل المرح في قلبها حيّاً ينزف دما...

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياتها، تكاد الحقيقةُ تغيب فيها وسط حشدٍ من متناقض الأخبار وشتى الروايات...

أما أختها «فاطمة» فاستقرت بها الحياة في بيت زوجها الحسن المثنى، ابن عمها الحسن رضي الله عنه. فلما حضرت زوجَها الوفاةُ قال لها:

«إنك يا فاطمة امرأة مرغوب فيكِ، فكأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان إذا خرج بجنازتي قد جاء على فَرَسٍ مَرجِّلاً جُمَّتَه لابساً حُلته، يخطبك، فانكحي من شئتِ سواه، فإني لا أدع من الدنيا ورائي هَمّا غيرك».

وصدق حَدْسُه... تزوجها عبدُ الله بن عمرو بعد تمنُّعٍ منها وإباء، فوَلَدَت له محمدا (الديباجَ) والقاسمَ: ورقيةَ بني عبد الله بن عمرو، وكانت ولدت للحسن ابنَه عبدَ الله الذي كان يقول: «ما أبغضت أحدا بغضي عبدَ الله بن عمرو، وما أحببت حبَّ ابنِه محمدِ الديباجِ»(١)

(١) نسب قريش: ٥١.

المبحث الثاني

في بيت الزوجية

برهان

- مثل من مروياتهم
- مع عبد الله بن الحسن
- مع مصعب بن الزبير
- مع ابراهيم بن عبد الرحمن
- مع الأصبغ المرواني
- مع عبد الله بن عثمان الحزامي
- مع زيد بن عمر العثماني

مثلٌ من مرويّاتِهم

وحين نعرض لِسَيْرِ الحياة بسكينة في هذه المرحلة، نضع أمامنا ذلك الحشدَ من أخبارِ زيجاتها التي بلغت في بعض الروايات ستَّ مراتٍ، وتضاءلت في روايات أخرى فلم تتجاوز الواحدة أو الاثنتين!

نقل السيد توفيق الفكيكي عن السيد عبد الرزاق الموسوي في كتاب له عن السيدة سكينة ما نصه:

«وهناك من المؤرخين من يَحْكي ترويج السيدة سكينة من ابن عمها عبد الله الأكبر ابن الإمام الحسن المقتول في الطّفِّ مبارزةً... وأما غيره من الأزواج، فعلَى ذِمة التاريخ».

وأضاف السيد توفيق: «وهناك من الأدلة التاريخية المجمَع على صحتها، ما يؤيد أن سكينة تزوجت بعد ابن عمها عبدِ الله بن الحسن بن علي، بمصعبِ ابنِ الزبير، زوَّجه إياها أخوها الإمام علي بن الحسين السجاد - ع»[1].

وأورد «ابنُ العماد الحنبلي» أسماءَ ثلاثة أزواج على الترتيب التالي:[2]

---

(١) الفكيكي: السيدة سكينة بنت الحسين: ص ١١٢ - وانظر معه (مقتل الحسين: ٣٦٨).

(٢) شذرات الذهب: ١/١٥٤.

مصعب بن الزبير، ثم عبد الله بن عثمان بن عبد اللهالله بن حكيم بن حزام، ثم زيد ابن عمرو بن عثمان بن عفان، فأمره سليمان بطلاقها.

ولم يذكر اسمَ عبدِ الله بن الحسن الذي اقتصر عليه السيد الموسوي.

وكذلك لم يذكره «ابن خلكان» وإنما جاء بقائمة فيها أربعة أزواج، تبدأ «بمصعب بن الزبير» فهلك عنها... ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ثم الإصبغ وفارقها قبل الدخول بها. ثم زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها، وقيل في ترتيب أزواجها غير ذلك»[1].

والذي في (نسب قريش، للمصعب الزبيري):

«كانت سكينة عند مصعب بن الزبير. ثم خلف عليها عبدُ الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد، فولدت له حكيما وعثمان - المعروف بقرين - وربيحةَ التي تزوجها العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. ثم خلف على سكينة زيدُ بن عمرو بن عثمان بن عفان. ثم خلف عليها ابراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف فلم يتم نكاحه... ثم خلف عليها الإصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فحُمِلَتْ إليه بمصر فوجدتْه قد مات»[2].

فصار عددُ أزواجها عنده خمسةَ أشخاص.

وجاء أبو الفرجْ الأصبهاني بخمس قوائم مختلفة:[3]

---

(١) وفيات الاعيان: ١/٢٩٨.

(٢) نسب قريش: ٥٩ - وجاء في «جمهرة أنساب العرب: ان زوجها زيدا العثماني، هو ابن عمر بن عثمان، لا عمرو(٧٩) وجاء مرة بهذا الاسم: زيد بن عمر في نسب قريش ١٢٠ ولعل سبب الاختلاف ان لعثمان بن عفان ولدين هما عمر وعمرو. انظر نسب قريش (١٠٤) والجمهرة (٧٥).

(٣) الاغاني: ١٤/١٥٨، ١٦١.

١ – مصعب بن الزبير، ثم الإصبغ ، ثم زيد العثماني ، ثم ابراهيم بن عبد الرحمن.

٢ – الاصبغ ، ثم زيد العثماني ، ثم مصعب بن الزبير، ثم ابراهيم بن عبد الرحمن.

٣ – عمر بن الحسن ، ثم زيد العثماني ، ثم مصعب ، ثم الإصبغ المرواني ، ثم عبد الله بن عثمان.

٤ – عمر بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم مصعب ، ثم ابراهيم.

٥ – عبد الله بن الحسن ، ثم مصعب ، ثم الإصبغ المرواني ، ثم زيد العثماني ، ثم ابراهيم.

وتضيف رواية سادسة ، أن عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب فرفضته أمها وقالت : لا والله ، لا تتزوجْه أبدا وقد قَتَلَ مصعبا ، ابنَ أخي [١].

وفي هذه القوائم أضيف اسمان جديدان إلى الأسماء التي وردت في الروايات السابقة ، وهما : عمر بن الحسن ، وعمر بن حكيم بن حزام !

واختارت «دائرة المعارف» قائمة عجيبة ، ننقلها بنصها من الترجمة العربية : [٢]

---

(١) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسي.

(٢) مادة : سكينة بنت الحسين.

«فأول أزواجها مصعب بن الزبير، وقد أنجبا من هذا الزواج ابنة تزوجت من أخي مصعب!

ثم تزوجت عبد الله بن عثمان، ابن أخي مصعب بن الزبير، ثم الزبير! ابن عمرو بن عثمان بن عفان.

ثم الإصبغ بن عبد العزيز بن مروان، ولم يدخل بها. ثم ابراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف. وعمرو بن الحاكم (!) بن حزام».

وفي هذه القائمة عجائب وغرائب من الأغلاط والأوهام:

فابنتها من مصعب، تزوجت من أخي مصعب، وهو عمها!!

وعبد الله بن عثمان، هو ابن أخي مصعب بن الزبير كما تقول الدائرة، وليس لمصعب أخ يدعى «عثمان» في أي مرجع من مراجعنا، وقد أورد الزبيري – حفيد الزبير – أسماءَ ولَدِ الزبير بن العوام، ولا عثمانَ فيهم! [1]

وزوجُها الثالث في الدائرة: الزبير بن عمرو بن عثمان. وليس لعمرو ولَدٌ يدعَى الزبير، في (جمهرة أنساب العرب) و(نسب قريش).

وآخر أزواجها في الدائرة: عمرو بن الحاكم بن حزام، وليس لِحِزامٍ وَلَدٌ يُدعَى الحاكمَ. وإنما هو حكيم، وليس لحكيمٍ وَلَدٌ يدعى عمرا في أنساب العرب أو نسب قريش [2].

(١) نسب قريش: ٢٣٦. الجمهرة ١١٢.

(٢) نسب قريش: ٢٣١ والجمهرة ١١٢.

أما عبد الله بن الحسن ، فصرحت الدائرة بأنها تستبعد زواجه من سكينة ، دون أن تبين لنا سبب هذا الاستبعاد...

* * *

وتقارن بين هذه المرويات فترى :

أن زوجها الأول : هو ابن عمها عبد الله بن الحسن ، في إحدى روايات الأغاني [١]. واقتصرت عليه بعضُ المصادر الشيعية الحديثة [٢].

ولم يذكره «ابن خلكان» ، وانكرته دائرة المعارف دون تعليل لهذا الإنكار.

أو هو عمر بن الحسن ، في رواية بالأغاني أيضا.

أو هو مصعب ، في رواية ابن خلكان والمصعب الزبيري. وإحدى روايات الأغاني ودائرة المعارف.

أو هو الإصبغ بن عبد العزيز بن مروان في رواية بالأغاني !

ويختلف موضع الزوج بين الأزواج ، فيكون الإصبغ أولهم في رواية ، ورابعَهم في أخرى !

وتختلط الأسماء اختلاطا عجيباً ، بل شاذا ، حتى لَيُشطَرَ الاسمُ الواحد شطرين ، يؤتَى بكلٍّ شطرٍ منهما علىحظدة ، على حدة ، منهما زوجان للسيدة سكينة !

---

(١) حـ١٤ ص ١٦٠ ساسي.

(٢) توفيق الفكيكي : السيدة سكينة ٧٥ ، ١١٢ – والسيد عبد الرزاق الموسوي : مقتل الحسين : ٣٦٨.

. فعبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، شُطِرَ شطرين ، فكان منه زوجان :

عبد الله بن عثمان ، وعمرو بن حكيم بن حزام ، أو كما تُرجِمَ في (دائرة المعارف) : عمرو بن الحاكم !

* * *

ولا سبيل هنا – أمام ما نرى من تناقض وشذوذ – إلى تتبع حياتها الزوجية تتبعا دقيقا يعتمد على اليقين التاريخي ، هذا اليقين الذي يعز علينا في التاريخ النقلي بوجه عام ، وهو هنا في موضوع زوجية سكينة ، أبعد من أن يُدرك أو ينال . فنحن لا نكاد نحاول ما نبغي من تتبع حتى يلقانا عنَتٌ من اضطراب الروايات وتناقض الأخبار وتعدد الأقوال واشتباك السبُل ، إلى حدٍّ يتعذر علينا معه أن نستبين وجه الحق في هذا الحشدِ المختلط المشتبك . فلا سبيل إلى أن نطمع في أكثر من الترجيح الذي يعتمد على ما نسميه الطمأنينة النفسية ، أكثر مما يعتمد على مرجحات منهجية وقرائن غالبة .

لقد كان أمر هذا التناقض في الروايات والأخبار يهون ويسهل ، لو أنه توزع بين مراجع شتى مختلفة ، ينفرد كل منها بإحدى الروايات فيكون سبيلنا إلى الترجيح أن نختار أقدمها أو آصلها أو أدعاها إلى الثقة ، على هدي القواعد المقررة للترجيح والنقد والمقابلة ، والتعديل والتجريح .

ولكنا هنا أمام روايات متناقضة تجتمع في المصدر الواحد ، دون محاولة من مؤلفها للفصل بينها أو حسم الخلاف فيها ، بل دون كلمة تؤذن بأنه يحس ضيقا بهذا الخلاف .

في صفحة واحدة من الأغاني مثلا ، تقرأ أربع روايات متناقضة متضاربة ، سردها أبو الفرج متتابعة ، ثم لا شيء أكثر من هذا السرد [١].

وإذا بلغ الخلاف في الموضع الواحد أن يكون الإصبغ المرواني أول أزواجها في رواية ، ورابعهم في أخرى ، ثم لا يُشار إلى هذا الخلاف بكلمة واحدة ،

وإذا بلغ الشذوذ فيما يُروَى عن حياتها الزوجية ، أن تلد لمصعب بنتا تتزوج من عمها أخي مصعب ! (كما في الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية) وأن يقال إن الرباب بنت امرئ القيس ، التي أهلكها الحزن على زوجها الحسين فماتت بعده بعام واحد ، قد بُعِثت من قبرها لتشهد مصرع مصعب بعد سنة ٧٠ هـ وترفض زواجَ بنتها سكينة من قاتله ! (كما في الأغاني) ،

وأن تزوجها (دائرة المعارف) عبد الله بن عثمان ، ابن أخي مصعب ، وعمرو بن الحاكم بن حزام ، ولا خبر في نسب قريش وأنساب العرب عن وجودِ أخٍ لمصعبٍ اسمه عثمان ، أو حفيد لحزام اسمه عمرو بن الحاكم ،

أقول : إذا بلغ الأمرُ هذا المبلغَ من التناقض والاضطراب والشذوذ ، فمن العبث أن نطمع في قرائن منهجية مرجحة ، وبخاصة إذا قدرنا أن هذه الكتب – وحالُها كما رأيت – هي مصدرُ مادتنا عن السيدة سكينة ، ومرجعُنا فيما نورد من أخبارها.

والذين جرَّبوا الدراسة اعتمادا على الرواية النقلية ، قد عانوا الكثير من مثل ذلك التناقض اللافت ، وضجوا بالشكوى منه ، سواء منهم الذين اشتغلوا بالتراجم والسيَر ، ومَن كتبوا في التاريخ السياسي أو الأدبي.

---

(١) جـ ١٦/١٤ ساسي.

وحين تعوزنا مرجحات منهجية ، لا يبقى لدينا إلا أن نلوذ في قبول ما نقبل من هذه المرويات ، ورفض ما نرفض منها ، بما نطمئن إليه على هدي ما نعرف من سنن الفطرة ، وما نقرأ من شتى الأخبار ، وما نفهم من إيحاء البيئة وطبيعة الشخصية ومقتضيات الموقف !

* * *

مع عبد الله بن الحسن

ونبدأ بعبد الله بن الحسن بن علي.

ذاك الذي اقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة، ولم يذكره ابن خلكان، وذكره أبو الفرج مرةً باسم عبدِ الله ومرةً باسم عمر، وقالت الدائرة: «أما ما ذكره صاحب الأغاني من زواج سكينة بابن عمها عبد الله بن الحسن بن علي، فقول يصح لنا إنكاره».

لماذا صمتت الدائرة فلم تذكر كلمة عما دعاها إلى الإنكار؟.. وليس الإنكار أمرا سهلا، ولا هو مما يجوز أن يُرسَل بغير دليل.

إنه في حساب المنهج كالإثبات تماما، يقتضي كلاهما أن تأتي بدليل...

وذلك بخلاف التوقف، فهو وحده الذي لا يلزمك بالدليل، وإنما يكفي فيه ألا تطمئن في الخبر إلى إثبات أو انكار.

ولسنا نملك هنا أي دليل، يؤيد مسلك (الدائرة) في استبعاد القول بزواج سكينة من ابن عمها الحسن، فصَمْتُ بعضِ المراجع التاريخية عن ذكره، لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة القرائن – بله الأدلة – بعد الذي أشرنا اليه من تناقضها واضطرابها.

وإذن فليس ثمت ما يمنع من أن يكون عبد الله بن الحسن خطبها أو تزوجها كما ذكرت المصادر الشيعية.

ولكنا نعلم أن عبد الله قد قُتل بالطف مع أخيه القاسم، ذكر ذلك الأصفهاني في (مقاتل الطالبيين) والطبري الذي أورد اسم عبد الله والقاسم ابني الحسن، بين من استشهدوا مع الحسين في كربلاء، وذكره كذلك الزبيري في نسب قريش، وابن حزم في الجمهرة، والسيد عبد الرزاق الموسوي في (مقتل الحسين: ٣٢٨).

ونحن نطمئن، إلى أن سكينة قد قتل عنها أبوها ولما تتزوج...

ولو قد تزوجت في حياته، لما فات ذلك - فيما نرجح - الذين أرخوا للحسين، كما لم يفتهم خبر خطبة الحسن المثنى لإحدى ابنتي عمه، واختيار الحسين ابنته فاطمة زوجة له.

ولما فات الذين تتبعوا أنساب قريش.

فلعله إذن خطبها إلى أبيها، ولم يتم الزواج. كما ذكر «الطبرسي» في (إعلام الورى).

ويرجح عندنا عدم إتمام الزواج، ما ذكره السيد عبد الرزاق الموسوي في (مقتل الحسين: ٣٢٨) من أن عبد الله بن الحسن كان غلاما، يوم مقتله بالطف.

ولا نملك ما نضيفه إلى هذا، وليس في أي مرجع مما بين أيدينا، ما يشير إلى هذا الزواج بأكثر من الخبر المقتضب، الذي أوردناه، والذي ليس فيه أكثر من أنه تزوجها وقُتل عنها بالطف ولم تلد له [١].

---

(١) عن «الاغاني» والسيد عبد الرزاق الموسوي. والطبرسي.
راجع قوائم الازواج التي أوردناها في مستهل الفصل.

وأغلب الظن أن السيدة سكينة نفسها لم تشغل بهذه الخطبة الأولى – لو صح الخبر عنها – في تفرغ واهتمام، بل كان بالها مشغولا بهذا الأب الحبيب في معركته العنيفة، وأن الأحداث قد جذبتها إلى دوامة الإعصار، وشغلتها عن خطيبٍ وبيت، كما فعلت بعمتها السيدة زينب، التي عاشت في صميم المعركة، حتى كدنا ننسى أنها زوجة وأم.

وقد ألهت الفجيعة الكبرى في الحسين «زينبَ» عن ولد لها استُشهِد مع عمه فلم نسمعها تذكره أبدا، وكذلك ألهت الربابَ – أم سكينة – عن ولدها عبد الله، فلم يصل إلينا أي خبر عن حزنها عليه، وانما الذي وصل إلينا أنها رثت زوجها الإمام، وعاشت تبكيه حتى ماتت حزنا عليه، بعد عدم واحد من كربلاء[1].

فلا غرابة إذن أن تكون خطبة عبد الله لسكينة، قد مرت بها عابرة كأن لم تكن، لا في حسابها هي، ولا في حساب الذين كتبوا تاريخ تلك الفترة، وهزتهم أحداثها الكبار، فما عادوا يذكرون إلا المأساة الفادحة التي خضبت صفحة من التاريخ الإسلامي، لا نعرف لها مثيلا، بشاعةً وعنف أثر...

وما كان من السهل أن تفرغ بنت الحسين لمشاغل الزواج، في تلك الفترة التي تلاحقت فيها الأحداث الجسام، متدافعة في سرعة عنيفة تبهر الأنفاس، نحو ذروتها الفاجعة.

ولا كان من المقبول أن تسكن إلى زوج، وتدع أباها في همه الأكبر، وهو الذي ما كان يأنس إلا بها، ولا يستريح إلا إليها...

* * *

(١) ابن الاثير: الكامل ٧٣/٤.

مع مصعب بن الزبير

وإنما تبدأ حياتها الزوجية الحقة، بمصعب بن الزبير.

والأرجح عندنا أنه كان أول من تزوجته بعد مقتل أبيها الامام.

وهو أول أزواجها عند ابن خلكان (١/٢٩٨) وعند المصعب بن عبد الله الزبيري في نسب قريس (٥٩).

وكذلك هو أولهم في إحدى روايات الأغاني (١٤/١٦٢) وفي شذرات الذهب (١/١٥٤).

وسواء أكان أول من تزوجها على ما ذكر هؤلاء، أم كان قد تزوجها بعد أن قُتل خاطبها الأول عبد الله، ابن عمها الحسن – على ما تقول الرواية الأخرى – فالذي لا يكاد يُختلف فيه، هو ان مصعبا يأخذ المكان الأول في حياتها الزوجية الطويلة.

ومعه بدأت تحس نوعا من الاستقرار، وتحاول أن تتناسى ما مر بها من مِحَنٍ وكروب، ولما تزل فتاة في عنفوان الصبا وعز الربيع.

أمنية قديمة

وقد أشرتُ من قبل، إلى أن الزواج من سكينة كان أمنية قديمة لمصعب. تعلقت بها رغبتُه أيامَ ظهرت في المجتمع المكي لأول مرة، عندما صحبت أباها رضي الله عنه

في رحلته إلى أم القرى ، إثر ولاية يزيد بن معاوية ، وإلحاحه على واليه بالمدينة أن يأخذ له البيعة من الحسين قسرا.

ويبدو أن مصعبا صارح برغبته هذه بعض أصفيائه ، بعد أن خرجت سكينة من مكة مع من خرج من آل الحسين، في رحلة الموت ، تلك التي انتهت بمذبحة كربلاء...

ففي كتاب (عيون الأخبار) أن أربعة من رجالات قريش . هم : «عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، اجتمعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم مصعب : «تَمَنَّوا» . فقالوا : «ابدأ أنت» . فقال : «ولاية العراق ، وتزوج سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله» وتمنى عروة ابن الزبير الفقه ، وأن يُحمَلَ عنه الحديثُ ، وتمنى عبدُ الملك الخلافة ، وتمنى عبدُ الله بن عمر الجنةَ» [1] .

فلما حالت الظروف أولَ الأمر دون زواجه من «سكينة» تزوج من تلك الأخرى التي تمناها : عائشة بنت طلحة ، غادة قريش الجميلة التي خلد اسمَها شعراءُ الحجاز: عمر بن أبي ربيعة ، والحارث بن خالد المخزومي ، وابن قيس الرقيات [2] ، في قصائد رجّعتها معازف المغنين وأصوات المغنيات . كما تعلقت بها آمالُ عدد من أمجد الفتيان القرشيين ، فما يمضي عنها زوجٌ إلا سارع الخُطّابُ متلهفين إلى تلك التي شاعت فيها قولة «أبي هريرة» حين رآها لأول مرة : سبحان الله !.. كأنها من الحورِ العِين [3] .

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار: ٢٥٨/٢ دار الكتب المصرية.

(٢) اقرأ أشعارهم في (الاغاني جـ ١١ دار الكتب).

(٣) الاغاني : ١٨٩/١١ دار الكتب ، وانظر فيه كلمة أخرى لأبي هريرة، ص ١٩٢ ، ١٨٠ .

و«عائشة» كانت تجمع إلى جمالها عزةَ النسب: فأبوها طلحة بن عبيد الله التيمي، الصاحب الجليل، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتها عائشة أم المؤمنين.

تزوجها قبل «مصعب» ابنُ خالها «عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق». وكانت خالتها السيدة عائشة هي التي سعت في هذا الزواج، فلقي عبدُ الله الأمرين من دلالها ومصارمتها وشراستها – وكان يقال في نساء بني تيم: هن أشرس خلق الله وأحظاهن عند أزواجهن. وكانت عمتها أم إسحق بنت طلحة عند الحسين ابن علي، فسُمِعَ مرةً يقول: «والله لربما حَمَلَتْ ووضعتْ وهي مصارمةٌ لي لا تكلمني...».

وزاد «عائِشَةَ بنتَ طلحة» زهوُ الجمال شراسةً على شراسة، حتى مكثتْ مصارمة غضبى عند خالتها السيدة عائشة، فقيل له: طلقها. فأجاب منشدا: [1].

يقولون: طَلِّقْها لأصبحَ ثاوياً مقيما على الهَمِّ، أحلام نائم!
وإن فراقي أهلَ بيتٍ أُحِبُّهم لهم زلفةٌ عندي لإحدَى العظائم

ولبث يكابد منها ما يكابد، في صبر واحتمال، حتى مات عنها فما فتحت فاها عليه!..

مات، وترك لها أربعة بنين: عمران – وبه كانت تكنى – وعبد الرحمن، وأبا بكر، وطلحة، وبنتا واحدة هي نفيسة تزوجها الوليد بن عبد الملك[2].

---

(١) كذا في الاغاني (١١/١٨١ دار الكتب) والذي في (نسب قريش ص ٢٧٧) أن هذه الابيات لعبد الله، في زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل.

(٢) كذا في (جمهرة أنساب العرب: ١٢٨) ومثله في (الأغاني ١١، ١٨٠ دار الكتب) وقال في (نسب –

ومع ذلكِ العبء الثقيل من الأبناء، وما ذاع في المجتمع القرشي من أخبار ما لقي زوجها الراحل من جدِّيتها ومصارمتها. هفت قلوبٌ إلى الزواج منها.

وكان «مصعب» أحد هؤلاء...

ويقال إنه أحب أول الأمر أن يستطلع حالها بعد أن أثقلتها الأيامُ بأعباء الحَمْلِ والولادة خمسَ مرات، فبعث «عزةَ الميلاء» – المغنية المشهورة – لتأتيه بوصفها. وكانتِ «عزةَ» خبيرة بشئون النساء. فمضت حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة:

– فديتُكِ، كنا في مأدبة لقريش. فتذاكروا جمالَ النساء وَخَلْقَهن، فذكروكِ فلم أدرِ كيف أصِفُك. فديتُكِ، فألْقِي ثيابَكِ.

ففعلت عائشة...

وتأملتْها عَزَّةُ مَلِيّاً ثم قالت: خُذي ثوبك فَدَيتُكِ!

وهمت بالانصراف، لكن «عائشة» أمسكتها وقالت: قد قضيتُ حاجتَك، وبقيتْ حاجتي.

سألتها عزة: وما هي، بنفسي أنتِ؟

أجابت: تغنيني صوتا.

فانطلقتْ «عزةُ الميلاء» تغني لحَنَها في شعر جميل بثينة:

خَليليَّ عُوجَا بالمحلةِ من جُمْلِ وأترابِها، بينَ الأُصَيْفرِ والخَبْلِ

= قريش) بعد ذكر ولد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر: وامه عائشة بنت طلحة. (ص ٢٧٨) ولعله خطأ مطبعي صوابه: وأمهم عائشة بنتِ طلحة، كما في الجمهرة والأغاني.

نَقِفْ بمغانٍ قد مَحَا رسمَها البِلَى تعـاقبت الأيـامُ بـالريـحِ والوَبْـلِ
فلو دَرَج النَّمْـلُ الصغـارُ بِجلـدِهـا لأندَبَ أعلى جِلْدِها مَدْرَجُ النمْلِ

فقامت «عائشةُ» فقبّلتْ ما بين عينيها . ودعتْ لها بعشرةِ أثوابٍ وبطرائفَ من الفضة...

وعادت عزة تقول لمصعب :

«لا واللهِ ما رأيتُ مثلَها مقبلةً ومدبرةً... نقية الثغرِ وصفحةِ الوجه ، فرعاء الشعرِ لَفّاء الجسم ممتلئة الصدر خميصة البطن... وفيها عيبان : أما أحدُهما فيواريه الخِمار وأما الآخر فيُواريه الخُفُّ : عظمُ الأذُنِ والقَدَمِ » (١)

وتزوجها مصعب...

وأمهرها خمسمائةَ ألفِ درهم ، وأهدى لها مثلَ ذلك (٢) .

وكان ابنُ قيس الرقيات قد قال في «عائشة» :

إن الخليطَ قـــد أزمعوا تركي فوقفتُ في عَرَصَاتِكم أبكي
عجَبـــاً لمِثلِكِ لا يكون لـــه خَرْجُ العراقِ ، ومنبرُ المُلْكِ

وغنّاه «مَعْبَد» (٣) .

فكان لعائشة خرْجُ العراقِ بالزواج من أميره مصعب بن الزبير.

(١) الاغاني : ١٧٧/١١ دار الكتب.
(٢) الاغاني : ومثله في (عيون الاخبار : ٢٥٨/٢).
(٣) الاغاني : ١٧٥/١١ دار الكتب.

أما منبر الملك فادخره القدَرُ لابنتِها من زوجها الأول : نفيسة بنت عبد الله حفيد الصديق ، إذ تزوجها – لما شبَّتْ – الوليدُ بنُ عبد الملك أمير المؤمنين [١]

* * *

وكذلك تحققت لمصعب أمنيتان من أمانيه الثلاث : ولاية العراق ، وتزوج عائشة بنت طلحة.

وبقيت الأمنية الثالثة : أن يتزوج من سكينة بنت الحسين ، فَيجمع بين أجمل غادتين في زمانه !..

وقد شغلته الشواغل الجسام التي أُلقيت على كواهل آلِ الزبير بعد استشهاد الإمام الحسين في كربلاء ، إذ اعتصم كبيرُهم «عبد الله» بالبيت الحرام ودعا إلى نفسه بالحجاز. وتأهب «يزيدُ» لقتاله بعد فترة من من مصرع الحسين وأهله ، وسير إليه فعلاً جندَ الشام بقيادة «مسلم بن عُقْبة» فبدأ بالمدينة وقتل أهلَها مقتلة عظيمة فسُمِّي ذلك اليومُ يومَ الحرة ، [٢] وأنهبها جندَه ثلاثةَ أيام. ثم شخص بمن معه متوجها نحو مكة فأدركتْه منيتُه في ثنية هرشى ، وسار الجيش من بعده فحاصر ابن الزبير.

لكن الموت لم يُمهل «يزيدَ» حتى يفرغ من ابن الزبير ، فقد جاء نعيُه من دمشق يوم أهَلَّ ربيع الآخر من تلك السنة ، واستخلف من بعده ابنه «معاوية الثاني» وعمره يومئذ أقل من ثلاثة عشر عاما. وأُمُّه بنتُ هاشم بن عتبة بن ربيعة ، أخي هند أم معاوية.

---

(١) جمهرة أنساب العرب : ١٢٨.

(٢) تاريخ الطبري : ٥/٧. ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ وما بعدها ، ونسب قريش : ١٢٧.

وأحس الغلام أنه أضعف من أن يحتمل العبء الجليل ، فما كاد يلي الخلافة حتى أمر فنودي بالشام : الصلاة جامعة . ثم صعد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد . فإني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه . فابتغيتُ لكم رجلاً مثلَ عمر بن الخطاب – رحمة الله عليه – حين فزع إليه أبو بكر ، فلم أجده . فابتغيتُ لكم سِتةً في الشورى مثلَ ستة «عُمَر» فلم أجدْها . فأنتم أوْلى بأمرِكم فاختاروا له مَنْ أحببتم ...

«ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس . وتغيّب حتى مات بعد أربعين يوما . فقال بعضُ الناس : دُسَّ إليه فسُقِيَ سُمّاً ، وقال بعضُهم : طُعِنَ»[1] .

وتولاها مروانُ بن الحكم . فلم يلبث أن مات في مستهل شهر رمضان من العام نفسه[2] .

وخلفه ابنُه «عبد الملك» بعد أن استفحل أمرُ عبد الله بن الزبير بمكة ، وأفلت زمامُ العراقِ من بني أمية .

وكاد يُفلت كذلك من أيدي الزبيريين بوثوب «المختار» بالكوفة واستفحال خطره ، ومحاولته انتزاعَ العراق لنفسه ، بدعوى الثأر للحسين !

وهكذا ألْقَى «مصعب» نفسَه في صميم المعركة ...

لكنه ظل مع ذلك يتلفت نحو الحجاز حينا . ويُشغل بمشاغبات زوجته الحسناء عائشة بنت طلحة حينا آخر . لعله ينسى أمنيته الثالثة التي لم تتحقق ...

* * *

(١ ، ٢) تاريخ الطبري : ٣٤/٧.

ولا أدري كيف رضي «مصعب» أن تُذاع في الناس أخبارُ حياته الخاصة مع عائشة – إن صحت هذه الأخبار – وأن يَدع الشعراءَ والسُّمار يجعلون من جمالها ودلالها ومتعةِ مصعب بها، مادةَ السمر والحديث!

ومن هذه الأخبار التي ذاعت عنه مع عائشة، ما يبدو مناقضا للذائع المشهور من مروءته، اللهم إلا أن يفسره عاملٌ نفسي جعل «مصعبا» يتلهى عن أمنيته التي لم تتحقق بالزواج من بنت الحسين، ويحاول إقناع نفسه والناس معه، بأنه بعائشة في شغل!..

أو لعل جمال عائشة، كان مادة خصبة لمخترعات السمار وتهاويل القصاص وإضافات الرواة جيلا بعد جيل...

من تلك الأخبار مثلا، أن عائشةَ غضبتْ عليه يوما. فشكا ذلك إلى أشعب – وكان مقربا إليها – فسأله أشعب: مالي إن رضيتْ عائشة؟

أجاب مصعب: حكمك.

فقال أشعب: عشرة آلاف درهم!..

قال مصعب: هي لك...

ومضى أشعب حتى أتى عائشة فقال لها: جُعِلتُ فداءك، قد علمت حبي لك وولائي قديما وحديثا من غير منالة ولا فائدة، وهذه حاجة قد عرضتْ تقضين بها حقي وترتهنين بها شكري.

سألته: وما عناك؟..

فأجاب: قد جعل لي الأميرُ عشرة آلاف درهم إن رضيتِ عنه!..

قالت : ويحك ، لا يمكنني ذلك...

فصاح بها : بأبي أنت . فارضي عنه حتى يعطيني ثم عودي إلى ما عوَّدكِ الله من سوء الخلق !..

قالوا : فضحكت منه عائشة ، ورضيت عن مصعب (١) .

ومنها : أن مصعبا دخل عليها يوما وهي نائمة متصبحة ، ومعه ثماني لؤلؤات قيمتُها عشرون ألف دينار ، فنبهها ونثر اللؤلؤ في حِجْرها . فقالت وهي تشيح بوجهها : نومتي كانت أحبَّ إليَّ من هذا اللؤلؤ !.. (٢) .

ومنها : أنه شكا مرةً إلى كاتبه ابن أبي فروة ما يجد من شراستها ومعاسرتها إياه . فذهب اليها أبو فروة مع عبدين أسودين ، وادعى أن سيده أمره بحفر بئر تدفن فيها عائشة حية !.. فقد ظن أنها تبغضه فجُنَّ غضبه !.. فصدقتْه (! !) وما زالت تلح على أبي فروة أن يعاود مصعبا ، وأقسمتْ ألا تغاضبه ! (٣) .

ومنها : أنها كانت يوما في مجلسها مع جمع من نساء قريش . فغنتها «عزة الميلاء» من شعر امرئ القيس :

وثغرٍ أغرَّ شتيتِ النبـــــــــا ـــــذيـــذِ المُقَبَّـــلِ والمُبتَسَمْ
ومـــا ذقتُـــه غيرَ ظنٍّ بـــه وبـــالظنِّ يَقضي عليك الحَكَمْ

وكان مصعبٌ قريبا منهن ، ومعه بعض إخوانه ، فقام منفعلا حتى دنا من الستور المسدَلَة وصاح : يا هذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ !

---

(١) الأغاني : ١٧٧/١١ دار الكتب.

(٢) الأغاني : ١١/دار الكتب ١٨٢/١١

(٣) الاغاني : ١٨١/١١ دار الكتب.

ثم قال لعائشة : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عَزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ثم تعود اليك.

وانتقلت عزة إلى مجلس الرجال ، فغنت هذا الصوت مرارا...

وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحا ! (١).

ومنها تلك القصة التي ذكرها الشعبي ، قال : «دخلت المسجد فإذا أنا بمصعب ابن الزبير والناس حوله، فسلمت ثم أردت الانصراف فقال لي : ادْنُ. فدنوت حتى وضعتُ يدي على مرفَقتِه ، ثم قال : إذا قمتُ فاتبعني. فجلس قليلا ثم نهض فتوجه نحو دار موسى بن طلحة ، فتبعته حتى دخل حجرتَه ، فرفع السجفَ فإذا أنا بعائشة بنت طلحة فلم أر زوجا قط أجمل منهما : مصعب وعائشة. قال مصعب : يا شعبي ، هل تعرف هذه؟.. فقلت : نعم : أصلح اللهُ الأمير ، هي سيدة نساء العالمين عائشة بنت طلحة قال : لا. ولكن هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر :

وما زِلتُ مِنْ ليلى لَدُنْ طرَّ شاربي ... إلى اليوم أُخفِي حبّها وأُداجِنُ
وأَحمِلُ في ليلى لقومٍ ضغينة ... وتُحمَلُ في ليلى عليَّ الضغائنُ

ثم أذن لي فقُمتُ. فلما كان العَشيُّ رحتُ إلى المسجد. وإذا هو في مجلسه هناك ، فسلمتُ فاستدناني وقال : هل رأيتَ مثلَ ذلك لأنسانٍ قط ؟ قلت : لا والله. قال : أفتدري لم ادخلناك؟ قلت : لا. قال : لِتحدِّثَ بما رأيت ! ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فروة فقال : أَعْطِ الشعبيَّ عشرةَ آلافِ درهم وثلاثين ثوبا. فما انصرف يومئذ

(١) الاغاني : ١٨٣/١١ دار الكتب.

أحدٌ بمثلِ ما انصرفتُ به : بعشرة آلاف درهم ، وبالثياب ، وبنظرةٍ إلى عائشة بنت طلحة »[١] .

ومنها ... ومنها ...

وإنه لموقف صعبُ التصديقَ من مثل مصعب ، أن يبتذل أخبار حياته الخاصة هكذا ، وهو مضرب المثل في المروءة.

ويَزيده صعوبةً ، أن الرجل كما رأينا . قد كان في صميم المعركة التي احتدمت بين بني أمية وآل الزبير، بعد أن تولى «عبدُ الملك» الخلافةَ في دمشق.

أهي إذن من إضافات الرواة ومبتدعات القصاص؟

غير بعيد...

أولا ، فهي تشاغُلٌ من «مصعب» حين لم يعد يجديه التعلقُ بما بدا شبهَ ميئوس منه ، والالتفاتُ إلى ما فاته من تزوج بنت الحسين.

ومهما يكن الرأي في تلك المرويات والأقاصيص . فلا شك في أن احتدام المعركة لم يلبث أن استأثر بأكثر هَمِّ «مصعب» فلم يدع له وقتا يفرغ فيه لمشاغله الخاصة ، اللهم إلا فترات خاطفة كانت عائشة كفيلةً بأن تملأها عليه.

ثم استطاع كرُّ الغداة ومرُّ العشي لمدى سنين ، أن يطويا الأمنية القديمة تحت ركام من التشاغل والتناسي...

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار – ٢١/٤ ، الاغاني : ٣١٠/٢ دار الكتب.

ولكنِ الركام انهار...

ومن تحته بدت الرغبة المكبوتة متوهجة، وكأن لم تردها الأيام والليالي إلا احتداما واحتكاما...

ذاك يوم عرف أن «سكينة» كَفّتْ عن تمسكها بالعزوفِ عن الزواج...

ولن يدعها «مُصعَبٌ» تُفلت من يديه.

وشد رحالَه إلى «المدينة» وتقدم إلى أخيها السجاد زين العابدين، عليّ بْن الحسين، يطلب مصاهرته. يرشحه لهذا الشرف: كرمُ أصله، واكتمالُ مروءته، وعزةُ فروسيته...

وقبل ابنُ الحسين...

وقبلت سكينة...

وطار النبأ في أنحاء الحجاز، أن مصعبا قدم ألف ألف درهم صداقا لبنت الحسين...

وزاد فأعطى أخاها عليا، حين حملها إليه، أربعين ألف دينار... (١)

ولم يدهش أحد لهذا، بعد أن أصدق مصعب «عائشة بنت طلحة» ألف ألف...

---

(١) عيون الأخبار: ٢/٢٥٨.

وأين بنتُ طلحةَ من بنتِ الحسين؟..

ولكن شخصا واحدا ضاق بهذا الإسراف...

ذلك هو «عبد الله بن الزبير» الذي جزع لهذه الألوف المؤلفة، تدفع مهوراً لربات الجمال، وبنو أمية هنالك في دمشق، يشترون بالمال سيوف الرجال، كما يحاربوا بها عبد الله بن الزبير، وأخاه مصعبا، كدأبهم مع الشهيد الحسين وأبيه الإمام علي، رضي الله عنهما.

وسكت عبد الله بن الزبير على مضض، حتى حُمِلت إليه رسالةٌ من عبد الله بن همام، يقول فيها:

أبْلِغ أميرَ المؤمنين رسالةً من ناصح لكَ لا يريد خداعا
مهر الفتاةِ بألفِ ألفٍ كامل وتَبِيتُ ساداتُ الجنود جياعا
ولو لأبي حَفْصٍ أقولُ مقالتي وأَبُثُّ ما أنبأتُكُمْ لارتاعا!

قال عبد الله بن الزبير: صدَق والله، لو قيلت هذه المقالة لأبي حفص - عمر ابن الخطاب - لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف...[1]

وكان مصعب يومئذ أميراً على البصرة، فبعث إليه أخوه، يعزله ويستدعيه...

* * *

متى تم زواج سكينة بمصعب؟

ذكرت إحدى الروايات، أنه تزوجها وهو عاملٌ لأخيه على البصرة، ونرجح أنه قد كان بعد سنة ٦٦ هـ.

(١) الأغاني: ١٦٣/١٤ ساسي.

ذلك لأن مصعبا كان في سنة ٦٥ هـ، عاملاً لأخيه على المدينة (١). والمطمأن إليه أنه تزوج من سكينة وهو بالعراق، وإذا صحت رواية الأغاني عن عزل عبد الله لأخيه مصعب عن ولاية البصرة، لَمّا أن جاءه خبرُ الصداق الغالي الذي دفعه لبنت الحسين، فإن الزواج يكون قد تم في عام ٦٧ هـ، حيث كان مصعبٌ هناك واليا... (٢).

على أن عبد الله بن الزبير لم يلبث أن رد أخاه إلى البصرة والعراق، لِمَا ظهر من تخليط ابنه «حمزة بن عبد الله» هناك. ثم ندب مصعبا لحرب المختار بالكوفة، بعد أن ظهر بغيه وجوره وفتكه بأهلها، تحت قناع الثأر لسيد الشهداء.

منافِسَة خطرة

انتقلت العروس الهاشمية، ذات العشرين ربيعا، إلى بيت زوجها مصعب بالعراق، في موكب حافل وجهاز فخم.

ولعلها تلبثت فترة عندما وطئت راحلتها أرض العراق، تحدق في ساحة الذكريات، وتكر بها راجعةً إلى الماضي...

على أنها حين دخلت بيتَ مصعب، طوتْ أحزانها عند الباب، كما اعتادت ان تفعل من قديم، واستقبلتْ دنياها بوجه يتألق بِشْراً. وهنالك لقيتها «عائشةُ بنت طلحة» في أتم زينة، وكأنها المجلوة لعرس!..

وكان ثمة زوجة ثالثة قد سبقتها إلى بيت مصعب، تلك هي «فاطمة بنت عبد

---

(١) تاريخ الطبري: ١٤٦/٧.

(٢) تاريخ الطبري: ١٦٢/٧

الله بن السائب الأسدي» تزوجها مصعب لا عن رغبةٍ وحب، ولكن بدافعٍ من مروءته وشهامته.

فلقد كانت قد تزوجت من قبله، عبدَ الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، فلما دخل عليها طلقها وهي على منصة العرس. فأتى أبوها عبد الله بن السائب – وكان شريفا وسيطا من سادة بني أسد – إلى حلقة في المسجد من قريش. فيها نفرٌ من بني الزبير بن العوام الأسدي فقال:

«إني زوجتُ عبدَ الله بن عمرو من بنتي فاطمة، فطلقها على منصتها، وأنا أخاف أن يَظنَّ الناس أنه رأى سوءا، وأنتم عمومتها. فقوموا حتى تنظروا إليها» (١)

فقال له عبد الله بن الزبير: اجلس.

ثم التفت إلى أخيه المصعب وكان جالسا في الحلقة، وخطب فاطمة له، فزوجه إياها أبوها. وقال عبد الله بن الزبير لأخيه:

– انطلق فادخل على أهلك (٢).

وإنما رجحنا أن تكون فاطمةُ قد سبقت سكينةَ إلى بيت مصعب، لأنها وَلدتْ له ولدين هما: عيسى وعكاشة ابنا مصعب، وقد شهد عيسى موقعة مَسْكَن التي قُتِلَ فيها مُصعب عامَ ٧٠ هـ وكان القوم عَرَضوا على عيسى الأمانَ، فأبى إلا أن يُقتَل مع أبيه. وافتخرت ربيعة بقتله فقال شاعرهم:

---

(١) يلتقي نسب فاطمة مع آل الزبير، عند أسد بن عبد العزى بن قصي. راجع الجمهرة (١٠٩) ونسب قريش: ٢٢٨ وما بعدها.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ١٠٩، ونسب قريش: ٢٢١.

نحن قتلنـــا مصعبـــاً وعيسى وكم قتلنـــــا قبلـــــه رئيسا
عَمْداً أذقنا مُضَرَ التأييسا (١)

وبعيدٌ أن يكون قد شهد الموقعة طفلا، بل الغالب أن أباه مصعبا قد تزوج من فاطمة أم عيسى، قبل مقتل الحسين بزمن لا نحدد مداه...

على أن سكينة ما كانت لتهتم بفاطمة، وإنها لتعلم الظروف التي ألجأت مصعبا إلى الزواج منها.

وانما حسبها ان تهتم بالضرة الأخرى: عائشة بنت طلحة، وترى فيها وحدها المنافسة الخطرة، والغريمة التي تستحق أن يُحسب لها حساب!

* * *

وفي بيت مصعب. بدأت سكينة عهدا جديدا من حياتها. بدت فيه كما لو كانت نسيت كل ما ذاقت من نكبات، وما روَّع صباها من فوادح الخطوب وقاسيات المحن.

والحق أنها ما نسيت. لكنها اعتادت أن تحتفظ بالشقاء لنفسها، وألا تُرِي الناسَ إلا تجملا.

وإذا كان هذا دأبَها فيما مضى من حياتها، فإنها اليوم أحوجُ إلى مزيد من التجمل، وهي ترى ضرتها عائشة بنت طلحة، لا تدع وسيلةً إلا سلكتها في مجال التنافس والتحدي.

(١) نسب قريش: ٢٤٩.

وما كان أقوى شعورِ عائشة بجمالها ، واعتزازِها بفتنتها ، وتفننها في إبراز مواضع الحسن فيها . ولو كلفها ذلك أن تخرج على العُرْفِ أو تتخلى عن حياء الأنثى !

وقد مر بنا الخبر عن استجابتها «لعزة الميلاء» حين أحبت أن تراها عارية ، لَمّا أراد مصعب خطبتها . وفي الأغاني [1] أخبار من هذا الصنف وأشد . وفيه كذلك أن مصعبا عاتبها في سفورها وحاول أن يردها إلى الحجاب ، فكان جوابها :

«إن الله تبارك وتعالى وسَمني بميسم جمالٍ أحببتُ أن يراه الناسُ ويعرفوا فضلَه عليهم ، فما كنت لأستُره !.. ووالله ما فيَّ وصمةٌ يقدرُ أن يذكرني بها أحد ...» .

وطالت مراودة مصعب إياها في ذلك على غير طائل !..

* * *

وعائشة قد سبقت سكينةَ إلى دنيا زوجها مصعب ، وغلبت عليه زمانا بفتنتها ودلالها ، وكسبت بهذا السبق مزيةً ربما لم تتح لسكينة التي قضت مرحلة الصبا الغض في ساحة البيت النبوي ، وما كانت لتستطيع – بحكم بيئتها ووراثتها – أن تتقن فنون الإغراء أو تتخلى لأي سببٍ عن عزة حيائها . ومن ثم لم تحاول أن تُجارِيَ عائشةَ في أساليبها أو تصطنع أسلحتها ، وانما لاذت بعزة ملاحتها ولطف محضرها وجلال ترفعها ، وبما أضفى عليها نسبَها النبوي من سنا مشرق ، وبهاء ما بعده بهاء .

وسكت رواة الأخبار فلم يذكروا لنا شيئاً عن حياة سكينة مع مصعب ، مع أنهم الذين ملأوا سمع الأجيال بدقائق حياته الزوجية مع عائشة ...

---

(١) أخبار عائشة بنت طلحة ، في الجزء ١١ ط دار الكتب .

لماذا؟..

لست أميل إلى الظن بأنه قد كانت هناك أخبار عن سكينة مع مصعب، طويت عمدا أو عن إهمال وضياع. فالإخباريون في تلك الفترة كانوا أجنح إلى التزيد من صنع الأخبار، ولو كانت شئون الحياة الزوجية الخاصة بين سكينة ومصعب قد خرجت إلى الناس وعُرضت على أعينهم، لما سكتُ الرواة عن ذكرها، بل لما تحرجوا من الخوض فيها والإضافة إليها. وقد رأيناهم يعرضون «عائشة» وهي زوجة وأم، مجردةً من ثيابها أمام هذه أو تلك من النساء، ورأيناهم يقتحمون بأخبارهم مخدعَها وهي مع زوجها، دون تحرّج أو تأثم. ونحن لم نورد من هذه الأخبار إلا القليل، وأمسكنا عن نقل الباقي لأنه ليس مما يجوز أن يجري على قلم مثلي. ومن شاء فليرجع إلى أخبار عائشة في (كتاب الأغاني) ليرى إلى أي حد كانت أخص شئونها الزوجية، مادة للإخباريين.

وإذن فلا سبيل إلى القول بأنهم تناولوا جانبا من حياة مصعب الزوجية وأعرضوا عن جانب... لا سبيل إلى الظن بأنهم – وقد دخلوا بيتَ الرجل – شُغلوا بإحدى الزوجتين يرصدون حركاتها ويسجلون كلماتها، بل يحصون عليها أنفاسها، وتركوا الزوجة الأخرى لا يكادون يحسون وجودها...

وكان من الممكن أن نحسن الظن برواة الأخبار، فنحسبهم تعففوا عن ذكر أخبار سكينة مع مصعب، لأنها بنت الحسين!.. ولكن يحول بيننا وبين هذا، أنهم نقلوا عنها بعد ذلك أنباء مثيرة، بعضُها مما لا يُقبل من مثلها ولا يهون الاطمئنان إلى صدوره عنها، ولم تَحُل بنوتُها للحسين، ومكانُها في بيت النبوة، دون ملء

الصفحات بهاتيك الأخبار، بل لم يعصمها هذا النسبُ العالي، من ألسنة المتقولين وأقاويل الرواة وأراجيف المبطلين... [1].

وإنما سكتوا، لأن «سكينة» فيما نرجح، لم تصطنع أساليب عائشة بنت طلحة، ولم تُغَذِّ الرواةَ بمادة خصبة من أفانين دلالها وأسرار علاقتها الزوجية على نحو ما فعلت ضرتها.

ولدينا على هذا شاهدٌ من نصٍّ أورده «أبو الفرج» في ترجمة «مصعب» قال: انه لما دخل عليها يودعها وقد تهيأ للخروج لقتالِ عبد الملك، صاحت من خلفه:

– واحزناه عليك يا مصعب!

فالتفت إليها وسألها: أوَ كلٌّ هذا لي في قلبك؟.. قالت:

– أي والله، وما كنت أخفي أكثر[2].

وهو نص يفسر لنا بوضوح لم لم تكن حياتها الخاصة مع مصعب مادة الإخباريين والرواة، فضلا عن دلالته على اتزانها العاطفي، وضبطها لأمرها، تجاهَ ما كانت «عائشة» تكشف عنه من أسرار زوجيتها.

كان لكل منهما سلاحها الخاص في تنافسهما على قلب الرجل الذي أحبته كلتاهما أصدق الحب: فأولاهما تثيره بفتنة دلالها وأنوثتها. وترهقه صداً وقربا. جفوة وإقبالا، وتبتذل له حينا بكل ما تملك من تفنن وإغراء، أو على حدٍّ تعبيرها، بكلٍّ ما قدرت عليه[3]، ثم تصارمه حينا حتى تجهده.

(١) نعرض لهذا، في الحديث عن «سكينة في المجتمع» في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢) الاغاني: ١١٦/١٨ ساسي.

(٣) الاغاني: ٥٥/١٠ ساسي.

والأخرى تفتنه بجاذبية شخصيتها الفريدة ، وبكل ما اجتمع لها من ظرف آسر ، وملاحة حلوة ، وجلال ساحر أخاذ.

وكانت كل منهما تعرف مكان الأخرى ، وتقدر خطر سلاحها . وربما تلاقتا وجها لوجه فباهت عائشة بما تتقن من أفانين الإغراء ، وأسكتتها سكينة باللقب الذي كانت تطلقه عليها : ذات الأذنين (١) .

وربما اختصمتا إلى حكم بينهما ، فيخلص من حرج الموقف بقوله :

- أما أنت يا سكينة فأمْلَحُ منها ، وأما أنت يا عائشة فأجمل ! (٢) .

السِّرُّ المُذَاع

على أن حياة أمير العراق لم تكن فارغة لهذه الشواغل النسوية إلا قليلا ، فإن الصراع بين الزبيريين والأمويين ما لبث أن احتدم عنيفا ضاريا ، وقد كان وجود مصعب في العراق عقبة كأداء لا سبيل إلى حسم الصراع ما بقيتْ هناك.

وقد صكت مسامعَ الأمويين مدائحُ الشعراء في مصعب . ومنهم عبيد الله بن قيس الرقيات ، إذ يقول : (٣)

إنما مصعبٌ شهـــابٌ من الله تجلَّت عن وجهـــه الظلماء
مُلْكُـــه مُلْكُ قوةٍ ليس فيـــه جبروت ولا بـــه كبريـــاء
يتقي الله في الأمور وقـــد أفلح من كـــان هَمَّـــه الاتقـــاء

(١ ، ٢) الاغاني : ١٤/١٦٢ .

(٣) عيون الانباء : ٢/١٠٣ .

وفي الخبر أن مصعبا أخذ رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه. فقال:

«أيها الأمير. ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُستضاء به، فأتعلق بأطرافك وأقول: أي ربٍّ، سَلْ مصعبا فيم قتلني.»

فأمر مصعب بإطلاقه، فقال:

– أيها الأمير. اجعلْ ما وهبت لي من حياتي في خَفْضٍ.

فأمر بإعطائه مائة ألف، فقال الرجل:

– بأبي أنت وأمي، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسينَ ألفاً.

قال مصعب: ولم؟

فأجاب: لأنه قال فيك:

إنما مصعب شهـــاب من الله تجلّتْ عن وجهـــه الظلماء

وأنشد بقيةَ الأبيات [1].

من ثم صمم الأمويون على أن يفرغوا لمصعب أول الأمر، قبل أن يفكروا في القضاء على رأس الزبيريين العائذ بالحرم.

وقد طالت المعركة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بين الزبير، أعواما ذات

---

(١) عيون الانباء: ١٠٣/٢ وانظر سمط اللآلي للبكري ٢٩٤/٦.

عدد قبل أن تصل إلى نهاية حاسمة. وتكررت محاولات عبد الملك، في الخروج إلى العراق ثم الإياب إلى الشام من غير أن يصل إلى غريمه. ففي الطبري (حوادث سنة ٧١) أن عبد الملك كان يخرج من دمشق صيفا بعد صيف، حتى «بطنان حبيب» ويخرج مصعبٌ من العراق للقائه فيعسكر في «باجميرا» ويلبثان هكذا حتى يهجم الشتاء فيرجع كل منهما إلى موضعه، ثم يعودان في الصيف وهكذا...[1]

وهمَّ عبد الملك، في سنة ٧٠ هـ بقتال مصعب، ثم اكتفى بأن وجه إليه جيشا عليه خالدُ بن عبد الله، التقى بجيشٍ لمصعب في البصرة، ثم انثنى إلى عبد الملك مهزوما...

وإذ ذاك صمَّم عبد الملك على أن يضع حدا لهذه المعركة التي طالت حتى أضجرت وخطب الناس في الشام، ليسيروا معه إلى مصعب.

قال له ناصحوه وقد أشفقوا عليه من لقاء مصعب: هلا أقمتَ هنا وبعثت على هذه الجيوش رجلا من أهل بيتك، فإن ظفروا فذاك، وإن لم يظفروا بعثت إليهم بالمدد.

أجاب عبد الملك: انه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلِّي أبعث مَنْ له شجاعةٌ ولا رأيَ له. وإني أجد في نفسي بصَراً بالحرب وشجاعة بالسيف إن أُلجئتُ إلى ذلك. ومصعبٌ في بيتِ شجاعة، أبوه أشجع قريش، وهو شجاع لكنه يحب الخَفض، ومعه من يخالفه ومعي مَن ينصح لي[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ١٨١/٧.

(٢) تاريخ الطبري: ١٨٥/٧.

وانفض المجلس وقد عرف القوم أنه صمم على المسير إلى مصعب.

ودعا بسلاحه فلبسه، فلما ودع أهله وهم بالركوب، قامت إليه زوجته «عاتكة بنت يزيد بن معاوية» فأعادت الرجاء والتوسل:

– يا أمير المؤمنين، لو أقمتَ وبعثت إليه لكان الرأي.

فأجاب معتذرا، مصمما: «ما إلى ذلك من سبيل!».

فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب، فَعَلا نشيجُها. وعند ذاك رجع إليها فقال وهو يتجمل:

– وأنتِ ممن يبكي! قاتل اللهُ «كُثَيِّراً»! كأنه كان يرى يومَنا هذا حيث يقول:

إذا ما أراد الغَزْوَ لم تَثْنِ همّه حَصانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نهتْه فلَمّا لم تَرَ النهْيَ عاقَه بكتْ فبكى مما شَجَاها قَطِينُها

ثم عزم عليها بالسكوت [1].

وانطلق إلى العراق حتى عسكر في «مسكن».

وسار له مصعب حتى عسكر في «باجميرا».

وكانت رسل عبد الملك قد سبقته إلى الكوفة وغيرها، وتسللت إلى نفوس القوم هناك بالمال والأماني.

وشرط عليه رؤساءُ المروانية بالعراق ولايةَ اصبهان، فوعدهم جميعا بها! [2].

(١) أمالي القالي – انظر سمط اللآلي: ١٤/١، والاغاني: ٢١/٩ ساسي.

(٢) تاريخ الطبري: ١٨١/٧.

فما دنا اللقاء ، إلا وعبدُ الملك قد ملأ يديه من أهل العراق ، وأيقن مصعبٌ أنهم خاذلوه...

ولم يفكر مع ذلك في النكوص...

وتهيأ للحرب ، ثم دخل على نسائه يودعهن ، فلما جاء دور سكينة ، وجمت لحظة.، وقد طاف بخاطرها طائفٌ من الأمس البعيد.

وحملتها الذكرى إلى كربلاء ، فساوَرَها دُوَار مُنهِك ، فبادر إليها مصعب واعتنقها ، وثقلت عليه وطأة الموقف ، لولا أن لاح له في تلك اللحظة ، طيفُ أبيها الإمام الحسين ، فهتف بها مشجعا :

– ما ترك أبوكِ يا سكينةَ لابنِ حُرَّةٍ عُذْرا...

ثم أفلتها من ذراعيه ، وأخذ طريقه إلى الباب.

فصاحت من خلفه : «واحزناه عليك يا مصعب ! ».

وفاجأته صيحتُها. فرجع إليها وسألها في لهفة وعجب :

– أكان كل هذا لي ، في قلبك ؟

أجابت : «بلى يا مصعب ، وما كنتُ أخفي أكثر...»

فرنا إليها مَليّاً ، ثم قال في رِقّة وشجو:

– لو كنت أعلم ، لكان لي ولك يا سكينة شأن آخر...

ومضى إلى الميدان وهو يقول :

وإن الأُلَى بالطّفِّ من آلِ هاشم تــآسَوا فسَنُّوا للكرام التــآسِيَــا !

وظل يردد البيت حتى أشرف على ساحة القتال ، فإذا جنده من أهل الكوفة قد نكصوا عنه خاذلين ، وإذا عبدُ الملك هناك في جيش لجب .

وتصفح مصعب مَنْ بقي حوله ، يمينا وشمالا ، فوقعتْ عينُه على عروة ابن المغيرة ابن شعبة ، فناداه : «يا عروة ! » .

فلماذا دنا منه سأله :

– أخبرني عن الحسين بن علي ، كيف صنع بإبائه النزولَ على حُكْم ابن زياد وعزمِه على الحرب ! ؟[1] .

هنالك علم الناس أن مصعبا لن يريم حتى يُقْتَل ...

وتقدم يواجه مصيره مستبسلا .

فبعث إليه عبد الملك مع أخيه محمد بن مروان يقول : إن ابن عمك يعطيك الأمان ...

أجاب من فوره ، وطيفُ الحسين يملأ عينيه :

– إن مثلي لا ينصرف عن مثلِ هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا .

ونادى محمد بن مروان «عيسى بنَ مصعب» وكان ملازما أباه :

– يا ابن أخي ، لا تقتل نفسك ... لك الأمانُ ...

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨٤/٧ .

وعقب مصعب. دون أن ينظر إلى ولده:

– قد آمنك عمُّك، فامضِ إليه.

قال عيسى: «لا تتحدثْ نساءُ قريش أني أسلمتُكَ للقتلِ».

فنظر إليه أبوه مَلِيّاً ثم قال:

«فتقدم بين يدي، أحتسبك».

فقاتل عيسى بين يدي أبيه حتى قُتِل[1].

وأُثْخِن مصعبٌ بالرمي، ثم شدَّ عليه زائدةُ بنُ قدامةَ فطعنه وهو يصيح: يا لَثَاراتِ المختار!

ونزل إليه عبيدُ الله بن زياد بن ظبيان، فاحتزَّ رأسه وحملها إلى عبد الملك.

قال عبدُ الملك وهو يطيل النظر إلى وجه مصعب مضرجا بالدم:

«متى تغذو قريش مثلك؟»[2].

ثم التفت إلى مَن حوله فسألهم: «مَن أشجعُ الناسِ؟».

فذكروا اسمَه، وأسماءَ عددٍ من الأبطال الشجعان. لكنه أسكتهم بقوله:

«أشجع الناس مصعب بن الزبير، جمع بين عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين... وَوَلِيَ العِراقين، ثم زحف إلى الحرب فبذلتُ له الأمانَ والحِبَاء والولايةَ

(١) تاريخ الطبري: ١٨٦/٧.
(٢) تاريخ الطبري: ١٨٧/٧.

والعفوَ عما خلص في يده ، فأبى قبولَ ذلك ، واطّرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراءَ ظهره ، وأقبل بسيفه قرما يُقاتل ، ما بقي معه إلا سبعة نفر ، حتى قُتِلَ كريما ... » .

وتجاوبت الآفاق ، ما بين العراق والحجاز ، بصدى من قول عبيد الله بن قيس الرقيات يرثي مصعبا ويذكر خذلان مَن في العراق من بكر وتميم :[1]

لقد أوْرَثَ المِصريْن خِزْياً وذِلّةً قتيلٌ بدير الجاثليق مقيمُ
فما نَصَحَتْ لله بكرُ بنُ وائل ولا صبرتْ عند اللقاءِ تميمُ
ولو كان بَكرِيّاً تعطّفَ حولَه كتائبُ يَغْلِي حميُها ويدومُ
ولكنه ضاع الذمامُ ولم يكن بها مُضَرِيٌّ يومَ ذاك كريمُ

الأرملة المقهورة

وفي قصر الإمارة بالكوفة ، وقفت أرملتُه سكينة بنت سيد الشهداء . يكاد يتلفها القهرُ والغيظ .

ولم يكن الحزن جديدا عليها . فمن قبل مصعب بلت الحزنَ الأكبر يومَ كربلاء ، ومصعبٌ قد لقي مصرعَه النبيل مختارا ، ومات الميتةَ التي تليق بفارس شهم كريم مثله ...

إنما كان غيظُها من غدر الذين خانوه ، هو الذي يفري كبدها !

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨٧/٧ .

وانظر كلمة عبد الله بن الزبير في أخيه مصعب حين بلغه نبأ مقتله ، في : الطبري ١٩٠/٧ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢٤٠/٢ .

ويحهم ! ما أفدح الذي لقيت سكينة منهم ! غدروا بجدِّها الإمام ، ثم أيتموها صغيرةً ، ثم أرملوها شابةً !

وإنها مع ذلك لَتَتَماسك حين وفد عليها المعزون من أهل الكوفة ، يسألونها الصبرَ الجميل على قدر مصابها الجليل ، حتى إذا فرغوا مما أرادوا أن يقولوه ، أدارت فيهم عينيها . وقد جَفَّ دَمعها . ثم قالت في تؤدة :

« الله يعلم أني أبغضكم ! قتلتم جدي عليا وقتلتم أبي الحسين ، وزوجي مصعبا ، فبأيٍّ وجهٍ تلقَونني ؟ أيتمتموني صغيرة وأرملتموني كبيرة » (١)

وانصرفت ...

خرجت من الكوفة ، ومن العراق ، وما تحمل الأرض أشقى منها بالذي كان ، وما تُظِلُّ السماءُ أدنى منها إلى اليأس ...

* * *

هل ترك لها « مصعب » ذكرى حية من شخصِه الراحل ؟

في خبر بالأغاني ، أنها ولدتْ من مصعب ابنةً آيةً في الحسن ، أراد مصعب أن يسميها ربرب ، لكن سكينة سمّتْها « الربابَ » باسم أمها (٢) . فلما قُتل مصعب ، وَلِيَ أخوه عُروةُ أمرَها ، فزوجها ابنَه عثمان بنَ عروة ، فماتت وهي صغيرة .

ونقل صاحب الأغاني روايةً عن سعيد بن صخر ، عن أمه سعيدة بنت عبد الله

---

(١) عيون الأخبار : ٦١٢/٢ .

(٢) نضيف ان ام مصعب كان اسمها كذلك الرباب : بنت أنيف بن عبيد . من بني جناب الكلبي (نسب قريش : ٢٣٦) .

ابن سالم : أن السيدة سكينة لقيتْها بين مكة ومنى ، فاستوقفتها لِتُريها بنتَها من مصعب ، وإذا هي قد أثقلتْها بالحليّ واللؤلؤ ، وقالت :

- ما ألبستُها الدرَّ إلا لتفضحه !

ثم أتبعها أبو الفرج ، برواية أخرى عن شعيب بن صخر عن أمه سعدة بنت عبيد الله . ان سكينة أرتها بنتَها من الحِزامي ، وقد أثقلتْها بالحلي وقالت : والله ما ألبستها إياه إلا لتفضحه [1] .

وهكذا ، ما بين فقرة وأخرى ، صار :

سعيدُ بن صخر ، شعيبَ بن صخر.

وصارت سعيدةُ بنت عبد الله بن سالم ، سعدةَ بنت عبيد الله . كما صارت بنتُ مصعب ، بنتَ الحزامي !

ولا مجال للاطمئنان إلى خبرٍ عبث به الرواةُ على هذا النحو ، لا سيما وليس في مراجعنا الأخرى ما يشير إلى أنها ولدت من مصعب بنتا .

وكان « المصعب الزبيري » أولى بذكر هذه البنت في (نسب قريش) لكنه لم يشر إليها ، وكذلك لم يشر إليها « الطبري » ولا « ابن خلكان » ولا « ابن حزم » في جمهرة الأنساب .

ولكن (دائرة المعارف) ذكرت أن سكينة لما تزوجها مصعب « أنجبا من هذا الزواج ابنة سمتها سكينة باسم أمها ، وتزوجت هذه الفتاة من أخي مصعب ، وتوفيت

---

(١) مثلها في عيون الاخبار: ٢٥/٤ ولم يذكر فيه اسم بنت سكينة.

في سن مبكرة».

ولم تذكر الدائرة مرجعها في هذا، وأرجح أنها نقلته عن (الأغاني) مع تحريف في النقل، جعل بنتَ مصعب تتزوج من عَمِّها أخي مصعب!..

* * *

مع إبراهيم بن عبد الرحمن

عزلة لم تَطُلْ

ظنت . وظن الناس من حولها ، أن ذلك آخرُ عهدِها بدنياهم ، وأنها سوف تنطوي على يأسها في عزلة تجتر ما طفحت به كأسُها من أحزانٍ وأشجان ، حتى تلحق بالأعزاء الراحلين...

وانصرف عنها متتبعو الأخبار ، وفي حسابهم أنها فرغت من الدنيا . فما عاد لديها ما يُلتمس من الأخبار. وشُغِلوا بتلك الأخرى . عائشة بنت طلحة ، وقد نزعتْ عنها ثوبَ الحدادِ على مصعب . فتقدم إليها خُطاب منهم بشرُ بن مروان الذي بعث إليها « عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي »[1] يخطبها له ، وهو يشفق أن تكون ناقمة عليه أخوته لعبد الملك قاتل مصعب . فلما حدثها عمرُ برغبة بشر. قالت :

– أما وجَدَ بشرٌ رسولاً إلى ابنةِ عمك غيرَك؟ فأين بكَ عن نفسِك؟

سألها في لهفة : أو تفعلين؟

أجابت ضاحكة : نعم .

---

(١) أمير فارس ، انظر (جمهرة أنساب العرب : ١٣٠).

فتزوجها من ليلته ، وعاد المجتمع يتلقى جديدا من أخبار علاقتها الزوجية بعمر. وأسرار حياتها الخاصة معه [1].

أجل شغل رواة الأخبار وصائدو الأسرار بتتبع عائشة بنت طلحة مع زوجها الثالث عمر، ويئسوا من التماس جديدٍ عند «سكينة».

حتى فوجئوا بالأرملة الهاشمية الحسناء. تخرج عن عزلتها وتُقبل على الدنيا مرة ثانية ، بوجهٍ ضحوك ومزاجٍ مرح !

وقيل فيما قيل : إن حيويتها الفياضة وشبابها الذي اكتمل وقتئذ ونضج . قد غلبا عواملَ اليأس ودواعي القنوط . فلم تستطع ، وهي أنثى في أوج نضجها ووفرة ثرائها وعزةِ جمالها وشرفِ موضعها ، أن تنزوي طويلا في عزلة عن الدنيا والناس.

لكني أكاد أطمئن إلى أنها في هذا الدور الجديد من حياتها . كانت منطوية على يأسٍ فادح ، بلغ في أعماقها أقسى مداه ، فصار إلى سُخرية مريرة ، هي التي احتكمت في الطور الثاني من حياتها احتكاما بلغ من قوته وعنفه ، أن اشتبه بضدِّه ، والتبس عند الأكثرين بالرغبة في انتهاب مسراتِ الحياة بعد الذي ذاقته من مر أحزانها.

وهنا . لا بد لنا من وقفة متأنية نسبر فيها أعماق هذه السيدة الشريفة ، واليتيمة والأرملة ، قبل أن تلقانا في حياتها الجديدة على ما تُصورها لنا الأخبار والروايات ، مسرفةً في الإقبال على الدنيا بنفسٍ متفتحة لم ينل منها حزنٌ ولا ساورتْها ذكرى المشاهد الأليمة التي مرت بها.

---

(١) الاغاني : ١٨٣/١١ وما بعدها. ط دار الكتب.

أجل ، لا بد من وقفة هنا متمهلة ، قبل أن تلقانا «سكينة» في أخبارها تلك ، تملأ الأفق من حولها ضجيجا مرحا . وتشارك في الدنيا أعنف مشاركة ، وتظهر في المجتمع طليقة متحررة .

وقد تعجلتُ الرأيَ آنفا . فقلت إنني أكاد أطمئن إلى أنها في هذا الدور الجديد من حياتها كانت في إقبالها على الدنيا منطوية على يأس . وليس ذلك لأني أجردها من أهواء البشرية ، لكنا حين نحتكم إلى سنن الفطرة وطبيعة الانسان ، ننكر أن تلاقي سيدةٌ مثلَ الذي لاقت بنتُ الحسين من فوادح المحن وأرزاء الأيام والليالي ، ثم تستطيع – بحال ما – أن تنسى كلَّ الذي لقيت ، ويصفو لها العيش هنيئا غير كدر !

بل إنه لما يشبه المحال عندنا ، أن تقوى أنثى ، بالغة ما بلغت إرادةُ الحياة عندها . أن تنسلخ من ماضيها كله ، وما العهد به ببعيد . وأن تنحِّي عنها أطياف مَن ملأوه فرحا وترحا ، لتبدأ صفحة جديدة لا ظل فيها من ذلك الماضي ، ولا صلة لها بهمومه ومآسيه .

وعلماء النفس قد اطمأنوا إلى أن للنفس البشرية حافظة واعية تختزن كل ما يمر بها من أحداث ، وتحتفظ بها على تطاول العهد بها وبُعد المدى ، وتظل تؤثر في سلوك المرء مهما تقوَ إرادتهُ على التخلص منها . بل مهما يغلب على يقينه أن الزمان قد عفى على آثارها فتاهت في غيابة النسيان...

وما كان الذي لاقتْه بنت الحسين بالذي يُنسى ، ولا كان الزمن قد تراخى به منذ شهدت المذبحة المروعة في كربلاء في مستهل عام ٦١ هـ ثم مصرع زوجها الحبيب الفارس النبيل ، مصعب بن الزبير ، بعد عشر سنين ، وهو يتأسى بالحسين ويقول

لابنته: ما ترك أبوكِ لابنِ حرَّةٍ عُذرا...

فهل شذت سكينة على الطبيعة البشرية وخرجت على المألوف من الفطرة السوية، بنسيانها كلَّ ما كان، وإقبالها على الدنيا بنفس متفتحة لا يُلم بها طيفُ عزيزٍ رحل، ولا تعبرها ذكرى معاودة للذي فات؟

كلا، لم تشذ سكينة، وإنما الأقرب إلى الاحتمال أنها ملّت كبريات المشاغل إلى حد الزهد، ويئست من دنياها إلى حد الإغراق في الاستهانة بها وعدم المبالاة!

وإنها لمعذورة، فمِثْلُ هذه الدنيا. كما بَلَتْها سكينة، غيرُ جديرة بأن يؤسَى عليها. بل إنها لأهْوَنُ على بنتِ الحسين من دمعةٍ تُسكَبُ أو آهةٍ تلفظ!

ضجيج في الدار

وليس أدلَّ على هوانِ الدنيا لديها بعد مصعب، من الخبر اللافت الذي نقله صاحب الأغاني معلِّلاً به قبولَها للزواج بعد تمنع، قال (١): «تنفست يوما بَناتُه – جارية سكينة – وتنهدتْ حتى كادت أضلاعُها تنشق. فقالت لها سكينة: مالك؟ ويلك! وقالت: أُحِبُّ أن أرى في الدار جَلَبَةً – تعني العُرْس...

«فدعت سكينة مولى لها تثق به، وقالت له: اذهب إلى ابراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف، فقل له: إن الذي دفعناك عنه، قد بدا لنا فيه. ائتِ أخوالَ رسول الله ﷺ فاخطبْ سكينة».

وابراهيمُ بن عبد الرحمن بن عوف، من بني الحارث بن زهرة بن كلاب (٢).

---

(١) الاغاني: ١٦٢/١٤ ساسي.

(٢) نسب قريش: ٢٦٦.

وكان قد خطبها بعد مقتل مصعب ، فأنكرته وردَّتْه في غيرِ رفق ، وبعثتْ إليه قائلة :

- أبلغ من حُمقك أن تبعث إلى سكينة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، تخطبها ؟

فأمسك ابراهيمُ عن ذلك ، حتى إذا جاءه رسولُها أنها قد غيّرتْ رأيها فيه ، أقبل والدنيا لا تسعه من فرحته ، فجمع نحو سبعين رجلا أو ثمانين من رجال بني زهرة وأعيان قريش ، واتجه بهم في جمعٍ حافل مشهود ، ساعيا إلى «علي بن الحسين» ليخطب إليه أخته سكينة .

وذاعت القصة في المدينة والوفدُ لما يزل في طريقه إلى البيت الهاشمي ، فما كان خروجُ ابراهيم في موكبٍ كهذا عِدَّتهُ سبعون أو ثمانون رجلا - فيما أحصت الرواية - بالذي يمضي دون أن يلفت إليه الانظار ويستثير الفضول . وعرف الناسُ أن ابراهيم ما جمع هذا الحشدَ إلا لكي يلقى به زينَ العابدين خاطبا سكينة . وبلغت الشائعة دور بني هاشم فاسترابوا فيها أولَ الأمر ، وشق عليهم أن يصدقوا أن يجرؤ ابراهيم على خطبة الشريفة الهاشمية ، في تلك الظروف ...

فلما قيل لهم : بلى ، وإنها لراضية به ! صاحوا في غضب :

- هذه الحمقاء تريد أن تتزوج ابراهيمَ بن عبد الرحمن ؟

وتنادَوا ، حتى إذا اجتمعوا قال قائلهم :

- لا يخرجَنَّ منكم إنسانٌ إلا ومعه عصا ! (١)

---

(١) الأغاني : ١٦٢/١٤ ساسي .

وهناك عند بيت سكينة ، التقى الجمعان مغضَبين ثائرين :

بنو هاشم وقد أنكروا على ابراهيم . التطلع إلى بنت الإمام الحسين.

وبنو زهرة ، وقد أنكروا أن يهون ابراهيمُ عند بني هاشم إلى ذلك الحد . وإنه لمن صميم الزهريين. آل آمنة بنت وهب . أم الرسول ﷺ !

وإن أباه عبد الرحمن ، لصاحِبُ الشورى عند الرسول ، وأحد العشرة الذين شهد لهم عليه الصلاةُ والسلام بالجنة [١] .

وإن أمه «أم كلثوم بنت عقبة الأموية القرشية» لمن المهاجرات المبايعات ، خرجت إلى الرسول في هدنة الحديبية ، فطلبها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة ، وكانا لا يزالان على الكفر. وقدما المدينة يستردانها كشرطِ الحديبية [٢] ، فقالت في ضراعة :

– يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أتردني إلى الكفار ، فيستحلوا حرامي ويفتنوني عن ديني ؟

وفيها نزلت آية (الممتحنة) :

«يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهن ، اللهُ أعلمُ بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا تَرجِعُوهن إلى الكفار لاهُنَّ حِلٌّ لهم ، ولا هُمْ

---

(١) ابن حجر: الاصابة – رقم ١٥٧١ ونسب قريش ٢٦٥ .

(٢) كان مقتضى هذا الشرط على النبي لقريش : ان من جاءنا منكم رددناه اليكم . وارجع إلى تاريخ الطبري ، والاصابة ، ونسب قريش : ١٤٥ ، ٢٦٦ .

يَحِلُّون لهن. وآتوهم ما أنفقوا، ولا جُناحَ عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورَهن، ولا تُمسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر...»[1]

ولم يردها الرسول إلى الكفار...

* * *

خاطب مردود

وتشاح أفراد الفريقين، وتضاربوا، فأصيب منهم يومئذ أكثرُ من مائة إنسان، قبل أن ينفض العراك...

وصاح الهاشميون: أين سكينة؟

فأنبئوا بموضعها، وانطلقوا إلى حيث كانت تتلقى أنباء المعركة التي شبتها، في فضول المتفرج وسخرية العابث!

صاحوا بها: أبلغ بك الأمر أن تصنعي هذا؟

فالتفتت سكينة إلى مولاتها بنانة، وسألتْها، وما تفارق الابتسامة فمها: «أي بنانة، أرأيتِ في الدار جلبة؟».

أجابت وهي لا تكاد تجد صوتها من خوف وذعر:

– أي والله يا سيدتي، إلا أنها شديدة![2]

وأبت «سكينة» بعد ذلك أن تتزوج من ابراهيم، حين تُرِك لها الخيار في الأمر.

---

(١) سورة الممتحنة، من آية ١٠.

(٢) الاغاني: ١٦٢/١٤ ساسي.

على أن هناك رواية نقلتها (دائرة المعارف) عن طبقات ابن سعد – تقول إنها عاشت مع ابراهيم الزهري ثلاثة أشهر، ثم طُلِّقتْ منه بأمرِ هشام بن عبد الملك.

وقد عقبت عليها الدائرة بقولها: «وهذا شيء بعيدُ الاحتمال» دون أن تحدد الشيء المشار إليه، أو تذكر سببا يبعده عن الاحتمال.

وأغلبُ الظن أن هذا هو طلاقها من ابراهيم بأمر هشام بن عبد الملك! وإنه فعلا لشيء بعيدُ الاحتمال إن لم يكن أقربَ إلى المحال! ذلك لأن هشاما ولي الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفي سنة ١٢٥ هـ عن ٥٤ سنة [١] . وقيل كان ابنَ ٥٥ سنة أو ٥٢ سنة وهما روايتان في الطبرَي.

أي أنه لم يكن قد وُلِدَ بعدُ حين قتل مُصعب وترملت سكينة، إذا أخذنا بقول من قال بموته سنة ١٢٥ عن ٥٢ سنة.

أوكان رضيعا في السنة الأولى من عمره، إذا أخذنا بأقصى الآجال في عمره، أي ٥٥ سنة.

فأنّى، وكيف، تدخل في مسألة زواج سكينة من ابراهيم، بعد أن قُتِل عنها مصعب!؟

ونعود إلى حكاية خطبة ابراهيم لسكينة بإيعاز منها، ثم رفضها الزواج منه بعد أن كان ما كان من عراك بين بني هاشم وبني زهرة، فنسأل: هل حدث هذا حقا؟ لست أستبعده، ولكن بفرض انه لم يحدث، فما من شك في أن الذين اخترعوا

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٨٣/٨، ٢٨٨ وانظر معه شذرات الذهب: ١٦٣/١.

هذه القصة ، قد أغراهم بها ما عرفوا من ميل سكينة إلى الدعابة . وإنها لدعابة قد يرى ناسٌ فيها لونا من المرح ، على حين نراها دعابة مُرَّة قاسية : فهذه الشريفة الحسناء ، يخطبها من لا تراه كفئا لها ، فترده بعبارة تنطق بزهوها واعتزازها بنسبها العالي ، ثم لا تكاد تسمع تنهد «بنانة» واشتياقها إلى جلَبة الفرح ، وضيقِها بوجوم البيت وسكونه ، حتى تثور في أعماقها ذكرياتُ ما لقي آلها الأكرمون من اضطهاد بشع ، وحتى تستحضر مصارع الشهداء من رجالها . ومرأى اشلائهم مبعثرة على ساحة كربلاء ، لا يصد عنها سَبُعٌ ولا وحش ! ؟

ماذا صنع النسب الطاهر العالي للزهراء وقد ماتت كمدا ، مُضَيَّعة الحق ، ولم يمض على وفاة أبيها ﷺ غير أشهر معدودات ! ؟

ماذا صنع النسب الشريف للحسَن وقد لقي حتفه مسموما ؟.. وللحسين وبنيه وإخوته وبني إخوته وبني عمه ، وقد قتلوا جميعا في يوم واحد ، بسيوفِ قومٍ يدينون بدين محمد ، ويشهدون أنه رسول الله ؟..

وماذا صنعت المروءة لزوجها مصعب ، وقد خذله جنده وباعه أنصاره بثمن بخس ، دراهم معدودات ، ووعودٍ عرقوبية كاذبة ؟..

فهل من عَجب أن تهزأ سكينة ، بنت الشهيد ، وأرملة صريع الغدر ، بهذا المجتمع المنافق ، وتسخر بما تعارف عليه من قِيَمٍ يقدسها باللفظ ويخونها بالفعل ؟...

وأي شيء هو أبلغ في الهزء بالنفاق الاجتماعي ، من أن تغري بخطبتها من ردَّته بالأمس خائبا ؟... أي شيء هو أبلغ في السخرية بالعرف السائد في مجتمع الأشراف من قريش . من أن ترجع سكينة عن قرارها الأول ، لمجرد إرضاء رغبة عارضة من جاريتها «بنانة» في أن ترى في البيت جلبة عرس ؟ !... ثم تكون ، بنت الحسين

وحفيدة الزهراء ، هي هي التي تبعث مولى لها إلى ابراهيم بن عبد الرحمن ، لتعلنه بما بدا لها في قبوله زوجا ، وتتنازل فتدعوه إلى أن يمضي إلى بقية آلها فيخطبها؟ !...

وجلست تتفرج على المشهد الذي ألّفتْه ورسمت خطتَه وعيّنتْ مسرحه واختارت أشخاصه !...

وطاب لها أن تصغي إلى ضجيج المعركة الصغيرة بين الفريقين من آلها وآل ابراهيم الزهري ، والتي تمخضت عن مائة مشجوج ، وعن ضحية أخرى فوق المائة ، أعني الخاطب المسكين الذي باء بالخسر والهوان؟ !...

وما تكون تلك الضحايا ، أمام عشرات الألوف من المسلمين الذين قتلوا في معركة الفتنة الكبرى ، في مواقع الجمل ، وصفين ، وكربلاء ، ومعارك التوابين والخوارج ، وصراع الأمويين ضد الهاشميين والزبيريين من بعدهم؟...

بل ما تكون هذه الضحايا أمام مصرع الحسين وحده ، رضي الله عنه؟ !

وأي شيء هذه الضجة ، بالقياس إلى ضجة كربلاء ، أو الحرة ، أو موقعة «مسكن» التي قُتِل فيها مصعب بن الزبير ، فتى قريش؟...

الله... الله !... لقد طابت الحياة لقريش بعد كل هذا الذي كان ، فلا ضير عليهم في أن يحتملوا مائةَ مشجوج ، نظير التفرج على مشهد ساخر فكِهٍ طريف ، من تأليف وإخراج بنت الإمام الشهيد ، أرملة مصعب ابن الزبير !...

أو لا ، فلتضف هذه الخدوش الهينة ، إلى رصيدها الضخم من صَرعى الفتنة ، وضحايا البغي والجشع ، والغدر ، والنفاق...

* * *

مع الأصبغ المرواني

ونتبع سكينة إذ تمضي بها الحياة في الخضم الكبير. بعد أن سكنت الضجة التي ثارت بين بني هاشم وبني زهرة، فإذا معالم الطريق تغمض أمامنا وتتوه، حتى ما ندري أي طريق سلكت بنتُ الحسين، بعد الذي كان...

موتى يُبعَثون!

ثمة خبر يقول: إن «عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب. فقالت أمها: لا والله لا تتزوجه أبدا وقد قَتَلَ ابن أخي - تعني مصعبا»[1]

ولا حاجة بنا إلى توهين الخبر بأن عبدَ الله لم يَقتل مصعبا. وبأن الأخُوة المدعاة بين الرباب والزبير أبي مصعب في قول الرباب «وقد قتل ابن أخي» لا تعدو التقاءً في الجد الخامس لمصعب من ناحية أمه: الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن حصن بن كعب بن عليم بن جناب الكلبي[2].

والجد الرابع لأم سكينة من ناحية الأب: امرئ القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم[3].

(١) الاغاني: ١٦٢/١٤ ساسي.

(٢) نسب قريش: ٢٣٦ - وجمهرة أنساب العرب: ٤٢٧.

(٣) نسب قريش: ٥٩ - وجمهرة أنساب العرب ٤٢٧.

أجل ، لا حاجة بنا إلى توهين الخبر بمثل هذا أو نحوه ، بل يكفي أن نقول إن الرباب ، أم سكينة ، ماتت في سنة ٦٢ هـ حزنا على زوجها الحسين ، بعد عام من مصرعه في كربلاء (١) . وغير معقول أن تُبعَث من قبرها لتظهر على مسرح الأحداث بعد وفاتها بنحو عشر سنين . فترفض أن تتزوج بنتها سكينة ، بعد مصعب ، من عبد الله بن مروان !...

زواج لم يتم

ونفرغ كذلك على عجل من زواج آخر لم يتم !...

ذلك هو زواجها بالإصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، أخي عمر بن عبد العزيز.

قيل إنه خطبها ، وأغلى لها المهر ، فقبلتْ بعد تردد وتمنع .

كان وقتئذ واليا على مصر . لعمه عبد الملك . فلما استدعاها ، أبدت خوفها من جو مصر ، فبنى لها مدينة سماها « الإصبغ » وأرسل إليها بالمدينة أنه قد هيأ لها أطيب مقام .

وانتظر الرد ، فجاءه رد ، لكن ليس من سكينة ، وإنما من عمه عبد الملك الذي كتب إليه يخيره بين إحدى اثنتين : ولاية مصر ، أو الزواج من بنت الحسين (٢) .

فاستجاب الإصبغ لرغبة عمه عبد الملك ، وأرسل إليه بطلاقها . قبل أن يدخل بها .

أما لماذا كره عبد الملك زواج ابن أخيه من بنت الحسين ، فتقول رواية : إنه نَفَس عليه بها .

(١) ابن الأثير: الكامل ٧٣/٤.
(٢) الاغاني : ١٦٢/١٤ .

وتقول أخرى : إنه غضب لكثرة ما أنفق الإصبغ عليها من مال ، فقال : ما نزوجها أخانا حتى نزوجها مالنا.

والروايتان ، كلتاهما . في (الأغاني) وإذا كان لنا أن نختار ، فالأولى عندنا أوْلى.

وبقي الإصبغ في مصر محزونا...

وبقيت سكينة حيث هي في المدينة ، وقد متعها الإصبغ حين طلقها . بعشرين ألف دينار.

أما متى تمت هذه الخطبة ، فالقصة تشير إلى أنها حدثت والإصبغ وال على مصر لعبد الملك بن مروان ، أي في سنة ٧٥ هـ...

ومن هنا . أتينا بها . في سياق الحديث عن حياة سكينة الزوجية ، بعد ترملها من مصعب.

ولم نلتفت إلى ما نقلته (دائرة المعارف) من زواج الإصبغ بها . بعد مَنْ سمته : الزبير – وصحته : زيد – بن عمرو بن عثمان بن عفان ، الذي أجمع ابن خلكان في (الوفيات) وابن العماد في (الشذرات) وإحدى روايات (الأغاني) على أنه طلقها في خلافة سليمان بن عبد الملك ، وقد كانت خلافة سليمان من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩ هـ ، على حين كانت الخطبة سنة ٧٥ ، في عهد عبد الملك ، والإصبغ والٍ على مصر[١].

كذلك لم نلتفت إلى روايتين في الأغاني . وضعتا خطبة الإصبغ إياها قبل زواجها

(١) تاريخ الطبري : ١٠٢/٧ ، ١٢٦.

من مصعب الذي قتل عام ٧١ هـ!

أما غياب الحديث عن هذه الخطبة في (نسب قريش) وفي (الجمهرة) فمن السهل أن نعلله بعدم إتمام الزواج.

* * *

مع عبد الله بن عثمان الحزامي

هدنة مع الأيام

فمَنْ بعد الإصبغ ؟...

لعل عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، هو أول من خطبها . وتم زواجها ، بعد أن ترملت من مصعب.

على هذا اتفقت رواية (نسب قريش) التي نصت على أنه الذي خلف عليها بعد مصعب [1] .

وكذلك ابنُ خلكان في (الوفيات).

وابن العماد الحنبلي في (الشذرات).

وهي أيضا رواية ابن سعد في (الطبقات) وقد نقلتها عنه (دائرة المعارف) وإن كانت أضافت إلى اسم عبد الله بن عثمان، أنه ابنُ أخي مصعب.

والصحيح أنه ابنُ أخته ، لأمه وأبيه ، رملة بنت الزبير بن العوام [2] .

أما أبوه عثمان ، فكان من سادات قريش وأشرافها . وكان مع عبد الله بن الزبير

(١ ، ٢) نسب قريش : ٢٣٣ وانظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢ .

بمكة ، فقتل في الحصار الأول – الذي قام به جيش يزيد قبل موته سنة ٦٥ هـ – وله يقول أبو دهبل الجمحي :

ونِعم ابنُ أختِ القوم عثمانُ في الوَغَى إذا الحرب أبدت نابَها وَهي تَكْلَحُ
هو التـارك المالِ النفيسِ حمِيـةً وَللموت من بعـدِ المعيشةِ أَرْوَحُ
وجـاد بنفسٍ لا يُجـاد بمثِلهـا لها ، لو أقرت غزية ، مترحزح [١]

ورحّب بنو هاشم بالزواج هذه المرة ، ورددت مجامع قريش . قصيدة أخرى لأبي دهبل الجمحي ، بارت فيها هذه الصلة بين سليلة النبي ﷺ ، وبين حفيد الزبير بن العوام ، وسليل حكيم بن خويلد الأسدي ، ابن أخي السيدة خديجة أم المؤمنين. وفي هذه القصيدة يقول الجمحي :

قضتْ وطَرا من أهلِ مكةَ ناقتي سوى أملي في الماجـدِ ابن حِزامِ
تمطت بـه بيضاءُ. فرعٌ ، نجيبـة هجـانٌ. وبعضُ الوالـدات غرام
جميـل المحيّـا من قريش كأنه هلالٌ بـدا من سدفَـةٍ وظلام
فـأكرِمْ بنسلٍ منكَ بين محمـد وبين عَلِيٍّ. فـاسمَعنَّ كلامي
وبين حكيمٍ والزبيرِ فلن ترى لهم شَبَهـا في مُنْجِـدٍ وتهامِ [٢]

زواج مثمر

ويبدو أن الحياة قد اطمأنت ببنت الحسين في كنفِ هذا الزوج الماجدَ الكريم . وأمهلها الزمن بضعَ سنواتٍ . ذاقت خلالها طعمَ الاستقرار والدعة ، وعكفت على

---

(١) نسب قريش : ٢٣٣ – وارجع إلى شعر الجمحي في مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٩١٠ .

(٢) نسب قريش : ٢٣٣ .
والابيات في (ديوان أبي دهبل الجمحي) مع بعض اختلاف في الترتيب.

ذرية حفدتها الذين كانوا ثمرة هذا الزواج المبارك بين فرعين من أعز فروع قريش.

وهم : (١)

عثمان بن عبد الله - وقد لقبه أبوه : قُرينا . وفي ولده كانت البقيةُ من نسل بنت الحسين.

وحكيم بن عبد الله

وربيحة بنت عبد الله . التي تزوجها العباس أكبر أبناء الوليد بن عبد الملك ، وصاحب الغزوات الظافرة المشهورة في بلاد الروم (٢) .

ولعل ربيحة هذه ، هي الفتاة التي كانت أمها سكينة تُلبسها الدر لتفضحه ، والتي خلطت الرواية فنسبتها إلى مصعب بن الزبير.

* * *

وربما حاولت سكينة في تلك الفترة من حياتها ، أن تسدل على أحزان صباها ستارا من التشاغل والتناسي. وعاد الإخباريون فانصرفوا عنها ، إذ هي مطمئنة في حياتها الزوجية ، بعيدة عن أضواء المجتمع.

ثم مات زوجها عبد الله بن عثمان ، وترملت مرة أخرى.

ويبدو أن وقع المصاب كان شديدا عليها ، نكأ في أعماقها الجرح القديم الذي ما التأم مرةً إلا ليعود فيدمى من جديد.

ولعلها في تلك الفترة ، سعت إلى البيت العتيق في حجتها المشهورة التي التقت فيها

(١) نسب قريش : ٢٣٣.

(٢) تاريخ الطبري : حوادث السنوات ٩٣ - ٩٥ هـ

بضرتها السابقة : عائشة بنت طلحة...

وأبى متصيدو الأخبار أن يُفلتوا هذه الفرصة ، بل أسرعوا فجاءوا بغادتي قريش الحسناوين ، في مشهد من مشاهد التنافس والتحدي...

وإن لم يكن «مصعب بن الزبير» هو موضوع تنافسها في هذا المشهد الذي وصفه الراوي فقال :

«دخلت عائشة بنت طلحة على الوليد بن عبد الملك وهو بمكة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ لي بأعوان.

فضم إليها قوما يكونون معها ، فحجّت ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل.

وحجّت في ذلك العام أيضا سكينة بنت الحسين رضي الله عنه ، فقال حادي عائشة :

عائشَ يا ذاتَ البغالِ الستينْ لا زلتِ ما عشتِ، كذا تَحجينْ

فشق ذلك على سكينة ، ورد حاديها :

عـــائشَ هــذه ضُرةٌ تشكوكِ لولا أبوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكف ، فكَفّ» (١)

ونرجح أن ذلك قد كان في سنة ٩١ هـ ، لأنها السنة التي حج بالناس فيها ، الوليدُ بن عبد الملك (٢).

---

(١) الأغاني : ١٨٨/١١ دار الكتب . وانظر الخبر وتعليق الامام السبكي عليه في (طبقات الشافعية الكبرى ١٦٦/١ ط مصر).

(٢) ص تاريخ الطبري : ٨١/٨.

مع زيد بن عمر العثماني

شروط عجيبة

رجعت «سكينة» إلى المدينة في أخريات ذي الحجة من ذلك العام (٩١ هـ) أرملة كهلة، ينزف الجرح في أعماقها دما، وقد طفح كأسها بالشجن المر والأسى الفادح...

وجاء خاطب جديد، ليكشف عن ضجرها الذي جاوز المدى!...

جاء «زيد بن عمر بن عثمان بن عفان» [١] يسألها أن تقبله زوجا على أي شرط تشاء...

ولم تشأ أن يتم هذا الزواج على مألوف عادة القوم، بل اشتطت في شروط لها، ما نراها – لو صح الخبر – إلا مظهرَ يأسٍ عميق، وإن بدت في شكل دُعابة ساخرة:

كانت شروطها ثلاثة:

---

(١) في اسم أبي زيد وهم، لعل سببه أن عثمان بن عفان له ولدان: عمر، وعمرو. وقد ورد اسم زيد ابن عمرو، في الوفيات والشذرات والأغاني والدائرة، وكذلك ورد مرة في نسب قريش (٥٩) على أنه عاد فذكر زيدا بين ولد عمر. وهو في الجمهرة أيضا ابن عمر، وقد رجحناه بعد طول مقابلة للروايات، وتتبع لسياق النسب لولد عثمان.

أولها : ألا يَمس امرأة سواها...

والثاني : ألا يحول بينها وبين شيء من ماله...

والثالث : ألا يمنعها مَخرَجا تريده [1].

فإن أخَلَّ بأحدِ هذه الشروط ، فهي منه خلية !...

وقد يبدو الشرط الأول غريبا من سكينة حفيدة نبي الإسلام الذي أباح تعدد الزوجات. وكان تعدد الزوجات في بيئتها هو العرف المتبع والشائع. وقد تزوجت سكينة - وهي في ربيعها العشرين - من مصعب ، وعنده عائشة بنت طلحة ، وفاطمة بنت عبد الله الأسدي ، وأمهاتُ أولادٍ شتى [2].

ثم تأتي ، وقد جاوزت - الأربعين من عمرها - فتشترط على زيد العثماني ألا يمس امرأة سواها؟

لكن الشرط ، على ما يبدو من غرابته ، جائز شرعا. فللمرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها.

والشرط الثاني أعجب : فزيدٌ هذا «أبخل قرشي» فيما قالوا ، وقد رووا في بخله أعاجيبَ يكاد المرء لغرابتها أن يتهمها بالوضع ، ولكنها على فرض وضعها ، ذاتُ دلالة على رأي القوم في زيد ، وفي بخله [3]

(١) في الأغاني (١٦٣/١٤) شروط اخرى بجانب هذه التي ذكرناها.

(٢) نسب قريش : ٢٤٩ - وجمهرة أنساب العرب : ١١٢.

(٣) الأغاني : ١٦٤/١٤.

وتأتي سكينة، فتشترط على زيد هذا الذي كان يأبى أن يشركه ضيف في طعام، ألا يحول بينها وبين شيء من ماله، وإلا فهي منه خلية!

وليس شرطها الثالث بأقل من هذين غرابة، فما ألف المجتمع القرشي، في جاهلية أو اسلام، أن تشترط زوجة على زوجها ألا يمنعها مَخرَجا تريده!...

أي مخرج؟...

هكذا على التنكير والتعميم، دون تحديد أو تعيين؟...

وزيدٌ حفيدُ خليفة، ومن بيتٍ هو في الصميم من قريش[1]...

وسكينةُ أختُ الإمام، وبنتُ الإمام، وسليلة النبوة!...

فلماذا تركت لزوجِها بعد كل هاتيك الشروط؟...

لو أنها اشترطت على زوجها أن تكون العصمة بيدها، ثم تحللت من عقد النكاح، لسببٍ أو لآخر — أو حتى لغير سبب — لما خرجت في ذلك على عُرْفِ القوم وتقليدِ الجماعة، أما أن تنص صراحة على أنه «إن مَسَّ امرأة سواها، أو حال بينها وبين شيء — أي شيء! — من ماله، أو منعها مخرجا — أي مخرج! — تريده، فهي منه خليّة» فذلك — إن صح — هو المزعج بالمجتمع القرشي الذي أنكرت سكينة من حاله ما أنكرت، وضاقت بما شاع فيه من غدر ونفاق، وقتل النفس — وعشرات الألوف منها — التي حرم الله الا بالحق!...

ألا ما أفدح الأثر الذي تركته محنة آل البيت في نفس هذه الأنثى الذكية الشاعرة

---

(١) انظر نسبه في «نسب قريش: ١٢٠» وجمهرة أنساب العرب: ٧٨».

بذاتها !..

ويقال إنها مرحة عابثة ، وقد نسيت كلَّ الذي كان ، وأقبلت تستبدل زوجا بزوج ، وكأنْ لم يعد يشغلها سوى متاع الدنيا؟!..

كلا...

إن الجرح كان من عُمق الغَوْرِ بحيث لا يُرَى من قرب ، ولو كان سطحيا لما خَفِيَ!..

وهذه هي ، بعد أن احتست الأتراحَ والأشجان كأسا في إثر كأس . تأبى أن تعترف بأعراف وتقاليد . لمجتمع يأكل بعضه بعضا . ويلغ في دماء آل محمد . ولما يبلَ قميصُه عليه الصلاة والسلام.

لقد صارت هذه الأعراف والتقاليد عند الهاشمية الحسناء ، عُمْلَةً زائفة لا تساوي مجردَ الالتفات إليها !...

فمن شاء أن يتزوجها . وليكن زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ، فليقبل أن تفرض عليه من الشروط ما لم تفرضه أنثى على زوج !...

ليقبل أن ينزل لها عن حريته ولو كان سيدا وابن سيد وسليل سادة...

وعن ماله ، ولو كان أبخل قرشي...

وعن مهابته ، ولو كان ابنَ عم الخليفة ، وحفيدَ ذي النورين أمير المؤمنين عثمان ابن عفان!...

ووجم المجتمع القرشي وهو يرى زيدا يقبل ، ويتزوج سكينةَ على شروطها !..

أبخل قرشي

ووجد الإخباريون في زواج «أبخل قرشي» من الهاشمية الكريمة، المُذِلة للمال، مادةَ سمر، ونوادر، وحكايات...

فهم يحكون من نوادر إهانتها للمال، أنها رئيت مرة ترمي الجمارَ، فسقطت من يدها الحصاةُ السابعة، فنزعتْ خاتما ثمينا من إصبعها ورمتْ به، بدلَ الحصاة [1].

ويحكون من نوادر بخل زيد. أنه خرج حاجا وخرجت معه سكينة ومعها خمسة أجمال محملة بأصناف الطعام. فكلما بلغ الركب منزلا، أمرت السيدة الهاشمية بالطعام وأعدت الأطباق، فجاء بعض القوم يسلمون على «زيد» فوضع يده على خاصرته فجأة وصاح متوجعا: «أوه خاصرتي!.. باسم الله ارفعوا الطعام وهاتوا الترياق والماء الحار...» فإذا انصرفوا، طلب الطعام...

وحدث مرة، وهم في السيالة، أن جاء أغيلمةُ الأنصارِ للتحية، والطعامُ مُعَدٌّ. فأمر زيد برفعه متعللاً بالألم الطارئ!

يقول أشعب. وكان يومئذ في الركب:

«ولبثنا حتى انصرفوا، ودخلنا. وقد هلكتُ جوعا فلم آكل إلا مما اشتريتُه من السوق من مائة دينارٍ أعطتني إياها السيدة سكينة. فلما كان الغد أصبحت وبي من الجوع ما اللهُ به عليم. ودعا زيد بالطعام، فأمر بإسخانه، وجاءته مشيخةٌ من قريش يسلِّمون عليه، فلمّا رآهم اعتلّ بخاصرته ودعا بالترياق والماء الحار، ورفع الطعام. فلما ذهبوا، أمر بإعادته فجيء به وقد برد. فقال لي: يا أشعب، هل إلى إسخان هذا

---

(١) الاغاني: ١٤/١٦٥.

الدجاج اسبيل؟. فقلت له : أخبرني عن دجاجك هذا ، أهو من آل فرعون فهو يُعْرَضُ على النار غُدواً وعشيا؟»[1].

تجربة فاشلة

ولم يكن من المنتظر ولا المرجو، أن تسعد سكينة بعد أن أثقلتها أعباء الأيام والليالي. وأثخنتها الجراح ، بزواج كهذا ، بل لعلها لم تكن راغبة فيه حريصة عليه ، وإنما هي تجربة جديدة ، لم تر بأساً في معاناتها. ولكن بعد ذلك ما يكون...

والأخبار عن حياتها الزوجية مع زيد العثماني ، تصورها قلقة منغصة ، وقد كثرت بينهما المغاضبة وطالت في إحدى المرات حتى بلغت سبعة أشهر. والظاهر أن زيدا تململ من القيود التي ألجمته بها زوجته ، فحاول مرة أن يتحلل من أحدها.. حدَّث أشعب[2]:

«حج سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فاستأذن زيد بن عمر سكينة في الخروج معه ، وأعلمها أنها أول سنة حج فيها الخليفة وانه لا يمكن التخلف عن الحج معه. وكانت لزيد ضيعة قربَ المدينة يقال لها العَرجُ ، وله فيها جَوارٍ حِسانٌ. فأعلمته سكينة أنها تأذن له إلا أن يخرج أشعبُ معه فيكون عيناً لها عليه ، ومانعاً من العدول إلى العرج والاتصال بجواريه في روحته أو رجعته».

فقبل زيد... وحج سليمان وانصرف من حجه ولم يسلك طريق المدينة ، وانصرف زيد يريد المدينة ، فنزل على ماء لبني عامر بن صعصعة ، ودعا أشعب ،

---

(١) الأغاني : ١٦٥/١٤ ساسي.

(٢) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسي.

وقدَّم إليه صُرَّةً فيها ٤٠٠ دينار – وكان سليمان قد أجزل لزيد العطاء – وأعلمه أنه ليس بينه وبين العرج إلا أميال ، وأن الدنانير له إذا هو أذِن له في المسير إلى العرج ولقاء جواريه هناكِ، ثم يوافيه بِغَلَسٍ وقتَ ارتحال الناس...

فأذِن له أشعب ، وأقسم له أنه سوف يحلف لسيدته بالإيمان المحرجة ، أن زيداً ما صار إلى العرج ولا اتخذ جارية لنفسه منذ فارق سكينة إلى أن رجع اليها...

وآب الحجيج إلى المدينة ، فابتدرت سكينة زوجها تسأله عن خبره. فقال وهو ينظر إلى أشعب :

– يا بنت رسول الله ، وما سؤالك إياي ولم يزل ثقتُكِ معي ، وهو أمينٌ عليٌّ ، فسَلِيه عن خبري يصدقك...

فسألت أشعب ، فأخبرها أنه لم ينكر عليه شيئا ولم يمكنه من اتخاذ جارية ، ولم يطلق له الاجتياز إلى العرج...

فلما استحلفته على ذلك ، مضى يحلف لها بالأيمان المحرجة حتى جزع «زيدٌ» نفسه ، فوثب دونه ووقف بين يدي سكينة يقول في ضراعة التائب وتوسل المُقِرِّ بذنبه :

– والله يا بنتَ رسول الله لقد كذَبكِ العلج !.. جُزْتُ بالعرج فأقمتُ هناك يوما وليلة ، واتصلت بعدةٍ من جواري ، وهأنا ذا تائب إلى الله مما كان مني ، وقد جعلت توبتي منهن ، أن أحملهن إليك عشيةَ هذا اليوم ، فبيعُهن وإطلاقُهن إليكِ ، وأنتِ أعلمُ بما ترين في العبدِ السوء – يعني أشعب».

* * *

أية زوجية هذه التي يصور لنا الرواة فيها زيد بن عمر بن عثمان ، لا يتحرك – ولو للحج ، ومع أمير المؤمنين – إلا أن تأذن له زوجته ، وبشرط أن يرافقه تابع من قبلها يكون عينا لها عليه؟ !...

ثم تصوره وهو يحتال للعدول إلى ضيعته وجواريه ، فلا يجد بدا إلا أن يُذل نفسه بالاستئذان من أشعب . مولى السيدة سكينة ، وأن يُذل غاليَ ماله بدفع أربعمائة دينار ثمنا لسكوته ، وتستره عليه ، بأيمان كاذبة؟

ثم هذا الموقف الذي وقفه بين يدي زوجته –كنص عبارة الراوي – ضارعًا مقرّاً بذنبه ، تائبا إلى الله . وجاعلا كفارةَ الذنب . جواريه جميعا يُحضرهن إلى سكينة ، ويدع لها حرية التصرف فيهن بيعا وعتقا؟ !...

وتضيف الحكاية أن «سكينة» لم تقبل توبة زوجها «زيد» ولا توبة عبد السوء «أشعب»...

أما أشعب فجعلته مُثْلَة : أمرتْه بأن يحضر الدنانير الأربعمائة التي تقاضاها ثمناً لخيانةِ ثقتِها فيه ، وبعثتْ مَن ابتاع لها خشباً بثلاثمائة دينار، واستدعتْ نجارين صنعوا من هذا الخشب صندوقَ تفريخٍ للبيض . ودفعتْ لهم أجرَهم من الدنانير المائة الباقية ، بعد أن اشترت ببعضها بَيْضاً وتِبْناً !...

وأقسمتْ بحق جَدِّها . ﷺ ، أن يحضن أشعب هذا البيض حتى يفقس...

وفعل المسكين : رقد على البيض حاضِناً ، حتى خرجت الفراريج في ساحة بيت سكينة ، فكانت تنسبها إليه وتقول : بنات أشعب ! ؟... (١)

(١) الأغاني : ١٤/١٦٠ ، ١٦١ ساسي.

وأما زيد بن عمر بن عثمان، فذهبت تستعدي عليه «عمر بن عبد العزيز» والي المدينة لسليمان بن عبد الملك...

تقول الرواية: فبعث عمر إلى زيد فأحضره، وأمر «ابن أبي الجهم الفقيه»[1] أن ينظر بينهما. وندب رجلين ليشهدا قضاءه.

وجاء زيدٌ وحدَه إلى مجلس الحكم.

أما سكينة فجاءت في موكب منْ جواريها يحملن الوسائد والفرش. فلما أَذنَ لها ابنُ أبي الجهم بالدخول وحدها، أبت أن تدخل إلاّ ومعها ولائدُها. ثم أمرتهن ففرشن لها وسادة، وهيأن مُتكئاً، وجلست، وزيدٌ منكمش قد لَصق بمقعد القاضي «حتى كاد يدخل في جوفه خوفاً منها».

قال ابنُ أبي الجهم:

«يا ابنةَ الحسين، إن الله يحب القصدَ في كل شيء!»

فردَّت عليه:

«وما انكرتَ مني؟... وإني والله وإياك كالذي يرى الشعرةَ في عين واحد، ولا يرى الخشبةَ في عين صاحبه».

قال وقد أثاره ردها:

«أما والله لو لم تكوني سكينةَ بنتَ الحسين، لَسطوتُ بك!»

وطال بينهما الأخذ والرد، حتى قال أحد شاهِدَي المجلس:

(١) أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم. انظره في «جمهرة انساب العرب ص ١٤٧».

- يا أبا بكر، ما لهذا جئنا، ولا بهذا أُمِرْنا، فانظر القضيةَ ولا تشاتم...

وإذ ذاك التفتتْ سكينة إلى مولاةٍ لها وسألتها:

- من هذا الرجل؟..

قيل: هو أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم...

فصاحت به: لا أراكَ ههنا وأنا أُشتَم بحضرتك!..

ثم صاحت: يا لَرجالِ هاشم وقريش!...

فاعتذر لها مَنْ بالمجلس...

وتكلم زيدٌ، فأبدى خضوعه لها.

قالت: ما أعرَفني بكَ يا زيد!.. واللهِ لا تراني أبدا!... أتراك تمكث مع جواريك ثم أعود إليك!..

ونطق القاضي بحكمه: «إن جاءت سكينة ببينة على دعواها، وإلا فاليمينُ على زيد...»

فكان جوابها أن التفتت إلى زيد وقالت:

- يا أبا عثمان، تزودْ مني بنظرة، فلن تراني واللهِ بعد الليلة أبدا...

والقاضي صامتٌ لا يتكلم...

وانفض المجلس. وقد أدبر النهار وجاء الليل...

وكانت ليلة شاتية، غائبة النجم...

قال الفقيه أبو بكر بن عبد الله، يُتم القصة:

«وخرجْنا فجئنا عمرَ بن عبد العزيز. فألفيناه ينتظرنا في وسط الدار، في تلك الليلة الشاتية، فسألنا عن الخبر، فأخبرناه، فجعل يضحك حتى أمسك بطنَه!... ثم دعا زيداً من غدٍ. فأحلفه وردَّ سكينة عليه»[1]

* * *

ولكنها رجعة لم تطل...

عادت «سكينة» تشق على زيد، وتُرهقه من أمره عسرا، حتى «كانت - فيما تُحدِّث الأخبار - تقول له: يا عثماني، اخرج بنا إلى مكة. فإذا خرج بها فسارت يوما أو يومين، قالت: ارجع بنا إلى المدينة. فإذا رجع يومَه ذلك قالت: اخرجْ بنا إلى مكة!»[2].

ثم استعدت عليه «سليمانَ بن عبد الملك» فقال لزيد:

«اعلم أنك قد شرطتَ لها شروطاً لم تفِ بها، فطلقْها...».

وطلقها زيدٌ بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك[3].

وآب إلى دنياه، يحصي خسائره في تلك الصفقة...

وضحكت المدينةُ كلها، وهي تحصي معه كم أنفق من مال، وكم احتمل من نَصَبٍ وإذلال، ليرجع آخرَ الأمر صفرَ اليدين من سكينة...

(١) الاغاني: ١٤/١٦٤ ساسي.

(٢) الاغاني: ١٤/١٦٣ ساسي.

(٣) وفيات الاعيان: ١/٢٩٨ وشذرات الذهب: ١/١٥٤.

وضحكتْ سكينة على هذا المجتمع الذي يضحك ، وحق له البكاء...

على أن هناك رواية ، انفرد بها «أبو عبد الله المصعب الزبيري» في خاتمة هذا الزواج .

فلقد ذكر في (نسب قريش) : أن زيدا العثماني هلك عنها فورثتْه [1] .

وذكر معه ، أن لزيدٍ أولادا من أم ولد . انقرضوا جميعا : قُتل منهم ثلاثة ، مع مَن قُتِل من بني أمية ، زمان «مروان بن محمد» آخر خلفائها .

على حين أجمع ابنُ خلكان ، وأبو الفرج الاصبهاني ، وابن العماد الحنبلي . على طلاقها منه بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك .

والأمرُ – بعدُ – غيرُ مستغرب من تناقض الروايات وتضارب الأخبار.

بل إن التوفيق هنا بين الروايتين غير متعذر ، فربما يكون زيد قد طلق سكينة بأمر سليمان بن عبد الملك ، ثم مات وهي في عدتها ، فورثتْه !

هكذا قالوا

وإنما الذي لا يهون تعليله وفهمه ، هو القول بأنها تزوجت بعد زيد . بعمر بن حكيم بن حزام...

ذكرت ذلك إحدى روايات الأغاني ، وإن اختلفت في دوره : أكان بعد زيدٍ أم قبله...

وذكرته (دائرة المعارف) في ترجمة سكينة – نقلا عن زيادةٍ لابن قتيبة في

(١) ص : ١٢٠ ط الذخائر.

(المعارف) – وإن يكن اسمه قد ورد فيها: «عمرو بن حاكم بن حزام».

ولعل الاسم في الترجمة العربية للدائرة، نُقل خطأً عن الأصل الإنجليزي وكان سبب الخطأ. تشابُه رسم حكيم وحاكم فيها:

وعمرو هذا، أو عمر. هو أخٌ لجدِّ عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام. زوجها بعد مصعب!

ولا ندري كيف أدرك سكينةَ، إلا أن يَصِحَّ في حساب هؤلاء. أن تتزوج من رجلين بينهما ثلاثة أجيال! (١).

أما المصادر الأخرى – وأذكر منها: نسب قريش. وجمهرة أنساب العرب ووفيات الأعيان، وشذرات الذهب. وكل المصادر الشيعية الحديثة التي قرأتها – فلم تشر إلى هذا الزواج بكلمة.

وقد تتبعتُ أخبار زوجات بني حكيم بن حزام في نسب قريش. فلم أر لسكينة ذكرا إلا في زواجها من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، الذي ولدت له عثمان «قرينا» وحاكماً وربيحة... (٢).

وصاحب نسب قريش هو أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، الذي يلتقي نسبُه مع نسب بني حكيم بن حزام، عند خويلد الأسدى، جد الزبير بن العوام ومصعب وجد حكيم بن حزام...

وقد أحصى نسبَ قريش. دون أن يشير إلى هذا الزواج بين حفيدة عمته ..

(١) انظر مساق نسب ولد حزام بن خويلد في نسب قريش: ٢٣١، ٢٣٢، وفي الجمهرة: ١١٣.

(٢) مثله في «جمهرة أنساب العرب: ١١٢، ذخائر».

خديجة ، زوجة عمه مصعب . والجد عمر بن حكيم بن حزام بن خويلد !

وكذلك لم يشر إلى الفتاة التي زعمتْ رواية الأغاني . أنها كانت ثمرةَ هذا الزواج !

* * *

أفندَع إذن حياة سكينة الزوجية لنمضي إلى جديد من أمرها ؟

كلا ، فما زال هناك ما يقال ...

إن الشيعة ، كما ذكرنا في مطلع هذا الفصل ، يرفضون الاعتراف بهذه الزيجات المتعاقبة ، ولا يقبلون منها غير ما ذكروه من زواجها بابن عمها الحسن ، ثم بمصعب ابن الزبير.

وعذرهم واضح . فما كانتْ هذه الأخبار في تناقضها وتدافعها واختلاطها ، بالتي تدعو إلى شيءٍ من ثقة وطمأنينة.

وقد رأيناها زوَّجت سكينةَ من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، ثم من عم أبيه : عمر بن حكيم !

وبعثت الموتى من قبورهم بعد سنين ذوات عدد ، فجعلت الربابَ أم سكينة ، ترفض زواجها من عبد الله بن مروان ، بعد قتل مصعب !

وسبقت الزمَنَ ، فجاءت على مسرح الأحداث بالأجنة في بطون أمهاتهم ، حين جعلت هشام بن عبد الملك ، الذي وُلِدَ بعد مقتل مصعب – أوكان رضيعا في عامه الأول – يتدخل في حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن ، مع سكينة ، لما أراد زواجَها بعد ترملها من مصعب بن الزبير !

فليس بالغريب أن يرفض الشيعة هذه المرويات جميعاً، وقد تعارضت فتناقضت، وكذّب بعضُها بعضاً، وجاوزت نطاق المعقول!

* * *

أما تعدد زيجات سكينة، فليس في ذاته بموضوع غرابة أو إنكار، وإن كانت (دائرة المعارف) نظرت إلى هذه المسألة بعين مريضة، وقالت في غَمْزٍ: «واشتهرت سكينة بصفة خاصة بزيجاتها المتعاقبة».

فخَصَّتْ بنتَ الحسين وسليلةَ النبوة، بتعاقب الزيجات.

وتجاهلتْ ما كان يقضي به العرف المتبع في بيئة السيدة سكينة، من إسراع الخُطّاب إليها كلما خلَتْ من زوج، حرصا على شرف المصاهرة. وما أحسب المستشرق «ماسيه» - كاتب مادة سكينة في الدائرة - قد جهل هذا العرف، أو غاب عنه - وهو يغمز - أن عقائل قريش الكريمات قد شاركن سكينةَ في هذا الذي زعمَ أنها اشتهرتْ به بصفة خاصة.

وقد صح لدينا من أخبار زوجيتها، أنها تزوجت فعلا من ثلاثة، مصعب، وعبد الله بن عثمان الحزامي، وزيد بن عمر العثماني. أما الآخرون، فلم يتم زواجها بأحد منهم، فهل يقال إن «سكينة» اشتهرت بزيجاتها المتعاقبة، لأنها تزوجتْ ثلاثَ مرات؟

من قبلها تزوجت جدتُها السيدة خديجة أم المؤمنين، باثنين من أشراف قريش، ثم تزوجت للمرة الثالثة من محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام.

وتزوجت «أسماءُ بنت عميس الخثعمية» جعفر بن أبي طالب وولدت له عبدَ

الله . صهرَ الإمام عليٌّ وابن عمه . فلما استشهد جعفر في «مُؤتة» تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمدا . ثم خلَف عليها من بعده الإمامُ عليٌّ بن أبي طالب ، فولدت له ابنَه يحيى الذي استشهد مع أخيه الحسين في كربلاء .

وعمة سكينة «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب» تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فولدتْ له زيداً . ثم خلف عليها عونُ بن جعفر بن أبي طالب . ثم تزوجها من بعده أخوه محمد بن جعفر . فلما مات تزوجها أخوه عبد الله بن جعفر بعد طلاقه لأختها [1] .

وأم الحكم ، بنت عبد العزيز بن مروان – أخت الإصبغ – تزوجها الوليد ، ثم سليمان ، ثم هشام ، بنو عبد الملك بن مروان !

وعائشة بنت طلحة ، ضرة سكينة ، توفي عنها زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر . فتزوجها مصعب بن الزبير . فلما قتل تزوجها عمر بن عبيد الله . فلما تأيمت بعده خطبها خاطبون ، لكنها ردَّتهم .

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، قُتِل عنها عبدُ الله بن أبي بكر الصديق . ثم تزوجت عمرَ بن الخطاب فقتل عنها . فتزوجها الزبيرُ بن العوام [2] .

ومثلهن كثيرات ، من عقائل هاشميات وقرشيات ، لا أحصيهن عددا ...

* * *

---

(١) جمهرة أنساب العرب : ٣٣ ط الذخائر.

(٢) نسب قريش : ٣٦٥.

المبحث الثالث

في المجتمع

شخصيتها الاجتماعية

المجتمع في عصرها

صورتها في هذا العصر

عود على بدء

كلمة يجب أن تقال

الأديبة الناقدة

الثالث

شخصيتها الاجتماعية

وأحسب أن الأوان قد آن بعد ذلك كله، لندع هذا الجانب من حياة الشريفة الهاشمية الحسناء إلى جانب آخر لم يكن أقل حظاً من اهتمام الرواة، صُنّاع الأخبار، وناسجي القصص والحكايات.

ذلك هو مكانها في الحياة الاجتماعية والأدبية لعصرها.

والذين كتبوا عن هذه السيدة الكريمة، لم يختلفوا في أنها كانت الشخصية النسوية الأولى في المجتمع الحجازي على أيامها، ولو استعرنا أسلوب عصرنا، لقلنا إنها كانت – فيما تصور المرويات والاخبار – نجم المجتمع. ولكنا نؤثر ألا نستعمل هذا المصطلح العصري الذي ابتُذل في وصف نجوم الملاهي وكواكب المحافل الساهرة، في حديثنا عن سليلة بيت النبوة وبنت الإمام الحسين. وإنما حسبنا أن نقول إنها منذ استقر بها المقام في مدينة جدّها المصطفى عليه الصلاة والسلام، استطاعت أن تنفرد بمكانة في المجتمع لم ترقَ إليها سيدة سواها.

* * *

والأنباء والمرويات عن حياتها الاجتماعية مثيرة، وفي بعضها ما لا يسهل التسليم به ولا يهون تصوره مع حفيدة الزهراء رضي الله عنها. لكننا إذا استبعدنا هذا كله – على

ما سيرى القارئ بعد حين – بقي بعده ما يؤكد أنها كانت فعلا الشخصية الاجتماعية الأولى في عصرها، وذلك لما اجتمع لها من خلايا وسجايا، جعلت لها جاذبية خاصة، لم تشركها فيها سيدات العصر، وفيهن حِسانٌ خلبن الألباب بجمالهن، وشريفات قرشيات وهاشميات، بعضُهن من سيدات البيت النبوي الكريم.

والحق أن السيدة سكَيْنة، كانت باديةَ الاعتزاز بنسبها العالي وشرفها الرفيع. وكان خصومها وخصوم آلها. يقرون لها بهذا الاعتزاز ويرونها أهلاً لأن تباهي به مَن تباهي فتُسكته. وقد مرَّ بنا كيف ردَّ حاديها على حادي ضُرَّتها عائشة بنت طلحة – حين افتخر بِجمالِها الستين – بقوله:

عـــائشَ هـــذه ضُرَّةٌ تشكوكِ لولا أبوهـا مـا اهتـدى أبوكِ!

فأمرت عائشة حاديها أن يكف، فكَفَّ!

وقد علق شيخ الإسلام «الإمام تاج الدين السبكي» على هذا الموقف فقال بعد أن نقل الخبر:

«فلله درها – يعني عائشة – حيث كَفَّتْ في موضع الانكفاف أدباً مع رسولِ الله ﷺ. فقد كان الأمر – والمفاخرةُ في الدنيا – هزلا، فقابلتْه سكينة بذكرِ رسول الله ﷺ جَدّاً، فأفحمتْ خصمها وأقامتْ عليها الحجة. فللهِ درُّها من مناظرة عرفت مواقعَ الجدل، ودرُّ عائشةَ من مُذعنة للحق منقادةٍ إلى الصدق»[1].

وفي الأخبار، أن سكينة شهدتْ يوماً مأتماً فيه بنتٌ لعثمان بن عفان، فقالت العثمانية: أنا بنت الشهيد. فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها على مسمعٍ من بنت غذيٍّ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١٦٦ . ١٦٧ ط الحسينية.

النبوة سيد الشهداء. على حين أمسكت «سكينة» صامتة لا تعلق، إلى أن أذّن المؤذن من المسجد النبوي للصلاة، فلما بلغ قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله» التفتت سكينة إلى بنت عثمان وسألتها:

- هذا أبي أم أبوك؟

فأجابت العثمانية في تواضع:

- لا أفخر عليكم أبدا (١).

وقالوا كذلك، إن «الأحوص الأنصاري» سمع «سكينة» تفخر بابيها. فجرؤ على أن يفاخرها. ويقال إنه كان يضمر لها حُبا لا يجرؤ على البوح به. قال:

فخَرَتْ وانْتَمَتْ فقُلتُ: ذَرِيني ليس جَهْلُ أتيته بِبَديعِ
فأنا ابنُ الذي حَمَتْ لحمَه الدبْرُ قتيلِ اللحيان يومَ الرجيعِ
غَسَلَتْ خاليَ الملائكةُ الأبرارُ مَيْتاً، طوبَى له من صَريعِ! (٢)

وكان جده «عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري» قد بعثه النبي في سرية إلى المشركين فقتلوه، ولما أرادوا أن يصلبوه حَمَتْه الدبرُ أي النحل، فلُقِّب بحَمِي الدبر. وخالُه، هو ابنُ عمير بن مخشي الذي استُشهِد. فقيل إن الملائكة غسّلته.

فلما فاخر الأحوص سكينة، غضب لها الناسُ وفيهم «سليمان بن عبد الملك» الذي أنكر على الأحوص. فما أنكر. ردَّه على بنت الحسين. ونفاه عن المدينة عقابا له.

---

(١) الاغاني: ١٥٩/١٤ ساسي.
(٢) الاغاني: ٢٣٤/٤ دار الكتب.

وقال قائل من القوم: «وقد لعمري فَخَر الأحوصُ بِفَخْرٍ لو على غيرِ سكينَة فَخَر به، وبأبِي سكينةَ حَمَتْ أباه الدبرُ، وغسَّلت خالَه الملائكةُ!»[1]

* * *

وكذلك عُرِفَ عنها أنها كانت تعتز بجَمالها وتَعدُّه من نِعَمِ الله عليها، وتحرص على إظهاره في أبدع مظهر، وما أناقتها المشهورة، وطُرَّتُها السكينية المبتدعة، إلا مظهَرَ اعتزازٍ بذلك الجمال وعناية به.

ولم تكن تسمح لضُرتها «عائشة بنت طلحة» أن تتطاول أمامها بما لها من حُسنٍ، بل كانت تُلَقِّنها بذاتِ الأذنين، كي تردَّها إلى شيءٍ من التواضع تجاهَها.

وقد مرَّ بنا الخبرُ عن مباهاتها بجمالِ بنتها، ومبالغتِها في تزيينها، ثم قولها: إنها ما ألبستْها الدرَّ إلا لتفضحَه!

وكانت شجاعة اللسان والجنان:

سمعت أن ابن مطير – خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم المرواني[2] – يشتم جدَّها كرم اللهُ وجهَه، من فوق منبر جدِّها عليه الصلاة والسلام، «فكانت تجيء يومَ الجمعة لتشهد صلاة الجماعة، فتقوم بإزاء الحارث إذ يصعد المنبر. فإذا شتم عَلَيّاً – كرم الله وجهَه – تصدتْ له سكينة فشتمته، ثم أمرت

---

(1) الاغاني: ٢٣٤/٤ دار الكتب وانظر ترجمة عاصم بن ثابت. جد الأحوص. وخاله ابن عمير في (الإصابة، والاستيعاب).

(2) كان الحارث واليا على المدينة لهشام بن عبد الملك، وقد عزله عنها سنة ١١٨ هـ بعد وفاة سكينة بعام. انظر تاريخ الطبري: ٢٢٨/٨.

جواريها أن يشتمنه، فلا يملك ابنُ مطير أن يردَّ عليها. بل يكتفي بأن يأمر الشرطَةَ بضربِ الجواري»[1].

ويذكرون في وصف شجاعتها حادثة عجيبة، إن يبدُ فيها عنصرُ الغلو، فذلك مما لا يضيع دلالَتها على رأي الناس في هذه السيدة الباسلة.

قالوا إن سلعة ظهرت بأسفل عينيها فما زالت تكبُر حتى أخذت جانبَ وجهها وعينها. وكان بين مواليها مولى رومي يُدعى «درافيس»، ذو خبرة بالطب والجراحة. فشكتْ إليه هذه السلعة التي تؤلمها. وتوشك أن تشوِّه جمالها. ولما سألها درافيس:

– أتصبرين على ما يَمَسُّك من الألم حتى أعالجَك؟

أجابت دون تردد: أجل.

قال الراوي: «فأضجعها درافيس. وشقَّ جلدَ وجهِها أجمع، وسلَخ اللحم من تحت السلعة حتى ظهرتْ عروقُها. وكان من السلعة شيء تحت الحدَقة، فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحيةً، ثم سلَّ عروقَ السلعة من تحتها فأخرجَها أجمعَ، وردَّ الحدقةَ إلى موضعها. وسكينةُ مضجَعةٌ لا تهتز ولا تئن، حتى فرغ مما أراد...

«وزال ذلك عنها وبرئتْ منه، وبقي أثَرٌ من تلك الجراحة في مؤخَّرِ عينِها. فكان أحسنَ شيء في وجهِها منْ كلِّ حلي وزينة، ولم يترك في نظرها ولا في عينيها أدنى أثر»[2].

وكانت آية في ضبط النفس والتحكم في عواطفها والسيطرة على وجدانها،

(١) الاغاني: ١٥٩/١٤.

(٢) الاغاني: ١٦٥/١٤ ساسي.

وبهذا الضبطِ استطاعت أن تحتفظ بمرحها في بيت أبيها رضي الله عنه كي تكون مبعث أُنس له في عوابس الظروف وحوالك الأيام. وبلغ بها هذا الضبط، أن أمضتْ حياتَها الزوجية مع «مصعب» وهو لا يدري ما تُضمره له من حُب عميق وعاطفة قوية، حتى جاء يودعها الوداعَ الأخير فصاحتْ من خلفه: واحزناه عليك يا مصعب!.. فالتفت إليها وقال في دهشة: أوَكلٌّ هذا لي في قلبِك؟... قالت: أيْ واللهِ. وما كنت أخفي أكثرَ!

وكانت كريمة تهين المال، وإن ضاق القَيِّمُ على أموالها بإسرافها في الكرم. حَجَّ أشعبُ مرةً، فأمرتْ له بجمَلٍ قوي يحمل أثقاله، فأعطاه القَيِّمُ جملا ضعيفا. فمضى أشعبُ يشكوه إلى سيدنا فأرضتْه (١).

وقد مر بنا آنفا. ما ذكروه من وقفتها بالمحَصَّبِ من مِنًى ترمي الجمارَ، فلما سقطتْ من يدِها الحصاة السابعةُ. رمَتْ خاتَمها الثمين بدلاً من هذه الحصاة!

أما نوادر ظرفها فكانت حديثَ المجتمع وروحَ مسامِره، وكان الناس يتناقلون هذه النوادر ويضحكون لها بملء قلوبهم وأفواههم، يستويّ في ذلك مَن يستطيبون النكتة وَيَهشُّون للدعابة، ومَنْ عرفوا بالحزم والرزانة. وما ظنك بعمر بن عبد العزيز في صرامة جِدِّه، ووقار هيبته، يضحك لإحدى نوادر سكينة حتى يُمسك بطنه، وهو يومئذ والٍ على المدينة (٢).

ثم قصتها مع ابراهيم بن عبد الرحمن، وحكاية «بنات أشعب»، وزدها على من

---

(١) الاغاني: ١٤/١٦٥ ساسي.

(٢) الاغاني: ١٤/١٥٩ ساسي.

سألها تكثر من المزاح وأختها لا تفعل. كل هذه الأخبار وأمثالها معها. تشهد بما كان للهاشمية الحسناء من ظرف آسر، وبديهةٍ حاضرة، واعتداد بالذات!

* * *

هكذا كانت عزة النسب. وعزة الجمال، وأناقة المظهر. وظرف السجايا. وذكاء الأنوثة، ولطف الدعابة، إلى جانب ما عرف لها من ذوق في أصيل، وفقهٍ لأسرار البيان، عناصرَ تشترك جميعا في تأليف شخصيتها الفريدة، بكل جاذبيتها وسحرها.

ثم أضيف إلى ذلك كله، هذا المزاجَ النادر من التحرر والإباء. من التسامح والتصون، من الانطلاق والترفع. فأتيح لها أن تظهر في المجتمع ملء البهاء والظرف، ملء الجلال والوقار، وتهيأ لها أن تختار أسلوبها في الحياة، متحررةً من النفاق الاجتماعي، دون أن ينالَ ذلك من مهابتها أو يلقي عليها ظلا من التهاون فيما يجب لمثلها من تصوُّن وعزة.

وقد أشرنا – في الحديث عن حياتها الزوجية – إلى دوافع ذلك التمرد على نفاق المجتمع والسخرية بأوضاعه وأكاذيبه، وربما كان من مظاهر هذا التمرد، ظهورُها في المجتمع الأدبي على نحوٍ لم نألفه من أختها وبنات عمها. ولكنها ظلت كع هذا الظهور، «بنتَ النبي»! ولم تنس لحظة، ولا نَسِيَ المجتمع، أنها سكينة بنت الحسين!

وإنها لَتُجالس الأجلة من رجال قريش. ويجتمع لديها الشعراء، وتصغي إلى المغنين، وتسيطر على المجتمع الأدبي، دون أن تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالي، أو يزايلها وعيُها لموضعها من بيت النبوة!

* * *

المجتمع في عصرها

بهذه الشخصية الفريدة الجذابة، ظهرت سكينة في المجتمع فشغَلتْ عصرَها والعصورَ من بعده.

ولن نستطيع المضي في الحديث عن سكينة في المجتمع الأدبي، قبل أن نمهد له بحديثٍ عن حال هذا المجتمع في عصرها. وهو حديث قد يطول، لكن عذرنا أن فهمه على حقيقته ضرورة، لتبين الشخصية الأدبية للهاشمية الحسناء، والمكانِ الذي شغلتْه في المجتمع الأدبي.

* * *

وقد يُخيل إلى كثير منا، أن وصفَ حال الأدب والمجتمع في الحجاز في عصر سكينة، مما لا مجالَ لمزيدٍ من القول فيه، بعد أن فرغ منه الدارسون وأضافوه إلى ذلك الصنف من الموضوعات «التي نضجت واحترقت».

ولهم في تاريخ هذا العصر ما يشبه المسلّمات التي ليس للخلافِ فيها مجالٌ.

منها: أن مجتمع الحجاز – وبخاصة في مكة والمدينة – في العصر الأموي، قد فسد وانحل، أثراً لسياسة بني أمية التي عزلتْ أبناء الأشراف من الحجازيين عن مهام الملك وشئون السياسة، وحبستْهم هنالك في فراغ يُفسِدُه الشباب، وتُفسده معه

أموالٌ أغدقها عليهم الأمويون في سخاء مسرف، وبذلك قضوا عليهم أن ينفقوا أيامهم في اللهو والعبث ويُبْلوا حياتَهم في العبث والمجون [1].

ومنها: أن تشجيع حياة المجون في العاصمتين الدينيتين للإسلام، قصد به الأمويون إلى القضاء على ما لهما من نفوذ ديني كبير وسيطرةٍ روحية نافذة، حتى جاز للاستاذ المحقق «الشيخ عبد الله العلايلي» أن يذهب إلى أن الأمويين «قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين. من بينهم عمر بن أبي ربيعة، لأجل أن يمسحوا عاصمتي الدين – مكة والمدينة – بمسحةٍ لا تليق بهما ولا تجعلها صالحتين للزعامة الدينية» وساق هنا حادثة الأخطل الشاعر النصراني، «الذي استخدموه – منذ عهدِ معاوية – في الحرب الكلامية التي أرادوا بها أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة، ليخلصوا من سيطرتها» [2].

ومنها: أن شعر عمر بن أبي ربيعة هو مرآة للمجتمع الحجازي في ذلك العصر، والمصدرُ الأول والأهمُّ لفهمه على حقيقته وتأريخه تأريخا صادقا. حتى ليقول أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين: «إن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمةَ التي أتيحت لهم، حين حفِظ الدهرُ لهم شعر عمر بن أبي ربيعة كله أو أكثره. فلست أعرف شاعراً إسلاميا استطاع أن يُمثل العصرَ الذي كان يعيش فيه والبيئة التي يحيا فيها. كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعًا في درس الجماعة التي كانت تحيط بهما: تريد أن تدرس العراقَ في صدر الدولة العباسية وأن تدرس مدينة بغداد أيامَ الرشيد والأمين خاصةً فارجع إلى أبي نواس. تريد أن تدرس حياة

(١) الدكتور طه حسين: حديث الأربعاء ١/٢٣٥.

(٢) الاستاذ الشيخ عبد الله العلايلي: أشعة من حياة الحسين: ٤٧.

الحجاز في صدر الدولة الأموية فارجع إلى ابن أبي ربيعة. وليس من شك في أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا في درس مسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وأبي العتاهية، كما أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا في درس العرجي والأحوص وابن ذريح، ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين، ما ستجده عند أبي نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها، ولا ما ستجده عند عمر بن أبي ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها. تلك نعمة يتيحها الدهر من حين إلى حين للباحثين عن التاريخ الأدبي، حين يُظهر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت إليه كلُّ الخلال كما ظهرت فيه كلُّ النقائص التي كانت تمتاز بها بيئته، والتي كانت بعيدة الأثر في عصره. وإنما يظهر هؤلاء الكتاب والشعراء في العصور التي تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة، كذلك العصر الأموي في الحجاز، وكذلك العصر العباسي في بغداد»[1].

ثم أكد هذا مرةً أخرى حين قال:

«إن المؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلةَ بين الرجال والنساء في هذا العصر، يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة، فسيجد منه في شعر هذا الشاعر كل ما أراد»[2].

* * *

هذه هي الصورة الذائعة الشائعة لمجتمع الحجاز في عصر سكينة، كما رسمها أعلام مؤرخي الأدب، وكما استقرت في أذهاننا.

(١، ٢) حديث الاربعاء: ٢٨٩، ٢٩١.

فهل كان الحجاز حقا . على ما وصفوه؟

وهل الذي قالوه وقاله عمر بن أبي ربيعة ، هو كل ما كان هناك ، ولا شيء سواه؟

نرجئ الجواب عن هذا ، ريثما نسمع ما قالوه أيضا ، في بنت الإمام!

صُورتها في ذلك العَصر

وطبيعي أن يكون وجود سكينة في هذا المجتمع ، ومعاصَرتُها لعمر بن أبي ربيعة ، كافيين لأن يلقيا على صورتها ظِلالا من ذلك كله .

فمؤرخو الأدب ، يكادون لا يرتابون في أن عمر قد تغزل فيها دون تكتم أو حذَر أو احتياط ، وأنه قد كانت له معها مواقف ، سجلها في ديوانه ، وتغنى بها المغنون والمغنيات في الحجاز وغير الحجاز ، وأشبعتْها (كتب الأغاني والأمالي) شرحاً وتفصيلاً .

فمن تلك القصائد . بائيتُه المشهورة :

قالت سكينةُ والدموعُ ذوارفٌ منها على الخَدَّينِ والجلبابِ
ليت «المغيريَّ» الذي لم أُجْزِه فيما أطال تَصَيُّدي وطِلابي
كانتْ تَرُدُّ لنا المنى أيامُنا إذ لا نُلامُ على هَوىً وتَصابِي
خُبِّرت ما قالتْ فبِتُّ كأنما يُرمَى الحشا بنوافذ النشاب
أَسُكَينَ ما ماءُ الفراتِ وطِيبُه مِني على ظمأٍ وفَقْدِ شبابِ
بِألَذَّ منكِ وإن نأيْتِ وقلما تَرعى النساءُ أمانةَ الغُيَّاب
إن تبذُلي ليَ نائلا أشفِي به داءَ الفؤادِ فقد أطلتِ عذابي

وعصيتُ فيكِ أقــاربـي وتقطعت بيني وبينُهمُ عُرَى الأسبـــاب
فتركتِني ، لا بـــالوصال مُمَتّعـــاً منهم ، ولا أسعفتِني بثوابِ
فقعـدتُ كـالمهريقِ فضلـةَ مـائِه في حرٍّ هـــاجرةٍ لِلَمْـــعِ سَرابِ

ذكرها القالي في (أماليه) والزجاج في (أماليه) كذلك ، عن الأخفش عن المبرد.

على أن «الأصفهاني» – وهو معاصِرٌ «للقالي» ، وإن تناءى بهما المكانُ ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب – قد رواها مرة هكذا :[1]

قـالت «سعيـدة» والـدموعُ ذوارف منهـــا على الخـــدين والجلبـاب

....

أ«سعيـدَ» مـا مـاءُ الفرات وطيبه مني على ظمـــأٍ وفقـــدِ شبـــاب
بـــألـــذَّ منكِ وإن نـــأيتِ وقلما ترعى النساءُ أمـــانـــةَ الغُيّـــاب

قال أبو الفرج :

«وسعيدة ، هي سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر قد تعرض لها بعد طوافه ، فقالت له : ويحك يا ابن أبي ربيعة ، ما تزال سادرا في حرم الله متهتكا . تتناول بلسانك رباتِ الحجال من قريش ! آمرُك بتقوى الله وتركِ ما أنت عليه».

قال أبو الفرج : «وإنما غيّره المغنون فقالوا : سكينة».

---

(١) حـ ١٦/١٠.

وقال أبو إسحق الحصري (ت ٤١٣ هـ) بعد أن أورد هذه الأبيات كرواية القالي: «كذَب مَنْ روى هذا الشعرَ في سكينة رضي الله عنها»[١].

وأخذ «الشيخ الشنقيطي» برأي صاحب الأغاني في أن القصيدة قيلت في سعدى هكذا:

«قالت سعيدة والدموع ذوارف»

على أنه عقب عليها بما يشير إلى أنها كانت تروى في عصر الرشيد. على أنها في سكينة بنت الحسين. قيل: «إن اسحاق الموصلي غنى الرشيدَ يوما:

«قالت سكينةُ والدموع ذوارف»

فوضع القدحَ من يده وغضب غضبا شديدا وقال: لعن اللهُ الفاسقَ ولعنكَ معه!.. فسُقِط في يد إسحاق، فعرف الرشيدُ ما به فَسَكَن ثم قال: ويحكَ، أتغنيني بأحاديثِ الفاسق ابن أبي ربيعة في بنتِ عمي وَبنتِ رسول الله؟.. ألا تتحفظ في غنائك؟.. أو تدري ما يخرج من رأسك؟»[٢].

أما الدكتور زكي مبارك، فقرر أن عمر قالها في «سكينة» أثر اجتماعه بها مع نسوة من أهل المدينة، تلبية لدعوة بعثت بها السيدة سكينة إليه مع رسول لها، وواعدته «الصورَين» مكانا، في ليلةٍ حددتْها له. وقد ذكر الدكتور مبارك مرجعه: «صاحب الأغاني، في أخبار عمر، في الجزء الأول»[٣].

---

(١) الحصري: زهر الآداب، ١: ١٠١.

(٢) الخبر في «الاغاني: ١٢/١٦».

(٣) حب أبي ربيعة وشعره: ١٩٨.

فعلق «السيد الفكيكي» على هذا بقوله :

«مع العلم بأن صاحب الأغاني لم يذكر هذا الشعر في ليلة الصورين ، وإنما ذكر شعرا آخر».

ونقول : بل قد ذكرها صاحب الأغاني في حادثة الصورين فعلا ، في الجزء الأول من الأغاني (١).

على أنه ، كذلك ، ذكر حادثة الصورين هذه بنصها في موضع آخر ، ومع شعرٍ آخر ، قال :

«اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه ، فتشوقن اليه وتمنينه . فقالت سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما : أنا لكنَّ به . فأرسلتْ إليه رسولا ، وواعدتْه الصورين ، وسمّتْ له الليلَة والوقتَ . وأعدَّتْ صواحباتها . فوافاهن عمرُ على راحلته فحدَّثهن حتى أضاء الفجرُ وحان انصرافهن . فقال لهن : والله إني لَمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ والصلاة في مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف إلى مكة وقال :

ألمْ بزينبَ إن البَيْنَ قد أفدا قَلَّ الثَّواءُ لئن كان الرحيلُ غَدَا
قد حَلَفَتْ «ليلةَ الصُّورينِ» جاهدةً وما على المرء إلا الحلفُ مجتهدا
لأُختِها ، ولأخرى من مناصِفها لقد وَجَدْتُ به فوقَ الذي وَجَدَا
لو جمع الناسُ ثم اختير صفوُهم شخصاً من الناس ، لم أعدلْ به أحدا (٢)

(١) ص ١٦١ . ١٦٢ ط دار الكتب . ولعل السيد الفكيكي رجع إلى نسخة أخرى.
(٢) الاغاني : ١/١٠٥ دار الكتب.

والسند في الروايتين واحد !..

وقد غنى بالبائية «الهذلي، والغريضُ».

وغنى بالدالية «ابنُ سريج. ومَعبد» وكذلك «الغريض ومالك» في بعض الروايات.

ثم إن أبا الفرج نفسه، عاد فذكر هذه الأبيات الدالية، مقترنةٍ بليلة الصورين، مع إضافة جديدة لم ترد في الموضعين السابقين. تلك هي أن عمر لما انصرف من اجتماع الصورين، قال داليته:

* ألمم بزينب إن البين قد أفدا *

«فلما كان بمكة قال: يا غريض، إني أريد أن أخبرك بشيء يتعجل لك نفعُه ويبقى لك ذكرُه، فهل لك فيه؟.. قال: أفعل من ذلك ما شئتَ وما أنت أهلُه. قال: إني قلتُ في هذه الليلة التي كنا فيها - يعني ليلة الصورين - شعرا، فامض به إلى النسوة فأنشِدْهن ذلك وأخبِرْهن أني وجهت بك فيه قاصدا. قال: نعم.

وحمل الغريضُ الشعرَ ورجع إلى المدينة فقصد سكينَةَ وقال لها: جُعِلتُ فِداك يا سيدتي ومولاتي!.. إن أبا الخطاب أبقاه الله وجهني إليك قاصدا.

قالت: أو ليس في خير وسرور تركته؟

قال: نعم...

قالت: وفيم وجّهك أبو الخطاب حفظه الله؟..

قال: جُعِلتُ فداكِ!.. إن ابن أبي ربيعة حمّلني شعرا وأمرني أن أنشدك

إياه...

قالت: فهاته...

فأنشدها:

• ألمم بزينبَ إن البَيْنَ قد أفدا • الأبيات

فقالت سكينة: يا ويحه!.. فما كان عليه أن لا يرحل في غدِه؟..

ووجّهت إلى النسوة فجمعتْهن وأنشدتْهن الشعر وقالت للغريض:

– هل عملتَ فيه شيئا؟..

قال: قد غنيتُه ابنَ أبي ربيعة.

قالت: فهاته...

فغناه الغريض، فقالت سكينة:

– أحسنت واللهِ وأحسَنَ ابنُ أبي ربيعة!.. لولا أنك سبقتَ فغنيتَه عمرَ قبلنا لأحْسَنَّا جائزتَك.

ثم نادت: يا بنانة، أعطيه بكلٍّ بيت ألفَ درهم، فأخرجتْ إليه بنانةُ أربعة آلاف درهم فدفعتها إليه. وقالت سكينة:

– لو زادنا عمر لزدناك».

ومع أن الجائزة تُحدد عدد الأبيات بأربعة فقط. كما لاحظ السيد الفكيكي إلا أنها جاءت في الديوان – شرح محمد العناني – بزيادة خمسة أبيات، لم ترد في

(الأغاني) مع تصريح الشارح بأنها كانت مرجعهَ ومعتمده. والأبياتُ الخمسة هي:

لَعَمْرُها ما أراني إنْ نَوىً نزحتْ أو دام ذا الحبُّ إلا قاتلي كَمَدَا
بكر دَعَا فأتى عَمْداً لشقوته ما جاء مِن ذاك إن غَيّاً وإن رشدا
مَنْ يَنْهَ يُعْصَ. ومن يُحْسَد. ولا وأبي ما ضَرَّها مَنْ وَشَى عندي ومَن حَسَدَا
هذا يُقَرِّبُه منها وعِبْرتها يوم الفراق فما راعى ولا اقتصدا
وقد نهيتُ فؤادي عن تطلُّبِها فأغَشَّني وأتى ما شاء معتمدا!

ورفض السيد الفكيكي هذه الأبيات.

ورفض معها القولَ بأن الدالية قد قيلتْ في سكَينة، ولم يرد اسمُها قط في بيتٍ منها. وإنما هي عنده في «عائشة بنت طلحة المخزومية، وهي بنت أخت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وكانت تسْكن المدينة. ولا يبعد أنها كانت من جملة النسوة في ليلة الصورين إن صحّت الرواية، ذلك لأن عمر بن أبي ربيعة قال فيما قال فيها:

يا أُمَّ طلحةَ إن البينَ قد أفدا قلَّ الثواءُ لئن كان الرحيلُ غدا
أَمْسى العراقيُّ لا يدري إذا برزتْ مَن ذا تَطَوَّفَ بالأركانِ أو سَجَدا

فأنت ترى أن مطلع تلك الأبيات وهذه واحد. لولا اختلاف الكناية عن اسمها. تهيُّبا من غضبِ فتيانِ بني تيم الذين تَوعَّدوه»(١).

وقصيدة ثالثة، رواها «أبو علي القالي» في أماليه هكذا:

إن طيفَ الخيال حينَ ألَمّا هاجَ لي ذكرةً وأَحْدَثَ هَمّا

---

(١) السيدة سكينة: ٣٢ - والأبيات في ديوان عمر، ص ١٤٠.

جَدِّدي الوصلَ يا «سكين» وجُودِي لِمُحِبٍّ. رحيلُـه قـد أَحَمَّـا
ليس بين الرحيـل والبينِ إلّا أن يَرُدُّوا جِمالَهم فتزمّـا
ولقـد قلتُ مخفيًـا لغريضٍ: هـل ترى ذلك الغزالَ الأَجَمّـا
هل ترى فوقَه من الناس شَخصاً أحْسَنَ اليومَ صورةً وأَتَمّـا
إن تُنِيلي أَعِشْ بخَيْرٍ وإن لم تبـذلي الودَّ متُّ بـالهمِّ غَمّـا

وقال أبو علي: إنها من شعر عمر في سكينة [١].

وكذلك جاءت في الديوان، برواية أبي علي.

غير أن «أبا العلاء المعري» روى البيتين الأولين هكذا:

ودِّعي القلب يا «قريب» وجودي لِمُحِبٍّ فراقُـه قـد أحَمّـا
ليس بين الحيـاة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتزمّـا [٢]

وكذلك رواها أبو الفرج، بلفظ «قريب»:

إن طيف الخيـال حين ألمّـا هـاج لي ذكرةً وأحـدَثَ همّـا
جَدِّدي الوصلَ يا قريبُ وجودي لمحبٍّ فراقُـه قـد أَلَمّـا
ليس بين الحيـاة والموت الا أن يردوا جِمالَهم فتزمّـا
ولقـد قلت مخفيـا لغريض: هل ترى ذلك الغزالَ الأجمّـا
هل ترى مثلَه من الناس شخصا أكمل الناس صورةً، وأتَمّا [٣]

---

(١) الامالي وسمط اللآلي: ٢/٣٠٥.

(٢) رسالة الغفران. تحقيق بنت الشاطئ: ٥٣٩ ط خامسة ذخائر.

(٣) الاغاني: ١٢١/١ دار الكتب.

وأعاد رواية بيتين منها في موضع آخر. عمن تدعى أم إسحاق: «سمعت ابنَ سريج على أخشب مِنىً غداةَ النَّفْرِ وهو يغني:

جَدِّدي الوصلَ يا قريب وجُودي لِمحبٍّ فراقُـــه قـــد ألَمّـــا
ليس بين الحيـــاة والموت الا أن يردوا جِمالَهم فتزمّـــا

فما تشاء أن تسمع من خِباء ولا مضرب حنيناً ولا أنيناً، إلا سمعتَه!»[1]

ثم أعادها بمثل هذه الرواية في موضِعٍ ثالث. من أخبار «ابن سريج» ثم أضاف هذا الخبر:

«أُنشِدَ جعفرُ بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام قولَ عمر:

ليس بين الحيـــاةِ والموتِ إلا أن يردوا جِمالَهم فتزمّـــا

فطَرِبَ وارتاح وجعل يقول: لقد عَجّلوا البَيْنَ!.. أفلا يُوكون قِرْبة؟ أفلا يُودِّعون صديقا؟.. أفلا يَشُدُّون رَحْلا؟.. حتى جَرَتْ دموعُه»[2].

وأنكر «السيد الفكيكي» على جامع ديوان عمر أن يأخذ برواية القالي ويدع رواية الأغاني التي كررها في ثلاثة مواضع، ثم تساءل السيد:

«وهل من المعقول يا ترى أن يُنشَد الإمام الصادق عليه السلام ما تغزل به ابنُ أبي ربيعة في عمة أبيه فيطرَب ويرتاح؟.. وهل من الحق أن نتصوره أقلَّ من هارون الرشيدِ وقد غضب. في مجلس طرَبه، غضبا شديدا، على إسحاق الموصلي حينما غنى

(١) الاغاني: ٢٩٣/١ دار الكتب.
(٢) الاغاني: ٣٠٥/١ دار الكتب.

بين يديه بقوله عمر حسب الرواية المغلوطة

« قالت سكينة والدموع ذوارف »

* * *

ومقطوعة رابعة لعمر. قيل إنها – هي الأخرى – في سكينة بنت الحسين :

أحب لِحبِّكِ من لم يكنْ صَفِيّاً لنفسي ولا صاحبا
وأبـذل نفسي لمرضاتكم وأعتب مَنْ جـاءكم عـاتبا
وأرغبُ في وُدِّ من لم أكن إلى ودِّه قبلكم راغبا
ولو سلك النـاسُ في جانب من الأرض واعتزلتْ جانبا
لَيمّمْتُ طيّتهـا ، إنني أرى قربَها العجَبَ العاجبا
فما ظبيـةٌ من ظبـاءِ الأراكِ تقرو دَميثَ الرُّبَى عـاشبا
بـأحسنَ عنهـا غـداةَ الغميم وقـد أبـدتِ الخـدَّ والحاجبا
غـداةَ تقولُ على رِقْبـة لخـادِمهـا : يـا احْبِسي الراكبا
فقـالت لها : فيمَ هـذا الكلام؟ وأبـدَتْ لها عـابسا قـاطبا
فقـالت : كريمٌ أتى زائرا يمرُّ بكم هكـذا جـانبا !..
شريفٌ أتى ربعَنـا زائر فـأكرَهُ رجْعَتَـه خـائبا

غنى في أبياتها الأول والرابع والخامس « ابنُ القفاص المكي » [١] .

وقد أنكر « السيد الفكيكي » أن تكون قيلت في سكينة بنت الحسين ، وظنها من

(١) الاغاني : ١٦٣/١ .

مفتريات الدكتور زكي مبارك، الذي قال في دعواه إنه اعتمد في هذه الأخبار على الأغاني وزهر الآداب والأمالي[1].

قال:

«ونحن أيضا رجعنا إلى هذه الموضوعات الأدبية وغيرها من المصادر المعتبرة، وأمهات الكتب في لغة العرب وآدابها ومختلف تواريخها... فلم نعثر على ما عثر عليه الدكتور مبارك بأن هذه المقطوعة قالها ابن أبي ربيعة في سكينة، ولم يذكر الأغاني من هذا الشعر سوى بيتين هما:

أحب لحبكِ من لم يكنْ صَفِيّـــاً لنفسي ولا صاحبـــا
وأبـــذل مـــالي لمرضاتكم وأعتب من جـــاءكم عـــاتبـــا

كما أن مَن عُني بجمع شعرِه وشرحه من الأدباء. لم يذكروا ما ذكره الدكتور...»[2].

وأقول: إن الأبيات وردت كاملة في (الأغاني) بالنص الذي أثبتناه هنا. نقلا عن طبعة دار الكتب.

وقد جيء بها عقب البائية:

«قالت سكينة والدموع ذوارف»

في سياق الشعر الذي قاله عمر في سكينة، وصُدِّرت بعبارة: «وقال فيها» عَوْداً بالضمير إلى سكينة.

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره: ١٩٣.

(٢) السيد توفيق الفكيكي: السيدة سكينة: ٤٣.

ولكن الحق أيضا أن القصيدة لم ترد في كل النسخ الخطية للأغاني ، وإنما نُقلت في طبعة دار الكتب عن المخطوطة التيمورية. ولعل سقوطها من بعض النسخ ، هو الذي جعل السيد الفكيكي يؤكد «أن صاحب الأغاني لم يأتِ منها بغير بيتين اثنين. ودون أن يشير إلى أنها قيلت في سكينة».

* * *

وهذه الصورة لسكينة ، تلتئم مع صورة عصر يمثله شعرُ عمر بن أبي ربيعة ، كما قال قائلون. فليس شيء من هذا الذي قيل في بنت الحسين بمستبعد. إن صحَّ ما ذكروا من أن المجتمع الحجازي قد أباح لعمر أن يُطلق لسانَه في شريفات قريش غيرَ متحرج ولا هَيّاب ، وصدَقَ ما ذهبوا إليه من أن تغزل عمر بإحدى هؤلاء. كان شهادة معترفا بها لصاحبتها بالحسن والجمال ، تحرصُ كلُّ حسناء على الظفر بها وتتكلف في سبيلها ما يباح وما لا يباح ، حتى ليقال إنِ الثريا بنت علي «سمعتْ قولَ عمر في رملة :

وجلا بُرْدُهـا وقـد حَسَرَتْـهُ نورَ بَـدْرٍ يضيء للنـاظرينـا!

فقالت : «أفٍّ له ما أكذبَه!.. أَوَ ترتفعُ حسناءُ بصفتِه لها بعد رملةَ...».

ورملةُ هذه هي بنت عبد الله بن خلف ، تزوجها عمرُ بن عبيد الله بن معمر. فلما تزوج عليها عائشةَ بنت طلحة بعد مقتل مصعب ، قال الشاعر:

انعَمْ بعـائشَ عيشاً غيرَ ذي رنق وانبـذ برملةَ نبذَ الجورَبِ الخَلِقِ

وقالت له عائشة يوما في لحظة صفاء : اعدد لي أيامك واذكر أفضلها. فعدَّ لها يومَ أبي فديك ويومَ سجستان ، ويومَ قطري بفارس. ونحو ذلك. لكن عائشة

استدركت عليه قائلة : «قد نركتَ يوما لم تكن في أيامك هذه أشجعَ منك فيه !..» سألها : «وأي يوم هو؟..» قالت : «يومَ أرختْ رَملةُ السترَ عليها وعليك !..» [1] .

وسكينة قد كانت سيدة نساء عصرها ملاحة وظرفا وأناقة ، فربما يؤذي جمالَها – عند هؤلاء – أن يسكت عُمَرُ فلا يمنحها الشهادةَ الرسمية المعترف بها وحدها في سوق الجمال ، بعد أن أقر له الشعراء بأنه أوصفُهم لِربّات الحجال.

ثم إن شعره في سكينة ، ليس فيه من الفُحش ما يُقاس إلى شعره في أخريات من حِسان ذلك العصر. حيث جعل مخادعَهن – لا البيوت فحسب – ميدانا لمغامراته الغرامية ، ولن أنقل هنا رائيته في النوار:

رَاحَ صَحْبـي ولم أُحَيِّ النوارا وقليـــــــلٌ لو عَرَّجوا أن تُزَارا

وإنما أنقل هنا قصيدَتَه القافِيَّة في إحدى شريفات المجتمع :

ولَمّـا التقيْنا واطمـأنتْ بنا النوَى وغُيِّبَ عنـــا مَنْ نخاف ونُشفِقُ
فقُمْـنَ لكي يُخليننـــــا فترقرقتْ مـدامِـعُ عينيهـا وظَلّتْ تَـدَفّقُ
وقالت : أما تَرْحمني ! لا تَدَعْنَني لــذي غزلٍ جَمٍّ الصبابـةِ أخرَقُ
فقلن : اسكُتي عَنّا فلستِ مُطاعَةً وخِلُّك عنا . فاعلمي ، بِكِ أَرْفَقُ !

وداليتَه في هند بنت الحارث المرية :

ولقـــد قـــالتْ لِجـــاراتٍ لها ذاتَ يومٍ ، وتَعَرَّتْ تبترِدْ
أَكَمَــــــــا يَنعتُني . تُبْصِرنني عَمْرُكُـنَّ اللهَ . أم لا يَقتصِدْ

---

(١) الاغاني : حـ ١١ ص ١٨٠ وما بعدها – ط دار الكتب.

فتهـــاتفن وقـــد قلن لها: حَسَنٌ في كـــدٍّ عينٍ مَنْ تَوَد
حسدٌ حُمِّلنـــــه من أجلهـــا وقـديما كـان في النـاس الحسد

أجل، أي شيءٍ فيما يَروون من تغزله بسكينة، يقاس بهذا الذي نقلت أقلّه وأمسكتُ عن أكثره!..

وأي ضير عليها. وهذا المجتمعُ الذي عاشت فيه قد طاب له - فيما قالوا - أن يصغي إلى معازف المغنين وحناجر المغنيات، وهي تنطلق في مهد الإسلام ودار الهجرة، شاديةً بغزل عمر في بنتِ الحسين، وأختِ عبد الملك وبنته، وامرأة سهيل ابن عبد العزيز بن مروان، وعائشة بنت طلحة، ولبابة بنت عبد الله بن عباس... ومَنْ لا أحصي هنا من أسماء العقائل الكريمات!؟

بلى. إن صورة سكينة في هذه الأخبار والأشعار، تأتلف مع صورة المجتمع الحجازي في عصرها كما تَمَثَّلَهُ أعلامُ مؤرخي الأدب.

على أن صورتها عندهم لن تكتمل، إلا إذا أضفنا إليها هنا، مجالسَ الطرب والغناء التي قيل إنّ «سكينة» كانت تعقدها في مجلسها بدار الهجرة، على بُعد خطوات من مثوى جَدِّها الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام. في مسجده الشريف:

من تلك المجالس. ما رواه صاحب الأغاني عن المغنين الأربعة المقدمين في عصر سكينة: ابن سريج. والغريض، ومعبد الحجازيينَ، وحُنين الحِيريِّ العِراقي. قيل إنّ الثلاثة الحجازيين اجتمعوا يوما فتذاكروا أمر حنين الحيري وكتبوا إليه يقولون: نحن ثلاثةٌ بالحجاز وأنت وحدك بالعراق، فأنتَ أوْلى بزيارتنا. فشخص إليهم، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبرُه فخرجوا يتلقونه فلم يُرَ يومٌ أكثرَ حَشْراً ولا جمعا من

يومئذ. ودخلوا المدينة فلما صاروا في بعض الطرق، قال لهم معبد: صِيروا إليَّ. فقال ابنُ سريج: إن كان لك من الشرفِ والمروءة مثلُ ما لمولاتي سكينة بنت الحسين عطَفنا إليكَ. فقال: ما لي من ذلك شيءٌ.

وعدلوا إلى منزل «السيدة سكينة» فلما دخلوا إليها أذِنَتْ، للناس إذناً عاما، فغصت الدارُ بهم وصعدوا فوقَ السطح. وأمرتْ لهم بالأطعمة فأكلوا، ثم إنهم سألوا حُنيناً أن يغنيهم صوتَه الذي أولُه:

هَلاَّ بكيت على الشباب الذاهبَ وكففتَ عن ذمٍّ المشيب الآيب

وكان حنين قد قال لهم: ابدءوا أنتم. فقالوا: ما كُنا لِنتقدَمَك، ولا نغني قبلَك، حتى نسمعَ هذا الصوت.

فلما غناهم إياه، وكان من أحسن الناس صوتا، ازدحم الناسُ على السطح وكثُروا ليسمعوه، فسقط الرواقُ على مَن تحته، فسَلِموا جميعا وأُخرِجوا أصحاء، غيرَ «حنين» فإنه مات تحت الهدم.

وقالت السيدة سكينة:

– لقد كَدَّرَ علينا حنينٌ سرورنا!.. انظرناه مدةً طويلة، فلما جاء مات، كأَنا والله كنا نسوقُه إلى مَنِيته [١].

ومجلس آخر رواه صاحب الأغاني قال:

«كان ابن سريج قد أصابته الريح الخبيثة وآلى يمينا ألا يغني. ونسك ولزم

---

(١) الاغاني حـ ١٥ ساسي – وانظر معه ما في (عيون الاخبار: ٤/٩٠).

المسجد الحرام حتى عوفي. ثم خرج وفيه بقيةٌ من العلة، فأتى قبرَ النبي ﷺ وموضعَ مُصَلاَّه. فلما قدم المدينةَ نزل على بعضِ إخوانه من أهلِ النسك والقراءة، فكان أهلُ الغناء يأتونه مسلمين عليه فلا يأذن لهم بالجلوس والمحادثة. فأقام بالمدينة حَوْلاً حتى لم يعد يُحِسُّ من علته بشيء. وأراد الشخوصَ إلى مكة. وبلغ ذلك السيدةَ سكينةَ بنت الحسين رضي الله عنه، فاغتمتْ اغتماما شديدا وضاق به ذرعُها. وكان «أشعبُ» يخدمها، وكانت تأنس بمضاحَكتِه ونوادره. فقالت لأشعب: ويلكَ!.. إن ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول، ولم أسمع من غنائه قليلا ولا كثيرا، ويعزُّ ذلك عليَّ، فكيف الحيلةُ في الاستماع منه ولو صوتا واحدا!

فقال لها أشعب: جُعِلتُ فداكَ، وأنّى لكِ بذلك والرجلُ اليومَ زاهدٌ ولا حيلةَ فيه؟ فارفعي طمعَك وامسَحِي بُوزَكِ تنفعْك حلاوةُ فمك!

فأمرتْ بعضَ جواريها فوطِئْنَ بطنَه حتى كادت أمعاؤه أن تخرج، وخنقتْه حتى كادتْ نفسُه أن تتلف. ثم أمَرتْ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُخرِجَ من الدار إخراجاً عنيفا على أسوأ الحالات، واغتمَّ غما شديدا، وندم على ممازحتها في وقت لا يصلح لذاك.

ومضى حتى أتى منزل «ابن سريج» ليلاً فطرقه، فقيل من هذا؟.. فقال: أشعب. ففتحوا له، فرأى ابنُ سريج على وجهه ولحيته التراب، والدمَ سائلا من أنفه وجبهته، وثيابه ممزقة. فهال ابنَ سريج ما رأى، وسأله: «ما هذا... ويحك؟..»

فلما قصّ أشعب عليه القصةَ، قال له: إنا للهِ وإنا إليه راجعون، الحمدُ لله الذي

سَلْمكَ!.. لا تعودَنّ إلى هذه السيدة أبدا.

قال أشعب : فَديْتُكَ... هي مولاتي ولا غنى لي عنها. ولكن هلْ لك حيلةٌ في أن تصير إليها وتغنيها فيكون ذلك سببا لرضاها عني؟..

قال ابن سريج : كلا والله ، لا يكون ذلك أبداً بعد أن تركتُه !

قال أشعب متوسلا : قد قطعت أملي ورفعت رِزقي وتركتني حيرانَ بالمدينة لا يقبلني أحدٌ وهي ساخطة عليّ ، فاللهَ فاللهَ فيّ ، وأنا أنشدُكَ اللهَ. إلا تحملتَ هذا الإثم فيّ !

فأبى ابنُ سريج أن يجيبَ.

ولما رأى أشعب إصرارَه ، صرخ صرخةً آذن لها أهل المدينة ، ونبّه الجيرانَ من رُقادِهم. ثم سكَت فلم يَدْرِ الناس ما القصةُ عند خفوتِ الصوت الذي راعهم.

وسأله ابن سريج : ويلك !.. ما هذا؟

فأجاب متوعدا : لئن لم تَصِرْ معي إليهَا لأصرخنّ صرخةً أخرى لا يبقى بالمدينة أحدٌ إلا صار بالباب ، ثم لأفتحنه ولأُرِيَنّهم ما بي ، ولأعْلِمنّهم أنك أردتَ سوءا بغلامك - وكان ابنُ سريج مشهوراً بذلك - فمنعتُك وخلّصت الغلامَ من يديك حتى فتح البابَ ومضى ، ففعلتَ بي هذا غيظاً وأسفا ، وأنك إنما أظهرتَ النسكَ والقراءَةَ لتظفر بحاجتك من الغلام...

فقال ابنُ سريج في جزع : أعزبْ أخزاكَ اللهُ...

فأقسَمَ أشعب بكلِ الأيمان لئن لم ينهضْ معه ابنُ سريج في وقته هذا ، لَيفعلَنّ ما

به أنذَرَ...

وإذ رأى ابنُ سريج منه الجدّ، خرج معه فلما صاروا في بعض الطريق، عاد يرجوه أن يمضي عنه ويدعه لشأنه، فقال أشعب مهددا:

- والله لئن لم تأتِ معي لأصيحَنّ الساعةَ حتى يجتمع الناس، ولأقولَنَّ انك أخذتَ مني سوارا من ذهب لسيدَتي سكينة، على أن تجيئها فتغنيها سِرّا، ثم كابرتَني عليه وجحدتَني وفَعلتَ بي هذا الفعلَ...

فمضى معه ابنُ سريج مستسلما ضائعَ الحيلةِ، حتى جاءا بيتَ السيِّدة سكينة فأذنتْ لهما في الدخول، وقالت لابن سريج:

- يا عبيد. ما هذا الجفاء؟

قال: قد علمتِ - بأبي أنتِ - ما كان مني...

قالت: أجل...

ثم تحدثا ساعة، وقصَّ عليها ابنُ سريج ما صنع به أشعب. فضحكتْ وقالت: «لقد أذْهَبَ ما كان في قلبي عليه» وأمرتْ لأشعب بدنانيرَ وكسوة.

ثم قال لها ابنُ سريج: أتأذنين لي بأبي أنتِ؟

قالت: وأين؟

فقال: إلى المنزل.

قالت: برئتُ من جَدِّي إن برحتَ داري ثلاثاً، وبرئتُ من جدي إن أنت لم تغنِّ إن خرجتْ من داري شهرا، وبرئتُ من جدي ان أقمت في داري شهرا إن لم

أضربْك في كلٍّ يومٍ فيه عَشْراً ، وبرئتُ من جَدِّي إن حنثتُ في يميني أو شفَّعتُ فيك أحداً.

صاح ابنُ سريج مستسلما : واذهابَ دِيناه !.. وافضيحتاه !..

ثم اندفع يغني :

أستعينُ الذي بِكَفّيه نفسي ورجائي ، على التي قتلتْني

فنزعتْ سكينة من عَضُدها سواراً من ذهب ، زِنَتُه أربعون مثقالا ، وأقسمتْ عليه إلا لَبسه ، ثم بعثتْ أشعبَ إلى «عزة الميلاء» تخبرها بوجود ابن سريج عندها وترجوها في ان تزورها.

فما أسرع ما جاءت عزة ، وأقامت ليلَتَها ببيتِ السيدة ، فلما كان اليوم الثاني هيِّىء مجلسُ الغناء ، وقالت سكينة :

– يا عَزّة ، إن رأيتِ أن تغنينا فافعلي...

فغنتْ عزةُ لحنَها في شعر عنترة العبسي :

حُيِّيتَ مِنْ طللٍ تقادَمَ عهدُه أقوى وأقفرَ بعد أمِّ الهيثمِ
إن كنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنما زُمّت ركابُكم بليلٍ مظلم

فهتف بها ابنُ سريج : أحسنتِ واللهِ يا عزة.

وتزعت سكينةُ سوارَها الثاني وطلبت إلى عزة أن تلبسه ، ثم قالت لابن سريج : غَنِّنا...

قال : حسبُكِ ما سمعتِ البارحةَ...

قالت : لا بد أن تغنينا في كلِّ يومٍ لحناً ،

فلمأ رأى أنه لا يقدر على الامتناع ، غنَّى :

قالتْ من أنتَ على ذكرٍ فقلتُ لها : أنا الذي ساقه لِلْحَيْنِ مقدارُ
قد حان منك – فلا تبعدْ بك الدارُ – بَينٌ ، وفي البَيْنِ للمتْبولِ إضرارُ

وفي اليوم الثالث ، غنّت عزة لحنها في شعر الحارث بن خالد :

وَقرّت بها عيني وقد كنتُ قبلَها كثيرَ بكاء مشفقا من صدودها

قال ابنُ سريج : واللهِ ما سمعتُ مثلَ هذا قط حُسناً ولا طِيبا .

ثم أمرتْه سكينة فغنى :

أرِقْتُ فلم أنَمْ طربا وبِتُّ مُسَهّدا نَصَبا
لطَيْفِ أحبِّ خلقِ اللهِ إنسانا ، وإن غَضبا
فَلم أردد مقالَتها ولم أكُ عاتباً عتبا
ولكن صرّمت حبلي فأمسى الحبل منقضبا

فقالت سكينة : قد علمتُ ما أردتَ بهذا ، وقد شفّعناك ولم نَرُدَّكَ ، وإنما كانت يميني على ثلاثةٍ فاذهبْ في حفظِ الله وكلاءته .

وأمرت له ولعزةَ بحُلّتين»

* * *

أما وقد اكتملت صورة الهاشمية الحسناء في إطارِ العصر الذي يمثله غزلُ عُمَر فيما قالوا ، والذي أوجب عميدُ مؤرخي الأدب علينا أن نرجع إلى ديوانه إذا شئنا أن

نفهم المجتمع الحجازي على حقيقته ، وأن ندرك حقيقة الصلة بين الرجال والنساء فيه .

أما وقد اكتملتْ هذه الصورة ، فإن لنا بعد ذات وقفةً هنا . نحاول فيها أن نتبين وجه الحق في كل هذا الذي قيل...

* * *

(١) الاغاني : ١٢٥/١٥ ساسي.

عود على بدء

ونجرؤ بادئ ذي بدء . على معاودة النظر في تلك المسَلَّمات التي قررت أن المجتمع الحجازي قد كان حقا على ما يصوره غزَل «عمر» وأمثالِه .

وليست رغبةُ الدفاع عن بنت الحسين . هي التي تدفعنا إلى هذه المعاودة ، بقدر ما يفرضها علينا الحرص على الحق كيف كان .

أصحيح أن المجتمع قد انصرف عن الاشتغال بالأمور العامة التي أبعِد عنها عمدا ، وعكف على حياته الخاصة يبليها في العبث والمجون؟..

بعض هذا يمكن أن يقال . بل كله أيضا يمكن أن يقال في طائفة بعينها من الشباب المترفين . لو أحصيناهم في كتب التاريخ الأدبي لما جاوزوا العشرات .

وبقيت إلى جانبهم كثرة جادة ، شاركتْ في الحياة العامة ، فكريا وسياسيا وحربيا مشاركةً وعاها التاريخ .

ومن الإسراف أن يقال إن الحجاز كان بمعزل عن الشؤون الكبرى للدولة على النحو الذي وصفه مؤرخو الأدب ، في تعليلهم لشيوع المجون وازدهار فن الغناء فيه ، وإن الواقع التاريخي لَيشهد بأن الحجاز كان أيضا مركز المعارضة القوية التي دوَّخت الأمويين وكلفتهم أفدح الأثمان ، ولم تمكنهم من الأمر إلا بعد أن رَجَموا الكعبة

بالمنجنيق. وقد اعترف الأستاذ الدكتور طه بأن «الشباب الحجازي جاهَدَ جهادا عنيفا في سبيل الاحتفاظ بمنزلته التي تركها له أصحاب النبي ﷺ، فما كانت ثورة ابن الزبير، وما كانت ثورة الحرة، وما كان خروج الحسين بن علي إلا مظهرا لهذا الجهاد... ولكن هذا الشباب الحجازي لم يوفق»

ومع التسليم بأن هذه الثورات المتابعة قد أخمِدتْ. إلا أن من الحق أن نذكر أن ثورة ابن الزبير مثلا، لم يُقضَ عليها إلا سنة ٧٣ هـ، أي بعد توبة عمر بن أبي ربيعة، التي تابها وهو في الأربعين من عمره على ما قال مؤرخوه، والمعروف أنه وُلِدَ في أخريات ذي الحجة من سنة ٢٣ هـ - يوم مقتل الفاروق عمر بن الخطاب - فيكون قد بلغ الأربعين في سنة ٦٣ هـ، والحجازُ كله يناصب بني أمية العداء ويأبى أن يقر لهم بالخلافة، وحركةُ ابن الزبير في عنفوانها، وستظل كذلك إلى عام ٧٣ هـ، أي بعد توبة عمر بنحو عشر سنين.

فكيف يهون التسليم بأن عمر يمثل المجتمع الحجازي في تلك الفترة، وأن الحجاز على عهده كان بمعزل عن الحياة العامة، منصرفا إلى اللهو والمجون؟.. وأي شيء تكون حركة «ابن الزبير» التي استمرت بعد توبة عُمَرَ نحو عشر سنين، تقضُّ مضاجع الأمويين وتحبسهم في الشام وتزلزل الأرض من تحتهم؟.. أي شيء تكون هذه الحركة التي كانت غولا، فيما وصف أستاذنا الشيخ الغلاييني «وكادت تبتلع الدولة الأموية والعنصر الأموي»[1].

ووقعة الحرة، التي أشار اليها أستاذنا الدكتور طه، قد كانت في سنة ٦٣ هـ وفيها

---

(١) أشعة من حياة الحسين: ٢٨.

بلغ «عُمَر» الأربعين من عمره، واختتم مرحلة المجون والطيش. أوكما قالوا: «ختم عهدَ الفتكِ وبدأ عهدَ النسك»[1]

فإطلاق القول بأن الحجاز لم يشارك في الحياة السياسية، زمانَ الأمويين، يجب أن يؤخذ في كثير من التحفظ والحرص. وإلا فقد كان الحجاز، إبان عمر وأمثاله، مركز المعارضة القوية التي تزعمها الإمامُ الحسينُ، ثم عبد الله بن الزبير من بعده، وقد وقفت مكة تجاه الأمويين في دمشق، موقف الخصم العنيد، وثبتت في المعركة سنينَ عددا قبل أن تُهزَم بعد حِصَار مُجهدٍ[2]. كما ظلَّ لها بعد ذلك كله، نفوذُها الروحي يبسط ظِلّه على الدولة الكبرى.

وكان هذا النفوذُ من العوامل التي قضت آخر الأمر على دولة بن أمية، وأقامت الدولة العباسية على دعوة دينية، تَرُدّ الأمر إلى أصحابه من آل البيت...

وازدهار الغزل والغناء في مكة والمدينة في ذلك العصر. أمرٌ لا نملك أن نشك فيه، ولكن الذي نشك فيه، هو أن هؤلاء الشعراء الغزليين، يصورون بشعرهم الماجن حياةً ماجنة!..

أصحيح أن الحجاز كان إذ ذاك «قد أُسلمَ إلى طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين. من بينهم عمر، استأجرهم الأمويون للقضاء على النفوذ الروحي الخطِر. لعاصمتي الدين» على ما ذهب إليه الأستاذ الشيخ العلايلي؟[3].

لا سبيل إلى إنكار أن السلطة الدينية للحجاز كانت خطرا يقدره الأمويون. لكن

(١) الاغاني: ١/٧٧ ط دار الكتب.

(٢) تاريخ الطبري: الجزء السابع ط مصر.

(٣) أشعة من حياة الحسين: ٢٩.

تقديرهم لخطر النفوذ الديني للحجاز، لم يكن بحيث ينسيهم أنهم بعد في حاجة إليه لقيام الدولة التي ورثت ملكَ الأباطرة والأكاسرة والفراعين باسم الإسلام، فالقضاء على الحرمة الدينية لمكة والمدينة، يؤدي في الوقت نفسه إلى القضاء على الدولة التي يتولى بنو أمية أمرها. والثابت تاريخياً أن الأمويين كانوا يعتمدون على عصبية القبيلة في منازعتهم لبني هاشم، لكن هذا لم يُغنهم قطّ عن الاعتماد على الصفة الدينية في مواجهة الأعداء المتربصين على الحدود، وفي استنفار المسلمين للجهاد، في بلاد الروم والمغرب الافريقي.

وقد ظل الخلفاء منهم حريصين على الخروج إلى مكة في موسم الحجّ عاما بعد عام، استظهاراً بهذه القوة الروحية التي كانوا في حاجة إليها وهم يحكمون ويحاربون ويفتحون باسم الدين الإسلامي. والأستاذ العلايلي يعرف قبل أن أعرف، أن القولة الخبيثة «بأن المروانيين فكروا في صرف الناس عن المقدسات الإسلامية التي تنزل من الإسلام منزلةَ الشعيرة، بإنشاء المسجد الأموي بأبهته العظيمة في دمشق، وان هذه أيضا كانت نية عبد الملك بن مروان بأناقته في تشييد المسجد الأقصى» هذه القولة الخبيثة لم يقلها إلا عدو الإسلام «الأب لامانس اليسوعي» ولم يؤيدها بشاهد أو نصٍّ. فخوف الأمويين من نفوذ مكة والمدينة الروحي، يجب ألا يبعد بنا إلى ذلك الظن المتمادي، بل يجب ألا ينسينا حاجتهم إلى الاستظهار بما يخافون منه. كما أن التسليم بأنهم مَكَّنوا لأبناء المهاجرين والأنصار من حياة الفراغ والترف، لا يجوز ان يذهب بنا بعيدا إلى القول باستئجار طوائف المخنثين والشعراء الماجنين لإفساد مكة والمدينة، وإلا فقد كان من هؤلاء الشعراء. مَن هو من صميم بيوت الأنصار وحزب الإمام علي، كالأحوص، وعبيد الله بن قيس الرقيات.

وحكاية يزيد والأخطل، لا تعين على ما ذهب اليه الأستاذ العلايلي، فما هي إلا حكاية فردية كان «يزيد» فيها موتورا لا بادئا واترا. هي كما رواها المبرد في كتاب الكامل: «أراد عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أن يكيد له فشبّب بأخته رملَةَ بنتِ معاوية وقال فيما قال:

رملَ هل تذكرينَ يومَ غزالٍ إذ قطعنا مسيرَنا بالتمنّي؟
إذ تقولين: عمرَكَ اللهُ هلْ شيءٌ وإن جَلْ، سوفَ يُسْليكَ عني؟

فغضب يزيد، وأمر كعبَ بن جعيل التغلبي بهجاء الأنصار...

فقال كعب: أأهجو الأنصارَ؟... أرادّيَ أنتَ إلى الكفر بعد الإسلام؟.. ولكنْ أدُلُّكَ على غلام من الحيِّ نصراني، كأن لسانَه لسانُ ثور - يعني الأخطل - فما كاد الأخطل يقول رائيته المشهورة، في هجاء الأنصار:

خلُّوا المكارمَ لستمُ من أهلها وخذوا مَساحِيَكم بني النجارِ
ذهبتْ قريشٌ بالسماحةِ والندى واللؤمُ تحت عمائم الأنصار

حتى ثار الأنصار مُغضَبين، ودخل النعمانُ بن بشير الأنصاري على معاويةَ فحسر عمامتَه عن رأسِه ثم قال: يا معاوية، أترى لؤما؟ فقال: ما أرى إلا كرما. واستطرد النعمانُ منشدا:

معاويَ إلاّ تُعْطِنا الحقَّ تَعترِفْ لِحَيٍّ الأزْدِ مسدولاً عليها العمائمُ
أيشتمُنا عبدُ الأراقم ضَلَّةً فماذا الذي تُجْدِي عليكَ الأراقمُ؟
فما ليَ ثأرٌ دونَ قطعِ لسانِه فدونَكَ مَنْ تُرضِيه عنكَ الدراهمُ

قالوا: فأمر معاوية بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانَه، لولا أنه استجار بيزيد. فما

زال بالنعمان يسترضيه ويعتذر إليه حتى كفَّ...»[1]

فالقصة - كما رواها المبرد - لا يمكن أن تنهض دليلا على دعوى عامة، تقول بأن الأمويين منذ عهد معاوية كانوا يستأجرون الشعراء للقضاء على الطبقة الدينية في المدينة. بل لعلها أولى بأن تشهد بأن النفوذ الديني للأنصار، كان من القوة بحيث يغلب سلطانَ بني أمية، ويجعل شاعراً مثل كعب. يأبى أن يجيب يزيد. ويرى في هجائهم رِدَّةً إلى الكفر بعد الإسلام، كما تشهد بأن معاوية لم يرضَ قط عن موقف يزيد. بل أمر بأن يدفع الأخطلُ إلى النعمان ليقطع لسانَه.

ولست أدري كيف فات الأستاذَ العلايلي مثلُ هذا، وإنه لَيعلم أن الإباحية الماجنة لم تقتصر على المدينة ومكة، بل توغلت في دمشق ذاتها. ولم يَعصَم منها أمثالُ يزيدَ بن معاوية، والوليدِ بن يزيد. فهل يا ترى استأجر أهلُ مكة والمدينة، مَن أغرى خلفاءَ بني أمية بالمجون والعبث؟..

وهل استأجروا «الأحوصَ الأنصاري» ليقول في عاتكة بنت عبد الله بن يزيد ابن معاوية، زوجة عبدِ الملك بن مروان:

يا بَيْتَ عاتكةَ التي أَتعزَّلُ حذرَ العِدا، وبه الفؤادُ مُوكَّلُ
إني لأمنحك الصدودَ وإنني قسماً إليك، مع الصدودِ. لأمْيَلُ[2]

أو هل استأجروا «وضّاحَ اليمن» ليقول في «أم البنين» ما قال مما ننقل بعضَه في فصل يلي؟

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل: ٦/٢ ١ وما بعدها.
(٢) سمط اللآلي للبكري: ١٥٩/١.

وماذا عن غزل عمر نفسه، بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وأخته، وغيرهما من سيدات البيت الأموي؟

* * *

إن المجون قد استشرى فعلا في الحجاز، لكنه استشرى كذلك في الشام، ورأيناه يستشري من بعد في بغداد. والأستاذ الدكتور طه نفسه يقرر «أن شباب الحجاز لم يكن يلهو إلا بمقدار وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود، أما شباب بني أمية فلم يكد يعرف اللهو حتى اندفع فيه إلى غيرِ حَدٍّ، لا يخشى مراقبةً ولا يحفِلُ بسلطان»(١).

ولو كان الخلفاء هم الذين يُغرون شبابَ الحجاز بالمجون ويُعينونهم عليه، لما كان ثمة خوفٌ يَعصمُهم من مجاوزة الحدود، ولَفَرَضَ الخلفاء رقابَتَهم الصارمةَ على شباب بني أمية، كي يَعصموهم - لا شباب الحجاز - من مجاوزة الحدود!

وقد نُقلتْ إلينا فعلاً، أخبارٌ تشهد بأن خلفاء بني أمية كانوا يتدخلون أحيانا، ليردعوا شعراءَ الغزلِ الماجن في الحجاز، إذا تمادوا في عبثهم وجاوزوا الحدودَ، وأن أهل المدينة أنفسهم كانوا يلجأون إلى الخليفة الأموي أحيانا، ليحمي نساءهم من ألسنة الشعراء.

ففي رواية لمحمد بن سلام، نقلها أبو الفرج في أغانيه: «ان الأحوص كان ينسب بنساءٍ ذواتِ أخطارٍ من أهل المدينة، ويتغنى في شعره مَعْبَد ومالك، ويشيع ذلك في الناس فنُهِيَ فلم ينته، فَشَكَوْه إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة، وسألوه

(١) حديث الاربعاء: ٢٣٧.

الكتابَ فيه إلى سليمان ، ففعل . فكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ، ويقيمه على البلس [٢] للناس ، ثم ينفيه إلى دهلك – وهي بلدة حَرِجة حارة ، تقع في جزيرة في بحر اليمن ، بين بلاد اليمن والحبشة ، وكانت منفى لمن يسخط عليه بنو أمية – فنفذ الوالي أمر سليمان في الأحوص ، ولبث الشاعر في منفاه طوال عهد سليمان ، فلما مات وخلفه عمر بن عبد العزيز من بعده ، كتب إليه الأحوص يستعطفه ويستأذنه في القدوم ، ويمدحه بقصيدة استشفع فيها بما بينهما من قرابة فقال :

أيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ هُـــدِيتَ ، أميرَ المؤمنين رسائلي
وقلْ لأبي حَفْصٍ إذا ما لقيتَه لقد كنت نَفّاعا قليلَ الغوائل
وكيف ترى للعيشِ طيباً ولذةً وخالُك أمسى مُوثَقاً في الحبائل

«وأتى رجالٌ من الأنصار عمرَ بن عبد العزيز ، فكلموه في الأحوص ، وسألوه أن يدعه يخرج من منفاه ، وقالوا له فيما قالوا : قد عرفت نسبه وموضعَه وقديمه ، وقد أُخرِجَ إلى أرض الشِرْك ، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله ﷺ ودارِ قومه . فسألهم عُمَر : فمن الذي يقول :

فما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبهتَ حتى ما أكادُ أُجيبُ !

قالوا : الأحوص ...

قال : فمن الذي يقول :

أَدُورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتِكم ما دُرْتُ حيثُ أدورُ

(١) البلس جمع البلاس ، وهو البساط من شعر – معربة .

وما كنتُ زوّارا ولكنَّ ذا الهوى إذا لم يزر لا بـد أنْ سيزورُ

قالوا: الأحوص...

قال: فمن الذي يقول:

كـأن «لُبْنَى» صبيرُ غـاديـة أو دميـةٌ زُيِّنَتْ بها البِيَـعُ
اللهُ بيني وبين قَيِّمِهـا يفرُّ مني بها، وأتَّبِـعُ

قالوا: الأحوص...

قال عمر: بلى، اللهُ بين قَيِّمها وبينَه، فمن الذي يقول:

ستَبْلَى لكم في مُضْمَرِ القلبِ والحَشا سَريرةُ حُبٍّ يومَ تبلَى السرائرُ

قالوا: الأحوص

قال: إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول، واللهِ لا أرده ما كان لي سلطان. فبقي هناك إلى ما بعد وفاة عمر»[1]

وما دام كتاب «الأغاني» هو مرجعنا الأول في أخبار شعراء المجون بالحجاز في النصف الأول من العصر الأموي، فيجب ألا نقبل مروياته عن عَبث عمر وأضرابه، إلا ومعها المروياتُ الأخرى التي تدل على تحرج المجتمع الحجازي من إسراف المسرفين منهم، وتدخُّلِ خلفاء بني أمية، حين يجاوزُ إسرافُهم الحدودَ.

* * *

وأيّاً ما كان حال ذلك المجتمع، فليس يهون علينا أن نتصور أن الصلة بين رجاله

(١) الاغاني: ٢٤٨/٤ ط الدار.

ونسائه يجب أن تُلتمس عند زعيم الغزليين عمر بن أبي ربيعة. فإن مجتمعا هبط من التحلل إلى ذلك الحضيض الداني، وتهاون في عفة النساء وطهارة الأرحام إلى حد الإهدار، وأباح لمثلِ عمرَ بن عبد العزيز ومصعب بن الزبير، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أن يتزوجوا من معشوقات ابن أبي ربيعة وبطلات مغامراته، مجتمع كهذا لا يمكن أن تسمح له الحياةُ بالبقاء، أو يأذن له التاريخ بمكان فيه ولو على الهامش.

وأيا ما كانت عزلةُ المجتمع الحجازي عن الشئونِ العامة للدولة، فإن هذه العزلة المُدَّعاةَ، لم تُعطلْ صلاتِ المصاهرة ما بين الشام والحجاز. ومن شاء فليرجع إلى (نسب قريش) ليقَف على مدى نشاط هذه المصاهرة التي ربطت خلفاء بني أمية ببنات هاشم رباطاً لا ينفصم، ووصلتْ ما بين الحجاز والشام بالصلة التي لا تنحل، وساطت دماءهما حتى ما تتزايل. وقد بلغت الدولة العربية في النصف الأول من العصر الأموي أوْجَ قوتها، فكيف يَصِحُّ في المنطق أن تقوم لهذه الدولة قائمة، لا تحميها من أعدائها فحسب، بل تُمكِّنُ لها من غزو القسطنطينية وفتح المغرب الإفريقي، وهي التي أتلفها التحللُ، وطاب لها أن يشهر «عمر» بخير نسائها، وأن يرفع المغنون عقائرهم بغزَلياته فيهن، في البلد الحرام مهد الإسلام، وفي المدينة دار الهجرة، قبل أن يبلى قميصُ رسولِ الله ﷺ!

لقد صدَّقنا أن الخصومة الحزبية كانت تتخذ من أعراض النساء هدَفا للكيد وسلاحا في المعركة، صدقنا أن يقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ما قال في رملة بنت معاوية، وربما أمكن كذلك أن نصدق أن يقول عبيد الله بن قيس الرقيات، في أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وزوجة الوليد بن عبد الملك، من قصيدة له

يمدح بها مصعب بن الزبير:

ألا هزأتْ بنـــا قرشـ ـيــــةٌ يهتزُّ موكبُهـــا
رأتْ بـي شَيْبــــةً في الرأ سِ مني مـــا أعيبهـــا
ومثلكِ قـــــد لهوتُ بها تمامُ الحسنِ أعيُنُهـــــا
لها بَعْـــــلٌ غيور قـــا عِـدٌ بــالبــاب يحجُبُهـا
يراني هكـــــــذا أمشي فيُوعِــــدُهـــا ويَضرِبها
ظللتُ على نمارِقهـــــا أُفَـــــدِّيها وأَخلبُهـــا
أحـــــــدثها فتؤمن لي فـــأَصْدُقُهـــا وأكـذبُهـا
فـدعْ هـــذا ولكنْ حـــا جـــة قـــد كنت أطلبهـــا
إلى أمِّ البنين متى يقرِّبها مُقَرِّبُهـــــــــا
أتتْني في المنــــــام فقلـ ـت هـــذا حين أعقبهـــا
فلما أن فرحتُ بها ومـــال عليَّ أعـــذَبُهـــا
شربتُ بريقِهـــــا حتى نهلتُ وبِتُّ أشربُهـــا
وبتُ ضجيعَهـــــا جـــذلا نَ تعجبني وأعجبهـــــا
فكـــانت ليلـــةً في النو مِ نسمرهـــا ونلعبُهـــا

....

أجل ربما أمكن أن نصدق أن عبيد الله قال هذا في أم البنين . ثم عاد فأرضاها «وبلغ منها مبلغا حسنا حتى شغُفت به وكسبت له أمانَ عبد الملك بن مروان» بشفاعة لديها من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب!

ولكن الذي لا يهون أن نصدقه ، أن يدع المجتمع الإسلامي عمرَ بن أبي ربيعة

يُشهّر بشريفات بني هاشم وعقائل قريش وبناتِ الأئمة والخلفاء. عن غير خصومة حزبية، وأن يبيح له أن يجعل من بيوتهن، بل من مخادعهن، مجالاً لمغامراته، ثم يطرب المجتمع إذ يسمع المغنين والمغنيات يشدون بهذا الغزل الماجن!

كلا وكلا...

وإنما الذي يصح عندنا، هو أن غزلياتِ عمر وأمثاله، كانت هزلا لا شيء من الجد فيه، وأن مغامراته وقصصه الغرامية كانت من نسج الخيال وليست من الواقع في شيء. وقد عرفه مجتمعه يقول ما لا يفعل، فتركه يهذي بالشعر كما شاء، دون أن يخطر له أن بنات هاشم ونساء قريش، قد شُغفن به حبا، وأَبَحْنَه ما لا يباح!

وإذا كان «عمر» قد اختار أسماء غاداتِ عصره وحسانَ مجتمعه لقصصه وقصائده، فما كان هذا الصنيع بالذي يمس سمعتهن أو يؤذي كرامتهن في مجتمع يعرف «عمر» شاعرا يهيم في وادي الخيال، يتصيد منه مشاهد وصوراً ليست من الواقع في شيء أو بعض شيء، ومن ثم لم تضق الحسان باختيار عمر أسماءهن في قصائده التي مجّد فيها الجمالَ وهام بالحسن، بل ربما وجدن في ذلك الصنيع مظهرَ اعترافٍ بجمالهن، وإعلانٍ عن ملاحتهن، وهن مطمئنات إلى أن المجتمع لا يأخذ قصص عمر مأخذ الجد، ولا يسيء الظن بمن اختار عمرُ اسمَها لقصيدةٍ من قصائده.

وأي حسناء لا يغرها الثناء؟

أي حسناء لا يزدهيها، أن يقترن اسمُها بمثلِ قول عمر:

ذاتُ حُسنٍ إن تَغِبْ شمسُ الضحى فَلَنَا من وجهها عنها خَلَف!
أجمع الناسُ على تفضيلها وهواهُم في سوى ذاكَ اختلفْ

أي حسناء، لا يطربها أن تردد معازف المغنين اسمَها في مثل قوله:

ليت هنـدًا أنجزتْنـا مـا تَعِـدْ وشَفَتْ أنفسَنـا مِمّـا تَجِـدْ
واستبـدَّتْ مرةً واحـدةً إنما العـاجزُ مَنْ لا يستبـد!

مجرد أسماء، حَفَّ بها جمالُ مَنْ يحملنها، وهن بمنأى عن الريبة وسوء الظن.

أجل مجرد أسماء، وربما هام عمر مع خياله واشتط به الوهم، فتمثل صاحبة الاسم في جوه العابث، وتمادى في الخضوع لسيطرة شخصيتها الحقيقية على خياله، فجاءت صورتها في قصصه، تَشِي بمعالم هذه الشخصية الحقيقية، وإذ ذاك كان المجتمع ينكر ويغضب، ويوقفه عند حَدِّه، فيقف!

فَعَلَ ذلك حين هدده بنو تيم بالشرِّ، لما رأوا في تغزله باسمِ عائشةَ، ملامحَ من بنتِ طلحة...

وفعل ذلك حين هدده بنو أمية بالويل، عندما رأوا في تغزله باسمِ فاطمة، ملامحَ بنتِ عبدِ الملك!

واستحيا عمرُ من قدامة بن موسى، حين شاقه أن يرى أختَه زينب، بعد أن تغزل باسمها على السماع...

وأقسمت «الثريا بنتُ علي» للوليد بن عبد الملك أن عمرَ كان عفيفا، وهو الذي ملأ ديوانه باسمِها، وترك للرواة من بعده أن ينسجوا من قصائده فيها أقاصيص وحكايات!

وكفَّ عن التعرض لزوجة أبي الأسود الدؤلي، وكانت جميلة، فأراد أن يكلمها فعاتبه أبو الأسود مرةً، فلما عاد زجره بقوله:

وإني لَيُثنيني عن الجهــلِ والخَنَـا وعن شتمِ أقوامٍ خلائقُ أربـع
حيـاءٌ، وإسلامٌ، وبُقْيَـا، وأنني كريمٌ ومِثلي قـــد يضرُّ وينفـــع
فشتّـــانَ مـــا بيني وبينك أنني على كـلِّ حـال أستقيم وتظلَـع

فلما لم يَرْعَوِ «عُمَر» واعترض زوجةَ أبي الأسود حين عادت إلى المسجد، خرج معها أبو الأسود مشتملا على سيفٍ، فما كاد «عمر» يراهما حتى أعرض عنها متمثلا:

تعدو الذئاب على مَن لا كِلابَ له وتَتّقِي. صولةَ المستأسِدِ الحامي [1]

كلا... لم يكن المرعى مباحا لعمر يقول فيه ما يقول ويفعل ما يفعل، دون أن يتصدى له مَن يزجره ويرده إلى التزام الحدود فيرعوي، ولو لم يرعوِ لخرج له بنو تيم وغيرُ بني تيم بالسلاح، ولأنْفَذَ الحجاج وغيرُ الحجاج وعيدَه فيه، أو لاستعدى أهلُ الحجاز عليه الخليفةَ بدمشق، كما فعلوا حين شبّب الأحوصُ بنساءِ المدينة – عن غيرِ صلةٍ – ونُهِيَ فلم ينتهِ.

كما لم يكن المرعى مباحا لغيرِ عُمَرَ من شعراء الغَزَلِ الماجن، وقد نقل الأستاذ الدكتور طه قصة «وضّاح اليمن» الذي دُفن حيّاً، بعد أن تغزل بأم البنين...

وأشفق الحارث بن خالد المخزومي [2] من الزواج بعائشةَ بنتِ طلحة بعد أن تغزل فيها، حتى لا تقول قريش إن غزله فيها كان لريبةٍ [3].

وكاد ابنُ أبي ربيعة نفسُه، يلحق بالأحوصِ. لولا أن تداركتْه رحمةٌ: ففي

(١) الاغاني: ١/١٤٨.

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة المخزومي.
انظر نسبه وحديثه مع عائشة، في (نسب قريش: ٣١٣).

(٣) الاغاني: ٣/٣٢٧ دار الكتب – وانظر معه (نسب قريش: ٣١٤).

أخبارهم أن سليمان بن عبد الملك حَجَّ بالناس وهو خليفة، فاستدعى عمر وسأله: ألستَ القائلَ:

فكم من قتيلٍ ما يُباءُ به دَمٌ ومِنْ غَلِقٍ رَهْناً إذا لفّه مِنى
ومِنْ مالىءٍ عينيه من شيء غيرهِ إذا راح نحو الجمرة، البيضُ كالدُّمى
أوانسُ يَسْلُبْنَ الحليمَ فؤادَه فيا طولَ ما شوقٍ ويا طولَ مُجْتَلَى!

قال: نعم. قال سليمان: «لا جرم واللهِ لا تحضر الحجَّ العامَ مع الناس...» وأخرجه إلى الطائف[1]

* * *

لكن المأساة أن أكثرنا قد صدّقوا كلَّ ما قال عمر، وصدقوا معه أولئك القصاصين الذين راحوا ينسجون الحكايات حول هذه القصيدة أو تلك من غزلياته، «وهي قصص لا نشك في أنها اختُرِعت بأخرَة» كما قال الأستاذ الدكتور طه حسين بحق.

وقد عاد بعد الذي قرره وأكده من تمثيل شعر عمر لعصره، ولصلة النساءِ بالرجال في مجتمعه، عاد يؤكد أن «صلةَ عمرَ بأختِ عبدِ الملك وبنتهِ، وبسكينةَ بنتِ الحسين ولبابةَ بنتِ عبدِ الله بن عباس. وعائشة بنتِ طلحة، كانت طاهرةً كلَّ الطهر، بريئةً كلَّ البراءة من الإثم... كانت لفظية لا غير»[2].

على حين أخذ «الدكتور زكي مبارك» كل هاتيك الأخبار والقصص والمغامرات

(١) الاغاني: ٦٨/٩ الدار.
(٢) حديث الاربعاء: ٢٩٥.

أخْذاً لَمّا. وصدَّقها غيرَ مرتابٍ فيها ولا مُتَظَنِّن. يقول عن عمر بن أبي ربيعة:

«... بلى إنه رجل خليع، وفاتنُ المنظر أخاذ، فلا بد أن يكون شعره كذلك فاتنا أخاذا. وضاحك الثغر بسام، فيجب أن يكون شعره كذلك ضاحكا بساما...

«ألا فليَخلُ شِعرُهُ من التوجع، وليَسْلَمْ نَسِيبهُ من الجزع، ولْيترك الهَمَّ لقومٍ سواه، فما كان بالمحزون ولا المهموم.

«علامَ يصف الليلَ ويشكو كواكبَه البطيئة ونجومَه المشكولة وفجرَه المفقود، وما كان الرجل في التفاف النساء حولَه وإقبالهن عليه. بالذي... فلقد كانت تعده المرأةُ بالزيارةَ في جُنْحِ الليل، فلا تكاد تصل إلى منزله حتى تجدَ غيرَها قد سبقَتْها إليه، فتعود آسفة حزينة!

«علامَ يشكو البينَ، وما روَّعه نذيرٌ بالفراق إلا بشّره بشيرٌ بالتلاق؟ أم كيف يُبْكيه الوداعُ وهو الذي ما شَيَّعَ حبيبا إلا استقبل حبيبا. ولا غابت عنه شمسٌ إلا أشرقت عليه شمس!»(١)

* * *

وماذا عن «سكينة بنت الحسين؟»

ماذا عنها، بين «أخبار الملاح» في حديث زكي مبارك عن «حب ابنِ أبي ربيعة وشعره»؟

بدأ فقال:

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره: ١٨١

«لا يغضب قومٌ إن ذكرنا أنها كانت – في عفافها – نَزِقةً طائشة، تؤثر الخِفة على الوقار، وتهوى أن يخلُدَ حسنُها في قصائد الشعراء...

«... وما أظن هذه السيدة سَلِمَتْ في صِلتها بابنِ أبي ربيعة، من متورع برميها على طُهرها بالخلاعة والمجون...»

ثم قرر – قبل أن يجرد قلمَه لرسم صورتها – أنه يضمر الحبَّ والإجلال لتلك السيدةِ النبيلة. لماذا؟ «لأنها قدَّرت نعمةَ الله عليها فدلَّتْ وتاهتْ بما وُسِمَتْ به من الملاحةِ والجمال، وعاشتْ في رعاية الحُسن والحُبُّ غيرَ حافلة بأوضاع الاجتماع، وكان فيها بلا ريب ما ينهى مثلَها عن التبذل في مخالطة المغنين وملابسة الشعراءِ»(١).

وآية إجلاله لتلك السيدة النبيلة، وحبِّه إياها، أنه تحدث عن بيتها بما يؤذن أنها جعلت منه ملاذَ متعةٍ للشعراء الماجنين: «فكانت سلسة الذوق في اختيار الوصائف، وكان بيتُها لذلك خفيفَ الظلِّ على الأدباء والشعراء(٢)».

ثم تمادى به القولُ فجعلها – جعل بنتَ الحسين – مرفِّهة تجعل «بيتها مألفا للمغنين. وتؤثر ترفيهَ الناس بما تستطيع تقديمَه إليهم من مُتَع الغناء...».

«ولو صَحّتْ قصةُ الفرزدق معها، لكانت دليلا على تسامح تلك السيدة وغَفْرِها تهافتَ الشعراء على ما كانت تملك من المولدات الحسان، والشاعر لم يخلق إلا لِيَشقى بالحسنِ ويتعذب بالجمال، وبقدر إحساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره: ١٨٣.
(٢) حب ابن أبي ربيعة وشعره: ١٨٨.

وعِلمها بما كُتِبَ عليهم من سَفَهِ المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت إخلاصَهم لِمَا خُلِقُوا له من عبادة الطرف الساحرِ والقَدِّ الرشيق ! » [1]

ثم ماذا؟

ماذا بعد المرفِّهة !

بعده ما عِفَّ قلمُ الدكتور زكي مبارك نفسُه عن ذكرِهِ ! ! فذلك حيث يقول :

« ولها مع ابنِ سريج أخبارٌ رأينا أن نضرِبَ عنها صَفْحاً لما في مقدماتها من مآثمَ تقفُ عندها حدودُ الأدب المكشوف ! » [2]

ثم كانت خاتمة حديث الدكتور عن السيدة التي أجلّها : « وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباءُ الأقدمون ، أما صورتُها في رءوس الصوفية ، فهي صورةُ القديسة التي تسيطر على الأرض والسماء ، وكلٌّ حزبٍ بما لديهم فرحون » .

وهي خاتمة تتسق مع المقدمة التي بدأ بها الحديث عن بنتِ الحسين قائلا :

« وأشرنا في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) عند الكلام عن الباطنية ، إلى أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا أثرا للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشرق ، والفاطميون في الغرب ، وان الدعاة نجحوا في حشْوِ تلك الرءوس الجوفاء (!) بالخرافات والوساوس والأضاليل ، وضرَبْنا المثلَ بالمعبوداتِ الصغيرة التي تسكنُ سماءَ القاهرة من عِتْرةِ سيدنا الحسين ! »

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٨٧ .

(٢) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٩١ .

وصورة السيدة سكينة في رءوس المسلمين (الجوفاء) هي بعض هاتيك الخرافات والأضاليل...

أما صورتها التي جرَّد الدكتور زكي مبارك قلَمه لرسمها، صورة المرفَّهة، فهي «صورة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ، ولو كُتب عنها فصلٌ في مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية، لَتَلَقَّاه أهلُ الغرب بالقبول، وعَدُّوا حياتَها المرحة دليلا على تأصُّلِ الحضارة في تلك الأسرة التي سادت الشرق زمناً غير قليل!»

يعني: الأسرة النبوية!

ووالله إنه ليظلم الغرب بهذا...

وإلا فلو أن مثل هذه الصورة التي رسمها لسكينة، نُشرت في مجتمع هوليوود ومونمارتر، لعُدّت دليلا على مدى هبوطه وانحلاله، وما قضية المجلة الأمريكية التي نشرت بعض فضائح غواني هوليوود، عنا ببعيد...

لكنها عند «الدكتور زكي مبارك» دليلُ تأصُّل لحضارة في الأسرةِ الهاشمية النبوية!

وهي، كذلك، دليلُ جاهٍ للطبقة العالية من قريش، أما العامة والمغمورون فشأنهم غير ذلك.

نقل الدكتور زكي مبارك في كتابه، أن رجلا من بني جُمَحَ وُلِدَتْ له جارية حسناء، فقال: كأني بها وقد كبرتْ فشبّب بها عمر بن أبي ربيعة وفضحها ونوَّه باسمِها كما فعل بنساء قريش، والله لا أقِمتُ بمكة! ورحل بابنته إلى البصرة، ليتقي

لسانَ عمر! (١)

ويجوز في منطق الدكتور، أنْ لو كان ذلك الأبُ علويا شريفا. لطرب لغزلِ عُمَرَ في نساء بيته، كما زعموا أن الإمام جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام، أُنشِدَ إحدى غزليات عمر - المقول في روايةٍ أنها في سُكَينة - فطرب وارتاح، حتى إذا بلغ قولَ عمر:

ليس بين الحيـــاةِ والموتِ إلا أن يَرُدُّوا جِمالَهم فترمّـــا

جعل الإمام الصادق يقول: عَجِّلوا البَيْنَ، أفلا يُوكون قِرْبة؟ أفَلا يودِّعون صديقاً؟ أفلا يشدون رحلا؟.. حتى جرت دموعه! (٢)

وكذلك كانت هذه الصورة التي فتنت الدكتورَ زكي مبارك، سِمَةَ الحرائر عنده!

أما الإماءُ المغنيات فلهن صورةٌ أخرى، يُمثِّلها عنده الخبرُ الذي نقله من كتاب الأغاني عن «جميلة» المغنية «أنها لما قضت حجّها سألها المكيون أن تجلس لهم مجلسا، فقالت: للغناءِ أم للحديث؟ قالوا: لهما جميعا. فقالت: ما كنت لأخلطَ جِداً بهزْلٍ. وأبتْ أن تجلس للغناء. فقال عمر بن أبي ربيعة: أقسمتُ على من كان في قلبِه حبٌّ لاستماع غنائها، إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج».

وتبعوها إلى المدينة، حين أصرت على ألا تخلط جِداً بهزل، فتجلس للغناء في مكة وقد سَعَتْ إليها حاجّة!

ولو كانت حرة شريفة، كبنت الحسين، لكان لها شأن آخر...

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره: ١٢٨.
(٢) الاغاني: ١/١٧١ دار الكتب.

ولا تعجب إذ يتمثل «الدكتور زكي» السيدةَ سكينة: «نَزِقَةً طائشة، متبذلةً في مخالطةَ المغنين وملابَسةِ الشعراء، حريصة على الترفيه عنهم» وفي أخبارها أن زوجها مصعباً دخل إليها مودِّعاً، حين تهيأ للخروج إلى عبد الملك، فصاحتْ من خلفه: واحزناه عليك يا مصعب! فالتفت إليها وقال: أوَكلٌّ هذا لي في قلبك؟ قالت: أي والله! وما كنت أخفي أكثر! فقال: لو كنتُ أعلم أن هذا كله لي عندك لكانت لي ولك حال.

أجل لا تعجب، فقد مُسِخت القيَمُ عند صاحب «حب ابن أبي ربيعة» وانعكست الأوضاعُ في تقديره، فصار هذا الضبطُ العاطفي - حتى في مخدع الزوجية - دليلَ نَزَقٍ وطيش. مثلُه مثلُ التبذُّل الماجن الذي عدَّه مظهرَ أصالةٍ في أسرة سكينة، والتحرج الخاشع الذي عدَّه سِمَةَ القيانِ الإماء. في جميلة المغنية.

ولا تسأله أين كان بنو هاشم، وأين كان الإمام زين العابدين، وعمرُ يرفع عقيرتَه بالغزل في سكينة، وبيتُها قد صار «مألَفاً للمغنين ملاذا للشعراء المخلصين لما خُلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق» فمِثْلُ الإمام زين العابدين، عنده، مَنْ لا يغضب لأختِه حين غَضِب «ابنُ أبي عتيق» - فيما نقل الدكتور(١) - لابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية، لما تغزل فيها عمرُ على السماع، فردَّ عليه عمر:

لا تَلُمْني عتيقُ حسبي الذي بي ... إن بي يا عتيقُ ما قد كفاني
لا تَلُمْنِي وأنتَ زيَّنْتَها لي ... أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسان

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره: ٥٣.

ومثلُ بني هاشم وآل البيت ، من لا يغضبون لابنتهم كما غضب بنو تيم بن مرة ، وولدُ طلحة بن عبيد الله ، لأختِهم عائشة ، وتوعّدوا عمرَ إنْ هو تغزل بها أن يؤدِّبوه ، فأقسم لهم بالله ألا يَذكرَها في شعرٍ أبدا...

مثلُهم من لا يغار على سكينة ، كما غار أبو الأسود الدؤلي على زوجته ، أوكما غار الحجاج بن يوسف الثقفي على فاطمة بنت عبد الملك – وليستْ من ثقيف – فكتب إلى عمرَ يتوعده بكلٍّ مكروه إن ذكرها في شعره...

أجل ، لا تسأله عن هذا ، فإنما يُسألُ مَنْ يُحاسبُ قلمَه ، ويتقي الحق والضميرَ فيما يكتب . ويحترم عقله وعقول الناس..

وإنما الذي كان يجوز أن يُسأل فيه – رحمه الله – هو : كيف فاته أن ينقل الشعرَ الذي قيل إن الأحوص الأنصاري تُغزل فيه بسكينة؟ فمِنْ أخبارهم أن كلَّ غزل الأحوص بعقيلة ، هو في سكينة بنت الحسين ، وإنما كنى عنها باسم عقيلة (١)

وقد عدَّه بعضُ أهلِ عصره أنسبَ الناس بقولِهِ في عقيلة :

يـا لَلرجـالِ لِوجْـدِكَ المتجـددِ ولما تـؤمـلُ من عقيلـةَ في غـد
ترجو مَواعِـدَ، بَعْثُ آدمَ دونَهـا كـانت خبـالاً للفؤاد المقصد
هل تذكرين «عقيلَ» أو أنْساكِه بَعـدي تَقَلُّبُ ذا الزمـان المفسد
يَوْمي ويـومَك بـالعقيـق إذ الهوى منا جميعُ الشمْلِ لم يتبدد !... (٢)

وأغلب الظن عندي أن الدكتور زكي مبارك لم يطلع على هذه الأبيات ، ولم يقرأ

(١) الاغاني : ٢٦١/٤ دار الكتب.

(٢) الاغاني : ٢٥٩/٤ – دار الكتب.

الخبر القائل بأن عقيلة هي سكينة ، وإلا لتعلّق بها وجَزَمَ مؤكداً أن أخبار الأحوص مع عقيلة ، كانت حقا في سكينة ، وأن ليوم العقيق هذا شأناً أخطرَ من ليلة الصورين !

كلمة يجب أن تقال

لا أدع الحديث عن «بنت الحسين» في أخبار الرواة والقصاصين، دون أن أسجل هنا كلمةَ الشيعةِ في كلٍّ هذا الذي قيل عنها ونُسب إليها.

إنهم يذهبون إلى أن أكثر هذه الأخبار والأقاويل من مفتريات الأمويين وأشياعهم. ويستدلون على هذا بأدلة:

منها: ما ذكره السيد الفكيكي من أن «أبا علي القالي» قد ارتجل أماليه وهو في كَنَفِ تلميذه الحكَم الأموي في الاندلس، فأملى فيها ما أملى عن «سكينة بنت الحسين» ولم يذكر شيئاً من أشعار ابن أبي ربيعة التي تغزل فيها بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وبأخته أم محمد بنت مروان بن الحكم. كما أهمل أشعارَ ابنِ أبي ربيعة في رملةَ وأختِ الحجاج، ولم يحفظ إلا رواية المغنين المقلوبة في «سكينة» عليها السلام [1]

ومنها: أن خبر ابن سريج وحيلة أشعب معه لحملِهِ على الغناء في دار سكينة مع عزة المغنية، قد ورد في الجزء الخامس عشر من الأغاني، ولم يُشر إليه أبو الفرج في

(١) يشير هنا إلى قصيدة عمر: «قالت سكينة والدموع ذوارف» وقد رواها ابو الفرج مرة: «قالت سعيدة والدموع ذوارف» وقال ان المغنين غيروها فقالوا: سكينة – وارجع في أقوال السيد الفكيكي إلى كتابه «السيدة سكينة».

ترجمة ابن سريج وأخباره التي أوردها في الجزء الثاني من أغانيه ، مما يدل على أن هذه القصة قد أُدخِلت عليه ، ويجوز أن يكون ذلك قد حدَث بعد شراء الحكَم الخليفة الأموي (كتابَ الأغاني) بإشارة أستاذه الشيخ أبي علي القالي بعد رحلته إلى الأندلس. مع العلم بأن كتاب الأغاني قد نشره الحكَمُ الأموي بإشراف القالي في الأندلس ، قبل نشر نسختِهِ الأصلية في بغداد.

ومنها : أن أصحاب النهضات الهاشمية ، كانوا يرفعون صيحاتهم الاحتجاجية في وجوه ملوكِ بني أميةِ وولاتهم ، من جرَّاء تصرفاتهم وأحداثهم المنكرات لروحِ الإسلام وتعاليمه. وقد رموا يزيدَ بن معاوية بالفسق ، وكفَّروا الوليدَ بن يزيد ، ولم يذكر لنا التاريخ أن الوليدَ أو يزيد أو معاوية ، استطاع أن يغمز في قناة الهاشميين الكرام بمثل ما في كتاب الأغاني ، ولوكان أحدُ الأمويين يعلم أن السيدة سكينة قد جعلت دارَها ملهى ، لطبّلوا به وزمّروا. وكلُّ ما قاله معاوية للإمام الحسين رضي الله عنه عند امتناعه عن الموافقة على ولاية العهد ليزيد :

«مهلاً عن شتم ابن عمك ، فإنكَ لو ذُكِرتَ عنده بسوءٍ لم يشتمك».

أما عبد الملك بن مروان ، فقد قال في حقّ زوج سكينة ، مصعب بن الزبير ، خصمه الأبد : «لو علم أنِ الماء ينقص مروءته ما ذاقه» قد سأل عبدُ الملك يوما – بعد مقتل مصعب – أصحابَه عن أشجع الناس ، فعدوا له عدة أسماء من أعظم شجعان العرب ، فأبى عليهم ولم يوافقهم. ثم سألوه رأيه فأجاب :

«هو مصعب بن الزبير... وعنده عقيلتا قريش ، سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة».

ثم حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حين خطب سكينة. فأنكر أهلوها وغضبوا وكانت معركة – رواها صاحب الأغاني نفسه – هذه الحكاية قد تكفي لدحض فرية مجالس الطرب التي كانت سكينة رضي الله عنها في دارها وتأذن إذنا عاما لأهل المدينة «وقومُها الأطياب المناجيد الغيارى ساكتون...»

* * *

وكلٌّ هذا الذي في ردِّ السيد الفكيكي، مما يجوز أن يقال، فلا نراه بعيدا...

وكذلك لا نستبعد أن يكون كثير مما أضيف إلى أميرات البيت الأموي، من صنع هذه الخصومة العنيفة الجامحة!... كتلك القصة المنكرة التي زعمت أن أم البنين – بنت عبد العزيز المرواني. وزوج الوليد بن عبد الملك – أحَبّتْ وضاحَ اليمن وأحبها. وحدث أن أرسل اليها الوليد هدية من جوهرٍ أعجبه، مع خادم له: «ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحا. فأسرعت الملكة إلى صندوق فأخفت فيه صاحبها. ثم أخذت الجوهَرَ من الخادم وقد رأى ما صنعتْ فطمع فيها. وأراد أن يستغل ما يعلم. فطلب إليها أن تمنحه حجرا من هذا الجوهر. فلما أبَتْ عليه ذلك انصرف محنقا إلى الخليفة فأنبأه بما رأى. فنهض من فوره ودخل على الملكة، فإذا هي تتمشط. فجلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم، وأخذ يتحدث إلى الملكة في ملاطفة حتى سألها أن تهديه هذا الصندوق فلم تستطع رده. فأمر فاحتُفرت بئر وألقي فيها الصندوقُ وهيل عليه الترابُ وسُويت الأرض. ولم يعرف أحدٌ لِوَضاحٍ خبرا، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا».

ولوضاح هذا قصيدةٌ. من أبياتها:

قالت: ألا لا تَلِجَنْ دارَنا إن أبانا رجلٌ غائر
قلت: فإني طالبٌ غِرَّةً منه، وسَيْفِي صارم باتر
قالت: فإن القصرَ من دوننا قلت: فإني فوقه ظاهر
قالت: فإن البحر من دوننا قلت: فإني سابح ماهر
قالت: فَحَوْلي إخْوَةٌ سبعة قلت: فإني غالبٌ قاهر
قالتْ: فليثٌ رابضٌ بيننا قلت: فإني أسدٌ عاقر
قالت: فإن اللهَ من فوقنا قلت: فربِّي رَاحِمٌ غافر
قالت: لقد أعْيَيْتَنا حُجَّةً فَأتِ إذا ما هَجَع الساهر
فاسقُطْ علينا كسقوطِ الندى ليلةَ لا ناهٍ. ولا زاجرُ!...

والقصة مسرحُها قصر الخلافة بدمشق، وليس في مكة والمدينة اللتين استأجر لهما الأمويون الماجنين والمخنثين لإهدار حرمها الدينية، ولإفساد الشباب الحجازي عن قصد وعمد... فيما يؤكد لنا مؤرخو أدبنا!...

* * *

وربما عرض لنا آخر الأمر أن نسأل: متى ظهرت «السيدة سكينة» في المجتمع طليقة متحررة، وشاركت في التاريخ الأدبي لعصرها؟...

الأخبار التي بين أيدينا. تشير إلى أنها ظهرتْ لأول مرة في موسم الحج سنة ٦٠ هـ، حين صحبت أباها رضي الله عنه في هجرته من المدينة إلى مكة. وقد كانت إذ ذاك في ربيعها الثاني عشر أو الثالث عشر. وغيرُ بعيد أن تكون قد لفتتْ إليها الأنظار بنضرة صِباها وحيويةِ مَرَحها وبهاء طلعتها. ولكن مهابَةَ أبيها الحسين الإمام،

كانت كافية وحدَها لأن تلجم الألسنة والأقلام. فما جرؤ أحدٌ على الزعم بأن اسمَها ذُكِرَ على لسان أي شاعر، في قصائد الغزل.

فهل ترى حُلّت عُقدةُ لسانهم، بعد عودتها إلى المدينة إثر فاجعة كربلاء؟...

المؤرخون يقررون أن المدينة كلها كانت في مأتم عام لسيد الشهداء. وأن أمها «الرباب» قد أمضت عاماً بأكمله حادَّةً حزينة، حتى لحقت بزوجها الشهيد (١).
وأن «أم البنين بنت حزام بن خالد العامرية، زوج الإمام علي بن أبي طالب».
«كانت تخرج إلى البقيع كل يوم، فتبكي أبناءها الأربعة، أعمام سكينة، الذين استُشهدوا مع أخيهم الحسين في كربلاء: عبدَ الله. وجعفرَ، وعثمانَ، والعباسَ. بني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فتلبث نهارَها هناك تندب بنيها أشجى ندبة وأحرقَها، فيجتمع الناسُ إليها يسمعون منها. فكان مروان يجيء فيمن يجيء لذلك، فلا يزال يسمع ندبتَها ويبكي» (٢)

فهل ترى كان يحدث هذا، وسكينةُ تعقد مجالسَ الغناء في دارها. وتواعِدُ «عمرَ» الصورينَ ذاتَ ليلةٍ. استجابةً لرغبة نسوةٍ شاقهن مجلسُ ابن أبي ربيعة؟...

هل كان مروانُ بن الحكم، يسمع أم البنين تندب أعمامَ سكينة، فيبكي لها. وسكينةُ تبكي بدموع ذوارف على الخدين والجلباب، لفراقِ عمر بن أبي ربيعة، وتصغي إلى شدو المغنين بقولها على لسانه:

---

(١) تاريخ ابن الأثير (الكامل): ٧٣/٤ - وانظر معه (مقتل الحسين: ٤٥٣ وما بعدها).
(٢) مقاتل الطالبيين: ٨٥ وانظر تاريخ الطبري ٢٦٩/٦.

ليت المغيريَّ الـــذي لم أَجزِه فيما أطـــال تَصَيُّـــدي وطِلابـي !
كـانت تَرُدُّ لنـا المُنــى أيامَنـا إذ لا نُلامُ على هوىً وتصابِ... !

فلعل عمر إذن ، قد قال فيها ما قال بعد عودتها من سفرها إلى مصر مع عمتها السيدة زينب عقيلة بني هاشم؟

الذين أرَّخوا للسيدة زينب . ذكروا وفاتها في شهر رجب سنة ٦٢ هـ ، وقد ثوت في مرقدها الأخير هنالك [١] . وآبت سكينة من رحلتها مضاعَفَةَ اليُتم ، لتشهدَ بعد ذلك ثورة أهلِ المدينة على بني أمية ، وخروجَهم على «يزيد بن معاوية ، لِقلة دينه» وهي الثورة التي انتهت بموقعة الحَرَّةِ – بظاهرِ المدينة – حيثُ استشهد من أولاد المهاجرين والأنصار ٣٠٦ أشخاص . وعددٌ من بقية الصحابة الأولين ، وهُجِرَ المسجدُ النبوي فلم تُقَمْ فيه صلاةُ الجماعة لمدى أيام [٢] .

والمقول إن عمر تاب توبته المشهورة في ذلك العام ، وشُغِلَ العالم الإسلامي بعد ذلك بقيام (حركة التوَّابين) في العراق ، الذين آدهم الندم على عدم نصرة الإمام الحسين الشهيد ، فلم يروا كَفَّارةً دون القتل في الثأر له ولصحبه .

فهل يا ترى ، كانت سكينة تصم أذنيها عن هتاف التوابين ، لترغم «ابنَ سريج» على الغناء في دارِها مع عزةَ الميلاء ، وتَفْتِنَه عن توبتهِ عن الغناء؟...

وقد رأيناها بعد ذلك تُشغل بحياتها الزوجية مع مصعب بن الزبير ، ثم ترجع إلى

(١) العبيدلي النسابة : السيدة زينب وأخبار الزينبات – ص ٢٠ .
(٢) تاريخ الطبري : ٥/٧ – ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ وما بعدها .
وانظر شذرات الذهب : ٧٠/١ .

المدينة مقهورةً محزونة ، فلا تكاد تطوي جرحَها في الأعماق حتى تتزوج من عبيد الله ابن عثمان الحزامي ، وتفرغ لتربية صغارها الأربعة بعيدا عن أضواء المجتمع ، فلما ترملتْ . بعد أن أرهقها التيارُ جَذْباً ودفعا . وأنهكها الموجُ شَدّاً وإرخاء . بدأت تظهر في المجتمع ، وقد هبطت بها موجةُ الأحداث والأرزاء إلى قرارة اليأس ، فكانت تجربتها الأخيرة ، في زواجها الفاشل من زيد بن عمر العثماني ، هي آخر الشوط في المقاومة ، ومن ثم استقر رأيها نهائيا على ممارسة الحياة ممارسةَ التي ضجرتْ ، وجرَّبت . وكابَدَتْ . وشربت الكأسَ حتى الثمالة !

وظهرتْ في المجتمع ، وكانت وقتئذ ، في منتصف العقد الخامس من عمرها !

وربما جاز عند الدكتور زكي مبارك ، أن يتصورَها في هذه السِّنِّ العالية «تعيش في رعايةِ الحسن والجمال ، وتحرص على تخليد مفاتنها على ألسنة الشعراء».

وغيرُ عجيب أن يجوزَ عنده كذلك ، أن يكون «عمرُ» قد شهد معها ليلة الصورين ، وملأ الأفق الحجازي بقصائد غزلِهِ فيها ، بعد مضي ثلث قرن على توبته !

أما الذي يجوز عندنا . فهو أن «سكينة بنت الحسين» قد شغلَتْ من ذلك الوقت ، دوراً آخر في المجتمع ، هو دور الأديبة الناقدة.

وهذا ما نفرغ له في الفصل التالي...

الأديبة الناقدة

لم يع تاريخ الأدب للسيدة سكينة غيرَ أبيات معدودات، كتلك التي قيل إنها رثتْ بها أباها رضي الله عنه:

لا تعــذُليــه فهَمٌّ قــاطــعٌ طرفَــهْ فعينُــه بــدموعٍ ذُرَّفٍ غَــدِقَــه
إن الحسين غــداةَ الطّفً يرشقُــه رببُ المنونِ فما أن يخطئْ الحدقَهْ
بكفً شرًّ عبــــادِ اللهِ كلهم نسلِ البغايا، وجيشِ المرّقِ الفَسَقَه
أأمَّةَ السوءِ هاتوا، ما احتجاجُكمُ غداً، وجُلُّكمْ بالسيفِ قد صَفَقَه
الويلُ حَلَّ بكم، إلا بمن لَحِقَه صيرتموه لأرمــاحِ العِــدَى دَرَقَــه
يا عينُ فاحتفِلِي طولَ الحياةِ دَماً لا تبك ولدا ولا أهلاً ولا رفقه
لكنْ على ابنِ رسولِ اللهِ فانسكبي دماً وقيحاً، وفي أثرَيهما العلَقه (١)

* * *

وبيتين اثنين، في رثاء زوجها مصعب بن الزبير:

فــإن تقتلوه تقتلوا الماجِدَ الــذي يرى الموتَ إلا بــالسيوفِ حَرَامــا
وقبلَك مــا خــاضَ «الحسينُ» منيةً إلى القــوم حتــى أوردوه جِمَامــا!

(١) أمالي الزجاج: ١٠٩.

وهي أبياتٌ لا تكفي لِعَدِّها شاعرة!

لكني أكاد لا أرتاب في أن الرواة قد أسقطوا لها شعرا آخر في غير الرثاء!

وتلك شنشنة نعرفها من أخزم!

إنهم قصروا المجالَ الفني للمرأة العربية على الرثاء، وقلَّ أن اعترفوا بها شاعرةً غير راثية.

فعلوا ذلك مع الخنساء!

وفعلوه مع ستين شاعرة أخرى من شواعر العرب، ذيّلوا بمراثيهن ديوانَ الخنساء المطبوع في بيروت.

وفعلوه مع «الرباب» بنت امرئ القيس أم سكينة. قالوا: هي شاعرة، ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات في رثاء زوجها...

وبيتين آخرين رثته بهما أيضا حين سيقت مع ركب السبايا الهاشميات، إلى قصر ابن زياد. وقد نقلناهما في الحديث عن كربلاء.

وما بمثل هذه الأبيات، تُعَدُّ «الربابُ» شاعرةً كما وصفوها!..

على أن التاريخ الأدبي، وإن أسقط شعر «سكينة» في غير الرثاء، فقد اعترف لها من ناحية أخرى بمكانة لعله لم يعترف بمثلها لسيدة غيرها في مختلف عصوره، حين ألقى إليها مقاليد الحكم بين أمراءِ الفن في الشعر والغناء.

وأقرّ لها بالسيطرة الأدبية على عصرها في مجال النقد الأدبي، حين فرضت عليه شخصيتَها الفريدة، وبهرتْه بذوقها الفني الأصيل الذي هيّأ لها أن تكون ذاتَ بصَرٍ

دقيق بفنِّ القول، وفقهٍ لأسرار العربية في الأداء.

* * *

وكانت الأصالة هي الطابع المميز لها ذوقا وحِسّاً، بقدرِ ما كانت الطابع المميزَ لها نسَباً وجَمَالاً وأناقة.

وليس صحيحاً أن أمراء الشعر في زمانها إنما أقروا لها بالسيطرة الأدبية خضوعا لجبروت جمالها، وهيبة شرفها كما ذهب الدكتور زكي مبارك، فما لجمالِ الأنثى جبروتٌ في سِنِّ الكهولة والشيخوخة، وهي بعدُ لم تنفردْ بالحسن دون بناتِ جيلها، بل شاركتْها فيه أخريات يكفي أن نذكر منهن أختَها «فاطمة بنت الحسين» التي قيل فيها، يوم اختارها أبوها رضي الله عنه لابن عَمِّها الحسن: «إن امرأة مردودتُها سكينة، لمنقطعةُ القرين في الحُسن». كما نذكر ضرتَها عائشة بنت طلحة، التي خلبتْ ألبابَ الشعراء في عصرها فكادوا يُجنون بها جنونا، والتي ذكروا أن أبا هريرة قال فيها:

- سبحانَ الله، لكأنها من حُور الجنة...

كذلك لم يكن شرفها العالي هو الذي ألقى إليها مقاليدَ الحكم الأدبي وأخضع لها الشعراء، وإلا لشاركتها في مكانتها هذه، أختُها فاطمة وبناتُ عمِّها الحسن، حفيدات الزهراء مثلها وسليلاتُ النبوة.

وإنما كانت سيطرتها الأدبية ترجع في الحقيقة إلى عُلوِّ كعبها في فنِّ القول، وحساسيتها المرهفة في ذوق الشعر، وإدراكِها البصيرِ لمواطن التأثير ودوافع القول وأسرارِ البلاغة والبيان.

ولولا أنها كانت نادرةَ عصرِها بَصَرا بالشعر وفقهاً للعربية ، لما اعترف لها التاريخُ الأدبي بمثل تلك المكانة ، وهو الذي أسقط شعرَها من ديوان الأدب ، وجحدَ شاعريتهَا وشاعريةَ الإناث مثلِها ، إلا أن تكون رائية !

وبين أيدينا خبَرٌ ، قد يوضح لنا السببَ الذي من أجله أُلقيت إلى السيدة سكينة مقاليدُ النقد الأدبي في عصرها ، ونصُّ الخبر:

«أنشِدت سكينةُ بنت الحسين قولَ الحارث بن خالد ، في وصفِ النساء ، في الحج :

ففَرغْنَ من سبعٍ وقد جَهِدَتْ أحشاؤهن موائلَ الخمر

فسألت سكينة مَن بالمجلس : أحَسَنٌ عندكم ما قال؟... قالوا : نعم .

فقالت : وما حُسنه؟ !... فواللهِ لو طافت الإبل سبعاً لجهدِتْ أحشاؤها» [1]

وإذن فقد غاب عنهم ما لم يَغِبْ عن سكينة ، وفاتهم أن ينتبهوا إلى ما انتبهت إليه بحِسِّها المرهَف !

* * *

والقدْرُ الذي وعاه لها التاريخُ الأدبي في النقد والتحكيم والموازنة ، يكفي للدلالة على منزلتها الرفيعة في المجتمع الأدبي ، ويقدم لنا نماذج من أحكامها وآرائها النقدية ، تُفَسِّر لنا ، لِمَ آثرها عصرُها بهذه المنزلة التي لا نعرف أنهم اختلفوا فيها .

وهذا (كتاب الأغاني) وفيه ما فيه من أخبار ومرويات كتلك التي سمعناها ، ينقل

---

(١) الاغاني : ٣٢٧/٣ دار الكتب.

روايةً عن محمد بن سلام، تؤازرها روايةٌ مثلُها عن عَمَرَ بن شبّة: «ان جريرا والفرزدق وكُثيِّرا وجميلا ونُصَيبا، اجتمعوا في ضيافة سكينة بنت الحسين رضي الله عنه، فمكثوا أياما ثم أذِنَتْ لهم فدخلوا عليها، فقعدتْ حيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامَهم. ثم أخرجتْ وصيفةً لها قد روت الأشعارَ والأحاديثَ، فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال لها: هأنذا. قالت: أنت القائل؟

هما دَلّتاني من ثمانين قامةً كما انحطَّ بازٌ أقتمُ الريشِ كاسِرُه
فلما استوتْ رِجلايَ بالأرض قالتا: أحَيٌّ يُرَجَّى أم قتيلٌ نُحاذِرُه
فقلتُ: ارفعوا الأمراسَ لا يَشعروا بنا وأقبلتُ في أعجازِ ليلٍ أُبادِرُه
أبادِرُ بَوَّابَيْنِ قد وُكِلا بنا وأحمرَ من ساجٍ تَبُصُّ مسامرُه!

قال: نعم...

قالت: فما دعاكَ إلى إفشاء سِرِّها وسِرِّك، هلا سترتَ عليك وعليها؟ خذ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك...

«ثم دخلتْ على مولاتها وخرجتْ برسالتها فقالت: أيكم جرير؟ قال: هأنذا. قالت: أنت القائل؟

طرقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا حين الزيارةِ فارجعي بسَلامِ
تجري السِّواكَ على أغرَّ كأنه بَرَدٌ تحدر من متونِ غَمامِ
لو كان عهدكِ كالذي حدثتِنا لوَصلتِ ذاك وكان غيرَ لمامِ
إني أواصلُ مَنْ أردتِ وصالَه بحبالِ لا صلفٍ ولا لوامِ

قال: نعم...

قالت: أوَلاَ أخذتَ بيدِها وقلتَ لها ما يقال لمثلِها؟... أنت عفيفٌ وفيكَ ضعف. خذْ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك...

ثم دخلتْ إلى مولاتها وخرجتْ فقالت: أيكم كُثَيِّر؟... قال: هأنذا. قالت: أنتَ القائل؟

وأعجبني يــــا عَزَّ منكِ خلائقٌ كرام اذا عُــدَّ الخلائقُ. أربــعُ

دُنُوُّكِ حتى يدفع الجاهلَ الصِّبَا ودفعُك أسبابَ المُنى حين يَطمعُ

فواللهِ مـا يـدري كريمٌ مُمَـاطل أينساكِ إذ بـاعـدتِ أو يتَصدَّعُ!

قال: نعم...

قالت: ملحت وشكلتَ، خذ هذه الثلاثةَ الآلافَ والحقْ بأهلك..

ثم دخلتْ على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نُصَيب؟... قال: هأنذا. قالت: أنت القائل؟

ولولا أن يُقــال: صَبــا نُصَيْبُ لقلتُ: بنفسيَ النشأُ الصغـــارُ

بنفسي كـــل مهضومٍ حَشَاهــا إذا ظَلَمتْ فليس لها انتصارُ

قال: نعم...

فقالت: ربيتَنا صِغاراً ومدحتَنا كبارا. خذْ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك.

ثم دخلتْ على مولاتها وخرجتْ فقالتْ: يا جميلُ، مولاتي تُقرئك السلام. وتقول لك: واللهِ ما زِلتُ مشتاقةً لرؤيتِك منذ سمعت قولَك:

ألا ليت شِعري هـل أَبيتَنَّ ليلةً بـوادي القرى، إني إذَنْ لَسَعِيــد

لكــــلٍّ حــــديثٍ بينهن بشاشةٌ وكــــلُّ قتيــــلٍ عنــــدهن شهيــــدُ

جعلت حديثَنا بشاشة، وقَتلانا شهداء. خذ هذه الالف دينارٍ والحقْ بأهلك[(١)].

وليس يفوتنا ما للنصّ من دلالات...

منها. أن أمراء الشعر في عصرها كانوا يجتمعون في دارها فتأذن لهم وتجلس حيث تراهم ولا يرونها. وقد اتخذت وصيفةً لها تنقل إلى كل منهم مختارَها من شعره ورأيَها فيه. فعلتْ ذلك مرةً بعد مرة. فكلما فرغتْ من شاعر دخلتْ على مولاتها وعادت برسالة منها لشاعر آخرَ وهي السيدة التي وصفها «زكي مبارك» بالتبذلِ في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء...

وقد أنكرتْ على «الفرزدق» إفشاء سِرِّه وسرٍّ صاحبته، والأخبار تزعم مع هذا أنها طربت لغناءِ الغريض بشعر «عُمَرَ» فيها. وقد أفشى به سرَّ ليلةِ الصورَين!

وأثنت على «جرير» لعفة شعره، وإن أنكرت صعفَه وأسلوبَه في مخاطبة زائرته.

وأعجبتْها أبياتُ «كُثيِّر» في وصفِ صاحبتهِ، لما لمحتْ فيها من دِقة التعبير عن عِزَّةِ الأنثى، وطبيعة حواء...

* * *

وخبرٌ آخر ننقله من (الأغاني) على علاته، وهو صريحٌ في احتكام الشعراء أو رُواتِهم إليها لما يعرفون من عقلها وبصرها بالشعر. قالوا: «اجتمع بالمدينة راويةُ

(١) الاغاني: ١٤/١٦٦ وما بعدها – ساسي.

أهيمُ بـدعـدٍ ما حييتُ فإنْ أمتْ فلا صلحتْ دَعْدٌ لذي خُلّةٍ بعدي؟

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبُك الذي يقول :

من عـاشقين تراسَلا وتواعـدا ليلاً إذا نجمُ الثريـا حلّقـا
بَـاتَـا بِـأنْعَمِ ليلـةٍ وألّـذهـا حتى إذا وضح الصبـاحُ تَفرّقـا

قال : نعم...

قالت : قبّحه اللهُ وقبّح شعرَه!... ألا قال تعانقا؟... (١)

ودلالة النص . أن سكينة كان إليها الاحتكامُ إذا اشتجر الخلافُ بين رواة الشعراء أي أصحابهم أشعرُ ، وإنها كانت واعية للشعر حافظة ، تعرف مآخذَ الشعراء وتقسو في محاسبتِهم على عَثَراتهم . ولفتاتُها النقدية دقيقةٌ بارعة ، وهي جديرة بأن تعينَ على فهمِنا لعصرِ سكينة الأدبي ، على ضوء الاعتبارات الفنية التي كانت الناقدةُ الأولى للعصرِ ، تصدر عنها أحكامها في ذوقِ الشعر ، ووزنِ الشعراء .

ولم يكن إعجابها بشاعرٍ ، يَحميه من قسوتها في مؤاخذته ، فهذا «جرير» الذي أنكرتْ عليه ضعفَه وسوء أدبه في مخاطبة النساء حيث قال :

طرقَتْك صائـدةُ القلوب وليس ذا وقتَ الزيـارةِ فـارجعي بسلامِ

كانت ربما قدمتْه على الفرزدق ، وصارحت الفرزدق برأيها فيهما دون مجاملة :
حدَّث الشعبي «أن الفرزدقَ خرج حَاجّا . فلما قضى حجّه عدل إلى المدينة فدخل إلى سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما فسلّم ، فقالت له : يا فرزدق ، مَن أشعر الناس؟

---

(١) الاغاني : ١٤/١٦٦ ساسي .

جرير، وراويةُ كُثَيِّر، وراويةُ جميل، وراويةُ نصيب. وراويةُ الأحوص. فافتخر كلُّ رجلٍ منهم بصاحبه وقال: صاحبي أشعر.

«فحكَّمُوا سكينةَ بنت الحسين بن علي عليهما السلام، لِمَا يعرفونه من عقْلِها وبصرِها بالشعر. فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذِنَتْ لهم، فذكروا الذي كان من أمرهم فقالت لرواية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرقَتْكَ صائـدةُ القلوب وليسَ ذا وقتَ الزيـارة فـارجِعي بسلامِ

أي ساعة أحلى من الطروق؟... قبح اللهُ صاحبَك وقبَّح شعره......

«ثم قالت لراوية كثير: أليس صاحبُك الذي يقول:

يقر بعيني مـا يقرُّ بعينهـا وأحسَنُ شيءٍ مـا به العينُ قرَّتِ

أفيُحب صاحبُك أن يكونَ أنثى؟... قبّح اللهُ صاحبَك وقبّح شعره...

«ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبُك الذي يقول:

فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتُها ولكنْ طِلابِيها لما فَاتَ منْ عقْلي

فما أرى بصاحبِك من هوى، إنما يطلب عقلَه!... قبّح اللهُ صاحبَك وقبّح شعرَه...

ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهِيمُ بدَعدٍ ما حَييتُ فإن أمُتْ فوا حَزَنا مَنْ ذا يَهيمُ بها بعدي

فما أرى له همةً إلا فيمن يتعشقُها بعده!.. قبّح الله صاحبَك وقبّح شعرَه... ألا قال:

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ، أشعرُ منك الذي يقول :

بنفسي مَن تَجَنُّبُه عزيزٌ عليَّ ومَن زيارتُه لِمَامُ
ومَنْ أمسِي وأُصبِحُ لا أراه ويطرقُني إذا هجع النيامُ

فقال لها : واللهِ لو أذنتِ لي لأسمعتُك أحسنَ منه . ثم أمرتْه فانصرف . فلما كان الغدُ استأذَن عليها فسألتْه : يا فرزدق ، مَن أشعرُ الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ! صاحبُك «جرير» أشعرُ منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولَزُرْتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هَجَر الضجيعُ فِراشَها كُتِمَ الحديثُ وعَفَّت الأسرارُ
لا يلبث القُرَناءُ أن يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارُ ! ...

فقال : واللهِ لئن أذنتِ لي لأسمعتُك أحسنَ منه . فأمرتْ به فانصرف . ثم عاد إليها في اليوم الثالث ، فأعادتْ سؤالَه : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ، صاحبُك أشعرُ حيث يقول :

إن العُيونَ التي في طَرْفِها مَرَضٌ قتلننا ثم لم يُحْيِين قَتلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَرَاكَ به وهُنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانا » . (١)

---

(١) الاغاني : ٣٨/٨ ط الدار .

والابيات في (ديوان جرير) ط الصاوي ، مع خلاف يسير في الألفاظ .

فإذا كان هذا الموقف حدث قبل اجتماع الفرزدق مع جرير في ضيافتها، فذلك هو ما قلناها من أن إعجابها بالشاعر وتفضيلها، إياه، لم يكن يجعلها تغض البصرَ عن سقطاته. أما إن كانت مؤاخاتُها جريرا قد سبقتْ زيارةَ الفرزدق لها، وسماعَه ما سمع من تفضيلها «جريرا» عليه، فهذا ما يدل على أن السيدة الناقدة، لم تكن تحكمُ على الشاعر بشعره جملة، أو تتشبثُ برأي لها فيه لا تعدل عنه، أخطأ جرير، فقالت له: فيكَ ضعف، ثم لم يمنعها ضعفُه من الحكم له على الفرزدق.

* * *

وقد روى أبو الفرج في أغانيه خبراً له دلالتهُ على شدة شغفها بالشعرِ وحرصِها على السمو به إلى فنيةٍ جمالية. حدَّث المدائني: أن سكينة «كانت ذاتَ ليلةٍ تسير، فسمعتْ حادياً يحدو في الليل يقول:

« لولا ثلاثٌ هنَّ عيشُ الدهرِ »

فقالت لقائدِ قِطارِها: الحقْ بنا هذا الرجل حتى نسمَعَ منه ما هذه الثلاثُ. فطال طلبُهُ لذلك حتى أتعبَه. فقالت سكينةُ لغلامٍ لها: «سِرْ أنت حتى تَسمع عنه». فسار الغلام سريعا ثم عاد إلى مولاته، فقال لها: سمعته يقول:

« الماءُ، والنومُ، وأم عمرو »

فقالت: قبّحه الله، أتعبني منذ الليلة!»[1]

وإنما أنكرت أن يخلط بين حاجات الجسم المادية، وحاجة القلب والوجدان.

---

(١) وفيات الاعيان ٢١١/١.

والاغاني: ١٠١/٢١ ساسي.

وأن تستوي عنده أم عمرو، والماءُ والنومُ، بل تتأخر عنهما.

وتشهد نادرة لها طريفة، نقلها «ابن خلكان» على أنها كانت مرهفة الحس الشعري، دقيقة اللمح لِسر القول ودلالته على صدق المعاناة. «يُروَى أنها وقفت على عروة بن أُذَيْنَة [١] وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين، وله أشعار رائقة، فقالت له: أنت القائل؟

إذا وَجَدْتُ أُوارَ الحبِّ في كبدي ذهبتُ نحوَ سقــــاءِ الماءِ أبترِدُ
هَبني بردت ببردِ الماء ظــــاهرَه فمَنْ لِنَـــارٍ على الأحشاءِ تتَّقِــدُ

قال: نعم...

قالت: وأنت القائل؟

قالت، وأبثثُها سِرِّي وبُحْتُ به قد كنتَ عنديَ تحتَ السترِ فاستترِ
ألستَ تُبصِرُ مَنْ حولي؟.. فقلت لها غَطِّي هواكِ وما ألقى على بصري

قال: نعم...

فالتفتت إلى جَوارٍ لها كُنَّ حولَها وقالت: هُنَّ حرائرُ، إن كان هذا الشعرُ خرجَ من قلبٍ سليم قط! [٢].

(١) أبو عامر، توفي حوالي سنة ١٣٠ هـ. وكان من جلة علماء المدينة ومن شعرائها المقدمين.
وروى عنه الامام مالك وغيره.
انظر بعض أخباره في (الأغاني: ١/١٠٥) ساسي.

(٢) رواية (سمط اللآلي: ١/١٣٦) للشطر الثاني من البيت الاول:
«اقبلت نحو سقاء الماء أبترد»
وجيء فيه بكلمة السيدة سكينة دون ذكر اسمها. وعلق الأستاذ الميمي على هامشه:
هذه هي السيدة سكينة، وهي السائلة عن الشعر كما في (المصارع ٣١٣) و(المرتضى ٢/٧٣).

وإنما أنكرت أن يزعم «عروةُ»، وهو من كبار الصالحين، أنه قال هذا الشعرَ على مذهب الشعراء!

وإنها لَتُحِس فيه بذوقها المرهَف نبضَ قلبٍ جريحٍ أضناه الحبُّ. وتدرك بوجدانها الذكي، أن وراءَ مثل هذا الشعر معاناةً صادقة...

وكانت جديرةً عندي بأن تدرك كذلك صدقَ المعاناة وحرارةِ التفجع في قول «عروة» يرثي أخا له اسمهُ بكر:

سَرَى هَمِّي، وهَمُّ المرءِ يسري ... وغـاب النجمُ إلاَّ قِيـدَ فِترِ
أراقبُ في المَجَرَّةِ كـلَّ نَجْمٍ ... تعرض في المَجرَّةِ كيف يجري
لِهَمٍّ مـا أزالُ لـه قرينـا ... كـأن القلبَ أُسْعِرَ حَرَّ جَمْرِ
على بَكْرٍ أخي، ولّى حميـدا ... وأيُّ العيشِ يصلُح بعْدَ بكرِ؟...

لكنها لما سمعت هذا الشعر قالت: «من يكون بكرٌ هذا؟» فوُصِفَ لها فقالت: أهو ذلك الأُسَيِّد - تصغير أسود - القصير الذي كان يمر بنا؟... قالوا: نعم... قالت: «لقد طاب بعدَه كلُّ شيء حتى الخبز والزيت!»[1] أو كما جاء في الأغاني: «كلُّ العيشِ واللهِ يصلُح ويحسنُ بعدَ بَكرٍ، حتى الخبز والزيت»[2].

وأعوزها هنا التعاطفُ الوجداني، يشجيها بكلمة أخٍ في رثاء أخيه، مهما يكن هذا الأخ في نظر الناس قيئا أو مغمورا.

---

(١) وفيات الاعيان: ١/٢٩٨ - وشذرات الذهب ١/١٥٤.

(٢) الاغاني: ٧/٦٣ دار الكتب.

وعلى كلٍّ حالٍ فسكينة تتلقى الشعرَ بذوقها الخاصّ وتحكم عليه بمقدارِ ما يؤثر فيها ويقع من وجدانها...

* * *

وهكذا تُمَثِّلُها الأخبارُ، وقد عُقِدَتْ لها إمامةُ النقد في عصرها، واشتدتْ في رقابتها الأدبية على الشعراء، فمضتْ تكشف في صراحةٍ قاسية عن مَواضع المؤاخذة، وتهدي إلى أسرارِ التعبير، وتُوَجِّهُ إلى ضرورة التزام مقومات الشعر في رأيها، من عُمْق المعاناَةِ، وعاطفية التناول، وصدق الوجدان، والسموِ بالشعر إلى أفقه الجمالي، بعيداً عن «الماء، والنوم، وأم عمرو» !

* * *

ولسنا بحيث نؤاخذها على جزئية أحكامها، واتجاهها بالنقد إلى اعتبار البيت أو الأبيات مناطَ حُكم على الشاعر، فلم يكن عصرُها - فيما عَرَفَه مؤرخو أدبنا - ينظر في القصيدة من حيث هي وحدة متكاملة.

وليس يفوتنا هنا أن نلحظ أن «سكينة» فيما نُقِلَ إلينا من ملاحظها النقدية - لم تتعرض قط لشعرِ المدح، فهل تراها أسقطتْه من حسابها لما تعلم من كثرة الزيف فيه وغلبَة النفاق عليه؟...

ليس هذا عندنا ببعيد، وقد كان من بين الذين تعرضتْ لنقد شعرهم، جرير، والفرزدق، ونصيب، وكثير، ولهم في المدح قصائد مشهورات، ولم نرها مع ذلك روتْ لأحدِهم بيتا من مدائحه أو ناقشتْه فيه.

وإنما كان اهتمامُها كله بما قالوا في الحب ، وكأنها كانت ترى فيه ما لا ترى في المدح ، من نبض القلبِ وحِسِّ الوجدان ، وتعدُّه المقياسَ الدقيقَ لامتحانِ أصالةِ الشاعرية وصدقِ المعاناة...

* * *

المشهد الأخير

امتد العُمرُ بالسيدة سكينة حتى شارفت العقدَ الثامنَ من حياتها...

وليس فيما لدينا من أخبار ومرويات، ما يشير إلى مرض ألمَّ بها قبيل الموتِ أو يتحدثُ عن حالها في أخريات أيامها. وإنما اقتصر الخبرُ على ما كان من أمرِها فيما بين وفاتها إلى أن دُفِنَ جسدُها في ثرى «طيبة» مدينة جدِّها الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذا الذي كان، هو المشهد الأخير من حياتها الحافلة، وقد أشار إليه أكثر الذين أرّخوا لسيرتها. منهم «ابنُ خلكان» في الوفيات، و«ابنُ العماد» في الشذرات. ولكن صاحب (الأغاني) هو الذي أوردَه مفصّلا. قال روايةً عن جماعةٍ من شيوخ بني هاشم:

«انه لم يُصَلّ على أحدٍ بعد رسول الله ﷺ بغير إمام، إلا على سكينة بنت الحسين رضي الله عنه. فإنها ماتت وعلى المدينة خالدُ بن عبدِ الملك. فأرسلوا إليه فآذنوه بالجنازةِ وذلك في أولِ النهار في حَرٍّ شديد. فأرسل إليهم: لا تُحْدِثوا حدَثاً حتى أجيء فأصلي عليها. فوُضِع النعشُ في موضِع المصَلّى على الجنائز، وجلسوا ينتظرونه حتى صار الظهر، فأرسلوا إليه فقال: لا تحدثوا فيها شيئا حتى أجيء.

فجاءت العصرُ ثم لم يزالوا ينتظرونه حتى صُلِّيت العشاء . كلّ ذلك وهم يرسلون إليه فلا يأذن لهم ، حتى حلّت العتمةُ ولم يجئ . ومكث الناسُ جلوساً حتى غلبَهم النوم ، فقاموا فأقبلوا يُصَلون عليها جمعا جمعا وينصرفون . فأمر عليٌّ بن الحسين رضي الله عنه مَن جاءه بطِيبٍ – قيل وإنما أراد خالدُ بنُ عبد الملك فيما ظنَّ قومٌ أن تنتن – فأتى بالمجامرِ فوُضِعتْ حول النعش . ونهض محمدُ بن عبد الله العثماني . فأعطَى عَطّارا كان يعرف عنده عُوداً فاشتراه منه بأربعمائة دينار . ثم أوقد حولَ السرير حتى أصبح وقد فُرغ من العُود . فلما صلّيت الصبحُ ، أرسل خالدٌ إليهم أن صَلُّوا عليها وادفنوها »[1]

وكأنما أراد القدرُ ألا تمضي الهاشميةُ الحسناء عن الدنيا . دون مشهدٍ ختامي مثيرٍ . لقصتها الحافلة !

* * *

ولكن متى توفيت السيدة «سكينةُ» على وجه التحديد؟...

هنا نعود فنضرب في تيه من تناقض الأخبار وتعارض المرويات...

فالمشهد الذي نقلناه ، فيه نصٌّ على أنها توفيت ، وخالدُ بنُ عبد الملك بن الحارث والٍ على المدينة ، وأن أخاها زين العابدين «علي بن الحسين» قد شَهِدَ وفاتَها ، وكان هو الذي أشرف على تجهيزها لمثواها الأخير...

والإمام زين العابدين قد توفي بالمدينة في العشر الأخيرة من القرن الأول ، ومدى الخلاف في سنة وفاته ، لا يتجاوز ما بين عامي ٩٢ هـ ، و٩٤ هـ . وابنُ خلكان قد اختار سنة ٩٤ هـ ، وكذلك ابنُ العماد الحنبلي[2] وان يكن الأول قد أضاف :

---

(١) الاغاني : ١٧٠/١٤ ساسي .

(٢) شذرات الذهب : ١٠٥/١ .

«وقيل توفي سنة ٩٢ هـ»[١]

والذي في (نسب قريش) أنه توفي سنة ٩٤ هـ[٢]

وانفرد الشيخ الشعراني - فيما قرأتُ - بالقول بوفاة الإمام زين العابدين سنة ٩٩ هـ[٣]، وهو ما نرفضه، لسبب نذكره إن شاء الله عن قريب.

فلو صَحَّ أن الإمام شَهِدَ وفاةَ أختِه السيدة سكينة - على رواية الأغاني - لكان مقتضى هذا، أنها توفيت قبل سنة ٩٤ هـ، إذا أخذنا بأقصى الأجلَين...

لكن خالدَ بن عبد الملك، قد كان والياً على المدينة سنة ١١٧ هـ...

وقد عزله عنها هشامٌ سنة ١١٨ هـ، كما في (تاريخ الطبري)...

وفيه كذلك، أن سكينة توفيت سنة ١١٧ هـ، قال في حوادث سنة ١١٧ هـ:

«وحجَّ بالناس في هذه السنة، خالدُ بن عبد الملك، وكان العاملَ فيها على المدينة... وفيها توفيت سكينةُ ابنة الحسين بن عليٍّ»[٤]

وابن خلكان، ذكر وفاة السيدة سكينة في هذا التاريخ - ١١٧ هـ - دون أن يشير إلى أيِّ خلاف فيه...

ومثلهُ في (شذرات الذهب) و(مقتل الحسين: ٣٦٨).

وهو التاريخ الذي اعتمدته (دائرة المعارف) فقالت في مادة سكينة:

---

(١) وفيات الاعيان: ٤٩٥/١.

(٢) نسب قريش: ٥٨.

(٣) طبقات الاولياء: ٢٧/١.

(٤) تاريخ الطبري: ٢٢٨/٨.

«... توفيت بالمدينة في يوم الثلاثاء من شهر ربيع الأول عام ١١٧ هـ»

فكيف شهد أخوها الإمامُ زين العابدين وفاتها، ولا خلافَ في أنه لم يدرك القرنَ الثاني؟

والفرقُ بين تاريخ وفاته، وتاريخ وفاة السيدة سكينة، يبلغ ثلاثة وعشرين عاماً إذا أخذنا بالقول الراجح في وفاته، وقد يصل إلى رُبْعِ قرنٍ، على قول من قال بوفاته سنة ٩٢ هـ!

وهو مدى طويل، كان يجب أن يثير الاهتمامَ، لكنا لا نعجب لمروره هكذا في بساطة، وبغير محاولةٍ للنظر فيه.

وذلك أننا نعرف من اضطراب التواريخ في تراجم أعلامنا، ما لا موضع معه للعجب هنا.

ولن آتي بمثل بعيدة، لما وصل إليه الخلافُ في مواقف مشهودة، ومع أشخاصٍ ذوي خطر في التاريخ الإسلامي، وإنما أكتفي هنا بإيراد مثل واحد، هو أقرب الأمثلة لما نحن فيه: فالشيخ الشعراني يقول بوفاة زين العابدين سنة ٩٩ هـ، عن ٥٨ عاما(١) أي أنه ولد سنة ٤١ هـ.

وفي الصفحة نفسها، بل في الفقرة التالية، يقول بوفاة «الإمام محمد الباقر بن زين العابدين، عام ١١٧ هـ عن ٧٣ عاما»

أي أنه ولد سنة ٤٤ هـ.

(١) طبقات الأولياء: ١/٢٧.

ولم يكلف الشيخ الشعراني خاطرَه، بأن يفسر لنا كيف أنجب الإمامُ زين العابدين، وهو في الثالثة من عمره، ابنه محمد الباقر!

ولو قال إنها إحدى كرامات الإمام زين العابدين، لتركناها له، واسترحْنا... لكنْ، حتى هذه لم يقلها!

ومرَّ بالأمر وكأنْ ليس فيه ما يلفتُ أو يدعو إلى اهتمام...

* * *

ونعود إلى موضوعنا، فلا نرى حتماً علينا أن نقف طويلا لنحقق مسألة شهود الإمام زين العابدين موت أخته السيدة سكينة، فمن الواضح عندنا أن ورود اسمه رضي الله عنه، في مشهدها الأخير، خطأ، لا ندري أهو من الراوي الأول للخبر، أم من الناقل، أم من الناسخ!

وأطمئن بعد هذا، إلى ما اتفق عليه الطبري، وابن خلكان، وكتبُ الشيعة، من وفاة السيدة سكينة سنة ١١٧ هـ، بمدينة جدِّها الرسول عليه الصلاة والسلام، وخالدُ بنُ عبد الملك بن الحارث بن الحكم، عاملٌ على المدينة، لهشام بنِ عبد الملك ابن مروان...

واستقر بها المطافُ آخرَ الأمرِ في ثَرى «طيبة» مدينة جدها الرسول عليه الصلاة والسلام، تاركة من بعدها كلمةَ الحقِّ في كلِّ ما يقال فيها أو يُروَى عنها، أمانةً صعبة في حافظة الزمن الواعية، وضمير التاريخ المنصف الأمين.

والله سبحانه وتعالى وَلِيُّ التوفيق.

* * *

مصادر ومراجع

طبعات المصادر والمراجع

صحيح البخاري	الطبعة الاولى الشرقية بمصر ١٣٠٤ هـ
	الحلبي ١٣٧٥ هـ. ١٩٥٥ م
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان	الحلبي ١٣٦٨ - ١٩٤٩
السيرة النبوية ، رواية ابن هاشم	الحلبي ١٩٣٦
كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد	بريل ليدن ١٣٢٥
الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن	
عمر بن عبد البر	نهضة مصر بالفجالة ١٩٤٧
الروض الانف لابي القاسم السهيلي	الازهرية عن طبعة المولى حفيظ العلوى
الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ،	
شهاب الدين العسقلاني	الشرقية بالقاهرة ١٣٢٥ - ١٩٠٧
عيون الاثر في فنون المغازى والسير لابن	
سيد الناس ابي الفتح اليعمري	ط ثانية بيروت ١٩٧٤ م
المحبر لابي جعفر محمد بن حبيب	بيروت ، عن الآصعفية ١٣٦١ هـ
تاريخ الامم والملوك. للطبري ابي جعفر	
محمد بن جرير	الحسينية بالقاهرة
نسب قريش للمصعب الزبيري	اولى ، ذخائر
جمهرة انساب العرب لابن حزم	
العقد الثمين، في مناقب امهات المؤمنين	
للمحب الطبرى	حلب

وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى للسمهودي نور الدين	السعادة بالقاهرة ١٣٧٤ – ١٩٥٥
تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني	حيدر اباد ١٣٢٧ هـ
خلاصة تذهيب الكمال ، لصفي الدين الخزرجي	الخيرية ٣٢٢ هـ
جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري	اولى بولاق ١٣٢٩ هـ
تفسير الكشاف لابي القاسم الزمخشري	اولى التجارية ١٣٥٤ هـ
البحر المحيط لابن حيان الاندلسي المصري	اولى السعادة بالقاهرة ١٣٢٨ هـ
النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الاثير الجزري	الخيرية بالقاهرة

بعض المصادر والمراجع الاخرى

المصعب بن عبدالله الزبيري	نسب قريش – ط الذخائر
علي بن سعد بن حزم	جمهرة انساب العرب – الذخائر
الطبري	تاريخ الامم والملوك – ط مصر
ابن سعد	الطبقات الكبير
ابن الاثير	تاريخ كامل ط – مصر
ابو الفرج الاصبهاني	مقاتل الطالبين – ط الحلبي ١٩٤٩
ابو الفرج الاصبهاني	الاغاني ط دار الكتب والساسي
ابو علي القالي	الامالي – سمط اللآلي : ط لجنة التاليف
ابن خلكان	وفيات الاعيان – ط بولاق

ابن عبد البر	الاستيعاب في معرفة الاصحاب – ط نهضة مصر
ابن قتيبة	عيون الاخبار. ط – دار الكتب بالقاهرة
ابن كثير	البداية والنهاية ، هامش تاريخ الكامل
ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب – ط القدسي
الشيخ راضي آل ياسين	صلح الحسن – ط الزهراء ببغداد ١٩٥٣
السيد عبد الرزاق الموسوى	مقتل الحسين – ط النجف ١٣٧٦ هـ
السيد توفيق الفكيكي	السيدة سكينة – ط العراق
العبيدلي النسابه	السيدة زينب واخبار الزينبيات
عبد الوهاب الشعراني	طبقات الاولياء
المبرد :	الكامل بغية الآمل من كتاب الكامل
ديوان عمر بن ابي ربيعه	
الدكتور طه حسين	حديث الاربعاء – ط اولى
الاستاذ عبدالله العلايلي	اشعة من حياة الحسين
الدكتور زكي مبارك	حب ابن ابي ربيعه وشعره – ط اولى
دائرة المعارف الاسلامية	مادة سكينة

فهرست مجلد :

تراجم سيدات بيت النبوة